الحروب الصليبية مصادر ودراسات

# التاريخ الكنسي

تأليف الراهب النورماندي

أوردريك فيتالي



ترجمة: أ. د. سهيل زكار

التكوين


التاريخ الكنسي

❖ الكتاب : التاريخ الكنسي

❖ الكاتب : الراهب أورديك فيتالي

❖ ترجمة : أ.د. سهيل زكار





**للتأليف والترجمة والنشر**

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

taakwen@yahoo. com

ص . ب : 11418

تنويه : الأرقام المتسلسلة في الأعلى من أجل الإحالة على الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تأليف الراهب النورماندي

## أوردريك فيتالي

ت: ١١٤٣م






ترجمة: أ. د. سهيل زكّار



- ١٨١٨٥ -

بسم الله الرحمن الرحيم

## توطئة:

من يقوم باستعراض أسماء المؤرخين الأوربيين الغربيين الذين أسهموا في التأريخ للحروب الصليبية، يلاحظ أن معظمهم قد عاشوا في المشرق، وشاركوا، أو شاهدوا، أو عاصروا الأحداث التي كتبوا عنها، ودونوا أخبارها، وطبعاً كانوا جميعاً من رجال الكنيسة، وطبعت هذه المؤلفات اللاتينية ثم الفرنسية القديمة بطابع لاهوتي متميز من جميع الجوانب، وتوفر بالوقت نفسه بعض الذين عاشوا في أوربا، ولم يشاركوا بالحروب الصليبية، ولم يزوروا المشرق، وقد قام بعض الكهنة والرهبان من هؤلاء بتدوين بعض أخبار الحروب الصليبية في تواريخ عامة صنفوها، ولكتابات هؤلاء أهمية خاصة، لأنها حوت الكثير من المعلومات مما ليس موجوداً في كتابات الآخرين الذين عاشوا في المشرق.

وكانت الكنائس والأديرة في العصور الوسطى تستقطب الناس جميعاً، وبالطبع تردد على الكناس والديرة عدد كبير ممن شارك في بعض أحداث الحروب الصليبية ثم عاد إلى وطنه، وطبيعي قيام هؤلاء برواية مشاهداتهم على رجال الدين وسواهم، وأن يقوم رجال الدين بعد ذلك بتدوين ما سمعوه، لكن ليس وفق طرائق المسلمين الدقيقة باستخدام الأسانيد والمتون، يضاف إلى هذا أنه غالباً ما كانت تصل رسائل، وتقارير، ووثائق من عند المحتلين الصليبيين، وكان رجال الكنيسة يطلعون عليها كلها أو على بعضها، وكان لهذا الجانب مكانة كبيرة وأهمية قصوى.

يضاف إلى هذا أن المؤرخ الذي كتب داخل أوربا، غالباً ما أتى على ذكر أحداث الحروب الصليبية ضمن السياق العام لمجمل أحداث كل عام من الأعوام، وهذا يمكننا من التعرف على ردات فعل الغرب الأوربي على ما كان يجري من أحداث في المشرق، ومثل ذلك نتعرف في

الوقت نفسه إلى القضايا التي كانت تشغل الساسة ورجال الكنيسة في أوربا سواء أكانت داخلية أم خارجية، ونقدر انعكاساتها على مجمل الحركة الصليبية من جميع الجهات، فمعرفة الأجواء الأوربية قبل قيام الحروب الصليبية، وخلال قرنيها، ثم بعد ذلك له أهمية كبيرة خاصة.

هذا ويبدو أن عدداً كبيراً ممن شارك بالحملة الأولى قد رجع إلى أوربا، ورووا الذي شهدوه، وهكذا توفرت مواد غنية عن الحملة الأولى، ينبغي استخدامها من المؤرخين الباحثين في الحروب الصليبية، ويحتل اثنان أوربيان أولهما انكليزي- نورماندي، وثانيهما ألماني، مكان الصدارة بين المؤرخين الأوربيين الذين توفرت لديهم اهتمامات بتدوين ما اطلعوا عليه من أخبار وقائع الحروب الصليبية، خاصة الحملة الأولى، وهذان هما: أودريك فيتالي، وألبرت فون آخن.

وكنت منذ أعوام طوال سعيت نحو الحصول على ما كتبه هذان المؤرخان، واحتاج ذلك أكثر من عقدين، وتمكنت أولاً من الحصول على نسخة مصورة من تاريخ فيتالي، وأخيراً أيضاً على نسخة مصورة عن تاريخ ألبرت فون آخن، وصلا وأنا أعد العدة لدفع الجزء الأخير من الموسوعة إلى الطباعة، فاضطررت إلى الأخذ ببعض التعديل والتعجيل، وكنت قد حصلت بالوقت نفسه على مصدر عالي الأهمية صدر حديثاً ولم يكن موجوداً، أو بالحري متوفراً من قبل، هو مصدر دون مادته واحد من أتباع منظمة الداوية عاش فيما بين عكا، وصور، وقبرص، وقد عاصر معركة عين جالوت، كما كان شاهد عيان لنشاطات الظاهر بيبرس في بلاد الشام، وكليكية والأناضول، وفتحه لأنطاكية، وانتصاراته المدوية ضد المغول، والصليبيين، والأرمن، والقبارصة، كما شاهد فتح طرابلس من قبل المنصور قلاوون، وكان داخل عكا عندما حاصرها الأشرف خليل عام ١٢٩١، فعلى هذا قدم لنا أفضل رواية حول تصفية الوجود الصليبي في المشرق.

أما فيتـالي فقد ولد في انكلترا لأب نورمـاندي في عام ١٠٧٥م، ولأم انكليـزية، والتحق فيتالي وهو بالخامسـة من عمـره بالسلك اللاهوتي في كنيسة شروسبري، وعندما صار في سن العـاشرة أرسله أبوه إلى مقاطعة نورماندي، التي كانت إقطاعاً يديره الملوك الانكليز، والتحق فيتالي بدير القـديس إيفـرول Evroul ، ودخل في سلك الرهبـانيـــة، فتخلى عن اسمه الذي أطلقـه عليه والده ونال اسماً جـديداً هو الذي عرف به، ولم يعد فيتالي إلى انكلترا إلا مـرة واحدة ولمدة قصيرة فقط، وظل حياً حتى عام ١١٤٣ حيث مات في نورماندي.

وترجم فيتالي لنفسه في الكتاب الخامس من مصنفه «التاريخ الكنسي» Eulesiastical History ، الذي تألف من عـدة كتب، أوقف الكتاب الخامس منه على أحـــداث الحملة الأولى مع الذي عـــاصرها في أوربا الغربية، خاصة في انكلترا وفرنسا.

وقمت بترجمة هذا الكتـــاب( أي الخامس) وضممت إليـــه تاريخ الداوي، وأقوم الآن بطباعـة تاريخ ألبرت فون آخن، وفي الوقت نفسه أطبع الجزء الأخير من مجلـدات الموسـوعـة وأعمل بالـوقت ذاته على إعـــداد الفهـارس، والله المستعـــان، فله جل وعـــلا الحمـــد والشكر، والصـلاة والسـلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحـابه ومن أخـذ بهداه إلى يوم الدين.

**دمشق ٢٤ شعبان ١٤٢٦ هـ**

**٢٧- أيلول ٢٠٠٥م**

**ســـهيل زكـــار**

## الكتاب التاسع

## —١—

قضى الخالق السرمدي بحكمة وعقل بحدوث تغييرات موسمية وتاريخية، وهو لم يصغ ولم يغير الشؤون الإنسانية وفقاً لرغبة الإنسان الأحمق، بل كان يحفظهم بشكل صحيح، ويرقى بهم ويراقبهم بيده الجبارة، وبذراعه الرائع، ونحن نرى هذا بأعيننا في التناوب بين الشتاء والصيف، وهذا مثل ذلك نشعر به في البرد وفي الحر، ونشاهد هذا في النهوض وفي الانحدار لجميع الأشياء، ويمكننا أن نتفهم بشكل صحيح أعمال الرب الكثيرة والمتنوعة، وسببت هذه نشوء كثير من الروايات حول مختلف الأحداث، التي وقعت في العالم كل يوم، وتقدم مواد وافرة للمؤرخين المتعلمين لاستخدامها مطولاً، وبناء عليه، تأملت بعمق وتفكرت حول هذه الأشياء، وصرفت تفكيري نحو الكتابة حول الحركة الهائلة التي وقعت في أيامنا هذه، وتم الكشف عن موضوع شريف ورائع، وجرى عرضه ليقوم الكتاب بدراسته، فبإلهام رباني بدأت الحرب الصليبية من أجل القدس، فقد احتشد جمهور— بشكل عجيب— من كثير من الشعوب الغربية، واقتيد جيشاً واحداً ضد الكفار في الأقاليم الشرقية، فقد جرى تحرير صهيون المقدسة بوساطة أبنائها، الذين جاءوا عن طواعية وباختيارهم من مناطق نائية، لقهر الكفار الذين ظلموا المدينة المقدسة، ولوثوا بشكل غير عادل حرمة الرب، ذلك أن المسلمين الأشرار، تدفقوا— كعقوبة ربانية— على الحدود المسيحية، واستولوا على الأماكن المقدسة، وقتلوا السكان المسيحيين، ودنسوا بآثامهم الأشياء المقدسة وبكفرهم، لكن بعد سنين كثيرة عانوا بجدارة من العقاب الذي استحقوه بوساطة سيوف الشعوب الشمالية، ولا أعتقد أبداً أنه ليس هناك من موضوع رائع منح

لمؤرخي الحروب، أفضل من الذي قـدمه الرب في أيامنا إلى الشعـراء والكتـاب، عندمـا انتصر على الكفـار في الشرق، من خـلال جهـود مسيحيين قلة، حـركهم هو ودفعهم لمغـادرة أوطانهم، من خـلال تشوقهم العظيم للحج، وفي الحقيقة كرر رب إبراهيم الآن المعجزات الماضيـة، عندما ألهم المؤمنين في الغـرب، وأعطاهم رغبة نقيـة لرؤية ضريح المسيح، ودعـاهم من خـلال فم البـابا أوربان، من دون أي ضغط ملكي أو دنيـوي، من أقصى الأرض وجـزر البحـار، مثلما جـرى جلـب العبرانيين من مصر بوسـاطـة مـوسى، وذلك عنـدمـا اقتادهم بين شعـوب غريبة حتى فلسطين، وهناك قهر ملوكـاً وأمراء مع جيـوشهم الجبـارة المكونـة من أجناس كثيرة، وأقـامهم منتصرين على مدنهم المحصنة، وعلى حصونهم التي استولوا عليها.

فقد قام فولتشر أوف تشـارترز، قسيس غودفري دوق لوثرنجيا، والذي كان هو شخصياً قد شارك في متاعب وجهود هذه المخاطرة النبيلة، فكتب كتـاباً، جيـد المعلومـات، ومـوثوقـاً حـول أعمال الفـروسيـة الرائعـة التي باشرها جيش المسيـح، وصنف بودري Baudry رئيس أساقفة دول Dol أربعة كتب، وقد كتب بأسلوب ممتـاز، وحكى بصـدق وفصـاحـة الحكاية كلهـا منذ بداية الحج حتى المعركـة الأولى بعد الاستيلاء على القدس، وعـالج أيضاً هذا الموضـوع الجدير بالتذكـر عدد كبير آخـر من الكتاب الإغـريق واللاتين، وحفظوا أخبـار الأعمال المجيدة للأبطال بكتـابات لامعة من أجل الأجيال المقبلة.

وأنا أيضـاً، الأقل منزلة بين جميع الذين احترفوا الرهبنة، وتبعـوا الرب طوال حياتهم، ألهمت بأن أضـم أخبار هذه المغامـرة المسيحية من أجل الرب يسـوع في هذا الكتاب الصغير الذي بدأت بتصنيفـه حـول القضـايا الكنسيـة، لأنني أحب أبطال المسيح الشجعـان،

وأشعر بالمتعة في مدح أعمالهم الشجاعة، وأنا سوف أتجنب القيام بتدوين رواية كاملة حول هذا الحج في سبيل الخلاص والإنقاذ، ولا أتجرأ بأن أعد بإنجاز مثل هذا العمل المرهق، ومع ذلك إنني لا أعرف كيف سأمر بهذا الموضوع النبيل بصمت، فأنا معاق بالسن، حيث أنني الآن في الستين من عمري، وعلاوة على ذلك، أنا راهب نشأت منذ طفولتي وترعرعت داخل الدير، وإنني في المستقبل من الصعب أن أكون قادراً على تحمل المشاق الكبيرة للكتابة، وليس لدي نساخ يمكنهم تحضير خلاصات من موادي إليّ، ولذلك سارعت إلى الوصول بهذا العمل إلى نهايته، ولسوف أبدأ الآن بالكتاب التاسع، الذي إن منحني الرب القوة الضرورية سوف أبذل غاية جهدي لتدوين بعض أعمال الحجاج إلى القدس، بشكل صادق ومنظم:

في صحراء أدوم صرخت لك يا يسوع المبارك
أرجوك أيها الملك الناصري الجبار امنحني المساعدة
أعطني القوة كيما أعلن بشكل لائق عن القوة الرائعة
التي منحتها إلى عبيدك ودمرت بها العصاة المتمردين
فأنت قائد وحاكم شعبك وأنت ترسه في كل المخاطر
وأنت عماد شعبك والمانح للانتصارات
أيها الرب القدير أنا أعبدك
ولعونك وتفريجك أنا ألتمس
ملك الملوك ليكن الثناء والحمد
لك إلى أبد الآبدين —آمين.

—٢—

## هنا يبدأ الكتاب التاسع من التاريخ الكنسي

في عـام ١٠٩٤ لتجسيـد ربنا، في الإشـارة الثـانيـة، شغلت أعمال العصيـان كل جزء من أنحـاء العالم تقـريباً، وآذى الرجـال المتوحشـون بعضهم بعضـاً بشكل مخيف بالقتـل وبالنهب، واستعـرت كل أنواع الشرور دونما ضبط، فسببت اضطرابات لا تحصى، وأنـزلتهـا بعبيـد الشيطان، وحصل في ذلك الوقت جفـاف مخيف فأحـرق الزرع، ودمـر نباتات الحبوب والبقول، حيث ذبلت وتلاشت، مسببة مجاعة رهيبة.

وحارب الامبراطور هنري الكنيسة الرومانية، وقد قام ضده كثير من الصالحين، وبإرادة الرب تمت هزيمتـه، وعقد البابا أوربان الثـاني مجمعاً في بيـاسنزا Piacenza ، وبحكمـة أعـد العـدة وهيأ الأمـور من أجل إعادة السلام والحاجيات الأخرى للكنيسة المقدسة(١).

وفي عـام ١٠٩٥ لتجسيـد ربنا، وفي الإشـارة الثـالثـة، يوم الأربعـاء الرابع مـن نيسـان، الموافـق اليـوم الخامـس والعشرين حسب التقـويم القمري، شاهد عدد كبير من الفـرنسيين تساقط كثير من النجوم، وكان عدد النجـوم من الكثرة والكثافة بمكان أنها مـرت على شكل وابل كان مـدهشاً بضيـائـه، واعتقـد كثيرون ممن شاهد تسـاقط النجـوم على هذه الصورة، أن هذا ربما فيـه تحقيق لما جاء بالكتـابات المقدسـة، أن النجوم سوف تتساقط من السماء في بعض الأيام(٢).

وكان غيلبرت أسقف ليزي Lisieux ، الذي كان لاهوتياً متقدماً

---

١— عقـد مجمع بياسنـزا في الأسبوع الأول من آذار ١٠٩٥، واهتم بأمـرين أسـاسيين هما: إدانة المنشقين الذين أيدوا البابا المضاد، والإعلان عن بعض الإجراءات الإصلاحية، واستقبل أوربان هناك أيضاً سفـارة أرسلها ألكسيوس كومينوس للبحث في تجنيـد جيش له، ولربما جرى البحث في إنهاء الشقاق مع الكنيسة الشرقية.

٢— انظر انجيل متى: ٢٤ / ٢٩ .

بالسن، وكان بـارعاً في كثير من المواضيع، قد اعتـاد منذ زمن طويل على مراقبة النجوم في كل ليلة، وقـام كفلكي عالم بتتبع مساراتهم ومعاني ذلك ومؤشراته بكل دقة، وعندما شاهد هذا العالم ظاهرة النجوم دعا الحارس الذي كان يتـولى حراسة مقره، في حين كـان الآخرون نياماً قـائلاً: وولتر هل تشاهد هذه الأعجوبة»؟ فأجابه قـائلاً:« إنني أشاهد ذلك يا مولاي، لكنني لا أستطيع أن أقول ماذا تعني»، فقـال الرجل العجوز:« برأيي هذا يعني هجـرة كثير من الناس من مملكة إلى أخـرى، لأن كثيرين سـوف ينطلقون، لكنهم لن يعـودوا حتى تعود النجوم إلى أفلاكهـا، التي نشاهد الآن بوضوح تساقطها منهـا، وفي الحقيقة آخرون سوف يبقون في الأعلى، في مكان مقدس مثل نجوم مشعة في قبة السماء»، وبعد مدة طويلة أخبرني وولتر أوف كـورمل Cormeilles مـا سمعـه مـن شفتي اللاهوتي الحكيم حول اضطرابات النجوم، وذلك في الـوقت الذي حدث فيه ذلك الحدث العجيب.

وأبعـد فيليب ملك فـرنسـا بيرتريد Bertrade كـونتسه أنجـو، وطلق زوجتـه هذه النبيلة الأصل، وتـزوج بشكل مخجل من زانيـة، وذلك على الرغم من شجبـه من قبل أساقفـة فرنسـا، وإسبانيـا لحضور مجمع كبير يعقـد في كليرمـونـت، وهي بلدة في أوفـرين Auvergne ، عرفـت في العصور القديمـة باسم أرفيرن Arvernis ، وقد قوّم كثيراً من العـادات وصحههـا ممـا كـان يمارس في شمالي الألب، وأرسى كثيراً من الإصـلاحـات المفيـدة، وكـان عـدد الـذين حضروا مجمع كليرمونت ثلاثة عشر رئيس أساقفة ومائتين وخمسة وعشرين أسقفاً، مع أعـداد كبيرة من رؤساء الديرة وشخصيـات أخرى إليهم عهـد من قبل الرب رعاية كثير من الكنائس.

وكانت القوانين التي تبناها المجمع الذي انعقد في كليرمونت هي التالية:

سـوف تكون الكنيسـة كاثوليكيـة، خـالصـة، وحرة، كـاثوليكيـة في

العقيـدة، وبالصلة بالقديسين، نقيـة من أي أثر للشر، ومتحـررة من أية سيطرة مدنية.

ولســوف لن يتسلـم الأســاقفــة ورعــاة الديـرة وأي شخص من اللاهوتيين أي منصب لاهوتي من أيدي الحكام أو أي شخصيات مدنية أخـرى، ولن يشغل الكهنة أي وظيفة أو يحملون أي لقب في مـدينتين، أو كنيستين، ولن يكون أي واحـد أسقفـاً وراعي دير في الوقت نفسـه، وكل كـاهن، أو شماس أو نائب شماس، أو راهب من أي نظام رهباني، عليه الامتناع عـن الاتصالات الجنسية، ويمنع أي كـاهن أو شماس، أو نائب شماس مدان بجريمة الانحراف، عن تلاوة القداس بعد ذلك، ولا يجوز بيع المناصب اللاهوتيـة والرهبانية ولا شرائهـا من قبل أي واحد، ولسـوف يمنح العفـو فقط إلى الذين لا يعـرفـون سلطات القـوانين أو التحـريمات التي أصــدرتها، وينبغي عـزل الذيـن حصلوا على المناصب بالشراء، وأن يكون بمعرفة تامة من قبلهم أو من قبل أقربائهم.

ولا يجوز لأي رجل علماني تلقى رماداً في يوم أربعاء الرماد، أن يأكل لحماً حتى عيــد الفصح، ويمنـع كل كــاهن من أكـل اللحم من أحــد الخمسين حتى الفصح، وسوف يجري الاحتفال بصـوم يوم الجمرة دوماً في الأسبوع الأول من الصوم الكبير، وسوف يكـون النظام مفروضاً إما في مسـاء يوم السبت أو أثناء استمـرار الصـوم في يوم الأحـد، وفي يوم السبت المقـدس سوف يجري إغـلاق المكاتب فقط بعد غيـاب الشمس، وسوف يجري الاحتفاء بالصوم الثاني دوماً في أسبوع عيد العنصرة (عيد الحصـاد اليهودي)، ولسـوف يجري الأخـذ بهدنة الرب من عيد الميـلاد حتى الثامن من عيد الغطاس، ومن أحـد السبعين حتى اليوم الثامن من الفصح، ومن اليـوم الأول لعيـد الصعـود حتى اليـوم الثـامن من عيـد العنصرة، وفي جميع الأوقـات من غيـاب الشمس في يوم الأربعـاء حتى غياب الشمس في يوم الاثنين.

وأي واحد يمد يديه ضد أحد الأساقفة، سوف يعد خارجاً على القانون، وأي واحد يمد يديه ضد أي من الرهبان، أو الكهنة، أو الراهبات، وأصحابهم، أو يسلبهم سوف يجري حرمانه كنسياً، وأي واحد سوف يستولي على مقتنيات الأساقفة أو الكهنة عند موتهم، سوف يتم حرمانه كنسياً.

وإذا ما تزوج أي واحد حتى الدرجة السابعة من أقربائه سوف يحرم كنسياً، ولا يجوز انتخاب أي واحد أسقفاً، ما لم يكن كاهناً، أو شماساً أو نائب شماس، ومولود من زواج شرعي، باستثناء الضرورات العظمى وبوساطة ترخيص بابوي.

ولا يجوز ترقية أبناء الكهنة والخليلات إلى المرتبة الكهنوتية، ما لم يكونوا مارسوا أولاً احتراف حياة الرهبنة، وإذا ما التمس أي واحد الحماية في إحدى الكنائس أو عند صليب قائم على طرف الطريق، ينبغي تسليمه إلى العدالة، مع الحفاظ على حياته وأطرافه إذا ما أدين بأنه مجرم، وينبغي أن يمضي حراً إذا كان بريئاً، وجسد الرب ودمه سوف يجري تسلمه على انفراد، وكل كنيسة سوف تتسلم عشورها، ولن يجري منح حقوقهن من قبل أي واحد إلى أية كنيسة أخرى، ولا يجوز لأي رجل علماني بيع العشور أو الاستيلاء عليها، ويمنع طلب أي سعر محدد، أو إعطائه من أجل دفن الميت، ولا يحق لأي حاكم مدني أن يكون لديه قسيساً خاصاً به، إلا بموافقة الأسقف، وإذا ما أذنب القسيس بأي حال من الأحوال، سوف يجري عقابه من قبل الأسقف، أو من قبل أي واحد يحل محله.

وأعلن البابا أوربان عن هذه القوانين من أجل مراعاتها وتطبيقها، وفعل ذلك في مجمع كليرمونت، وضغط على جميع الرجال من جميع الرهبانيات، ونبههم إلى أن واجبهم يقضي بمراعاة قانون الرب وشريعته، ثم عرض بفصاحة صورة الوضع المحزن، وتقدم بالشكاية

حـول تدمير المسيحية في الشرق، ووصف الهزائم والمظالم الوحشيـة التي لحقت بـالمسيحيين على أيدي المسلمين، وبكـى عندمــــا أعلـم المجمع المقـدس بأحـوال الذل التي ألمت بالقـدس وبالأمـاكن المقـدسـة، حيث عاش ابن الرب فيها مضى بالجسـد مع حوارييـه المقدسين، وسبب ذلك بكاء كثيرين من مستمعيـه معـه، شفقــة على إخـوانهم وأبناء دينهم من المسيحيين، وبحكم أنه كان واعظاً فصيحاً، قدم قداساً وموعظة طويلة وملهمة إلى المجمع، وحث نبلاء الغرب ورجـالهم وأصحابهم على إقامة سـلام دائم فيها بينهم أنفسهم، وأن يضعوا شـارة الصليب المخلص على أكتافهم اليمنى، وبحكم أنهم كانوا سـادة مشهورين، عليهم البرهنة عن شجاعة فروسيتهم ضد الكفار.

فلقـد استـــولى الترك والفـرس، والعـرب، والمسلمين على أنطـاكيـة، ونيقيـة، والقـدس نفسهـا، التي تمجـدت بضريح المسيح، وقهـروا مـدناً أخـرى كثيرة مسكونة من قبل المسيحيين، وهم يقـومـون الآن بإرسـال جيـوشهم الجبـارة إلى داخل امبراطوريـة الإغـريق، وفلسطين وسـورية تحت حكمهم حيث أنهم قهـــروهما، فلقـد دمــروا الكنائس، وذبحـــوا المسيحيين مثل الأغنام، وعمـل المسلمـون اسطبــلات في الكنـائس من أجل دوابهم، وذلك حيث جـرت العـادة بـإقـامـة القـداسـات من قبل المؤمنين، وأقامـوا ممارساتهم الخرافية والكافـرة، ملحقين العار بنا، ذلك أنهم طردوا المتعبدين المسيحيين من البيـت المكرس للرب، فلقد سقطت الممتلكات المعطاة للإنفاق على حيـاة الرجال المقـدسين، ومعها ممتلكات الأعيـان المعينة لـلإنفـاق على الفقـراء، سقطت تحت الطغيــان الكافـر، والسادة الذين استولوا عليهم أساءوا استخدامهم بصورة وحشية، ولقد أخـذوا كثيراً من الأسرى إلى المنفى إلى مناطق نائيـة، وغلوهم بالحبـال، وأرغموهم على الخضـوع لنير العبودية، وأن يعملوا جـاهدين في زراعة الحقـول، وأن يجروا المحـاريث مثل الثيران، وأن يقومـوا بأعمال مجهـدة

أخرى هي لائقة بالحيوانات أكثر منها بالبشر، وعندما يتعرق إخواننا لدى قيامهم بمثل هذه الأعمال كانوا يضربونهم بالأسواط، وينخزونهم بالمهاميز، ولقد أخضعوهم إلى آلام مرعبة بطرق كثيرة متنوعة، ففي أفريقيا لوحدها جرى تدمير ست وتسعين أسقفية، كما جرى إخبارنا من قبل أناس قدموا من هناك.

وما أن توقف البابا أوربان عن صب هذه الشكوى في آذان المسيحيين، حتى غلب —بنعمة من الرب— شوق عظيم للحج على عدد لا يحصى من مستمعيه، إلى حد أنهم قرروا بيع أراضيهم، والتخلي عن كل شيء لديهم في سبيل المسيح، وبصورة إعجازية استولى العزم، إما بالذهاب إلى القدس، أو بمساعدة الآخرين الذين كانوا ذاهبين إلى هناك، وتحكم بالأغنياء وبالفقراء، وبالرجال وبالنساء، وبالرهبان والكهنة، وبسكان المدن وبالفلاحين سواء، وعمل الأزواج الترتيبات لترك زوجاتهم المحبوبات في الوطن، في حين قامت الزوجات، وهن يبكين، متشوقات برغبة عارمة، لترك أولادهن وجميع ثرواتهن خلفن، واللحاق بأزواجهن في حجهم، فكثير من الممتلكات العزيزة جرى بيعها بأسعار منخفضة، وتم شراء الأسلحة لتكون أدوات انتقام ربانية من المسلمين، ولامس روح القدس لصوصاً، وقراصنة، ومقترفي آثام، فتعالوا على جرائمهم، واعترفوا وتخلوا عن ذنوبهم، وانطلقوا للقيام بالحج، في سبيل القيام باستغفار مقبول من الرب.

وحث البابا الحكيم جميع القادرين على حمل ما يكفي من سلاح، على الزحف ضد أعداء الرب، وبإرادة من الرب حلل جميع التائبين من ذنوبهم من اللحظة التي حملوا فيها صليب المسيح، وبتقدير أبوي أعفاهم من جميع الواجبات بالصوم أو بكبح الجسد بطرق أخرى، ومثل هذا، وكطبيب حكيم أدرك تمام الإدراك بأن الذين انطلقوا للقيام بالحج سوف يعانون من كل نوع من أنواع المخاطر، في كل وقت تقريباً،

ولسوف يتعذبون يومياً بتقلبات الحظ، من جيد وسيء، وأنه خلال ذلك سوف يتطهر عبيد المسيح المتحمسين من جميع آثام ذنوبهم.

وعندما وعظ البابا بمثل هذه الفصاحة، في المجمع، وحث أبناء القدس على الانطلاق بشجاعة من أجل إنقاذ أمهم المقدسة، وقف رجل صاحب احترام كبير، وهو أدهمر أسقف لى بوي، واقترب من البابا، وجثا أمامه، وسأل أن يأذن له بالذهاب، ويباركه، وقد استقبله وسط هتافات عامة، وبالإضافة إلى ذلك أعلن البابا عن أمر قضى بأن يطيعه الجميع، وعينه نائباً بابوياً في جيش الرب. ولقد كان بالحقيقة رجلاً من أصل رفيع، وعظيم الشجاعة، وصاحب نشاط متميز.

ووصل على الفور رسل من عند ريموند بيرينغر كونت طولوز، وقد أخبروا البابا بأنه هو وألف من دوقيته سوف يلتحقون بالحملة، وذكروا في المجمع بأنه هو شخصياً قد حمل الصليب، وهكذا حمداً للرب، لقد قام اثنان من القادة المسيحيين بأخذ الطريق والارتحال، وقدما نفسيهما على الفور وبسرور، وهكذا اتحدت أيدي القوى الروحية والدنيوية، أي رجال الدين والعلمانيين، من أجل قيادة جيوش الرب، وقد مثل الأسقف والكونت بالنسبة لنا موسى وهارون، اللذان اتحدا متساويين بعون الرب.

وفي العاشر من شباط كان هناك خسوف للقمر من منتصف الليل حتى الفجر، وانتشر الظلام فوق القمر من الجهة الشمالية.

—٣—

وكان أودو أسقف بايو Bayeux ، وغيلبرت أوف إفري Ever-ux وسيرلو أوف سيز Seez حاضرين في المجمع في كليرمونت، مع رسل من عند الأساقفة النورمان، قد جلبوا رسائل اعتذار، وعندما عادوا مع المباركة البابوية حملوا رسائل من المجمع إلى أساقفتهم، ونتيجة لذلك دعا رئيس الأساقفة وليم إلى عقد مجمع في روان Rouen ،

للبحث في حاجات الكنيسة مع أساقفته المساعدين، واجتمع الجميع في روان في شباط، ودرسوا معاً قوانين المجمع الذي عقد في كليرمونت، وأيدوا المراسيم البابوية، وأصدروا هذه الوثيقة، بمثابة سجل دائم:

« يرسم المجمع المقدس بوجوب مراعاة هدنة الرب بكل دقة من أحد السبعين حتى يوم الاثنين بعد ثمانية عيد العنصرة، ومن غروب الشمس في يوم الأربعاء قبل الميلاد حتى الثامن من عيد الغطاس، وفي كل أسبوع خلال السنة من غروب الشمس في يوم الأربعاء حتى فجر يوم الاثنين، وخلال جميع أعياد القديسة مريم مع سهراتهم، وجميع أعياد الرسل مع سهراتهم، وبذلك ما من إنسان سوف يقاتل، أو يجرح أو يقتل آخر، وما من أحد سوف يقوم بالحجز أو النهب.

ورسموا أيضاً بأن تكون جميع الكنائس مع الساحات التابعة لهن، وجميع الرهبان، والكهنة والراهبات، والنساء والحجاج، والتجار وآلهم وبيوتهم، والثيران، والخيول في الفلاحة، والرجال الذين يقودون المحاريث والرجال الذين يسلبون، والخيول التي يسلبون عليها، والرجال الذين يلتجؤون إلى المحراث، وأراضي جميع البيوت الدينية، وأموال رجال الدين، أن يكون هذا كله بسلام في جميع الأوقات، وبذلك لا يجوز لأي إنسان أن يلجأ إلى الحرب للاستيلاء عليهم، أو ليسرقهم، أو يؤذيهم بأية طريقة من الطرق.

ورسموا أيضاً أن على جميع الرجال من الثانية عشرة من العمر فصاعداً، عليهم أن يقسموا على الالتزام بهدنة الرب المؤسسة بشكل كامل، حسبما صدر الأمر هنا، وأن تكون صيغة القسم هي التالية:

أنت عليك الآن أن تسمع هذا: بأنني سوف ألتزم بإخلاص بهدنة الرب المؤسسة، حسبما صدر الأمر ها هنا، وذلك من هذا الوقت

---

١ — كان اليمين يؤدى فوق بعض الآثار المقدسة.

فصاعداً، ولسوف أقدم مساعدتي إلى أي أسقف أو شماس ضد جميع الذين يرفضون أداء هذا اليمين، أو الالتزام بهذه الهدنة المؤسسة، بطريقة أنني لو دعيت ضدهم، لن أتجنب الدعوة ولن أهملها، بل سوف أحمل السلاح، وأمضي وأقدم العون إلى جميع الذين يمكن أن أكون ضدهم، بإيماني ومن دون أية ذريعة، تماشياً مع ضميري، وهكذا أعني يارب، ويا هؤلاء القديسين(١).

وعلاوة على ذلك رسم المجمع المقدس بأنه سوف يجري حرمان جميع الذين يرفضون أداء هذا القسم، أو الذين يخرقون هذه الهدنة المؤسسة، والإعلان عن ذلك، ومثل ذلك يعاقب جميع الذين سوف يكون لهم اتصال بهم، أو يشترون بضائعهم، سواء أكانوا حرفيين، أو موظفين رسميين آخرين أو كهنة يستقبلونهم في القداسات، أو يقيمون قداسات خاصة لهم، والحرمان نفسه سوف ينزل بالمزورين وقطاع الطرق، والذين يشترون أسلابهم، وبجميع الذين يحتشدون في بعض القلاع من أجل النهب، وينزل على السادة الذين يحتفظون بمثل هؤلاء الرجال في قلاعهم في المستقبل، وبوساطة السلطة البابوية، وكذلك بوساطة سلطتنا نحرم على أي موظف مسيحي أن يعمل في أراضي مثل هؤلاء السادة.

ورسم المجمع المقدس أيضاً بأن تتمتع جميع الكنائس بامتلاك سلعها وفق الطريقة نفسها التي كانت عليه أيام الملك وليم، ووفق التقاليد نفسها، وأن ما من رجل علماني سوف تكون له أية حصة في جزء الثلث من العشر، أو من رسوم الدفن، أو من قرابين المذبح، وألا يطلب أية خدمة أو رسم منهم غير الذي كان مقرراً في أيام الملك وليم.

ورسم أيضاً بأن لا يقوم أي رجل علماني بتعيين كاهن في كنيسة أو انتزاعها منه من دون موافقة الأسقف، أو أن يبيعها أو يتسلم أي مال من أجل تحويلها، وأيضاً لا يجوز أن يربي أي رجل شعره ويجعله

طويلاً، وعوضاً عن ذلك عليه أن يقصه حسبما يليق بالمسيحي، وإن لم يفعل ذلك، فهو سوف يمنع من تجاوز عتبة الكنيسة الأم المقدسة، ولسوف لن يقدم له أي كاهن قداس إلهي، أو يشرف رسمياً على دفنه، ولا يجوز لأي علماني الاستحواذ على مكوس أسقفية، أو الإشراف والحكم المتعلق بشفاء النفوس.

ولا يجوز لأي كاهن تقديم الولاء إلى علماني، لأنه من غير اللائق أن يجري وضع أيدي تكرست للرب وتقدست بالزيت المقدس، بين أيدي غير مكرسة، ربما قد تكون عائدة إلى قاتل أو زاني أو مجرم مقترف لذنب شنيع آخر، ولكن إذا كان بين يدي كاهن إقطاع علماني وليس عائداً إلى الكنيسة، يمكن لهذا الكاهن أن يقدم الولاء بطريقة يكون مولاه فيها سليماً».

وأعلن غيلبرت أسقف إيفري« الذي لقبه الكركي بسبب طوله» وفولبرت رئيس شمامسة روان، على الناس المراسيم الصادرة عن المجمع، وقام رئيس الأساقفة وليم مع الأساقفة الآخرين بتأكيدهم بوساطة سلطاتهم، وعلاوة على ذلك قام أودو أوف بايو bayecux ، وغيلبرت أوف ليزي Lisieux ، وتوغيز أوف أفرانش Avronches ، وسيرلو أوف سيز، ورالف أوف كوتانس Coutances بتقديم تأييدهم للمجمع، وفي الوقت نفسه كان رعاة ديرة جميع المنطقة مع رجال الدين وقسم من النبلاء قلقين من أجل السلام، ولذلك كانوا حاضرين في المجمع، وفي الحقيقة عمل الأساقفة شرائع سليمة مع أفضل النوايا، لكن لأن الدوق أخفق في فرض العدالة، جلبوا قليلاً من الزيادة في سبيل سلام الكنيسة، وعليه فإن الذي رسموه وقتها- كما جرى تسجيله هنا- بقي تقريباً من دون تأثير بين أعيان نورماندي، وبقيت هناك إثارة كبيرة للشر في جميع أرجاء البلاد، فقد كان قانون القوي هو السرقة والاغتصاب والنهب، ولذلك كانت البلاد كلها مدمرة بالنار والنهب، مما دفع كثيراً من السكان

إلى الجلاء، فتدمرت أسقفيات بكاملها، وهجرت كنائس، وهرب الكهنة.

والنورمـان شعب غير مـدجن، فهـم مـا لم يتم وضعهم تحت الضبط من قبل حـاكم شديد، هـم جميعاً جـاهزين لاقتراف الشرور، ففي جميع المجتمعـات، وحيثما يكونوا موجـودين يبـذلون قصارى جهـودهم لأن يحكمـوا، وغالبـاً مـا يصبحون أعـداء للصـدق والإخلاص من خـلال حرارة طموحاتهم، فهذا كثيراً ما عانى منه وجربه الفرنسيون، البريتانيين والفلمنكيين وجيرانهم الآخـــرين، وعـــانى مـن هذا الإيطاليـــون واللومبارديون، والأنكلو-سكسون إلى حد الدمار.

ولقـد قيل بأن أصل الطـروادیين كـان من الجنس السيـزي scyth- ians العنيف، فبعـد نهب طروادة، سافـر أنتينور الفريجي إلى منطقـة إيلليريا Illyria ، حيث بقي لمدة طويلة هو وأتباعــه المنفيين يبحثون بالطول والعـــرض عن مكان ليعيشـوا به، واستقـــر أخيراً على شـاطىء المحيط في الشمال، واستـولى على الأراضي السـاحلية لنفسـه ولأصحـابه معـــه وذريتهم، ومـن ابنه دانوس Danus أخـذ هــــذا الشعب الطروادي الأصل اسم الدانيين Danes ، فهم منذ البـداية قسـاة، وشعب محب للحـرب، وقد حكموا من قبـل ملوك أشداء أقويـاء، وقد رفضوا عقيدة المسيح وقـاوموها لمدة طويلة من الزمن، وقد كـان القائد رولو Rollo الجبار مع النورمان من هذا الجنس، وقد استولوا أولاً على نوستريا، التي تعـرف الآن باسم نـورمـاندي، اشتقـاقـاً من اسم النورمان، لأن باللغة الانكليزية معنى كلمة (aquilo) هو «الشمال» ومعنى (homo) «إنسـان»، وعلى هذا إن معنى نـورمـان«رجل من الشمال»، وتبرهن على أن قســوته الجريئة قــاتلة بالنسبـــة إلى جيرانه الناعمين، مثلما تفعل الريح الشماليــة الحادة مع الوردات الصغـار، لأنه حتى الآن القسوة الطبيعيـة وحب القتال للقتـال موجـودان معاً في هذا الشعب، ولذلك لا يمكّن النورمانديون شعب البلاد والموظفين المسالمين

من العيش بهدوء في بيوتهم.

فمنذ أيام رولو حكم دوقات أشداء النورمانديين المحبين للحرب، منهم: وليم صاحب السيف الطويل، ورتشارد الأول، ورتشارد الثاني ابن غونور Gunnor ، وابنيه رتشارد الشاب، وروبرت المقدسي، ووليم باسترد( النغل)، فقد تفوق هذا الأخير، الذي عاش منذ وقت قريب، على أسلافه بالشجاعة والعظمة، وعندما كان على فراش الموت ترك دوقيه نورماندي إلى روبرت، ومملكة انكلترا إلى وليم، لكن روبرت كان دوقاً ضعيفاً، وكان متخلفاً كثيراً عن قدرات أجداده، وقد غرق في الكسل والشهوات، وخاف من أتباعه في الدوقية أكثر من خوفهم منه، ونتيجة لذلك انتشر اضطراب مخيف في جميع أرجاء الدوقية، وكان هنري، أخو الدوق، مستحوذاً على القلعة الحصينة في دومفرونت Domfront ، وقد حصل على السلطة على جزء كبير من نورماندي، إما بالنفوذ أو بالسلاح، وهكذا فإنه ساعد أخاه فقط بقدر ما رغب أن يفعل ذلك، وبالإضافة إلى هذا فإن أخاه الآخر، الذي كان متوجاً في انكلترا، استحوذ— حسب تقديراتي— على أكثر من عشرين قلعة في نورماندي، حيث احتفظ بتأييد النبلاء الأقوياء وقادة القلاع بالأعطيات أو بالتهديدات، وقدم روبرت كونت إيو Eu وستيفن كونت أوميل Aumale ، وجيرارد أوف غورني Gournay ، ورالف أوف كوشي Conches ، وكذلك روبرت كونت مولان Meulan ، ووولتر غيفارد Giffard ، وفيليب أوف بروزي briouze ورتشارد أوف كورسي courcy ، وكثير من الآخرين، مع جميع حاميات القلاع وقادتها، قدموا الخدمة إلى الملك، ومنحوه ولاءهم، وأيدوه بكل قواهم، وذلك خوفاً منه، وهكذا اضطربت نورماندي بشكل بائس، بسبب الحروب الثأرية لأبنائها، وتم حرمان السكان التعساء من أية حماية.

وأخيراً قام الدوق روبرت، وقد استبد به اليأس أمام هذا الوضع

المأساوي، وخشية منه لحدوث الأسوأ، بما أن كل واحد قد تخلى عنه وهجره، فقرر بناء على نصيحة بعض رجال الدين التخلي عن إدارة دوقيته إلى أخيه، وأخذ هو شخصياً الصليب، للذهاب إلى الحج إلى القدس، ليقوم بالتكفير عن ذنوبه، وعندما سمع ملك انكلترا بهذا، غمره الفرح، وقدم تأييده وموافقته القلبية، وقد تسلم نورماندي حتى يحتفظ بها لمدة خمسة أعوام، وزود أخاه بعشرة آلاف مارك من الفضة حتى يمكنه من الانطلاق للقيام بصليبيته.

— ٤ —

وعقد البابا أوربان مجمعاً ثانياً في تور، أثناء الصوم الكبير التالي، وأكد العمل الذي تقرر في كليرمونت، وفي وسط أيام الصوم الكبير كرس الكنيسة الديرية للقديس نيقولا أنغر Angers ، وشرفها بامتيازات بابوية، وأسهم بصوته وبسلطته لضمان إطلاق سراح غيوفري مارتل، كونت أنجو، وإخراجه من السجن، الذي أودعه فيه أخوه الأصغر، وتابعه الإقطاعي فولك ريشن Rechin ، الذي كان قد اعتقله غدراً، وجرده من كونتيته، وأبقاه مسجوناً في زنزانة قلعة شينون Chinon لمدة تقارب الثلاثين عاماً.

وفي عام ١٠٩٦ لتجسيد ربنا، في العلامة الرابعة، في شهر آذار، انطلق نحو الحج بطرس أوف آشر Acheres ، وهو قد كان راهباً مشهوراً كثيراً بتبشيره وكرمه، وقد اصطحب معه ولتر أوف بوسي Poissy مع أقربائه: وولترسان— أفوير Avoir ، ووليم، وسمعان، ومتى مع آخرين من مشاهير الفرسان الفرنسيين، والرجالة، وصل تعدادهم إلى حوالي الخمسة عشر ألفاً، وقد وصل إلى كولون في سبت عيد الفصح[ ١٢— نيسان ١٠٩٦]، وبقي هناك مدة الأسبوع المقدس، دون التوقف عن أداء عمله الصالح، حيث وعظ بين الألمان، فربح منهم خمسة عشر ألفاً إلى جانب قضية الرب، والتحق به اثنان من

الكونتـات الكبار اسميهما بيرتولـد، وهيلدابيرت، وأسقف واحد، وقـد سافـروا معه على طريق الحج خـلال ألمانيا وهنغـاريا، وفي الوقت الذي بقي فيـه بطرس في كولون يبشر بكلمـة الرب ليجذب التأييـد، وليجند أتبـاعاً جـدداً، رفض الفـرنسيون المتكبرون انتظاره، وركبـوا الطريق في هنغاريا، وكان كـولومان Coloman ملك المجر ودوداً نحوهم، وعمل التجهيـزات اللازمـة التي احتـاجـوا إليهـا في بلاده، وعبروا من هناك الدانوب، وسـافروا خـلال بلغاريا إلى كبـدوكيه، وقـد وصلوا إلى هناك أولاً، والتحق بهم الألمان فيما بعد، حيث لحقوا بهم مع بطرس.

وانتشرت أخبار الأوامـر البابوية بسرعة، وعمـت جميع الدنيا، وأثارت الناس من جميع الأمم، الـذين قـدر لهم الالتحـاق بجيش المسيح القـدير، ولقد كان صوتاً له دوي عظيم، لم يخفق في الوصول إلى انكلترا، وإلى جزر المحيط الأخرى، مع أن عمق قعر البحر فصلهم عن بقية العالم، وانتشرت الأخبار في كل مكان آخر بسرعة، فسببت النهوض وحمل السلاح والعمل من قبل البريتـانيين والغـاسكونيين، ورجـال من غـاليشيـا النائيـة، ومن البنادقـة أيضـاً، والبيـازنة والجنويين، والآخـريـن الذين سكنوا شـواطىء المحيط، أو البحر المتوسط، وأظلمت المياه بالسفن، التي شقت طريقها بين الأمواج وهي محملـة بالسلاح والرجـال، وبأسلحة الحصار، وبـالمؤن، أما الذين سافروا عبر البر فقد غطوا وجه الأرض كلها مثل الجراد.

وفي تموز مات وولتر بـوسي في فيلبه في بلغاريـا، وبعد موتـه ظهرت عـلامة الصليـب على جسده، وعندمـا سمع دوق المدينة وأسقفهـا بهذه المعجـزة، خرجـوا من أبواب المدينة، وبصحبتهم جميع السكان، وجـرى حمل جسـد وولتر بكـل توقير إلى داخل المدينة، وهنـاك دفنوه، وعقب ذلك سمحـوا للصليبيين الآخـرين بالـدخـول إلى المدينة، وشراء الإمدادات التي كانت بالنسبة لهم محرمة.

وفي ذلك العـام ترك الكونـت هيـوج الكبير أوف كـربي Crepy

أراضيه إلى ابنيه رالف وهنري، وأعطى ابنته إيزابل إلى روبرت كونت مولان Meulan ، وانطلق في سبيل صليبيته على رأس جيش نبيل من الفرنسيين، ثم حمل ستيفن كونت بليوس، وابن ثيوبولد كونت أوف تشارترز، وختن وليم ملك انكلترا، الصليب، وأقلع في حملته الصليبية، وقام كونتات آخرون من كبار الإقطاعيين منهم: غي تراوسل Trous-sel ، حفيد غي كونت شاتوفورت chateaufort ، ومايل أوف بري Miles of Bray ، وستول أوف بيرن Centule of Bearn ، ورالف أوف بوغنسي Beaugency ، وإيفارد أوف لي بوسي Evard of le puiset ، ووليم الكاربنتر( النجار) ودروغو أوف موخي Drogo of mouchy ، مع كثير من الأعيان الآخرين والفرسان المشهورين بصحبة كثير من العساكر الفرنسيين، قاموا بالانطلاق، وركبوا الطريق للحج في سبيل محبة المسيح.

وذهب بطرس الناسك على رأس جيش مع كثير من الألمان والفرنسيين، ووصل إلى المدينة الامبراطورية، فوجد هناك كثيراً من اللومبارديين من شمالي إيطاليا وجنوبها، وكذلك ألمانيين، كانوا قد سبقوه، وكانوا- بإذن من الامبراطور- يعدون الإمدادات من أجل الجيش المقترب وصوله، فقد أمر الامبراطور بأن يحصلوا على حق شراء الإمدادات، وفقاً لعادات المدينة وأعرافها، وأمر أيضاً بأن لا يعبر أحداً المضيق- الذي اسمه البوسفور- حتى يكون الجزء الأعظم من الجيش المقبل قد وصل، وقال:« إنكم إذا تصرفتم بطريقة مخالفة، فإن الوثنيين الأشداء سوف يهاجمونكم ويبيدون هذا الحشد من غير المقاتلين»، وهذا قد وقع بالفعل فيما بعد، لأن الناس الذين كانوا هناك كانوا من دون إدارة وقيادة، حيث أنهم احتشدوا من مناطق متنوعة وعاشوا من دون نظام، وكانوا يعملون بالنهب بجشع، ويستولون على ممتلكات الناس الآخرين، ويسلبون كل شيء حتى أنهم كانوا يبيعون الرصاص الذي

غطيت به الكنائس، ولقد دمروا الأماكن، وتصرفوا في كل مجال من دون احترام للشريعة، وعندما علم الامبراطور بأن سوء السلوك هذا ليس له حدود، ولأنه وجد بأنهم أساءوا استخدام كرمه، قام لذلك بإرغامهم على مغادرة المدينة وعبور المضيق، وبعد وصولهم إلى الطرف الآخر اقترفوا كثيراً من الجرائم ضد المسيحيين، وعاملوهم مثل معاملة الأعداء فنهبوا أراضيهم وأحرقوا بيوتهم وكنائسهم، ووصلوا أخيراً إلى نيقوميديا [ حوالي ١٠— آب ١٠٩٦] ، وهناك انفصل الإيطاليون والشعوب الأخرى عن الفرنسيين، الذين كانوا أكثر حدة وعناداً، ولذلك كانوا أكثر تلوثاً باقتراف الجريمة، واختار الآخرون رينالد بمثابة قائد لهم، ودخلوا تحت قيادته إلى إقليم الروم.

وتقدموا زاحفين لمدة أربعة أيام بعد نيقية، ودخلوا إلى قلعة اكسريغوردون Xerigordon(1) حيث توقفوا للاستراحة والحصول على النقاهة، وكانت القلعة مشحونة بالمؤن من جميع الأنواع، وليس من المعروف بشكل مؤكد، فيما إذا كانت هجرت من قبل سكانها خوفاً، أو أن ذلك جاء وفق خطة مرسومة من قبل، وجرى تطويق الألمان هناك من قبل الأتراك، وأبيدوا كلهم تقريباً، حسبما سيظهر في الصفحات التالية.

وفي أيلول سلم روبرت دوق النورمانديين نورماندي إلى الملك وليم، وبعدما تسلم منه عشرة آلاف مارك من الفضة، انطلق للقيام بحملته الصليبية على رأس جيش جبار من الفرسان وجنود المشاة، وذهب معه خاله(عمه) أو دو أسقف بايو Bayeu ، وفيليب الكاهن ابن الكونت روجر [أوف مونتغومري Montgomery] ، وروترو بن غيوفري كونت مورتغن Mortagne ووولتر كونت أوف

---

١— هي ربما اسكي— قلعة، والذين دخلوها كانوا من الإيطاليين والألمان، وكان ذلك في حوالي ٢٤— ايلول.

سينت- فالري Saint- Valery ، الذي كان حفيداً لرتشارد الثالث دوق نورماندي من خلال ابنته بابيا Papia ، وكذلك جيرارد أوف غورني Gournay ورالف البريتاني أوف غيل Gael وهيو أوف سينت بول Pol ، وإيفو Ivo وايوبري Aubrey ولدي هيو أوف غراند ميسنيل Grandmesnil وكثير من الآخرين من الفرسان الشجعان.

وبالإضافة إلى هؤلاء قام غودفري دوق لوثرنجيا مع أخويه بلدوين ويوستاس، كونت بولون، وبلدوين كونت أوف مونز Mons [كونت هينولت Hainault] ، وروبرت مركيز فلاندرز، الذي كان حفيد ماتيلدا ملكة انكلترا، ورينالد الألماني [ربما كونت تول Toul], مع آلاف كثيرة من الرجال المسلحين، قاموا جميعاً بالتخلي عن ممتلكاتهم من أجل حب المسيح، وذهبوا بسرور نحو المنفى لطرد الوثنيين وإنقاذ المسيحيين، وقد سافروا خلال هنغاريا مع عساكرهم، وعبر أدهمر أسقف لي بوي، وريموند أوف طولوز، معاً وفق نظام جيد، خلال دلماشيا، وجرى استقبالهما بشكل جيد من قبل الأمير الصربي بودين Bodin .

وعبر روبرت النورماندي، وزوج أخته ستيفن أوف بليوس Blois ، مع هيو الكبير [ كونت فير ماندويوس، الأخ الصغير لفيليب الأول ملك فرنسا]، وروبرت أوف فلاندرز، مع كثيرين آخرين، الألب، ودخلوا إلى إيطاليا، وارتحلوا خلال روما بسلام، وأمضوا الشتاء في أبوليا وكالبيرا، ورحب الدوق روجر بورسا Borsa بدوق نورماندي مع أصحابه، وكأنه مولاه الطبيعي، وجهزه بكرم بكل الذي احتاج إليه.

ويلاحظ أن بوهيموند، كان آنذاك يحاصر حصناً [ربما برج بونتي دي سكافاتي Ponte di scafati الذي تابعاً لدوقية أمالفي]، وكان معه عمه[ خاله] روجر صاحب صقلية، وعندما سمع بحركة القادة مع أعداد كبيرة من الناس، سأل على الفور عن سمات مختلف

الرجـال وعن رنوكهم، وبعـدمـا تفحص ذلك بعناية، أمـر بجلب رداء ثمين جداً له، فقطعه إلى أشرطة، وناول صليباً إلى كل واحد من رجاله، واحتفظ بواحد لنفسـه، وعلى الفور تجمع حوله عدد كبر من الفـرسان، وترك روجر العجوز تقريباً لوحده لمتـابعة الحصار، فرجع إلى صقلية مع عدد صغير من الـرجال، وهو يندب حظه لأنه فقـد جيشه، وبحكم أن بوهيموند، كان حكيماً ومجرباً، فقد خطط بـإتقان من أجل طريقه، وأعد وسائل المواصلات، فعبر البحر مع أعيان رجاله وقوة كبيرة من الرجال المسلحين، ورسا أخيراً، بعد عبور هادىء، على شـواطىء بلغاريا، وكان كبار أصحابه هم الرجال التالين:

تانكرد بن أودو بونوس Odebonus مركيز وكونت روسيغنولو Roscignolo مع إخوته، ورتشارد من الإمارة مع أخيه رانولف Ranulf ، وروبرت أوف أنزي Anzi ، وروبرت سـوردیفـال Sourdeval ، وروبرت بن ثورستان Thurstan ، وهيرمان أوف كاني Herman of canne وهمفري بن رالف، ورتشارد ابن كونت رانولف Ranulf ، وبارثلميو بويل Boel أوف تشارترز، وأيوبـري أوف كـاغنونـو Cagnono ، وهمفري أوف مونتسكا غليوسو Montescaglioso، وقد قام هؤلاء جميعـاً مع أتباعهم باتبـاع بوهيموند، وكأنهم رجـل واحد، وأقسمـوا أنهم سوف يطيعـونه بإخلاص ولن يتركوه في الحملة الصليبية.

وأقلع هيو الكبير ووليم ابن المركيز على الفور من مرسى باري، وأبحر إلى دورازو، وسمع حـاكم المدينة بـوصـول هـذين السيـدين الكبيرين، فاعتقلهما على الفـور، وأرسلهما تحت الاعتقال إلى امبراطـور القسطنطينية، وأمل الحاكم الخنوع بطاعتـه الغـادرة هذه أن ينال حظوة الامبراطور، وأن يكون قد عبر عن إخلاصه نحوه ببرهان من هذا النوع.

—٥—

وعندما سمع قلج أرسلان— حاكم الأتراك— بهجوم الصليبيين على الكفار، حشد قواته في جيشه الكبير، وألقى الحصار على قلعة اكسريغور دون، حيث كان الألمان، وبسرعة طوق الأتراك البلدة، وانقضوا على رينالد، الذي كان قد اقتاد رجاله، عازماً على الإعداد لكمين قبل وصولهم، وأرغم الصليبيين على الفرار، وكان كثير منهم طعمة للسيف في ذلك اليوم، والذين تمكنوا من الفرار التجأوا إلى القلعة، حيث حاصرهم الأعداء على الفور، وقطع عنهم إمدادات الماء، من النبع ومن البئر اللذان كانت القلعة تتزود منهما بالماء، حيث كانا خارج القلعة، وقامت وحدة من الأتراك بحصار الذين في القلعة وأداموا الحراسة ليلاً ونهاراً، وتحمل المحاصرون بألم عظيم العطش لمدة ثمانية أيام، لكنهم عوقبوا للحشد الهائل من الآثام التي اقترفوها، ولقسوة قلوبهم، ولذلك لم يحظوا بأي عون من الرب، وأخيراً تفاوض قائدهم مع الأتراك ووافق على خيانة رفاقه بتسليمهم لهم إذا ما تمكن، وهكذا تظاهر رينالد بأنه خارج إلى القتال، وركب خارجاً مع كثير من أتباعه، والتحق بالأتراك، وترك الآخرين لمصير الاستسلام المهين، وبيأس اقترفوا جرم الكفر والردة ضد الرب، أما بالنسبة للذين ثابروا على الثبات في إيمانهم، فقد قطعت رؤوسهم، أو جعلوا أهدافاً لرمات سهامهم، أو جرى توزيعهم لبيعهم بأدنى الأسعار، أو اقتيدوا إلى حياة الأسر مع كونت بيرتولد، وعانى الصليبيون من هذه الفاجعة الأولى في التاسع والعشرين من أيلول، ووفق هذه الطريقة جرى حمل الألمان أسرى إلى خراسان أو إلى حلب، ولكن الذين وقفوا ثابتين متمسكين بإيمانهم بالمسيح، فقد ماتوا ميتة مجيدة.

وفي الوقت نفسه تقدم الفرنجة مسافة كبيرة، ودخلوا إلى مدينة سيفيتوت Civetot ، التي كان الامبراطور ألكسيوس قد شرع

بنائها حديثاً، عازماً على العهدة بها إلى الانكليز الذين هربوا من وجه وليم النغل وحضوره، لكنه قد منع من قبل الأتراك من إكمالها، وبعدما لحقت الهزيمة بالألمان والإيطاليين فرح قلج أرسلان، وطالما أنه حصل على النصر، وصل إلى سيفيتوت التي كانت على مقربة من نيقية، وقام مع جيشه المتعطش كثيراً إلى الدماء بحملة شديدة على الفرنجة، وفي هذا الوقت كان بطرس قد عاد إلى القسطنطينية لأن قواته رفضت طاعته، ووصل الأتراك القساة من دون سابق إنذار، وهاجموا الفارس النبيل وولتر الذي كان قائد الفرسان، وحملوا عليه وعلى رفاقه بالسلاح، حيث وجدوهم غير مستعدين، وبسهولة قتلوه مع كثيرين آخرين، وجرحوا أخاه وليم مع عدد من الآخرين، وقطعوا أثناء هذا الاشتباك رأس كاهن للرب وهو يؤدي بتواضع قداسه، وهرب الذين تمكنوا من النجاه أحياء إلى المدينة، أو أنهم اختبأوا في آجام القصب، أو في الأحراش أو في الجبال، وقتل القلة الذين شغلوا القلعة للدفاع عن أنفسهم، عدداً كبيراً من المحاصرين لهم، وقام الأتراك بجمع كومة كبيرة من الخشب من جميع المناطق المجاورة، بهدف إحراق القلعة مع الرجال الذين في داخلها، غير أن الصليبيين، وقد وصلوا إلى حافة اليأس، صاروا أكثر جرأة، قاموا بإشعال النار في الحطب برماية سهام عليه، ونجوا بهذه الوسيلة من النيران، وهلك كثيرون من على الجانبين، وقد حدث هذا في تشرين أول( ٢١—٢٤ تشرين أول ١٠٩٦).

وهرب كثير من الحجاج نحو الوطن، وأخبروا بمغامراتهم الذين وصلوا مؤخراً، من الذين كانوا ما يزالون معسكرين قرب القسطنطينية، واشترى الامبراطور أسلحتهم كلها، وبذلك صاروا غير مسلحين، ومن ثم أصبحوا أقل قدرة على إلحاق الضرر بسكان البلاد التي كانوا فيها غرباء، وانتظر آخرون من الحجاج الواصلين الجدد، وهكذا فإنهم بعدما شاركوهم بآرائهم، اعتمدوا على القادة، وتحالفوا معهم، ودعموا من

قبل قوات من الرجال المقاتلين، وكان بإمكانهم الآن إرضاء الرب بالصلوات والاعترافات، ومن ثم الدخول إلى أراضي العدو.

وبعدما هزم قلج أرسلان الفرنجة، وقتل بعضاً منهم في المعركة، وأرسل الكثيرين منهم إلى حياة الأسر، وحاصر القلة الذين بقيوا يقاومون بشدة في المدينة، سمع في اليوم التالي، وعلم من مصادر موثوقة، بأن الدوق بوهيموند قد دخل إلى أراضي الامبراطور في مقدونية، وأن معه قوة مسلحة ضخمة من النورمانديين والأبوليين، وأنه عازم على الانتقام من الأتراك، لسفكهم دماء الصليبيين، وقد انسحب من سيفيتوت وهو في غاية الحذر، وبسرعة تراجع مع جيشه لحماية أراضيه(١)، وهكذا فإن الفرنجة المتسرعين، الذين رفضوا الانتظار لنيل مساعدة بوهيموند، وكذلك بقية جيوش الصليبيين، الذين وثقوا كثيراً بقوتهم، قاموا بالزحف نحو الحدود التركية، وهناك كما حكينا عانوا بإرادة من الرب، فتمزقوا إلى أشلاء في معركة مأساوية.

—٦—

وكان الدوق غودفري أول القادة الذين وصلوا إلى القسطنطينية، وقد نصب معسكره على مقربة منها في الثالث والعشرين من كانون الأول، وكان بوهيموند آنذاك ما يزال في الخلف، فقد زحف بحذر، وسار مسافة ضئيلة في كل يوم، حيث انتظر رجاله، الذين كانوا يسيرون بسرعة خلفه، وأمر الكسيوس بإعداد أماكن للدوق في ضاحية المدينة، بعد وصوله، واعتاد سادة جيش الدوق على النهب وجمع الأعلاف بالطريقة المعتادة، فقد تجولوا واثقين خارج المدينة ومن حولها، لجلب القش والأشياء الأخرى التي احتاجوا إليها، ولكن في كل يوم قتل بعضهم من قبل التوركبلية، والبشناق، الذين نصبوا كمائن بناء على

---

٢— من الصعب تصديق هذه الرواية لأن بوهيموند وصل إلى منطقة دورازو في أواخر تشرين أول عام ١٠٩٦، فكيف تسنى لأخباره أن تصل إلى قلج أرسلان؟.

أوامر الامبراطور، وحدث ذلك لهم، لأنهم لم يكونـوا يتوقعون شيئاً من هذا القبيل، أو لحاق أي أذى بهم مـن قبل الامبراطوار، لأنه جهـز لهم أمـاكن خـاصـة بمحض إرادته، وانـزعج الدوق كثيراً لفقـدانه رجـاله، وبسبب الكمائن غير المتوقعة التي نصبها التوركبلية، ولهذا السبب انطلق بلدوين لحماية رجـاله، وعندما وجـد الأعداء يطاردون أتباعـه، هاجمهم بشكل مفـاجىء، ومن دون احتراس، وهزمهم، وقتل بعضهـم، وقـدم بعضـاً منهم إلى أخيـه، حيث كـان قـد أسرهم، ولدى سماع الامبراطور بهذا، صـار غاضبـاً جـداً، وبدأ يتآمـر ويتـدبر كيف يمكنه إلحاق الأذى بالحجـاج، وتوقع الدوق الحكيم بعض الغـدر والخيـانـة، ولذلك ترك المدينة، وأعاد نصب خيـامه في الموقع السالف الذي كـانوا منصوبين به، وعند حلول الظـلام جـرت مهـاجمة معسكر الـدوق بناء على أوامـر الامبراطور، ولحق بجيشه الضرر والضيق، لكن بما أن الدوق كان محارباً مجرباً، وكـان يخشى من الكمين، أقـام الحراس، حيـث تولوا حـراسـة المعسكر بكل عناية، وأمـر كـل واحـد منهم أن يكون مستنفـراً متيقظاً، وجرى صـد المهاجمين على الفور مع خسارتهم لسبعـة رجال، وطاردهم الدوق بجـرأة حتى باب المدينة، وعـاد بعـد ذلك إلى مخيمـه حيث بقي هناك لمدة خمسة أيام، وفي تلك الأثناء كان الامبراطور يتدبر كيف يمكنه إلحاق الأذى بالدوق، وفي الـوقت نفسـه صرف الدوق تفكيره بـدقـة وعناية لكيفيـة وقاية نفسه ومعـه رجاله، ورفض الامبراطور تقـديم ممر ومعبر خـلال المدينة الامبراطورية، وانتظر الدوق وصـول القـادة الذين كـانوا قـادمين من بعده، وبعـد هذا عمل الامبراطور السيـاسي الداهيـة اتفاقاً مع الدوق، أنه إذا ما أراد عبور البـوسفور، سوف يستمر بتزويده بكميـات وافرة مـن المؤن، ولسوف يقـدم المعـونات الضرورية إلى جميع الفقـراء، وجـرى ضمان الوفـاء بهذا الاتفـاق بوسـاطة الأيمان، وخطط الامبراطور الداهيـة بهذه الطريقـة نقل الدوق وإبعاده مـع جيوشـه عن جوار بيزنطة، حتى يحول بينه وبين التأثر بآراء وبمسـاعدة السادة الذين

كانوا سيصلون قريباً إلى هناك، وبناء عليه عبر الدوق، وجاء ذلك بعد تلقيه عدداً كبيراً من الوعود بالوفاء والإخلاص من الامبراطور.

وصل بوهيموند إلى وادي أدرنة، وحشد رجاله وجمعهم، وحذرهم بدقة بأن يتصرفوا باعتدال، وأن لا ينسوا الحج الذي عزموا على القيام به باسم الرب، وأن يكبحوا أيديهم الجشعة عن القيام بالنهب والسلب لبيوت المسيحيين، وأن يضعوا الرب دوماً أمام أعينهم، وأضاف بأن على الأغنياء مساعدة الفقراء، وأن يساعد الأقوياء الضعفاء، وأن يدعموهم في سبيل محبة الرب، بقوتهم وثرواتهم.

وغادروا الوادي، ووصلوا إلى كاستوريا Castoria ، وهناك احتفلوا بعيد الميلاد، وقد مكثوا هناك لبضعة أيام، ولكن عبثاً حاولوا شراء المؤن، لأن سكان المدينة عدوهم مقاتلين وطغاة ظالمين، ولم يعدوهم حجاجاً، ولذلك كانوا مرغمين، بسبب الحاجة، على الاستيلاء على الثيران، والحمير، والخيول، وأي شيء آخر كان يمكنهم الحصول عليه وكان قابلاً للأكل، وبعدما غادروا كاستوريا، نصبوا معسكرهم في موناستير، وهاجموا هناك من كل جانب قلعة كانت عائدة إلى الهراطقة، وكانت مليئة بالمؤن، وقد دمروها كلياً، وأحرقوها وأحرقوا سكانها من الهراطقة ومن المسلمين، الذين سموهم جميعاً باسم« أعداء الرب»، وذلك حتى يكونوا جميعاً ممقوتين بصورة متساوية، ومن هناك وصلوا إلى نهر فردار Vardar ، الذي عبره بوهيموند مع قسم من جيشه، في حين وقف كونت أوف روسيغنولو Roscignolo مع إخوته في الخلف، وفجأة كانت هناك قوة من الجند تابعة إلى الامبراطور تقوم بالاستطلاع ومراقبة الطرق، وقد شاهدت هذه القوة الجيش ينقسم، ولذلك قامت بهجوم عنيف على الكونت ورجاله، لكن تانكرد الذي لم يكن بعيداً جداً، سمع الضجيج، فطار مثل البرق، وأسرع على ظهر مهره السريع، وخاض، لا بالحري سبح عبر النهر بينهما، وبسرعة جلب

المساعدة إلى الكونت، وعلى الفور لحق بتانكرد ألفين من الفرسان من خلال النهر، وعلى الفور رجحت كفتهم على كفة التوركبلية، وطردوهم من ميدان المعركة، وانتصروا بشكل مجيد عليهم، وقتلوا بعضهم، لكن أخذوا الغالبية أسرى، وقدموهم مكتوفين إلى بوهيموند، وعندما سئلوا لماذا كانوا على هذه الصورة والدرجة معادين لرجال لاخصومة بينهم وبين امبراطورهم، أجابوا:« نحن مأجورين من قبل الامبراطور، ولا يمكننا أن نفعل غير الذي أمرنا بفعله»، وفرضت هذه المعركة على الحجاج في يوم أربعاء الرماد.

ومع أن بوهيموند غضب تجاه سلوك الامبراطور المزدوج، أبقى نفسه تحت المراقبة، وهكذا أطلق سراح الأسرى، وجعلهم يذهبون أحراراً، لكنه أمرهم مع التهديد بأن يبتعدوا عن إلحاق الأذى برجاله من بعد الآن، وقال للمقربين منه:« إن عبورنا الآمن، متوقف على حسن تصرف وفضل الامبراطور، ولذلك دعونا نكبح عواطفنا، وأن نفعل كل شيء ممكن حتى لا نعطيه مسوغاً للشكوى، ذلك أنها سمة الإنسان غير المجرب هي أن يرهق نفسه في مغامرات، حيث لا ينتج عن الإرهاق الشديد أية نتيجة، إنما طريق الحكمة بالنسبة للإنسان العاقل القوي هي أن يخفي مشاعره، حيث قوته لوحدها لا يمكنها تحقيق غاياته، وإنه لمن الحكمة أن تضع عواطفك جانباً وتنتظر إلى المستقبل لإنجاز ما لاتستطيع إنجازه على الفور، ومرة أخرى إن الرجل الذي يرعد ويبرق بالتهديدات عندما لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، ثم عندما يستطيع يتناسى الأذى الماضي ويتجاوز عنه، مثل هذا الرجل يستحق أن يسمى أحمقاً وجباناً، إنه إذا كان ذلك من غير الممكن، دعونا بهدوء نتغاضى عن الأخطاء التي اقترفها بحقنا، لقد كان وفق هذه الطريقة تحدث بوهيموند، ثم إنه لجم بهدوء غضبه وأرسل رسلاً إلى الامبراطور، يسألوه أن يمنح أماناً بالمرور لحجاج يسوع المسيح.

وفي عام ١٠٩٧ لتجسيد مولانا، وفي العلامة الخامسة، قام روبرت دوق نورماندي، وهيوج الكبير، وستيفن أوف بليوس، وروبرت أوف فلاندرز، والنبلاء الآخرون الكبار، الذين قدموا من كثير من المناطق وأمضوا الشتاء في إيطاليا مع قواتهم، قاموا مشكورين بالاستعداد عندما بات المناخ أفضل في الربيع، وأقلعوا من خلال البحر، وأبحروا عبر البحر الأدرياتيكي للالتحاق بمارك بوهيموند في مقدونيه، وعندما بات هؤلاء القادة النبلاء الكبار مجتمعين مع بعضهم بعضاً، مع شجاعة لا تضاهى، كرسوا أنفسهم كلياً ومن قلوبهم لقضية الرب، ولذلك بات هناك سرور عارم بين الناس الذين يخافون الرب هناك، أما بالنسبة للامبراطور ألكسيوس، الذي— على كل حال— سبق له أن عانى بمرارة على أيدي الشماليين في المعركة، فقد انزعج كثيراً لدى سماعه أخبار قدوم مثل أولئك الأمراء الجبابرة، ولذلك اختار منهجاً للعمل يمكنه من إزاحة الخطر ووضعه جانباً، وقد حاول خداعهم بالتظاهر بالسلام، ولهذا بمكر تحدث، وبلطف ونعومة تكلم، لأنه كان معلماً مبدعاً وعبقرياً في فن الخداع، ولذلك أرسل رسلاً إلى الحجاج النبلاء، وسألهم بتواضع الحفاظ على السلام، واعداً إياهم ومصحباً وعده بيمين بأن يعطيهم معبراً حراً خلال أراضيه، وأن يقدم كل ما يحتاجونه من سلع ومساعدات.

وبالنسبة للدوق بوهيموند، الذي كان على معرفة بمكره من خلال التجربة، وسلف أن هزمه مرتين في القتال، لم يرض بالضمانات الخادعة، وعوضاً عن ذلك حث أصحابه على حصار القسطنطينية بإصرار، وقدم عدداً من الأسباب المقنعة لماذا هذا هو الطريق الأفضل الذي ينبغي اتباعه، غير أن الفرنجة قالوا —على كل حال— :« إننا نحن الفرنجة قد قمنا بالتخلي عن ثرواتنا الدنيوية، وانطلقنا نحو الحج بمحض إرادتنا، في سبيل طرد الكفار، وتحرير المسيحيين، من أجل محبة المسيح،

والإغريق مسيحيـون أيضاً، ولذلك دعونا نقيم معهم سلامـاً، وأن نعيد إليهم الذي انتـزعه الأتراك منهم»، وهكذا جـرى إذن إرغام بوهيمـوند الداهيـة، على إقـامـة سـلام مع الامبراطور الإغـريقي، بناء على رأي الفرنجة، وكان في هذا خسارة كبيرة للصليبيين حسبما سيظهر فيما بعد.

وعندما تسلم الامبراطـور الجواب أظهر العناية وأبدى الرعـاية نحو رجالنا، لكن مع أعمال معـاكسة مخادعة، فأرسل مـوظفاً كبيراً من بلاطه (curopalate) كـان عـزيزاً جـداً عليـه، مع مبعـوثين آخـرين إلى بوهيمـوند، لاقتياده سالماً خـلال البلاد، ولتمكينه مـن شراء الإمدادات لرجاله على طول الطريق.

ولذلك انتقلوا مـن مكانهم، ونصبـوا خيـامهـم حيثما كـان ضرورياً، ومروا بمدينة سيريس Serres ومنها عبروا إلى مدينة روسا Rusa، وهناك بعدما ابتاعوا من الإغريق ما يكفي من إمدادات ومؤن ضرورية، نصبوا خيامهم يوم الأربعاء في الأسبوع المقدس، وترك بوهيموند رجاله هناك، وذهـب قبلهم مـع عـــدد صغير من المرافقين للتبـــاحـث مع الامبراطور، واقتـاد تانكرد الصليبيين الذين ازدادوا فقراً أثناء المخـاطرة والسفـر، وسار بهم عبر طريق آخـر إلى واد خصب، مزود بشكل جيـد بإمـــدادات الطعـام، وهناك احتفلوا بعيـــد الفصح، وعندمـــا سمع ألكسيـوس بوصـول بوهيمـوند، الـذي خـاف منه كثيراً، والذي هزمـه مـرتين في المعركـة، استقبله باحتفاء، وزوده بكرم كبير بكل مـا احتاجـه خارج المدينة، وجاء ذلك لصالح فائدتهما المتبادلة.

وفي الوقت نفسـه، ترك الدوق غودفـري المتحالفين معـه على الجانب الآخر من البوسفـور، وعاد إلى القسطنطينية، لأن الامبراطور لم يرسل له الإمـدادات التي وعده بها، وكـان أسقف لى بوي، وكـونت طولوز، قـد تركـا خلفهما أتبـاعهما الكثيرين، وبناء عليـه كانا في القسطنطينيـة أيضـاً، ورغب الامبراطـور —بناء على نصيحـــة الإغـــريـق— في اتخاذ كل

الاحتياطات لمنع الفرنجة من الاجتماع معاً والاتحاد، ومن ثم القيام بنهبهم وانتزاع ممتلكاتهم، ولذلك تباحث مع الأمراء كل على حده، عن طريق الوسطاء، وطلب منهم تقديم الولاء والطاعة له، ووعدهم أنهم إذا ما قدموا الولاء له سوف يعطيهم الإمدادات والمرافقة، وأنه هو شخصياً سوف يتبعهم ويسير خلفهم، ويؤيدهم ويساندهم بجميع قواته، واضطرب الفرنجة وباتوا مشوشين، ولم يرغبوا في تأدية يمين الولاء، لكنه لم يسمح لهم بعبور البحر تبعاً لشروط أخرى، ولم يرغب الفرنجة، ولم يرضوا بالقتال ضد المسيحيين، وأيضاً لم يكونوا قادرين على امتلاك عبور آمن، كما كانوا رافضين لفكرة العودة إلى وطنهم وغايتهم لم تتحقق، وفي النهاية كانوا مرغمين بشدة الحاجة على تأدية يمين للامبراطور ألكسيوس تعهدوا فيه بضمان حياته وكرامته، وبالنسبة له هو أقسم وتعهد أنه سيحافظ على وعوده والتزاماته بإخلاص صحيح.

وكان كونت طولوز— على كل حال— متأبياً أكثر من الآخرين، ورافضاً وبعيداً عن الرضى والقبول، وكان يتفكر كيف يمكنه تسوية خلافه مع الامبراطور، ولايجد سبيلاً لذلك، لكن الموقف العام والرأي الجماعي للأمراء سيطر، وبشيء من الصعوبة أقنعوا الكونت— السريع الغضب— بالتخلي عن موقفه وما عزم عليه، وبناء عليه أدى اليمين، لكن لم يمكن قط إقناعه بتقديم الولاء.

وصدرت الأوامر بعد ذلك على الفور بالعبور، وفي الوقت نفسه، وصل تانكرد مع الجيش الذي كان تحت قيادته، وسمع بأن ألكسيوس قد أرغم ذوي المراتب العليا على تأدية اليمين له، لذلك أخفى نفسه مع رتشارد صاحب الإمارة، وأخفاها مع الأشخاص المتواضعين، ونزل إلى البحر على الفور، وعبر بالسرعة الممكنة، وبقي بوهيموند وكونت طولوز وتخلفا حتى جرى إرضائهما حول إمدادات المؤن، ووصل الدوق غودفري مع الآخرين إلى نيقوميديا، وبقيوا هناك مع تانكرد لمدة

ثلاثة أيام، واكتشف الدوق أنه لا يوجد طريق يمكن للعدد الكبير من رجاله أن يزحفوا عليه متقدمين، لذلك أرسل ثلاثة آلاف رجل لتسوية الممرات الجبلية الوعرة والكثيرة الصخور والمضائق، وكانوا مزودين بالفؤوس والمعاول، وكلاليب ومناجل التشذيب، مع الأنواع الأخرى من المعدات لإزالة العوائق النباتية وفتح طريق وسط الأحراش، وتسوية الأماكن الوعرة في الجبال، ولقد أعدوا الطريق للجيش، وتركوا علامات نصبوها، يمكن للقادمين رؤيتها وبالتعرف عليها، يجدون طريقهم، وهكذا وصلوا إلى نيقية في بيثينيا.

—٧—

وبعدما جرى تحديد مكان المعسكر، ونصبت خيام جيوش الغربيين، بدأ حصار نيقية، وكانت نيقية عاصمة الروم، وأقوى المدن وأكثرها حصانة، مع أسوار مرفوعة وعالية حتى السماء وبحيرة حامية موجودة على طرف المدينة، لذلك بدت وكأنها مدينة لا ترام، وفي البداية كان هناك نقص حاد بالخبز— قبل إرسال المؤن والإمدادات من قبل الامبراطور— وصار سعر الرغيف— إذا ما وجد— عشرين أو ثلاثين سنتاً، فبذلك بيع، لكن بفضل عناية الرب لشعبه، وصل بوهيموند على الفور، جالباً معه كمية كبيرة من المؤن بواسطة البر والبحر، وبذلك توفرت— من دون توقع— كميات وافرة من الطعام إلى جميع فرسان المسيح.

واستعدوا في يوم الصعود للإقلاع بهجوم على المدينة، وأنشأوا آلات حصار خشبية ضد السور العالي، وضغطوا لمدة يومين في القتال ضد المدينة، وحاولوا لغم السور، وأبدى الكفار الذين كانوا في الداخل— على كل حال— مقاومة شجاعة، فدافعوا عن أسوارهم وبيوتهم بقوة عظيمة وكانوا يقذفون بالحجارة وبالحراب، وكانوا يحمون أنفسهم ويدافعون عنها بالترسة، ووقفوا صامدين بجرأة أمام رمايات النشاب الكثيفة التي وجهت ضدهم، ومن جانب آخر، حاول الفرنجة كل

شيء، وتخبأوا تحت الترســة التي شكلت سقفـاً لحمايتهم، وبذلك تمت حمايتهم من رمايات المقذوفـات، ومرة تلو أخرى ألحقوا الأذى والضرر بالمدافعين المنهكين.

وفي الوقت نفسـه أرسل سكان المدينة رسلاً لالتماس العـون من بني قـومهـم ومن جيرانهم قـائلين:« بادروا مسرعين وادخلـوا باطمئنان من البـاب الجنوبي، الذي لم يغلق بعـد»، لكـن بعـون الرب كـانت النتيجـة والمحصلات مختلفة تماماً عما أملوه، ففي ذلك اليوم نفسه بالذات، الذي كـان يوم السبـت، بعـد يوم الصعـود، وصل أسقف لى بـوي وكـونت طولوز إلى هنـاك، وجـرى تعيين البـــاب الجنوبي لهما من قبل القـــادة الآخـرين، ففي الوقت الذين قـدم فيه المسلمـون، ظانين أنفسهم آمنين، هاجمهم الكونت بقوة وبصـورة غير متوقعة، وقامت جماعتـه التي كانت مسلحـة بشكل جيـــد، بصـد الفئة الجاهلة وطردهـا، وهرب المسلمـون باضطراب، وخلفـوا الكثير من القتلى، وبسهـولـة تمت هزيمتهم هزيمـة ساحقة من قبل الفرنجة.

ومـرة ثانيـة استـدعى سكان نيقيـة جيرانهم المتحـالفين معهم، حيث أكـدوا لهم بالأيمان بأن النصر كـان مـؤكـداً، ولذلك قـدمـوا بمعنويات عاليـة، ومعهم حبال أملـوا أن يقتادوا بها الصليبيين المهـزومين إلى حياة الأسر، لكن حشود الفرنجة قابلت الكفار عند وصولهم، وهاجموهم من جديد وقـاتلوهـم، وهزموهم هزيمـة ساحقـة، وعادوا منتصرين بعـدما قتلوا الكثيرين، ثم بذل الكونت ريمـوند والأسقف أدهمر مـا أوتيـا من طاقة حتى النهاية، وهاجما المدينـة بطرق متنوعة، في حين قاومهم سكان المدينة التعساء بكل ما امتلكوه من قوة.

وأخيراً اجتمع قـادة الصليبيين واحتشـدوا مع بعضهم وطوقـوا المدينة بقـواتهم التي توزعت على الشكل التـالي: فقـد حـاصر المدينة من الجانب الأول بوهيمـوند وتانكرد، ثم كـان خلفهم الدوق غـودفري مع إخـوته،

وبعدهم روبرت كونت فلاندرز، الذي كـان رجلاً نشيطاً، وفارساً جريئاً جـداً، وجـاء بعـده روبرت دوق نورمـاندي، وستيفن كـونت تشـارترز، وهيـوج كونت سينت بـول، وكذلك كـونان Conan البريتاني ابن كونت غـودفري [ الأول كـونت لامبولي Lamballe] ورالف أوف غيل Gael ، وروجـر أوف بارنفيل Barneville مع عسـاكـرهم، وتمركز عند الباب الجنوبي كونت طولوز وأسقف لى بوي وتوليا الحراسة، وبهذه الطريقة قاموا بتطويق المدينة، حتى لم يعد بإمكان أي واحد دخولها أو الخروج منهـا إلا بوسـاطـة البحيرة التي لاصقت المدينة، وفي الحقيقـة أبحــر المسلمــون بسـلام عبر البحيرة على مــرأى ومشهــد كــامل من الصليبيين، وجلبـوا كل الذي احتـاجـوا إليـه بالقـوارب، وتولى فـرسـان المسيح حصار نيقية بشكل يستحق الإعجاب، وأقاموا معسكرهـم الجميل وخيامهم الجبـارة بشكل حكيم باسم المسيح، وكـانوا رائعين في السلاح، لا بل كان الصليبيون أكثر ارتفاعـاً بالمعنويات، وعندما قاتلوا كانوا أنقياء بأخلاقهم، ونشطاء بأجسادهم، وأقـوياء بقلوبهم، واعين لنجاة نفوسهم، ولذلك تخلوا عن جميـع الرغبـات المحظورة وعن مسـار الجسـد ومتعـه، وقـاتل القادة أنفسهم مع رجـالهم، وحافظوا على الحراسـة من دون نوم، وخططوا لكل شيء، وشجعـوا الآخـرين، وكثير من الأشيـاء من مختلف الأنواع تشاركوا بها، وتولى الأساقفة الوعظ يومياً حول الحاجة إلى التوبة، وقد طردوا إلى خارج المعسكر جميع البغايا والزواني.

وفي الوقت نفسـه أنهك الأتراك أنفسهم في حـراسـة المدينة والدفـاع عنها، وكانوا يروحـون ويقدمون بأمان وسـلامة عبر البحيرة أمام أعين الصليبيين، ولذلـك خطط الفــرنجــة المحبطين لمنعهم من استخـــدام البحيرة، فأرسلوا رســلاً إلى القسطنطينيــة، واقترحــوا بوضــوح على الامبراطور الإجـراءات التي يستهـدفـون اتخاذها ضـد العدو، وبعـدمـا سمع الامبراطور اقتراحـاتهم، وافق عليهـا على الفور، وأمـر بتنفيـذ كل

شيء وفقـاً لخطتهم، وجـرى— بنـاء على أوامـر الامبراطور— تأمين الثيران بسرعـة وإعـدادها للجـر، وأبحـرت سفن سريعـة إلى ميناء سيفيتـوت civetot، وجرى إرسـال توركبليـة إلى هنـاك أيضـاً، وجـرى رفع القـوارب ووضعهـا على عـربات، تولى جـرها الثيران، وأخـذت وسحبت بعنـاية حتى شـاطـىء البحيرة، وتحت غطاء الليل أنزلت في البحيرة، وعهـد بها إلى التـوركبليـة، وشقت القـوارب مياه البحيرة عند بزوغ الفجـر، واقتربت من المدينة وفق نظام جيد، وعندمـا شـاهـد سكان المدينة من الأبراج أن البحيرة غطيت بالسفن، أصـابتهم الدهشـة، وتساءلوا عما إذا كـانت لحسن حظهم تحمل نجدة في طريقهـا إليهم، ولكن عندمـا أدركـوا مـا كـان يحدث حقيقـة، ظهـرت عليهم علامـات الرعب، وشلهم الخوف، وفقدوا كل أمل، وصدمـوا بانقلاب الحظ فجأة، وعـدّوا الآن أن كل سبيل هو بـلا أمل، حيث لم يعـد هناك أمل بالحفـاظ على المدينة، لأنهم باتوا مهـددين عبر اليـابسـة وعبر الماء، ونتيجـة لذلك أرسلوا مبعـوثين إلى الامبراطور، وسـألوه أن تكون لديه رحمة نحـو المهزومين، وأن يتقبل استسـلام المدينة وأن يتسلمها، وأيضـاً من أجل أن يحمي مـا هو عائـد إليه من الأعـداء، وأن يحول دون وقوع ممتلكاتهم بأيدي الأجـانب بمثـابة غنـائم، ولدى سماع الامبراطور بهذه المقترحات التي تقدم بها المحـاصرون، وافق عليها، ذلك أنه حسد سرياً نجاح الصليبيين الذي تبرهن مؤخراً، وأمر تاتيكوس قائد فرسانه، الذي كان قد عينه مع أربعين فارساً لمرافقة رجالنا، وأمر ضباطه الآخرين بأن يرافقـوا بسـلام إلى بيـزنطة سكان المدينة الذين استسلمـوا، وذلك مع مقتنياتهم، وأن يتخـذوا إجراءات احتياطية محكمـة لحماية المدينة، وجرى تنفيذ توجيهات الامبراطور بشكل كـامل، فقد استسلمت المدينة، وتمت مرافقة مسلمي المدينة سالمين آمنين إلى المدينة الامبراطورية.

واستقبل الامبراطور وفق هذه الطريقة المهزومين، وشرفهم وأكرمهم

مع حـريتهم وأحاطهم بكـرم وافر، وأعطى كثيراً من الهدايا إلى الفقـراء بين الصليبيين، وبعـد استسـلام المدينة، توقـف الصليبيـون عن متـابعـة الحصـار، وكـان كثيرون قـد مـاتـوا بسبب الجوع أو بالسيف أو خـلال سبب آخـر، وقـد ربحـوا— كما نعتقـد— تاج الشهـادة المبـارك، لأنهم قدموا حياتهم في سبيل إخوانهم، ولحق القتل عدداً كبيراً من المسلمين في كثير من الاشتبـاكات، وكـانت أجسـادهم غير المدفونة مبعثـرة بالطول وبالعـرض، وقد تأخـر الصليبيـون هناك لمدة سبعة أسـابيع وثلاثة أيام، وكان ذلك بعـد الاستسلام، ثم كان أن أخـذوا طريقهم إلى مكان آخر، وقد أسفوا لطول مدة الحصار، لأنهم كانوا غير قادرين على نيل رغباتهم في المدينة حسبما جـرت العادة في المدن المستولى عليهـا، لأنه— ولو على الأقل— جـرى الإعلان عن أن ممتلكات أعـدائهم باتت ملكاً مشاعـاً، لأمكن سد عوز الفقراء ولتحسن حـالهم، وأمكن تغطية بعض النفقات التي بذلوها، ولم يتقبل الصليبيـون بالرضـا والقناعـة أوامـر ألكسيـوس بعدم إباحة ممتلكـات نيقية، وذلك بعدما أنفقوا مـواردهم وعبثاً سفكوا دمـائهم، واستنفـدوا بشكل خطير مـا توفـر لديهم من الإمـدادات التي جلبـوها معهم، فلقـد عانوا من طرق خـداع الامبراطور على حسـابهم، ولكن لأنهم كـانـوا آنذاك بلا مقــدرة، حــافظـوا على الصمت لبعض الوقت، وهنا كـان الحقل الأول الذي زرعت فيه بذور الكراهيـة، وهنا ظهر ميـدان العداوة، وهنا ظهرت أول بـوادر الخلاف وترعرعت، وهنا نما شكل العـداء وتبلور، ولأن ألكسيـوس لم يعـاملهم بصـورة عـادلة، بدأوا يفكرون بالانتقام منه.

—٨—

وفي اليـوم الذي اكتمل فيـه حصار نيقيـة، وصل الصليبيـون إلى جسر نصبـوا عنده خيـامهم، وقـد عسكروا هناك لمدة يومين، وبادروا في اليـوم الثـالث مسرعين بالسفـر قبـل حلول الصبـاح، وبما أن الليل كـان مظلماً،

وجدوا صعوبة بالسير على طريق غير معتادين عليه، وباتوا موزعين على فئتين، وقد سافروا وفق هذه الطريقة لمدة يومين، وكان بوهيموند، وروبرت أوف نورماندي، وستيفن كونت بليوس، وتانكرد، وهيوج أوف سينت بول، وجيرارد أوف كورني، وولتر أوف سينت فاليري وابنه برنارد، ووليم بن رالف الفيكونت، ووليم أوف فيريري Ferrieres ، وهيرفي بن دوديمان Dodeman ، وكونان ابن كونت غودفري، ورالف أوف جيل وابنه آلان، وريو أوف لوهاك Loheac ، وآلان حاجب دول dol ، مع آخرين كثر، في رتل واحد، وكان في الرتل الثاني: كونت طولوز، وأسقف لى بوي، ودوق غودفري، وبلدوين، وهيوج الكبير، وروبرت أوف فلاندرز، مع جمهور كبير من الأتباع.

واحتشدت في ذلك الأسبوع نفسه قوة تركية، عظيمة العدد، بقدر رمال البحر، وتجمعت ضد بوهيموند، وقامت هذه القوة وهي واثقة بعددها بمهاجمة الصليبيين جميعاً، وكان قائدهم هو الدانشمند، فقد اشتعل غضبهم ضد الأجانب، الذين تجرأوا على الاستيلاء على نيقية والعبث بممتلكاتهم، وتألفت قواته من: ترك، ومسلمين، وفرس، وأوج[ ثغريون]، وكان تعدادهم ثلاثمائة وستين ألفاً، وذلك بالإضافة إلى العرب، الذين كانو من غير الممكن تعداد حشودهم، ووقف بوهيموند النبيل في أرضه وثبت غير خائف، عندما شاهد الحشود التي لايمكن تعدادها، وهدد الأعداء رجاله، ووجهوا إليهم الإهانات بصرخاتهم وبسيوفهم المشهورة، وأعطى بوهيموند تعليمات لرجاله كانت مختصرة، لكن واضحة، وحثهم على خوض معركة مجيدة، وبسرعة أرسل رسالة إلى حلفائه، الذين كانوا بالخلف بعيدين عنه، وطلب منهم الإسراع لمساعدة رجاله، في وقت حاجتهم الكبيرة، وأمر الجنود الرجالة بأن ينصبوا الخيام بسرعة وبعناية، وأمر الفرسان بالركوب معه لمقابلة الكفار في المعركة، وأن يحملوا ثقل القتال من دون تراخي.

وفي الوقت نفسه حمل الأتراك مع أصوات حربية عالية، وضغطوا على الصليبيين بعنف شديد، فقد أطلقوا النشاب، وقذفوا الرماح، وقاتلوا يداً إلى جانب يد، ولم تكن هناك استراحة بسبب الإنهاك، وكان بإمكانك أن تشاهد أجساد جميع الصليبيين والدماء تتدفق منها مع التعرق، وقاوم الفرنجة، وحملوا ثقل القتال من دون تقاعس، وبحكمة تراجعوا قليلاً إلى الخلف أمام الهجمات المعاكسة، ودافعوا عن أنفسهم بسيوفهم، ولم يتزحزحوا عن مواقفهم وهم ينتظرون حلفاءهم الذين جرى استدعاؤهم، وقد تحملوا المعركة القاسية من الساعة الثالثة حتى الساعة التاسعة، وكانت النساء في ذلك اليوم وسيلة راحة وعون للجنود، فقد ركضن لإحضار الماء للعطشى، وشجعن وحمسن المقاتلين بوسائل التشجيع، وكان ميدان المعركة مثل أتون، فقد قاتل الطرفان حتى الرمق الأخير، وضغط على الصليبيين بقسوة، وقد انتقل القتال مراراً وانتشر إلى المعسكر نفسه.

وسأل الجيش الآخر رسل بوهيموند، وصعب عليهم تصديق وقوع معركة بالفعل، فقد كانوا يأملون أنه ما من شعب في الوجود، كان يمكنه أن يتجرأ على القتال حتى مع عشر جيشه، ولكن فيما بعد، لدى انتشار الأخبار بين صفوف الجيش كله، ومع وصول رسل آخرين بعد الأوائل، اندفع مسرعاً نحو ميدان المعركة الفارس الشجاع دوق غودفري، والهادىء اللطيف العاقل كونت ستيفن، وهيوج الكبير، وبلدوين ويوستاس، اندفعوا غير هيابين مع أتباعهم من الفرسان، وتلاهم ولحق بهم بعد ذلك أسقف لى بوي، وريموند كونت طولوز، وفي الوقت الذي كان الصليبيون المنهكين فيه يتساءلون، ظهر فجأة حشد كبير من الناس، وانقضوا عليهم وهم مصابون بالدهشة، وقد غطى هؤلاء الجبال والوديان، وكل شبر من الميدان، فقد بات كل مكان مكتظاً بحشود من العساكر، وقاتل الصليبيون بشجاعة بمساعدة الرب،

وتهددوا الموت بسيوفهم المشهورة، وبطريقة ما تمكنوا من تحمل الهجوم، وفجأة ظهر الحلفاء الذين جرى استدعاؤهم، وباتوا قريبين، وقام أسقف لى بوي مع جيش كبير بمهاجمة العدو من الخلف، ومن جهة أخرى تولى الهجوم الكونت صنجيل وبلدوين ويوستاس، حيث قدموا مسرعين، وهجم من جهة اليمين الدوق غودفري مع هيوج الكبير، وروبرت أوف فلاندرز، الذي كان فارساً يقف دوماً في الصف الأول من صفوف القتال، وتابع أيضاً روبرت النورماندي، وستيفن أوف بليوس، وتانكرد، وبوهيموند القتال، وتحملوا أعباء وثقل المعركة الطويلة، وأخذ الكفار على حين غرة بالحملات غير المتوقعة من الجهتين، فقاموا جميعاً بإدارة ظهورهم لمهاجميهم وهربوا باضطرب وفوضى، وضربتهم سيوف الصليبيين من دون رحمة، ومات كثير منهم بطرائق مختلفة وبأشكال متنوعة، وذلك باستثناء الذين تمكنوا من الفرار، وقد قتل الآلاف من البرابرة هناك، لأن الصليبيين انقضوا عليهم، وطاردوهم، من دون رحمة طوال ذلك اليوم.

وسقط في ذلك اليوم وليم المركيز، وأخو تانكرد، وغيوفري أوف مونتسكاغليوسو montseaglioso ، وكانوا رجالاً نبلاء، متميزين بفروسيتهم، وكذلك قتل كثير من الفرسان الآخرين، والجنود الرجالة، والترك هم بارعين بشكل مدهش وشجعان، وقد قاتلوا سيفاً إلى سيف، وصرعوا أيضاً أعداءهم بإصابتهم عن بعد، لأنهم استخدموا القسي، وقاتلوا بمختلف أنواع الأسلحة الحربية، وهم يتفاخرون بأنهم قد انحدروا من أصل فرنجي، وأن أجدادهم تخلوا عن المسيحية، وقالوا أيضاً أنه ما من شعب هو مقاتل بشكل طبيعي باستثنائهم أنفسهم والفرنجة، وجرت هذه المعركة في اليوم الأول من تموز، وأقيم يوم للقداسات مع التقوى وتقديم الشكر للرب القدير، الذي حكم الأشياء كلها بشكل جيد.

وعندما انهزم الكفار هزيمة ساحقة، وتشتتوا بالطول والعرض، تحول الصليبيون إلى نهب خيامهم، وقد اكتشفوا وجود كميات كبيرة من الذهب والفضة هناك، ووجدوا بغال تحميل وخيولاً، وثيراناً وجمالاً، وكباشاً، وحميراً، وأثاثاً جميلاً في خيامهم وسرادقاتهم، وعادوا إلى أماكن استقرارهم وهم على درجة عالية من السرور والشعور بالنصر، عادوا وهم مثقلين بالثروات من كل نوع، وبدأت أخبار الانتصار العظيم ترعب الناس البعيدين وغير المعروفين، ووصل اسم الصليبيين إلى مسامع أناس في مناطق وأماكن نائية كثيراً، وخاف كل واحد وارتعب الجميع من إنجازات الصليبيين، وخشيوا من حروب وهجمات فرسانهم.

وعندما هرب قلج أرسلان من نيقية التقى بعشرة آلاف من العرب، فقدم لهم رواية وصورة واضحة عن الشجاعة الكبيرة، وعن الإصرار والقرار الشجاع، والذي لا يقهر للصليبيين، وعن أعدادهم الكبيرة، والعتاد الوافر لديهم، وأقنعهم بتقريره بالفرار معه، ولكن بما أن الرجل البارع يتحول نحو الكثير من المؤامرات، ويعمل تفكيره لإبداع الكثير من الخدع، أبدع الترك علاجاً وحشياً لأتباع المسيح البسطاء، فعندما وصل قلج أرسلان والكفار الآخرون إلى مدن أو حصون عاش فيها المسيحيون السريان، قالوا لهم بدهاء: لقد هزمنا الفرنجة، ولقد اختفوا، أو إذا كان قد بقي أحد منهم، فهم مختبئون في المغائر، واستولت الدهشة على الذين استمعوا إليهم، واستقبلوا الأتراك وسمحوا لهم بالدخول من أبوابهم، وما أن صاروا في داخل المدن التابعة لهؤلاء الناس البسطاء، حتى أخذوا ينهبون بيوتهم وكنائسهم، واستولوا على كل شيء ثمين وحملوه معهم، وأخذوا أيضاً أولادهم الأعزاء وبناتهم، وبهذه الطريقة سبقوا قدوم الفرنجة، وخدعوهم وغشوهم أثناء متابعة سيرهم.

وعندما سمع الصليبيون بهذا طاردوهم، لكنهم دخلوا الأراضي التي كانت بلا ماء وغير مسكونة، والتي ماتوا فيها تقريباً من الجوع

والعطش، وكـان إذا ما صـدف ووجـدوا أية مـزروعات غير ناضجـة، كـانوا يلتقطون السنابل، ويفركـونهم بين أيديهم، ويقومـون بعلكهم ثم يلفظونهم، ومات كثير من الناس ومن حيوانات التحميل هناك، وأرغم كثير من الفـرسـان الرائعين على السير كجنود رجـالة، وكثيرون — ممن تمكنوا— اشتروا ثيراناً واستخـدمـوها كـوسيلة لحملهم أنفسهم ومعهم أمتعتهم، وبعـد أمـد وجيـز من هـذا دخلوا إلى أرض خصبـة، فـائضـة بالطعام والمنتجات من كل نـوع، باستثناء أنهم لم يستطيعوا الحصول على خيول جديدة للنقل.

ولدى وصولهم إلى قونية، قـاموا بملء أوعيتهم بالماء، وجاء ذلك بناء على نصيحـة السكان المحليين، وبعـد رحلة لمدة يومين، وصلوا إلى نهر، حيث عسكروا واستراحـوا لمدة يومين، وذهـب الكشـافـة الذين سـاروا دوماً أمام الجيش لتأمين الإمـدادات والتبن والأشياء الأخرى الضرورية، ومضوا متقـدمين حتى وصلوا إلى مدينة هرقلية، حيث كـان هناك حشد كبير من الأتراك، متجمعين بغية إيجاد وسيلة ما لإعـاقة تقدم الصليبيين، وقـد نصبـوا كميناً للكشـافـة، غير أن الفـرنجـة قـاتلـوهم بشجـاعـة، وأرغمـوهم على الفـرار، وفـرقـوهم بكل سهـولـة، وهكذا إنه مع طرد الأتراك، أصبحت هرقلية بسرعـة تحت حكم الصليبيين، وقد بقيوا هناك لمدة أربعـة أيـام، وهناك افترق تانكرد وبلدوين عن البقيـة، ودخلوا إلى وادي بوترنثـروت Botrenthrot (لعله ممر بوزنتي Pozanti في طوروس)، ووقتهـا فـارق تـانكرد بلدوين وذهب إلى طـرسـوس مع فـرسانه، وزحف الأتراك إلى خـارج المدينة وأغلقوا طريقهم، واستعـدوا للمقـاومـة، وقام تانكـرد، الذي كان يمتلـك جرأة متميـزة، بمهـاجمتهم بشجـاعـة، ومـزقهم، وردهم إلى الخلف إلى المدينة، التي قـام إثر ذلك بمحاصرتها، وفي الليلة التالية هرب الأتراك، وعندها خرج سكان المدينة في ظلام الليل، وصرخـوا بصـوت مـرتفع، أيها الفرنجـة قـاهروا الدنيـا

وحكامها، لقد ذهب الأتراك والمدينة مفتوحة، ادخلوا، وأسرعوا أيها الفرنجة القاهرون لاستلام المدينة، أسرعوا ولا تتأخروا، لماذا أنتم تنتظرون، وسمع حراس المعسكر هذا كله ولكن بسبب الظلام لم تكن هناك مناقشات ولا مباحثات وتأجلت حتى النهار، فعند طلوع النهار، وصل أعيان المدينة، وسلموا أنفسهم وممتلكاتهم إلى الصليبيين واختاروا تانكرد حاكماً لهم، ثم نشب صراع شديد، وخلاف جدي بين القادة، فقد كان بلدوين الذي امتلك جيشاً كبيراً أعظم من سواه، يرغب في نهب البيوت، أو تملك نصف المدينة، لكن تانكرد الذي كان أكثر اعتدالاً، فضل التخلي عن سيادة المدينة على القيام بالاستيلاء على ممتلكات السكان الذين خضعوا له واثقين مخلصين، وهكذا أعطى الإشارة إلى رجاله، ومع صوت البوق، غادر وهو يشعر بالمرارة، في حين احتفظ بلدوين بمدينة طرسوس كلها لنفسه، وإثر هذا استسلم لتانكرد مدينتان جميلتان هما: أذنه والمصيصة، مع كثير من الحصون، ودخل القادة الآخرون مع جيوشهم إلى أراضي الأرمن، ولدى وصولهم إلى الفايا، استسلمت لهم، فعهدوا بها إلى واحد من السكان المحليين، وكان رجلاً له هيأة فارس واسمه سيمون، وذلك حتى يقوم بالدفاع عن المنطقة.

ووصلت الكتلة الرئيسية من الجيش إلى قيسارية في كبدوكية، التي جرت تسويتها مع الأرض، وخرائبها ما تزال قائمة، تدلل— على كل حال— على عظمتها الماضية.

وكانت بلاستينشيا Plastoncia ( كومانا Comana) مدينة جميلة وغنية جداً، وقد سلف للأتراك أن حاصروها قبل وقت قصير، لمدة ثلاثة أسابيع، لكنهم أخفقوا في الاستيلاء عليها، لأنها كانت مدينة لا ترام، ولكنها قامت الآن عن طواعية بفتح أبوابها للصليبيين، وقد طلبها بطرس أوف أليفا Alifa لنفسه، وحصل عليها من القادة من دون صعوبة، وذلك من أجل القيام بحماية المنطقة والاستيلاء عليها

لصالح الضريح المقدس ومنفعة المسيحية، أما بوهيموند الذي كان دوماً نشيطاً وفعالاً في المغامرات العسكرية مع حفنة رجاله المنتخبين، فقد قام بحـذر وعناية بمطاردة الأتـراك الذين كـانوا يحاصرون بلاستينشيـا، وانسحبوا للتو، وسـاروا أمام الجيش لإلحاق الضرر به، لكن مطاردته لم تحقق عرضاً، وكانت عبثية، لأنه لم يستطع العثور عليهم.

فقد وصلوا إلى كوكسون Coxon التي كانت مدينة جميلة وغنية، استسلم أهلوها عن طواعية وبسرعـة، إلى إخوانهم في المسيح، واستراح الجيش المنهك هناك لمدة ثلاثة أيـام، ووصلت أخبـار إلى كـونت طولوز بأن الأتراك الذين كانوا يتولون حراسـة مدينة أنطاكية قد غادروا المكان وهربوا، ولقد تشـاور حول هذا مع رجاله، واختار بعضـاً منهم ليذهبوا أمامهم، لكشف الطريق بعناية، وليتجسسوا لمعرفة أحوال المنطقة، وكان الرجـال الذيـن وقع الاختيـار عليهم من أجل هذه المهمـة من الأتبـاع المخلصين للكونتيـة، وكـانوا فـرسـانـاً أقـويـاء كثيراً، وهم[ بطرس] فيـزكـونت أوف كـاستلون Castillon ووليم أوف مـــونتبيللر، وبطرس أوف رواكس Roaix ، وبطرس ريمـوند( أوف هوتبـول Hautpol) مع كثير من الفـرسـان، وقـد وصلوا إلى وادي أنطاكيـة، وهناك سمعـوا حكاية مختلفـة، فقـد كـان الأتراك في الحقيقـة يقـومـون باستعدادات هائلة من أجل حماية المدينة.

وترك بطرس أوف رواكس الآخـرين، ودخل إلى وادي ريحا Riha ، فـوجـد هناك كثيراً من الأتراك قـام بمهـاجمتهـم، وقتل كثيراً منهم، ثم هزمهم وأرغمهـم على الفـرار، ولدى سماع الأرمن عن النجـاحـات الصليبية المتزايدة، وعن الكوارث التركية المتوالية، تخلوا عن مدينة روسا Russa وسلمـوهـا مع بعض القـلاع إلى بطرس، وسـارت الكتلة الرئيسية للجيش عبر طريق صعب، وكافحـوا ببطىء وساروا عبر جبال وعـرة وشعـاب منزلفـة، حيث عـانـوا بألم ومـرارة من خسـائـر كبيرة،

وتصـادمـوا مع بعضهم بعضـاً، وتضرروا بشكل كبير أثناء نضـالهم، وسقطوا على طول ممرات يكاد يتعـذر اجتيـازها، وسقطت الخيـول إلى أسفل شعاب ووديان سحيقـة، وتحول عدد كبير من الفرسـان إلى حالة الادقـاع بفقـدانهم لخيـولهم ودواب حمل الأثقـال الـذين كـانوا يحملون أمتعتهم، وبعد أن تمكنـوا بصعوبة من اجتياز الممـر المرعب، وصلوا إلى مـدينة اسمها مـرعش فخـرجت حشـود منها، جـالبين معهم إمـدادات وافرة إلى رجالنا، وقد مكثوا هناك بعض الوقت، حتى استردوا عافيتهم بعض الشيء، ثـم تابعـوا زحفهـم متقـدمين، حتى دخلـوا إلى الوادي الشهير، الذي كـان فسيحاً وخصبـاً، والذي تقـوم فيـه مـدينة أنطاكيـة الملكيـة المشهـورة، فهـي عـاصمـة سـورية وحـاضرتها، وهناك امتلك بطرس، رئيس الرسل، كـرسيـه، وكـان أسقفهـا، وكـانـت الآن بحكم أسرار قضـاء الرب العـادل، كثيراً من كنائسهـا قـد باتـت مـدمـرة، ومستخدمة بدنس من أجل أغراض بشرية متنوعة.

وعندما وصل الكشافـة إلى جسر الحديد، وجدوا أعداداً كبيرة من الأتراك تتقاطر للدفـاع عن أنطاكية، فانقضـوا عليهم من دون سابق إنذار، لأن الصليبيين زحفـوا دوماً وهـم مسلحين تماماً، وألقـوهـم في حـالة إرباك وفـوضى بسبب الهجـوم الصاعـق والمفاجىء، وبعـدمـا قتلوا كثيرين منهـم عـادوا إلى معسكـرنا، الذي كـان منصـوباً على شاطىء النهر، واقتادوا معهم بغال الأتراك، التي كانوا آخذين لها إلى أنطاكيـة وهـي محملة بالإمـدادات وبجميع الأشيـاء الثمينة، وكـان لـذلـك سرور عظيـم في المعسكر، بسبـب كـل مـن النصر العظيـم، والأسـلاب الثمينة التي أحضرها الكشـافـة معهم عند عـودتهم، وقـدمـوا في كل يوم على التـوالي الحمـد والشكر للرب، الذي اعتنى بشكل جيـد —حتى وسط جيـوش الكفـار— بهؤلاء الذين كـانوا يعانون في مناطق نائية عن أوطانهم في سبيل محبته.

—٩—

أمـا بوهيمـوند، الذي لم يكن قط منغمسـاً بالإهمال أو الكسل، ذلك أنه كان رجـلاً لا يعرف الراحـة أو الاستقرار، فقـد زحف بحيطة نحو باب أنطاكيـة مع أربعة آلاف من الفـرسان، لمنع أي واحد مـن الدخول إليها أو مغادرتها دون أن يلاحظ، ونصب الجيـش معسكراً عندما كانت الدنيا مضيئة ثم زحف إلى أنطاكية، ونصب أفراد الجيش خيامهم في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من تشرين الأول، وشرعـوا بفعاليـة ونشاط العمل في سبيل إغلاق الأبواب الثلاثة العـائدة للمدينة، واستمروا حتى الثـالـث من حزيران(١٠٩٨م)، ولم يتم محاصرة الجزء الآخـر من المدينة، لأنه بني على مقـربة كبيرة من سور عظيم، أقيم فـوق شعاب جبليـة لا يمكن الوصول إليها وكذلك فـوق هضاب، حيث لم تكن هناك مساحة لتعسكر فيها قوات محاصرة، وأصيب المدافعون عن أنطاكية برعب كبير ومعهم المنطقـة المحيطة بها، إلى حـد أنه مـا من أحـد تجرأ على اعتراض سبيل رجال تموينننا، وبقيوا متخفين من دون حراك لمدة أسبوعين تقريباً، وكانت جميع المنطقة من حـول أنطاكية خصبة كثيراً وكثيرة الإنتاج، لأن الوادي كـان خصبـاً، مليئاً بالكروم، مشرقـاً بحقــول القمح وبسـاتين الفواكه، مع أشجـار الظلال، وغنياً بالحدائق والمراعي، ووصل كثير من الأرمن والسريان الذيـن كـانوا نصـارى، وكــانوا تحت سلطة الأتراك، وصلوا بجـرأة إلى المعسكر مغـادريـن للمـدينة، وتظاهروا أنهم لاجئين، وأثناء تسولهم تجسسوا حول أوضاع العساكر في المخيم، وقد رووا ذلك إلى الأتراك عندمـا عــادوا، مما ألحق كثيراً من الأضرار بالصليبيين، لأنه عندما اكتشف المدافعون عن أنطاكية خطط الفرنجة المحاصرين، شرعوا بالتـدريج بالخروج بجـرأة، وبذلك ألحقـوا الأذى بالحجـاج بحمـلاتهم وهجماتهم، وقتلوا الـذين كــانوا غير متيقظين، وزادوا أذاهـم بسلبهم وبأعمال عدوانية أخرى، وهكذا أغلقـوا جميع الطرقات من حول المدينة

وفي المنطقة هناك، وحالوا بين الصليبيين وبين الوصول إلى البحر وكذلك إلى الجبال، وهكذا وبهذه الوسائل بات الذين كانوا خارج المدينة مطوقين ومحاصرين بشدة أكبر من الذين كانوا محميين في داخلها.

وعلى مقربة من هناك كانت هنالك قلعة جيدة الدفاعات اسمها حارم منها قام الأتراك بغارات ضد الصليبيين، ثم إن كثيراً منهم وقعوا أيضاً في كمائن نصبها لهم سكان المنطقة، وبذلك تعرضوا للقتل، لذلك قام قادة الصليبيون، وقد أزعجهم ذلك كثيراً، بالزحف ضد الأتراك، واستثاروهم، وجذبوهم للاشتباك معهم، بالتظاهر بالفرار، واقتادوهم عن عمد وتدبير إلى كمين كان بوهيموند متخفياً فيه ومعه رجاله، وجرى مقتل ألفي صليبي هناك، ثم ثار البطل الشجاع بوهيموند، وخرج من مكمنه، وهاجم الأتراك، فقتل الكثيرين، وأسر بعضاً منهم وهم أحياء، ثم قام بشكل طقوسي بقطع رؤوسهم أمام باب المدينة، حتى يرى الجميع ذلك، ثم قام الفرنجة ببناء قلعة على قمة جبل اسمه مرقب Malregard ، تولى القادة حراستها، وكان كل واحد منهم يقوم بالتناوب بالحراسة في يوم يحدد له، وخلال هذه المدة صارت الأطعمة قليلة جداً، لأن الصليبيين لم يعودوا يتجرأون على القيام بأعمال الغارة لجمع الأطعمة والاحتشاش، ولم تكن هناك إمدادات للشراء، وكانوا قد أكلوا كميات هائلة من المؤن وجدوها في الوادي، ونتيجة لذلك بات كل شيء صالح للأكل نادراً، وانتشرت المجاعة وعمت، لأن المواد الغذائية تناقصت يومياً، ونظر الأعداء من داخل المدينة بسرور وغبطة نحوهم.

وفي عام ١٠٩٨ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الخامسة، وبعد الاحتفال بعيد الميلاد، غادر الدوق بوهيموند وروبرت أوف فلاندرز المعسكر، وسط دموع الذين بقيوا خلفهما، وقد أخذا معهما قوة تزيد على العشرين ألف فارس وعساكر رجالة، وقد وزعوها بين أماكن استقرار المسلمين،

ووقتها كـان العـرب والأتراك يتقـاطرون قـادمين من القـدس ودمشق والمدن الأخـرى وكـذلك من مناطق عـديدة، للاحتشـاد والتفـريج عن أنطاكيـة، وعندما سمعوا بتـوزع الصليبيين وتفرقهم في أرجـاء إقليمهم فـرحوا كثيراً، لأنهم اعتقـدوا أنه من المؤكـد سـوف يتمكنون من إلحاق الهزيمة بهم، لأنهم ظنوا أنهم قلة وأنهم في بلاد غريبة، وبناء عليه، قاموا في ظلام الليل بالاستعـداد لنصب كمين لهم بوسـاطة فـوجين جـرى صفهما وتعبئتهما، حيث وقف واحـد في الأمـام والآخـر بالخلف، وعند الفجر انقض عليهم المحـاربان: كونت فلانـدرز وبوهيموند، وهاجموهم بشكل مفـاجـىء وكأنهم رجل واحـد، وقـاتلـوهم بعناد وإصرار، وهم يتوجهون بالدعاء إلى اسم يسوع، ويرسمون علامة الصليب، وفقد كثير من المسلمين حياتهم، وعلى كـل حال لم يتمكن الصليبيون مـن الحصول على كثير من الغنائـم، لأنه لم يكن بمقـدورهم الانتظار للقيـام بأعمال المطاردة للأعداء ونهبهم وسلبهم.

وفي الوقت نفسـه كـان الأتراك الذين يدافعون عـن المدينة قد سمعـوا بأن بوهيمـوند قـد ذهب بعيـداً، لذلك خـرجـوا بجـرأة، وركبـوا حـول المعسكر، محاولين معـرفـة القطاع الضعيـف فيـه، وهاجموا في أحـد الأيام المعسكر كله، وتقـاتلوا يداً بيد مع الصليبيين، ولم يكـونوا قد عـرفوا بعـد خبر هزيمـة رجـالهم، وانقض المسلمـون في ذلك اليـوم على معسكر الصليبيين واقتحموه، وقد جرى قتل الكثير من الصليبيين، كان من بينهم حـامل العلم العائـد إلى أسقف لى بوي، ولولا أن المدينة كانت مفصـولة عن المعسكر بأرض وعـرة وسبخـة، كانت متعـذرة العبـور، لتمكنوا من تدمير الخيام دون أن يمنعهم أحد، ولأحـدثوا دماراً واضطراباً في أوساط الصليبيين، الذين كانوا بالفعل ضعفاء إلى حد بعيد.

وأثناء عـودة بوهيموند مـن إقليم المسلمين بعدمـا نال النصر عليهم، لكن مع قليل من الأسـلاب، تسلق على جبل آخـر، لكن بما أن المنطقـة

كانت منهوبة تماماً، فقد عاد وكثير من رجاله فارغة أيديهم، وعلى هذا كانت جهودهم من دون ثمار، باستثناء أنهم حصلوا على نصر مشرف على الأتراك، لكنه لم يكن نصراً قضى على الجوع، وأشبع المقاتلين، حيث لم يكن هناك أي شيء مهما كان للأكل، وهكذا لم يدم السرور طويلاً، لأنه تأثر كثيراً بانعدام الخبز، ولقد عادوا إلى المعسكر، الذي كان يعاني من مجاعة لايمكن وصفها، ولا الحديث عنها.

وعندما شاهد الأرمن والسريان الذين كانوا جشعين كثيراً يحبون الربح كيفما كان، شاهدوا الصليبيين عائدين وأيديهم فارغة، مضوا مسافرين بعيداً إلى أماكن عرفوها، فاشتروا منها كل الأطعمة التي وجدوها، وجلبوها إلى المعسكر، وباعوا بأسعار باهظة كثيراً كل الذي تمكنوا من إحضاره رخيصاً، وانتشر الطاعون خلال المعسكر، وقدم الأثرياء صدقات كريمة إلى المحتاجين والمتسولين الذين كانوا يتنقلون من باب إلى باب، إنما مع ذلك لم يكن بإمكانهم إمداد الآلاف الكثيرة لأيام عديدة، ولذلك قرر بعضهم الفرار من المعسكر، وقد هرب بشكل سري كل من وليم النجار، وبطرس الناسك، وقد وجدهما تانكرد، فوبخهما، وجعلهما يعودان وهما يشعران بالعار إلى الجيش، بعدما وجه إليهما كلمات قاسية وعاقبهما بالعقوبة التي استحقاها، وفي ذلك الحين عانى الرجال والخيول من الآلام نفسها، وكانوا ضعفاء إلى حد فقدان الأمل بالنجاة مطلقاً، ومات عدد كبير من خيول الصليبيين، إلى حد أنه لم يبق في الجيش كله ألف فارس لديهم مطايا يمكنهم ركوبها.

وخاف تاتيكوس الإغريقي، الذي كان رئيس موظفي الامبراطور على حياته، وفقد السيطرة على نفسه وسط هذه المصاعب كلها، فتظاهر بالقيام بمهمة حمل رسالة إلى الامبراطور، ووعد بأن المحصلة سوف تكون مفيدة كثيراً بالنسبة إلى حلفائه، ولذلك قام بالمغادرة ولم يعد مطلقاً بعد ذلك إليهم، ووصف بفصاحة وبراعة إلى الامبراطور

ألكسيوس الأعمال الشجاعة والثبات مع المعاناة وآلام الناس الذين كانوا يتولون حصار المدينة، وحث غي ابن الدوق روبرت غويسكارد والنبلاء الفرنجة الكبار الآخرين، الذين كان يسير وراءهم كثير من الأصحاب، والذين استقبلوا بحفاوة وعوملوا بكرم من قبل الامبراطور في القسطنطينية، حثهم على الإسراع للالتحاق برفاقهم، هذا وعندما سمع الامبراطور بهذه الأخبار حشد جيشاً كبيراً، وانطلق مع كثير من العساكر لمساعدة الصليبيين، ولكن نتيجة لمشورة شريرة، سوف أتحدث عنها في الوقت المناسب، لم يقم بتنفيذ نواياه الطيبة.

وفي الوقت نفسه، كان كثير من الناس، وقد أصبحوا معدمين، تسللوا هاربين بشكل سري، وقد ذهبوا إلى حيث ظنوا أنهم يمكن أن يعيشوا، وما من واحد تجرأ على الذهاب نحو البحر، لأن الطرق والممرات كانت مراقبة، ثم انتشر خبر جديد بين الجميع، أفاد بأن قوة كبيرة من الأتراك باتت وشيكة الوصول، وأن الجميع صاروا الآن في خطر عظيم بالموت بشكل عنيف، ولذلك قام كثيرون —كما قيل— ممن كانوا هناك بتغطية وجه الأرض لأميال كثيرة في جميع الاتجاهات، وارتجف الصليبيون رعباً، وصارت وجوههم شاحبة، وقام كثيرون منهم بشنق رؤوسهم الضعيفة، لكن النبلاء غامروا في الإقدام على دخول المعركة والقتال، والتقى جميع السادة مع بعضهم بعضاً، وشجع أحدهم الآخر، وعندما شاهد بوهيموند الحكيم هذا، أثنى عليهم بحرارة، وحثهم على الدخول في المعركة، برأي حكيم وبكلام فصيح مقنع، وقد أمر الجنود الرجالة بالبقاء في المعسكر، للمحافظة على مراقبة دقيقة لأبواب المدينة، لأنهم كانوا يخشون أن يجري فتحها، ويتدفق السكان خارجين منها، وتوجه الفرسان جميعاً بالدعاء إلى اسم الرب يسوع وطلبوا منه العون، وتسلموا وتحصنوا بالقداس الكنسي، وركبوا وخرجوا من المعسكر وسط بكاء ونحيب القوتين، فما من واحد كان لديه ثقة بنفسه، سواء من بين

الكهنة، أو بين النساء، أو الجند بصورة عامـة، أو الفرسان، فما من واحد من الذين غادروا أو الذين بقيوا قد توقع بصورة مطلقة أن يرى أحدهم الآخر مرة ثانية، واندفعت الفئتان لتقبيل الأعزاء عليهم واغتسل الجميع بالدموع، واتخذ الفرسان موقعهم بين النهر الذي كان اسمه القديم دفني، وهو الذي يجري مجتازاً لمدينة أنطاكية والبحيرة، وقد سمعوا بأن الأتراك قد احتشدوا في قلعة حارم، خلف جسر الحديد، واجتمع نبلاء الصليبيين قبيل انبلاج الفجر، وعند الفجر أرسلوا كشافة مجربين، وقد عاد هؤلاء على الفور وهم يصرخون بأن الأتراك صاروا فوقهم، وأنهم قد شكلوا فوجين قويين، وفي الحقيقة كان بإمكانهم رؤيتهم وهم يزحفون بسرعة من الطرف الآخر للنهر، وعندها تباحث قادة الصليبيون حول تعبئة المعركة، عهدوا بالتعبئة إلى بوهيموند، فقام بتشكيل ستة أفواج، توجب على خمسة منهم الزحف لتحمل ثقل المعركة، وأعباء القتال، ولصد رتل العدو، ورده نحو الخلف بحملتهم عليه، وكان على بوهيموند التحرك نحو الأمام فيما بعد، أي بعد وقت قصير للإشراف على العملية، ولتقديم العون حيث كانت هناك حاجة، وإذا كان الأتراك قد حققوا التفوق على القوى الأولى، عليه وقتها المشاركة بالقتال بكامل القوات، وزعقت أبواق الحرب، وقرعت الطبول، وسمع الجيشان الأصوات العالية، فاشتبكوا في قتال عنيف، وقاتلت السرايا من على الطرفين يداً بيد، وتصادم ترس بترس، ووقع ترس كبير على ترس كبير، وتقارع المقاتلون بالرماح فحطموها، والسيوف فكسروها، وضغطت قوات النجدة التركية وهاجمت بإصرار وعناد، وبدأت بضعضعة صفوف الصليبيين، ولم يكن بإمكان الصليبيين الصمود أمام تلك الحملة الثقيلة، التي قامت بها حشود كبيرة من الناس، وبدأوا بالتراجع والتخلي عن المواقع، وكان الضجيج والصخب عالياً، وغطت سحابات الأسلحة المقذوفة السماء، وعندما نظر بوهيموند نحوهم، وألقى بناظريه نحو الأمام ونحو الخلف، شخر ونخر وصرخ بصوت مرتفع:« أيها المسيح

ثبت جنودك المسيحيين»، وأضاف صارخاً:« روبرب» إلى روبرت بن جيرارد، الذي كان حاملاً لرايته، وقال: حرك مطيتك السريعة، وابعث الشجاعة في الصليبيين المتضعضعين بوساطة شجاعتك، أرجوك، تذكر بني قومنا وآلنا، ولا تلوث شرف الفرنجة الساطع، وكن واثقاً بأن المساعدة سوف تأتي إلينا من السماء، هذا وإرادة الرب ينبغي أن نستحقها، ونال الجائزة كأبطال شجعان.

وقام روبرت، وهو محمي بعلامة الصليب المقدس، ومؤيد من قبل قواته الاحتياطية، بالانقضاض مهاجماً بسرعة ودخل إلى ميدان القتال، وأوقف الأتراك المتعطشين للدماء، بحكم أنه كان فارساً شجاعاً، وهاجم مباشرة الكفار، وبذلك جعل راية بوهيموند تخفق في وجوه الترك، وبصرخات مدوية أوقفهم، وعندما شاهد الفرنجة هذه الحملة وسمعوا الأصوات العالية الصادرة عن هذا القائد، تشجعوا من جديد، وحملوا على الأتراك وكأنهم رجل واحد، وتبعثرت الأسلحة في كل مكان، وتصاعد الشرر من الخوذ الفولاذية، وكثرت الجراحات، وصارت الميادين حمراء بلون الدماء، وكان بإمكانك رؤية أجساد ممزقة، ورؤوساً مقطوعة، وأجساداً بلا رؤوس، وكانت الجثث مبعثرة في كل مكان، وارتعب الأتراك تماماً، وفجأة اضطربت صفوفهم، وانهزموا، وطاردهم رجالنا بحرارة حتى ما وراء جسر الحديد، وقد قتل هناك عدد كبير من فرسان الأتراك، لأنه لم يكن هناك جنوداً رجالة في المعركة، وعاد الصليبيون إلى قومهم وهم مسرورين بعدما ربحوا نصراً عظيماً، وقد جلبوا كثيراً من الخيول معهم، التي كانوا بحاجة ماسة إليها، وجرى كسب كثير من الأسلاب والغنائم في المعركة، وعاد الأتراك بشكل فوضوي إلى قلعة حارم، التي قاموا بتهديمها وإحراقها، قبل تراجعهم إلى مسافة أبعد، وعندما شاهد الأرمن والسريان ذلك، نصبوا كمائن في الممرات، وقتلوا كثيراً منهم، وأسروا بعضهم وأخذوهم وهم أحياء، كما

وسلموا إلى الصليبيين قلعة حارم بعدما كانوا قد استولوا عليها، وحمل الصليبيون إلى معسكرهم مائة رأس مقطوعة، وجلبوها إلى معسكرهم لتشجيع رجالهم، ولتخويف المحاصرين، وشوهد هذا كله من قبل سفراء مصر، الذين حدث أنهم أرسلوا إليهم من مصر في ذلك الحين، وقد سكنوا إلى جانبهم في خيامهم، والذين بقيوا في المعسكر، قاتلوا بدورهم طوال اليوم ضد رجال أنطاكية، وراقبوا أبواب المدينة الثلاثة من دون إهمال لمنع أية قوة كبيرة من الخروج من المدينة، والقيام بهجوم، وجرى القتال في هذه المعركة في يوم ثلاثاء المرافع، أي في الثالث عشر من شباط، قبل بداية الصوم الكبير مباشرة.

ومع أن المدافعين قد هزموا مراراً في القتال، وقد خسروا الكثيرين قتلاً، وجرحاً، أو أسراً، كان ما يزال هناك حشد كبير في المدينة، وقد تزايد غضبهم، وقد هاجموا الصليبيين بمزيد من الإصرار، وهاجموا معسكرهم بشكل متواصل، ونصبوا الكمائن لهم، وأوقعوا بهم ومزقوهم بكل وسيلة أمكنتهم، وعدا عن هذا عانى الصليبيون من مصاعب كبيرة، حيث لم يكن بإمكانهم لا التخلي عن الحصار، ولا المغامرة بالابتعاد عن المعسكر، وكانت المنطقة قد تعرضت كلها للدمار، إلى حد أنها لم تعد تستطيع تزويدهم بأي نوع من الإمدادات، وقام الأتراك الذين عرفوا أين ينظرون، بإرسال من اشترى الحبوب لهم، وضيقوا الحصار على الصليبيين كثيراً، وفوق هذا كله، كانت كل مدينة، وكل حصن، وكل بلدة مهما كان نوعها، وكل رجل، وكل امرأة، وجميع الناس في القرب وفي البعد أعداء للصليبيين، وكان كل مكان مغلقاً لمنع التجار من الوصول إليهم، ولذلك وصلت المجاعة إلى درجات مرعبة، وكان النبلاء قد أظهروا المسؤولية تجاه الحشود، وحاولوا إيجاد طريق للتفريج عنهم، وقد قرروا تبني خطة قضت بتحصين مسجد (وقع إلى الشمال من نهر العاصي)، وقطع طريق الأتراك عبر الجسر، وقرروا

أيضاً، وجوب أن يذهب كل من الدوق بوهيموند، وريموند كونت طولوز إلى ميناء السويدية، وأن يجلبوا للمشاركة في أعمال الحصار الرجال الذين كانوا ينتظرون هناك(١).

وسلح الرجال الذين بقيوا في المعسكر أنفسهم، واستعدوا لبناء القلعة، لكن كتلة من الأتراك، كانت مساوية للفرنجة من حيث العدد والسلاح، هاجمتهم بجرأة وضغطت عليهم بقسوة متناهية، إلى حد إرغامهم على التراجع بسرعة، بعدما خسروا كثيراً من الرجال، ثم إنهم اكتشفوا بأن اثنين من القادة الكبار قد غادروا وسافروا إلى الميناء، فأعدوا بعناية عدداً من الكمائن المخفية بشكل جيد، وهاجموهما بعنف وهما على طريقهما عائدين من ميناء السويدية، وانقض المسلمون على الصليبيين وقاتلوهم بالنشاب، والسيوف، والرماح، والحراب، وصبوا عليهم ما يشبه السحب من كل نوع من أنواع السلاح، ومزقوا الصليبيين وقطعوهم من دون رحمة، وفعلوا ذلك وهم يزأرون ويصرون على أسنانهم نحوهم، وكان الرجال العائدين مع قادتهم غير مسلحين بشكل جيد، وغير محترسين من أجل القتال، ولم يكن بمقدور القوة الصغيرة من الصليبيين مقاومة مثل تلك الحملة الشديدة لوقت طويل، وكان أنه بعدما قتل ألف منهم في تلك المعركة، هرب الذين بقيوا.

فهكذا تكون حظوظ الحرب، ومثل هذا تتقلب أحوال الرجال والمواسم، فما من واحد ارتفع قط وقام من دون تغير في الحظ، وما من واحد تمتع قط، أو سوف يتمتع بازدهار مستمر، وبناء عليه علينا أثناء الازدهار أن نحترس ونحتاط ضد انقلاب الحظ، وفي أثناء المحنة علينا أن نأمل بالازدهار، وشكلت أخبار هزيمة الصليبيين ضربة ثقيلة إلى الذين تركوا في المعسكر، وازداد الأمر وتعاظم بسبب أنه لم يكن هناك

---

١— كان أسطول مشحون برجال انكليز قد رسا في ميناء السويدية في ٤— آذار ١٠٩٨، وجاءت حملة بوهيموند وريموند إلى هناك في اليوم التالي.

تقرير مؤكد حول عدد الذين ماتوا ولا عدد الذين بقيوا على قيد الحياة، ونجا الكثيرون من خلال التسلل عبر الجبال، وبسرعة وصلوا إلى المعسكر، وعاد بوهيموند عبر طريق قصير، ووصل قبل وصول كونت طولوز، وقدم شخصياً رواية صحيحة حول المأساة التي لحقت برجاله، وغدا الصليبيون أكثر حنقاً وغضباً منهم خوفاً، ولذلك توحدوا لمحاربة الأتراك، وثاروا بسبب مقتل رفاقهم، فاندفعوا بشجاعة وانقضوا على الكفار، وكان القتال مريراً من على الجانبين، وعبر الأتراك الجسر، وبجرأة وشجاعة واجهوا الصليبيين، الذين قدموا لهم استقبالاً قاسياً، لا بل أقسى مما كانوا قد راهنوا عليه، ودفعوا نحو الخلف، فحاولوا النجاة عن طريق الفرار، ولكن ما أن أداروا ظهورهم حتى أخذهم الموت، ذلك أن نجاتهم أعيقت بالجسر الضيق، وجريان النهر السريع والعميق، فكلاهما تبرهن بالنسبة لهم لا يعبران، فما من واحد كان بإمكانه أن يخوض النهر حول الجسر، ونادراً ما استطاع أي واحد منهم السباحة عبره، واندفع حشد كبير جداً من الفرسان مع بعضهم نحو الجسر لعبوره، ولما كان الفرنجة متعطشين للانتقام لرفاقهم ولنيل النصر، فقد اتخذوا قرارهم بإبادة هؤلاء من الوحوش الضارية، وضغطوا متقدمين، وهم متعطشين إلى الدماء، وسددوا الضربات نحو الأعداء بالرماح وبالسيوف في نزال جاء يداً ليد، وسقط كثيرون في النهر، وتقطع آخرون وماتوا بالسيف، وجرى النهر أحمر بالدماء وتغطى وجهه بالجثث، وضرب دوق غودفري الشجاع واحداً ضخماً من المقاتلين كان مرتدياً درعاً مذهباً، ضربه من الخلف بسيفه، فقدّه إلى نصفين بفعل قوة الضربة مثل قدّ رأس صغير من الكراث، وسقط الرأس والكتفين وكل ما فوق المعدة في النهر، وبقي الجزء الأدنى على ظهر الفرس الذي كان يعدو راكضاً.

أما الخيول التي كانت من دون ركاب فقد عدت مسرعة بسبب ما كان يحدث ودخلت إلى المدينة قبل دخول الهاربين، وأعنتها معلقة من

دون شد، وشعرت جميع الحشود التي كانت واقفة على طول الأسوار وعلى الشرفات بالألم والرعب تجاه المشهد وصرخت من دون وعي مع البكاء والنحيب، وجاء ذلك تجاه ضربة البارون الشجاع التي كانت مدهشة، ومضى ذلك اليوم بمثابة يوم متنوع أشكال الموت بالنسبة للكفار، وكان يوماً لم ينج فيه أحد من الحشد كله تقريباً من الموت، ومن نوافذ الأسوار ومن وراء الشرافات راقبت النساء ما نزل برجالهم من مصائب وشعرن بالحسد تجاه النجاحات المتوالية للفرنجة، وسقط في تلك المعركة اثني عشر أميراً وألف وخمسمائة من الفرسان المتميزين، وارتعب الآخرون وخافوا ولذلك لم يتجرأوا على التصدي للصليبيين، ووضع حلول الظلام نهاية للمعركة، وعاد الصليبيون منتصرين إلى معسكرهم، وهم يشعرون بالسرور والحبور في الرب يسوع، وجلبوا معهم كثيراً من الخيول والأسلاب والغنائم، وفي الصباح التالي جمع الأتراك أجساد موتاهم ودفنوهم في المسجد خلف الجسر، وخارج باب المدينة، ودفنوا معهم أرديتيهم وألبستهم، وأضافوا إلى ذلك قسيهم وجعب نشابهم وكثيراً من النقود الذهبية لحاجة الموتى إلى ذلك، وعندما سمع الصليبيون بذلك نبشوا القبور، وأخرجوا أجساد الموتى، وبذلك استحوذوا على كثير من الأشياء الثمينة، وجمعوا الجثث مع بعضها، وألقوها جميعاً من دون صلاة عليها في حفرة كبيرة واحدة، وأرسلوا أربعة من خيول التحميل محملة برؤوس الذين قتلوا لرميها أمام باب المدينة، وجاء ذلك على مرأى من سكان المدينة والسفراء من القاهرة، وكان الجميع ينتحبون ويبكون بمرارة إلى حد أنهم كادوا أن يموتوا حزناً وأسى.

وبدأ الصليبيون في اليوم الثالث ببناء القلعة التي تحدثت عنها أعلاه، واستخدموا الحجارة من قبور الناس التي نبشوها، وعندما غدت قوية بها فيه الكفاية، شددوا الحصار أكثر على العدو، وضيقوا عليه من قرب أكثر، وقام الفرنجة الآن أيضاً بالاحتشاش وجمع الأغذية بأمن أكبر في

الجبـال، وذهبـوا إلى هناك وتجولوا بحـرية أكبر لجمع التبن وجميع أنواع إمدادات الطعـام، وعلى كل حال لم يكن الصليبيـون قد تمكنوا بعـد من نصب خيامهم عبر النهر، وتجول الأتراك هناك بأمان نسبياً.

وهكذا جـرى بناء على رأي عـام بنـاء قلعـة على الجانب الآخـر من النهـر( على هضبة إلى الجنوب تماماً من باب القـديس جورج)، وعقـد تانكرد الشجاع اتفاقاً مع قادة الفرنجة من أجل حراستها، ذلك أن جميع الآخـرين رفضـوا التعهـد بالقيـام بهذا العمل، وقـام تانكرد مع رفـاقـه المنتخبين ومساعـديه بشحن القلعة بالـرجال، واحتفظوا بذلك بحـراسة مشـددة على المدينة المحـاصرة، وراقبـوا من دون تعـب جميع المداخل والمخـارج، وفي أحد الأيام عـرف عن طريق الجواسيس بوجـود سريان وأرمن ينقلـون أحمالاً من الأشيـــاء الضروريـة إلى المدينة، وذلـك كما اعتادوا أن يفعلوا، فانقض عليهم، وانتزع منهم أحمالهم، وبنصر استحوذ هكذا على أسلاب ثمينة وعلى إمـدادات من الأطعمة، وبذلك تمكن من تزويد أصحابه وإمـدادهم، وأصيب المدافعون عن أنطاكيـة مع مؤيديهم بكثير من الرعب، لاسيما وأنهم كانوا قد أصيبوا بالإنهاك نتيجة للمشاق المتـواصلة والمآسي، وكـان الفـرنجة حـادين بطبـائعهم، أكثـر خبرة بفن الحرب، كما كانوا أكثر جرأة بشكل طبيعـي، وعلاوة على ذلك كانوا قد أخـذوا على عاتقهم القيـام بحملة إلى بلاد نائيـة، وبين شعـوب غريبـة، وكانوا يتمتعـون بالصبر أثناء المعاناة، يدعون إلى الرب ويلتمسـون عونه لتلبية حـاجاتهم، كما كـانوا يقومـون بشكل متواصل بالتـوبة من ذنوبهم بتقوى، وأعني بذلك ذنوبهم البشرية.

ودخل فيروز الداشيـاني Datianus ، الذي كـان أميراً تـركيـــاً من حيث الأصل، وكـان تحت إمـرته ثلاثة أبراج من أبراج المدينة المحـاصرة، دخل بعقـد صـداقـة مع بوهيمـوند، مـن خـلال وسـاطة بعض الوسطاء المخلصين، وذلك أنه كـــان قـد سمع عن بـوهيمـوند كثيراً من التقـــارير

الجيدة، وقد اتصلا ببعضهما بعضاً مراراً من خلال رسل موثوقين. وبوساطة شارات متفق عليها، وحثه بوهيموند مراراً على التحول إلى المسيحية، وأغواه أحياناً بجميع أنواع الوعود من أجل أن يسلمه المدينة، وبما أنه كان رجلاً مجرباً لم يترك شيئاً لم يجربه ويحاوله معه، ففي بعض الأحيان ضرب على وتر خوفه من المأساة التي تهدد المدينة، وفي حين آخر جذبه بإخباره عن الجوائز الوافرة والثواب العظيم الذي كتب بشكل جلي من قبل الرب للصليبيين، واستجاب فيروز أخيراً ورضخ لصديقه المشهور، وعرض عليه تسليمه أبراجه الثلاثة، ووعد بأن يعطيه ابنه بمثابة رهينة، وحثه على القيام بإنهاء المخاطرة في أقرب فرصة ممكنة، وأخفى بوهيموند الماكر سروره الذي شعر به، وإلى أن حان الوقت لم يسمح لملامح وجهه ولا لكلماته بفضح أي شيء، وبعد هذا تباحث هو والأعيان حول صعوبات الاستيلاء على المدينة، وحول قسوة وشدائد الحصار الطويل، وعظمة المحافظة على الجيش المنتصر، وحث على وجوب أن يمنح الجميع الحق بأن يحكم أنطاكية أي واحد منهم يمكنه أن يحصل عليها بالرشوة أو بالقوة أو بالصداقة، أو بأية وسيلة من الوسائل.

وفي البداية لم يستجب القادة إليه ولم يمنحوه أذناً صاغية، بل أصروا على وجوب أن تكون إلى الجميع عموماً، بسبب أن الجميع تشاركوا في الصراع هناك، وبعدما سمع الأمير الحكيم الاعتراضات الكثيرة، احتفظ بهدوئه، وانتظر حول لحظة موائمة حتى يصل إلى غايته، وبعد وقت قصير انتشرت إشاعة بثها رائد الشر، وعمت أرجاء المعسكر حيث أفادت بأن حشوداً من الأتراك، والبوليسيين، والأوجلانيين Agulani ، والأزميتيين Azymites ومن شعوب أخرى كثيرة كانت تتقدم وقد اقترب وصولها بعدما تحالفت مع بعضها في شن الحرب ضد الصليبيين، وما لبث أن وصل رسل موثوقين واندفعوا إلى الداخل حيث أكدوا أخبار الخطر الجسيم، ولذلك تداول قادة الصليبيين مع بعضهم،

وبمبادرة منهم قالوا لبوهيموند: إنك ترى أن حظنا ومصيرنا معلق في الميــــزان، وبناء على هـذا إنك إذا مـــا تمكنت مـن نيل هـذه المدينة بالمفاوضات والسياسة، أو الرشوة بمساعدتنا، نحن جميعاً نوافق على منحها لك، باستثناء في جميع الأشياء، اليمين الذي— بموافقة منك— أديناه للامبراطور، فإذا ما جاء الامبراطور ووصل إلى مساعدتنا كما وعد، وحافظ على العهد المعمول معه والمقسم عليه، سوف لن نكون مجرمين بالحنث، بل سوف نمنحه الذي تقرر بموافقة منك، وإذا لم يصل، عندها لتكن المدينة خاضعة لك إلى الأبد.

وقام بوهيموند على الفور بإرسال رسالة أخرى إلى فيروز، الذي قام من دون تأخير بإرسال ابنه ليكون رهينة لديه، وقال: ليقم المنادي بالإعلان بصوت مرتفع في معسكركم بأن على الفرنجة أن يقوموا اليوم بالاستعدادات للخروج من أجل الاحتشاش وجمع المؤن في أراضي المسلمين في يوم الغد، وبهذه الطريقة سوف تنستر نوايانا عن رجالنا وعن رجالك، فعندما سيعلم رجالنا، بأن القسم الأعظم من أعدائهم، قد ذهب وابتعد سوف يرتاحون ويتخلون عن حراساتهم، وفي هدوء الليل، تدبر أن تقدم مسرعاً وبصورة سرية وأنت حامل للسلالم، لوضعها على السور، من دون أي صوت، وتسلق الأسوار بسرعة وبثقة لتستولي على أبراجي حسبما وعدتك، ثم افعل الذي ينبغي أن تفعله، وضع نهاية لهذه المخاطرة بسيوفك، وكن حريصاً في أن لا تهمل أي شيء ينبغي عمله، وأنا شخصياً في حالة استنفار ومن دون نوم، وسوف أنتظر وصولك، وبناء عليه أمر بوهيموند مناديه الذي كان اسمه إيل— تونسورد Ill-tonsured بأن يعلن في أرجاء المعسكر بأن على الجميع الخروج والركوب إلى أراضي أعدائهم، وعهد بسره إلى الدوق غودفري وإلى كونتات: فلاندرز، ونورماندي، وطولوز، وإلى أسقف لى بوي، وإلى بعض الأعيان الآخرين، وكان تانكرد مع مستشاريه أيضاً

على دراية بالموضوع كله من البداية، ولم يكن ستيفن أوف بليوس هناك في ذلك الوقت، وذلك منذ أن أعلن أنه مريض جداً، وذهب إلى الاسكندرونة للاستراحة ولكي يسترد صحته.

وقام الجيش الصليبي الذي لم يكن يعرف شيئاً عن العملية بمغادرة المعسكر قبيل حلول الظلام، وبعدما اقتيد إلى بعض الأماكن النائية، عاد قبل الفجر— عبر طرق موائمة— إلى مكان قريب من المدينة، وفي الوقت نفسه أمر بوهيموند عساكره بوضع السلالم، التي صنعوها بعناية، وإسنادها على السور، وصعدوا عليها واثقين من دون إصدار أي صوت، ثم إنهم حملوا أسلحتهم، ثم كان عليهم بعد ذلك تنفيذ ما توجب عليهم عمله بحكمة، مع عقل متيقظ، وسلاح جاهز، وكان أول المتسلقين رجلاً من جنوب إيطاليا اسمه بين Pain، وقد تسلق وهو خائف يرتجف، وتبعه فوتشر أوف تشارترز، وروجر أوف بارنفيل، وغيوفري بيرنت Parent أوف كاسل— ساغرات Castel-sagrat ، وحوالي الستين من الآخرين، وبحذر وحيطة تقبلهم فيروز وجعلهم يتملكون أبراجه، ولكن عندما لم ير المزيد قد لحقوا بهم، يقال صرخ عجباً وخوفاً قائلاً بلسانه ما معناه:« وا أسفاه، وا أسفاه، لدينا قليل من الفرنجة»، ولذلك نزل اللومباردي بسرعة على السلم، وقال لبوهيموند الذي كان ينتظر على مسافة قصيرة:« ماذا دهاك؟ هل أنت نائم؟ أرسل الرجال الذين نويت أن ترسلهم على الفور، لأننا سالمين وقد استولينا على ثلاثة أبراج، وإذا لم تفعل ذلك فإنك سوف تخسر المدينة وتدمرنا وتدمر صديقك الذي وضع أمله كله فيك، وعهد بحياته لحفظك؟».

وعندما سمع بوهيموند هذا مع رجاله الذين كانوا معه، اندفعوا نحو الأمام أسرع من الكلام، وتسلق كثيرون وصعدوا إلى أماكن متحكمة، وبتوجيه من فيروز احتلوا سبعة أبراج أخرى، وبعدما قتلوا جميع الذين وجدوهم هناك، اندفعوا وهم يصرخون على طول الأسوار وخلال

الطرقـات، دون أن يوفـروا إنسـاناً اعترض سبيلهم، وأمـا سكان المدينة الذين كـانـوا منهكين من عناء الحصـار الطويل، فقـد استيقظوا للتـو، وخـرجـوا من بيـوتهم غير مسلحين، وهم أشبـه بالنيـام، وقـد تولاهم الذهول بسبب النوم وضجيج الأصوات، قـد وجدوا أنفسهم جميعاً غير مستعدين لقتـال رجال كانوا مستنفرين، وبما أنهم كـانوا جاهلين بالذي حدث، فقـد أخطأوا ولم يميزوا بين أصدقائهم وأعـدائهم، في حين كان الصليبيون حيثما واجهوهم قاموا بتقطيعهم وتذبيحهم مثل النعاج، حتى أن أخا فيروز لأمه قتل وسط المذبحة.

وفي الوقت نفسه شرع كثيرون بالتجمع والاحتشاد فوق السلم، حتى أنه انكسر وتحطم إلى أجـزاء، ولذلك مـا من واحـد من الذين كـانوا ينتظرون بالأسفل قرب الأسوار، بات بإمكانه تقديم المسـاعدة إلى رفاقه الذين كـانوا يقـاتلون في الأعلى، غير أن الرب الرحيم سـاعـدهم في وضعهم الصعب إثر الحادث الذي وقع، فعندمـا كـانوا يتحسسـون على محاذاة السور من جهة اليسار وجدوا بابا، هم لم يلاحظوه من قبل عندما قامـوا باستطلاع المنطقة قبل بضعة أيام، مع أنه لم يكن بعيـداً عن موضع السلم الذي تحطم بإرادة من الرب، واقتحمـوه، ثم اندفعوا من خـلاله، ثم تصاعدت أصـوات عالية وهدير مرتفـع، وامتلك الفرنجة الآن مجالاً واسعـاً للقتـال، حيث كـان الأتراك يغطون بالنوم من شـدة سكرهم، واندفع الصليبيـون وسط الظلام الموحش والمميت، وذلك عندما حـاول الكفـار النجـاة من الخطر العظيم، وتضـاربوا مع الصليبيين، وناضلوا في سبيل النجاة مـن الهجوم الذي نزل بهم وهم غير متيقظين، فلقـد أصيبوا فجأة بموت لا يعرف الرحمة، ورفع علم بـوهيموند فوق المدينة بناء على أوامره، ونصب على مقربة من القلعة التي قامت على أعلى تلال المدينة.

واستولى الصليبيـون على أنطاكية يوم الأربعاء الثـالث من حزيران، وذبحـوا أعـداداً لا تحصى من الكفـار هناك، ففي تلك الليلة لم تقـدم

الرحمة لا إلى العمـــر أو الجنس أو إلى أي نـوع من الأحـــوال، ومع الصبـاح أفـاق الذين كـانـوا قـد بقيـوا في المعسكر على صراخ الناس والصلوات من أجل النصر، وقـد شـاهدوا وتبينوا علم بـوهيمـوند، فعـرفـوا وهم مسرورين بأن المدينة جـرى الاستيـلاء عليهـا، وعندها اندفعـوا نحو الأبواب، ودخلوا إلى المدينة، وقـدمـوا مساعـدتهم بكل حـرارة وإخـلاص إلى رفـاقهم، وكـان أي تركي وجـدوه وهو يحاول النجـاة يقتلونه حيـث هو، وعلى كل حـال تمكن بعـض الأتراك من الفـرار من خلال الأبواب لأن الفـرنجـة عندمـا كانوا مندفعين نحـو الداخل لم يلاحظوهم ولم ينتبهوا لهم.

واختبأ يغي سيان قائد الأتراك وأمير أنطاكية بين الفارين، فتمكن من النجـاة من المدينة، ووصل إلى منطقة تانكرد، وأرغم هناك على التـوقف لأن فـرسـه مع خيول الـذين كانـوا مرافقين له أصـابها الإنهاك، وأخـذ طريقـه إلى كـوخ، وعندمـا عـرف السريان والأرمن، الذين يسكنون في تلك المنطقـة، والذين كـانوا قد عـانوا كثيراً على يديه، علمـوا بوجـوده هناك، اندفع حـوالي العشرين منهم نحو ذلك المكان، فأمسكوه وقطعـوا رأسـه، الذي قدمـوه إلى بوهيموند، وبهذه الطريقـة حصلوا على كل من ثنائه وحظوته وعلى حريتهم التي كـانوا يأملون بالحصول عليها، وهكذا هلك يغي سيان بسبب سـوء حظه، وغير معروف بشكل مـؤكد فيما إذا كان قد هرب من دون أي خطة لديه، أو أنه كـان ذاهباً ينشد العون من أبناء جلدته، وهنـاك شيء واحـد مـؤكـد، هو أنه لو التجأ إلى قلعتـه واعتصم فيهـا لكان أفضل له ولشعبـه، وكـانت جميع سـاحـات المدينة وأزقتها مكتظة كثيراً بجثث الذين قتلوا لـذلك كان من الصعب، لا بل من شبه المستحيل شق الطريق والسير بهم، وكانت مواضع التقاء الطرق والطرق مغلقة بجثث القتلى، إلى حـد أن جميع الذين ساروا هناك تغلب عليهم الرعب مع الروائح التي صدرت عن الجيف.

— ١٠ —

ومع انتشار أخبار سقوط أنطاكية، تعرض كثيرون ممن وصلوا لنجدتها، أو كانوا على طريقهم إليها، للقتل، والتجأ آخرون إلى القلعة، وحاول آخرون الحفاظ على حياتهم بالفرار، وبادر شمس الدولة بن يغي سيان إلى مقابلة كربوغا، القائد الأعلى لدى السلطان، ملك الفرس، وأخبره مع دموع مريرة عن المصير المرعب الذي ألم بأبيه وببلاده، ففي أثناء وقوع يغي سيان تحت حصار الغربيين، أرسل كثيراً من الرسل إلى كربوغا يحثه على القدوم للتفريج عن أنطاكية، وفي اليوم الثالث، بعد سقوط المدينة بيد الصليبيين سلم شمس الدولة نفسه وجميع ممتلكاته والقلعة التي كانت تتحكم بالمدينة كلها، إلى كربوغا، وبالتماساته الحثيثة ودموعه، ووعوده أثاره للقيام بمهاجمة الصليبيين، هذا وكان كربوغا رجلاً شجاعاً ومحارباً، ورجل دولة، كما كان ثرياً ومتشوقاً للمجد والفخار، وكان أيضاً مفوضاً من قبل الخليفة— الذي كان البابا بالنسبة لشعبه— للقيام بتدمير الصليبيين، وكان قد أقسم أنه لن يعود إلى وطنه قبل أن يخضع سورية وبلاد الروم، لا بل حتى أبوليا، تحت سلطانه، وكان لديه ثقة كبيرة بقدرته، لأنه كان لديه عدداً لا يحصى من الناس كانوا معه، وكان ملك دمشق وأمير القدس متحالفين معه، وكذلك الترك والعرب مع المسلمين والبولسيين، والأزميتيين، والأكراد، والفرس، وتبعه ثلاثة آلاف من الأوجلان، ولأنهم كانوا لابسين لدروع حديدية، كانوا لا يخافون لا من النشاب ولا من الرماح، ولم يحملوا إلا سلاحاً واحداً هو السيف أثناء القتال، فهؤلاء كانوا هم حشود الأعداء الذين نصبوا خيامهم عند جسر الحديد، واستولوا على الفور على القلعة التي كانت هناك، وقتلوا جميع المدافعين عنها باستثناء قائد القلعة، الذي وضعوه في أغلال حديدية، وقد وجد حياً بعد المعركة التي ربحت.

واستولى المسلمون على بعض الأسلحة البائسة، التي عادت إلى

بعض الجنود الفقراء، وكانت عبارة عن سيف علاه الصدأ، ورمح صغير، وقوس لا قيمة له، وأخذوا هؤلاء إلى كربوغا وسط سخرية كبيرة، وذلك للحط من شأن الفرنجة، وقام هو بدوره بإرسالهم إلى خراسان مع استخفاف وازدراء كبير، وبفخار أجوف أثار مشاعر الكفار المريرة ضد المسيح.

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث والوقائع وصلت أم كربوغا قادمة إليه من مدينة حلب، لقد جاءت إلى ابنها وشرعت في توجيه اللوم إليه بكل قسوة من أجل المخاطرة التي تولاها، وتنبأت له بوضوح بأنه سوف يواجه الهزيمة على أيدي الصليبيين، وسوف يموت خلال سنة بشكل عنيف، لكن ليس في المعركة، وكانت امرأة متقدمة بالسن كثيراً، حيث قارب عمرها المائة عام، وقد تنبأت بأشياء سوف تحدث، وبحكم أنها كانت ساحرة فقد حصلت على كثير من المعلومات من مستشاريها، ذلك أنها كانت عارفة بالتنجيم وبكثير من فنون المعرفة، وأوقف المحارب المتفاخر دموع أمه بوعود جوفاء عالية، وقام في اليوم الثالث بدخول القلعة الحصينة وبصحبته قوة كبيرة، وفعل ذلك لأن أمرها قد عهد إليه.

وخرج الصليبيون وقاتلوا المسلمين، لكنهم كانوا ضعفاء أمام الأعداد الكبيرة والقوة العظيمة، ولذلك أرغموا بسرعة على الرجوع إلى المدينة، وسحق الكثيرون حتى الموت، أثناء الاندفاع المفاجىء للعودة خلال المدخل الضيق لباب المدينة، وضغط الأتراك عليهم بشدة، وبذلك جرى أسر عدد كبير من الصليبيين اليائسين، لكنهم عزوا بعضهم بعضاً ووضعوا خططاً للقتال في اليوم التالي، وقام بعض الذين كان خوفهم أقوى من الحق أو الواجب، قاموا على الرغم من لحوق العار بهم، باتخاذ قرار بمحاولة الفرار أثناء الليل، وكان وليم أوف غراند ميسنيل Grandmesnil مع أخيه أوبري، وغي تراوسل Troussel ، ولامبرت الفقير ومعهم عدد كبير من الآخرين، استبد

بهم الرعب بشكل كـامل بسبب معـركـة اليـوم الماضي، ولأنهم كـانوا خـائفين كثيراً من اليوم التـالي، فروا، بأن نزلوا متـدلين من فوق السـور بوسـاطة الحبـال، ونتيجـة لذلـك أطلق عليهم اسم «راقصي الحبـال المتـآمريـن»، مما ألحق بهم عاراً لا يمحى، وقـد سـاروا طوال الليل على طول الشعاب الجبلية الوعرة ومعهم كثير من الأصحاب، ووصلوا وهـم يسيرون على الأقـدام إلى ميناء السويدية، وقـد تقطعت أيديهم وأرجلهم حتى العظام، وقد وجـدوا هناك كثيراً من السفن، وقد حـذروا البحارة الذين كانوا ينتظرون في الميناء من دون قـرار، وبما أنهم أخبروهـم أخباراً مرعبة حيث قالوا بأن أنطاكيـة قد استولى الأتراك عليها، وأن الصليبيين قد أبيدوا من قبل الكفار، قـام بعض البحارة لدى سماعهم لهذه الأخبار برفع المراسي على الفـور، وانطلقـوا إلى داخل البحـر، ونشروا أشرعتهم ووجهـوها نحـو الريح، في حين تأخـر آخـرون، حيث أخفـوا نواياهم، لكن كان الجميع مرعوبين ويائسين.

وفي أثناء وقوع هذا كله، كان هناك أتـراك يتولون استطلاع الساحل، وقد ظهروا فجأة، فذبحوا البحـارة المرعوبين والذين كانوا عاجزين عن الدفـاع عن أنفسهم، ونهبـوا المراكب التي كـانت مـا تزال في الميناء، ثم ألقوا فيهـا النيران فحولوها إلى رمـاد، وقطعوا إلى قطع من دون استثناء كل رجل وجدوه هناك، وتحمل المدافعـون عن أنطاكية هجمات القوات التركيـة طوال اليوم، وبإلهام مفـاجىء جـاء إلى قادتهم، بنوا جـداراً من الحجارة الجافة— من دون ملاط— بين المدينة والقلعة، وجاء هذا البناء بمثابة عـون ثمين للصليبيين في دفاعهم، وعائق مـربك بالنسبة للأتراك في أي هجوم قـاموا به، وحـافظ الفرنجة على حـراسة غير متـوقفة على طول الجدار، ولم يسمحـــوا لأنفسهـم بأي نوم أو أي نـوع آخـــر من التراخي، وفي الوقت نفسه انتشرت المجاعـة ببطء، وأرغم الذين كانوا تحت الحصـار على أكل الخيول والحمير وأشيـاء أخرى كثيرة غير نظيفـة

كانت متوفرة، وفي أثناء هذه الضائقة الشديدة توجه المؤمنون بالدعاء إلى الرب، وقد أصغى المولى إليهم.

فبينما كان أحد الكهنة يمضي الليل في كنيسة القديسة مريم، ويصلي من أجل شعب الرب المتألمين، ظهر المولى يسوع المسيح مع حشد من القديسين إليه، وذلك عندما كان وسنانا وشبه نائم، وقد اشتكى من الزنا الذي اقترفه الصليبيون مع العاهرات المسيحيات والأجنبيات، مضيفاً تهديداً صارماً ضد الرعاع الذين يترددون على أماكن العهر، وفي أثناء ذلك أشع صليب باهر بنوره فوق رأسه، وبوساطة ذلك عرف الكاهن مخلص العالم، ولذلك انكب على وجهه وتعبده، ثم إن مريم المباركة، أم الرحمة،والقديس بطرس رئيس الرسل، انكبوا على قدمي المولى المخلص أثناء قيامه بالتهديد، وبإخلاص وتقوى تشفعا من أجل آلام الصليبيين، ولطّفا من غضبه، لأنهما اشتكيا من قيام الكفار بتدنيس بيوت الرب بشكل مخجل بآثامهم، وبعدما قدما التماسهما، تقبل الواحد الأكثر قداسة صلوات أمه وصلوات الرسول، وبملامح أكثر رضا، أمر الكاهن بأن يوجه اللوم إلى جميع الناس بشكل عام ومعلن وأن يدعوهم إلى توبة كاملة وافية، مع وعد بالغفران باسم الرب، وأنهم إذا ما تغيروا حقاً وآمنوا، فلسوف يجلب الرب إليهم الخلاص والنصر خلال خمسة أيام معدودة، وأكد الكاهن هذا بأداء اليمين على الانجيل المقدس، وعلى الصليب بحضور أسقف لى بوي، وحشد كبير من الناس، وعلى الفور شرع الناس بالبكاء والنحيب، وحث كل واحد منهم الآخر على الاعتراف بذنوبه، ففي الكنائس وفي كل مكان صلوا جميعاً إلى الرب، ورجوه سائلين العون والتوجيه، وفعلوا هذا وهم عراة الأقدام، والرماد على رؤوسهم، والدموع تسيل نازلة على وجناتهم.

وباتفاق عام أقسم القادة جميعاً، أنه ما من واحد منهم سوف يهجر تلك الجماعة ويتخلى عنها ما دام حياً، وذلك إلى أن يصلوا إلى القدس،

ويقبلوا ضريح الرب، لا بل إن تانكرد أقسم أنه ما دام يمتلك أربعين فارساً هو لن يتخلى عن الزحف إلى القدس، وشجع هذا الإعلان الصليبيين كثيراً، وجعلهم يفرحون ويطمئنون.

وقام بطرس إبراهيم، الذي كان كاهناً من بروفانس، برواية خبر هذه الرؤيا إلى رفاقه، حيث قال: أثناء حصار أنطاكية، عندما كنا نعاني من كثير من الآلام والمآسي، ظهر القديس أندرو الرسول إليّ، واقتادني إلى داخل كنيسة القديس بطرس( القسيان) الموجودة في هذه المدينة، حيث أشار إلى بقعة محددة بيّنها لي وقال: أرغب إليك أن تعرف أنك عندما دخلت إلى هذه المدينة، سوف تجد هنا سنان الرمح الذي خرق جانب مولانا ومخلصنا عندما كان على الصليب، وهذا أثر مقدس مبجل كثيراً، وبعدما قال هذا اختفى الرسول، وأنا لم أمتلك ثقة كافية حتى أبوح بما رأيت إلى أي واحد، وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة، رأيت الرسول نفسه مرة ثانية حيث قال لي: يا قليل الإيمان لماذا لم تقم بكشف سنان الرمح؟ وله أجبت: أيها المعلم إنني إذا ما قلت هذا من الذي سيصدقني؟ فقال الرسول لي: لا تخف، لا تخف بل اعلم بشكل مؤكد أن جميع الأشياء التي أخبرتك عنها، وأريتك إياها هي حقيقة، وهذه الرؤيا سوف تكون وسيلة تشجيع كبيرة إلى الصليبيين المنهكين، فسنان الرمح سوف يوقظ شجاعتهم وسوف ينقذهم، وخلال خمسة أيام سيأتي الرب إليهم، وسوف يكون قوياً لإنقاذهم من أيدي مضطهديهم، وأباح بطرس خبر النصيحة التي تلقاها من الرب إلى رفاقه، لكن الناس لم يصدقوه وسخروا من شهادته، ومع ذلك هو أصر عليها وكررها، وأقسم على صحتها، وأخيراً صدق الناس ما أقسم عليه، واستردوا ثقتهم الماضية وقدرتهم على تحمل آلامهم.

وفي الوقت نفسه قام الأتراك الذين كانوا في القلعة بمهاجمة الفرنجة بصورة متوالية، وقام الفرنجة بالمقاومة بكل طاقتهم، وفي أول اشتباك

قتل روجـر أوف بـرنفيل ودفن من قبل الصليبيين في كنيسـة القـديس بطرس مع نحيب كبير، فقـد كـان من أصـل نورمـاندي عـالي النسب، وكـان فارسـاً ممتازاً وصـاحب شجاعـة كبيرة، وفي يوم من الأيام حبس الأتراك ثلاثة من الصليبيين في أحـد الأبراج، ولم يتجرأ الفرنجـة، الذين كـانوا منهكين من المعاناة، على مسـاعـدة الرجال الذين حبسـوا، وتمكن اثنان منهم من الخروج من البرج بعـد إصابتهما بجراح بـالغة، واستطاع هيوج أوف بيرسيرك Berserk الذي كان عسكرياً شجاعاً جداً من جيش غودفري أوف مـونتسكاغليوسو Montescaglios ، أن يدافع عن نفسه طوال النهـار، ومن دون مساعـدة أحد قتل اثنين من الأتراك، وقـاوم جميع الهجمات القوية ضـده بذراعه وسـلاحه لوحـده، فقد كـان والحق يقـال رجـلاً، عظيم الجرأة والشجاعـة، استحق ثناء خـاصـاً بين جميع المحـاربين، وكـان مـؤشراً على حـالـة الإنهاك الكاملة التي ألمت برجـالنا، بعـد الذي تحملوه وعـانوا منه بشكـل مـريع، أنهم لم يتمكنوا طوال ذلك اليـوم من تقديم مسـاعدة إلى واحـد من رجالهم الذي كـان يقـاتل لوحده، وحـولوا آذانهم إلى آذان صماء لم تسمع صراخه، فعندمـا استـدعى القـادة الفـرسـان لم يقـدمـوا، وعندمـا زعقت الأبواق بقيـوا متمددين في بيوتهم، ففي حالة إنهاكهم وعجزهم خافوا من القتال الذي رغبوا به منـذ مدة طويلة جداً، حيث كـانوا مرعـوبين نأوا بأنفسهم عن المجد والحرب ورغبوا بالموت فقط.

وعندمـا شاهد بوهيمـوند مع القـادة الآخرين أن الجيش كـان محطماً بروحـه المعنوية إلى حد أنهم لم يتمكنوا من قيـادة أفراده لحراسـة الجدار الذي خدم بمثـابة حاجز ضعيف بين المدينة والقلعة، أمـروا بإلقاء النار في المدينة حتى يرغموهم على الخروج من البيـوت والمخابىء التي كانوا متسترين بها، وهكذا أشعلت النار في جزء المدينة الذي يتحكم فيه قصر يغي سيـان، واشتعلت النيران من دون توقف من السـاعـة الثالثـة حتى

منتصف الليل، وقد لحق الدمار حوالي الألفين من البيوت والكنائس، وخمدت النيران عندما توقفت الرياح، وعندما كانت النيران تستعر في بيوت الصليبيين، بادر هؤلاء مسرعين إلى التقاط مقتنياتهم والخروج حيث أرغموا على البحث عن ملاجىء مع قادتهم، وقد منح كل واحد منهم مكاناً عند واحد من أبواب المدينة لمداومة الحراسة، وكانت الاشتباكات بين الفرنجة والأتراك الذين كانوا في القلعة مستمرة من دون توقف، ويداً بيد، وانحصروا في قتال قريب من دون لحظة للتوقف، وكان الأتراك أكثر عدداً، ومجهزين بصورة أفضل بالطعام، وقاتلوا نوبة تلو نوبة، وحاولوا كل شيء، وضغطوا على الفرنجة بجرأة، وألقوا بأنفسهم من دون حذر في أتون المعركة، وشجعوا بعضهم بعضاً، ومن جهة ثانية كان الفرنجة مرهقين جداً، مترنحين، وغير قادرين على تناول طعام أو نوم لأنهم لم يمتلكوا لحظة واحدة للتوقف والاستراحة، ولذلك شرعوا ببناء جدار مرتفع من الحجارة مع استخدام للملاط والكلس، لأن الأتراك كانوا قد تمكنوا بسهولة من إزالة الجدار الذي شيد من حجارة من دون ملاط.

وظهر في إحدى الليالي لهب في السماء من جهة الغرب، وبدت النيران وكأنها ساقطة على معسكر الأتراك، وقد استعرت في داخله، ومع أن النيران كانت غير مؤذية، فإنها ملأت الكفار بالرعب والخوف الشديد، وفي الوقت نفسه شجعت الصليبيين وبعثت السرور في أنفسهم، فقد جاءت وكأنها إنذار من السماء لكلا الشعبين، وحافظت حامية القلعة على رمي الحراب والنشاب، موقعة الجراح فوق الجراح، وطوق الجيش المحاصر المدينة وضيق عليها إلى حد أنه ما من واحد بات بإمكانه الدخول إليها أو الخروج منها أثناء النهار، ففي أثناء الليل كان من الممكن أحياناً الخروج منها، لكن فقط بشكل سري وفي خوف عظيم، وازدادت المجاعة شدة وقسوة يومياً، وسببت آلاماً لا يمكن

تصـورها بالنسبة للصليبيين، وفي الحقيقـة مات كثيرون من الجوع، فقـد بيع رغيف صغير مثل قطعــة من الرقـائق بقطعـة ذهبيــة، عند توفـره، وعدت جثث الخيول والحمير طعامـاً شهياً يليق بملك، وكلفت دجاجة خمسة عشر شلناً، وبيضة واحدة شلنان، وقدر ثمن جوزة واحدة بنس، وصارت أشياء كثيرة مرذولة تساوي دنانير كثيرة، ولسوف يكون مرهقاً بالنسبــة لي أن أتحدث عن جميع المتـاعب والآلام وأنواع العــذاب التي تحملتهـا الحاميـة الصليبيـة خلال الستـة والثـلاثين يومـاً (الأصح ستـة وعشرين يوماً) التي حوصروا بها في المدينة، فبهذه الطريقة عرّض الرب أبطاله للامتحـان، فقد تفحصهم في أتـون البلاء حتى تمكنوا من التـوبة من ذنوبهم، وعندما باتوا متطهرين كافأهم بكرم.

وفي الوقت نفســه كـان ستيفن كـونت أوف تشــارترز، الذي ادعى المعـاناة من مرض خفيف وذهب إلى اسكنـدرونة للاستشفاء والنقـاهة، كما تقـدم الذكـر أعـلاه، كـان الجميع ينتظرونه بقلق وينتظرون عـودته، حيث أنه كـان الرجل الذي اختاره جميع الأعيـان قائـداً لهم ومستشاراً، ذلك أنه كـان رجلاً عظيم البـلاغة وصـاحب معارف مـدهشة، وكـان عندمـا سمع بأن الأتراك يحاصرون اسكندرونة تسلق سراً جبـلاً لم يكن على مسـافـة كبيرة عن أنطاكيـة، وكـان بجـوار اسكندرونة، ومن هناك شاهد خيام الأتراك منتشرة ومحتلة عـدة أميال، وكانت لا تحصى عدداً، مثل رمـال البحــار، وقـد لاحظ بأن المدينة كـانت مطـوقـة وأن القـوة الصليبية الصغيرة كانت محبوسـة في الداخل، وهنا خاف وارتجف، فبادر إلى الفرار مع رجـاله، وسراً ابتعد بأقصى سرعة ممكنة، ففي البـداية عاد إلى قلعتــه وجـردهـا من كل سلعــه، وأثناء فـراره التقـى بالامبراطور ألكسيوس، الذي كـان قادماً مع جيش كبير للتفـريج عن المحاصرين في بلدة فيلوميلون، وقـد طلب مقابلتـه حيث قـال: إنك تعرف حقيقـة أن أنطاكيـة قد جرى الاستيـلاء عليها من قبل الصليبيين، لكن الأتـراك ما

تزال القلعة بأيديهم، والآن، إنني أخبرك بأن رجالنا باتوا محبوسين داخل المدينة، لا بل بالحقيقة، إنني أعتقد ما هو قريب من الصدق أن أقول بأنهم في هذا الوقت قد اقتحموا المدينة ورجالنا جميعاً قد ماتوا، ولذلك فكر بسلامتك وبسلامة جيشك.

وكان غي أخو بوهيموند مع كثير الفرنجة والإغريق يسيرون بسرعة للتفريج عن المحاصرين، لكن الامبراطور دعاهم إلى حضرته، وأعطاهم نصيحته، ثم أمر الجميع بالتراجع وقام بنهب المنطقة كلها وإفسادها، وفي أثناء مهاجرة السكان إلى بلغاريا، لحق بهم الأتراك للبحث عن إمدادات في المنطقة المهجورة من السكان، ومع انتشار القصص المرعبة من قبل الكونت الساذج، امتلأ شعب الرب، بأسف لا يمكن وصفه، لأنه لمدة ثلاثة أيام كاملة توقف الأساقفة، ورعاة الديرة، والكهنة عن إقامة الصلوات وتقديم الشكر للرب، وسلموا أنفسهم للبكاء والنحيب، أما الامبراطور الذي وثق كثيراً بكلام كونت أوف بليوس فقد عاد إلى القسطنطينية، وتم الاحتفاظ بشهرة نيل نصر مجيد على الأتراك، من قبل الرب للآخرين الذين قاتلوا بإخلاص، وعاد الفرنجة وهم مكرهين، فبكوا بمرارة، ومات كثير من الحجاج الفقراء على طول الطريق.

وبكى غي بن روبرت غويسكارد بصوت مرتفع موت أخيه وأصدقائه، مما أثار كل من الأصدقاء والغرباء وأشجاهم وجعلهم يبكون، وقد تفوه بكثير من الكلمات القاسية ضد الكونت ستيفن، أثناء السفر، غير أنه عاد حزيناً ومكرهاً مع الامبراطور ومع بقية قوة النجدة.

أما جند الرب الذين كانوا يناضلون في المدينة، فقد وضعوا أملهم كله بالرب، وقاموا وكلهم قد امتلأ بالإيمان، بالبحث حول كيف يمكن العثور على سنان حربة الرب، ومن أجل هذه الغاية قدموا إلى كنيسة القديس بطرس، وبعد البحث بعناية عن البقعة، تناقشوا حول القضية لوقت طويل، وأخيراً انتصر رأي الأكثرية، وصدر الأمر إلى ثلاثة عشر

رجلاً قوياً وأصحاب إراده بالحفر بعناية، وقد حفروا من الصباح حتى المساء، وبحضور بطرس، الرجل الذي أبيح له وأرشد إلى المكان، فاكتشف سنان الحربة، وعندما جرى رفعها بإجلال، ارتفع صوت عظيم، وعلى الفور وصل الناس واحتشدوا لرؤيته وتقبيله باحترام عميق، وسبب الاكتشاف فرح عارم إلى حد أن كل الآلام وضعت جانباً، ونسي كل الأسى، ومنذ تلك اللحظة وجد الصليبيون الشجاعة للحديث عن القتال.

وبموافقة عامة من الصليبيين، جرى إرسال رجلين نشيطين إلى كربوغا، وهما هيرلوين Herluin الذي امتلك معرفة جيدة باللغة التركية، وبطرس الناسك، لينصحاه وينصحا جميع رجاله، باسم الرب وباسم شعبه، ليتراجع بسلام عن مدينة أنطاكية، التي كسبها القديس بطرس الرسول للمسيح، وإذا كان وشعبه على استعداد لتلقي طقوس التعميد المسيحية، فهم سيكونون مرحباً بهم بمثابة إخوة حقيقيين، وأن يعقد معهم معاهدة صداقة أبدية، وغير هذا عليهم تجريد سيوفهم، إذا ما تجرأوا، وأن يستعدوا للمعركة، ولدى سماع كربوغا هذا أشاح بوجهه وعبس بالسفيرين، ورفض رفضاً مطلقاً المسيحية، وسخر من الملك المصلوب، وقال عن بطرس الرسول بأن كان دعي مجدف، وأكد بأن ديانتنا كانت ديانة فرقة تافهة، ودعا الصليبيين إلى اعتناق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ونصح كل من يرفض بأن يفكر بالفرار، وبسرعة أخذ السفيران الطريق عائدين، وجعلا الجيش الصليبي يعرف بشكل أكيد بأن المعركة باتت وشيكة، وفي الوقت نفسه، ازدادت المجاعة حدة، وظل الخوف من الأتراك يضعف —بعض الشيء— الأقل شجاعة، وقرروا أخيراً، بناء على أوامر من الكهنة، وعزموا على الصوم لمدة ثلاثة أيام، ومشوا في مسيرة إلى الكنائس، وهم ينشدون التراتيل، وتمتن الصليبيون جميعاً بوساطة مباركة القداس الأخير، واستعدوا للمعركة، وجرى تعبئة سبع فرق داخل المدينة.

وكـان في الفـرقة الأولى هيـوج الكبير، مع روبرت كـونت فـلاندرز وثلاثين ألفـاً من الفرنجـة والفلمنكيين، وكان في الفـرقة الثانيـة الدوق غودفـري مع أخيه يوستاس وكـونت كونان، وثلاثين ألفـاً من المقاتلين الشجعـــان مــن الألمان واللوثرنجيين وأناس مــن بولون Boulogne ، وكان في الفـرقة الثالثة روبرت دوق نورمـاندي مع خمسة عشر ألف من المانسيين Manceaux ، والأنجيفيين، والبريتانيين والانكليز، وكان في الفرقـة الرابعة أدهمر أسقف لى بوي مـع أساقفة آخـرين وكهنة، ومعهم ذهب بطرس إبراهيم حـاملاً لسنان حربة الـرب، التي رغب الصليبيون بأن تحمل أمامهم، لأنهم عقـدوا إيماناً كبيراً بولايتها وحمايتهـا، وكان في الفـرقـة الخامســة الكونت رينالد الشجـاع مـع أربعـة آلاف من الألمان والبافاريين، وكـان في الفرقة السادسـة تانكرد مع أربعة آلاف رجلٍ من أبوليـا، وكـان في الســابعـة بوهيمـوند ودوق أبوليـا مع ثلاثين ألفـاً من اللومبارد والإيطاليين، وكـان آخر من غـادر المدينة، حتى يكون بإمكانه تقديم قوات احتياطية إلى أي واحد، وأن يصرف اهتمامه الكلي إلى حيث هناك حـاجـة، وبقي ريمـوند صاحب طـولوز بالخلف مع عشرينِ ألف رجل لحراسة المدينة، حتى لا يتمكن الكفار الذين كان لديهم آلافاً كثيرة من الرجال في قلعـة القديس بطرس خـارج الأسوار، متملكين لها، من التـوغل إلى المدينة، ولدى خــروج الصليبيين من المدينة قـام الأسـاقفـة والكهنة بالوعظ والدعـاء، ووقفوا بالأعلى فـوق الناس، ورسموا شـارة الصليب فوق الجميع.

وأثناء اصطفافهم بصورة نظامية خارج المدينة وخلال الباب الذي كان قريباً من المسجد التمسوا من أعماق قلوبهم من الرب الرحيم تقديم العون إليهم، ووقتهـا تساقط رزاز قليل كأنه نقـاط ندى، نزل عليهم من السماء، فأنعش ذلك الخيــول وركـابها، عندمــا رشت عليهم مثل نـدى الصبـاح الباكر، وأخذت الخيول المثارة بالصهيل، واستردت روح الفرسان وعادت

وأصبحوا أكثر مـواءمة وأشد رغبة، وكلهم شعـر بالاستعداد والاستنفار، هذا وكان الرزاز خفيفـاً جداً وناعماً حتى كـان من الصعب تسميته مطراً، فلقد جرى الشعور به أكثر من رؤية نقاط الندى الصغيرة، وروي هذا من قبل كثير من الرجال الموثوقين الذين كانوا هناك.

وعندمـا شاهد كـربوغا الصليبيين وهـم يتقـدمون نحـو القتال قـال: هؤلاء الناس ذاهبـون للفرار وليس إلى القتـال، دعوهم يتقدمـون حتى هذه النقطة، حتى نتمكن مـن قهـرهم بسهـولة عندمـا يصبحـون تحت سلطاننا، دعـوهم يتقـدمـون، دعوهم يتقـدمـون، لأننا سـوف نطوقهم فجأة، ونغلبهم ونسحقهم، وتقـدم الصليبيون وفق نظام دقيق، ومـا من واحد منهـم أخل بصفه للاندفـاع نحو الأمام، وعنـدما راقبهـم كربـوغا وهـم يتقدمون بتعبئة قتاليـة، دون إظهار أية إشارة للإحجام مع الخوف، بل يسرعون بخطـاهم، لم يخجل من أن يضيف قائـلاً: ربما يباشر هؤلاء الأخسـاء الملعـونين المخاطـرة بالقتال، ثـم إنه أصيب بالرعب، حتى أن أطرافه لم تعد إلاّ بصعوبة بالغـة تحمله، وتوقف قلبه، ولذلك أمر بسرية معاونه الذي دعي بالأمير، أنه إذا شاهد دخاناً يرتفع مع نار أشعلت في طليعة جيشـه، فهذه ستكون شـارة على أن رجاله خسروا المعـركة، وأن عليه أن يعطي على الفور شارة إلى أتباعه حتى يقوموا بالتراجع، آخذين معهم كل مـا هو عائد إليهـم، وبذلك لا تتعرض القـوات التي معه إلى الإبادة في خيـامها، ثم إنه عندمـا شاهد صفـوف القتال كانـت منتظمة، وأن القـوات أكثـر مما أخبر به، شرع عـن قصـد وتصميم بالانسحـاب بدرجـات نحو الجبـال، حتى يقوم الفـرنجة بأعمال مطاردة رجـاله على الفور، متصورين أنه كان منهزمـاً، فوقتها ربما يمكن بسهولة أكبر إلحاق الأذى بهم عندمـا تختل صفوفهم، وإثر ذلك بما أنهم لم ينالوا أية منفعـة انقسمـوا إلى قسمين، زحف القسم الأول على جـانب البحـر، وبقي القسم الثـاني حيث هو، وجـاء ذلك على أمل إمسـاك الصليبيين بين

الجيشين، لكن أرسلوا قطعة من الفرقة التي كانت تحت قيادة الدوق غودفري وروبرت أوف نورماندي لتشكل فرقة ثامنة تحت قيادة واحد اسمه رينالد [أوف تول Toul] ، وكان على هذه الفرقة منع العدو من التقدم من البحر، وأنشب الأتراك القتال معها على الفور، بإطلاق النشاب على أفرادها، أو قتلهم بقسوة بطريقة ما أخرى، ومدت القوات الصليبية الأخرى صفوفها من البحر إلى الجبل، وهي مسافة مقدارها حوالي الميلين، وقضت خطة الأتراك بزج قواتهم ضد الصليبيين من الجبال إلى البحر، وتطويقهم ومهاجمتهم من جميع الجوانب.

ثم إنه بفضل الرب الذي له الحمد، ظهر جيش كبير من الجبال، ممتطياً على خيول بيضاء ويحمل رايات بيضاء في أيدي أفراده، وقد شاهد كثير من الصليبيين هذا، وكذلك كثير من الكفار، الذين كانوا غير متأكدين ماذا يمكن أن يكون هؤلاء، ولكن أخيراً أدرك الطرفان أنها كانت علامة من السماء، وعرفوا قادة ذلك الجيش الذين ركبوا في المقدمة حاملين لأعلامهم، وميزوهم على أنهم الشهداء المقدسين: القديس جورج، والقديس ديميتريوس، والقديس ماركوس، وكان الرعب الذي شل قوى المسلمين هائلاً، وارتفعت آمال الصليبيين، ولم يشاهد الجميع هذه المعجزة، لكن كثيرين ممن شاهدوها قدموا شهادتهم على صحتها، وكانت شارة أرسلت من السماء، لتجلب الخزي إلى الطرف الأول، ولتعلن إلى الطرف الآخر خبر نصرهم القريب.

وعندما لم يعد بإمكان رجال الجناح الذي كان من جهة البحر تحمل الهجوم ألقوا النار في الأعشاب، حسبما كان كربوغا قد أمر، وشاهد الرجال الذين كانوا في الخيام العلامة التي وصفناها فأخذوا بالاستعداد، وشرعوا بالفرار، والتقطوا الأكثر قيمة من عتادهم، وهم في حالة رعب، لكن الصليبيين الذين كانوا يقاتلون قد تمكنوا بالقوة من نقل المعركة إلى المعسكر التركي، حيث عرفوا أن القوة الرئيسية من الجيش

كـانت معسكرة هناك، ولذلك قـاوم الأتراك إلى نهاية طاقتهم، فبعضهم قاتل، وأوقـف آخرون أنفسهم على التقاط الأشيـاء الثمينة من المعسكر، وعلى كل حال سـار الدوق غودفري، وروبرت أوف فـلاندرز، وهيوج الكبير على محاذاة طرف النهر، حيث عرفوا بأن الوحدات الأقوى كانت بقوة أكبر، فحملوا على الكفار بتصميم وكأنهم رجل واحد، وأرغموهم على التقهقر، وقـاوم الكفار بإصرار، وما من طـرف من الطرفين شوهد من أي من الجانبين، وصــدرت الأصـوات عن الخوذ الحديـدية، مثل أصوات القـرع على السندان، وتطاير الشرر أيضـاً، وتكسرت السيوف، وسقط الرجــال إلى الأرض، وأدمغتهـم قـد خـرجـت من رؤوسهم، وتمزقت الدروع، وخرجت الأحشـاء، وتعرقت الخيـول المتعبة، ولم تكن هناك لحظة راحة للخيول أو للفرسان، وكـانت الصفوف قريبة جداً من بعضها بعضـاً، وتداخلت بكثافة، ونادراً ما انفصلت عن بعضهـا بعضاً بطول أسلحتهم، وقـاتل بعض الـرجـال بمبـارزات قـريبـة، وقـاومـوا وتصارعوا يداً بيد، وقدماً بقدم، وجسداً بجسد، لكن الخوف الذي نزل من السماء على الأتراك استمــر في تعــذيبهـم، ثم إن تصميم الصليبيين الذيـن لا يقهــــرون أدهشهـم وأذهلهم وأرغمهـم على الانتكاس على أعقـابهم، وأخذ الجيش كله بالتخلي والانهزام، ولم يعـد بإمكان الأبواق ولا الطبـول، ولا الأصوار، ولا أصـوات المنادين إعادتهم وإرجـاعهم، وعلى هذا تراجع الأتراك دونما توقف، ومضوا إلى خيامهم حيث توقعوا أن يجدوا كثيراً من رجــالهم الـذين تركـوهم خلفهـم بمثـابة قـوات احتيـاطية، لكنهم وجـدوهم قـد فـروا أثناء انشغال الآخرين بالقتـال، وحـدث فرارهم عندمـا أشعلت النار، وأخيراً طارد الصليبيون الكفـار حتى جسر الحديد، وقتلوهم مـن دون رحمة، وتابعـوا مطاردتهم، وقتلوا أي واحد وجدوه على طريقهم، وذلك حتى قلعة تانكرد، ثم إنهم عادوا إلى خيـام الترك، ونهبوا كل شيء وجـدوه له ثمن، ووسط احتفـال كبير حملوا إلى المدينة ثـروات من جميع الأنواع، وأغنـام عليهـا أصـوافهـا،

وأعداد لا تحصى من دواب التحميل، وكميات وافرة من الإمدادات، وكل شيء ضروري لإشباع حاجاتهم، وكان من عادة الكفار، أن يحملوا معهم كميات وافرة من الإمدادات في حملاتهم، وأن يأخذوا الخيول، والحمير والجمال كدواب تحميل لنقل أثقالهم، وأن يكون معهم أغنام وثيران من أجل الأكل، وكانوا لا يذهبون من دون قمح وطحين، وحبوب وزيت وخمرة، وكوفىء الصليبيون بكل هذه الأشياء الوافرة الكميات، وذلك مع النصر الذي رغبوا به وانتظروه منذ زمن طويل، وقد باركوا الرب بحمد وشكر عظيم، واعترفوا به المقدم دوماً العون لهم والحامي، ورفعوا تراتيل الشكر إلى السماء.

وعندما شاهد سكان تلك المنطقة من السريان والأرمن بأن الأتراك قد هزموا في القتال، أغلقوا الممرات المعروفة بصورة جيدة في الجبال كما أغلقوا المسالك الضيقة، وأبادوهم بسيوف مجردة، وقد ذبحوهم ذبح الشياه، لأنهم كانوا مرعوبين إلى أقصى الدرجات قاصرين بذلك عن الدفاع عن حياتهم.

أما الأمير الذي بقي في القلعة بعدما عهد كربوغا إليه بها، فعندما شاهد رجاله يفرون دونما خجل في كل اتجاه وهم خائفين مرتجفين، فكر بسلامته الشخصية، فقام قبل عودة الفرنجة فطلب وتسلم أعلاماً صليبية، فنشرها من فوق أعلى برج في القلعة، وبذلك ضمن زوال كل شك بأن القلعة قد استسلمت، وبذلك سوف لن يقتل لا هو ولا رجاله، وعندما عاد الصليبيون المنتصرون، وشاهد اللومبارديون منهم راية كونت صنجيل، لأنه الوحيد الذي كان موجوداً في المنطقة، عندما جرى طلب رفع الراية ولبى ذلك وفعله، كانوا غاضبين كثيراً، وفي الحقيقة تبنوا تصرفات عدوانية تهديدية، وقام الأمير— على كل حال— بتسليم علم الكونت ليمنع النزاع ورفع راية بوهيموند على البرج حتى يضمن السلام والأمان لنفسه ولرفاقه، ثم عقدت معاهدة بين الأمير

وبين بوهيموند وجرى التصديق عليها من قبل الجميع، ومن ثم تم على الفور تسليم القلعة إلى الصليبيين، وبعد هذا مباشرة جرى تعميد الأمير وذلك حسبما رغب بذلك منذ زمن طويل حسبما أكـد ذلك، وقد تسلم هدايا سخيـة من الفرنجـة، وهكذا إنه بعون الرب انتصر الصليبيـون في المعـركة في ٢٨ حـزيران، واستحـوذوا على تملك سلمي ولا نزاع حـوله لأنطاكيـة، وقـد سمحوا لأفـراد الحاميـة التركية الذيـن سلموا القلعـة، ورفضـوا قبول الدين المسيحي، الذي هو ضـوء الروح والنفس، وبداية الخلاص، سمحوا لهم بالعودة إلى بلادهم مع مرافقة من عند بوهيموند، وذلك حسبما كان قد وعدهم.

وعندما كان رجـال المرافقة الفرنجة لهم عائـدين وفقاً لشروط اتفاق السـلام معهم، وفي الـوقت الذي كـان الأتراك يسيرون بـاطمئنان وقـد اقتربوا مـن حــدودهم، انقض فجأة عليهم بلدويـن صــاحب الـرها، والتحم معهم بمعــركـة باسم الرب، وحمل عليهم، فقتلهـم حتى آخـر رجل منهم تقـريباً، ثم ذهب وهو محمـل بالأسلاب بمتـابعة طريقـه مع قواته إلى أنطاكية، حاملاً أخباراً طيبة إلى أصدقائه، والآن بما أنها الساعة المناسبة لإخبـاركم بما حدث لبلدوين، سوف أرويها باختصـار في سياق حكايتي، باسم الرب، لأن مثل تلك الأحداث المهمـة ينبغي عدم المرور بها صامتين.

## — ١١ —

بعدمـا حصل بلدوين على ملكية مدينة طرسـوس في كليكية، حسبما تقدم وصف ذلك، وفي الوقت الذي كـان فيه تانكرد عائـداً وهو يشعر بالخيبة، انفصل بلدوين عن جيش أخيه غـودفري وعن القادة الآخرين، واتخذ طريقه نحو مدينة الرها مع ثلاثمائة فارس وأتباعهم، وراسل قائد الأتراك الذي كان حـاكماً للمنطقة، وعـرض عليه بحـرارة أن يخدمه مع وحـدته من الفـرسـان، ورحب الحاكـم والسكان بالفـرسـان الفـرنجـة

واستقبلوهم بسرور، وعينوا لهم مكاناً مـوائماً في المدينـة، وزودوهم بكميات كبيرة من الأطعمـة وبمبالغ أجور وافـرة، وأسندوا إليهم مهمة الدفاع لصالحهـم عن المنطقة كلها، وعندما سمع الدوق غـودفري وبقية رجالنا بأن بلدوين صار المحامي عن دوقية الرها فرحوا كثيراً، وصدوراً عن الاحترام له، تجنبوا عبـور حدود تلك المنطقة، وكان بلدوين فـارساً صاحب بنيـة جسدية كبيرة، وكـان بهي الطلعة نشيطاً، وعالي المعـرفة في الآداب، واسع الشهرة متميزاً بشجاعتـه وبتماسكه، كما كان متميزاً أيضاً بنسبـه، بما أنه كان فـرعـاً مشهوراً مـن ذرية الامبراطور شارلمان، وقـام بمـرافقة رجـال الرها بعـدد كبير من الحملات ضـد الأتراك في المناطق المجاورة، وهزم الكفار في القتال، وجلب معـه عائداً إلى الرها كثيراً من الأسلاب والأسرى في الأغلال، وبهذه الطريقة صار دوق الرها مرعوباً من قبل جيرانه.

وعـرفت مـدينة الرها في الماضي بـاسم راغس Rages ، حسبما يمكن قـراءة ذلك في الكتب القديمـة، غير أنها تعرضت للدمـار خلال عـواصف الحروب المخيفـة، في ظل الحكـام القـدمـاء للآشـوريين والكلدانيين، وفي جيل لاحق قام سلوقيـوس نيكانور، الذي كان واحداً من القـادة الـرئيسيين الأربعـة لدى الاسكندر الكبير، قـام بـإعـادة بناء المدينة بعـد وفـاة الاسكندر، وسماها الرها، ويجري نهرا دجلة والفـرات هناك، ويجلبـان كميات وافـرة من الخيرات والرفـاه إلى السكان، وحكم أبجـر ملك الرها هناك، الذي أرسل الرب يسـوع إليه رسـالة مقدسـة، ومنديلاً ثميناً، به مسح العـرق من على وجهـه، وعليه ارتسمت صـورة مخلصنا نفسه وتم حفظهـا بشكل إعجازي، وهي تظهـر سمات وتقاطيع الجسـد المقـدس للناظر إليهـا، وقـدم إلى الـرها ثاديوس Thaddeus حواري ربنا يسوع المسيح، وتولى تعميد الإغريق والأرمن والسريان مع بعضهم هناك، وقد عبـدوا ملك السموات منذ فجـر المسيحية حتى هذا

اليوم، لكن الرب قام حالياً بمعاقبتهم بعصا التقويم كعقوبة على ذنوبهم، وسمح بمعاقبة المذنبين من المسيحيين بوساطة غزوات وهجمات الكفار، وهكذا وقعت مدينة الرها تحت نير حكم الأتراك، مثلما فعلت المناطق المجاورة، ومازالوا أحراراً في حضور القداسات ولم يرغموا من قبل أية إجراءات اتخذت من قبل الكفار على التخلي عن شريعة الرب، ولهذا فرح سكان المدينة فرحاً عظيماً بالفرنجة الدمسين، ورحب هؤلاء بدورهم بحرارة بسكان المدينة وعدوهم بمثابة إخوتهم في كل شيء، ولهذا أعد أمير متجبر، أعماه الحسد والشر والضغينة، كميناً للصليبيين، وأمر قائد قواته، الذي كان ذاهباً للإغارة، بأن يهاجم بلدوين ورفاقه على طريق العودة، عندما يكونوا غير مسلحين، وأن يقتلهم من دون رحمة.

وخطط المتآمر الغدار جريمة لرفاقه بالشر، لكن أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى بلدوين، الذي كان محبوباً كثيراً من قبل قومه، وعلى طريق العودة من غارة اقترح الكفار على الصليبيين، بأن بإمكانهم وضع أسلحتهم جانباً، وجاء ذلك بمثابة مبادرة حسن نية، وبذلك يمكنهم الركوب من دون إرهاق، لكن الصليبيين كانوا مدركين للخديعة، لذلك لم يستجيبوا، وأخيراً وعندما باتوا قريبين من المدينة، ووقتها كان الصليبيون راكبين وهم مسلحين ومحتاطين حذرين، وقتها قام الكفار فجأة بناء على إشارة متفق عليها بالانقضاض عليهم، وأعلنوا من دون حياء وكشفوا عن مؤامرتهم بمهاجمة رفاقهم، وعلى كل حال، قاوم الصليبيون، ودعوا اسم الرب، وقاتلوهم برجولة، فأرغموا أعدائهم على الفرار، بعدما قتلوا بعضهم وقت فرارهم، وطاردوا البقية والسيوف بالأيدي، حتى باب المدينة، ثم أمر بلدوين رجاله بنصب خيامهم هناك، وألقى الحصار على المدينة، وكان في داخل المدينة اضطراب عظيم، وفجأة اندفع الناس مع بعضهم بعضاً من جميع الجهات.

ثم قال طوبيا Tobias الذي كان رئيس أعيان المدينة: أيها الناس الصالحون، كونوا هادئين للحظة، أرجوكم، إنني سوف أذهب مع ثلاثة من أهل المدينة إلى الفرنجة لأعرف لم نحن محاصرون من قبلهم، وبناء عليه خرج من المدينة أربعة من الأعيان، وسألوا عن سبب الحصار المفاجىء، فأجابهم بلدوين قائلاً: إنني تركت إخواني وأصدقائي وجيش الصليبيين النبيل في الخلف في كليكية وقدمت إلى ها هنا مع ثلاثمائة فارس كبير، للدخول في خدمتكم، وكنت في كل شيء عاملاً مخلصاً لكم ولأميركم، وقد احترم الصليبيون حدود مقاطعتكم صدوراً عن الاحترام لي، وأنا لم أوذيكم في أي طريق، وقد قاتل رجالي معارك شديدة ضد الأعداء على جبهاتكم، ونالوا انتصارات كثيرة على أعدائكم للحصول على السلام والأمن لكم، ولا يمكنكم أن تخفقوا في رؤية هذا، وأعتقد أنكم ستكونون شهوداً صادقين لصالحنا، ثم ما هو الخطأ الذي اقترفته اليوم أنا ورفاقي، لدفع أتباعنا من الجنود على إشهار سيوفهم وتسليط رماحهم في محاولة لقتلنا، مع أننا كنا عائدين بأمن إليكم جميعاً مثلما كان الحال عليه البارحة واليوم الذي تقدم عليه، وعلى كل حال لقد قاتلنا مدافعين بشكل يائس، وتوجهنا بالدعاء إلى اسم الرب، مثلما يفعل المسيحيون، لأن المسيح هو ربنا، وهو دوماً يبادر بسرعة إلى عون أتباعه، فبسرعة جلب المعونة لنا من السماء، أما أتباعنا وأصحابنا من الجنود الذين انقلبوا علينا، وتحولوا ضدنا كأعداء، فقد شعروا بقوة أسلحتنا عندما قاتلنا من أجل حياتنا، وأداروا ظهورهم وهربوا تاركين بعض رفاقهم موتى على الطريق، كما تشاهدون بأنفسكم، وبعد مثل هذه المحن نحن باقين في خيامنا وننشد مساعدتكم ونصيحتكم، لأننا حتى الآن نعدكم مضيفين مخلصين، ولا ننظر إليكم كأعداء.

وعندما سمع طوبيا هذا الكلام، وكلاماً أكثر حول الموضوع نفسه، استدعى الرجال الأقرب إليه، وبعد حوار قصير، عاد مسرعاً إلى

الفرنجة وخاطبهم قائلاً: أيها المقاتلون النبلاء، ليست هناك حاجة لقول الكثير من الكلام، انتظروا هنا بسلام من أجلنا، فهذا ما نرجوكم أن تفعلوه، ولسوف نعمل ترتيبات لإرضائكم في المدينة، وبعدما اقترح هذا، وتم قبوله من على الطرفين، دخل الرسل إلى المدينة، وأخبروا أبناء مدينتهم بالذي سمعوه، والذي كان بأذهانهم، ووافق الجميع على الذي سمعوه، وأرسلوا القادة الأربعة إلى مكان الدوق، في حين تبعوهم هم وساروا خلفهم بحذر، وكانوا مسلحين تماماً، وقد وجدوا الدوق الصارم جالساً على انفراد، في القاعة، وقال القادة الأربعة وهم يحيونه بالطريقة المعتادة: نحن بحاجة ماسة للنصيحة، لأننا خائفين كثيراً، ذلك أن الرجال الذين عاملناهم حتى الآن كمؤيدين مخلصين هم أعداء لنا، والفرنجة— كما هو مفترض— يحاصرون المدينة، متعطشين إلى دمائنا، حيث أنهم يقولون بأننا قد خناهم بوساطة أتباعنا من الجنود، على الطريق عائدين من بلاد العدو، وقد عوملنا بقسوة وسوء من قبل رفاقهم، وكان ذلك أقسى مما صدر عن أعدائهم، وهم يتفوهون بالتهديدات الأكثر إخافة ما لم نقدم العدالة والإنصاف إليهم، معلنين بأنهم سوف يجلبون جميع قوى الصليبيين ضدنا، فعلينا أن نعمل وفق أقصى درجات الحذر والتبصر، إذا كنا لا نرغب بأن ندمر، ولا بإنزال الغضب الرهيب للصليبيين كلهم على رؤوسنا، وجرى اقتراف هذا الغدر من دون معرفتنا، وينبغي أن يعاقب على الفور كجريمة، وينبغي إصدار حكم وفق إرادة جميع السكان يقضي بمعاقبة الخونة غير المخلصين عقوبة مرعبة، وفقاً لشرائعنا القديمة، وأن يجري التعويض على رفاقنا المتميزين، أو بالحري حماتنا، بصورة مشرفة.

وفي الوقت الذي كان طوبيا يتحدث في هذا الاتجاه، تسلل حشد كبير من أهل المدينة سراً إلى القصر، ورفض الوغد— على كل حال— برعونة مشاريع قرارات صانعي السلام، وأظهر نفسه بشكل جلي، أنه

هو حامي الخونة والمتعاون معهم، وبناء عليه انقض سكان المدينة الغاضبون عليه وقطعوا رأسه من دون احتفاء، وأخذ طوبيا الرأس المقطوع وقال لسكان المدينة الذين احتشدوا من حوله: احرسوا هذا القصر مع جميع محتوياته بعناية وحذر، وسأقوم أنا مع أصحابي بإدخال الفرنجة بسلام وسرور، وما أن قال طوبيا هذا حتى خرج فقدم التحية إلى الفرنجة، وتحدث إليهم كما يلي: إن سكان الرها آسفين تماماً للخطأ الذي اقترف بحقكم، وقد طلبوا العدل والإنصاف من الدوق، ولكن بما أنه أظهر نفسه أنه هو المحرض على الخيانة، قطعوا رأسه، انظروا لقد أرسلوا إليكم رأس عدو الرب وعدوكم، وحملونا إياه إليكم بأيدينا، وفي الوقت الذي قام الجميع بالهتاف مؤيدين، أضاف طوبيا قائلاً: أقبل أيها الفارس اللامع، واتخذ زوجة لك ابنة الدوق، وكن أميرنا، وأمسك إمارة الرها وتملكها بشكل أبدي(١).

وهكذا دخل إلى المدينة منتصراً مع رجاله، واستقبل في قصر الإمارة، وسط هتافات وتحيات جميع سكان المدينة، وجرى تعميد ابنة الدوق الشرير في الوقت المناسب، وتزوجت من الشاب البهي بلدوين، الذي أحبته سراً، ومن دون معرفة أبيها، وكان ذلك أثناء حياته(٢)، وقدم المسيحيون من سكان المنطقة الشكر للرب مع سرور عارم، لأنهم حكموا من قبل أمير مسيحي، أما الأتراك، فبعدما فقدوا سلطتهم، التي من خلالها ظلموا المسيحيين، فقد أطيح بهم، وفي البازيليكا الكبيرة جداً

---

١— كان طوروس قد خلع في السابع من آذار عام ١٠٩٨ م، ونتيجة ثورة النبلاء الأرمن، وقتل بعد ثلاثة أيام من قبل الرعاع، ومن المرجح أن بلدوين كان على دراية بالمؤامرة، وحكاية أوردريك هنا لها علاقة صغيرة بالحقيقة، وهي ليست موجودة عند مؤرخين آخرين، حتى أن وليم الصوري، الذي كتب فيما بعد، مع اطلاع على الروايات الشفوية لم يقل أكثر من أن طوروس لم يثق ببلدوين.

٢— كانت هذه هي الزوجة الثانية لبلدوين، لكنها لم تكن ابنة طوروس، الذي لم ينجب منها أولاداً، وهي كانت ابنة أحد السادة الأرمن الذي ورد اسمه في المصادر اللاتينية: Taphnuz أو Tafros ، علماً بأن هويته غير مؤكدة.

المعروفة باسم القديسة صوفيا، وهي التي بنيت هناك منذ عصور قديمة، فيها بدأ المسيحيون الجدد، يتعبدون باحترام أيام حكم بلدوين، وكانت أعمال عبادتهم مع السكان الآخرين من أهل المدينة، فقد عبدوا جميعاً المخلص المقدس، الذي هو قوة وحكمة الرب الآب، فقد استردت الطقوس المقدسة بشكل رائع إلى الرها، واعتملت الرحمة اللاهوتية بصورة إعجازية في قلوب وأفعال شعب الرب، بشكل أروع مما يستطيع قلمي أن يرويه.

وهكذا فإن بلدوين الذي انشغل بكثير من المسائل من أجل مجد المسيح، لم يستطع إرسال أية معونة إلى الصليبيين عندما كانوا محاصرين لأنطاكية، ولكن لدى سماعه قصص المشاق المرعبة التي كانوا يعانون منها هناك، شعر هو وأصحابه بالأسى تجاه الصليبيين، وعندما توفرت الفرصة واللحظة المواتية، بعدما رتبوا أمورهم ونظموها، بادروا مسرعين نحوهم لتقديم العون إليهم، وفي الوقت نفسه، كان الصليبيون، قد تمكنوا بمعونة الرب يسوع من هزيمة كربوغا وأتباعه، وكانوا يحتفلون بالنصر، ومزق بلدوين وأصحابه إلى أشلاء الأتراك الذين كانوا متراجعين من أنطاكية، كما تقدم الحديث عن ذلك من قبل، وبعد قتلهم والاستيلاء على الأسلاب، زاروا رفاقهم وإخوانهم، ولدى رواية حكايات النجاح من على الجانبين، فرح كل واحد، وقدم الحمد للرب القدير المنتصر بشفاههم وبقلوبهم، الذي تولى تنظيم كل شيء بشكل جيد.

وبعدما تبادل الدوق بلدوين الأخبار مع أخويه ورفاقه عاد إلى الرها، واقتاد كنيسة الرب، والشعب الذي عهد به إلى عنايته، كأمير لطيف، وطرد الأتراك من على حدوده بوساطة معارك متوالية، وبعدما هزم الجيران الأشرار، وسع الحدود الصليبية، وبكرم زاد عدد رجال اللاهوت وزاد أعطياتهم، وجهزهم بكثير من الموارد الضرورية، وحثهم على إقامة قداساتهم يومياً من أجل خلاص المؤمنين، وقد حكم الدوقية

بقوة لمدة تقارب الخمسة أعوام، ثم إنه خلف أخاه غودفري في مملكة القدس، التي حكمها بشجاعة لحوالي خمسة عشر عاماً، وأنجز كثيراً من الأعمال ضد الكفار، ولم ينجب أولاداً من خلال زوجته التركية، وقد عين قريبه بلدوين دي بورغ خليفة له في الإمارة ثم في المملكة، وبعد ذلك قدم فولك كونت آنجو إلى القدس كحاج، وتزوج من ميليساند، ابنة بلدوين الثاني، وتسلم المملكة معها.

—١٢—

وفي تموز بعدما نالوا النصر الشهي، واستولوا على أنطاكية وقهروها بالشجاعة وبنعمة الرب اجتمع قادة الصليبيين مع بعضهم، وبموافقة عامة منهم جرى إرسال هيوج الكبير إلى الامبراطور ألكسيوس في القسطنطينية، ليطلب منه القدوم بسرعة ليتسلم المدينة التي نالوها مع معاناة مخيفة، وأيضاً من أجل الوفاء بالالتزام الذي أقسم عليه نحوهم، يعني أن يرافقهم شخصياً طوال الطريق إلى القدس، وتولى هيوج الكبير القيام بواجبات هذه السفارة، وانطلق وسافر، لكن مع أنه كان قادراً على إنجاز أعمال باهرة في القتال وبتقديم المشورة أثناء الحملة، وفي هذه المناسبة كان معدماً وفي حاجة ماسة لمن يعطيه، ولذلك عمل بمثابة سفير وفق طريقة الغراب( انظر سفر التكوين ٨ / ٦—٧)، حيث أنه لم يعد بعد ذلك إلى رفاقه، وذلك حسبما توجب عليه أن يفعل، وحسبما كان قد وعد.

وعندما غادر هيوج، عقد القادة اجتماعاً، ووضعوا خططاً من أجل قيادة شعب الرب إلى القدس، ذلك أنهم قالوا: إن هؤلاء الناس قد تحملوا كثيراً من المشاق في سبيل رؤية ضريح المولى الرب، وهم الآن قد أنهكوا تماماً بسبب المآسي التي واجهوها، وهم يشكون بشكل معلن من أجل متابعة الزحف، ونحن أيضاً نقوم بالشكوى، وقد أنهكنا بسبب التأخر الكبير، ولذلك دعونا نجهز المؤن الأكثر فائدة لنا ولهم، ودعونا

نتفق على أن لا نتأخـر بعـد الآن، باستثناء الذي فـرض علينا بحكم الضرورات، وفي جميع الأحوال، إن كل خطوة ينبغي التفكير حولها بدقة وبعقلانيـة، وأن لا نقوم بها متعجلين، فـالبلاد التي سـوف نمر بها الآن جافة قـاحلة، والصيف حار إلى أبعد الحدود، والآن بالذات إنه من غير الممكن بالنسبـة لنا تحمل ذلك المناخ القـاسي، فمـواردنا وإمـداداتنا قـد استنزفت، وقـدراتنا قـد أرهقت بسبب الحصـار الطويل، دعـونا نرتاح بهدوء حيث يتمكن مـرضـانا وجرحـانا من التعـافي، وفي الوقت نفسـه دعـونا نفـرج عن الفقـراء بيننا، دعـونا ننتظـر حتى مطر الخريف، وأن نتجنب التأثير المضر (لبرجي) العقرب والأسـد، ففي إيلول سوف تنزل الحرارة، ووقتها دعونا نجتمع ومن ثم ننطلق ثانية مع بعضنا ونسير على الطريق المختـار، وإذا فعلنا غير ذلك فإن جميع شعبنا سـوف يسقطون بسبب الحرارة القـاسيـة، وعلينا نشر هـذا القـرار بوضـوح إلى الحشـود عـديمـة الصبر، فليس أمـامنا من خيـار سـوى تجنـب الموسم الذي لايحتمل، ونحن نرى أن هذا مفيد جداً إلى كل واحـد، وجرى الإعلان عن هذا إلى الجيش كله، وفي النهاية نال الموافقة العامة.

وبناء عليه تفرق القادة وتبعثروا مع عسـاكرهم خلال المناطق المجاورة هناك لإمضـاء الصيف ولحق بهم الفقـراء، حتـى يحصلوا على وسـائل العيش، وأعلن القـادة: إنه إذا كـان هناك رجل فقير مـوائم جسـدياً ليقم بالالتحاق بقـواتنا، نحن سوف ندفع رواتب لكل واحـد من أجل عيشه، أما الفقراء فلسوف يدعمون بواسطة الإعانات العامة حتى يتعافون.

وقـام في ذلك الحين ريمـونـد بايلت Pilet ، الذي كان فارساً شجـاعاً من بين أصحـاب كونـت صنجيل، فجمع من حوله عـدداً من الفـرسـان، وبجـرأة تولى غـزو بـلاد المسلمين، وعبر من بين مـدينتين، ووصل إلى بلدة محصنة اسمهـا تل منس، واستسلم السكـان المسلمـون عن طواعية إلى الصليبيين، واستراح الفرنجة هناك لحوالي الثمانين يوماً.

ثم تناولوا دروعهم وأسلحــة فـروسيتهم، وهاجموا الحصن الأقـرب للمسلمين، وأحـاطوا به وطوقـوه، واستولوا عليـه، ونهبـوه، وعرضـوا السكان على السيف، وقتلوهم جميعاً ووفـروا —على كل حال— وأبقوا على كل من رغب بالتحـول إلى دين المسيح، وبعـدمـا فعلوا هذا عـادوا بمعنويات عالية إلى حصن تل منس.

وركبـوا في اليوم الثـالث وخـرجوا ثـانية ووصلوا إلى معـرة النعمان، وهي مـدينة ليست على مسافـة بعيـدة، وكان عـدد كبير من الكفار قـد تجمعـوا هناك من حلب ومن مدن مـن حولها، وقـد خرج هؤلاء منهـا، واستعـدوا للحملة ضـدهم، وافترض الفـرنجـة أنهم سـوف يقـاتلون، ولذلك أعـدوا أنفسهم لخوض معركـة التحاميـة مثل ضد فـرسان قـوة حاميـة، لكن آمالهم كانت عبثية، ذلك أن الأتراك انسحبـوا بحذر باتجاه البلدة، حيث أنهم لم يباشروا القتـال يداً بيد، ولم يفـروا، ولكن تراجعوا بدهاء مصمم، حيث أنهم انسحبـوا من خط المواجهة، ثم قـاموا بحملة سريعـة على الفـرنجــة، ولقـد حملوا عليهم، ثم استــداروا والتفـوا من حـولهم، ثم تراجعـوا، وكـان مـا أن يتراجعـوا وتتـوقف خيـولهم حتى انعطفوا مسرعين من أجل حملة جـديدة، وصمد الفرنجة أمـام عدد من الحملات وكانوا غير قـادرين على تخليص أنفسهم بسلام من الحملات، ذلك أنهم لو حــاولوا التراجع لضغـط عليهم الكفــار من الخلف، كما حدث فيها بعـد عندما استداروا وتخلوا عن مـواقفهم، وبالنتيجة تحملوا الصراع، وعانوا من العطش حتى المساء، وكانت الحرارة خانقة، وأخيراً عندمـا لم يعد بإمكانهم متـابعة الصراع وعـذاب العطش، لأنهم لم يجدوا ماء لإنعاش أنفسهم، اتفقوا على الانسحاب كتلة واحدة، وأن يتراجعوا خطوة خطوة إلى حصنهم، ولقد حـاولوا أن يفعلوا ذلك، لكن الضعفاء وغير المدربين بينهم، أي جنود الـرجـال والسريان، فهــؤلاء لم يقيمــوا تقديراً للأنظمة، وتجاهلوا أوامر الفرسان، وأصيبوا برعب قاتل وشرعوا

بالفرار بشكل فوضوي، وتابع الكفار الضغط عليهم من دون توقف، وطاردوهم أثناء فرارهم وقتلوهم، ولم يوفروا أحداً، لأنهم كانوا أسوأ من الذئاب، وأعطاهم أمل النصر والفرصة الموائمة القوة، وهكذا فإن الأكثر فقراً وضعفاً بين الحجاج باتوا طعمة للسيف، أما الآخرون فقد اختنقوا من العطش، أما الذين نجوا أحياء فقد عادوا إلى ريموند في تل منس، ومكثوا هناك لبضعة أيام، ووقعت هذه المذبحة في تموز، وتمت معاقبة عجرفة المتكبرين وغطرستهم من قبل الرب، ومثلما قرأنا في الكتابات المقدسة غالباً ما جرت معاقبة بني إسرائيل وقهرهم في الحرب، وغلبتهم من قبل الفلسطينيين، والأدوميين، والمدينيين، والشعوب الأخرى من جيرانهم، في سبيل إرغامهم على العودة ثانية إلى الرب والمحافظة على وصاياه ورعايتها.

وفي تلك الآونة، وقع أدهمر أسقف لي بوي مريضاً في أنطاكية، وواجه أبناءه الآسفين بعاطفة أبوية، وقد خرج من الجسد، وعبر إلى الرب في الأول من آب، وكان هناك حزناً عظيماً وبكاءً في كل مكان في جيش المسيح، لأنه كان مستشاراً ناصحاً للنبلاء، وأملاً لليتامى، ومعيناً للضعفاء، وللفرسان رجلاً فارساً، وكان لرجال اللاهوت قائداً وموجهاً، كما ينبغي للكاهن أن يكون، وكان متميزاً ومدهشاً ببعد نظره، وكان مقنعاً وباعثاً للسرور، لقد كان كل شيء لجميع الناس، ولقد بكاه الجيش كله لدى إقامة طقوسه الأخيرة ودفن جسده، وهو مضمخ بالعطور والبخور، وكان دفنه في كنيسة القديس بطرس الرسول.

أما كونت صنجيل، الذي لم يكن قط كسولاً أو متراخياً ولو للحظة واحدة، بل كان دوماً مليئاً بالحماس والغيرة لقتال الكفار، فقد دخل بلاد المسلمين واقتحم مدينتهم الفخمة التي اسمها البارة واستولى عليها بالقوة، وذبح جميع سكان المدينة تقريباً، من كل من الرجال والنساء، وأخضع المدينة المستولى عليها لحكمه، وأقام الصليبيون رجلاً مناسباً أسقفاً هناك،

وزودوه من أجل استرداد العبادة الحقة، وجرى إرسال أسقف البارة إلى أنطاكية، وهناك جرى تكريسه ورسمه وفقاً لطقوس الكنيسة.

ولدى اقتراب الموعد المحدد لاستئناف السفر إلى القدس، وصل جميع النبلاء إلى أنطاكية، وشرعوا في وضع الخطط من أجل متابعة الزحف الذي ينتظرهم، ولكي لا يعانوا من المزيد من المعيقات أثناء الرحلة، لكن كان هناك خلاف شديد حول استحواذ المدينة وتملكها بين الدوق بوهيموند والكونت ريموند، وهو خلاف لم تستطع جميع خبرات النبلاء وجهودهم تسويته، فقد ادعى الأول السيادة على المدينة بموجب التخلي عنها له أثناء الحصار، وقبل الاستيلاء على المدينة، وأثار الآخر مسألة اليمين الذي أداه الجميع إلى الامبراطور، مع موافقة بوهيموند وتصديقه، والذي حافظ هو عليه، ولا يمكن تجاوزه بأية وسيلة من الوسائل دون الحنث باليمين، ولذلك قام بوهيموند بتحصين القلعة، التي استسلمت إليه، وشحنها، ووضع فيها الأطعمة، وأمدها بالأسلحة والحرس، ومثله قام الكونت بتحصين قصر الأمير يغي سيان الذي استحوذ عليه، والبرج الذي هو فوق الجسر من ميناء السويدية، وهكذا كانت مطامحهما كبيرة، وخلال نزاعهما ما من واحد منهما وثق بالآخر، وتمسك كل واحد منهما بمطامحه وسعى لتأمين المدينة لنفسه، وهذا ليس عجيباً ولا مدهشاً، مقدرين شهرة المدينة وأهميتها.

وأنطاكية هي المدينة الأجمل والأقوى، وهي غنية بسبب مواردها الكثيرة، ففيها أربع تلال لطيفة الارتفاع، وعلى الأعلى بينهن القلعة التي تتحكم بالمدينة، والمدينة في الأسفل مبنية بشكل جيد ومحاطة بسورين، والسور الداخلي واسع وعالي جداً، وقد بني بشكل متين، بكتل مربعة، وفي داخل إطار السور هناك أربعمائة وخمسين برجاً، وهي أبراج جميلة، مع أسوار فخمة ودفاعات وشرافات، أما السور الخارجي فليس عظيم الارتفاع، لكنه عمل جميل جداً، وتحتوي المدينة على ثلاثمائة وأربعين

كنيسة، وبسبب أسبقيتها امتلكت بطريرك، خاضع له مائة وخمسين أسقفاً، وهي مغلقة من الشرق بوساطة أربع هضاب، وإلى الغرب نهر فرفر، حيث يجري عابراً أسوار المدينة، وقد عرفت في العصور القديمة باسم ربلة، حسبما كتب جيروم في تعليقاته على الأنبياء، لكن فيما بعد جرى توسيعها من قبل سلوقيوس نيكانور، وسميت باسم أبيه أنطوخيوس كلاروس، ولأنها كانت على درجة عالية من القوة ومتميزة، عدت المدينة الرئيسية والحاضرة المهمة في كل سورية، ولم يرغب الفرنجة بمغادرتها بسرعة، بعدما استولوا عليها، لأنهم أملوا بأن يمدوا حدودهم بالطول وبالعرض من خلالها، وإخضاع حتى المناطق النائية للمسيحية، فلقد حاصروا المدينة لمدة ثمانية أشهر، وبعد استيلائهم عليها بيوم حوصروا فيها لمدة ثلاثة أسابيع، وفي أثناء الحصار الطويل تدفقت عليها حشود هائلة من الكفار، إلى حد أن ما من واحد يمكنه أن يتذكر أنه شاهد قط أو سمع بحشد أكبر من الناس.

ولقد مكثوا في المدينة لمدة خمسة أشهر وتسعة أيام، وبعد كثير من الوقائع إنهم لم يرغبوا بالتخلي عنها بإرادتهم، لكن عهدوا بها إلى حفظ أمين، وكان على كل حال للكونت ولبوهيموند كل واحد منهما وجهة نظره حولها، ولذلك حصنا المدينة حسبما تقدم الوصف، وفي شهر تشرين الثاني انطلقوا من مدينة أنطاكية نحو وجهة أخرى، تاركين الأمور هناك تتم تسويتها وفق ما يلي:

— ١٣ —

انطلق الكونت ريموند مع جيشه، وسافر بين مدينتي: قلعة الروج، والبارة، وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني وصل إلى مدينة معرة النعمان الغنية والحصينة التي كانت مليئة بالمسلمين من مختلف الشعوب، وفي اليوم التالي أخذ يقتحم المدينة مع أتباعه، لكنهم لم يستطيعوا أن يحدثوا تأثيراً على الأسوار التي واجهتهم وعلى المدافعين عنها، وتبعه

ووصل بعده بوهيموند في يوم الأحد، إلى مدينة المعرة، وفي يوم آخر قاموا بهجوم نشيط على المدينة، وقاتلوا المدافعين الذين كانوا على الأسوار بطرق متنوعة، لكنهم أخفقوا في إلحاق ضرر كبير بهم، وأقيمت السلالم أمام الأسوار، لكن الأتراك دافعوا عن أنفسهم بقسوة كبيرة مع صرخات عالية، لذلك لم يتجرأ أحد على اعتلاء السلالم، وفي الحقيقة اعتقد سكان المدينة أنهم يمكنهم صد هؤلاء الناس مثلما فعلوا من قبل عندما صدوا ريموند بايلت، وامتلك الكونت ريموند برج حصار خشبي، قد شيد له، ووضع على أربعة دواليب، حتى يمكن تحريكه بسهولة أكبر، وكان هذا البرج عالياً، تفوق بعلوه على أعلى جزء من الأسوار، وصار على مستوى قمة الأبراج، وقد دفعوا بهذا البرج ضد واحد من الأبراج، وأعطيت شارات القتال بوساطة أصوات الأبواق والقرون، وأحاطت العساكر المسلحة بالأسوار، وأطلق رماة القسي العقارة، ورماة القسي الأخرى رماياتهم، وقذف الرجال الذين كانوا في البرج الخشبي حجارة كبيرة، وصلى الكهنة ورجال اللاهوت بإخلاص إلى الرب لصالح الناس.

وكان وليم أوف مونتبيليار Montpellier مع كثيرين آخرين يقاتلون في برج الحصار، ويمطرون سكان المدينة تحتهم بالحجارة وبالمقذوفات الأخرى ويصيبونهم بسهولة ويقتلونهم، مع أن الرمايات وقعت على ترستهم وخوذاتهم ورؤوسهم، وقاتل الرجال الآخرون المدافعين الآخرين من دون توقف بكلاليب حديدية، وسعى الأتراك إلى صد الصليبيين بالنشاب وبالحجارة من الأبراج، ورموا بالنار الإغريقية( كما تسمى) على برج الحصار، ولم يتركوا شيئاً لم يحاولوه، ومن الجهة الأخرى صب الصليبيون الزيت، الذي كان فعالاً جداً في إطفاء النار الإغريقية، وحاولوا تسلق الأسوار، ثم تراجعوا نحو الخلف خوفاً من المدافعين الذين تفوقوا عليهم بالعدد، لكنهم لم ينسحبوا أبداً، ووفق

هذه الطريقة استمرت المعركة حتى المساء، وكانت شجاعة المسلمين عظيمة جداً، لا تعرف التعب، لذلك أحبطوا جميع محاولات الصليبيين وطرائقهم ووسائلهم بشجاعة، وأخيراً تمكن غيودفري أوف لاستور Lastours ، وكان فارساً من ليموسين Limousin ، وكان أيضاً من أصل نبيل، تمكن من أخذ طريقه بالتسلق فوق السلم، ومن ثم قفز على السور، ولحق به عدد من الآخرين، لكنهم كانوا قلة فقط، ثم انكسر السلم وتفكك، ومع ذلك، دافع غيودفري برجولة عن السور، وأرغم الكفار على التراجع، وصرخ عالياً، ودعا رفاقه إلى اللحاق به، وفي الوقت نفسه تمكنوا بسرعة من رفع سلم آخر، تسلق عليه عدد كبير جداً من الفرسان ومن الرجالة، وبذلك تمكنوا من احتلال القسم الأكبر من السور، وغلبوا سكان المدينة ودفعوهم نحو الأسفل، وعلى كل حال حشد الكفار جميع قواهم وهاجموا الصليبيين، وفي عدد من المناسبات انقضوا عليهم بشجاعة كبيرة، إلى حد أن بعضاً من الفرنجة انهزموا خائفين مرعوبين وتدلوا نازلين من على السور، وعلى كل حال بقي الأكثرية فوق السور، ونجحوا في مقاومة الهجمات المتوالية، حتى تمكن الصليبيون من لغم السور، وفتحوا ثغرة فيه، وعندما اكتشف الأتراك هذا، أصابهم الرعب، وهربوا في فوضى شاملة ويأس، وهكذا حدث في الثالث عشر من كانون الأول (الأصح الحادي عشر)، وذلك في يوم السبت مساء تم الاستيلاء على مدينة معرة النعمان الغنية، ودخل الصليبيون، وقهروا المدينة، وبجشع نهبوا كل شيء ثمين وجدوه في البيوت أو الأقبية، وانقضوا على المسلمين، وذبحوهم من دون شفقة، ولم يوفروا — تقريباً — أحداً، وكان من الصعب إيجاد مكان في المدينة لم يكن مغطى بالجثث، لذلك كان من غير الممكن — تقريباً — لأي واحد أن يسير خلال أكوام جثث الموتى، فعندما سقطت المدينة، كان معظم سكان المدينة قد تجمعوا في القصر، الذي كان خلف الباب، تجمعوا مع زوجاتهم وأولادهم ومقتنياتهم، وهناك استسلموا للصليبيين، وجرى

قتل بعض هؤلاء، كما جرى إرسال آخرين— بناء على أوامر بوهيموند— إلى حياة الرق، أو للبيع في أنطاكية، وهكذا تشتتوا جميعاً وسلبوا من ثرواتهم، ومكث الفرنجة في تلك المدينة لمدة شهر كامل وثلاثة أيام.

ووقع[ وليم] أسقف أورانج هناك مريضاً، وعبر من الأرض، وانتقل إلى السماء، وفي هذه الأثناء عانى الجيش كثيراً من المجاعة، وأرغم على التهام أشياء نجسة من دون تمييز، وأشياء غريبة، لا بل حتى غير مقبولة، وأكثر من ذلك محرمة، حيث أكل بعضهم جثث المسلمين، مع أن ذوي الأصول الرفيعة، والناس المتشددين خجلوا وارتعبوا لدى سماع ذلك، لكنهم أمسكوا عن معاقبة المذنبين بسبب المجاعة المرعبة، ولم يعد ذلك جريمة شنيعة جداً، لأنهم كانوا عن طواعية يعانون من الجوع في سبيل الرب، وكانوا يقاتلون أعداءه بأسنانهم وكذلك بأيديهم، وصحيح أنهم تصرفوا بشكل غير شرعي، لكنهم كانوا مرغمين مقهورين بحكم الضرورات على خرق الشريعة، فبسبب المجاعة في المعسكر التهموا كل شيء ولم يرفضوا شيئاً، وبقر بعض الناس جثث المسلمين وفتحوها لأنهم وجدوا في أمعائهم الدنانير والذهب الذي ابتلعوه، وانتزعوا ذلك وسلبوه، ومات كثيرون من المجاعة هناك، وحاول النبلاء مرة جديدة إقامة صلح بين الدوق والكونت، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء، ونتيجة لذلك عاد بوهيموند على الفور إلى أنطاكية وهو غاضب، وتعرضت الرحلة إلى القدس إلى ضرر كبير لحق بالحج والحجاج، فعندما تصارع الأمراء مع بعضهم بعضاً، تعرضت مصالحهم إلى الدمار الذاتي، ولحق الظلم رعيتهم، لأنه عندما ينشد كل إنسان الوصول إلى تحقيق غايته، يهمل الصالح العام، وحقاً عانى الناس، وتعرضوا جميعاً إلى الخطر، عندما لم يساعد قادتهم بعضهم بعضاً، ولذلك أعيق الحج كثيراً وتضرر من خلال الصراعات الشخصية الخاصة بأمرائهم.

—١٤—

ومـرة ثانية أرسل الكونت ريمـوند رسله إلى الأمراء الذين كـانوا في أنطاكية، طالباً منهم القدوم إلى قلعـة الروج لمقابلته لعقد مؤتمر، ووصل الدوق غودفري، وروبرت أوف نورماندي، وروبرت أوف فلاندرز مع الأمـراء الآخـرين الذين دعـاهم، إلى قلعـة الروج، جـالبين بوهيمـوند معهم، ثم إنهم تحدثوا مــرة جـديدة حـديثاً كبيراً، حــول كيف يمكن مصالحة الأميرين، فبدون ذلك لايمكن أن يعملوا أي تقدم نحو شروع الحملة بأخـذ طريقها من جـديد، ورفض بوهيموند الذهاب، مـا لم يتم تسليم المدينة كلها إليه، وكان الكونت على غير استعداد للذهاب معهم، مـا لم يقم بوهيموند بمـرافقتهم، وعاد الكونت إلى معـرة النعمان، حيث كـان الجيش يمـوت من الجوع، وأخيراً تحركـت عـواطفـه، وبكرم قهـر نفسـه، وأخذ الطريق مـرة ثانيـة، لمساعـدة جنود الرب على طريقهم إلى القدس، فقد وضع قضية الرب فوق إرادته ومنفعته، وفي الحقيقة عندما قهر الأمـراء أنفسهم، امتلكوا قوة عظيمة للصـلاح والمنفعة، لكن العناد المغوي في القادة هو منفر لرجالهم، فقد سيطر الكونت على نفسه وتحكم بها لكي يتجنب إلحاق الأذى بالقضيـة الصليبيــة، وعلى كل حـال أمـر رجاله بتحصين قصر يغي سيـان تماماً، وفي يوم الثـالث عشر من كانون الثاني، انطلق حافياً من معـرة النعمان، حيث ألحق نفسه متطوعاً بحجاج الرب، وقـدم هذا كبـادرة تدلـل على استئناف الحج، ولذلك كـان هناك سرور عــارم بين شعب الرب، والتحق بهم دوق نورمــاندي، عندمــا انطلقوا نحو مدينة كفرطاب.

واستراحــوا هناك لمدة ثلاثة أيـام، وعقــد ملك شيــزر معــاهدة مع الكونتات، وكـان قد أرسل رسلاً إلى معرة النعمان، في مناسبـات ماضية، ألح فيها بأنه يشعر شعوراً طيباً تجاه الصليبيين، وأنه عن طواعية وبمبادرة شخصيـــة منه ســوف يزودهم بكـرم بالإمــدادات، ويسمح لهم، بشراء

إمـدادات وافـرة خـلال أراضي مملكتـه، شريطة أن لا يقـوم الفــرنجـة المنتصرون بتجـريده عن مملكتـه أو بالعيث فسـاداً فيهـا، وقـدم الملك إلى الصليبيين تعهده بذلك، وبعد ذلك تحرك الجميـع من كفر طاب، ونصبوا معسكرهم على ضفـاف نهر العـاصي قرب شيـزر، وعندمـا شـاهد الملك الفرنجة وقد عسكروا على مقربة من مدينته انزعج بعمق، وبسرعة أرسل إليهم يقـول: إنكم مـا لم تزيلوا معسكركـم من ربض مـدينتنا عند فجـر النهـار، سوف تكونوا مـذنبين في خـرق المعاهدة التـي عقدناها، ووقتهـا سـوف نوقف الإمـدادات التـي وعـدنا بها، واتخاذ إجــراءات في سبيل سلامتنا، وبناء عليـه عندما جـاء الصبـاح، بعث باثنين من رجـاله إليهم ليـدلوهم على مكان مخاضـة في النهـر، وليرافقـوا الجيش إلى واد خصب، محروس بقلعـة، قدمت على الفـور ضمانة بالسلامـة إلى القادة، واستـولوا هناك على حوالي خمسة آلاف حيوان، وكـان هناك أيضاً كميات وافرة من الإمدادات من جميع أنواع الأطعمة جرى اكتشافها، وانتعش جيش الرب كله بالعطاءات الوافرة، وأعطى أفراد حاميـة القلعة الجيش خيولاً، وذهباً صـافيـاً، ومبـالغ كبيرة من المال، وأقسمــوا على عـدم إلحاق الأذى أبداً بالحجـاج في المستقبل، وأن لايرفضـوا بيعهم الذي يحتـاجـونه، وزحفـوا متقدمين حتى وصلوا إلى قلعة عائدة للعرب، وخرج صاحب القلعة على الفور للمفاوضة، وعقد معاهدة سلام معهم، كانت مرضية للطرفين.

ومن هناك ذهبـوا إلى مدينة رفنيـة، القـائمة في وادي ومحاطة بأسـوار فخمـة، وهي مليئة بجميع الثروات، وخـاف سكانها على كل حـال من الفـرنجـة، فتخلوا عن المدينة رعبـاً، وتركـوا بسـاتينهم مليئة بالخضـار، وتركوا بيوتهم وهي مليئة بـالأطعمة والأشياء الثمينة، لأنهم هربوا دونما وعي، وقـام الصليبيـون — وهم شــاكـرون— بالاستيـلاء على جميع سلعهم، ورفعوا الحمد إلى الرب، معطي الأشياء الجيدة.

ومضوا في اليوم الثالث من هناك، وتسلقوا جبلاً عالياً جداً، ثم نزلوا

إلى واد آخر، حيث استراحوا لمدة إثني عشر يوماً، ومن هناك هاجموا بجرأة موقعاً إسلامياً حصيناً كان هو الأقرب إلى الوادي[ قلعة الحصن]، ومن المؤكد أنهم كانوا سيستولون عليه لولا أن ساقوا نحوهم قطعاناً من المواشي ومن حيوانات التحميل والأغنام، واستولى الصليبيون على هؤلاء ومن ثم عادوا إلى خيامهم محملين بالأسلاب والغنائم، وانسحب المسلمون— على كل حال— أثناء الليل وهم مرعوبين، ودخل الفرنجة إلى القلعة المهجورة وقت الظلام، ووجدوا فيها مخزوناً كبيراً من الحبوب والخمرة، والطحين، والشعير، والزيت، واحتفلوا هناك بعيد طهارة مريم المباركة بخشوع كبير.

وأرسل ملك حمص رسلاً مع هدايا ثمينة إلى الكونتات، عندما كانوا ما يزالون هناك، وعرض السلام على الصليبيين، ووعد أنه سوف لن يلحق الأذى بهم أبداً، ولكن سوف يكون لطيفاً نحوهم، ولسوف يحترمهم إذا ما بادله الحشد الصليبي عملاً صالحاً بعمل صالح.

وكذلك أرسل إليهم ملك طرابلس عشرة خيول، وأربعة بغال، وكمية كبيرة من الذهب، فلقد بعث بهذا كله إلى الصليبيين، وطلب منهم من خلال رسله عقد معاهدة سلام وصداقة غير أن الكونتات رفضوا عقد سلام معه، كما رفضوا قبول الهدايا، بل عوضاً عن ذلك ردوا عليه بعنف قائلين:« نحن نرفض هداياك ونزدريها إلى أن تبذل الجهد حتى تصبح مسيحياً».

وبعدما غادروا الوادي الخصب، وصلوا إلى قلعة اسمها عرقة، وبقربها نصبوا خيامهم في الثاني عشر من شباط، وكانت تلك القلعة مدافع عنها من قبل حشد كبير جداً من الكفار، مع حشود من العرب والبولسيين، ودافع هؤلاء عن أنفسهم بنشاط وفعالية ضد حملات الصليبيين، وذهب أربعة عشر فارساً صليبياً نحو طرابلس، التي لم تكن بعيدة عن الجيش، وتصادموا مع ستين من الأتراك كانوا يسوقون حشداً

من الناس أمامهم، وكان تعدادهم جميعاً مع بعضهم ألف وخمسمائة من المسلمين، والعرب، والأكراد، إلى جانب عدد كبير من الحيوانات، وهاجمهم الصليبيون بتصميم، فقتلوا ستة منهم، واستولوا على العدد نفسه من الخيول، وأرغموا البقية على الفرار، وساقوا أمامهم لدى عودتهم إلى المعسكر الحيوانات، وفي الحقيقة أرعبت قدرات الفرنجة وحدتهم الجميع في القرب وفي البعد، لأن الرب الذي هو حاضر دوماً لمساعدة أبطاله، عمل دوماً وتصرف بقدرة من خلالهم، ولقد كانت حادثة ممتعة بالنسبة للمؤمنين، أنه بفضل قوة الرب، تمكن أربعة عشر صليبياً من هزيمة ستين تركياً، وأرغموا العدد الكبير على الفرار، واستولوا على دوابهم وحيواناتهم أمام أعينهم.

وخرج من جيش الكونت ريموند كل من ريموند بايلت وريموند فيزكونت[ أوف تورين Turenne] مع قوة صغيرة من الفرسان، وقاما باستطلاع المنطقة التي أمام طرطوس، حيث كان حشد كبير من المسلمين قد اجتمع، وانسحبا عند حلول الظلام إلى مكان للاختباء، وأمضيا الليل في بقاع مختارة، وأشعلا عدداً كبيراً من النيران، وكأن الجيش كله قد وصل، وعند شروق الشمس احتشد الفرنجة لاقتحام المدينة، فوجدوها مهجورة وشاغرة، ولذلك استقروا هناك طوال المدة التي استمر بها حصار عرقة.

وعقد أمير مدينة مرقية Maracle -التي لم تكن بعيدة كثيراً- معاهدة سلام مع الصليبيين، وحمل راياتهم إلى داخل مدينته، وفي الوقت نفسه وصل الدوق غودفري، وكونت فلاندرز وبوهيموند إلى اللاذقية، التي تعرف بشكل عام باسم Licia وعلاوة على ذلك ترك بوهيموند الآخرين وعاد إلى أنطاكية، التي تملك رغبة عارمة باستحواذها، وعلى كل حال ألقى الكونت والدوق الحصار على جبلة، وسمع الكونت ريموند بأن المسلمين كانوا يزحفون وباتوا قريبين مع

جيش كبير من الفرسان، وكانوا متعجلين بتصميم وإجماع على مهاجمة الصليبيين، ولذلك أرسل إلى رفاقه الذين كانوا يحاصرون جبلة قائلاً: «نحن مهددون بالحرب، حيث هناك جيوش من المسلمين تزحف ضدنا، ولذلك نحن نرغب إليكم بعقد سلام مع المدينة التي تحاصرونها، والقدوم بأقصى سرعة ممكنة لحماية إخوانكم، ومن الأفضل لنا توحيد قوانا والقتال ضدهم، وهذا خير من أن نكون متفرقين عن بعضنا بعضاً، وأن ننهزم، ذلك أن وقتاً قصيراً ضاع في المعارك، والربح بالنسبة للمنتصرين كان عظيماً، فالحصار يأخذ وقتاً طويلاً، ومن الصعب كثيراً الاستيلاء على المدن المحاصرة، في حين أن المعارك تجعل الناس والممالك تحت سلطانكم، والأعداء الذين ينهزمون في المعركة سوف يختفون مثل الدخان، وعندما يتم القتال في المعركة، وتلحق الهزيمة بعدونا، فإن امبراطورية كبيرة سوف تكون تحت أقدامنا، ولذلك من الموائم توحيد قوانا، لأننا إذا كنا نستحق أن يكون الرب قائدنا وموجهنا، سوف بدون شك ننال نصراً سريعاً على أعدائنا، وأقول لكم: أسرعوا حتى لايجدنا أعداؤنا غير مستعدين وقت وصولهم».

ورحب الدوق والكونت بهذا الخطاب،لأنهما كانا متعطشين إلى القتال، وبناء عليه عقدا صلحاً مع أمير جبلة، وعندما أبرمت المعاهدات، تسلما كثيراً من الهدايا منه، ثم بادرا مسرعين لمعونة إخوانهما، غير أن الأتراك الذين أملوا في أن يجداهم هناك، لم يكونوا موجودين، ولذلك عسكرا على الطرف الثاني من النهر، وحاصرا القلعة من ذلك الجانب، وبعد مدة قصيرة ركب بعض من الصليبيين نحو طرابلس، للبحث عما إذا كان هناك سبيل لمحاربة المسلمين، وقد وجدوا— على كل حال— أن الأتراك والعرب، ورجال من الطرابلسيين أنفسهم، قد خرجوا من المدينة وكأنهم كانوا متوقعين للصليبيين، ونصبوا شركاً لهم، وحمل كل فريق منهما على الآخر فوراً، وصمد المسلمون —على كل

حال— في مكانهم أمام الحملات الأولى، وقاتلوا لوقت طويل، لكنهم أداروا ظهورهم أخيراً تحت ضربات أعدائهم، وفقدوا أثناء فرارهم كثيراً من الرجال، وسقط هناك عدد كبير من الرجال القياديين للمدينة، فلعنت زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم الصليبيين، فمن وجهة نظرهم تألموا من فوق الشرافات وتوجعوا من أجل رجالهم، وبكوا ومع ذلك شعر بعضهم بالإعجاب بشجاعة الفرنجة، وكانت مذبحة المسلمين كبيرة، وكان الدم المسفوك كثيراً جداً، إلى حد أن النهر الذي يجري عابراً المدينة، ظهر وهو يتدفق بلون أحمر، وتلوثت البرك الموجودة داخل المدينة، والتي تستمد مياهها من النهر، وصار لون الماء فيها أحمر، بسبب الدم، ولذلك عانى أهل طرابلس من فاجعة كبيرة، بسبب كل من مقتل الرجال القياديين بينهم وبسبب تلوث صهاريج مياههم بالدم الذي مازج المياه، وهكذا عانوا من ضربتين في يوم واحد، ولذلك امتلكوا سبباً مضاعفاً للبكاء، وكانوا في حالة يأس، بسبب أنه على عكس توقعاتهم نال الفرنج النصر، وكانوا في حالة انزعاج كبيرة بسبب تلوث صهاريج مياههم بالدم، لأن هذه المياه كانت ذات قيمة عالية لديهم، ولذلك ارتعب أهل طرابلس إلى حد اليأس، وباتوا محاصرين من الخارج ولا يتجرأون على المغامرة بالخروج من باب المدينة ثانية، وشاركهم جيرانهم في مصائبهم، ونال الفرنجة نصراً مرحباً به، وعادوا إلى جيشهم يغنون بالشكر للرب، وفي يوم آخر خرج بعض الفرسان من الجيش للإغارة على الأراضي خلف وادي Sem ( البقاع؟) فوجدوا ثيراناً وحميراً، وأغناماً، وجمالاً، وصل تعدادهم إلى حوالي الثلاثة آلاف، وقد عادوا مبتهجين إلى معسكرهم مع أسلابهم، وهكذا عسكروا أمام قلعة عرقة، التي كانت قوية التحصين، ومكثوا هناك مدة ثلاثة أشهر ويوم واحد، واحتفلوا هناك بعيد الفصح في اليوم العاشر من نيسان، وفي الوقت نفسه رست بعض السفن العائدة إلى الصليبيين في ميناء كان آمناً إلى حد كبير، وعلى مقربة من الحصن، وزودت هذه السفن الجيش

بالقمح، والخمر، والجبن، والزيت، والحبوب، والزبدة، وبكميات وافرة من جميع أنواع المؤن والإمدادات، كما أنهم قاموا بغارات متوالية لنهب المناطق الخصبة، وبما أنهم لم يخب أملهم قط، وعادوا مع أسباب للرضى، كانوا دوماً متشوقين للخروج والمضي للقيام بغارات جديدة، لكن عدداً كبيراً من الصليبيين فقدوا حياتهم هناك، لأن سيوف المسلمين لم تكن كليلة، كما أن جيوشهم لم تكن كسولة، ولم تكن أذرعتهم ضعيفة، فلقد قتلوا أنسلم أوف رايبمونت Ribemont ووليم بيكارد Picard ، وكانوا من الرجال ذوي الأنساب القديمة، وكانا فارسين مجربين، وقد ميزا نفسيهما بشكل واضح في جيش المسيح، وسقط آخرون كثر أيضاً، ربما سيحفظ الرب أسماءهم في كتاب الحياة.

وغالباً ما أرسل ملك طرابلس الرسل مع رسائل إلى قادة الصليبيين، وقد حاول بكل الوسائل أن يقنعهم باستلام هداياه وعقد صلح معه، والتخلي عن الحصار وتلقي تعويضات بوساطة معاهدة، واقترح الصليبيون وجوب تحوله إلى المسيحية، وأنهم لن يتخلوا عن الذي هم فيه وفق أي شرط آخر، وكان هو— على كل حال— مضاداً تماماً للمسيحية، وخائفاً يخشى التخلي عن شرائع آبائه، وأعراف أجداده وعاداتهم.

ومع مرور الوقت نضج موسم جديد، لأن تلك المنطقة تتمتع بحرارة أكثر بكثير من حرارة أرض الشمال في الجبال، وبسبب الصيف المبكر نضوج المواسم سريعاً، فالحبوب الجديدة جنيت في منتصف آذار، وجرى حصاد القمح في الثالث عشر من نيسان، وكذلك يحل موسم قطاف العنب في الخريف بشكل أكبر.

ونتيجة لهذا تباحث الدوق غودفري مع كونتات: نورماندي، وفلاندرز، وطولوز، وتانكرد حول الحاجة إلى استئناف الزحف، وتناقشوا مع بعضهم بعضاً حول ذلك، بما أن الوقت صار موائماً لهذا، وأنه بعد وقت قصير سيصير الوقت متأخراً جداً، ولذلك تخلوا عن

القلعة المحاصرة منذ وقت طويل، وزحفوا نحو طرابلس، وعقدوا معاهدة سلام مع سكانها، وأعطاهم ملك طرابلس خمسين ألف دينار، وخمسة عشر حصاناً ذات قيمة عالية جداً، وسلمهم ثلاثمائة من الحجاج، كانوا أسرى لديه منذ وقت طويل، وسمح لهم أخيراً، بموجب معاهدة السلام بشراء المؤن، وهكذا تزود الجميع، وقد أقسم يميناً مؤكداً، أنهم إذا ما استطاعوا في أي وقت إلحاق الهزيمة بأمير القاهرة في المعركة التي يستعد لها للقتال ضدهم، هو سوف يصبح مسيحياً، وسيحتفظ بعد هذا ببلاده بموجب الولاء لهم.

وهكذا انطلقوا في منتصف أيار، وغادروا المدينة، وسافروا طوال النهار عبر طريق ضيق وصعب، ويكاد يكون عبوره مستحيلاً، فوصلوا إلى حصن البترون في المساء، ومن هناك وصلوا إلى جبيل، التي هي مدينة قائمة على ساحل البحر، وعانوا هناك من عطش رهيب بسبب قلة المياه، ولذلك سارعوا في سيرهم حتى أنهكوا، وفعلوا ذلك لكي يصلوا إلى نهر الأولي، حيث شرب الناس والدواب وانتعشوا، وفي يوم عيد الصعود( ١٩—أيار ١٠٩٩) توجب عليهم السفر خلال ممر ضيق، حيث خافوا طوال اليوم من كمين مسلم، ولم يتوقفوا في زحفهم، ومضى في الأمام حملة الأعلام والفرسان بدروعهم وسلاحهم، وحموا الجيش كله بالبحث عن كمائن، وجاء بعدهم المشرفون على قطار الأثقال مع سائقي دواب التحميل، وبالأخير كان هناك قطعة من الفرسان، ساروا مسرعين، ورعى الجميع حاجات بعضهم بعضاً، وهكذا سار الخدم الذين كانوا مسؤولين عن دواب التحميل مسرعين وقد اختلط بهم حشد الذين كانوا من غير المقاتلين، وصدحت أبواق الحرب، وساروا وفق طريقة تعبوية نظامية، وبذلك كان الضعفاء لايتركون على الطريق بالخلف، وفي أثناء الليل تبادلوا الحراسة، وأبقوا في الحراسة في الأماكن التي بدت أكثر خطراً الأكثر براعة ومقدرة، وما من شيء جرى

إهماله، ولم يسمح بأي شيء غير نظامي، وتمت معاقبة الفوضويين، كما جرى توجيه الجهلة، وجرى توبيخ المتمردين، وتعنيف المنغمسين بالشهوات والجشعين، كما جرى حث الجميع على تقديم الصدقات والمساعدات، ومارس الجميع الاقتصاد بالنفقات، وتقديم الصدقات، وكان هناك— كما يمكن للإنسان أن يقول— مدرسة للأخلاق والنظام في المعسكر، فهذا كان هو السبيل، وهذا هو طريق حياة الحجاج على الطريق إلى القدس، وهكذا كانوا طوال محافظتهم على هذا النظام الدقيق، وكانوا في وفرة من العيش، كان واضحاً أن الرب عمل من خلالهم، وقاتل معاركه بأيديهم، وحين تحدثت هكذا بإطرائهم، يمكنني توجيه النقد إلى حياة وإلى سلوك الذين كانوا غير منضبطين، والذين ساروا برعونة خلف هذه المغامرة المجيدة، فما من شيء هو أثمن من النظام الذي يبقي الناس مع بعضهم بعضاً.

وعندما عبروا أخيراً الجبال، حيث كانوا في حالة رعب من أعدائهم، عبروها من دون مواجهة أي عدو، سافروا عبر أربع مدن على ساحل البحر، وهي: بيروت، والصرفند— التي تعرف بشكل عام باسم صيدا (كذا)— وبصور التي تعرف باسم Tyre وبعكرون التي تعرف باسم عكا، ومن هناك قصدوا قلعة اسمها حيفا، وزحفوا من هناك نحو قيسارية من أجل نصب معسكر لهم، واستراحوا هناك يوم أحد الشعانين في العاشر من حزيران( الصحيح ٢٩— أيار)، ثم قصدوا بعد ذلك إلى ديوسبولس Diospolis التي تعرف باسم الرمثا، أو أريماثيا أو الرملة( اقرا: اللد) وهنا توقفوا بعدما أصيبوا بالإنهاك، وقد هرب سكانها منها خوفاً من الحجاج، وهنا كانت الكنيسة الأم قد تمتعت بمنصب أسقفي، ولكنها الآن أرملة، تبكي ضياع مكانتها الأسقفية، لأن المكان خضع بشكل بائس إلى نير المسلمين، ولذلك أعاد الصليبيون تعيين أسقف إلى البلدة، وأعطوه عشر مواردهم، حتى يمكنه العيش من خلال

صدقاتهم ويعيد الكنيسة بعد قمع طويل، فهناك كان البطل المبارك جورج قد أظهر قوته، وهناك أغلق حياته بالشهادة بصورة نبيلة، وكنيسته، المدفون فيها جسده الثمين، هي كنيسة مبجلة، قائمة قرب المدينة الصغيرة، ففي أثناء معركة أنطاكية شاهد الصليبيون هذا القديس بمثابة دليل ورائد وبطل حقيقي في المعركة ضد القوم الغارقين في الخطيئة، فلقد اختاروا أن يمجدوه دوماً كبطل لهم ومدافع عنهم، ولذلك أظهروا احتراماً وتبجيلاً لكنيسته، وكما قلنا أقاموا أسقفاً في الرملة.

وملهمين ربانياً بالغيرة، غادروا المدينة عند الفجر، وذلك عندما أعطيت الإشارة، وقد ساروا بخطا واسعة على طول الطريق إلى القدس، وقد وصلوا إلى المدينة التي رغبوا طويلاً جداً بالوصول إليها، وجاء ذلك في اليوم نفسه، ذلك أن القدس تبعد مسافة أربعة وعشرين ميلاً عن الرملة.

وعندما وصلوا إلى المكان، الذي منه يمكنهم رؤية القدس مع أبراجها، وقفوا فبكوا فرحاً، وتعبدوا الرب، وخروا على ركبهم وقبلوا الأرض المقدسة، وكان الجميع سيفعلون ذلك وهم حفاة، لولا أنهم خافوا من العدو، فقد أرغمهم الخوف على الزحف وهم مسلحين تسليحاً تاماً، وتقدموا متابعين سيرهم وهم يبكون، فالذين كان عليهم التجمع مع بعضهم لأجل الصلاة، توجب عليهم أولاً خوض القتال، فحملوا السلاح في بلاد الكتابات المقدسة.

— ١٥ —

حاصر الصليبيون القدس في السادس من حزيران، ليس كأبناء زوجة يبحثون عن زوجة للأب، بل كأبناء يبحثون عن الأم، وقد أحاطوا بها كأصدقاء وكأبناء لها، وذلك حتى يتمكنوا من طرد الغرباء والمخادعين، وليس لسلبها حريتها، بل لتحريرها من الأسر، وحاصر روبرت دوق

نورمـانـدي القـدس من الجهـة الشمالـيـة، إلى جـانب كنيسـة القـديس اسطفان، الشهيد الأول، وذلك حيث رجم من قبل اليهود، وسقط فنام في الرب، وبعده نصب كونت فلاندرز خيامه، وحاصر الدوق غودفري وتانكرد المدينة من الغرب، وحاصرها الكونت ريموند من الجنوب، من على جبل صهيون، قـرب كنيسة مـريم المباركـة أم الرب، وحيث شارك الرب يسوع في العشاء مع تلاميـذه، وهكذا عزلت القدس، وحوصرت من قبل أبنائها، في حين أن حـرمتها خرقـت في الداخل من قبل شعوب من أولاد الزنا.

وفي ذلك الوقت، جـاء هيـوج بونل Bunel ابن روبرت أوف لى روشي مـابيل Roche mabille الذي كـان عسكرياً مجرباً كثيراً، إلى دوق نورمـاندي، وبإخـلاص عـرض عليه خـدمـاته، بحكم أنه مـولاه الطبيعي ولأنه استقبل بشكل جيـد من قبل الدوق، قدم مسـاعدة كبيرة إلى الرجال الذين كانوا يحاصرون القـدس بكل من نصائحه وفي القتال، ومنذ زمن بعيـد في نورماندي كـان هذا الرجل قـد قطع رأس كونتسـه مـابت Mabet [في عـام ١٠٧٧] لأنها انتـزعـت منه ميراثه الأبوي بالقوة، وبسبب هذه الجريمـة المرعبة التي اقترفها، هرب الفـارس هيوج مع إخـوته: رالف، ورتشـارد، وجـوسلين، إلى أبوليـا ومن هناك إلى صقليـة، وانسحـب إثر ذلك إلى عند الامبراطور ألكسيـوس في بلاد الإغـريق، لكنه لم يكن قط قـادراً على البقاء بسـلام وأمن في أي مكان، لأن وليم النغـل، ملك انكلترا، وجميع أبناء مـابيل أرسلوا الـرسل إلى جميع أنحاء العالم للبحث عنه، ووعدوا بجـوائز وهدايا إلى أي جاسوس يمكنه قتل القـاتل الفار، في أي أرض يمكن أن يجده فيهـا، وهكذا فإن هيوج الشجاع الذي خاف من الذراع القـوي واليد القوية للملك، ترك العـالم الـلاتيني، ولم يثق بالأقـوام المسيحيـة، فعـاش طويـلاً منفياً بين المسلمين لمدة عشرين عـامـا، فـدرس عـاداتهم ولغتهـم، ولذلك عندمـا

استقبل من قبل دوق نورماندي كان قادراً على أن يقدم لأبناء قومه خدمة عظيمة، بأن أوضح لهم عادات المسلمين، وشرح لهم عاداتهم المخادعة، والخدع التي مارسوها ضد المؤمنين.

وكان كوسان cosan نبيلا وسيداً قوياً من أصل تركي، وهذا أيضاً جاء متطوعاً والتحق بالصليبيين وساعدهم في كثير من الطرق من أجل الاستيلاء على المدينة، وكان مؤمناً حقيقياً بالمسيح، مع رغبة كبيرة في أن يلد مجدداً بوساطة التعميد المقدس، وهكذا بذل كل ماستطاعه لمساعدة رجالنا، وكأنهم أصدقائه وإخوانه، من أجل الاستيلاء على عاصمة الملك داود، التي هي مجد فلسطين، وفي اليوم الثالث من الحصار خرج بعض الفرسان من المعسكر الصليبي، وهم: ريموند أوف بايلت، وريموند أوف تورين، وآخرون كثر، خرجوا للتجسس، ولجلب الأسلاب، وقد وجدوا مائتين من العرب فقاتلوهم وقهروهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأرغموا البقية على الفرار، واستولوا على ثلاثين من الخيول، وبعد هذا الإنجاز، عادوا إلى أصحابهم بروح عالية.

وفي يوم الاثنين [ ١٣ حزيران ١٠٩٩م] شددوا الضغط على المدينة، وكان من المؤكد أنهم سيربحون ذلك اليوم— كما يعتقد كثيرون— لو كان لديهم عدد كافي من سلالم التسلق جاهزة، فقد كانوا قد فرغوا من تدمير السور الخارجي، وأسندوا واحداً من السلالم، كان وحده جاهزاً، على السور الداخلي، وتسلق الفرسان الصليبيون على هذا السلم واحداً بعد الآخر، وحاربوا يداً بيد على السور مع المسلمين، وسددوا إليهم ضربات بالسيوف وطعنات بالرماح، وفي تلك الحملة قتل كثيرون من على الجانبين، لكن خسائر المسلمين كانت أكبر، وأخيراً عندما سمع صوت البوق يعطى أمر التراجع، انسحب الصليبيون من القتال وعادوا إلى معسكرهم، وفي الوقت نفسه أخذت كميات الطعام التي جلبوها معهم تتناقص، ولم يعد ممكناً العثور على الخبز للشراء، ولم يعد بإمكانهم

الخروج لجمع المؤن، وكـانت المنطقة من حـولهم من دون مـوارد مائيـة، ذلك أنها كـانت قـاحلة وغير معطاءة، وكـانت غير صـالحة للخيـول والمواشي، لأنها كانت من دون مـراعي، وعلاوة على ذلك كـانت المنطقة من دون أشجار، ولذلك أنتجت قليـلاً من الفواكه، فقـد أنتجت التمور والزيتون فقط، وقليلاً من الأعناب، ومن المعتقد أن نهر الأردن كان على بعـد حوالي الثـلاثين Stades عن القدس، وكـان له بحيرات، لكنهن كن على مسـافـة بعيـدة، وامتلكت المدينـة بركهـا الخاصـة لتأمين الموارد المائيـة، وكان نبع سلـوان عند سفح جبل صهيون، لكـن كان بمقـدوره تأمين الماء إلى عـدد قليل من الناس، وقـد كـان على كل حـال له بعض الفائـدة بالنسبة لنـا، وتم جلب كمية صغيرة من الماء بنفقـة عاليـة، وقد قادوا الخيول إلى مساحة ستة أميال لسقايتها وسط مخاوف عظيمة.

ووصلت في الوقت نفســه أخبـار إلى المعسكر أفـادت بأن سفن تجار مسيحيين قد رست في ميناء يافا، التي كـان اسمها القديم— كما نعتقد— يوبا Joppa ، وسببت هذه الأخبـار فـرحـاً عظيماً للجيـش، وتشـاور القـادة فيما بينهم ومع بعضهم بعضـاً ليقـرروا السبيل الأفضل لتأمين ممر آمن للذاهبين إلى السفن والآيبين منهـا، أعني السفن الحاملة للإمـدادات، وكـانت يافا على بعـد حـوالي الثمانية أميـال من الرملة، هذا وقـام شعب عسقـلان والسكان المحليين الذين تجولوا خـلال الجبـال، أو كمنوا في كهوف محفورة في الصخور، قاموا أحياناً بمهاجمة المسافرين، ومزقوهـم إلى أشـلاء، وأزعجت تحركـاتهم، أو القصص حـولهم جماعـات التجـار وأخـافتهم، ومن إنجـاز هذا العمل مضى ريمـوند بايلت، وأكـارد أوف مونتميرلي Acard of Montmerle ، ووليم سـابرون مع مـائـة من الفرسـان وعدد من الجنود الرجالة، مضوا عند إشراق الصبـاح، وغادروا جيش كـونت طولوز بـاتجاه البحـر،واعتماداً على شجـاعتهم ووثوقـاً بها، قاتلوا عبر طريقهم إلى المرسى، لكن جماعة منهم انفصلت عن البقية، وأنا

لست متأكداً فيما إذا كان هذا عمل عمداً، أو جرى من خلال الجهل بالطريق، والمؤكد أن ثلاثين فارساً، هم الذين افترقوا عن رفاقهم، وأخذوا طريقاً آخر، فتوجهوا مع مائة من العرب، والأتراك والمسلمين من جيش الأمير، وقد نازلوهم بجرأة، واشتبكوا معهم في القتال، وأبدى رجال المنطقة مقاومة شديدة، حيث أنهم اعتمدوا على أعدادهم، وطوقوا العصبة الصغيرة، وكانت هذه بالحقيقة طريقة المسلمين في القتال، وعندما كانوا قد طوقوا الصليبيين تماماً، وأخذوا يتفاخرون بثقة حول كيف سيقتلونهم جميعاً، عندها وصل رسول إلى عند ريموند بايلت، وصرخ قائلاً: ما لم تقدم مسرعاً، كسرعة الريح، وتقدم العون إلى أصحابك، سوف يواجهون نهايتهم، فهم مطوقون من قبل الأعداء في هذه الساعة، لكن حتى الآن تدبروا أمر الدفاع عن أنفسهم.

ولدى سماعهم هذا، أرخوا أعنة خيولهم، وهزوها، وأسرعوا راكضين، أسرع من الكلام، وفعلوا ذلك وهم واضعين لترستهم على صدورهم، ووقتها حملوا على الصفوف الكثيفة لأعدائهم برماحهم، فمزقوهم، حيث أن كل رجل صرع خصمه وألقاه أرضاً، ذلك أنهم ظهروا فجأة وبشكل مباغت وغير متوقع، وقد وضعوا ثقتهم بأسلحتهم، وبعون الرب انتصروا، ووقتها شكل المسلمون قواتهم في مجموعتين، معتقدين أنه ما زال بإمكانهم المقاومة، لكنهم لم يحققوا تقدماً ولا منفعة، وحمل الفرنجة مرة ثانية عليهم بعنف، وبذلك خلصوا رفاقهم من الحصار، وذلك باستثناء أن الفارس الشجاع أكارد مع عدد من الجنود الرجالة قد فقدوا حياتهم، وقد طاردوا الأتراك أثناء فرارهم لمسافة أربعة أميال، فصرعوا برماحهم الحادة عدداً كبيراً منهم، كما أنهم استولوا على مائة وثلاثة من الخيول، واحتفظوا برجل واحد حياً، وقد أرغم هذا على تقديم تقرير مفصل عن جميع الاستعدادات التي عملت ضد الصليبيين.

وفي الوقت نفسه، ومع استمرار الحصار، ازداد تناقص المياه حدة،

وعانى الصليبيـون من العطش، ونصب المسلمون كمائن للرجـال الذين كانوا يقودون الخيـول لمسافة مقدارها ستة أميـال لسقايتهم، وألحقوا بهم خسـائر كبيرة في الممـرات الضيقة، فقـد جف جدول قـدرون والجداول الأخـرى خـلال الحرارة الكبيرة، وصـار خبـز الشعير شيئاً فـاخـراً في المعسكر، وقام السكان المحليون الذين تخفوا في الكهوف والمكامن بقطع الطريق على جميع المسافرين واعترضوا سبلهم.

واجتمع نخبـة القـادة مع بعضهم للتشـاور، ولبحث مـا الذي ينبغي عمله وسط جميع هذه المحن الكبيرة، وقـالوا: إن المصاعب كثيرة جـداً، والخبز كـاد ينعدم، ومـوارد المياه بتناقص مستمـر، وفي الحقيقة إننا نحن الذين نعـاني من الحصار، في الوقـت الذي نظن فيه أننا نحـاصر المدينة، فنحن نادراً ما نتجرأ على الخروج من المعسكـر، وذلك حتى عندما نعود فارغي الأيدي، ونحن الذين تسببنا بهذا الضيق وجلبناه على أنفسنا، من خلال التأخير الطويل، ومـا لم نتخذ الاحتياطات، سـوف تصبح الأمور أكثـــر ســـوءاً، ونحن لا يمكننـا أن نستـــولي على المدينة فقط بأيـدينا وأسلحتنا، من دون آلات حصـار، ذلك أننا نواجه أسـواراً مع شرفات وأبراج، ومعهم من وراء الأسوار أعداد من المحاربين المدافعين الذين لا يعرفون التعب، فما الذي تظنونه؟ دعـونا نقلع بخطة سوف تحررنا جميعاً وتهدد السكان المحـاصرين، ويتـوجب علينا الآن الشروع بإقـامـة آلات حصـــار خشبيـة، بها نهاجم الأســوار والأبراج، ومن أجـل ذلك لنقم بجمع الأخشـــاب من البيـــوت، وأن نجلب العـوارض مـن الكنائس، حيث أن الأشجـار لا تنمـو في هذه البلاد، وبذلـك سوف نشيـد آلات حصار قوية، ومن ثم نهاجم هذه المدينة بقوانا كلها، ومن دون ذلك إننا نبدد وقتنا من دون غاية ولا فائدة.

وبعـد بحث طويل وجد أبطال الإيمان وعثروا على حـرش موجـود على مسـافة لا بأس بها، وقـد جلبـوا الأخشاب وسط مصـاعب كبيرة،

وجـرى جمع النجـارين البـارعين من الجيش كله، حيث قـام بعضهم بتشذيب سطح الأخشاب، وقام آخـرون بتقطيعها، وبعضهم الآخر فتح في الأخشـاب ثقوبـاً واسعة، وتولى آخـرون تثبيت الألواح مع بعضهـا، وقد صنع الدوق غـودفري برج حصار واحد اعتماداً على مـوارده، وأمر كونت طولوز بعمل واحد آخر على نفقته، ولم يكن المسلمون وقتها أقل نشـاطـاً في تحصين المدينة، وقـد عملوا أثناء الليل لـرفع الأبراج وزيادة علوها، واشتغلوا من دون توقف لتحسين دفاعات المدينة.

وفي يوم السبت[ ٩— تموز ١٠٩٩م] قـام الصليبيـون خـلال الليل الدامس بنقل برج حصـار غـودفـري، وعند إشراق الشمس نصب على الجانب الشرقي من المدينة، وقـد عملوا لمدة ثـلاثة أيام بدأت ومن دون توقف في إعداده، وترتيبه، ونقل الكونت ريمـوند آلته حتى أوصلها إلى الأسـوار في الجنوب، ويمكن وصف آلة مـن هذا النوع لا يمكن نقلهـا عبر المنحدرات، ولا يمكن دفعها فوق المرتفعـات المنزلقة، بل احتاجت دوماً إلى أرض مستوية، حتى يمكن جرها عليهـا، وسحبها نحو الأمام، وبناء عليــه أعلن المنادون في جميع أرجـاء المعسكر أن أي رجـل يرمي بثـلاثة أحجار في الحفـرة سـوف يتسلم بنسـاً مقابل أتعـابه، وقـام جميع الذين ملوا من الانتظار، بنشاط بتقديم يد المساعدة لهذا العمل.

وقـام الأسـاقفـة والكهنة بمخـاطبـة الناس ووعظـوهم من خـلال القداسـات حول الموت في سبيل المسيح، في مكان آلامـه، الذي أشاروا إليه بأصابعهم، لأنه كان قائماً أمامهم تمامـاً، وقد تكلموا بتقوى وببلاغة حـول القـدس السماويـة، المتجسـدة بالمدينة الأرضيـــة، ولبس جميع العلمانيـون دروعهم، وشـدوها، وهاجموا المدينـة بأجسـادهم، وضغطوا عليهـا بلا توقف خـلال النهـار والليل ليـومي الأربعـاء والخميس[ ١٣—١٤ تموز]، ثم إنهم بعدمـا قدموا الصلوات مع الصـوم، والدموع وتقـديم الصدقـات، وبعدمـا تمتنوا بالمشاركـة بالقربان المقـدس، هاجموا

المدينة يوم الجمعة الخامس من تموز عند إشراق الصباح، لكن حتى آنذاك لم يتمكنوا من تحقيق شيء، فقد أيد المدافعون عن الأبراج والأسوار بعضهم بعضاً، واستمروا يرمون بوابل من قذائف النار الإغريقية والحجارة، أما كونت طولوز الذي أمضى ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في طم الحفرة، فقد تمكن من دفع برج حصاره إلى مقابل السور، ثم أعطى رجاله استراحة حتى يوم الاثنين، بسبب المتاعب الكبيرة التي تحملوها خلال الأسبوع كله.

وبعد متاعب الصباح، استراح الفرنجة قليلاً، بناء على أوامر الدوق، لقد توقفوا عن الهجوم، وتوقف المسلمون عن الدفاع، وكان الأمير افتخار الدولة وحفيده Frigolendis الفارسي في برج داود، وقد دعا للاجتماع به أعوانه وأعيان سكان المدينة للتداول هناك، وفي الوقت نفسه صعدت نساء المدينة على أسقف بيوتهن، وذلك وفقاً لعادات الفلسطينيين، ووضعوا جوقتهم هناك وأنشدن الأغنيات التالية، بلغتهم وهن يزعقن:

قدموا الحمد الجدير لمحمد( صلى الله عليه وسلم )ربنا.
ضحوا بالقرابين مع الموسيقى البهيجة.
حتى يمكن إلحاق الهزيمة بعدونا الرهيب، وموته.
لأنهم يتفاخرون ويزدادون تكبراً بأرواحهم البربرية.
لا توفروا ولا رجل، وواجهوا شعوب الغرب.
الشرهين المتشوقين لنهب ثمار مملكتنا.
الذين انساقوا بسوء الحظ إلى بلادنا اللطيفة.
لقد قدموا إلى هنا لنهب مناطقنا الخصبة.
لاعنين لجميع الناس وصنفوهم ذئاباً
اغتسلوا بالعماد وتعبدوا الرب المصلوب

إنهم يزدرون شعائرنا ويستخفون بها، وبآلهتنا وعباداتنا.

لكن سوف يعاقبون بسرعة بالانتقام، والدمار

أيها الأتراك الشجعان صدوا الفرنجة واطردوهم بالقتال من هنا

تذكروا الأعمال المجيدة لآبائكم وأجدادكم

في هذا اليوم سوف يطير أعداؤكم أو سوف يهلكون(١).

لقد غنى بهذه الأغاني وبأغاني كثيرة مثلها النساء التركيات من فوق الأسطحة، وأصغى الصليبيون المندهشون إليهن بعناية، وفهموا من خلال المترجمين لديهم ما كن يغنينه بالتركية، ثم قال كونان الكونت الألماني، الذي كان متزوجاً لأخت غودفري: مولاي الدوق هل تسمع الذي يقلنه؟ هل تعرف لماذا يتصرفن وفق هذه الطريق، إن الإثارة الصادرة عن النساء وأعمال التشجيع تبرهن على أن الرجال قد أصيبوا بإنهاك مخيف، انظر إن الرجال يتساقطون من الإعياء ومن الرعب، والنساء واقفات يصرخن ضدنا، من أجل تعيير وإهانة المحاربين، وقد تجرأن على إخطارنا وتضليلنا بمزاعمهم الحمقاء، لأنهن سوف يعانين من أجل ذلك، دعنا— على كل حال— نقاد برأي شجاع، أو بالحري برأي سماوي، ودعنا نحمل أسلحتنا باسم الرب يسوع المسيح، الذي تألم في يوم جمعة في هذا المكان نفسه، وإننا بمهاجمة المدينة بزحف مصمم، سوف نصل في هذا اليوم نفسه إلى ضريح ربنا.

وهكذا حدث أنه في الساعة الثالثة، وهو الوقت الذي أدان فيه اليهود الرب أمام بيلايتوس، تذكر الصليبيون آلامه، فتلقوا وقتها قوة جديدة، وعندما باتوا ممتلئين بشجاعة جديدة، شرعوا بالقتال وكأنهم لم يعانوا من شيء من قبل، وقاتل الدوق غودفري وأخوه يوستاس

---

١—يرجع أن هذه أغاني خيالية، وهي تعبر عن جهل الصليبيين بالعقائد الإسلامية.

بشجاعــة هي الأعظم، ولحق البقيـة بهما، ثم تسلـق ليثـولد Lethold وريمبـولد كــروتون Raimbold Croton ، اللذان كـانـا فـارسين شجـاعين، السور، وبها أنهما أخـذا يقاتلان بتصميـم وشجاعـة، حرضـا البقية، فســار البقية على خطاهما، وهرب الرجـال الذين كانـوا يدافعون عن السور آنذاك في جميع الاتجاهـات، من دون امتلاك المزيد من التفكير في حماية المدينة، ودخلت حشــود الصليبيين إلى المدينة، وأخـذت تطارد الهاربين، ولم توفر أحداً.

وتابع الأرمن، والإغريق، والسريان، الـذين حكموا من قبل الأتراك في القـدس، ممارسـة طقوسهم المسيحيـة حسب أفضل مـا يستطيعـون، وبتقـوى عظيمة،وعندمـا رأوا الصليبيين وقد شقـوا طريقهم بعنف إلى داخل المدينة، هربوا جميعاً مع بعضهـم إلى كنيسة الضريح المقدس، وهم ينشـدون بتقــوى (Kyrie eleison) وأناشيــد صلوات أخــرى موائمـة للمناسبة، وانتظروا نتـائج الحوادث، ووصل تانكرد— الذي لم يعــرف الطـريق— مع قـــواته إلى هناك بإرادة مـن الرب، وأدرك من حـركـاتهم التقوية أن أولئـك القوم كـانوا من عبـاد المسيح، فقـال: إن هؤلاء الناس مسيحيين، لذلك ينبغي عليكم جميعـاً ألا يقوم أي واحـد منكم بإيـذاء عبيــد المسيح هؤلاء، بل عليكم تحريرهـم من تعــذيبهم الوحشي، إنهم إخـواننا وأصدقـائنا، تبرهن أنهم مخلصين حتى الآن من خـلال الكثير من المتاعب، وقـد تبرهن أنهم مثل الذهب في الأتون، ثم ترك البطل النبيل خلفه إلغـر بيغود Ilger Bigod ، الذي كان قـائد فـرسانـه، مع مائتي فـارس، وعينه حـارسـاً على المكان، حتى لايمكن للمسلمين دخـوله ثانيــة، وذهب هو نفســه مع بقيـة قـــواته لاقتحـام الأماكن الحصينة، ولمساعدة رفاقـه، الذين كانوا يفتشون المدينة، وكانوا مشغولين بقتل المسلمين.

وفي الوقت نفسه، تكلم المسيحيون المحليون الذين بقيوا بالكنيسة مع إلغر، بشكل سري، ورغبة منهم في ضمان حمايتـه، قادوه عن طواعية مع

رفاقه إلى الأماكن المقدسة، أي إلى الضريح المقدس، والأماكن المقدسة الأخرى، وأروهم أشياء محددة، كانوا هم وآباءهم من قبل قد احتفظوا بها مخفية، في أماكن سرية، صدوراً عن خوفهم من المسلمين، ثم وجد إلغر هناك من بين الآثار المقدسة الأخرى تاج عمود من الرخام، كان مفرغاً محفوراً، وموضوعاً تحت المذبح، ليخدم بمثابة وعاء لخبز القربان، وكتلة صغيرة من شعر مريم، الأم المقدسة للرب، وأخذت هذه فيما بعد إلى فرنسا، وقسمت بصورة تقوية ليجري توزيعها بين معابد الأسقفيات والأديرة، لأن الأم العذراء الطاهرة بكت بكاء فوق الوصف أثناء آلام المسيح، الذي هو ابنها والرب أيضاً، وتبعاً للعادات القديمة لشعبها وعادات ذلك الزمان مزقت ثيابها، ونتفت شعرها، وبتقوى تفوهت بمراثي حزينة عند موت ابنها الوحيد العزيز جداً عليها، وبلطف قامت النسوة اللائي كن معها، وكن نساء مقدسات، قد أصبحن حديثاً أتباعاً للرب، فمن بتأييد الأم الباكية، أم الملك السماوي، وعانقنها وواسينها بلطف بقدر ما هو ممكن، وجمعن بتقوى الشعر الذي اقتلعته، وتولين حفظه بكل عناية، وقام يوحنا( الإنجيلي) المقدس مع أصدقاء آخرين للمسيح بتخبئة هذا الشعر في مكان آمن، عارفين بأنه سوف يكون مدداً لخلاص الكثيرين، ولقد كتبت هذه الرواية في كتابي، لأن إلغر بيغود أعطى شعرتين من هذه الكتلة إلى قريبه الراهب أرنولد، في تشارترز، وقد قام أرنولد بعرضهما في كنيسة مول Maule ، حيث تم شفاء عدد كبير من المرضى من خلالهن.

أما الآن فإنني سوف أتابع روايتي:

استسلم الأمير الذي كان قائداً لبرج داود، وهو في حالة رعب شديد، إلى الكونت ريموند، مع الشخصيات القيادية من سكان المدينة، وعدد كبير من الآخرين، الذين كانوا معه هناك، وعلى الفور فتحوا الباب إليه، واعتاد الحجاج من قبل على شراء حق الدخول من خلال

هذا الباب، وذلك بمالهم، لأنهم اعتادوا على دفع الضرائب هناك، وكانوا إذا لم يفعلوا ذلك يطردون من أمام الباب من دون شفقة.

وتجمع سكان المدينة الذين هربوا في هيكل سليمان، واتخذوه لأنفسهم في محاولة جديدة للمقاومة هناك، وهاجمهم الصليبيون بقوة مرة تلو أخرى، وعندما رأى المدافعون أن المقاومة كانت من دون فائدة، ألقوا سيوفهم، وحنوا رقابهم للجلادين، وما من واحد يعرف عدد الذين قتلوا، ووصلت دماؤهم التي جرت في الهيكل إلى ركاباتهم، وتكدست أكوام هائلة من الجثث في كل مكان من المدينة، لأن المنتصرين لم يوفروا أحداً لا لعمره، ولا لجنسه، ولا لمرتبته، ولا لأي وضع من الأوضاع.

ولقد طاردوهم وذبحوهم باندفاع بالغ وحرارة كبيرة، بسبب أنهم دنسوا هيكل الرب، وكنيسة الضريح المقدس، واغتصبوا لأنفسهم هيكل سليمان والكنائس الأخرى، من أجل عقيدتهم الدنسة، ولوثوهم بالكفر والتجديف، ونجا بعضهم إلى سطح هيكل سليمان، وطلبوا راية تانكرد، حيث يمكن إبقائهم وعدم ذبحهم، وبعدما تسلموها أملوا بمصير أفضل، غير أنهم ربحوا قليلاً، أو نالوا لا شيء بهذه الطريقة، لأن الصليبيين لم يوفروهم هم أيضاً، باستثناء عدد قليل أبقوهم أحياء واحتفظوا بهم لبعض الوقت من أجل نقل جثث الموتى، وبيعوا فيما بعد أو أعدموا، وغضب تانكرد غضباً شديداً، بسبب هذه الفعلة، لكنه لم يتخاصم مع رفاقه بسببها.

وعلى كل حال أمر كونت طولوز بوجوب مرافقه الأمير الذي خضع له وسلمه برج داود، بأمان مع جميع الآخرين إلى عسقلان، وجاء هذا بموجب الصفقة التي عقدها معهم، وقد حافظ على وعده، ولم يحنث به.

ولم ينهب المنتصرون تلك المدينة ولم يحرقوها، حسبما جرت العادة بالنسبة للمدن المستولى عليها، بل حافظوا على البيوت مع جميع محتوياتها، حسبما وجدوها، واستحوذوا عليها لأنفسهم ولتلبية

حـاجيـاتهم، ووزع كثيرون بكرم وسخــاء الذي وجـدوه على الفقـراء، واستحـوذ كل واحـد من دون معارضـة على البيت الذي أراده، سـواء أكان كبيراً أم صغيراً، وفعل كل واحد منهم ذلـك بعد دخوله إلى البيت وطرده ملاكـه المسلمين، وتملك جميع الأشياء الثمينة في داخله، واحتفظ به حتى اليوم بموجب حق التوريث.

وبعدمـا نال الصليبيون النصر الذي تطلعوا إليـه ورغبوا به منذ زمن بعيـد، غسلوا الدمـاء من على أيديهم، وذهب كثيرون وهـم حفـاة، وهـم يركضــون مسرعين في حشــود، وكــانـوا مبتهجين ويبكون من شــدة سرورهم، لقد مضـوا إلى تقبيل الضريح المقدس لمنقذنا المبارك، وقـدموا هناك تقـدمات سلام وأضحيـات شكر، ثم كان هنـاك سرور عارم بين المؤمنين، لأنهم نالوا جميعـاً وربحوا الذي أملوه منذ زمن بعيـد، وتحملوا في سبيله كثيراً من الآلام، والمخـاطر حتى حصلوا عليه، وبسرور عـارم عرفوا نهاية جهودهم وأتعابهم، وبات ذلك مرئياً من قبلهم، يشعرون به بأنفسهم بأنه الأكثـر ضماناً، ولقد تصـوروا من خلال المسرات الحاليـة، نوع الجوائـز المستقبليـة التي سيحصلون عليهـا، وعلى كل حـال اتخذوا خطوات في سبيل إزالة الجثث ونقلهـا، لأن المنظر كان مـرعباً، وكـانت الروائح النتنة لا يمكن تحملهـا، وجــرى تكديس جثث المذبوحين على أكـــوام من الحطب، وتولى ذلـك الأسرى من المسلمين والفقـــراء من الصليبيين الذين نالوا أجــورهم من أجل خـدمـاتهم، وبعــدمـا جـرى حرقهم جرى تنظيف المدينة من قبل رجالنا من التلوث.

—١٦—

وأسس جند المسيـح المخلصين أنفسهم بأمــان في مــدينة القــدس، وقـدموا حمداً حقيقيـاً إلى الرب، الذي من خـلال عـونه الجاهز انتصروا على المسلمين، وأعادوا الأوضـاع الماضية للكنائس وجعلوا كـل واحدة منهن جاهزة لأعمال الصـلاة، واتخذوا من يوم الجمعة الخامس عشر من

تموز عيداً، وهو اليوم الذي استردوا به المدينة، وتشاوروا أيضاً حول إقامة ملك هناك، وفي اليوم الثامن بعد الاستيلاء على المدينة اختاروا الدوق غودفري ملكاً، وجاء ذلك بموافقة عامة، وكان غودفري رجلاً من أصل ملكي، انحدر من آباء تولوا نشر الديانة المسيحية، فيوستاس، كونت أوف بوليون، الذي قاتل مع وليم في معركة هيستنغ في انكلترا، قد تزوج إيدا، أخت غودفري دوق أوف لوثارنجيا Lotharingia ، وأنجب منها: غودفري، وبلدوين، ويوستاس، وبنعمة الرب كان هؤلاء الرجال مباركين كثيراً بالثروة، ومتميزين في العالم، قد تبرهن على جدارتهم وعلى رفعتهم في الحملة إلى القدس، وعمل غودفري، الذي كان هو الأكبر، ملكاً على مملكة داود، لأنه كان فارساً، لوحده يشار إليه ببراعته في فنون الفروسية، حسبما جرت ممارستها في فرنسا، وكان جندياً امتاز بأن جمع بين الشجاعة والقوة في المعركة، ورجلاً لطيفاً وأديباً ومليئاً بالشفقة.

وجرى في الوقت نفسه اختيار أرنولف أوف تشوك Arnulf of chocques ، الذي كان رجلاً عالي التعليم، ليشغل وظيفة الأسقف.

وفي الوقت نفسه ذهب تانكرد والكونت يوستاس، مع أتباعهما الكثرة والمتعلقين بهما إلى نابلس، بناء على دعوة السكان أنفسهم الذين سلموا المدينة لهما بسلام، وقد بقيا هناك لبضعة أيام، حامدين للاستراحة، حتى بعث الملك رسلاً مستعجلين لإحضارهما مع هذه الأوامر:

« لدينا تقرير موثوق به بأن أمير القاهرة، موجود في عسقلان، وهو يتجهز لمعركة كبيرة ضدنا هنا، إقدما بقدر ما يمكنكما من سرعة، وبذلك يمكننا أن نعترض قواته بشجاعة قبل أن يمتلكوا الفرصة لمحاصرتنا في المدينة، فالناس الذين يقعون تحت الحصار لايمكنهم الدخول ولا الخروج بحرية، ويعيشون برعب مستمر، ولذلك دعونا

نزحف إلى ميدان مفتوح، وبتوجيه من الرب يمكننا بسهولة أكبر أن نأخذ بزمام المبادرة ونربح اليوم، فنحن أسرع في القتال وأكثر مناورة وحركة مما هم عليه، ومن المفيد مقابلتهم في مكان، يظنون إلى أبعد الحدود، أنه ليس هناك من شيء يخافون منه.

ولدا سماع تانكرد ويوستاس لهذا مضيا على طول الساحل حتى الرملة، حيث وجدا كثيراً من العرب، جرى إرسالهم بمثابة طلائع لجيش الأمير، فحملا عليهم واثقين، فشتتوهم على الفور، وقتلا بعضهم، وأسرا بعضهم الآخر وهم أحياء، حتى يتمكنا من الحصول منهم على أخبار معتمدة، حول الأمير وجيشه، وقد ضمنا الحصول على معلومات دقيقة حول الذين تشكل جيشه منهم، وحول كم كان حجمه كبيراً، والذي كان أعدائهما يعدانه، والمكان الذي كان يخططون للقتال به.

وأرسل تانكرد رسلاً إلى الملك لإعطائه المعلومات التي استخرجت بالتعذيب من الأسرى، حيث قال له ما يلي:« كن متأكداً بأن الاستعدادات قد اتخذت لخوض معركة ضدنا عند عسقلان، وكل شعوب الدنيا تقريباً قد اجتمعت، وأقسمت يمين الولاء، وعزمت على إلحاق الهزيمة بنا وإخضاعنا بالقوة، أجمعوا جميع قواتكم، وأقدموا حتى يمكننا محاربة كنيس الشيطان، وإذا كنتم ترضون، نحن سوف نهاجمهم غير هيابين، ومن دون سابق إنذار، وبسهولة سوف نهزمهم بعون الرب، لأنهم مربكين مرهقين بأسلحتهم وبكثرة أثقالهم، وقد جلبوا معهم آلات حصار لمهاجمة المدينة، وبناء عليه أعلن الملك في جميع أرجاء المدينة بوساطة المنادي بأن على الجميع الاستعداد للحرب، وأن يتبعوا بجرأة وإقدام راية الملك.

وهكذا انطلق الملك، والبطريرك المنتخب، وكونت فلاندرز، وأسقف مارتيرانو Martirano ، من المدينة في يوم الثلاثاء [ ٩—آب ١٠٩٩]، وكان كونت صنجيل ودوق نورماندي غير راغبين بالمضي حتى يحصلا

على معلومات إيجابية أكثر حول زحف الأمير، وعندما شاهد الملك جميع الاستعدادات أعاد أسقف مارتيرانو إلى القدس لإخبار الأميرين بشأن الاستعدادات، وأعطى الأسقف الرسالة إلى كونتي طولوز ونورماندي، لكنه عندما كان مستعجلاً على طريق العودة وقع في أيدي المسلمين، وليس من المؤكد فيما إذا كان قد أخذ أسيراً، أو قتل، لكنه لم يشاهد مرة ثانية.

وعلى كل حال انطلق كونت طولوز ودوق نورماندي وخرجا من أجل القتال مع قوة كبيرة، وقد تركا القدس في يوم الأربعاء (١٠-آب ١٠٩٩)، وأنشد رجال الدين أناشيد القداسات وقدموا الصلوات، أما بالنسبة لبطرس الناسك ومجموعة من غير المقاتلين الذين بقيوا، وكذلك النساء اللائي لم يكن محاربات بالطبيعة، فقد خرجوا في مسيرات من كنيسة إلى كنيسة، مع صلوات خاشعة، وتوزيع للصدقات، يسألون الرب أن يقف معهم، وأن يساعد برحمته شعبه بتدمير أعدائهم إلى الأبد بيده القديرة، واجتمع القادة واحتشدوا مع جيوشهم عند النهر الذي يجري قرب عسقلان، ووجدوا هناك قطعاناً كبيرة من السائمة، وضمنوا الحصول على أسلاب ثمينة، وطارد ثلاثمائة من العرب الفرنجة، لكنهم استداروا فجأة حولهم، وبعدما أسروا اثنين من عددهم، طاردوا البقية حتى جيشهم، وبعد هذه الغارات عاد الصليبيون إلى معسكرهم، واستراحوا أثناء الليل، باستثناء أنهم كانوا جميعاً مشغولين بشكل رئيسي بالحراسة والصلاة، وفي المساء حرم البطريرك بشكل مهيب على أي واحد الابتعاد أو الخروج للحصول على أية أسلاب ومنهوبات في يوم الغد، قبل المعركة.

— ١٧ —

وعند إشراق الشمس في يوم الثاني عشر من آب، دخل الجيش المبارك للمسيح إلى واد جميل، ممهد بشكل موائم، إلى جانب البحر، وهناك تمت تعبئته في ستة أفواج، وتولى الملك، وكونت نورماندي،

وكونت طولوز، وكونت فلاندرز، وغاستون، ويوستاس، وتانكرد قيادة العساكر، وقام كل واحد منهم بعناية بصف رماته وجنود الرجالة، وبعث بهم بحيطة وحذر إلى الأمام، ووجهوهم كيف يصرخون بصيحات الحرب، وكيف يقفوا ثابتين، وكيف ينفذون خلال صفوف العدو التي بدت وكأنها لا تخرق، وأخبروهم أن لا يخافوا من شيء، وأن ينظروا بشجاعة وبشكل متواصل نحو راياتهم، وأن يجهزوا أنفسهم للصمود أمام ضربات العدو، وكان هذا كله قد تعلموه جيداً في المعارك الأخرى، التي قاتلوا فيها بصورة جيدة.

ومن الجانب الآخر، كان المسلمون الذين زاد عددهم على أعداد النجوم، كانوا أدنى انشغالاً في حشد أفواجهم، وانتشرت الفرق التي لاتحصى عدداً من جانب إلى جانب، وأرسلوا بالسودان نحو الأمام، ووضعوهم في المقدمة، وأمروهم أن لا يتزحزحوا من أماكنهم ولا شبراً، ووضع هؤلاء الرجال ركبهم على الأرض، وكانت الركبة اليمنى في الأمام، ودافعوا عن الأجزاء العليا من أجسامهم بالترسة، وقاتلوا بوساطة النشاب والسيوف، ولم تتراجع صفوفهم أبداً، ولم يبتعدوا إلى الخلف ولا خطوة، عن مراكزهم المعينة، ثم قامت وحدات الفرسان باحتلال المواقع المعينة لها، وفقاً لنظام المعركة، ومن أجل تجنب العطش الشديد، بسبب الحرارة وسحب الغبار، وثقل المعركة وطولها، علقوا حول رقابهم أوعية لماء الشرب صغيرة، كانت مليئة بالماء، وقد أنعشتهم، لذلك كان بإمكانهم المقاومة بجلد أعظم، ومطاردة المهزومين من دون تعب، ولم يفكروا قط بالفرار بأنفسهم، لأنهم وثقوا بأعدادهم الكبيرة، وبالشجاعة الشديدة للشعوب البربرية، وكذلك بالمراسيم السلطانية التي حرمت الفرار، فقد قال السلطان «سوف يفقد الفارون رؤوسهم».

وعندما أكمل الطرفان استعداداتهما من أجل القتال، وكانا على وشك الاشتباك، وقف الصليبيون للحظة، وشخصوا بأعينهم بخشوع نحو

السماء، وصلوا وركعوا على الأرض، وأملوا بالعون من السماء، لأنهم في مناسبات ماضية في أوقات حاجتهم، غالباً ما عرفوا أن العون قريب منهم، وبعد أدائهم لصلاة قصيرة، وبخشوع رسموا علامة صليب الخلاص على جباههم، ركبوا بثقة أكبر، وبشجاعة قاتلوا المسلمين باسم الرب، ووقف المسلمون ثابتين، وانتظروا من دون إحجام.

وركب كونت طولوز على الجناح الأيمن قريباً من البحر، وزحف من على الجناح الأيسر الملك متقدماً بسرعة مع عساكره، وكان في الوسط كونتا نورماندي، وفلاندرز، وتانكرد مع آخرين قاتلوا معهم، لكن أمام كل عشرة من رجالنا انبعث مائة من المسلمين، وعندما جرى الالتحام وبدأ القتال في المعركة، شاهد عن بعد روبرت دوق نورماندي راية الأمير، التي كان عليها تفاحة ذهبية، وضعت على رأس القصبة، (وكانت القصبة نفسها مغلفة بالفضة وكانت تلمع)، وعندما عرف أين هو موجود، حمل نحوه بشجاعة، وذلك من خلال الصفوف وأصابه بجراحة قاتلة(١)، وأرعبت هذه البراعة المسلمين، وقام كونت فلاندرز بهجوم ثابت، وحمل تانكرد دونما خوف خلال وسط المعسكر، وعلى الفور أدار الفرسان المسلمون ظهورهم وهربوا، وثبت السودان المندهشين في أماكنهم، لكن الملك وبعض الفرنجة التفوا من حول السودان، وتوقفوا لمدة دقيقة أو دقيقتين، ثم قطعوهم من الجانب بسيوفهم، مثل قطع القمح الناضج، ففصلوا رؤوسهم على أجسادهم، وصبغ الميدان بالدم، وتغطى بجثث الموتى من المسلمين، وطارد الصليبيون الفارين، وارتعد المسلمون أمام قدرة الرب، التي لم تعطهم لحظة تنفس، وقد علم فيما بعد من الذين نجوا بأن عيونهم قد أعميت، ومع أنها كانت مفتوحة، كانوا بالكاد يرون الصليبيين، وكانوا تماماً عاجزين عن إلحاق الأذى بهم، ومع أنهم كانوا كثرة لم يتجرأوا على تحدي القليلين، وقد حاولوا الفرار بطرائق كثيرة،

١ — الذي قتل هو حامل الراية.

لكن رجالنا انتصروا، وأنزلوا بالمسلمين عقوبة جماعية، ولم يوفروا ولا رجلاً واحداً، وبذلك تبرهن أن ذلك اليوم كان يوماً حاسماً بالنسبة للمسلمين، عندما لم تتوفر الفرصة إلى أي واحد بالنجاة، لأنهم هلكوا بين الأشجار، ووسط الصخور، وفي الحفر العميقة للكهوف، لقد هلكوا في كل مكان بسلاح المنتصرين.

وقتل كونت ريموند الذي كان يقاتل على مقربة من البحر عدداً كبيراً، وببراعة أنهك الهاربين الذين فروا نحو المدينة، التي كانت على مسافة غير بعيدة من هناك، ولذلك بقيوا في الميدان منهكين، أو صرعوا أو ماتوا في أماكنهم، أو ألقوا بأنفسهم في البحر، وبفعلهم هذا نجوا من موت ليقعوا في موت آخر.

وغطى أسطول الأمير البحر كله، وانتظر الرجال الذين كانوا في السفن حتى يروا نهاية المعركة، ولكن عندما رأوا أن خط القتال لم يكن لصالحهم، عادوا إلى قلب البحر، وأداروا أشرعتهم نحو الريح، وأبحروا عائدين إلى بلادهم.

ولقد روي بأن الأمير زمجر وبكى وناح في اللحظة الأخيرة، وتفوه بالكلمات التالية:« يا خالق جميع الأشياء ما هذا؟ ما الذي حدث، ما هذا المصير الشرير الذي دمرنا؟ الويل لي، ما هذا العار، وهذه الوصمة الدائمة التي لحقت بشعبنا؟ جنس من المتسولين، جنس من المرذولين قد قهروا شعبنا، كيف حدث هذا؟ لقد جلبت إلى هنا— حسبما وافقت أن أعمل— مائتي ألف رجل خيال، مع عدد لا يحصى من الجنود الرجالة، معتقداً أنه يمكنني قهر العالم كله، والآن، إنه على كل حال، إذا أردنا رواية الصدق، لقد هزموا بشكل مشين من قبل أقل من ألف فارس وثلاثين ألفاً من الجنود الرجالة، إما أن ربهم كلي القدرة وقاتل من أجلهم، أو أن إلهنا غاضب علينا، وبغضبه العظيم هزمنا وأذلنا، ومهما كان السبب، فإن النتيجة هي نفسها، ومن الآن فصاعداً لن أثيرهم، بل

عـوضـاً عن ذلك سـوف أعـود إلى بـلادي لأمضي بقيـة أيامي في الذل والعار»، وإنه بهذه الكلمات بكى سوء حظه، وناح من صميم قلبه.

وعندما رأى سكان عسقلان الهاربين مـن المسلمين وقد احتشدوا عند مـدخل المدينة، وكـونت ريمـوند مع رجـال طولوز يطاردونهم من دون توقف ويقتلونهم، أغلقوا الأبواب، وأبقوا في الخارج الأعـداء والأصدقاء سواء، وكانوا يخشون من أن يقـوم الأعداء الذين لا يقهرون من الاندفاع إلى داخل عسقلان، ويدخلون إليهـا مع رجال الأمير، ويسيطرون عليها، ويحولونها إلى العبـــودية بعـــد قتل السكان، ووقـف كـونـت طولوز غير هياب، مع رجاله أمام المدينة، وذبحوا مثل ذبح الأغنام جميع الفلسطينيين الذين كانوا ما يزالون واقفين خارج ملجأهم، ثم إن سكان المدينة، الذين شـاهدوا من وراء الشرافـات، وشهـدوا إصرار الصليبيين، وخـافـوا من إمكانية أن يعانوا من مثل تلـك المذبحة التي رأوها، والمذابح التي سمعوا عنها من جيرانهم، طلبوا راية الكونت، ووعدوا وأقسموا على أنهم سوف يسلمـون المدينة إليهم، وقـد توصلوا إلى هذا القـرار، لأنه كـان الأقـرب إليهم، وقد هددهم كثيراً، ولأنه حـافظ على حياة أمير افتحـار والآخرين الذين وثقـوا بوعـده، واستجـابة منـه إلى مطالبهم، أرسل حـامل رايتـه، وبعـدمـا قتل جميع الرجـال الـذين كـانوا خـارج المدينة، أو أرغمهم على الفـــرار قـــد منحنا نصراً عظيماً، وسكـان عسقـــلان هـم على وشك الاستسلام، وهم على استعداد لفتح أبواب مدينتهم، ولقد تسلموا رايتي، وإذا كنتم توافقـــون، ســـوف يضعـــون أنفسهم تحت حكمي، وســـوف يطيعـون أوامري للحفـاظ على حيـاتهم»، وأجـابه الملك:« إنني لن أمنح السيادة على هذه المدينة إلى أي إنسان، وعوضاً عن ذلك سوف أقتحمها، وسوف أخضعهـا إلى إرادتي، إن عسقلان قريبة جـداً من القدس، والحق الوحيـد هو أن تكون تحت سلطـة حـاكم القـدس»، وقـال روبرت أوف نورمانـدي وكونت فلاندرز مـع الأعيان الآخرين للملـك:« أنت تعرف

تمام المعرفة بأن الكونت صنجيل قد ترك ممتلكاته الخصبة، ومدنه الغنية عن طواعية ليخدم الرب، وقام بأفاعيل شجاعة كثيرة في الحملة الصليبية، وتفوق علينا جميعاً في تحمل المتاعب الكبيرة، لذلك إنه ما أصر على البقاء حتى النهاية في حجه الذي تولاه وحافظ عليه، ودافع عن المدينة المقدسة التي اقتحمها بإصرار وشجاعة وتصميم كبير، حتى يربحها للرب، عليك أن تمنحه عن طواعية هذه المدينة، التي لم تتملكها بعد، وهي التي طلبها، ثم إننا عندما نعود إلى منازلنا، من المؤكد أنك سوف تكون بحاجة كبيرة إلى طاقاته وآرائه، فالمدينة سوف تخضع إلى سلطتك الملكية شرفياً وبالفعل، إذا ما قام سيد بمثل هذه الشجاعة فقدم الولاء إليك، وقاتل من أجلك».

ولم يستجب الملك إلى العرض الذي قدمه السادة ولم يتنازل، فقام الكونت بالمغادرة وهو غاضب، ونصح سكان عسقلان بالدفاع عن أنفسهم بثبات، ورغب الملك بحصار المدينة، لكن القادة الآخرون انسحبوا وتراجعوا متعبين وغاضبين، وهو لم يستطع أن يعمل شيئاً لوحده، ولذلك غادر المدينة، وتركها وهو آسف دون التعرض للأذى، ومن المخجل أن نروي أنه لا هو ولا الملوك الآخرين الذين حكموا من بعده، خلال أربعين عاماً، كانوا قادرين قط على نيل هذه المدينة الفلسطينية المهمة، واستمر الحال حتى اليوم الحالي، وإنما عوضاً عن ذلك قد خسروا ما يزيد على مائة ألف رجل، وعانوا من خسائر أخرى لاتعد ولا تحصى من أجلها، فعلى هذه الشاكلة كانت جائزة الطموح المفرط بالتعجرف، فلو أن الملك سار وفق الحب الحقيقي، وأحب جيرانه مثل حبه لنفسه، تبعاً لشريعة الرب، كان بإمكانه أن ينال الحصن المعادي في ذلك اليوم، وبذلك كان سيفتح للصليبيين ممراً حراً ومفتوحاً إلى مصر، وإن لدي الكثير لأمدح به الملك غودفري، ولكن مثلما كتب بولص الرسول إلى الكورنثيين:« في هذا أنا لن أمدحه أبداً».

وانتشر خبر أن الأمير كان لديه مائتي ألف من الفرسان الخيالة، مع عدد لايحصى من الجنود الرجالة في ميدان المعركة، وأن الصليبيين كان لديهم مجرد ألف فارس وثلاثين ألفاً من الجنود الرجالة، وعندما انتهت -بعون الرب- المذبحة، عادوا إلى خيام المسلمين، وباختصار نقول: لقد وجدوا كل شيء يمكن تصوره، وكل نوع له قيمة: الفضة، والذهب، والقمح، والطحين، والزيت، وعدداً لايحصى من قطعان الماشية، وكل نوع من التزيينات الثمينة، وأكوام من الأسلحة، وكل شيء آخر هو مرغوب به، واستحوذوا على جميع هذه الأشياء وتملكوها، وبعد هذا عادوا إلى مدينة القدس المقدسة، وقدموا الشكر الموائم للرب في جميع الكنائس.

وابتاع روبرت، دوق نورماندي، الراية من الرجال الذين أخذوها من الأمير الجريح، مقابل عشرين ماركاً من الفضة، وأخذها إلى ضريح الرب، لتبقى ذكرى تشهد على النصر العظيم، وباع رجل آخر سيف الأمير مقابل ستين ديناراً، وما من لسان يمكنه أن يصف السرور الذي تم الشعور به خلال العام المسيحي، بسبب هذا النصر، وبهذه الطريقة حرر الصليبيون القدس من أيدي الكفار الأتراك، في عام ١٠٩٩ لتجسيد الرب، ومع المسيح قائداً لهم انتصروا عليهم مرة ثم مرة، وكان القتال في المعركة الكبيرة في الثاني عشر من آب، وارتفع شأن العقيدة المسيحية في كل مكان، الشكر للرب.

—١٨—

لقد سرت حتى الآن على خطا بودري Baudry المبجل وتبعتها، وقدمت رواية صحيحة حول الجيش المجيد للمسيح، الذي تمكن بعون الرب من هزيمة حشود من المسلمين في البلدان الشرقية، وفي كثير من أجزاء كتابي نسخت حرفياً كلام هذا الرجل المتعلم، وذلك مثلما كتبهم، دون أن أحاول نشر عمله بأي سبيل آخر، بسبب أنني أعتقد أنني لايمكنني إدخال تحسينات عليهم، غير أنني اختصرت بعض نصوصه،

خوفاً من أن يسبب إطالتي لروايتي الإنهاك لقرائي، وقد أضفت أشياء قليلة، لم تذكر من قبله من أجل منفعة الأجيال المقبلة، وأضفتهم بصدق كما علمتهم وأخذتهم من أناس شاركوا في هذه المشاق والمخاطر، وبودي تكريم واحترام هذا الأسقف المبجل، الذي أعرفه معرفة جيدة، فقد كان من أهالي أورلين Orleans ، وكان راهباً وراعياً لدير بورغويل Baurgueil ، وكان جيد المعرفة بالعلوم الحرة، كما كان أيضاً محترماً لأخلاق ومحاسن حياته كراهب، وقد ترقى من بورغويل إلى مرتبة رئيس أساقفة دول Dol بموجب انتخاب لاهوتي بسبب تقواه وعلمه، وعندما كان أسقفاً تابع أداء واجباته كراهب، وغالباً ما عاش مع الرهبان حسبما سمحت المناسبات، وقد نصب على أهالي بريتاني غير المنضبطة، غير أنه لم يستطع تحمل عدم طاعتهم، لذلك غالباً ما هرب من وقاحتهم وفوضاهم، والتجأ إلى نورماندي، وقد تسلمت كنيسة دول أراضي وممتلكات على نهر رايسل Risle في أيام القديس سمسون، عندما كان جيلد ربيرت Childebert ملكاً على الفرنجة، وقد تسلمهم من دون إزعاج وبسلام، وهناك نهض بمستمعيه إلى عبادة الرب، وكذلك بوساطة كتاباته، وتعليمه، وقد زار الديرة المجاورة في فيكامب Fecamp ، وسانت-واندريل Saint-wandrile ، وجومجي Jumieges ، وديرة أخرى كثيرة، ووعظ ودعا إلى الخوف من الرب في قداساته، ومات أخيراً في سن متقدم، وقد دفن أمام الصليب في كنيسة القديس بطرس الرسول في برو Preaux.

وإنني أتشوق الآن للاستراحة، لأنني متعب كثيراً من الكتابة ومن البحث في حوادث وقعت في بلدان نائية في الشرق، وقد قررت إنهاء الكتاب السادس من التاريخ الكنسي عند هذه النقطة، وفي الكتاب السابع إذا سمحت لي الحياة والصحة، مع عون المخلص، الذي فيه كل آمالي، سوف أقدم رواية صحيحة عن الحوادث المتنوعة المزدهرة

والمعاكسة، التي وقعت خلال الثلاثين عاماً، ولسوف أدونهم ببساطة من أجل منفعة الأجيال المقبلة، وذلك وفق أفضل قدراتي، لأنني أعتقد أنه سوف يكون هناك من بعدي رجال مثلي شخصياً، سيتشوقون لمتابعة أخبار الحوادث، وتدوين الأخبار العابرة لأعمال هذا الجيل، على صفحات التواريخ، وبذلك يمكنهم كشف أخبار الخطوط الماضية للعالم المتغير، في سبيل تثقيف أو بعث السرور لدى معاصريهم(١).

## انتهى هنا الكتاب التاسع من التاريخ الكنسي

١— تمت كتابة الكتابين السادس والسابع قبل أن يعيد أوردريك ترقيم كتبه، وفي المراجعة عندما جرت إضافة العناوين، أخفق في تصحيح الترقيم، وإذا كان أوردريك قد أمل عندما أكمل الكتاب التاسع بتدوين جميع أحداث الثلاثين عاماً المقبلة في كتاب واحد، هو أخطأ في الجمع والحساب، حيث كانت هناك حاجة لثلاثة كتب لإيصال تاريخه إلى عام ١١٣٠م .

# الكتاب العاشر

## هنا بداية الكتاب العاشر

— ١ —

في عام ١٠٩٨ لتجسيد ربنا، وفي العلامة السادسة، أظهر الجبار الخالق لجميع الأشياء بعض النذر في العالم، بوساطتها ملأ قلوب الناس بالخوف، ومن خلال المعجزات التي ظهرت أعطى إنذارات بقدوم أشياء أشد إرعاباً، ففي السابع والعشرين من أيلول بدت السماء وكأنها مشتعلة بالنيران طوال الليل، ثم في يوم عيد الميلاد الذي وقع في يوم السبت في العلامة السابعة، تحولت الشمس إلى ظلام(١)، وبعد ذلك مباشرة تقريباً كان هناك تغييرات كثيرة بالحكام وقعت في جميع أنحاء العالم، وفي الوقت نفسه أزعجت بني البشر العديد من الفواجع المخيفة، والتمردات، والصراعات الجادة.

وبعدما حكم أوربان الكرسي الرسولي لمدة عشرة أعوام بغيرة وبشكل جيد، وقع مريضاً في روما، وكان ذلك في حوالي الوقت الذي تم الاستيلاء به على القدس، ذلك أنه غادر هذه الحياة يوم التاسع والعشرين من تموز(٢)، ومضى ليتلقى من الرب الجزاء على أعماله الصالحة، التي اشتهر بها بصورة خاصة وتميز، ومجده وشهرة عظمته التي انتشرت في جميع أنحاء العالم، والبكاء عليه بعد موته حتى من قبل غير أصدقائه هي شاهد على عظمة إنجازاته.

وقد كتب بطرس ليونيس Leonis ثلاثة مقاطع رثاء حزينة حوله، وقد مدح ذكراه باختصار بهذه الكلمات:

---

١— كان هناك كسوف للشمس يوم ٢٥ كانون أول ١٠٩٨م.

٢— كان أوربان الثاني بابا من ١٢ آذار ١٠٨٨ حتى ٢٩ تموز ١٠٩٩، وقد مات في البيت الحصين لأسرة البيرليوني اليهودية الأصل، انظر حول هذة الأسرة كتابي «بابوات يهود من غيتوروما».

الـريمس احتضنـت الكـاهن وكلـوني رفعـت الراهـب.
رومـــا دعتـــه، وأوستيـــا باركـت الأسقف، أودو.
عندمـا أعيــدت تسميته أوربان، أصبح البـــابا الرئيس
استعـادت المدينة الشهـرة المنفيـة دون أن تشـويه شـائبـة
في رومـــا جـــرى الاحتفـــال بطقـــوســه التشريفيـــة
هنــا، في اليـــوم الـرابع قبـل بـداية شهـــــر آب

وقـام شاعـر مشهور آخـر فكتب عن حيـاة البابا وأخـلاقه ووفـاته، ونظم هذه الأبيات حول الموضوع:

أودو كـــــاهن الـريمـس الـذي هيــــوج أوف كلـوني
ألبســه وجعله راهبـــاً، فــوقف عــاليـــاً بين جميع الأحبـار.
الضيـــاء لـرومـــا في الحيـــاة، وفي الموت ظـلامهـــا
مــع أوربـان وقفـت المدينـة ومعـــــــــه سقطـت
بالحكـم بالشريعـــــة، حـــافظ على الســـلام، وأبقـــاك
يا رومـا مصـونة مـن الشرور الداخليـة، ومن الأعـداء الخارجيين
مـا من ثروة أخضعتـه بالرشـوة، ومـــا من شهـرة أفقـدته توازنه
بالإطـراء، ومـــا من قـــوة بالتهـــديـد جعلتـــه يخاف
البـــلاغـــة، والحكمـــة، والفضيلـة، كـــانت نـواظم
اللســـان، والقلب، والأخــلاق، وكـــان وسيم المظهـــر،
المدينـة المقـــدســـة تحررت، والكفـــار تمزقـــوا،
شريعتنـا سيطـرت، وإيماننـا انتشر مـــن خـــــلالـه
يـا لـلأسف الـوردة الأكثـــــر جمالاً قطفت بسرعـــــة
وهكـذا أخـــــذ الموت الأول في الأخـــــلاق
الموت أخـــــذ الـرجل، والقبر الجســـد، إلى الأبـد
رقـــدت الـروح، ونحـن نـرعـى ذكــــراه فقـط.

وعندما كان البابا أوربان ما يزال ضوءاً مشعاً في بيت الرب، طرد بعظمة الظلام من قلوب الناس بمواعظه وبطريقته في الحياة، ومات غيوبرت Guibert أوف رافينا، الذي دعوه الناس كليمنت، ونظم بطرس ليونيس هذه الأبيات الهجائية بمثابة ذكرى له:

ما من مكان لك في روما، ولا في رافينا

غيوبرت أنت عن كلاهما بعيد، ومنهما معاً طردت

الذي عندما كان حياً كان البابا الشيطان في سوتري

والآن وقد بات ميتاً وفي كاستيلانا Castellana راقداً

لقد كنت اسماً فارغاً، لتلك الوقاحة

سيربيروس Cerberus محتفظ لك بمكان في جهنم

وبعد وفاة البابا أوربان جرى انتخاب رينير Rinier الذي كان راهب فالومبروسا Vallomrosa بابا ومنح اسم باسكال، وجرى تكريسه بصورة قانونية في اليوم السادس عشر بعد موت سلفه، وقد حكم الكرسي البابوي لما يقارب العشرين عاماً، وكرس كل قواه من أجل صالح الكنيسة وقدم إلى فرنسا في أيام الملك فيليب، واحتفل بعيد الفصح في تشارترز، وقام بناء على طلب من الأسقف إيفو Ivo بتثبيت امتيازات كنيسة تشارترز.

ولقد أزعج الامبراطور هنري الرابع الكنيسة المقدسة، وفعل ذلك منذ صغره، واغتصب بعنف حق تقليد المناصب إلى الكنيسة لسنوات كثيرة، وأقحم أعداء كفاراً لوحدة الكنيسة في بيت الرب، وبشكل عدواني دعمهم بقوة مسلحة عائدة للسلطة المدنية، والآن وقد طرد من مملكته من قبل ابنه شارل، وقد توفرت لديه الفرصة للتوبة من جرائمه الكبيرة، مات وهو في سن بائس متقدم، في السابع من آب وهو مهجور

من قبل جميع أصدقائه(١)، ولأنه مات تحت الحرمان البابوي والتكفير بسبب ذنوبه، لم يتقبله صدر الأم الأرض، بل اهترأ مثل حيوان، دون أن يستحق لا الدفن العام لبني البشر، ولا الاحترام، وقد حكم حوالي الأربعين عاماً، وجنى فقط الجزاء المخيف لخضوعه للجريمة.

وبدأ الامبراطور شارل هنري الخامس حكمه في عام ١١٠٦ لتجسيد الرب، في العلامة الرابعة عشرة، وقد استولى على سلطات أبيه الدكتاتورية، وحكم لحوالي تسعة عشر عاماً، وسار على خطا والده فكان وريثاً من دون إيمان، وأباً شريراً، حسبما نقرأ في سفر أخبار الأيام [الثاني: ٣٣ / ٢٢]، وفي العام الخامس من حكمه ألقى الحصار على مدينة روما مع ثلاثين ألف فارس وجيش كبير من الجنود الرجالة، وعقد معاهدة مع الرومان، واستقبل آنذاك في كنيسة القديس بطرس الرسول، وبناء على طلب من البابا، واتخذ مقعده على الكرسي الامبراطوري، وأمر البابا بأن ينشد على الفور قداساً، لكن البابا رفض ما لم يقم أربعة من نبلاء الامبراطور كان قد حرمهم كنسياً بالاسم، بمغادرة المبنى، وعند ذلك اشتعل الامبراطور غضباً، فأمر باعتقال البابا أمام المذبح، وما أن وضع واحد من جنود الامبراطور يده على البابا حتى قام شبيه بسمعان بطرس، كان أجرأ من البقية، بشهر سيفه، وضرب مهاجم البابا بقوة أعظم وبضربة مميتة أكثر من ضربة بطرس لملاخوس(٢)، وبضربة واحدة ألقاه ميتاً على الأرض، وعند هذا ارتفع صراخ عظيم في المدينة، واصطدم الطرفان بحده، وسفكت الدماء بدون قداسة في الأبنية المقدسة، ووصل ألفان من النورمانديين من أبوليا

---

١— كان اسم هنري الخامس ابن هنري الرابع كونرا د وليس شارل، قد ثار ضد أبيه في كانون أول لعام ١٠٤٤، وهزمه في أوائل عام ١١٠٦، وقد مات هنري الرابع في ٧—آب عام ١١٠٦، ولأنه مات محروماً كنسياً حمل جسده إلى سبيير Speier وترك من دون دفن في بيعة غير مكرسة لمدة خمسة أعوام.

٢— انظر انجيل يوحنا: ١٨ / ١٠ .

لمساعدة الرومان، واندفع هؤلاء مع سكان روما واللاتين الآخرين، وانقضوا على حشود الألمان وقتلوهم وقتلوا معهم أناس من أجناس أخرى، بعدما ظنوا أنفسهم آمنين، وكانوا يسكنون في المدينة القديمة عبر التيبر، وتم طرد الامبراطور مع مؤيديه ثلاث مرات من المدينة، غير أنهم لم يكونوا قادرين على تخليص البابا الأسير، الذي أبقي مخفياً عنهم، وحاول الامبراطور شق طريقه بالقوة مع جيشه خلال قلب المدينة إلى كامبانيا Campania لكنه أرغم بوساطة القوة العسكرية المتفوقة، على أخذ طريق آخر، مع العار، وجعل كثيرين يبكون الخسائر بين عساكره، الذين— كما وصفت— قتلوا فجأة في المدينة.

وفي الوقت نفسه فإن البابا الذي بقي في سجن مضيق عليه، وقد حرم من كل مواساة، تنازل وقبل بجميع مطالب الامبراطور، وضمن بهذه الطريقة إطلاق سراحه فقط، ليزدرى بعد ذلك، من قبل كثيرين، وتبرأ روبرت أوف باريس، ووالو Walo أسقف ليون، وبونتيوس pontius ، راعي ديركلوني، وكثير من الكرادلة والأساقفة معهم منه واستنكروا ما عمله البابا، وحكموا أن كل ما تنازل به إلى الامبراطور، سواء بالكلام أو كتابة، ينبغي عده لاشيء وفارغ، وأكدوا أنه توجب عليه أن يختار الموت من أجل الحق والعدل، وأن يتبع المسيح حتى النهاية من دون أن يتلطخ، وأن يفضل— بالحري— آلام السجن والجلد، ولا يعمل التنازلات إلى قوة علمانية، كانت مضادة للعدل وشريعة الآباء، ومن جهته تحمل البابا الملامة من الناس المتعلمين بصبر، واعترف بأن اتهاماتهم مسوغة وصحيحة، وبعد مدة قصيرة دعا إلى مجمع للأساقفة في روما(١)، وقام بناء على نصيحة المحكمين، بالإعلان عن إلغاء جميع الامتيازات، التي منحها تحت الضغط، إلى الامبراطور، وعلاوة على ذلك حرمه كنسياً، لأنه دنس بيت الرب، وسجن كاهن

١— عقد هذا المجمع في اللاتيران من ١٨ إلى ٢٣ آذار ١١١٢ .

المسيح، وسفك دماء مسيحية، وهكذا فإن الامبراطور، لطخ في العام السادس من حكمه شرف الشعب اللاتيني بجريمة عظمى، وأثار كثيراً من الأجناس لاقتراف الشرور من دون غاية، ووصف كاتب إيرلندي في قصة أنيقة كيف كان ذلك الشتاء قاسياً، مع عواصف، وثلوج، وجليد، وكيف تحمل الجيش المخاوف على المنحدرات وعلى الطرقات الضيقة، وعند عبور النهر، وكيف أن الامبراطور بعدما حشد قواته، استولى على المدينة المحاصرة بالتهديد وليس بقوة السلاح.

وحارب الامبراطور في تلك الحملة ميلانو، لكنه صد دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها، ثم إنه قام أيضاً بنهب الأراضي الواسعة العائدة لماتيلدا، التي كانت كونتسة قوية بيدها بافيا Pavia ، وبياسنزا Pi-acenza ، وجزء كبيراً من إيطاليا اسمه الآن لومبارديا، وقد وقفت ضده وضد أبيه لوقت طويل جداً، أثناء قيامها دوماً بمساندة البابوات الشرعيين: غريغوري، وأوربان، وباسكال.

وأعطى الملك هنري ملك انكلترا ابنته ماتيلدا زوجة إلى الامبراطور(١)، ورافقها قريب الملك روجر بن رتشارد من انكلترا إلى ألمانيا مع جماعة لامعة، وأعطى الملك الثري الامبراطور عشرة آلاف مارك من الفضة مع ابنته، وبعث بهدايا فخمة إليه، بطريقة ملكية، وأحب الامبراطور زوجته النبيلة بعمق، لكن بسبب ذنوبه أخفق بالحصول على وريث للامبراطورية، وهكذا إنه بناء على أوامر من الرب انتقل حكم الامبراطورية إلى أسرة أخرى، فلدى وفاته، جرى انتخاب لوثر دوق سكسوني من قبل نبلاء المملكة، ورقي إلى العرش الامبراطوري كمكافأة على اعتداله وصلاحه، وعادت الامبراطورة ماتيلدا إلى بلادها بعد وفاة زوجها، مفضلة العيش بين قومها، مع أنها

---

١— حدثت الخطبة في ١١٠٩، عندما كانت ماتيلدا طفلة، بالسابعة، وبعثت إلى ألمانيا في عام ١١١٠، وتم الزواج في ميتز Mainz في ٧— كانون ثاني ١١١٤م.

تمتعت بالحب كثيراً في الخارج، وأعطاها أبوها ملك انكلترا زوجة إلى غيوفري، كونت أنجو، وفي عام ١١٣٣ لتجسيد ربنا أنجبت له ولداً، اسمه هنري، إليه نظر كثير من الناس على أنه ملكهم المقبل، إذا قضى بذلك الرب القدير، الذي بيده كل شيء.

— ٢ —

بسبب أنني استطردت وابتعدت بعض الشيء عن موضوعي الأساسي، وحومت حول الوقائع التي وقعت خلف الألب في إيطاليا وفلسطين، سوف أعود الآن إلى الأحداث التي وقعت قرب الوطن في نورماندي وانكلترا، فقد حكم وليم روفوس، الذي كان مشهوراً في ميدان الفروسية، حكم انكلترا بعد وفاة أبيه، وبصرامة وشدة أخضع العصاة بعصا العدالة، وأرغم جميع الناس لمدة اثني عشر عاماً وعشرة أشهر على قبول حكمه، وفقاً لإرادته، وكان كريماً نحو الفرسان والغرباء، لكنه ظلم كثيراً فقراء السكان في مملكته، وانتزع منهم بالقوة الثروة التي أنفقها على الغرباء، ومات كثير من نبلاء أبيه، الذين ربحوا بقوة السلاح الأراضي الأجنبية، وقاتلوا من أجل أسلافه، ماتوا أثناء حكمه، وعوضاً عنهم وفي مكان وجاهتهم رفع الملك ورقى بعض الذين كانوا من الأدنين، بمنحهم تشريفات واسعة كمكافأة على إطراءاتهم، وهو لم يكن لديه قط زوجة شرعية، بل أعطى نفسه لعدم الاستقرار بالانغماس بالشهوات والدعارة وممارسة الزنا بشكل متواصل، وقد تلطخ بذنوبه، وضرب لشعبه مثلاً سيئاً جديراً باللوم بممارسة الدعارة، ولرعيته، وعندما مات الأساقفة ورعاة الديرة، استولى موظفوا الملك على جميع الممتلكات الملكية، وهكذا بقيت الكنائس شاغرة خلال جشعه للموارد، والذي كان بلا حدود، وجمعت الموارد في خزائن الملك، وجردت شياه الرب من رعاتها، وتركت من دون دفاع حتى تلتهم من قبل الذئاب.

ومات في هذه المدة الأساقفة المحترمون: أوسموند أسقف سالسبري، ووالشلين Walchelin أسقف وينشستر، ووليم أسقف درم، وريميوس Remigius أسقف لنكولن، وعدد كبير آخر من الآباء المحترمين، واستولى على جميع ممتلكاتهم واحتفظ بها لمدد طويلة (رانولف Ranulf) فلامبارد Flambard مع أخيه فولتشر Fulcher وموظفين آخرين تابعين للملك، ومثل هذا، عندما مات بلدوين راعي دير بري Bury سانت أدموند، وسيمون أوف إلاي Ely مع أساقفة آخرين، وغادروا هذه الحياة، واستولى وزراء الملك على الديرة كلها في انكلترا جميعها مع كل ممتلكاتها، وسمحوا للرهبان بمجرد ما يكفي فقط للطعام واللباس، ووجهوا البقية إلى خزائن مال الملك، وبعد ذلك بوقت طويل أضفى الملك مناصب لاهوتية مثل تقسيط الميزانيات، على كهنة ورهبان البلاط، ناظراً إلى التقوى الأقل لدى هؤلاء الرجال بدلاً من الخنوع والخدمة المرغوبة في الشؤون الدنيوية.

ووفق هذه الطريقة تسلم روبرت بلويت Bloet الذي كان شماس وليم العجوز، والذي بعد موته عبر القنال من ميناء توقوي Touques مع وليم الأصغر، حاملاً رسالة الملك، لإخبار لانفرانك Lanfranc بأن يتوج ابنه، تسلم أسقفيه لنكولن[ في آذار ١٠٩٣]، واحتفظ بها لما يزيد على العشرين عاماً[ مات في ٩ كانون الثاني ١١٢٣] وكان ذلك بعد موت ريميوس، وأصبح جيرارد حفيد والشلين أسقف وينشستر أولاً أسقفاً لهيرفورد[ ١٠٩٦— ١١٠٠]، ثم صار فيما بعد في أيام الملك هنري رئيساً لأساقفة يورك، وحصل وليم ويرلواست Warelwast على أسقفية اكستر Exeter [ في ١١— آب ١١٠٧]، وتسلم جون اللاهوتي أسقفية باث Bath [ في ١٠٩٠]، كما تسلم رالف لوفا Ralph luffa أسقفية شيستر chichster ، ورانولف فلامبار Ranulf Flambared · أسقفية درم[ ٢٩—أيار

١٠٩٠] في حين تسلم هربرت لوزنغا Losinga أسقفية ثيتفورد Thetford [ في ١٠٩٠]، وبهذه الطريقة حصل شماسة الملك والمحظين لديه على أسقفيات انكلترا، واستخدم بعضهم منصبه فقط من أجل ظلم الفقراء والحصول على الثروة لأنفسهم، وفي الحقيقة، كان هناك آخرون، امتلأوا بالخوف من الرب، عندما تحملوا أعباء السلطة اللاهوتية، وسعوا في سبيل سعادة وخلاص الذين عهد بهم إلى عنايتهم، وأعادوا إصلاح حياتهم بشكل صالح يتوافق مع إرادة نعمة الرب، واقترف رجال لم يترددوا في اقتراف الخطأ لدى مماشاتهم لإرادة عنادهم في السير وراء غاياتهم، اقترفوا أفاعيل كثيرة، حولها الحكيم الحاكم لكل شيء إلى الصالح العام بحبه المقدس الذي لا يوصف، وغالباً ما جرى اختيار رجال سطحيين وغير متعلمين لتولي المناصب اللاهوتية العالية، ليس بسبب أي قداسة في الحياة، أو معرفة بعلوم الكنيسة، أو ثقافة في الفنون الحرة، بل بسبب نفوذ قريب نبيل ومساعدة صديق قوي متنفذ، ومع ذلك كان بعد ترقيتهم أن الرب برحمته ورأفته، لم يعاقبهم، وملأهم مع الأيام بثروات النعمة اللاهوتية، ولذلك أشع من خلالهم بيت الرب بضياء الحكمة الربانية، ووجد كثيرون طريقاً للخلاص من خلال ممارسات عملية.

—٣—

وانزعج أنسلم المحترم، رئيس أساقفة كانتر بري بسبب المظالم المستمرة، وحذاحذو يوحنا وإيليا، فاستنكر بشكل متواصل الأفاعيل التي عرف لأسفه، أنها مضادة للشريعة الربانية، لكن الملك المتجبر رفض الانصلاح من أجل منفعته بوساطة دليله الروحي، وأصبح أكثر فأكثر متورطاً في شباك الشر والعدوان والآراء الافتراضية، وانحرف غاضباً ضد المواعظ الصحيحة لأبيه الروحي، ونتيجة لذلك ذهب رئيس الأساقفة بحكمة مرتين إلى المنفى في أيامه، وتوجه أولاً نحو البابا

أوربان ثم نحـو البـابا باسكـال، وأسبـاب ذهابه إلى المنفى، والمصـاعب التي عانى منها أثناء سفره قـد جرى تدوينها من قبل ايدمير Eadmer الذي كان شماسه ورفيقه في أسفاره، في كتـاب جيد، كان قد نشره حول أخلاق أنسلم، وأعماله، ومواعظه اللطيفة، وفي تلك الرحلة كان بلدوين تورناي Tournai الذي كـــان راهبـــاً مـن أصل نبيـــل وايدمير الانكليـزي، برفقته، ذلك أن الرجـال المشهـورين بقدراتهم قـدروا كثيراً من قبل الذين وثقوا بهم.

ووجـد أنسلم البـابا أوربان في أبـوليـا، وبما أنه استقبل بتشريف من قبله، بقي برفقته لبعض الوقت، وفي تلك الأثناء كان روجر بن تانكرد، كونت صقلية قد دخل إلى كامبانيا Campania ، وأخذ بحصار كابوا Capua في سبيل إعـادة حفيـده الكبير رتشـارد ابن جـوردان إلى ميراثه الأبوي، وكـان يحاصر اللومبـارديين المتمـردين بشـدة ويضيق عليهم، أعنى اللومبـارديين الذيـن طردوا الشـاب، وعمل البـابا أوربان كـوسيط، ومع أنسلم المحترم أدارا مبـاحثـات من أجل السـلام بين المتصـارعين، وأخيراً هزم الكونت المتمـردين، وأعـاد حفيـده الكبير إلى إمارته السـالفة، وأقام البـابا تعارفـاً بين الأب أنسلم والكونت، وعندما جرى عقد مجمع في باري بناء على أمر البابا، وجرى تقديم نسخة حاوية على عدد من الاقتراحات الغامضـة المرتبطة بالعقيدة والأسرار الأخرى، من قبل الإغريق، أقام الأب أنسلم— بناء على أمر البـابا— قداساً عاماً وعظ فيـه، وقـد أرضى كل مـن الإغـريق واللاتين ببراعتـه وبأجـوبتـه الفصيحة على الأسئلة التي كانت قيد المناقشة.

—٤—

وعندما تـولى البابا أوربان أعباء القيـام بواجبه كبـابا للرب وللشعب الكاثوليكي، وقرر الذهاب إلى فرنسا التي كانت موطنه الأصيل، قام في سبيل الصـالح الروحي لرعـاياه، بعقـد مجمع كبير في كليرمـونت في

أوفرين Auvergne حرض فيه شعب الرب على القتال ضد الكفار، وأمر بوجوب أن يحملوا على أكتافهم صليب الرب لطرد الشيطان وجميع الشرور، ثم بدأت حركة كبيرة للناس، وهي التي جرى وصفها بصورة كاملة في الكتاب الأخير.

ورهن في ذلك الحين غودفري، دوق لوثارنجيا قلعة بوليون مع جميع متعلقاتها وتوابعها، لدى مولاه أسقف لييج، وتسلم سبعة آلاف مارك فضي منه، ومثل هذا، قام كثيرون آخرون، من الأغنياء والفقراء سواء برهن ممتلكاتهم ومواردهم، وحصلوا على المال، للقيام بالرحلة إلى القدس.

وكان من بينهم روبرت الثاني دوق نورماندي، الذي كان يلقب بـ Curthose ، وعهد بجميع أراضيه إلى أخيه الملك وليم لمدة خمسة أعوام، وتسلم منه عشرة آلاف مارك من الفضة حتى يقوم بالحملة الصليبية التي عزم عليها بقلبه، وبعدما أمضى الملك وليم تسعة أعوام من حكمه، لم يرغب في إنهاك احتياطات ثرواته وأمواله، قام بنهب تزيينات الكنائس، التي بفضل كرم وتقوى الملوك الماضيين والنبلاء كانت مرصعة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة، وأعطيت إلى الكنيسة الأم المقدسة من أجل مجد الرب، وفي سبيل طيب ذكراهم، وفي أيلول عبر الملك وليم البحر، وسلم المال، وتسلم نورماندي، التي سحقها من دون شفقة لمدة خمس سنوات تقريباً، أي لبقية حياته، وفي تلك الأثناء سافر أودو أسقف بايو Bayeux للمشاركة بالحملة الصليبية مع حفيده الدوق روبرت، وكانت العداوة بينه وبين الملك كبيرة جداً، وذلك نتيجة لصراع وقع في الماضي، وكان من غير الممكن لأي من الوسطاء إقامة صلح بينهما، لأن الملك المتجبر، والسريع الغضب، كانت لديه ذاكرة عنيدة ولم يغفر بسهولة أي ذنب أو ضرر، ما لم يقم بالانتقام له، فقد كان أميراً متعجرفاً، وقد تذكر بمرارة بأن الأسقف أودو، الذي كان عمه(خاله)، كان أول من وقف ضده في

بداية حكمه، وقد حشد جمعاً كبيراً من النبلاء للثورة ضده، وبناء على اقتراح روبرت كونت مورتين Mortain استحوذ على بيفنسي Pevensey ، لكن فيما بعد، عندما حوصر من قبل حفيده الملك، تصالح معه وعاد إلى الصداقة معه بعد تسليم القلعة، وقام غيلبرت فتزرتشارد مع أخيه روجر بتحصين تونبردج Tonbridge ، غير أن الملك حاصر القلعة في أسبوع عيد الفصح، وسقطت له بعد الحملة الأولى، وأخيراً استحوذ الأسقف نفسه مع يوستاس أوف بولون، وروبرت أوف بيليم Belleme وحشد كبير من الرجال المسلحين، على قلعة روكستر، وجرت محاصرتهم هناك بوساطة برجي حصار أنشأهما الملك، لذلك استسلموا مع العار، وتوجب عليهم مغادرة مملكة انكلترا، بعدما حرموا من ممتلكاتهم بشكل كامل، وأخيراً عندما انتقم الملك لنفسه في نورماندي، حارب أخاه الذي قاتله بشكل غير عادل ومن دون تأثير، وبعدما كسب إلى جانبه البارونات بالرشوة وبالقوة، ربح منتصراً قسماً كبيراً من نورماندي، وقاومه أودو أوف بايو بكل ما أوتي من قوة لوقت طويل، ولم يتوقف قط عن جلب المساعدة إلى الدوق حتى تخلى عن الصراع، ولذلك ما أن أصبح الملك وليم منتصراً كما وصفت، حتى اختار الأسقف أن يسافر إلى الخارج، وفضل ذلك على الخضوع إلى عدوه، والتقى الأسقف والدوق مع البابا في روما( المقابلة كانت في لوكا Luca)، وبعدما تلقيا مباركته عبرا التيبر، وأمضيا الشتاء في أبوليا.

ومن هناك ذهب الأسقف إلى بانورميتان Panormitan ، التي هي مدينة تعرف الآن بشكل عام باسم باليرمو( بلرم) وهناك فارق هذه الحياة في شهر شباط، ودفنه غيلبرت أسقف إيفري Evreux في الكنيسة الكاتدرائية لمريم المباركة أم ربنا، وترقى أودو منذ سن المراهقة إلى وضع سلطوي في الكنيسة، وظل متملكاً له في منصبه لحوالي

الخمسين عاماً، حيث أغنى كاتدرائية بكثير من الممتلكات والتزيينات، وقد احترم رجال اللاهوت، وفي الوقت الذي جرد فيه الكثيرين من ممتلكاتهم، أعطى بكرم الأسلاب إلى آخرين، وعندما سمع الملك وليم بوفاته، أعطى أسقفية إلى تورأولد Turold أخي هيوج أوف إنفيرميو Envermeu ، وبعد مضي حوالي السبعة أعوام تخلى عن أسقفيته لبعض الأسباب الخفية، وتعهد بأن يصبح راهباً في دير بك Bec ، تحت رعاية راعي الدير وليم، وهناك عبد الرب وخدمه في ظل النظام لسنوات كثيرة حتى نهاية حياته، وبقي رتشارد بن سمسون أسقفاً لمدة ستة وعشرين عاماً بعده(١).

وهكذا حكم الملك وليم في نورماندي، واحتفظ بين يديه بممتلكات والده، التي كان أخوه قد تخلى بحماقة عنها، وعهد -الملك- بالكنائس الشاغرة إلى رجال دين جرى اختيارهم حسب رغبته، وكانت رعاية ديري جومي Jumieges ، والقديس بيير- سور- ديفس Pierre-Sur-Dives شاغرتين، فقد مات غونتراد Gontard الراعي القدير لدير جومي في ٢٦ تشرين الثاني في كليرمونت، أثناء عقد المجمع الحاسم هناك، وعين الملك تانكرد راعي دير فيكامب Fecamp في موضعه، وقد استقال وهو مهان وفي وضع شائن بعد بضع سنوات، وجاء ذلك بعد خلاف تآمري تفجر بينه وبين الرهبان، واستحوذ أورسوس Ursus ، أوف روان، الذي كان راهباً في الدير منذ طفولته، على منصب الرعاية بعده لمدة عشرين عاماً.

وذهب في الوقت نفسه فولك راهب سانت إيفراول Evroul راعي دير القديس بيير—سور— ديفس إلى عند البابا أوربان، وبقي في المنفى في دير مونت كازينو، ومات خليفته الذي اسمه بندكت، والذي كان راهباً في دير القديس أون Ouen رئيس أساقفة روان

---

١— صار رتشارد أسقفاً في عام ١١٠٧م، ومات في أسبوع الفصح لعام ١١٣٣م.

Rouen ، وعندها عين الملك وليم راعياً لدير القديس بيير—سور—ديفس إيتارد Etard الذي كان راهباً نذرياً، وكان مذعناً خانعاً، مسؤولاً عن الحديقة في دير جومي، وقد تولى رعاية قطيع الرب بشكل مطاع لعدد من السنوات، وعندما عاد فولك مع رسائل بابوية، تخلى طواعية عن إدارة الدير، وعاد إلى الدير الذي كان فيه راهباً من قبل، وقد مات في سن متقدم جداً، وكان فولك قبل خلعه، قد أدار دير ديفس بعدالة لمدة عشرين عاماً، وبحماسته وغيرته زاد من عدد الرهبان، ورعى الكنيسة واعتنى بها لسنين كثيرة، وقد اتهم بشكل غير عادل، وخلع بسبب مؤامرة دافعها الحسد الشيطاني، وأمضى سبعة أعوام في المنفى، وعندما عاد أخيراً، أدار ديره بصورة جيدة لسبعة أعوام أخرى، ومات في انكلترا، رجلاً عجوزاً في ٣—نيسان في وينكستر.

—ـه—

وفي العام ١٠٩٧ لتجسيد ربنا، قام وليم روفوس المدرك لأسباب منية أبيه، والسبب في حروبه، فطالب بجميع فكسين Vexin من فيليب ملك فرنسا، كما طالب بالقلاع الحصينة: بونتي Pontoise ، وتشومونت Chaumont ومانتس Mantes ، وبما أن الفرنسيين لم يوافقوا على مطالبه، وكانوا بالفعل متشوقين لإلقاء جميع قواتهم برغبة ضده، فقد تفجرت حروب كبيرة بين الشعبين المحبين للقتال، ووصل كثيرون إلى نهاية مؤسفة، لكن الخسائر الأساسية وقعت بثقل أكثر فأكثر على الفرنسيين، وكان الملك فيليب كسولاً، وسميناً، وغير لائق للحرب، في حين أن ابنه لويس كان ما يزال صغيراً جداً، حتى يحصل على البراعة، بالفروسية، ومن جانب آخر كان ملك انكلترا، موقفاً نفسه كلياً على أعمال الفروسية، وكانت لديه رعاية خاصة وعاطفة وعناية بالقادة العسكريين وبالأبطال المجربين، وأبقى حول نفسه مجموعات من الفرسان النخبة، كعلامة على التميز، وفي

الوقت الذي كان فيه محمياً من قبل أمثال هؤلاء الرجال، لو أن غايوس يوليوس قيصر وفرقه الرومانية وقفوا ضده في محاولة لإيذائه بأية طريقة من الطرق، كان بلا شك سيتجرأ على تجريب القوة والشجاعة لفرسانه بالاشتباك بمعركة مع قيصر، وكان روبرت أوف بيليم Belleme قائد فرسانه، وكان متفوقاً على الجميع في إيقافه نفسه على الملك وعلى براعته، وقاد كونت هنري أخو الملك المتميز، ووليم كونت إيفري، وهيوج كونت شيستر، ووولتر غيفارد إيرل بكنغهام، وعدد كبير آخر من الإيرلات والقادة العسكريين، قادوا قوات الملك الانكليزي، وأنجزوا عدداً من الأفاعيل ذات الشجاعة الظاهرة، وذلك بقدر ما سمح الحظ المتأرجح.

وقام كثير من الفرنسيين، الذين أرغموا على طاعة سيدين، بسبب سخاء الموارد التي تمتعوا بها بوفرة تحت حكم الملكين، ولكن بما أنهم كانوا في وضع صعب، لأنه لايمكن لأي واحد أن يخدم سيدين، قاموا باختيار الأول، لأنه كان لديه أتباع أبرع، ولأنه كان مزوداً بشكل أفضل بالثروات، وقدموا أنفسهم مع رجالهم وقلاعهم، ووضعوها تحت خدمته، فقد رحب روبرت كونت أوف ميولان Meulan بالانكليز في قلاعه، وفتح الطرق إلى فرنسا لهم، وبفضل قوتهم العسكرية ألحق خسائر كبيرة بالفرنسيين، ومنح غي أوف لى روشي— غويون Guy of La-Roch- Guyon الذي كان جشعاً لنيل المساعدات الانكليزية، منح التأييد إلى الانكليز، وسلمهم قلعتي روشي-غويون وفيتويل Veteuil ، وفعل عدد كبير من الآخرين مثل الذي فعله، ولقد كانوا غير مخلصين لشعبهم، ولذلك خضعوا صدوراً عن الجشع للأجانب.

وفي ذلك الوقت أمر الملك وليم ببناء قلعة تكاد لاترام في غيسور، وهي حتى هذا اليوم الكتلة الكبرى في نورماندي ضد تشومنت

Chaumont ، وتراي Trie ، وبوري Boury ، وجرى اختيار الموقع، وتم تصميم عمارتها من قبل مهندس داهيـــة هو روبرت أوف بيليم Belleme.

وفي أحـد الأيام عندمـا أقلع النـورمـان بهجـوم على الفـرنسيين الذين دافعوا عن أنفسهم، وقاتلوا ضد المهاجمين بإصرار، أخذ ثيوبولد بين أوف غيسـور Theobold pain of Gisors ، ووولتر أوف أمـر فـريفيل Amfre ville ، وجيرولد أوف إنفيرميـو Envermeu أسرى، فتشجع المحتـاجون الفـرنسيـون على الاستمـرار بالقتال بوسـاطة الفـداء الكبير، وفي هذا الوقت كله بذل روبرت أوف مـالدستور Maldstor ، وأوتموند أوف تشـــومنت Otmond of chaumont ، ووولبيرغ أوف بوري Walberg of Boury ، وأخوه رتشـارد، وغودفـري وبيتر ابنا هربرت أوف سيران Serans ، قـائـد فرسـان الفـاكسين، بذلوا مقاومة جبارة ضد العدو، ففي تلك المنطقة كان هناك عدد كبير من الفـرسان المتميـزين، الذين بسـالتهم وشجاعتهم وراثيـة بالفطرة، فهم لم يرغبوا في تلطيخ الشرف الرفيع للفرنسيين، وقد قاتلوا العدو حتى الموت من أجل الدفاع عن بلادهم، وعن مجد شعبهم، وبالمحصلة جذبوا أبطالاً متميـزين وفـرساناً شبـاباً شجعـاناً، من جميع أجـزاء فـرنسا، وبمقـاومـة أعدائهم مرة تلو مرة ربحوا لأنفسهم جوائز ثمينة.

ففي إحـدى المناسبـات عندما كـانت عسـاكـر أسرة الملك وحاشيتـه يقـومـون بنهب تشومـونت وقـد ظهـرت شجـاعة الفـروسيـة من على الجانبين، أسر الفـرنسيـــون غيلبرت أوف ليبجل Laigle وكثيرين آخـرين من ذوي المراتب العـاليـة، وفي الوقت نفســه أسر الانكليـز بين أوف مونتجي Pain of montjay وآخرين من المنطقة نفسها.

وفي شهر أيلول لعام ١٠٩٨، في العلامــة السادسة، حشد الملك وليم جيشـاً كبيراً جـداً، وأقــام في كـونشي Conchesعلى طريقـــــه إلى

فرنسا في ٢٧- أيلول، وفي تلك الليلة نفسها ظهرت نذر مرعبة شوهدت في كل مكان، فقد شاهد الناس في كل مكان تقريباً في العالم الغربي السماء كلها تشع بلون الدم الأحمر، وكأنها كانت تحترق، وكما علمنا فيما بعد، لقد حدث في ذلك الحين أن قاتل الصليبيون ضد المسلمين في الشرق، وبعون الرب ربحوا نصراً عظيماً، وزحف الملك وليم بسرعة في فرنسا وصولاً حتى بونتيو Pontoise حارقاً، ناهباً، وآخذاً أسرى، وهكذا دمر كل ثروات تلك المقاطعة الجميلة، وطوق تشومونت مع كثير من فرق الرجال المسلحين، وأمر قواته الدارعة بمهاجمتها بقوة مرة تلو أخرى، ودافع رجال حاميتها من الفرسان المتميزين عن أسوارهم بفعالية ونشاط، لكنهم لم ينسوا قط واجبهم نحو الرب، أو نحو احترام الإنسانية وتنبهوا إلى الاعتناء بالفروسية واستثنوا أجساد المهاجمين، وحولوا قوتهم وغضبهم ضد المطايا الثمينة لأعدائهم، وهكذا قتلوا أكثر من سبعمائة من الخيول الغالية بسهامهم وحرابهم، وكانت كلاب وطيور فرنسا قد أتخمت من أكلها لأجسادهم، ونتيجة لذلك كثير ممن عبروا الابتي Epte كفرسان متكبرين على خيولهم المطهمة، عادوا إلى الوطن مع الملك كجنود رجالة.

ومع أن الفرنسيين الشجعان لم يتمكنوا من الدفاع عن قراهم ضد المغيرين من أتباع الملك، الذين كانوا متفوقين كثيراً بالعدد، ولم يتجرأوا على الاشتباك مع الملك القوي، الذي كان محروساً بأعداد كبيرة من العساكر، في معركة قريبة، من دون ملك يكون قائداً طبيعياً لهم، مع هذا لقد دافعوا عن قلاعهم بعدما أحسنوا تحصينها، وانتظروا من خالقهم الرحيم أن يرسل إليهم أياماً أفضل، وقاد الملك وليم مع وليم كونت بواتو جيشاً كبيراً تحت إمرة عموري الشاب ونيفارد أوف سبتويل Nivard of septeuil ضد مونت فورت وايبرنون

Epernon ، وعـاثوا فسـاداً في المنطقـة كلهـا هناك ونهبـوهـا، لكن سيمون الشاب، احتفظ— بعون الرب— بقلعتيه دون أن تهدما، ودافع سيمون الشيخ عن نيوفل Neaufle ، وبطرس مع ابنيه أنسولد -An sold وثيوبولـد عن مولي Maule وفي الوقت نفسـه قام قـادة القـلاع الأخـرى، الذين لن أذكـر أسماءهم إفـرادياً بالتمسك بقـلاعهم والدفاع عنها بثبات وشجاعة.

وفي الوقت نفسـه، عاد الملك وليم إلى انكلترا، للإشراف على شـؤون المملكة، وعقـدت هدنة بين الطرفين، وجلب السـلام المبارك الطمأنينة والأمن إلى الفرنسيين.

—٦—

في عـام ١٠٩٨ لتجسيـد الرب، خطط مـاغنوس Magnus ابن الملك أولاف Olaf ، ملك النروج للهجوم على الإيرلنديين، وأعد أسطولاً من ستين سفينة للإبحار ضـدهم، وكان الملك مـاغنوس قوياً جسـدياً وسيماً وبهي الطلعـة والشكل، وكـريماً، وشجـاعـاً، ونشيطاً، وأميناً، ومشهوراً بتماسكـه، وقد امتلك سلطة قويـة على جزر المحيط، وكان لديه مخزوناً كبيراً من الثـروات والأموال من جميع الأنواع، وقد أنجـب من زوجتـــه الشرعيـــة ولديـن هما: إيستين Eystinn وأولاف، وإليهما منح مملكتـه مع سلطات واسعـة جـداً، وأنجبت له أسيرة انكليزية، كـانت من أصل نبيل، ولداً ثالثاً، تمت تربيته ورعـايته من قبل ثورير Thorer ابن انغريد Ingrid مع ربيب للملك مـاغنوس، وقـد عاش بعـد أخـويه، وحكم مـدة طويلة، وقـد أسس أسقفيات وديرة لم تكن معروفة لدى أسلافه، في مملكة النرويج، وقبل أن يصل إلى العـرش، أبحر نحـو القدس، وحـاصر من جانب البحـر مـدينة صـور الغنية، التي كـانت محاطة تقـريباً من البحـر، في الوقت الذي هاجمتها فيـه قوات القـدس من جانب البر، واقتحمهـا سيغورد

من الأعماق، وعاد بعد ذلك عبر طريق روسيا، وقد تزوج مالمفريد Malmfrid ابنة الملك، وفور وصوله إلى الوطن اعتلى العرش بإرادة الرب(١).

وهناك خمس مدن قائمة على الساحل حول النروج، وهي: بيرجن Bergen ، وكونغشالي Kongshalle ، وكوبانجر Kau-pangr ، وبورج Borg ، وأوسلو Oslo ، والمدينة السادسة هي تونسبيرغ Tunsberg ، القائمة إلى الشرق للدفاع ضد الدانيين Danes ، ويوجد في داخل الجزيرة عدد كبير من البحيرات المليئة بالأسماك، ومدن البلاد موزعة حول شواطىء البحيرات، ويمتلك السكان كميات جيدة من الإمدادات بالأسماك، والطيور، ولحوم الحيوان البرية من مختلف الأنواع، وهم يمارسون ديانتهم وفقاً للشرائع المسيحية، ويحافظون على السلام والطهارة وفقاً للشرائع بكل دقة، ويعاقبون الجرائم بعقوبات وحشية، وجزر أوركني Orkney ، وفنلدا، وآيسلاندا، وصولاً حتى غوتلاند Gotland ، خاضعة كلها إلى ملك النرويج، وتحمل الثروات إلى هناك من جميع أنحاء العالم.

وأنا قلق جداً وراغب كثيراً بشرح سبب ونتائج الحرب التي شنها ضد الإيرلنديين مع نتائج أليمة ومذبحة ثقيلة، وقد تزوج ابنة ملك إيرلندا، ولكن بسبب أن الملك الإيرلندي لم يحافظ على صفقة عقداها، قام الملك ماغنوس وهو غاضب بإرسال ابنته وإعادتها إليه، ونتيجة لذلك تفجرت الحرب فيما بينهما.

---

١— تحولت رحلة سيغورد إلى الأراضي المقدسة(١١٠٧—١١١١) في أيام حياته إلى شبه ملحمة، معروفة كثيراً في الغرب، وقد ساعدت سفنه بالاستيلاء على صيدا، وبحصار صور لمدة قصيرة دون الاستيلاء عليها، وكان ملكاً مشاركاً لأخيه ايستين من عام ١١٠٣م، مع أنه لم يشر إليه دوماً وبوضوح من قبل المؤرخين باسم« ملك»، ولعله عاد عن طريق بلغاريا فبانونيا، فألمانيا، وقد التقى بزوجته المستقبلية مالفريد ابنة مستيسلاف Mstislav أمير كييف وبكريستين التي كانت أميرة سويدية، في سشلسويغ Schelewig.

وفي السنة الخامسة لوليم روفوس، ملك انكلترا، جمع ملك النرويج عناصره المقاتلة من جميع الجهات، وعبر البحر المحيط متابعاً للريح الشرقية، ووصل إلى جزر أوركني، وأبحر حول الشواطىء الشمالية— الغربية لسكوتلندا، وعبر من خلال الجزر الأخرى الخاضعة لحكمه وصولاً حتى أنغليسي Anglesey وكان عازماً على غزو إيرلاندا، لكن الإيرلنديون كانوا قد احتشدوا، واصطفوا في صفوف قتالية على الشواطىء، وصدوه، وقد عاش لبعض الوقت في جزيرة الإنسان Isle of man ، التي كانت آنذاك غير مقطونة، وأسكن أناساً هناك، وشغل نفسه بتزويدهم بالبيوت وبالضروريات الأخرى للحياة الإنسانية، واستطلع الجزر الأخرى أوف ساكليد Cycladesالموجودة في البحر الكبير، تقريباً فيما وراء العالم، وأرغم كثيراً من الناس على السكن هناك، بناء على أوامر ملكية، وشغل نفسه لعدد من السنين في مثل هذه الأعمال، وبذلك مدّ مملكته ووسعها، وزاد من عدد رعاياه، وفي إحدى المناسبات أبحر قائد جيش الملك ماغنوس مع ست سفن نحو انكلترا، ولكنه هز ترساً أحمر على أعلى الصاري كعلامة على السلام، ولدى رؤية سكان الساحل، الذين قطنوا على السواحل الانكليزية لـ أمفيتريت Am-phitrite ، التي هي منطقة واسعة في الجهة الشمالية، لدى رؤيتهم لأناس غرباء، ولسفن غير معروفة نزلوا نحوهن، وانقضوا عليهن بصرخات مرعبة، وكان هناك بعض الرجال المسلحين تماماً من مقاطعة ميرسيا Mercia ، فاندفعوا نحو المكان، وفي ذلك الوقت كانت هناك حروب قائمة بين الانكليز والويلزيين، ولذلك كان رفع أي صراخ يجعل الجميع يبادرون إلى حمل السلاح بكل سرعة.

وكان هناك اثنان من الإيرلات في مقاطعة ميرسيا، لديهما قوة رئيسية هناك، وبناء على مصدر موثوق حملا اسم هيوج، وقد أرسلا بسرعة رسلاً إلى جميع أنحاء البلاد، وأمرا الوحدات المسلحة من فرنسيين

وانكليز بالقدوم على الفور للدفاع عن البلاد ضد الغزاة، واحتشد كثيرون من كونتيتي تشتسر، وشروسبري، واستعدوا للقتال في منطقة ديغانوي Degunwy إلى جانب البحر، وأسرع هيوج أوف مونتغومري Montgomery أولاً مع أتباعه، وعسكر هناك لأيام كثيرة، منتظراً التأييد من حلفائه، وبحكمة حرس البلاد ضد إمكانية هجوم من الويلزيين أو النرويجيين، على السكان المحليين، وفي أحد الأيام عندما كان السكان يركضون هنا وهناك وهم في حالة استنفار على الشاطىء، ويستعدون لمقاومة النرويجيين الذين رأوهم يهددون الانكليز بسفنهم، قام الإيرل هيوج بامتطاء فرسه، وحشد قواته وجمعها، وكقائد نظامي حثهم على التقدم نحو الأمام ضد الأعداء، بسبب الخوف أنهم إذا بقيوا متفرقين على شكل مجموعات فإنهم سوف يهزمون، وفي ذلك الوقت شاهد واحد من الأجانب النرويجيين الإيرل وهو يعدو، فأثاره الشيطان ليرسل سهماً أصدر صفيراً خلال الهواء، ويؤسفني ويحزنني القول، أنه أصاب الإيرل المشهور، فسقط مثل حجرة، فلفظ أنفاسه في أمواج البحر المتحركة، وارتفع صوت نحيب مرتفع لهذا السبب، وعندما علم الملك ماغنوس بخبر موته، بكاه بعمق مع رجاله، وعرض السلام والمهادنة على هيوج ديغري Digri أي القوي، وقال: إنني أقود جيشاً ضد الإيرلنديين، وليس ضد الانكليز، وأنا لا أغزو بلاداً أجنبية، بل جزراً مستقرة تحت حكمي.

وبحث النورمانديون والانكليز لمدة طويلة عن جسد هيوج، وقد وجدوه بعد صعوبة، عندما قذفه تيار المدّ، وحملوه من هناك إلى شرو سبري، وفي اليوم السابع بعد موته دفنوه في دير الرهبان مع بكاء عميق، فهو قد كان بين جميع أولاد مابل Mabel لطيفاً ومحبوباً، وقد حكم حصته من ميراث أبويه بعدل كامل لمدة أربعة أعوام، بعد وفاة أبيه روجر، وقد واجه منيته في حوالي نهاية تموز.

—٧—

وبعد وفاة هيوج قصد أخوه روبرت أوف بيليم Belleme الملك وليم روفوس، وعرض عليه ثلاثة آلاف باوند استرليني مقابل إيرليته، وعندما عمل إيرلا طارد الويلزيين وعاملهم بوحشية لمدة أربعة أعوام، وقد أزال بلدة قواتفورد Quatford الحصينة، وبنى قلعة قوية عند بردجنورث Bridgnorth على نهر سيفرن Severn ، كما طالب أيضاً بـ« بلايث Blyth » وبجميع أراضي قريبة روجر أوف بولي Bully على أنها حقه، واشتراها من الملك بمبلغ كبير من المال، وفي الحقيقة، كان كرجل أثرى كثيراً بممتلكاته الواسعة، وصار مثل الشيطان امتلأ تماماً بتجبر طاغي وبازدراء، وأوقف نفسه من دون ضوابط على الأفاعيل الوحشية.

وبالنسبة للانكليز والويلزيين الذين أصغوا حتى هذا الحين إلى أخبار رياضاته الوحشية، مع ابتسامة، تأملوا وبكوا الآن عندما جرى تمزيقهم بمخالبه الحديدية، واكتشفوا من خلال آلامهم بأن القصص كانت حقيقية، وقد ازداد في رعونته، وكذلك في ثروته، وازداد استعباده، وتضاعفت رغبته بضم ممتلكات جيرانه، مهما كانت أحوالهم، وادعى لنفسه الأراضي التي كان القدماء قد أعطوها إلى الكنيسة.

وبنى في كونتية مين Maine قلاعاً بالقوة على أراضي الآخرين، أي على ممتلكات القديس بطرس أوف لى كوتر Coutur ، والقديس فينسنت Vincent الشهيد، حيث عانى فلاحوها من مظالمه، وعندما وصل هذا إلى مسامع كونت هلياس Helias الشجاع لم يستطع تحمل ذلك بصمت مثل الجبناء، بل قام بهجوم مسلح على روبرت وأتباعه على نهر ريولت Riolt في السونوس Sonnois ، وقاتله باسم الرب، متوجهاً بالدعاء إلى الأسقف جوليان المقدس، وهزمه، وطرد قواته، مع أنهم كانوا متفوقين، لقد

طردهم من الميدان مهانين مجللين بالعار، وجرح روبرت أوف كورسي Courcy هناك، وفقد عينه اليمنى، ووقع بالأسر غوفيير أوف فيلاري Gouffier of villeray ، ووليم أوف مولين- لى- مارشي Moulins-la-marche ، وغودفري أوف غاس Gace مع آخرين كثر، وتسلم المانسيو Manceaux أموال كثيرة ثمن فدائهم، وبذلك جرى الانتقام للأذى الذي لحق بالقديسين، ولخسائرهم، واستمرت الأعمال العدوانية بينهم لمدة طويلة، وتسببت لكثيرين أن يتذوقوا آلام الموت أو الأسر.

—٨—

وإنني أرغب الآن في فكفكة خيوط أحداث الماضي، وأن أتعقب أصل الجماعة التي تتطلع الآن إلى تسلم الصولجان، فقد كان هلياس Helias ابن جون وبولا ومن أقرباء هيوج كونت مين Maine رجلاً متميزاً باحترامه الكبير لرعاية الدين، وقد حكم شعبه لصالحه في خوف من الرب، وقد تزوج من زوجة ذات أصل نبيل، اسمها ماتيلدا ابنة غيرفاس Gervas الذي كان ابن روبرت المدعو بروشارد Brochard ، أخو غيرفاس رئيس أساقفة الريمس Rheims ، فقد كان لديه ستة إخوة كان منهم اثنان هما الأكبر: غويسبيرت Goisbert واينوخ Enoch ، أصبحا راهبين بعدما تدربا على أعمال الفروسية، وصارا فارسين، والأربعة الباقين وهم: غيودفري، ولانسالين Lancelin ، ومايلز Miles ، ووليم، بتروا من قبل الموت أثناء شبابهم، وورث هيلياس قلعة لى-فليشي Fleche من أبيه، وتسلم من ميراث زوجته أربعة قلاع: شاتيو- دو- ليور Chateau-do-Lior ، ومايت Mayet ، ولوسي-لي- غراند Luce-le-grand ، وأوتالي Outille ، وأنجبت له زوجته ابنة هي إريمبيرغ Eremburge ، التي عندما بلغت سن الزواج،

تزوجت من فولك كونت أنجو، الذي هو الآن ملك القدس، وقد كان لهما أبناء نبلاء هم: غيوفري، وهيلياس، وماتيلدا، وسيبل، وتزوجت الابنتان من ابني ملكين، لكن بقضاء الله الذي لايرد، مالبثتا أن ترملتا.

وفي الوقت الذي سلم فيه الدوق روبرت نورماندي إلى أخيه، وتسلم منه مبلغاً كبيراً من المال، حتى يقوم بالحملة الصليبية إلى الضريح المقدس، وصل الكونت هيلياس إلى بلاط الملك في روان Rouen، وبعد نقاش طويل مع الدوق، اقترب من الملك وقال له بتواضع: «مولاي الملك، لقد حملت بناء على نصيحة الملك صليب الرب في خدمته، ونذرت أمام الرب وتعهدت أن أذهب بحملة صليبية إلى القدس مع كثير من الحجاج النبلاء، وأنا كتابع لكم أسأل صداقتكم، وأتطلع إليها، آملاً بأن أبدأ رحلتي مع ضمانتك للسلام»، ورد الملك عليه قائلاً:« اذهب إلى حيث تختار، لكن سلم إليّ مدينة لى—مانس Le-mans وجميع منطقة مين Maine ، لأنني عازم على استحواذ كل ما كان والدي يملكه»، فقال هيلياس: «إنني أتمتع بكونتيه آبائي بحق الوراثة، وبإرادة الرب، سوف أحولها إلى أولادي حرة كما أملكها الآن، وإذا مارغبت بالذهاب إلى القانون، إنني بكل سرور سوف أذهب إلى القضاء، وسوف أخسر، أو أحتفظ بحقي الوراثي تبعاً لقرار: الملوك، والكونتات، والأساقفة»، فأجابه الملك قائلاً:« أنا سوف أعرض قضيتي ضدك وأطالب بها بالسيوف، والرماح، وبزخات من النشاب» فقال هيلياس:« لقد كانت رغبتي هي القتال ضد الكفار باسم الرب، لكن يبدو الآن إن لدي معركة ضد أعداء المسيح هنا بالقرب في الوطن، فكل إنسان يتولى معاداة الصدق والحق يبرهن عن نفسه عدواً للرب، الذي هو الصدق نفسه وشمس العدل، فقد رأى أنني أهل بأن يعهد إليّ بالإشراف على مين، إنني لا أرغب، كما أنني لست ضعيفاً لن أتنازل مقابل أي سبب خفيف، أو بسبب الخوف، فأترك شعب الرب

تحت رحمة مفترس، أتركهم كقطيع من دون راعي وسط الذئاب، اسمعوا أيها النبلاء، الذين أنتم حضور، إن الخطة التي ألهمت للقيام بها من قبل الرب، سوف لن أتخلى عنها، وسوف لن أتخلى عن صليب المخلص، الذي حملته كحاج، بل سوف أحفره على ترسي، وعلى خوذتي، وعلى جميع أسلحتي، ولسوف أطبع علامة الصليب المقدس على سرجي وعلى لجامي أيضاً، ولسوف أتحرك وأنا محصن بهذا الرمز ضد أعداء السلام والحق، وأدافع عن أراضي المسيحيين في المعركة، وهكذا سوف يكون حصاني وسلاحي معلماً بوضوح بعلامة الصليب، وجميع الأعداء الذين سوف يقاتلون ضدي، سوف يقاتلون ضد جندي للمسيح، وإنني أضع ثقتي بالذي يحكم العالم، وأعتقد أنه يعرف أسرار قلبي، وسأنتظر إلى وقت سوف يكون أكثر مواءمة، أتمكن فيه من خلال رحمة الرب بالوفاء بنذري»، فقال الملك وليم:« اذهب إلى حيث تشاء، وافعل ما يرضيك، إنه ليس لدي رغبة في القتال ضد الصليبيين، لكنني سوف أدعي لنفسي ملكية المدينة التي كانت بيد أبي يوم موته، ولذلك انتبه لتقوم بدقة وشكل تام بترميم الشرافات المهدمة لقلاعك، وأرسل على الفور خلف البنائين، فنحن سوف نسرع إلى هناك من دون سابق إنذار، وسوف نجد الحاميات وسكان المدن غير مستعدين، وسوف نتمكن بسهولة من الاستيلاء على القلاع».

ومع أنه لأسباب كثيرة لم يكن الملك راغباً بالقيام بالحملة، إنما كان خجلاً من تأخيرها خشية القول بأن ذلك كان كما هو واضح بسبب الخوف، عندما كان روبرت مصراً إلى أبعد الحدود، وأكد له بالنجاح، وانتشرت على كل حال شائعات ووصلت قبله تحدثت عن قرب وصوله، فأصدر الكونت أمراً بالحشد، قضى بجمع كل رجال المقاطعة مع الأسلحة الموائمة، ونشرهم ضد العدو عند معابر الأنهار، وجعلهم حواجز عند الممرات الخطرة في الأحراش، وبذلك لم يتمكن الملك من عمل أي شيء

لإضعـاف أعـدائـه، بل امتلأ غضبـاً وضغينة، وازدادت عـدوانيتـه مـرارة نحوهم، وقد أمر روبرت بحشد قوة كبيرة من جنود بني قومه وحاشيته في قلاعـه، وأن يزودهم بكرم بإمدادات من المال ليمكنهم من تقوية دفـاعات أسـوارهم وشرافـاتهم مع كثير من الأبـراج، وأن يدفع بكرم العطاءات إلى جنوده المرتزقة، وكـان شحنة قلعة بيليم Belleme متشوقـــاً للإطاعة، ولبناء قـلاع جديدة، وأن يمتن القـلاع القديمـة بحفر خنادق عميقـة، من حولها، وكان لديه تسع قـلاع في منطقة مين وهي قلاع: بليفيس Bleves وبيري Peray ، ومـــونـت—دي—لي—نو Mont-de-la-nue ، وســـواسن Saosnes وســـــانت-ريمي-دو-بلين Saint-remi-du-plain ، وأورتـــــــوا Ortieus ، وأليري Allieres ، ولي مـوتي-غوتيير-دي-كلنشـامب La-motle-gauter-de-clinchamp ، وميمر Mamers ، وأيضاً عدداً من البيوت المحصنة، وأعدّ كل هؤلاء المهندس الداهيـة والبـارع لنفسه على نفقـة الملك، وفيهم وضع حـاميـات متوحشة مثل الحيوانات، كـانوا لعنة بالنسبة لجيرانهم، وقد استخدم هؤلاء لإشبـاع تكبره، وشن حـرباً متـوحشـة ضـد المانسيـو Manceaux ، وهلك أثناء الصـوم الكبير، الموسم عندمـا يتحرك المذنبـون من قبل الرب حتى يتخلوا عن ذنوبهم، ولكي ينشدوا بخشيـة التوبة من الجرائم الماضية، هلك أكثر من ثلاثمائة أسير مغلولين في سجن روبرت، وكـانوا قد عرضوا عليـه مبالغ كبيرة لفـداء أنفسهم وإطلاق سراحهم، لكنهم رفسـوا بازدراء من قبله، فماتوا من الجوع والبرد والآلام الأخرى.

وفي هذه الآونة مات هويل Hoel أسقف لي مانس Le-mans ، الذي كـان بريتانياً مـن حيث المولد، فاختـار الكونت هيلياس غيـوفري البريتاني، وعميد بريتاني، أسقفاً، لكن رجال الكهنوت سبقوه، وأرغموا رئيس الشمامسـة هيلدبيرت أوف لافـاردين Hildebert of lavardin حتى يحتل كـرسي الأسقفيـة، وغنوا بصوت مـرتفع واحتفلوا وأنشـدوا

Te deum laudamus مع بقية الأناشيد الطقوسية التي تتطلبها العادة اللاهوتية أثناء الانتخابات الأسقفية، وعندما سمع هيلياس بهذا غدا غاضباً جداً، وعزم على المقاومة، ولكن عندما قال له رجال اللاهوت:« ليس لديك الحق في تجاوز انتخاب شرعي محاباة منك لمرشحك»، أقام مسالماً واحتفظ بهدوئه صدوراً عن احترامه للرب، وتماشى مع رغبات الرهبان، مؤثراً ذلك على السماح بانشقاق مميت، يقسم أعضاء الكنيسة.

وفي الوقت نفسه كان غيوفري واثقاً من ضمان الأسقفية لنفسه لذلك أعد وليمة فخمة، للاحتفال بترقيته، وأقيمت الوليمة وأكلت الأطعمة والتهمت من قبل الضيوف الجائعين، لكن المانسيو رفضوا قبوله أسقفاً لهم، وقد كان أخاً لجوديكيل Judicail أسقف سانت-مالو Malo ، وبعد موت وليم رئيس أساقفة روان، شغل منصب رئاسة الأساقفة هناك لمدة سبعة أعوام.

وبعد موت غيلبرت، رئيس أساقفة تور، جرى انتخاب هيلدبيرت خلفاً له، وجاء ذلك من قبل رجال الدين والناس، وبإرادة الرب جرت ترقيته من أسقفيته لي-مانس، إلى كرسي رئاسة الأساقفة، وقد كان أديباً، ورجلاً تقياً، قرأ بعمق الآداب اللاهوتية والعلمانية، كان شاعراً لا نظير له في أيامنا، ونظم كثيراً من الأغاني المساوية لأشعار القدماء أو متفوقة عليها، وهي أشعار ألهمت المتعلمين بتشوق للعمل على شرحها ببراعة، ولديهم رغبة باقتنائها لأنفسهم أعظم من الرغبة باقتناء الذهب والتوباز، وقد تحدث بنعمة ومعرفة وعلم عن المسيح وعن الكنيسة، وعن الجسد والروح، وعن حياة القديسين وفضائلهم، وعن المحاسن والأخلاق وعن الذنوب المقيتة، وحملت كثير من أغاني هيلدبيرت، إلى روما من قبل الكرادلة، الذين غالباً ما زاروا فرنسا، لأنهم وجدوا الناس هناك مستقيمين ومطيعين، وقد أطريت وقومت تقويماً عالياً بين مدارس وعلماء

الرومان المجربين المصقولين، وشغل هذا الأسقف التقي منصبه وحمل أعباء واجبات رئيس الأساقفة لحوالي خمسة وثلاثين عاماً، مكرساً نفسه تماماً إلى صلاح ومنفعة ما علمه وفعله، وقد أوجد طرقاً كثيرة إلى تجميل كنيسة القديس غيرفاس، وذلك حيث يرقد جسد المعترف المشهور للمسيح جوليان، وبعد ذلك كرسها في أيام خليفته غي البريتاني، والذي هو معروف أيضاً باسم غي أوف إيتامبس Etampes ، ولكن كجزاء على ذنبه، فإن النار التي أحرقت قسماً كبيراً من المدينة بعد التكريس شوهت الكنيسة وسببت دماراً كبيراً لها، وهي الكنيسة التي زينت من قبل رجال أتقياء صالحين، وأثريت بالزينات في سبيل مجد الرب.

وفي عام ١٠٩٨ لتجسيد ربنا، وفي العلامة السادسة، قاد الكونت هيلياس هجوماً ضد روبرت في أسبوع ما قبل الابتهال( قبل عيد الصعود بثلاثة أيام)، وعندما انتهت الغارة أمر رجاله بالتراجع بعد الظهر، وعندما كانوا يسيرون عائدين، كان الكونت مع سبعة فرسان قد انفصلوا عن الوحدة الأساسية، فشاهد بعض الرجال مختبئين بين الأشجار الكثيفة والنباتات، فحمل عليهم مع حفنة المرافقين له، لكن روبرت أوف بيليم كان جالساً في كمين هناك، وعندما شاهد هذا الداهية الممارس لفن الحرب عدداً قليلاً من الرجال مندفعين يعدون نحوهم، انقض عليهم فجأة مع قوة كبيرة، وعلى الفور أسر الكونت، وحامل رايته هيرفي أوف مونت فورت Hervey of mont fort ، وجميع الآخرين تقريباً(١)، وعندما وصلت طليعة الجيش إلى بالون وهي بروح عالية، وسمعت بأسر الكونت من قبل الذين نجوا، تبدل على الفور وضعهم العاطفي من جنون الفرح إلى الكآبة والحزن العميق، وسلم روبرت هيلياس إلى الملك في روان، وأمر الملك بالحفاظ عليه

١ —حدث هذا في ٢٨ نيسان ١٠٩٨م.

بأسر مشرف، حيث لم يكن على الأقل متـوحشاً في معـاملتـه للفرسـان، لكنه كان كريماً ولطيفاً، ومرحاً، ومرتاحاً.

وبما أن الحظ السعيـــد ابتسم لـه، دعـــا الملك وليم جميع بـارونات نورماندي للاجتماع به، وكـان في روح عالية، وقـد قال لهم:« إنني حتى الآن كنت بطيئـاً في استرداد ميراثي الأبوي، لأنني لم أرغـب بإزعـــاج السكان أو قتل النـاس صـدوراً عـن الشهـوة في تـوسيع أراضي، ولكن الآن— كما ترون— جـرى من دون أي تستر أو تآمـر من جانبي، فقـد جرى أسر عدوي وتسليمه إليّ بإرادة الرب، الذي يعرف عدالة قضيتي، فما الذي توصـون به؟ ومـا الذي تنصحـوني به لأعمله الآن، تشـاوروا حول الذي ينبغي عمله، وأخبروني ما هـو الطريق الأفضل لي لاتباعه»، وبعدما تشاور الأعيـان مع بعضهم أجابوه قائلين:« أيها المولى الملك، إنه بالـرأي الجماعي نحن نقترح أن تصـــدر أمـــراً بحشـــد جميـع الجيش النورماندي، ونحن جميعـاً سوف نرافقه بشجاعـة وإرادة للاستيلاء على جميع مقاطعة مين Maine ، وابتهج الملك لدى سماع هذه النصيحة، وبسرعة قصوى جرى إرسـال الرسل إلى جميع أرجاء المقاطعة، ونشرت الأخبار بأن إرادة الملك قضت بأن على رعاياه وجيرانه وأصدقائه تقديم المخلصين له، وتـدفق الفـــرنسيـــون، والبيرغنديون، والفلمنكيـــون، والبريتانيون، وآخرون من الشعوب المجاورة على الأمير المبسوط اليدين عطاء، وضاعفت أعداد أفواجه.

وفي شهـر حـزيران[ ١٠٩٨] قـاد الملك وليم جيشـه خـــلال ألنكون Alencon ، ودخل إلى بلاد العـــدو مع أعـــداد كبيرة مـــن المؤيدين بمثابة غـزاة يحسب لهم حساب، وزحفت أفـواج الفرسان بسرعـة نحو فـــرسني Fresnay ، وذلك بنـاء على أوامـــر الملـــك، واشتبكت بحرب طويلة مع الفرسان الخيـالة من رجال الحامية عند أبواب القلعة، وبادر الفيـزكونت رالف أوف بومـونت Beaumont مسرعاً نحـــو

الملك يطلب منه التصالـح، وأصر على عقد معاهدة سـلام، تمتد إلى أي مـدة هو يريـد تحديدها، حيث قـال:« إنني أرغب بالمهــادنة يا مـولاي الملك، من معـاليك، إلى أن تعـود ســالماً ومعـافى من لى مـانس، وهناك يكون الأسقف قــد اتخذ مقعـده، والمجلس الاستشـاري للأعيــان قـد تأسس، وهناك في كل يـوم بحث معلن حـول صـالح المقـاطعـة، وقـد اتخذت الإجـراءات في سبيل سـلامتهـا، ونحن سـوف نكون مسرورين بالحصول على أية معـاهدة تعقد معكم هناك، ولسـوف نطيع أوامرك في جميع الأشيـاء، وهذه الاقتراحـات التي أتقـدم بها يا مـولاي الملك، هي بناء على نصيحـــة مستشـــاري الشيـــوخ، لأنني إذا مـــا كنت الأول بالاستســــلام مـن دون قتــال، وكنـت الأول في التخلي عن نظـرائي والدخول في السلام، سوف أكون بالتأكيد قد تركت وصمة عار ومهانة إلى جميع ذريتي، فـالأطراف ينبغي أن تقاد بالرأس، ولا تقـود الأطراف الرأس، ووفق هذه الطريقة يـود العبيد المخلصين إيثار إطاعـة مولاهم، على إصـدار الأمر إليـه»، وشكره الملك وأثنى عليـه على هذه العبـارات وأمثالها من آراء ووافق على مطالبه.

وسلك غيــوفـري أوف مـــايني Mayenne ، وروتو أوف مـونتفـورت مع كثير آخـرين، الذين من خـلال أراضيهم كـان سيعبر، المسلك نفسـه من حيث العمل، وبنجاح تقـدموا بالتماس إليـه من أجل الهدنة حتى عودته.

وكـان غـايلو أوف سـولي Gilo of sully سيـداً مسناً، وكـان واحـداً من أقدم الأسر في غـاليا، وقـد تربى ونشأ في بلاط الملك هنري ملك فرنسـا، وكان قد شاهد حشـداً كبيراً من الناس واقفين على هضبة عـاليـة، وشاهد من كـل جانب قـوات من الجند عـددها—كما أكـد— خمسين ألف رجل، وقــد أعلن أنه لم يشــاهد من قبل مثـل هذا الجيش شمال الألب.

وكــان أول توقـف للملك في أرض عــدوه في روسي—فــونتين Rouesse-Fontaine ، ونصب في اليـوم التـالي مخيمـه وأمضى الليل في مـونتبيـزوت Montbizot ، ووصل في اليـوم الثـالث إلى كـولين Caulaines وأمـر بنصب خيـام جيشـه الكبير على المروج بجوار السارثي Sarthe ، وكان هناك رماة قسي عقارة ورماة عاديين في الكروم على جـانب الطريق، وقـد قـامـوا باستطلاع الممـرات بشكل دقيق لمنع العدو من المرور خلالها بأمان، وضايقوا كل القادمين برمايات كثيفة من النشاب.

وعندمـا سمع فـولك لى ريكيين Rechin ، كـونت أنجـــو بأن هيليـاس قـد وقع بالأسر، بادر مسرعـاً إلى لى مـانس، لأنه كـان السيـد الأعلى للمنطقة، وفتح السكان أبوابهم له، وقوى هو الحاميـات بفرسان وبرمـاة، ولدى اقتراب الملك، خــرج الفـرســان من المدينة لمواقفتــه، وبشجـاعة قـاتلوا ضد النورمـانديين طوال اليـوم، وجرى إنجـاز أعمال بطولية ومهارات فـروسية من على الجانبين، لأن الأبطال المشهورين من الجيشين كافحوا ليبرهنوا على شجاعتهم، ولينالوا أكاليل مجد الحرب من قادتهم ومن رفاقهم.

وكان بين Pain أوف مونـد بليو Mondoubleau صديقـــاً قـديماً للنورمانـديين، ومشهوراً بتحـالفـه مع الملك، وقـد سلمه القلعـة الحصينة في بالون Ballon ، التي تحكمت بالمدينة كلهـا التي كـــانت تحت سلطة أعدائه، وعين الملك روبرت أوف بيليم Belleme قائداً للفـرسـان هناك، وزودوه بأكثـر مـن ثلاثمائـة من الفـرسـان الشجعـان المدربين تدريباً جيداً، وقد أنزل غضبه على شعب المنطقة، الذين قاوموه، وعاقبهـم بعقوبات انتقاميـة وحشية بنهب أراضيهم، فبقـوات كبيرة من الجنود دمّـر كرومهم واقتلعهـا، وداس فـوق قمحهم، وعـاث فسـاداً في المنطقة ومـا حولها، غير أنه لم يكن قادراً على القيام بحصـار طويل، فقد

عـانى كل من الرجـال والخيول من نقص حـاد بالطعـام، بما أن الفصل كان هو الفصل الذي استنفـد فيه الموسم القديم، كما أن مـوسم الحصاد الجديد لم يكن قـد جمع بعد، وقد بيـع صاع Sater الشوفـــان، الذي من دونه من غير الممكن الحفاظ على قوة الحصان في المناخ الغربي بعشرة شلنات مـــانســـوية Maneaux ونتيجـة لذلـــــك سحب الملك عساكره، وأمرهم بجمع حصادهم في الأهراء، وأن يكونوا جاهزين بعد تخزين الحبوب لحصار حصون الأعداء.

وعندما قاد الملك روفوس جيشه الكبير عـائداً إلى نورماندي، حاصر الكونت فـولك بالون وحـاول بوسـاطة قوات مـوحـدة من الأنجيفيين والمانسويين لأيام عـدة هزيمة أعـدائه، وقـامت —على كل حال— على الفور بإخبـار الملك، وعندما انتشرت الأخبـار بالخارج أسرع اللوردات الشجعان وبادروا إلى مساعدة رفاقهم.

وفي الوقت نفسـه، عندمـا كـان الكـونت وجيشـه يتناولون الطعـام في خيامهم، قـام متسولون من البلدة، ممن كـانوا يتسلمون الصـدقات هناك، بإخبـار المحـاصرين، بأن الذين يتـولون حصـارهم مـا يزالون مشغـولين بتناول الطعـام، وكان الوقـت آنذاك حوالي الثـالثـة، وقامت صفـوف من الفرسان النظاميين المسلحين بالإغارة، فانقضوا فجأة، ومن دون إنذار على الناس العاجـزين عن الدفاع، لأنهم كانوا ما يزالون جـالسين وراء الموائد، وأسروا كثيراً منهم، وأرغموا البقية على الفرار، ووقع بالأسر هناك: وولتر أوف مونتسوريو Montsoreau ، وجيوفري أوف بريولي Briolly ، وجـون أوف باليســون-سـور-لوير Balaison-sur-Loire ، وبيلي أوف مـــونترويل-بيلي Bellay of montreuil-Bellay ، وحـــوالي المائـة والأربعين من الفـرسـان الآخـرين، وذلـك مع عـدد لا يحصى من الجنود الرجـالة، واستـولى المنتصرون على تجهيـزات الأعـداء، المؤلفـة من الأسلحة، والألبسة، والأثاث من أنواع كثيرة، وكـان من بين الذين وقعوا

بالأسر عدد كبير من النبلاء الشاليانيين Chatelains الذين امتلكوا أراضي كبيرة، وكانت مراتبهم بين البارونات القياديين لمنطقتهم، وكان لديهم كثير من الفرسان المتميزين بمثابة تابعين بموجب حق الوراثة.

ووصل في الأسبوع الثالث من تموز الملك وليم للتفريج عن رجاله، جالباً معه قواتاً كبيرة من الجنود الذين بثوا الرعب بين أعدائهم، وعندما وصل الملك فتح رجال الحامية الأبواب مع هتافات الاحتفال، وعندما سمع الأسرى بوصوله صرخوا مع بعضهم بأعلى أصواتهم يقولون:« يا وليم، أيها الملك النبيل، حررنا»، ولدى سماعه الصرخات، أمر بإطلاق سراحهم على الفور، وبإعطائهم وجبة طعام جيدة في الساحة في الخارج مع رجاله، وقد أطلق سراحهم على أساس التعهد بعدم الفرار، حتى ما بعد الطعام، وعندما اعترض بعض أتباعه بأنهم من الممكن أن يفروا بسهولة من بين ذلك الحشد من الناس، رد عليهم الملك بقسوة، وقال لصالح الأسرى:« بعيد جداً عني، أن أعتقد أن فارساً حقيقياً يمكن أن يحنث بوعده الذي أقسم عليه، وإذا ما فعل ذلك، هو سوف يزدرى إلى الأبد على أنه خارج على القانون».

وتراجع الكونت فولك بسرعة وتخلى عن حصار لى مانس، وانتظر نتائج الحوادث في ديرة القديسين، وفي الوقت نفسه تشاور الأنجوفييون مع المانسويين، فوجدوا أنفسهم أضعف من النورمانديين في كل جانب، فأعدوا مفاوضات بين الملك وبين الكونت، وبعون الرب توصلوا إلى شروط عملية للسلام وافق عليها الطرفان، وقد رحب الطرفان بذلك بحرارة لأسباب مختلفة، وكانت الشروط المنشودة والتي جرت الموافقة عليها، وجوب تبادل الكونت هيلياس وجميع الأسرى من على الجانبين، ولى مانس وجميع القلاع التي ملكها وليم القاهر ينبغي تسليمها إلى ابنه روفوس.

وعندما جرى التصديق على شروط السلام، دعا الملك إليه قائد الفرسان: روبرت بن هيوج أوف مونت فورت، وأمره أن يحتل برج لى

مـانس، والدفـاعـات الأخـرى، حيث زوده بسبعمائـة واحـد من نخبـة الفرسان، مسلحين بالدروع والخوذات وحاملين لكامل السلاح، وما أن انسحب الحرس حتى تولوا شـؤون جميع الدفـاعات عن المدينة ورفعـوا راية الملك باحتفـال كبير من على البرج الرئيسي، وفي التـالي تبعهم الملك مع ألف من مشاهير الفـرسان، وبعد إصداره الأوامـر البلدية، استحوذ على المدينة حسب رغبتـه وهواه، ووضع البرج الملكـي، ومـونت باربت Mont-Barbet وجبل بـاربت الصغير تحت سلطة الملك، الأمـــر الذي كـان حقـــه فقط، بما أنهم أسســوا من قبل أبيـــه، ورحب السكان بحرارة بالأمير الجديد مع الهتافات والأغاني ومظاهرات السرور.

ثم إن الأسقف هليـدبيرت خرج مع رجـال الدين والناس في مسيرة فرح لمقـابلة الملك، وكانوا ينشـدون المزامير، ورافقوه وهم يفعلون ذلك إلى داخل كنيسة القديس غيرفاس الشهيد، حيـث ترقد أجساد الأساقفة المقدسين والمعترفين: جـوليان، وثـوريبيوس Thuribius ، وفكتور، مع آخرين كثر.

ولدى إطلاق سراح هيليـاس من السجـن في بايو، وصل ليرى الملك، ولحيته السـوداء غير محلوقة، ليراه في روان، وقـال له بتواضع:« أيها الملك العظيم، الحاكم على كثيرين، ساعـدني، أرجوك من كـرمك الوافر، فلزمن طويل تمتعت بلقب كونت، لأنني امتلكت منطقة جميلة بحق الوراثة، غير أنني لتغير الحظ، جردت من الحق إلى اللقب وإلى البلاد، ولذلك أرجوك أن تقبلني في حـاشيتك وآل بيتك، مع لقب مـرتبتي السـالفـة، ولسـوف أسددك بخدمة جديرة وثمينة، ولاأطلب أن أتملك مدينة لي مانس وقلاع أوف ميني، حتى أكـون قد استحققت تسلمهم بوساطـة بعض الخدمات الجديرة، وأستردهم من يدك الملكيـة، وإلى ذلك اليـوم، إن رغبتي هي أن أعدّ بين أعضاء آل بيتك، وأن أتمتع بحظوة فروسيتك».

وكـان الملك الكريم على استعـداد لمنحـــه هذا، لكن روبرت كـونت

ميولان Meulan ثناه عن ذلك صدوراً عن حســـد وضغينة، وكان هذا الرجل العجوز الماكـر الرئيس بين مستشاري الملك ورجـال العدالة لديه، ولذلك خشي من قبـول واحد كان مسـاوياً له أو متفوقـاً عليه في المجلس الاستشـاري الملكي، وهكذا قـال للملـك: «إن هذا الرجل من ميني رجل مـاكـر وغـدار، ويـريد أن يحقق بالخداع والتعـامل المزدوج، الذي لم يستطع نيله وتحقيقه بالقـوة، ها هنا عدو مقهور، يتقـدم بقضية، وبخداع يعبر عن رغبة في أن يكون مستشـارك، فلماذا أقدم على السؤال من أجل هـذا؟ حتى يكون على مقـــربة مـن أسرارك، وأن يكون أكثـــر وحشية ومتمكنا من عقد صفقات تحالف مع أعدائك».

وعند سماع الملك لهذا غير رأيه، وجـرى عدم منح الكونت الشجـاع مكاناً في حـاشيـة الملك، ونتيجة أنه سـوف يعـاني إثر ذلك من كثير من المحن والمصـاعب، والمخاطر، والخسـائـر، حاول هيليـاس مرة ثانيـة أن يلطف من موقف الملك، لكن عبثا كـان ذلك، ونتيجة لذلك قال بحزم وثبـات: « لقـد وددت بكل سرور في أن أكـــون في خـدمتك يامـولاي الملك، لو أن ذلـك وافق رغبــاتـك، ووجــدت الحظوة لـديك، لكنني أسألك الآن أن لا تلومني إذا مـا أخذت منهجاً آخـر، فأنا لا يمكنني الجلوس بصبر، وأنا أنظر إلى ميراثي وقد أخذ منـي، وأنا قد حرمت كل أنواع العـدالة، وهنا إن القـوة وحـدها هي المستبـدة ولا مجال لسـواها، ولذلك ينبغي أن لا يفـاجأ أحد إذا تقـدمت بالمطالبة بحقي، وكـافحت حتى أسترد المقـام الشرفي لآبائي، بـأي وسيلة هي في مقـدوري»، وعلى هذا أجابه الملك المتكبر:« امض، وافعل الأسوأ ضدي».

وبناء عليه طلب هيلياس الأمان مـن الملك ليعبر خلال أراضيه، وقد تلقى ذلك، فعاد إلى موطنه حراً، إلى أصدقائه المحتفلين بذلك، وقد أعد قلاعـه الخمس، والقرى المحيطة بها للدفـاع، ورمم بعناية الأضرار التي وقعت هناك، وشغل نفســه بشـؤونه الخاصـة، ومن آب[ ١٠٩٨] حتى

الفصح[١٠٩٩]، حافظ على السلام، وعلى كل حال منح خلال تلك المدة تفكيراً دقيقاً حول الطريق الموائم حتى يرى يده ويظهرها إلى أعدائه، وناقش القضية مراراً وتباحث حولها مع جيرانه المخلصين.

وبعدما استولى الملك وليم على لى مانس، مع قليل من الدماء المسفوكة كما أوضحنا، وضع المدينة تحت حفظ وليم كونت إيفري Evereux ، وغيلبرت أوف ليبجلي Laigle مع قادة آخرين شجعان، وعهد بالقلعة الملكية، المجهزة بشكل جيد بالأسلحة والأطعمة، وبكل نوع من أنواع الإمدادات إلى وولتر أوف روان ابن أنسجر Ansger ، وربط رالف الفيزكونت، وغيوفري أوف ميني، وروبرت البيرغاندي مع أعيان آخرين من جميع أرجاء المنطقة، ربطوا أنفسهم بالملك، وبعدما تسلموا منه العطاءات والقلاع، وتكلفوا بحكمها، أطاعوا أوامره.

—٩—

وعندما كانت هذه الأحداث تقع عبر البحر في نورماندي، ويجري إنفاق تكاليف كبيرة على استعدادات وهمية، كان رانولف فلامبارد Ranulf Flambard ، الذي صار أسقفاً لدرم مع عمال ملكيين آخرين وموظفين ينهبون انكلترا، بشكل أسوأ مما كانت تقوم به العصابات، فقد أغاروا من دون رحمة على مخازن الفلاحين، وبضائع التجار، ولم يتمنعوا حتى عن وضع أيديهم الدموية على الأشياء المقدسة، وكان كلما مات أسقف كنيسة، كانوا يفرضون أنفسهم مكانه باسم الملك، وبصورة لاشرعية ودنسة استولوا على كل ما وجدوه في خزائن أموالهم، ووضعوا بين يدي الملك ممتلكات وأراضي عائدة إلى الديرة، وكذلك موارد الأساقفة، وبهذه الطريقة جمعوا موارد هائلة بطرائق غير عادلة، وبأساليب قذرة، وأرسلوها إلى الملك فيما وراء البحر، ليزيد من مشاريعه ويوسع خططه، سواء أكانت صالحة أو شريرة، وقدموا إلى الملك هدايا عظيمة، جمعت بمثل هذه الطرق،

وهكذا أغنوا الأجـــانب في سبيل عــرض فـــارغ، في حين أن الناس البائسين الآسفين في المملكة قد جـردوا من ممتلكاتهم، وكانوا يصرخون وهم في حـالة عـذاب ويأس إلى الرب، الـذي خلص بني إسرائيل من أيدي مآب، من خلال إهود المخـادع قاتل عجلون الملك السمين جداً، [سفر القضاة: ٣ / ١٢—٢٢].

وعندمـا شاهد أنسلم، رئيس الأسـاقفة المقـدس، هذه الأشياء حـزن بعمق، وحاول أن يساعد المظلومين، وبذل غـاية جهده حتى يقف ثابتاً، وكأنه سـور، حتى يحمي بيت بنـي إسرائيل ضـد الذين يعبـدون بعل، واشتكـى من أنـواع كثيرة من الأضرار أنـزلت بـالكنيســـــة، وترافـع بالشكوى إلى الملك، بوسـاطة رسـائل التماسـات أرسلت إليـه بوسـاطة مبعـوثين مخلصين، لكن الملك الأحمق جعل قلبـــه قـاسياً، ولم يصغ إلى المعلم الناصح المخلص، ونتيجة لذلك سأله أنسلم أن يأذن له بالذهاب إلى رومـا، وسمح له الملك المتجبر بالمغـادرة إلى رومـا، لكن حظر عليـه الدخول إلى نورماندي، وا أسفاه، كيف كـان هو أعمى برعونته الآثمة، وكيف هو قد تصرف مـن دون تقدير، عندما كـان هو نفسه على حـافة الدمـار، حيث أنه رفض أن يرى عبـد الـرب، الذي هرب من طغيـانه، والذي لم يكن قط قـــادراً على أن يراه ثانيـــة، لأنه إثر ذلك على الفـــور ضرب فسقط بوســـاطة مـــوت وحشي، وأطاع الرجل المبجل الأوامـــر الملكيـــة، وعبر بوسـاطة طـريق بولون Boulogne ، وكـان معـــــــه رفيقين صـــالحين أثناء رحلتـه هما بلـدوين أوف تورناي Tournai ، وكـــان راهبـاً مـن دير بك Bec والانكليـــــــــزي إدمير Eadmer أوف كـــانتر بري، وهو الذي كتـب فيها بشكل بليغ سيرة حيـــاة رئيس الأسـاقفـة أنسلم، من أجل التـوجيـه الروحي، وتابع رئيس الأسـاقفـة رحلته الصعبة وصولاً حتى كابوا Capua ، التي هي المدينة الرئيسية لكامبانيا Campania الخصبة حيث وجد البابا أوربان، وأفشى إلى

البــابا، الذي استقبله بلطـف مع التشريف، سبب قــدومــه، وفي ذلك الوقت كان البابا مشغولاً جداً هناك، حيث كان يحاول إقناع الكابوانيين Capuans بالخضـوع إلى أميرهم رتشارد بن جـوردان، الذين ثاروا ضده، وكان رتشارد الشاب هذا آنذاك يضغط عليهم بشدة متناهية حتى يستسلموا له، حيث كـانت معه مساعـدة فعالة من عمـه (خاله) الكبير روجـر الشيخ، كـونت صقليـة، وهكذا أمضى الرجل العجـوز المحترم حـوالي العـامين في المنفى بين الإيطاليين، الذيـن من عناصرهم قـد نبع، وبين شعوب أخـرى، وبسلوكه البـارع وبلاغتـه جذب المنفعة الـروحية لمستمعيه الأجانب، وإذا ما رغب أي واحد في أن يقرأ أكثر حول أعماله وأقواله، يمكنه أن يجدهم موصـوفين في كتاب مرافقه إدمير في دير بك، وهو دير سلفه هيرليون Herliun.

— ١٠ —

في الخريف بعـدما استـولى الملك وليم على ميني، حسبما تقـدم وصف ذلك، وبعـدمـا أنهى مسـائل نورمـاندي وسـواها حسبما رغب، عـاد إلى مملكتـه الثرية، أي انكترا، مع رياح جنوبيـة موافقـة، وفي العام التـالي بدأ هيليـاس أعماله القتـالية من جـديد بعـد عيـد الفصح، وانطلق بهدوء مع مـوافقة السكان بإحـراق الأرض في المناطق الحدودية، وبمضـايقة قـوات الملك، وزحف أخيراً في حـزيران مـع جيش كبير جـداً من الفـرسـان إلى مخاضــة على نهر هـوسن Huisne ، وذلك عندمــا كــان يــــدعى بلانشي-جيــوفـروي Planches-Geoffroi ، وعبر النهــــر، وأثار رجـال الملك الـذين كـانوا يحرسـون المدينة وجــذبهم إلى الصراع، وقـام النورمـانديون الشجعـان بغـارات، وقـاتلوا لمدة طويلة، ولكن في الأخير حقق التعداد المتفـوق للأعداء السيطرة، ودفعوا عـائدين إلى المدينة، وشق العدو طريقه إلى داخلهـا معهم، لأن عنف حملته منعت المدافعين وحالت بينهم وبين إغلاق الأبواب، وكانوا فقط قادرين على النجاة خلال المدينة،

والالتجاء إلى القلعة وإلى الدفاعات الأخرى، وكان السكان متعلقين كثيراً بهيلياس، وقد رغبوا كثيراً في أن يحكموا من قبله وأن لا يحكموا من قبل النورمان، وكان لدى رجال الحامية- على كل حال- الذين يدافعون عن حصون الملك كميات وافرة من الإمدادات والمؤن من كل نوع، وقد صمموا على القتال حتى الموت، صدوراً عن إخلاصهم إلى مولاهم، وجرى استقبال هيلياس في المدينة بالهتافات من قبل سكانها، لكن عملهم هذا جلب على الفور مأساة مرعبة وأنزلها على رؤوسهم جميعاً، حيث أعدّ أنسغير Ansger ابن قسطلان القلعة الحدادين الذين كانوا معه ليعملوا في مساعدة مجانيق الحصار في قذف خبث المعادن المذابة بعنف على أسقف البيوت، وكان الزمان زمان الشمس المحرقة، حيث كانت الشمس تعبر خلال برج التوأمان (الجوزاء) السماوي[١٨—أيار حتى ١٦ حزيران]، وكانت المنطقة المحيطة هناك محترقة بالجفاف، واستبدت زخات اللهب بألواح سقوف البيوت، فاستعر حريق هائل استولى على الأبنية، فحول المدينة بأسرها إلى رماد.

ودافع عن الدفاعات بتصميم وإصرار كليرمبولد أوف ليسوري Claremald of Lisores ووولتر مع آخرين من رجال الملك، وكافح هيلياس ورجاله بشدة من أجل اقتحام الأسوار أو فتح ثغرة فيهم، ولكن كان ذلك بلا فائدة أمام الحصون التي لا ترام، وفي الوقت نفسه حصن روبرت أوف بيليم بالون Ballon ، وبعث برسوله أمالكيس Amalchis إلى ملك انكلترا يتعجل قدومه، وعبر هذا الرسول البحر، وأخذ طريقه نحو كليرندون Clarendon فالتقى بالملك وهو سائر مع أصحابه في الغابة الجديدة، فرد على طلبه حول الأخبار من دون انفعال:«لقد جرى الاستيلاء على لى مانس خيانة، ومولاي متمسك ببالون، وعساكر الحاشية الملكية يدافعون بعناد عن جميع الأماكن الحصينة التي هي بعدتهم، وهم يتطلعون بكل سرعة

للتفريج عنهم بوساطة الجيش الملكي ضد قوات العدو المحاصرة لهم والمهاجمة لمواقعهم.

وما أن سمع الملك هذا حتى قال:«دعونا نعبر البحر، ونساعد رجالنا»، وقام على الفور، من دون التشاور مع أي واحد، بإدارة عنان فرسه، وهمزه وسار مسرعاً نحو الساحل، وهناك صعد على ظهر سفينة قديمة صدف أن وجدها هناك، صعد من دون أية أبهة ملكية، بل مثل أي رجل عادي، وطلب على الفور أن تسير به، ولم ينتظر هبوب ريح موائمة، ولم ينتظر أصدقائه، ولا حتى جلب أي سرج ملكي، بل ألقى بنفسه، دون أن يعرف أي معنى للخوف، إلى الحظ والأمواج، وعند الفجر من اليوم التالي، نزل- بتوجيه الرب- في ميناء توقوي Touques ، وهناك كان كثير من الناس، كما جرت العادة في الصيف، قد تجمعوا من رجال الدين ومن العلمانيين، ينتظرون على الرصيف، ويتطلعون إلى السفينة المبحرة من انكلترا، فقد انتظروا بتشوق لسماع الأخبار، وبالنسبة إلى الذين سألوا أولاً عن أخبار الملك، لقد كان هو شخصياً رسول نفسه، وقد تملكت الجميع الدهشة، لأنه كان هناك غير متوقع، وقد ابتسم وهو يجيب على جميع الأسئلة، وعلى الفور أعطى المجال إلى سرور عارم، وركب فرساً كانت عائدة إلى واحد من الكهنة، وانطلق من هناك نحو بونيفيل-سور- توقوي Bonneville-sur- Touques مع حشد كبير من رجال الدين ومن أهل المنطقة الذين ركضوا إلى جانبه، وهم يهتفون فرحاً، وبحضوره تسبب في جلب الرعب إلى أعدائه الذين كانوا يحدثون دماراً على حدود نورماندي، وبعث برسله فاستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من دون تأخير، وبادر مسرعاً حتى يحدث دماراً حربياً في منطقة أعدائه، وعندما سمعت القوات المعادية وقائدها هيلياس بأن الملك قد عبر القنال، لم يضيعوا الوقت بل تراجعوا على الفور، وتركوا المدينة التي كانوا قد احتلوها في حالة أسوأ مما كانوا وجدوها عليه.

وذهب الأسقف هيلدبيرت بتواضع لمقابلة الملك، وقد استقبل بحفاوة من قبله كصديق، وهو لم يتدخل في الاضطرابات الأخيرة لا عن طريق المشورة، ولا بأي شكل من الأشكال.

وقام الملك من دون تقاعس، ولكن بشكل حذر بمطاردة الأعداء، عندما سمع بانسحابهم، ولم ير من المناسب الإقامة، ولا حتى ليلة واحدة في لى مانس، وفي الحقيقة عندما عبر من هناك شاهد المدينة وهي رماد، وأمر بخيامه فنصبت في مرج واسع خلف الجسر القائم فوق نهر هوسني Huisne ، وانتقم في اليوم التالي مما اقترف بحقه بقسوة بالغة بالنار والسيف، لكن قبل أن يتمكن الملك من الوصول إلى قلاع عدوه، ويلقي النار فيها، قامت القوات العدوة طواعية من قبل نفسها بإحراق كل شيء، فلقد أضرموا النيران في أراضي مقاطعتهم حتى لايتمكن الغزاة المتوحشون من العثور على أي شيء لينهبوه، ولا مكان إقامة يستطيعون التمدد فيه والنوم، ومن المؤكد أن فوكس Vaux وآوتلي Outlle قد احترقت مع كثير من الأماكن الحصينة، وجرى تدمير أماكن الاستقرار في المنطقة تدميراً كاملاً.

وألقى روبرت أوف مونتفور، الذي كان قائد القوات في مقدمة الجيش مع خمسمائة فارس، النار في فوكس، واستولى على القلعة من أجل استخدام الملك لها.

وطوال الوقت ذاك، بقي هيلياس مع قوة قوية من الفرسان في شاتو-دو- لوير، يرقب نتائج الوقائع، وموفراً نفسه إلى أيام أفضل.

وشرع الملك أخيراً في يوم الجمعة بإلقاء الحصار على ميت Mayet ، وأمر بمهاجمة القلعة في الأيام التالية، إنما في يوم السبت، عندما كان المحاربون يسلحون أنفسهم من أجل الهجوم، ويستعدون للإقلاع بهجوم حاد على الحامية، قام الملك بناء على نصيحة مستشاريه العقلاء،

وفي سبيل تمجيد الرب، وصدوراً عن احترامه لدفن الرب وقيامته، بتوفير الأعداء، بمنحهم هدنة حتى يوم الاثنين، وخلال تلك الفرصة قام الأعداء بصرف وقتهم لتقوية القلعة من الداخل، وعندما جاء وقت الهجوم نصبوا سياجاً مصنوعاً من الأغصان المجدولة لإضعاف قوة المقذوفات والحجارة، وكانوا رجالاً ذوي إصرار وعزيمة، مخلصين إلى سيدهم، قرروا أن يقاتلوا بثبات حتى الموت من أجله، وقد برهنوا بذلك بشكل واضح على شجاعتهم، بضربهم مثلاً يستحق الثناء، وبينما كان المهاجمون يجهدون أنفسهم ويتعرقون في سبيل طم الخندق المحيط بأكوام من الخشب ويضعون كثيراً من الدعائم بمثابة أساسات، ويبنون بشكل مكشوف طريقاً لأنفسهم يوصلهم حتى أعلى الجروف المنحدرة والأسيجة، قذف رجال الحامية أوعية مليئة بالفحم المحترق، وبفضل حرارة الصيف أحرقوا بسرعة أكوام المواد التي جمعت بنية إلحاق الأضرار بهم، وخلال يوم الاثنين كله جرى خرق الهدنة من قبل الجانبين، ووقف الملك يراقب وهو قد ازداد قلقاً بشكل كبير، وبينما كان يمور غضباً وأسى، خشية أن تضيع جميع جهوده هناك، وتنتهي إلى لا شيء، ألقى أحدهم بحجرة نحوه من برج مرتفع، إنما أخطأته بإرادة الرب، وأصابت رأس فارس كان واقفاً إلى جانبه، وكانت الضربة من العنف بمكان أنها حطمت عظام الرأس، وأدخلتها في المخ، وعندما سقط الرجل عند قدمي الملك، وقد قتل بشكل بائس ارتفع صراخ كبير، وضحك وصرخات استهزاء صدرت من البرج تقول:«انظروا إن الملك لديه الآن لحم طازج لطعامه، خذه إلى المطبخ، حتى يقدم إليك أثناء الغداء»، وانزعج الملك كثيراً جداً، فدعا أعيانه إليه، وقام بناء على نصيحتهم بالانسحاب إلى لوسي-لى-غراند عند الصباح، فقد توصل المستشارون الحكماء إلى أن أولئك الأبطال الشجعان، كانوا يدافعون عن قلعة لا ترام تقريباً، لأنهم محميين بمناطق قوية جداً، ويمكنهم بسهولة أن يعثروا على طريقة لإلحاق الهزيمة بالمهاجمين، الذين كانوا بلا تغطية،

وبناء عليه قدم أولئك المستشارون المجربون قراراً بدا معقولاً تماماً، قدروا من خلاله مصالح أتباعهم الذين كانوا بلا حماية في هذه المخاطرة الحالية، لذلك كان مفيداً أن ينسحب ذلك الحاكم مع عساكره الشجعان، وهو سليم ومعافى، إلى أن يعثر على وسيلة أخرى لمعاقبة أعدائه، وبهذا أمن بحكمة مصالح رجاله، والتدمير النهائي لأعدائه.

وبناء عليه تحركوا في الصباح الباكر، واستخدموا جميع أنواع الوسائل للعيث فساداً في أراضي الأعداء، فقد اقتلعوا الكروم، وقطعوا الأشجار المثمرة، وحطموا الأسيجة والجدران، وعاملوا تلك المنطقة الخصبة بأكملها بالنار والسيف، ثم عاد الملك منتصراً إلى لى مانس، وأعطى الأذن إلى الأقوام الذين كانوا معه من مختلف الأعراق، ومن مناطق كثيرة بالعودة إلى أوطانهم.

ووقعت هذه الأحداث في تموز ١٠٩٩، في العلامة السابعة، وفي حوالي ذلك الوقت نفسه جرى الاستيلاء من قبل الصليبيين على القدس في الثامن من تموز، بعدما كانت منذ مدة بعيدة تحت سلطة الكفار، وحسبما رويت في الكتاب السالف، فرح البابا أوربان كثيراً، لدى سماعه خبر استرداد ضريح المسيح على أيدي الصليبيين، هذا ومات هذا البابا في ٢٨ تموز(١)[ الأصح ٢٩ تموز]، وقد خلفه البابا باسكال، الذي نصب على العرش في اليوم السادس عشر، بعد وفاة سلفه.

— ١١ —

وكان غيلبرت أسقف ليزوي Lisieux ، قد طلب منه مراراً كثيرة من قبل رهبان دير القديس إيفراول Evroul القيام بمباركة راعيهم، وهذا ما كان غير راغب بعمله، ما لم يعطه راعي الدير وثيقة يعترف بها بالطاعة الرهبانية، واستمر الخلاف فيما بينهم لمدة عشرة

١— يشك بإمكانية وصول خبر سقوط القدس بعد ثلاثة أسابيع إلى أوربا.

أعــوام، وأمل كل منهــم بالنصر، ومــا من طرف منهم رغــب بالتنازل والهزيمة، وأدار سيرلو Serlo الذي انتخب راعيـاً للدير بعــد مينير Mainer وحـاكماً على الرهبـان، الـدير لمدة عـامين دون أن يبــارك، بسبب أنه رفض أن يقـدم الطاعة، الأمـر الذي لم يكن له سابقـة في دير القـديس إيفـراول، ووفق الطريقـة نفسـها أدار روجـر أوف لى ســاب Le-sap الرهبـان وحكمهم لمدة تزيد على السبعة أعــوام، ولكن بما أن الأسقف أصر بعناد على التـدخل، هو لم يحمل قط عصـا الأسقفيـة، ولذلك طلب الرهبـان تدخل السلطة الملكيـة، وساد القـانون، فقد أمـر الملك الأسقف العنيـد، أن يكون راضياً بـالأعراف والعـادات التي تمتع بها أسلافه في نورماندي في أيام أبيه، وأن يقوم بتكريس الراعي من دون أن يطلب أي شيء من دون ســابقــة، وأطاع الأسقـف مكرهاً الأمــر الملكي، وجرى تثبيت العـرف القديم بالنسبـة للدير، واقتاد رالف راعي دير سيـز Seez الراعي المنتخب إلى ليزوي، وتصرف لصالح جماعة الرهبان، فأعلن عن الانتخاب، وكـذلك كتب روبرت الراهب من سيز الذي كان كاتباً متميزاً، وثيقة، قام شماس الأسقف هيرلوين Herluin بقراءتها بصـوت مرتفع حتى يسمعها الجميع، وحـافظ رجال اللاهوت على الصمت أثناء قراءتها، ونصها هو ما يلي:

«يقدم المسيح دوماً أســاقفة مع نواب أساقفة رعيـة الكنيسة، ويحتفظ رعاتهم بكل من الرعيـة بشكل دائم جيلاً بعـد جيل، وهو نفسه بحكم أنه هو سلطة الرب وحكمتــه يحتفظ بالخلافـة الأسقفيـة بالـديمـومـة نفسهـا، لأنه بما أن الأسقف يحال بالموت بينه وبين البقـاء إلى الأبد، هو ينضاف إلى تعـدادهم، ونحن لا نشك في أنهم يتلقـون المباركة الـروحية من الرب، عندمـا يجري تكريسهم على أيدي الأساقفـة، ومثل هذا نحن نؤمن بثبات أن انتخـابهم يتم عمله بوساطة الـروح القدس الذي يتكلم من خـلال فم رعيتـه، وبناء عليـه، قمنـا نحن جميع أفـراد دير القـديس

إيفرول باتباع مثل وأعراف الرسل، بعـد موت أبينا مينير Mainer ، وترقيـة أبينا دوم سيرلو إلى مقام الأسقفيـة، وبإلهام من الرحمة الربانيـة، قمنا بانتخـاب دوم روجـر، الذي هو راهب مـن ديرنا، راعيـاً لنا، وهو معروف بشكل جيد برعايته للحياة الديرية، وللرهبانية، وهو متحد معنا بالعقيدة نفسها، وبهذا كنا مؤيدين بحضور رجال متميزين وبموافقتهم، ونعني بذلـك الأسقف سيرلو نفســه، وأنسلم راعي دير بـك، ورالف أوف سيز، وأرنولف أوف تروارن Arnulf of troarn ، وآخرين، وذلك مع هؤلاء، نحن قدرنا السمات الشخصيـة للرجل بقدر ما يمكن أن نحكم، وذلك وفقـاً للمبـادىء الرسـوليـة، فنحن نؤمن بأنه محافظ، وعالم بالكتابات المقدسـة، عفيف، ووقور، ومتواضع، ولطيف، ورحيم، ومليء بالأعمال الصالحة، ومحبي بصفات أخـرى، لائقة بالرعاية، وهكذا نحن نعرض هذا الانتخـاب على الرب نفسه من أجل المباركة، ونقـدمه إلى أسقفتا غيلبرت أوف ليـزوي، طالبين التكريس الأسقفي، والمبـاركة القانونية، وفقاً لعرف الكنيسة».

وبعدمـا قرأت هذه المذكرة كما ينبغي، تم قبـولها عن طواعية من قبل كل من الأسقـف والكهنة، ومن ثم جـرى تكريس روجــر راعيــاً في ٢٩—آب، واستقبل في اليـوم التـالي بالاحتفــالات من قبل رهبـان دير القديس إيفرول.

وفي اليـوم نفســه، عندما كـان الرهبـان يتحـادثون في الدير، وكـانوا يبحثـون بعمق ويقوّمـون أموراً مختلفـة على التوالي، وصلوا- كما أعتقـد بإلهام من الرب- إلى قضيـة تكريس كنيسة القـديس إيفرول، فأصبحـوا جميعاً فصحاء في التعبير عن تشوقهم لإتمام هذا.

وأخيراً، ولسرور الأصـدقـاء الذين قـدمـوا تشجيعهم، جـرى اتخاذ القـرار، وبعـون الرب جـرى تكريـس كنيسـة دير القـديس إيفـرول في ١٣— تشرين الثـاني، وتولى ثلاثة أسـاقفـة عمليـة التكريس، فقـد قـام

غيلبرت أوف ليزوي بتكريس المذبح العالي، تشريفاً لمريم، الأم المقدسة للرب، وللقديس بطرس رئيس الرسل، وللقديس إيفرول المعترف، وكرس سيرول المذبح على شرف جميع الشهداء، وفي اليوم التالي بارك سيرلو تمثال المصلوب ومذبحه تشريفاً للمخلص المبارك، والقديس جايلز Giles المعترف، وبارك غيلبرت أوف إيفروي مذبح قداس الغد على شرف جميع القديسين، وأخيراً كرس السيد أسقف إيفروي في يوم ١٥—تشرين الثاني مذبحاً في جناح الكنيسة الجنوبي على شرف جميع المعترفين، وبعد اكتمال الاحتفال بالقداس دخل بيت الرهبان، وشجع الرهبان على خدمة الرب، بطريقته التشجيعية التقوية، وعلى الصلوات المقدسة والمباركات، وفي نهاية العام نفسه[١٠٩٩]، وفي الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول، كرس سيرلو أوف سيز المذبح الموجود في الجناح الشمالي على شرف جميع العذراوات.

وبهذه الطريقة جرى تكريس سبعة مذابح بصورة مبجلة من قبل ثلاثة أساقفة، في الأيام المحددة، وعينت من أجل الثناء على الرب وحمده وفقاً لعرف الكنيسة، في تمجيد رهبانيات القديسين، الفرحين دوماً، والجالسين أمام ذلك الواحد الأكثر تقديساً في ملكوت السموات.

وكان كثير من أعيان النورمان حضوراً أثناء ذلك التكريس، وقدم المؤمنون من كل من رجال اللاهوت والعلمانيون تقديماتهم في الثناء على الرب وحمده، وكان وليم راعي دير بك، ورالف أوف سيز، وأرنولف أوف تروارن، وجيوفري أوف كاوتنسي، ورتشارد أوف أنغرفيل، ووليم أوف غلانفيل، وإيتارد Etard ، ووليم أوف إيفروي، وهيوج بن سافرد Safred ، ووليم أوف إيرين Eraines ، ورؤساء شماسة، وعمداء، وأعيان آخرون من رجال اللاهوت، كانوا هناك، ومع الأساقفة تولوا القيام بواجباتهم في إقامة الاحتفال بالقداسات.

وفي تلك المناسبة أعطى وليم أوف بريتويل Breteuil كنيسة

القديس إيفرول عشرة باوندات سنوياً من إيجاراته في غلوس Glos ، وأعطى روبرت أوف غراند ميسنيل Grandmesnil كنيسة القديس سمسون في مونتشوفت Montechauvet الأكثر، وأرض فدان واحد، ومنح إلى الرب عشر سوق وطاحون وحرش في مونتشوفت، وأعطى غيلبرت أوف ليغل Laigle أيضاً إلى القديس إيفرول نصف قرية ليغل، وبهذه الطريقة ينبغي أن يستحوذها الفارس رتشارد منذ ذلك الوقت فصاعداً عن الرهبان مثلما كانت مستحوذاً عليها من قبل غيلبرت نفسه، فقد كان بأيديهم النصف الآخر منذ بعض الوقت بمثابة هدية تملك من أبيه ريشر Richer ، ومنح رالف أوف كونشي Conches إلى القديس إيفرول كالديكوت Caldecote وألتون Alton في انكلترا، وثلاثة أربنات arpents (يساوي أربنت ٦٣ ياردة وربع) من الكروم في توسني Tosny وكل ما يمتلكه في غورنانفيل Guer-nanville وستة Hotes في ثلاثة من قراه، وقام أيضاً عن طواعية بالموافقة على كل الذي أعطاه رجاله وأكده.

## — ١٢ —

وكانت —في ذلك الوقت —حركات كبيرة في الغرب، وجرى التعبير بصورة علنية عن إلحاق العار والشنار بالذين هجروا الحملة الصليبية، لأن البابا أوربان رسم بفضل سلطته العالية، وطلب بسلطته الرسولية إنزال عقوبات قاسية في جميع أرجاء الكنيسة اللاتينية تقضي بالحكم على كل من حمل صليب المسيح وأخفق في تصميمه في إكمال الحملة الصليبية إلى القدس، ينبغي عليه إما أن ينطلق ثانية، أو أن يرمى بالكفر ومن ثم أن يعاني من عقوبة الطرد من الكنيسة، وهكذا قام ستيفن كونت أوف بليوس Blois الذي كان مريضاً بالقلب ويعاني من كثير من المحن، قام أخيراً بعمل استعداداته لتجديد حجه، وألهم ألفاً من المتشوقين كثيراً للقيام بالمخاطرة نفسها، وكانوا قد سمعوا بروايات جيدة عن أبطال

المسيح المجيـدين، الذين قـاتلوا ضـد الكفـار، وهـم متسلحين بالإيمان في الثـالوث المقدس، وربحـوا من خلال قـوة مخلصهم المبارك نصراً مجيـداً، وحصلوا على الثناء الذي سوف يستمر إلى الأبد.

والآن إنني بعـون الروح القـدس أقترح العـودة إلى حجنا، وأن أحكي باختصـار عن حظوظ أو مـوت الذين بقيـوا في اليهـودية أو سورية، بعـد الانتصار، وقيـام الآخرين الذين نالوا المشقـة في ركوبهم الطريق عائدين إلى أوطانهم.

ففي عـام ١٠٩٩ لتجسيـد ربنا، وفي شهـر آب تسلم غـودفـري ابن الكونـت يوستبـاس أوف بولـون وآيدا Ida ، تسلم مملكة داود في القدس، وحكم لمدة ثلاثة أعوام(١)، وحارب في الشهر نفسه، مع تأييد من أتباعه الفرسان، ضـد الأمير، وبعون من الرب نال نصراً مجيداً قرب عسقلان، وفي الخريف بعدما اندحر الكفـار أمام قوى حشد الرب، قرر بعض السـادة العـودة مع أتبـاعهـم من الفـرسـان، وقـالوا: وداعـاً إلى أصـدقائهم ورفـاقهم، وأخـذوا الطريق عـائدين إلى الـوطن، وقد عـاد روبرت دوق نورمـاندي، وروبرت مـركيـز فلاندرز، وريمـوند كـونت طولوز، الذين تركت شجـاعتهم علاماتهم على الأتـراك، وأثناء سفرهم عائدين قابلوا على طريقهم حشوداً من الحجاج، الذين لم يكونوا قادرين على مـرافقتهم في الحملة الأولى، لكن عندما توفـرت الفرصـة، قدمـوا، وذلك عندمـا بات بإمكانهم الوفـاء بنذرهم بالذهاب إلى ضريح الرب، فلقـد تحملوا مصاعـب هائلة على الطريق وقـد وصلوا إلى حافـة الموت تقريباً، بسبب أن أسلافهم الذين أفرغوا المناطق ما بين أنطاكية والقدس من سكانها في الأعـوام الماضية، خلفـوا وراءهم خطاً من العوز بالنسبـة للحجاج القادمين من بعـدهم، فبما أن سكان المناطق قد قتلوا أو طردوا وهجـروا بعيـداً، بقيت الحقـول من دون زراعـة فلـم تنتج شيئاً يمكن

١ــ امتد حكم غودفري أقل من عام، من آب ١٠٩٩ حتى تموز ١١٠٠ .

أكله، وكـذلك علم الناس الذين كانوا عـائدين من الذين قـابلوهم بأن الدوق بوهيمـوند كـان يحاصر اللاذقيـة، وأن رجـال الامبراطور الذين كانوا في داخلها يقاومونه بكل ما أوتوا من قوة.

وكـان هناك حـوالي العشرين ألفاً مـن الحجاج مسـافـرين من انكلترا ومن الجزر الأخـرى في المحيط، ومتجهين إلى ضريح الرب، وكـانوا قـد نزلوا هنـاك، في الوقت الذي كـان فيـه الكفـار يحاصرون أنطاكيـة، ويضيقـون على الصليبيين في المدينة، ورحب سكـان اللاذقيـة بالصليبيين القـادمين مـن الجزر، ونظروا إليهم على أنهم حماة ضـد الأتـراك، وكـان بينهم الأكثـر تمييـزاً هو إدغـار أثيلنغ Edgar Atheling ، الذي حـاول الانكليز عبثـاً رفعـه إلى العرش بعـد وفـاة هارولد Harold ، وقـام على الفـور بوضع المدينة تحت حمايتـه، وحـافظ بالوقت نفسـه على ولائه وإخلاصـه إلى الدوق روبرت، وقد سلمها إليـه بعد الانتصار على الكفار، وقد كان بهياً في مظهره، وفصيحاً، وكريماً، ومن أصل نبيل، لأنه كـان ابن الملك ادوارد ملك المجر، لكنه كـان كسـولاً أيضاً، وقـد أحب الدوق، لأنهما كانا من السن نفسه، وفي الحقيقة كانا أخوين بالرضاعة.

وهكذا صـار روبرت دوقـاً لمدينة اللاذقيـة في سـورية، ومكث هناك لبعض الوقت مع نورمـانديين، وانكليـز، وبريتـانيين، وقـد ترك رجـال حـاميتـه لشحن الدفـاعـات بـالرجـال، في حين رافق هو حجـاجـه إلى ضريـح ربنا يســوع المسيح.ووصل في الوقت نفسـه بحــراً رافنديـنوس Ravendions القـائـد الأعلى لدى الامبراطـور ألكسيـوس ومعـه ضبـاط آخـرين، وحـاصر المدينة بوسـاطة جيش ضخم، ومـال سكان المدينة نحو ابن بلادهم، فطردوا الشماليين، وأقـاموا حكاماً امبراطوريين جـرى اختيـارهم من الإغـريق والسريان، ومـا أن علم بهذا حتى اندفع مسرعاً مع جيشه إلى المكان، وأخضع المدينـة إلى حصار طويل، وهاجمها بشـدة في مناسبات كثيرة، وعنـدما سمع سكان اللاذقيـة والإغـريق بأن

الصليبيين كانوا على طريقهم عـائدين، خافوا من إمكانية تـوحيد قواهم مع الجيش، مما سـوف يجعله لا يقهـر، أرسلوا بدهاء ومكـر رسـلاً مع هدايا حتى يربحوهم إلى جـانبهم، وحثوهم على الإسراع في ظل الأمان للدفاع عن المدينة، وقد فـرحوا كثيراً بهؤلاء الرسل، ولدى وصولهم إلى المدينة جرى الترحيب بهم من السكان بمثابة أصدقاء، وبعد ذلك عندما باتت هذه الأحـداث معروفـة، وصار كل شيء هادئـاً من على الجانبين، بعث الدوق روبرت ورفاقه نصيحـة إلى بوهيموند حتى يتراجع بسلام، أو أن يستعد للحرب على الفور، وعندمـا استلم بوهيموند هذه الرسالة جمع رجـاله، وسألهم ما الذي ينبغي عمله في وجـه مثل هذه المعارضـة، فحثـه الجميع على الانسحـاب، وأن يكون قـانعـاً بممتلكاته، بدلاً من محاربة الناس الآخرين من دون عدل، لأن هذا يقود فقط إلى حربه ضد إخوانه ونظرائه الشجعان، وبذلك يثير غضب الرب ضد نفسه، ويجلب العـار على الصليبيين، ويجعلهم أضحـوكة لدى الكفـار، وتلطيخ شهـرة شجاعته الكبيرة بسفك الدماء الصليبيـة، ووجد الدوق العقلاني العدالة في المناقشات وتلمسهـا، وبحكمة قبل النصيحـة التي صدرت عن أناس عقـلاء، ذلك أنه وجـدها نصيحـة سليمة، وقـام صـدوراً عن احترامـه لرفاقه، لكن ليس من دون أسف، بسحب جيشه.

وحرك التهديد الإغـريق والسريان للتباحث حول حاجـاتهم، فدعوا بعد مضي عدة أيام رجالنا إلى اجتماع خاص، وقد تحدثوا إليهم كما يلي:« أيها السادة الـلامعين، الذين إخلاصهم وشجـاعتهم معروفـان في العالم أجمع، أصغـوا إلى الذي سـوف نقـوله لكـم عن حسن نيـة وإخـلاص، فنحن نعرف أنكم في سبيـل الحملة الصليبية، قد تركتم ممـالككم الغنية، وبما أنكم وفيتم الآن بنذوركم بصلاح، إنكم الآن تتشوقون

نصيحتنا حول كيف يمكنكم تحقيق رغباتكم، وبلا شك إنكم سوف بنعمة الرب تجدونها صحيحة ومفيدة، سلمونا المدن والقلاع التي تمتلكونها في سورية وبلاد الروم، لنحتفظ بها لصالح الامبراطور، ونحن من جانبنا سوف نعد لكم أسطولاً ونجهزه من أحسن السفن، ولسوف نرافقكم مع جميع من يختار أتباعكم حتى الامبراطور في القسطنطينية، وذلك دون أن نأخذ منكم أي إيجار، وسوف نزودكم بكمية وافرة من الخبز والخمرة ومن كل شيء سوف تحتاجونه على الطريق، ونحن ننفذ إرادة الامبراطور حول هذه القضايا، وإن شاغلنا الأول هو إرضاءه بمثل هذه الخدمة، فهو عظيم الرغبة في أن يجد الفرنجة من حوله، لأنه معجب ومحب لإخلاصهم ولشجاعتهم الثابتة، خذوا نصيحتنا وضعوا أنفسكم واثقين بين يديه، وإنكم سوف تجدون هذه النصيحة لصالحكم».

وقام الفرنجة من جانبهم بالتشاور معاً، وتناقشوا بحكمة حول كثير من الأشياء، حيث تكلم كل واحد منهم بالذي في ذهنه، واجتمع القادة على انفراد مع أتباعهم، وتحدث كل واحد منهم مع الآخر وفق هذه الطريقة:«انظروا نحن بعيدون عن أوطاننا، في بلاد أجنبية، ونحن متشوقون، فوق كل شيء إلى العودة إلى ديارنا، غير أننا نواجه المصاعب من على جانبين، لأننا لانستطيع البقاء هنا مع التشريف اللائق بمكانتنا، ولا العودة إلى فرنسا من دون متاعب كبيرة وخوف عظيم، فقد استولى بوهيموند على أنطاكية وعلى المناطق المحيطة بها، وبيديه السلطة في كل مكان، ولن يقبل بمن يساويه في هذه المناطق، وليس لدينا سفن لنبحر بها إلى الوطن، وأمامنا فقط الطريق البري من خلال أراضي الامبراطور، وإنه على كل حال سوف يكون خطر علينا الارتحال بأراضيه من دون رضاه، ولا السفر عبر ممرات غير معروفة خلال وسط قبائل متوحشة، فهذا بالفعل أمر مرعب، فلقد عانينا من عوز كبير، ومصابون بالخوف ومن كل نوع من الشدائد، فنحن منهكون من خلال العمل الذي قمنا به، وكما قلنا مراراً وكررنا نحن نرغب فوق كل شيء

بالعودة إلى الوطن، الأمر الذي لا يمكننا فعله بوساطة البحر أو عبر البر من دون مساعدة الامبراطور، فماذا على هذا يمكننا أن نفعل؟ فنحن ليست لدينا رغبة بالمكوث متأخرين هنا: مرضى ومنفيين منهكين، فنحن نواجه النقص والعوز في جميع الأشياء، دعونا نقبل بوعود الإغريق مع أنهم مخادعين، لنقبل بما أنهم أيضاً مسيحيين، ولنأخذ ونحن شاكرين ماعرضوه علينا بسلام، لأننا من الممكن أن نستجديهم ونتوسل إليهم للحصول على كل شيء.

وفي النهاية سلم الفرنجة أنفسهم إلى الرب، الذي يتحكم بكل شيء، وباستعداد قبلوا جميع ما عرضه السكان المحليون، وكان هؤلاء السكان بدورهم مسرورين، ونفذوا بإخلاص كل الذي وعدوا به.

ولدى وصول الفرنجة استقبلهم الامبراطور بتشريف، ووافق على الشروط التي عرضت من قبل الإغريق وقبلت من قبل الفرنجة، وأكدهم بموجب سلطاته الامبراطورية، وقدم تشريفات كبيرة إلى جميع الذين اختاروا البقاء معه، ومنح أعطيات كريمة للذين عادوا إلى الغرب، وقد بقي ريموند كونت طولوز في حاشيته بقية حياته(١)، حيث عد واحداً من أقرب أصدقائه ومستشاريه، وكان لدى الامبراطور عاطفة خاصة نحوه، وقد أصغى إليه من دون تردد، لأنه عرف أنه من أجل يمين الولاء الذي أداه، بقي ثابتاً في خصومته لبوهيموند في أنطاكية، وكانت زوجته، التي كانت ابنة ألفونسو ملك غاليشيا، قد قامت برحلة الحج الطويلة معه، وأنجبت منه في القسطنطينية ولداً اسمه ألفونسو(٢)، وهو الذي حصل على ميراث أبيه بعد موت أخيه بيرتراند، كونت طولوز(٣)، وقد حكم القوط في بروفانس، وهو ما

١—كذا، وغادر ريموند القسطنطينية في عام ١١٠١، حيث سعى للاستيلاء على طرابلس، وقد مات في عام ١١٠٥ .

٢— ولد ابنه ألفونسو جوردان في قلعة ريموند التي أقامها على تلة الحجاج قرب طرابلس.

٣— قدم بيرتراند بن ريموند من طولوز إلى طرابلس عام ١١٠٩، ومات هناك في عام ١١١٢ .

يزال حاكماً هناك حتى الآن، واحتفظ الكونت ريموند بسنان الحربة المقدسة التي عثر عليها بطرس إبراهيم في أنطاكية، وحفظه في بيزنطة لمدة طويلة، وكافأ الامبراطور أيضاً الفرسان الآخرين الذين اختاروا البقاء بين الإغريق، بأعطيات كثيرة، وأغناهم برواتب سخية.

ومنح هدايا سخية كثيرة إلى روبرت أوف نورماندي، وإلى روبرت أوف فلاندرز، وأتباعهم من الفرسان الذين كانوا متشوقين إلى العودة إلى الوطن، وسمح لهم بالعبور الحر خلال أراضيه، مع حق شراء الإمدادات، وفي الحقيقة هو أبقى على مقربة منه شخصياً جميع الرجال الذين غادروا بلاد الشرق، أو بعث بهم مسرعين إلى إيطاليا، لأنه كان يعمل بلا كلل في سبيل إضعاف القوى في سورية، أي القوى المعادية له، أو يتولى إعاقة الذين من الممكن أن يحملوا مساعدات سريعة إلى خصومه.

وعندما علم بوهيموند الرهيب بأخبار الحوادث التي وصفناها، وعرف أن قادة الامبراطور وجميع الفرنجة مع قواتهم، قد ركبوا سفينة، وأبحروا بعيداً، حشد بسرعة جيشاً كبيراً من النورمانديين، والأرمن، والألمان، ومن شعوب أخرى، وحاصر اللاذقية، واقتحمها بشجاعة، وبعدما استولى عليها، أبقاها بين يديه لمدة اثني عشر عاماً، ثم حولها إلى خلفائه حتى اليوم الحالي، واستولى منتصراً أيضاً على طرسوس، والمصيصة، والبارة والمعرة، وعلى الحصون الأخرى التي تحيط بأنطاكية، وذلك في سبيل مجد الرب، وحماية الصليبيين، وقد عامل باحترام الإغريق، والأرمن، والسريان الذين اتبعوا النظام الرهباني في الديرة، وفقاً لطقوسهم، وبإخلاص ثبت لهم ملكية مقتنياتهم السالفة، وبالإضافة إلى ذلك عين هذا الأمير الشجاع إلى الرهبان اللاتين أو الكهنة بعض الأديرة، التي كان الأتراك المتوحشون قد نهبوها وأفرغوها من رهبانها، وأعطاهم بوهيموند بكرم مع ممتلكات واسعة، حتى يكون لديهم كل شيء ضروري لعبادة الرب، ومن أجل أن يؤدوا عباداتهم إلى الملك السماوي، تبعاً للطقوس اللاتينية.

وفي عـام ١١٠٠ لتجسيد الرب، انطلق كـونتـا نورماندي وفـلاندرز نحـو الوطن مع رجـالهم، بعـدمـا أعطـاهم الامبراطور كثيراً من الهدايا الثمينة، وذلك كما حكينـا من قبل، وجـرى الترحيب بهما بحـرارة في إيطاليا من قبل النورمان، الذين امتلكوا ثورات كبيرة هناك، وفرح كثيراً لعـودتهما سالمين، روجـر الشيخ، كـونت صقليـة، وحفيده روجـر دوق أبوليـا، وغيوفـري أوف كونفيرسـانو Conversano ، حفيد الدوق روبرت غـويسكارد مع أتبـاعهم من سكان المنـاطق وأقـربائهم، وبذلوا أفضل ما أمكنهم للاحتفـاء بالأبطال المرهقين، الذين عانوا من كثير من المشاق من أجل المسيح.

وعندمـا كـان روبرت دوق نورمـاندي هناك، وقع في حب السيـدة النبيلة سيبل ابنة غيـوفـري أوف كونفيرسـانو، وتزوجهـا، وحملها معـه عائـداً إلى نورماندي، وقـد كانت بالفعل صـاحبة أخـلاق جيدة، تتمتع بكثير من الفضائل، وحظيت بحب كل من عرفها، وفي العام الثالث من زواجهما أنجبت ولداً في روان، وتولى وليم رئيس أسـاقفـة المدينة الذي عمد الطفل فمنحـه اسمه، ولم ينس الدوق روبرت أبداً، أنه عندمـا كان في الخارج قد تسلم عشرة آلاف مارك فضي من أخيـه، ورهن نورماندي لديه لمدة خمسة أعوام، ونتيجـة لذلك حصل من والد زوجته(الذي كان صـاحب برنديزي، المدينة التي حـاصر غايوس قيصر فيها بومبي الكبير، حسبما روى لوكان)ومن أصـدقائـه الآخرين كمية مـن الذهب والفضة والأشيـــاء الثمينة، ومع هدايـاهم اشترى مبلغـاً كبيراً مـن المال، نوى بعقلانية أن يسلمه إلى مدينه، من أجل أن يسترد دوقيته بسلام.

**—١٣—**

وبسرعة كبيرة انتشرت في جميـع أرجاء الغرب أخبـار الأعمال الخالدة التي أنجـزها بنصر في الشرق الأمـــراء الصليبيين والشعب الصليبي من أجل تشريف المسيح، وتمتع بالسرور أبناء الكنيسة الغـربية لدى سماعهم

عن الاستيلاء الباهر على القدس، وإلحاق الهزيمة ببابليون، والتهب وليم كونت بواتو حماساً وتشوقاً للقيام بحملة صليبية، عندما سمع عن الانتصارات المجيدة، وسار وراء رايته ثلاثمائة ألف من أكوتين، وغاسكوني ومناطق الغرب الأخرى، وعزم على رهن دوقية أكوتين مع جميع أراضيه عند وليم روفوس، ملك انكلترا، ليتسلم بالمقابل مبلغاً كبيراً من المال من خزانة أمواله، وبذلك يكون بإمكانه إيصال مغامرته التي تشوق إليها إلى مبادرة التنفيذ، وبناء عليه أرسل رسلاً متفرقين إلى الملك، ومن خلالهم جعله يعلم ما كان في ذهنه، وأصغى الحاكم المتمكن، الذي كان دوماً متعطشاً من دون شبع، مثله مثل رجل مصاب بالاستسقاء، ولذلك كان كلما حصل على المزيد رغب بمزيد أعظم، أصغى بجشع أكبر إلى مقترحات الرسل، وأراد اقتناص الفرصة في أن يضيف ممتلكات الدوق الشاسعة الواسعة إلى دوقية أبيه ومملكته، التي هو مالك لها، ولذلك أمر بإعداد أسطول كبير، وبأن ترافقه قوة كبيرة من الفرسان من انكلترا، وهكذا عبر البحر مسلحاً، ليكون مثل أسد مستعد للوثوب على فريسته، فعبر القنال حتى يمنع أخاه من دخول نورماندي، واشترى دوقية أكوتين بمبلغ كبير من الفضة، وقهر كل من قاومه، ومدّ حدود امبراطوريته حتى نهر غارون Garonne ، فهذه كانت خطط ذلك الشاب المتكبر في ذهنه، وقد تطلع إلى تنفيذها برعونته وجبروته، لكن الخالق القدير، الذي يحكم كل شيء، قدر شيئاً آخر.

فقبيل موعد أيام الابتهال[قبل ثلاثة أيام من عيد الصعود، من ٧ إلى ٩—أيار ١١٠٠] وقعت حادثة مأساوية في الغابة الجديدة، عندما كان فرسان الملك خارجين للصيد، وكانوا يسددون رمايات نشابهم نحو ظباء ووعول، ورمى واحد من الفرسان نشابة نحو حيوان بري، فأصاب صدفة الشاب النبيل رتشارد، ابن الدوق روبرت، فسقط في مكانه ميتاً، وسببت المأساة حزناً واسعاً، وأصيب الفارس بالرعب نتيجة

للحادث، فهـرب على الفور إلى دير القـديس بانكراس Pancras في لويس، وعندما أصبح راهباً هناك، نجا بعد مضي وقت قصير من عقوبة مزدوجة، فبتخليه عن العالم كفـر بالتوبة عن جريمة القتل، وتجنب أيضاً الانتقام الشديد مـن أقرباء الفارس الشاب وأصدقـائه، وتنبأ كثيرون له بنهـاية عـالية، لكن النـاس غالبـاً مـا ضللوا وضللوا الآخـرين، وذلك عندمـا يقـدر رب الحشـود أمـراً آخـر، لأن تفكير الناس الذي حجب بظلام الجهل، هو من دون تأثير.

ويمكنني قول القليل حـول أصل ذلك الفارس الشـاب، فعندما ثار الدوق روبرت بحماقـة ضد أبيه في أيام شبـابه، وعندما صـار في المنفى، كان يقود عصابة من اللصوص، وقد أزعج نورماندي بغاراته، وبآثامه، وقتهـا وقع بحب خليلة حسناء لكـاهن عجـوز قـرب حـدود فـرنسـا، وأنجب منهـا ولـدين هما: رتشـارد، ووليم، وقـد ربت الطفلين بعناية لوقت طويل، وعندمـا كبرا قدمـت إلى دوق نورماندي ولديه، وذكـرته بكثير من البراهين عن عـلاقتهما الوشيجة أثنـاء شبابه، وقـد رأى بعض الصـدق في هذا، لكنه تـردد بالاعتراف بالولديـن على أنهما له، وحملت الأم بشكل معلن قطعة حديد محماة حمراء، فنجت دون أن تصاب بأدنى أذى، وبذلـك برهنـت على أنها حملت مـن ابن الملـك، وكـــان هـذين الأخوين شجاعين وجديرين بالحب، لكنهما ما لبثا أن ذبلا مثل الوردة، وقد هلك واحد منهما في حادث صيد، كما وصفـت، أما الآخر، فبعدما أسر هنري روبرت في تنشيبري Tinchebray ، ذهب إلى القـــدس، وواجه هناك منيته، وكان متميزاً بقدراته العسكرية.

والآن دعني أيها القارىء أوضح لم سميت الغابة التي هلك فيها هذا الشـاب باسم«الغـابة الجديدة»، فقـد كـان ذلك الجزء من البـلاد مكتظاً بالسكان في الأيام الخوالي، وكان مليئاً بـالمزارع التي كانت تزود السكان بالمؤن، وفي الحقيقـة تولى السكان الكثيفـون فـلاحـة أراضي كـونتيـة

هامبشاير بعناية، وبناء عليه زودت تلك المنطقة الجنوبية مدينة وينشستر بجميع أنواع المنتجات الزراعية، ولكن بعد استيلاء وليم الأول القاهر على مملكة انكلترا، كانت محبته كبيرة جداً للغابات، حتى أنه دمر أكثر من ستين أبرشية، وأرغم الفلاحين على الانتقال إلى أماكن أخرى، وأحل محل الناس وحوش الغابة، وذلك حتى يتمكن من التمتع بالصيد حتى يقنع فؤاده، وفقد هناك اثنين من أولاده هما: رتشارد ووليم روفوس، وحفيده رتشارد كما وصفت، وظهرت رؤى كثيرة مرعبة الأشكال إلى مختلف الناس، أظهر فيها الرب بوضوح غضبه، بسبب أن أبنية مكرسة قد هدمت لتكون مساكن لوحوش البرية.

—١٥—

وفي شهر تموز، عندما كان الأسطول قد أعد مع كل زينة الأبهة الملكية، وكان الملك يجمع بتوتر شديد كميات ضخمة من الأموال من كل مصدر، وكان ينتظر قرب المضيق، ظهرت رؤيا مخيفة تتعلق به، وقد شوهدت من قبل كل من الرهبان وكهنة الأسقفيات، وقد انتشر خبر ذلك في الخارج وأخذ الناس يتحدثون علانية في الأسواق، وفي المقابر، ولم يحجب ذلك عن الملك نفسه.

فقد كان هناك في دير القديس بطرس في غلوستر راهب صاحب سمعة جيدة، وحياة صالحة مستقيمة، وقد تحدث بأنه شاهد المنام التالي على شكل رؤيا في الليل، حيث قال:« رأيت الرب يسوع جالساً على عرش في العالي، محاطاً بجيش رائع من السماء وبمجموعة من القديسين، وعندما حدقت من دون كلام، رفعت نفسي وأنا في حالة الوجد، وثبت— وأنا في حالة اندهاش كبيرة— تفكيري على هذه العجائب، وألقت العذراء المشعة نفسها على قدمي الرب يسوع، والتمست منه وناشدته بهذه الأدعية:«أيها المولى يسوع المسيح، مخلص الجنس البشري، الذي من أجله علقت على الصليب، وصببت دمك الثمين، انظر برحمة نحو شعبك التعيس، الذي

يئن تحت نير وليم، انتقم للجرائم، أيها القاضي الأكثر عدلاً من جميع الناس، إنني أناشدك انتقم من وليم من أجل خاطري، أنقذني من بين يديه، لأنه فعل كل ما كان بمقدوره أن يفعل من أجل تدنيسي وظلمي بوحشية»، وأجابها الرب على هذا قائلاً:«تألمي بصبر، وانتظري لبعض الوقت، لأنه قبل مضي وقت طويل سوف يجري الانتقام منه بشكل كامل»، وعندما سمعت هذه الكلمات ارتجفت، وكنت متأكداً بأنه في تلك اللحظة هناك غضب رباني يهدد ملكنا، لأنني أعرف أن بكاء العذراء المقدسة والأم، أي الكنيسة قد وصل إلى مسامع الرب، وكان بكاء من أجل أعمال النهب، وممارسات الزنا المهينة، وثقل الأفاعيل الشريرة التي لايمكن التغاضي عنها، التي اقترفها الملك وأتباعه يومياً، مع الخروقات التي لا تغتفر للشريعة الربانية».

وعندما سمع الراعي المحترم سيرلو بهذا، كتب رسائل تحذير، أرسلها إلى الملك من غلوستر، وذلك صدوراً عن مشاعر الصداقة، وقدم له رواية واضحة عما علمه الراهب في الرؤيا، وفي الأول من آب جرى الاحتفال بشكل مهيب بعيد القديس بطرس في الأغلال، في دير غلوستر، وكان قد اجتمع هناك حشد كبير من المصلين من كل رجال الدين والعلمانيين، وفي تلك المناسبة، جرى اختيار فولتشرد، الراهب الغيور من سيز، والراعي الأول لدير شروزبري Shrewsbury الذي كان شارحاً بليغاً للكتابات المقدسة، جرى اختياره من بين أعيان الرهبان المجتمعين للصعود على المنبر، والوعظ بقداس إلى الناس حول القوة المخلصة والواقية للرب، وفي القداس أدان بشكل مكشوف أعمال الخرق للشريعة الربانية، وبما أن موعظته امتلأت بروح التنبؤ، أعلن بجرأة فيما أعلنه من تكهنات منذرة قوله:

«أعطيت انكلترا بمثابة ميراث للدمار المهلك، لأن البلاد مليئة بالظلم، وها هنا جسد كامل مصاب ببقع جذام النذالة في أشكالها

الكثيرة، لأن طغياناً غير ملجوم انتشر في كل مكان في الخارج، وداس تحت الأقدام كل شيء، حتى ليمكن القول، وصل حتى النجوم في السماء، ولوثت دعارة غير مضبوطة الأوعية الأرضية، لا بل حتى الذهبية منها، وجشع بلا حدود إلتهم كل شيء وصل إلى متناوله، وانتبهوا، هناك ثورة جديدة اقترب وقوعها، حيث لن يستطيع المخنث أن يحكم مدة أطول، والرب الإله سوف يأتي ليحكم أعداء الناس حول قرينته، هو سوف يضرب مُآب وأدوم بسيف الانتقام المرئي، ولسوف يطيح بجبال جلبوع بتدمير مريع، وغضب الرب لن يوفر بعد الآن المذنبين، فلقد ثار انتقام السموات غضباً ضد أبناء الضلال، انتبهوا إن قوس الغضب الرباني قد فوّق ضد الأشرار، وبسرعة سوف ينتزع السهم الجارح من الجعبة، ولسوف يضرب بسرعة، وعلى كل إنسان عاقل تجنب الضربة بتقويم حياته».

وكانت هذه هي الكلمات ومزيد أكثر من أجل الغاية نفسها، ألقيت موعظة على الناس يوم الأربعاء(١—آب ١١٠٠) في بيت الرب، وعلى الفور بدأ العذاب يحدث تأثيره، كما سوف تظهر الأحداث.

ففي الصباح التالي جلس الملك وليم إلى مائدة الطعام مع المقربين منه، وأخذ يستعد للذهاب للصيد في الغابة الجديدة بعد الغداء، وعندما كان يضحك ويمزح مع أتباعه، ويشد حذاءه، وصل حداد وناوله ست نشابات، وأخذهن بتشوق وأثنى على الصانع لعمله، وكان جاهلاً بما هو مخبأ له، فقد احتفظ بأربع لنفسه، وناول نشابتين إلى وولترتيرل Tir-el، وقال الملك وقتها:«إنه عمل صحيح إعطاء أحدّ النشابات وأمضاهن إلى الرجل الذي يعرف كيف يرمي الرمية المميتة»، وكان تيرل فارساً نبيلاً من فرنسا، وكان الصاحب الغني لقلعتي بوي Poix وبونتوي Pontoise ، كما كان واحداً من أكثر الأعيان قوة، ورجلاً بارعاً كثيراً في استخدام السلاح، ونتيجة لذلك كان واحداً من أقرب أصدقاء

الملك إليـه، وكـان مـرافقـه الدائم في كـل مكان، وبعـد وعندمـا كـانوا يبحثـون في بعض القضايا العـادلة، وخـدام الملك مجتمعون من حـوله، وصل واحد من رهبان غلوكستر، وناول الملك رسائل راعي الدير إليه، ولدى سماع الملـك لهم قـــال متعجبـــاً وهـو فـــرح يضحك إلى الفـارس: «وولتر اعمل مـا هو صحيح بالنسبة للقضيـة التي سمعتهـا» فأجابه: «نعم هكذا سوف أفعل يا مولاي»، وعلى هذه الصورة استخف بإنذارات المسنين لديه، ناسياً أن التكبر يأتي قبل السقوط، وقد علق على محتـويات الرســائل التي سمعهـا وفق هذه الطريقــة حيث قـال: «إنني أتسـاءل مـا الذي أقنع مـولاي سيرلو حتى أخبرني بمثل هذه الأشيـاء، لأنني أعتقـد أنه راعي دير جيـد، ورجل مسن عـاقل، مع ذلك هو من السذاجة بمكان حتى أخبرني بها أخبرني به، فأنا عندما يكون لدي أعمال كثيرة يتوجب عليّ القيام بها، يرسل إليّ منامـات رهبان يشخرون، لا بل حتى إنه قـد دونهم، وأرسلهم إليّ عبر عدة بلدان، فهل هو يعتقـد أنني أتصرف وفق طريقة الانكليز، الذين يلغون رحلاتهم وأشغالهم بناء على شخير ومنامات امرأة عجوز قليلة الشأن».

وما أن قـال هذا، حتى انتصب قـائماً، وامتطى ظهر حصانـه، وجرى مسرعـــاً إلى داخل الغـابة، وكـان أخـوه الكـونت هنري، ووليم أوف بريتـويل Breteuil وعـدد من الشخصيـات هناك، وقـــد دخلوا إلى الغابة، وأرسلوا الصيادين نحو مناطق متعددة، كما كانت العادة، ووقف الملك وولتر أوف بوي Poix هناك في الغـــابة مع عـــدد قليل من المرافقين، مستنفـــرين ينتظرون فـــريستهم مع أسلحتهم وهي جـــاهزة، وفجأة ركض حيوان فيما بينهم، وتراجع الملك من مكانه، وأطلق وولتر سهماً، سار بسرعة طائراً فوق ظهر الحيوان ولامس الشعر، وجرح الملك جـرحـاً مميتـاً، لأنه كـان واقفـاً بشكل مبــاشر في طريقـه، وسقط على الأرض، ومـرعب أن تحكي، إنه مـات على الفـــور، وعندمـا هلك هذا

الفاني وقع كثيرون في اضطراب عظيم، وصدرت صرخات مدوية بأن الملك قد مات، تردد صداها في الغابة، وعدا هنري بأقصى سرعة ممكنة إلى قلعة وينكستر حيث كانت الأموال الملكية، وطالب بشكل مهيب بالمفاتيح من الخزنة على أساس أنه الوريث الشرعي، ووصل إلى هناك أيضاً وليم بريتويل وهو منقطع الأنفاس، ولدى مشاهدته عمق نوايا هنري وتصميمه رفع اعتراضات على ذلك قائلاً:«ينبغي علينا بموجب الحق أن نتذكر عهد الولاء الذي قطعناه إلى أخيك الدوق روبرت، لأنه الابن الأكبر للملك وليم، وأنا وأنت يا مولاي هنري قدمنا فروض الولاء له، الأمر الذي يوجب علينا أن نكون مخلصين له في كل شيء سواء أكان حاضراً أو لم يكن حاضراً، وقد تعب كثيراً لمدة أعوام في خدمة الرب، وقد أعاد الرب الآن إليه من دون قتال، كل من دوقيته التي تركها كصليبي من أجل المسيح، وتاج أبيه»، ولدى تبادل هذه الكلمات نشب خلاف حاد، واحتشد جمع كبير من الناس من جميع الجهات، وازدادت قوة الوريث الذي كان موجوداً هناك، مطالباً بحقه، ووضع هنري بعنف طائش يده على مقبض سيفه وجرده، ولم يقبل بأي تأخير مهما كان سببه للحصول فوراً على صولجان أبيه.

وتجمع— على كل حال— الأصدقاء والمستشارون الحكماء من كل جانب، وخمد الاضطراب والخلاف، وسيطر على الموقف اجتماع استشاري حكيم لمنع انقسامات أسوأ، وإثر ذلك جرى تسليم القلعة والأموال الملكية إلى هنري ابن الملك، وقد جرى التنبؤ بهذا منذ زمن بعيد مضى من قبل البريتاني، واختار الانكليز أن يكون سيدهم، واحداً عرفوه بشكل جيد، وقد ولد بصورة نبيلة في داخل المملكة، وفي اللحظة التي توفي فيها الملك، خرج كثير من النبلاء من الغابة، ومضوا إلى ممتلكاتهم واستعدوا لمقاومة أية فوضى قد تقع، وقام بعض الأعوان الأكثر تواضعاً بتغطية جسد الملك الملطخ بالدماء حسب

أفضل ما يستطيعون، لقد غطوه بأقمشة بائسة، وحملوه مثل خنزير بري مطعون برمح، وحملوه من الغابة إلى بلدة وينكستر، وخرج رجال الدين والرهبان والسكان الأكثر فقراً فقط، مع الأرامل والمتسولين، خرجوا إلى استقباله، صدوراً عن الاحترام للمقام الملكي، ودفنوه بسرعة في الدير القديم للقديس بطرس، لكن لاهوتي الكنيسة والأساقفة فيها، قدروا حياته الدنسة، وميتته المرعبة، فتجرأوا على إصدار حكم أعلنوا فيه أنه تجاوز الإصلاح، وأنه غير جدير بالتحليل من قبل الكنيسة، لأنه طوال العمر الذي عاشه لم يكن قادراً قط على التحول من الآثام إلى الخلاص، وفي بعض الكنائس كانت النواقيس في الغالب تقرع رنات طويلة من أجل أحقر الفقراء، ومن أجل النساء العاميات، لكنها لم تقرع له، ومن خزائن المال الهائلة، حيث أكوام كثيرة من النقود التي اعتصرت من أتعاب الفقراء، وكومت، ما من صدقة أعطيت للمحتاجين من أجل روح المتوفى التي امتلكها فيما مضى، وعلى كل حال، فقد الجنود المرتزقة، والفساق، والبغايا العموميات رواتبهم بسبب موت الملك المبيد، وبكوا على خاتمته البائسة، ليس صدوراً عن الاحترام، بل صدوراً عن الجشع الشرير، الذي رعى وأطعم آثامهم، وطلبوا بيأس وولتر تيرل والتمسوه ليمزقوا أطرافه طرفاً طرفاً بسبب موت حاميهم، لكن في الساعة التي وقعت فيها الواقعة كان قد بادر مسرعاً نحو الساحل، وعبر البحر، وأخذ طريقه إلى قلاعه في فرنسا، حيث ضحك وهو سالم وقد تخلص من تهديدات ولعنات الذين رغبوا في إيذائه، وكان قد تزوج من أدليزا Adeliza ابنة رتشارد[أوف كلير Clare] المنحدر من نسب جيفارد Giffard الأصيل، وقد أنجبت لزوجها هيوج أوف بوي، الذي كان فارساً شجاعاً، وأخيراً بعد مضي سنوات كثيرة، انطلق وولتر إلى القدس كعقوبة، متبعاً طريق الرب.

—١٦—

وبهذه الطريقـة توفي في يوم الخميس الثـاني من آب، لعـام ١١٠٠ لتجسيد الرب، وليم روفوس مقتـولاً بسهم في الغـابة الجديدة، بعدما حكم انكلترا لاثني عشر عـامـاً، وقـرابة العشرة أشهـر، وبادر هنري مسرعاً إلى لندن مع روبرت كونت ميـولان، وفي يوم الأحد التالي تسلم التـاج الملكي في كنيسة القـديس بطرس الرسـول في ويستمنستر، وتولى مـوريس أسقف لندن تكريســه، ذلك أن أنسلم، رئيس أسـاقفـة كـانتر بري، كـان— كما سلف وقلت— في المنفى، وتومـاس، رئيس أسـاقفـة يورك كان قد مـات منذ وقت قريب، وكانت مطرانيته مـا تزال شاغرة، وكان هنري في الثلاثين من عمره عندما بدأ يحكم، وقد حكم لمدة خمسة وثلاثين عـامـاً وأربعـة أشهـر، وقـد حكم المملكـة التي أعطيت له من الرب، بحكمة وصـلاح خلال ازدهار وتقدم، وقـد عدّ بين جميع حكام العـالم المسيحي هـو الأشهـر لمحـافظتـه على السـلام والعـدل، وتمتعت الكنيســة كل يـوم بالثـروات والتشريف، وازدهر كـل تنظيم رهبـاني ازدهاراً كبيراً في سبيل مجد الخالق، والـرهبـان والكهنة هم شهــود على ذلك، لأنهم ازدادوا في التعـداد، والتميـز خـلال حكمــه ومن الممكن للنساك أن يضمـوا شهاداتهم أيضاً، لأنهم قطعوا الغـابات الكثيفة، وهم الآن يقـدمـون الشكر للرب في ديرة ذوات أسقف عـاليـة، وفي أمـاكن روحيـة بنيت هنـاك، وهي تترنم تمجيـداً للرب مع ســلام في الذهن في الأمـاكن التي كـانت مـن قبل يتخفى فيهـا اللصـوص الخارجـون على القانون، لممارسة أفاعيلهم الشريرة.

ومن بداية حكمـه عهد بنفسه إلى جميع الناس، حيث دعـاهم إلى نيل حظوته مع هدايا ملكيـة، وعـامل الأعيـان بتشريف وكـرم، مضيفـاً إلى ثرواتهم أملاكاً إقطاعية، وبإرضـائهم وفق هذه الطريقة ربح إخلاصهم، وسـاعـد الوضعاء من الرعية بإعطائهم شرائع عـادلة، وبحمايتهم بولايته

من ضرائب ومكوس غير عـادلة ومـن اللصـوص، وبذلك تفـوق هذا الحاكم المتميز على الحكام الغربيين الآخرين وحكام الممالك، ونال عاطفة محبة جميع الكهنة وسواهم معاً، مع الذين تمتعوا بالحياة الديرية.

وبدأ بتزويد الكنائس الشاغرة بأساقفة، وبناء على نصيحة كبار مستشاريه وضع علماء باحثين فيهن، وجعل وليـم غيفـارد الذي كـان مستشـار الملك المتـوفى أسقفـاً لوينكستر، ورفع جيرارد أسقف هيرفـورد ليكون رئيسـاً لأسـاقفـة يورك، وأرسل رسـلاً سريعين عبر القنال لدعـوة أنسلم المحترم للعودة إلى كرسي رئاسة أساقفته في كانتربري، وهو الذي دفع إلى المنفى من قبل تنكيل الملك وليم غير الـلائق، وأعطى دير إيلاي Ely إلى رتشـارد ابن رتشارد أوف بينفيت Bienfaite الذي كان راهباً من دير بكBec ، وكذلك دير بري سـانت إدموند إلى روبرت، الذي كان راهبـاً شاباً من دير القديس إيفراول، وهو ابن هيوج إيرل شيستر، وعهد بدير غلاستونبري إلى هيرلوين أوف كين Herluin of caen ، وأبنغـدون Abingdon إلى فرانسيس أوف مالمسبري Malmesbury.

وعندمـا سمع هيـوج إيـرل شيستر، وروبرت أوف بيليم مع السـادة الآخـرين الذين كانوا في نورمـاندي بموت الملك السيء الحظ، والثـورة المفـاجئة، أنهوا مشـاكلهم في نـورمـاندي، وعـادوا مسرعين إلى انكلترا، حيث خضعوا بشكل مـوائم إلى الملك الجديد، وبعدما فـرغوا من تأدية الولاء تسلموا ممتلكاتهم وجميع مراتبهم الشرفية منه مع هدايا ملكية.

ولم يأخذ الملك هنري بنصيحة الشباب السريعة مثلما فعل رحبعام(سفر الملوك:١/ ١٢/ ٨)، بل أخـذ بحكمـة إلى قلبـه خبرة ونصيحـة الرجـال الحكماء والشيـوخ، ودعـا إلى مجلسـه الاستشـاري روبرت أوف ميـولان، وهيـوج أوف شيستر، ورتشـارد أوف ريفير Reviers ، وروجر بيغود Bigod مع رجال آخرين نشطاء فاعلين، ولأنه أصغى بتواضع إلى أناس ذوي خبرة، حكم بجدارة كثيراً من الأقاليم والشعوب.

وفي الشهـــر الرابـع من حكمـــه لم يرغب هـذا الحاكم أن ينغمس في الملذات مثل أي حصـان أو بغل من الـذين لا يستخـدمـون العقل، بل تزوج زواجاً ملكياً مـن سيدة عالية النسب اسمها مـاتيلدا، وقد أنجبت له ولديـن هما: مـاتيلدا، ووليـم، وقـد كـانت ابنة مـالكولم، ملك الاسكوتلنديين— والملكة مـرغـريت— الذي انحـدر من ذرية الملك ألفـرد، ابن [اقـرأ:حفيـد] الملك إيغبيرت Egbert ، وهي الذرية التي حكمت انكلترا كلهـا بعـد الحرب الهولندية، ومقتـل الملك القـديس والشـهيد إيدمـوند، لأننا حسبما يمكنك القراءة في كتـابات غيـلداس Gildas البريتاني، والانكليـزي بيد Bede ، حكم خمسة ملوك هناك بعد قدوم الانكليز من جزيرة أنغولوس Angulus ، حيث هناك المدينة الأم للسكسـون، وكان بعـدمـا قتلوا وقهـروا الشعب الذي يدعى الآن الويلش Welsh ، أطلقوا اسم انكلترا على الجزيرة التي احتلوها تحت هنجست Hengist قـائدهم الأول، وذلك صـدوراً عن اسم بلادهم الأصيلة، وهكذا نجد هنري بحكمته، قدر عاليا الأصل الرفيع للسيدة، التي أحب كمال خلقهـا منذ زمن طويل، واختارها أن تكون زوجتـه في المسيح، وارتقى بها إلى العـرش إلى جـانب نفســه، وتولى جيرارد أسقف هيرفـورد أعمال التكريس(١)، والآن وقـد عـالجت باختصـار حـوادث انكلترا، سوف أضيف شيئاً قليلاً حول النورمان في هذا الكتاب.

—١٧—

في شهر آب، فور انتشار خبر الموت الحزين للملك في نورماندي، دخل النورمـانديـون الانفعـاليـون الفـوضـويون، في حـرب أهليـة، ففي ذلك الأسبـوع نفســه أغـار وليم كـونت أوف فـروي، ورالف أوف كـونشي Conches على أراضي بيمونت مع قوة شـديدة، واستوليا على أسلاب كثيرة من أرض روبرت كونت ميـولان، انتقاماً للأضرار التي كـان ألحقها

١— هذا وهم فالذي كرس الزواج هو أنسلم وتوج ماتيلدا ملكة.

بنظرائه منذ بعض الوقت الماضي، بتحويل الملك روفوس ضدهم من خلال تهم زائفة، ومثل ذلك فإن كثيرين ممن كانوا يحتضنون الغضب والكراهية، لكن لم يتجرأوا على الانتقام لأنفسهم بشكل معلن بسبب العدالة الدقيقة التي حافظ عليها الأمير، انقضوا الآن على بعضهم بعضاً من دون ضوابط، طالما أن المراقبة قد تراخت، وبقتلهم المتبادل وأعمال النهب عاثوا فساداً في المقاطعة التعيسة التي كانت من دون حاكم.

وفي أيلول وصل الدوق روبرت إلى نورماندي، وبعدما استقبل من قبل شعبه، ذهب مع زوجته سيبل إلى جبل القديس ميكائيل خوفاً من البحر، وقدم هناك الشكر للرب من أجل عودته سالماً من حجه الطويل، وبعد ذلك أتم زواجه ودخل على زوجته ابنة غيوفري أوف كونفيرسانو، وأنجبت له في العام التالي ولداً، وقام رئيس الأساقفة وليم بتعميد الطفل، ومنحه اسمه، واسترد الدوق روبرت دوقيته من دون معارضة، واحتفظ بها لمدة ثمانية أعوام، بالاسم فقط، لأنه كان قد غرق من دون معافاة بالكسل والشهوات، مما جعله هدفاً للازدراء من قبل النورمانديين الذين لا يعرفون الاستقرار ولا التقيد بالقانون، ووقعت أعمال السرقة والاغتصاب يومياً، وازدادت الوحشية في كل مكان، مما أدى إلى دمار المنطقة كلها.

## —١٨—

عندما سمع هيلياس بن جون أوف لى—فليشي Fleche بالأخبار المرحب بها، بأن الملك وليم قد مات بالفعل، وصل إلى لى—مانس مع عساكر من الرجال المسلحين، وفتح له أصدقاؤه بين السكان أبوابهم، فاستولى على المدينة دون أن يضرب ضربة، وبعث إلى مولاه فولك كونت أوف آنجو، وشرع بمساعدته بالحصار الطويل للقلعة، وكان إيمير أوف مويرا Aymer of moira ، ووولتر بن أنسغير أوف روان متمسكين بها ومدافعين مع ما يكفي من العساكر، وكان لديهما طعام

وسلاح يمكن من الثبات أمام حصار طويل، وقام الطرفان يومياً بالمفاوضات وكذلك بالتهديدات لبعضهم بعضاً، وغالباً ما مزجوا المزاح مع التهديدات، وأعطوا الكونت هيلياس امتياز أن يلبس متى شاء مئزراً أبيض، وبهذه الطريقة امتلك ممراً آمناً إلى المدافعين عن القلعة، وبما أنه وثق بإخلاص الرجال الذين عرف أنهم شجعان وشرفاء، غالباً ما زار الأعداء، وهو يرتدي الثوب الأبيض المتميز، ولم يخف قط من البقاء معهم لوحده في مداولات طويلة معهم، وأمضى المحاصرون، والذين تحت الحصار وقتهم بالمزاح والعبث، ولعبوا كثيراً من الخدع مع بعضهم بعضاً بعيداً عن روح العدوانية، ولذلك فإن الناس في هذه المناطق سوف يتحدثون عنهم في الأيام المقبلة بتعجب وسرور.

وبعد مضي عدة أيام تحدث وولتر وإيمير مع هيلياس بعبارات هي هذه:«نحن ندافع عن قلعة لا ترام، مزودة بكل الذي تحتاجه، ونحن نفعل هذا في طاعة لأوامر مولانا، وبقدر الوقت الذي نختار فيه مقاومتكم، نحن لن نخشى لا منكم ولا من آلاتكم، ومن جهة أخرى نحن نستطيع أن نمطركم بالحجارة والنشاب لإلحاق الضرر بكم، لأننا نحن في برج شاهق الارتفاع، مشرفين عليكم، ومع ذلك نحن وفرناكم صدوراً عن الاحترام للرب، واللطف الإنساني، لأننا لا نعرف من أجل من نحن نقاتل للدفاع عن هذا البرج، وبناء عليه قدرنا أنه سوف يكون صالحاً ومنطقياً بالنسبة لنا معاً، الدخول في هدنة إلى أن يمكن لرسولنا العودة من عند موالينا، أميري انكلترا، ونورماندي، وعندما سيعود، دعونا نفعل ما نراه منطقياً بالنسبة لنا، وبسرور روى هيلياس ما سمعه إلى فولك، ورحب الجميع بالاقتراح، وبكل رضى وافقوا على اقتراح النورمانديين، وجرى إرسال رسول إلى دوق نورماندي حيث قال له:«إن وولتر مع إيمير، ورفاقهما المخلصين متمسكين بقلعة لى مانس، حسبما كان الملك قد أمرهم أن يفعلوا، وهم الآن محاصرون من قبل

المانسويين والأنجيفيين، ويطلبون منك المساعدة، ويريدون أن يعرفوا ما هو قرارك بالنسبة لهم، فإنك إذا ما أردت الاحتفاظ بهذه القلعة، أقبل مع قوة نجدة كافية، واطرد الأعداء الذين يحاصرونهم، وإذا كان غير ذلك دعهم يعرفون كيف يمكنهم النجاة من الخطر المميت، وبما أن الكونت كان منهكاً من متاعب حجه الطويل، وحيث أنه كان أشد رغبة بالتمتع بالسلام على أرائكه، وكان يؤثر ذلك على متاعب الحرب، أخبر الرسول بأن يأمر المحاصرين بعمل صلح مشرف مع الأعداء المحاصرين لهم، وقال:«إنني منهك تماماً بسبب سنين الإرهاق والتعب، ودوقية نورماندي كافية بالنسبة لي، بالإضافة إلى ذلك إن أعيان انكلترا يدعونني لعبور البحر بأقصى سرعة ممكنة، لأنهم على استعداد لاستقبالي كملك»، وعندما سمع الرسول هذا، قام عوضاً عن العودة بالمبادرة بسرعة لعبور القنال إلى ملك انكلترا، وأوصل إليه الرسالة نفسها تماماً، مثل التي كان قد أعطاها إلى الدوق، وأما الملك الذي كان مشغولاً تماماً بشؤون مملكته عبر البحر، فقد قرر بحكمة أن يركز على ما هو عائد إليه شرعياً، وأن لا يثقل نفسه، صدرواً عن الكبرياء بواجبات وأعمال ثقيلة وغير ضرورية في الخارج، ولذلك وجه الشكر إلى حامية القلعة لنواياها الطيبة، وأعاد الرسول بعدما كافأه بهدايا مناسبة، وعند ذلك عاد الرسول إلى قومه، وأعاد على مسامعهم الأجوبة كلمة كلمة، أي أجوبة ابن الملك وليم.

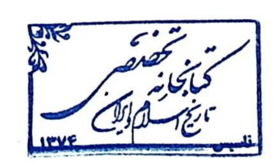
ثم إن الحامية التي عبرت عن إخلاصها وأظهرته بشكل رائع، أعلم رجالها هيلياس أن يرتدي مئزره الأبيض، الذي أعطاه لقب«الفارس الأبيض» الذي عرف به بينهم، وقد لبى طلبهم على الفور، وعندما وصل مسرعاً، قال له قائداً القلعة، وهما أشبه بالمداعبين له:«أيها الفارس الأبيض، لديك الآن سبب وجيه للاحتفال، بما أن الساعة التي انتظرتها مطولاً قد حلت هنا الآن، فإذا كان لديك كثيراً من المال في صناديقك،

يمكنك أن تتبايع معنا لصالحك»، وعندما سألهما عن أي نوع من التجارة يقترحان، أجاباه:«لقد بنى وليم ملك انكلترا الجبار هذه القلعة، وعهد وريثه بحفظها إلينا، لكن الآن، يا للأسف، قد مات للتو، ولذلك نحن نعطي هذه القلعة إليك، ونعترف بك كونت مايني من هذا اليوم، ونحن لسنا مرعوبين ولا مقهورين بقدرتك، ونحن أقوياء بما فيه الكفاية للصمود لوقت طويل، إذا ما رغبت منا متابعة المقاومة، ونحن بالفعل لدينا السلاح، والقلوب الشجاعة، والأطعمة الكافية، لكن ليس لدينا سيداً طبيعياً، يمكننا أن نقدم إليه خدمتنا كفرسان شجعان، وبناء عليه، أيها السيد الشجاع، إننا اعترافاً منا بقوتك اخترنا أن نخدمك، وأن نسلم القلعة إليك، أعلن عن نفسك أنك كونت مايني اعتباراً من هذا اليوم بالذات».

وتفوه السيدان الشجاعان بهذه الكلمات إلى هيلياس، وعقدا السلام معه، ووضعا بين يديه البرج الذي لايرام مع جميع المؤن التي جمعها فيه وليم روفوس، وبعدما عقدت معاهدة السلام خرجت الحامية الشجاعة مع أسلحتها وجميع مقتنياتها، وجرى استقبال أفرادها من قبل الكونتان ليس كأعداء مهزومين، بل كأصدقاء مخلصين، ورافقهم الكونت هيلياس وحافظ عليهم خلال المدينة وكان معه مائتي فارس، وحماهم من سوء المعاملة على أيدي السكان الذين احترقت بيوتهم في العام المنصرم، وهكذا استرد الكونت هيلياس كونتيته في العام الثالث، واحتفظ بها بشكل مشرف حتى وفاته بعد عشرة أعوام تقريباً.

وأعطى بعد عدة سنوات ابنته إيرمبيرغ Eremburge زوجة إلى فولك ابن مولاه كونت أنجو، وعينه خليفة له في السيادة على مايني، وعقد فيما بعد معاهدة صداقة مع الدوق روبرت والملك هنري، وقام بدور فعال في حروبهما، حيث ألحق أضراراً كبيرة بالأول وقدم مساعدات لا تقدر بثمن إلى الآخر، وبعد وفاة زوجته، رفض حياة





العزوبية، وتزوج من أغنس Agnes ابنة وليم دوق بـواتو، التي كانت أرملة ألفونسو الأسن، ملك غاليشيا، وأكملت احتفالات الزواج بشكل فخم، لكنه توفي في العام التالي وسط حزن عام، ودفن الأسقف هيلدبيرت جسده في كنيسة القديس بيير-دي-لي-كوتشر Couture.

—١٩—

في عام ١١٠١ لتجسيد ربنا، وفي العلامة التاسعة، تفجرت ثورة كبيرة في انكلترا ونورماندي فقد انزعج الأعيان المتمردون المفتتنون من نشاط الملك هنري وفعاليته، وفضلوا نعومه وتراخي وكسل الدوق روبرت، الذي تركهم أكثر حرية، لمتابعة الوصول إلى مطامحهم الشريرة، ولذلك شرعوا في عقد اجتماعات ومؤتمرات خيانية بين أحدهم والآخر، ونصحوا الدوق أن يعد أسطولاً وأن يعبر في أبكر فرصة، ووافق على الخطة روبرت أوف بيليم مع أخويه، وروجر أوف بواتو، وأرنولف ووليم ووارني، إيرل سري Surrey ، وولتر غيفارد، وإيفو أوف غراند ميسنيل، وروبرت بن إيلبيرت، وآخرون كثر، وافقوا على خطة الثورة، ومساعدة مؤيدي الدوق، وكان ذلك في البداية سرياً، ثم صار مكشوفاً، ولم يعط الدوق الكسول حكومة جيدة لممتلكاته، لكنه أهملهم بحماقة وذلك جشعاً منه إلى المملكة، التي استحوذ عليها أخوه القدير.

وأعطى في تلك الأثناء إلى روبرت أوف بيليم، أسقفية سيز، وحصن أوف أرجنتان Argentan ، وغابة غوفيرن Gouffern ، ومنح قلعة غيسور إلى ثيوبولد بين Pain لأنه أعطاه في إحدى المرات مأوى، وأعطى بكرم زائد النبلاء الآخرين من ممتلكاته الخاصة، ووعدهم بالمزيد وذلك أكثر مما يستطيعه إذا أصبح ملكاً، وبما أنه كان بعيداً عن الاحتراز والحيطة الخلقية فإن جماعة المومسات والمهرجين بددوا أمواله برعاية لا أخلاقية ومن دون حياء لهم، وغالباً ما فقد

الخبـز، على الرغم من ثروة دوقيته واتسـاعهـا، حتى أن صار بلا ثيـاب وصار يلجأ إلى الفراش ويتمـدد فيه، ولا يجرؤ على الذهاب إلى الكنيسة للاستماع إلى القـداس، لأنه لم يكن لديه شيئاً يرتديه، وقامت العـاهرات والأوغاد الذين أحاطوا به دوماً بتلـويث سراويله وأحذيته، لأنهم كانوا يعرفون ضعفه، كما لوثوا بقية ألبسته بدنسهم، فلقد كان مثلاً كاملاً على صدق ما قاله أحد الحكماء:

[لقد طردوا وأبعدوا الذي أفسدوا مقتنياتهم في الوطن].

وقـرر الأعيـان النورمـان، الذين نظروا إلى الدوق نظـرة استخفـاف، وكانوا على استعداد لاتباع الملك الانكليـزي، وعزموا على عرض دوقية نورماندي عليه، وبعثوا إليه بالرسول بعد الرسول لإغرائه بقبولها، وعلى هذا فإن الناس فسـدوا بأجواء الآثام، وتـآمروا بأفـاعيل خيانيـة لإلحاق الأذى بسادتهم، فقـد أنشب بعض العصاة حرباً مكشوفـة ضد جيرانهم المخلصين، ولوثوا التربة الخصبة بالانتقـامات، وبأعمال الحصار، والذبح الدموي، وحـافظ رئيس أساقفـة أنسلم المبجل، وجميع الأساقفـة ورعاة الديرة، ورجال الدين المكرسين، وكذلك الانكليز جميعاً، على إخلاصهم الثابت إلى ملكهم، وقدموا من دون توقف صلوات إلى رب الحشود من أجل سـلامـة المملكة وحفظها، وتبع روبـرت أوف ميولان ومخلصـون آخرون كثر وبارونات حكماء، تبعوا مولاهم بإخلاص وزودوه بالمشورة وبالدعم العسكري.

وكـان رأس الفتنة والمحـرض الرئيس على هذه المؤامـرة الحمقـاء رانولف فلامبارد، أسقف درم الذي نشأ من أصل وضيع، وكان متملقاً وضيعـاً لـوليم روفـوس، وعمل قـواداً لديه، وقـال من خـلال مكره التـآمري بأن الملك قـد رقـاه ورفعه فـوق جميع أعيـان المملكة، وأصبح المدير الرئيسي لثـروات الملك والعـدالة لـديه، وعمل نفسـه من خـلال أعماله الوحشية الكثيرة مكروهاً ومخافاً من قبل معظم الناس، وازداد هو

نفسه ثراء بالأموال التي جمعها من كل جانب، ومن توسيع ممتلكاته، وعلى الرغم من أنه كان جاهلاً تقريباً، تمت ترقيته إلى كرسي الأسقفية، ليس بسبب أي تقوى، لكن من خلال السلطة العلمانية، وبما أن ما من سلطة تدوم طويلاً في هذه الحياة الفانية، فقد أودع السجن من قبل الملك الجديد، وكان ذلك بعد وفاة ملكه، بحكم أنه ناهب فاسد للبلاد لا يمكن تقويمه، وبسبب الأذى الذي ألحقه بهنري نفسه وبرعاياه، الفقراء منهم والأغنياء سواء، ونتيجة للطرق الكثيرة التي غالباً ما ظلم بها من دون تقوى المتألمين، وبإرادة الرب، عندما تغيرت رياح السعد، رمي به نحو الأسفل من قمة السلطة، وعهد به إلى وليم ماندفيل ووضع تحت مسؤوليته، حتى يسجن في الأغلال في برج لندن، وكما قال حقاً أوفيد في شعره:

[غالباً ما يثير سوء الحظ الفطنة]

تآمر الأسقف الداهية من أجل النجاة من سجنه الشديد، وببراعة رتب خلال أصدقائه من أجل هربه، وكان واسع الموارد ومقنعاً، ومع أنه كان متوحشاً وسريع الغضب، كان أيضاً كريماً، وأنيساً في كثير من المناسبات، ولذلك وجده كثير من الناس مقبولاً ومحبوباً، وقد تلقى في كل يوم— بناء على أوامر الملك— شلنين استرلينيين من أجل الطعام، وبهذا مع مساعدة أصدقائه أقام مرحاً في السجن وبهجة، فأمر في كل يوم بإقامة وليمة فخمة أمامه وأمام حرسه، وفي أحد الأيام جرى تهريب حبل إليه، في برميل خمرة، وجرى شراء كميات وافرة من الأطعمة من أجل الوليمة بوساطة سخاء الأسقف، واحتفل الحرس معه بالوليمة، وازدادوا حبوراً كلما ازدادوا شرباً من الخمرة الفارلرنينية Falornain ، وعندما أصبحوا مخمورين تماماً ويشخرون بأمان، ربط الأسقف الحبل إلى عمود في وسط نافذة في البرج، وحمل ثيابه الأسقفية معه، وانزلق نحو الأسفل بوساطة الحبل، وهو على كل حال، لأنه نسي أن يحمي يديه

بوساطة قفازات تمزقتا حتى العظام بسبب خشونة الحبل، ولم يصل الحبل تماماً إلى الأرض، وسقط رجل اللاهوت السمين وعانى من وقعة ثقيلة، جعلته يتمدد على الأرض، وجعلته يئن مع الألم، وكان أصدقاؤه المخلصين وأتباعه المجربين ينتظرون عند أسفل البرج، في حالة خوف كبير، وكان معهم خيول جيدة جاهزة من أجله، وامتطى، وهرب مثل الريح، وواجه على الطريق رفاقاً موثوقين جالبين معهم أمواله، وأبحر معهم مسرعاً نحو نورماندي ليجد الدوق روبرت، وجرى نقل أم فلامبارد التي كانت ساحرة، وغالباً ما تحادثت مع الشيطان، وفقدت إحدى عينيها من خلال هذه الممارسات الهجينة، نقلها عبر البحر إلى نورماندي في سفينة أخرى، مع أموال ابنها، وسخر منها مرافقوها في السفينة ومزحوا معها مزحاً قاسياً، بسبب تعويذاتها اللعينة.

وفي أثناء الرحلة هاجم القراصنة السفينة، ونهبوا الأموال، وبذلك رميت الساحرة العجوز عارية حزينة مع البحارة والحرس على شاطىء نورماندي، وأخيراً منح الأسقف الفار مأوى من قبل الدوق، ووضع في موضع المسؤولية في نورماندي، واستفاد الدوق نفسه من مشورته بقدر ما سمح له تراخيه وكسله، وحث فلامبارد الدوق بشكل خاص على تجريب قوته بالتعامل من أخيه، وأثار العداء ضد الملك بكل وسيلة من الوسائل كانت باستطاعته، ونصح الدوق حول أفضل السبل التي يمكنه فيها ضمان نيل مملكة انكلترا، ووعده بالمساعدة في كل ما فعله.

وأخيراً أبحر الدوق روبرت في الخريف وعبر إلى انكلترا، وبعدما استقبل بمثابة ملك من قبل رجال أغنياء ومتميزين، من الذين عملوا مؤامرة وكانوا يتوقعونه، واستعد للحرب، ولم يكن أسطوله تماماً يشبه أسطول أبيه وليم، لأنه وصل إلى ميناء بورتسماوث، ليس بفضل شجاعة جيشه، بل بفضل مواءمة الخونة وعونهم، وبسرعة أقر الدوق نفسه في المنطقة من حول وينكستر، حيث جرت مرافقته من قبل أعيان

المملكة، الذين كـانوا قـد قـدمـوا الولاء له منذ وقـت طويل مضى، وبتحريض من الثـوار تحدى أخاه في أن يقابله على أرض المعركـة، ما لم يكن مستعداً للتخلي عن التاج، وكـان كثيرون ممن أظهروا من قبل أنهم يؤيدون الملك، متشوقين للترحيب بالدوق عندمـا وصل، وملأوا جيشه بقـواتهم، وتخلى روبرت أوف بيليم ووليـم إيرل سري وكثيرون زيادة، تخلوا عن الملك، وعمل عـدد كبير آخـر طلبـات غير معقـولة من أجل اختراع مسوغات للانفصـال، وهددوا بتركه، ما لم يلبي مطالبهم، ووقى روبرت ميولان، ورتشارد ريفيري، وعدد كبير من البارونات القادرين، ملكهم وحموه، ولم يعترف الانكليـز جميعـاً بحقـوق الأمير الآخـر، وحافظوا على إخـلاصهم للملك وثبتوا على مـواقفهم وكانوا جـاهزين للذهاب إلى القتال للبرهنة على ذلك.

وفي هذه الآونة، نقل هيـوج إيرل شيستر إلى فـراشـه، وبعـد مـرض طويل، أصبح راهباً في دير كـان قد بناه في شيستر، حيث مـات بعد مضي ثلاثة أيام في ٢٧ تموز، وتسلـم رتشـارد، الذي كـان طفـلاً بهي الطلعـة، والذي كـان ابنه الوحيد مـن ارمنترود ابنة هيوج أوف كليرمـونت، تسلم الكونتية واحتفظ بها لحوالي اثني عشر عاماً بعـد ذلك، وكان محبوباً بشكل عـام، وقد تزوج مـاتيلدا ابنة ستيفن كـونت بليـوس، وأديلا أخت الملك هنري، ومن المؤسف أن أروي بأن الاثنين هلكـا معـاً في غـرق سفينة هي السفينة البيضاء في ٢٥-تشرين الثاني، حسبما سأحكي بالتفصيل في وقته.

وعندمـا صمم كونت أوف ميـولان أن يحافظ على إخلاصـه لصديقـه الملك خلال الشـدة والرخاء، وعندمـا شاهد خطط واعتـزال أبناء بلاده، قام بهدوء بالتفكير حـول كثير من الأشياء في عقله وتـولى تقليبها، وعمل بكل عناية من أجـل سـلامـة المملكة، وبهذا الهدف قـال للملك:«إن كل رجل شجـاع متسم بالفروسيـة، ويرى صديقـه قد ضغط عليـه بشدة في حومة الوغـى، يتوجب عليه، إذا ما رغب أن يكون جـديراً في موقفه، أن

يذهب إلى مساعدة ذلك الصديق وقت حاجته وبذل أفضل ما يستطيعه، وفي مثل هذه المواقف ينبغي أن لايفكر الإنسان كثيراً حول مستقبل المكافأة بشأن إنقاذه الصديق الذي احتاجه، ونحن نشاهد الآن كثيراً من الأعمال يجري تنفيذها بطريقة مختلفة تماماً، وقد لوثوا بالدناءة الوضيعة بريق الإخلاص والصدق الذي تعهدوا به إلى سيدهم، ومثل هذه الأشياء واضحة لنا لأن نراها، ولأن نشعر بالطعنات الحادة في جنباتنا، وبناء عليه علينا نحن الذين عهد إلينا من قبل الرب أن نعمل في سبيل الصالح العام، أن نديم النظر بحدة من أجل الحفاظ على سلامة المملكة، وكنيسة الرب، وعلينا أن نوجه عنايتنا الكبرى لأن ننتصر بسلام بفضل نعمة الرب، وأن ننال انتصارنا من دون سفك للدماء المسيحية، وبذلك يمكن لشعبنا المخلص أن يتمتع بأمن السلام، والآن بناء عليه استمع إلى نصيحتي يا مولاي الملك، ولا تهمل اتباع مشورتي، تحدث إلى جميع فرسانك باعتدال، وتملق إليهم كأب يريد أولاده، وبهذه الطريقة إجذب جميع الناس بالمجاملة إلى جانبك، وإنهم إذا ما طلبوا لندن أو يورك لا تترد بالوعد بجوائز كبيرة موائمة للكرم الملكي، وإنه أفضل إعطاء جزء صغير من المملكة من التضحية بالنصر وبالحياة نفسها لصالح حشد الأعداء، وعندما سنعود سالمين بمعونة الرب بعد انتهاء هذه الأعمال، سوف نقترح إجراءات عملية من أجل استرداد الممتلكات التي اغتصبت بسرعة من قبل الآبقين أيام الحرب، وليس هناك من شك أن أي واحد يختار التخلي عن مولاه ساعة الخطر المميت ويسعى نحو مولى آخر بسبب الجشع في الربح، أو يصر على أن يدفع له من أجل خدمته العسكرية التي عليه أن يقدمها من دون مقابل إلى ملكه من أجل الدفاع عن المملكة، ويحاول أن ينتزع منه ممتلكاته، سوف يحكم عليه ويدان كخائن من قبل قضاء عادل وصحيح، وسيكون عملاً صحيحاً تجريده من ميراثه وإرغامه على الفرار من البلاد».

وصفق جميع الأعيان الذين كانوا مع الملك إلى كلام الكونت، وحثوا الملك على اتباع نصيحته ولأنه كان رجلاً صاحب عقلانية متميزة، شكر المستشارين الذي تمنوا له الخير، وبجاهزية تقبل اقتراحاتهم العملية، حيث ربح بالوعود وبالهدايا تأييد كثيرين ممن نظر إليهم بريبة، ثم إنه ذهب إلى مقابلة أخيه مع جيش كبير جداً، وأرسل أمامه رسلاً للتقصي والبحث باسمه لماذا تجرأ على دخول الأراضي الانكليزية مع قوة مسلحة، وأجاب الدوق روبرت على هذا وبعث بجوابه مع رسله قائلاً: «لقد دخلت إلى مملكة أبي مع أعيان رجالي، وأنا أطالب بحقي الشرعي لأنني الابن الأكبر».

ومكث الأخوان معسكران لبضعة أيام في أحد السهول (لعله ألتون Alton) وتبادلا إرسال الرسل يومياً ذهاباً وإياباً، وكان أمل اتحاد الخونة في الحرب أكثر منه في السلام، ولأنهم كانوا أكثر اهتماماً بمصالحهم الخاصة أكثر من اهتمامهم بالصالح العام، قام المراسلون المكرة بتشويه الكلام وزرعوا بذور الخلاف أكثر من بذور الوئام بين الأخوين، وعلى كل حال أدرك هنري الحكيم هذا، فطالب بأن يتحدث إلى أخيه وجهاً لوجه، وعندما التقيا انبعثت عاطفة المحبة الأخوية فيهما معاً، وأحاط الجيش الكبير بهما مع رجال أصحاب مراتب عليا، وكان مظهر النورمان والانكليز تحت السلاح جميلاً ومرعباً في آن معاً، وتحادث الأخوان على انفراد لوحدهما، في وسط نطاق من المتطلعين، وتفوها بصراحة وأمانة بما كان في قلبيهما، وأخيراً، وبعد كلمات قليلة، عانق أحدهما الآخر، وتبادلا القبلات العاطفية، فتصالحا من دون وسيط، ولا يمكنني أن أسجل كلامهما في المؤتمر لأنني لم أكن حاضراً، غير أنني سمعت ممن كان حاضراً نتيجة ذلك الاجتماع بين الأخوين النبيلين.

وأعلن أولاً الدوق روبرت تخليه لصالح أخيه عن المطلب الذي عمله للحصول على مملكة انكلترا، وصدوراً عن الاحترام لكرامة مقام

الملكيـة حرره من الولاء الذي كـان من قبل قد قـدمه له، ووعـد الملك هنري أن يدفع إلى الدوق مبلغ ثلاثة آلاف باوند استرليني في كـل عام، وتخلى لصالحه عن جميـع كوتنتن Cotentin ، وعن كل شيء امتلكه في نورماندي باستثناء دومفورت Domfort ، وقد احتفظ لنفسه بحصن دومفورت فقط، لأنه كان قد أعطى عهداً موثقاً بيمين إلى الرجال الذين كانوا هناك، عندما فتحوا أبوابهم له، بأنه لن يسمح لهم قط بالخروج من بين يديه، أو أن يغير شرائعهم وأعرافهم، وبما أنه لم يكن هناك محكمين، قـام الأخوان لوحـدهما بتثبيت ما تعهـدا به وأكداه، في حين كـان جميع الذين من حـولهم ينظرون بعجب، بأنهما سـوف يساعـد أحدهما الآخـر كأخـوين، ذلك كما ينبغي للإخـوة أن يفعلوا، ويكون وجـه التعـاون في استرداد جميع ممتلكات أبيهما، وأنهما سوف يعـاقبان على الجانبين الرجال الأشرار الذين أثاروا الخلاف بينهما.

وعندما عمـل السلام، وقع الخونة في لجة الفـوضى، بما أنهم أصبحوا منبوذيـن حتى من قبل الذين تزلفوا خـداعاً إليهم، وباتوا مـرغمين على إخفاء عـارهم عن أنظار الملك، حيث باتوا يرتجفون خوفاً، وكـان القوم الشرفـاء، والذين سـايروا الأعمال الشرعيـة مسرورين، وجـرى تفـريق القوات المسلحة بناء على أوامـر الملك، وقد عادوا إلى الوطن مسرورين، وأقامت انكلترا في نعيم حرارة السلام، وتمتعت كنيسة الرب لمدة طويلة بالهدوء، وأظهرت ونشرت الشريعة اللاهوتية بشكل مجيد، ولأنها كانت آمنة عبدت الرب دون أن تنزعج بضجيج القتال.

ومن الممكن الحصـول على شـواهد مـرئيـة على صـدق أقـوالي، في البـازيليكات الجديدة، والكنائس الكثيرة جـداً، التي تأسست حديثـاً في القـرى عبر انكلترا كلهـا، والأديرة الواسعـة للـرهبـان التي مع الأبنيـة الديريـة الأخـرى بنيت في أيام الملـك هنري، وتمتع كل نظـام رهبـاني بالسلام والازدهار، وبذل جهده في إظهـار غيرته في الحياة الداخلية وفي

التنظيم الخارجي، وذلك في كل شيء يتعلق بعبادة الإله القدير، وهكذا عمل المؤمنون الملتهبون حماساً وغامروا في الإقدام على تهديم الكنائس والأبنية الديرية القديمة، وأحلوا محلهم أبنية جديدة أفضل، وجرى هدم الكنائس القديمة التي بنيت تحت حكم إدغار، وادوارد والملوك المسيحيين الآخرين، من أجل إحلال كنائس جديدة محلها، أكثر قيمة من خلال الحجم، والارتفاع أو جمال الصنعة في سبيل شكر الخالق.

وبعدما مكث الدوق روبرت مع أخيه الملك لمدة شهرين عاد إلى نورماندي، مع اقتراب حلول الشتاء، محملاً بالهدايا الملكية، وأخذ معه وليم أوف وارني وكثيرين آخرين حرموا من مواريثهم بسبب قضيته.

وليس بعد ذلك بوقت طويل مات المسن غيلبرت مامينوت Maminot أسقف ليزوي Lisieux وجرى تكريس فلامبارد أخي فولتشر أسقفاً من قبل رئيس الأساقفة وليم في شهر تموز، وكان أمياً تقريباً، وجرى التقاطه من البلاط ليكون أسقفاً بسبب نفوذ أخيه، واحتفظ بالكرسي لعدة أشهر، وهو صاحب ذكرى بسبب كرمه، ومات في شهر كانون الثاني، ثم حصل رانولف فلامبارد، الذي كان منفياً في نورماندي، وكان قد جرد من أسقفية درم من خلال عداوة الملك هنري، الذي وقف ضده، حصل على أسقفية ليزوي واشتراها لابنه توماس، الذي كان مجرد طفل، وأدارها لمدة ثلاثة أعوام ليس كأسقف، بل كوصي، وفي الوقت نفسه دفع وليم أوف باسي Pacy سعراً كبيراً إلى الدوق في محاولة للحصول على الأسقفية، ولكن بما أنه كان مداناً بذنب السيمونية، أولاً في روان وبعد ذلك في روما، فقد دفع ثمناً غالياً لمحاولته هذه، وهكذا بقيت ليزوي من دون أسقف لمدة تقارب الخمسة أعوام، وبما أن رعية الرب حرمت من الراعي الصالح، فقد التهمت من قبل الذئاب حتى جرى بنعمة الرب، إرسال جون إلى هناك بمثابة أسقف لمواساة الناس.

- ١٨٣٩٠ -

## — ٢٠ —

وعندما جرى تلقي الأخبار الطيبة عن الأبطال المشهورين، الذين انطلقوا في رحلة الحج، ونالوا انتصارات مجيدة على الكفار في الشرق باسم المسيح، تم استلهام النبلاء في الغرب بشجاعتهم التي لا تقهر، وبنجاحاتهم غير المتوقعة، وتحرك أقرباؤهم وجيرانهم وأثارهم مثلهم حتى يقوموا بمخاطرة مماثلة، وتحرق كثيرون بالشوق الشديد للذهاب للحج، ولرؤية الضريح المقدس والأماكن المقدسة، وللبرهنة على قدراتهم وقوتهم في الفروسية ضد الأتراك، وأرغمت أعداد كبيرة على الانطلاق نحو الحج خوفاً من الحرمان الكنسي البابوي، لأن البابا باسكال أعلن على الناس عقوبة الحرمان الكنسي، والفصل عن الكنيسة ضد جميع الذين حملوا صليب الرب، وأداروا ظهورهم عائدين من دون إكمال لرحلتهم، وذلك مالم ينطلقوا مرة أخرى ويسددوا دينهم إلى الرب بالوفاء بعهودهم.

وهكذا قام في عام ١١٠١ لتجسيد الرب وليم دوق بواتو بحشد جيش كبير من أكوتين وغاسكوني وأقلع مسروراً للقيام بالحج المقدس، وكان رجلاً جريئاً ومستقيماً، ومرحاً كثيراً إلى حد أنه كان بإمكانه أن يتفوق على أذكى المغنين بحركاته الهزلية الكثيرة، ولقد قيل بأن ثلاثمائة ألف رجل تبعوا رايته، عندما غادر أكوتين، وكان أيضاً ستيفن كونت بالاتاين، وبليوس موضع رفض وازدراء من قبل كل واحد تقريباً، وتعرض إلى اللوم بشكل مستمر لأنه هرب بشكل مهين من حصار أنطاكية، حيث تخلى عن رفاقه الأمجاد، الذين كانوا يتشاركون الآلام في المسيح، وقد تعرض إلى التوبيخ بشكل مستمر من قبل كثير من الناس، وبذلك أرغم على الذهاب بصليبية أخرى خوفاً من العار، وكثيراً ما حثته زوجته أديلا على فعل ذلك، وفي أثناء العلاقات الزوجية اعتادت أن تقول بعناية له:«إنه بعيداً عنك يا مولاي، أن تحط نفسك بتحمل

الازدراء من مثل هؤلاء الناس لـوقت طويل كهـذا، وتذكـر الشجـاعـة التي كنت مشهوراً بها أثناء شبابك، قم واحمل سـلاح الصليبية المجيدة، من أجل إنقاذ الآلاف، وبذلك سوف يتمكن المسيحيون من رفع الشكر عبر العـالم كله، وأن يكون نصيب الكفـار الـرعب، والإطاحـة العلنيـة بشريعتهم غير المقدسة».

وجـرى التفــوه بهذه الخطابات وأمثــالها من قبل السيــدة الحكيمـة والروحـانية، غير أنـه وقد كـان يعـرف المخاطر والمتـاعب تقـاعس عن القيام بمثـل هذا العمل الصعب للمرة الثـانية، وأخيراً استرد شجـاعته، وقــوته، وركـب الطريق مع آلاف كثيرة من الفــرنسيين، وثابر إلى أن وصل إلى ضريح الرب على الرغـم من المصـاعب المرعبـة التي واجههـا على الطريق، وفي تلـك الأثناء باع أربين بلدة بـورجي Bourges إلى فيليب ملك فرنسـا، وركب الطريق إلى القدس مع جـوسلين كورتناي، ومايلز أوف بري Bray.

وهكذا انضـم بسرور إلى الصليبيين الدوق ستيفن، وستيفـن كــونت بيرغندي، وستيفن آخــر هـو ابن ريشيلدا Richelda ، انضمـــوا مع أعداد كبيرة من المقـاتلين من بيرغندي، وانطلق أيضـاً[أنسلم أوف بيوس Buis] رئيس أسـاقفــة ميـلان، وألبيرت أوف بيندريت Biandrate ، الذي كان أكثـر السادة الطليان قوة، وقـام جميع هؤلاء الرجال بالحج من أجل محبة الرب، وعندما وصلوا إلى مقدونيا بعثوا برسلهم إلى الامبراطور ألكسيوس، وطلبوا منه منحهم مروراً آمناً وحق شراء المؤن.

وارتعب الامبراطور الداهيـة كثيراً تجاه الأخبار التي تحدثت عن قـوة غـريبـة كبيرة جـداً، وعن اقترابها، ومنحهـا على الفـور جميع مطالبهـا، وبحكمة وعقـلانية استرضى رجـالها، فهو قد عـانى مراراً من مـواجهة جرأة وشجاعة الشماليين تحت قيادة غويسكارد وبوهيموند، ولذلك كان حذراً جـداً تجاه عبورهم وخائفـاً من إثارتهم إلى القتال، ولذلك منحهم

أمـاناً بالمرور خـلال أراضيـه، ووافق بكرم عظيـم على جميع مطالبهم، ومنح هدايا كبيرة جـداً إلى قادتهم، وتدبر مـرافقتهـم بسلام وأمـان حتى كبـدوكيـة، التي هي وراء القسطنطينيـة، وجـرى هناك تعـداد جميع الموجودين في الجيـوش الغربية جميعهـا، فوجدوا هناك أكثـر من خمسمائة ألف من الرجال المقاتلين.

وتشاور القـادة الحكماء مع بعضهم حول الخطوة التـالية في رحلتهم، واتخذوا احتيـاطات لتجنـب المخـاطر على الطريـق، ودرسـوا أثناء مشـاوراتهم هذه المخـاطر، وتحدث كل واحـد منهـم إلى الآخـر حسبما يلي:«إننا حتى الآن سالمين، بسبب أننا كنا دائماً بين أصدقاء، نحن نعرف عـاداتهم ولغاتهم، لأننا منذ الوقت الـذي غادرنا فيـه أوطاننا حتى الآن جـرى استقبـالنا بلطف من قبل المسيحيين من أجل محبـة الآب العظيم، لكن من الآن فصاعـداً سوف يكون وضعنا مختلفاً تمامـاً، وإن عواصف الحرب ثائـرة بحـدة بين الامبراطور وبين بوهيمـوند، الذي هو متملك لأنطاكية، والأراضي التي سوف نمـر بها هي غير خصبة، وأقلع الأتراك بحملات متكررة عبرها وصـولاً حتى البحر، وهـم متشـوقون لقتل كل صليبي، مثل الذئـاب بتعطشهم الطبيعي إلى دماء الأغنام، دعـونا نصلي بتـواضع إلى الـرب طلبـاً للمسـاعـدة، لأننا محاطـون من جميع الجوانب بأنواع كثيرة مـن المخـاطر، وقـدروا أنكم تركتـم خلفكم امبراطوراً لا يعـرف الوفـاء ولا الإخـلاص ومعـه رعيتـه الذين ننظر إليهم بـريبـة قصوى، وإن على يميننا البحر مع كريت وقبرص ورودس المشهورة مع كثير من الجزر الأخرى، التي هي جميعها تحت سلطة الامبراطور، وينظر أهلها إلينا بازدراء وقرف بسبب سوء التصرفات والأخطاء التي اقترفها أبناء بلادنا الذين ذهبـوا قبلنا، وهناك إلى الشرق وإلى الجنوب الشعـوب البربريـة التي تمتلك جميع العـالم حتـى نهاية الأرض، وهي شعـوب متعطشة باستمـرار ودون توقف إلى سفك دماء الصليبيين، والطريق إلى

أنطاكيـة هو سفـر أكثـر من ثلاثين يومـاً خلال أرض مـزروعـة، حيث سنكون من دون طعام من أي نوع، لأن الأراضي التي كانت خصبة من قبل، قــد جـرى تـدميرها خـلال الحرب الطـويلة بين الامبراطور وبين بوهيموند، فما الذي يمكننا فعله بين مثل هذه المخـاطر العظيمة؟ فنحن مهجورون من جميع الجوانب».

وبعــد لأي، عندمــا جــرى الإصغـاء بعناية إلى آراء مختلف الناس وتفحصهـا، قـال دوق بواتو(١):«دعـونـا نرسل رسـلاً إلى الامبراطور، ونسأله بصــوت واحــد أن يـرسل كـونت صنجيل مـع سنان حــربة المخلص، وبذلـك يمكنه أن يقــودنا بأمــان خــلال الأراضي والبلدان الغريبـة إلى ضريح المسيح، فهو رجل حكيم ومحترم كثيراً، وكـان واحداً من أكثـر القــادة مكانة في الحملة الأولى، وهو معتـاد مـن خـلال طول تجاربه على المخــاطر وعلى الطرقــات التي لانعــرف عنهــا شيئاً، وهو مشهور جداً بين الصليبيين والكفار سواء، بسبب الشجاعة التي غالباً ما أظهـرها، وإذا ما أخـذنا هذا الرجل الذي هـو مثل فرجيل[في الحكمـة وعمق التفكير] ليكون دليلنا ومرشـدنا، نحن سنحصل على الضمانة من الامبراطور، وعلى الحماية ضد الكفار».

وبموافقـة عامة جـرى إرسال مبعوثين، أبلغـوا رسائلهم بشكل بليغ إلى الامبراطور، الذي بعـدمـا استمع إلى مطالب الغـربيين، أحـالهم على الفور إلى الكونت ريمـوند، الذي أصغى إليهم وقال:«بحـق نعمة الرب لقـد تحملت متـاعب كبيرة للاستيــلاء على القـدس، وبت منهكاً تالفـاً بتقــدم السن وبسبب شــدائــد كثيرة، وأنا أرغـب منذ الآن أن أعيش بســلام، ولقــد التجأت إليك يـا مــولاي الامبراطور، وأنا الآن تحت سلطانك، وفرني واستثني أرجوك، ولا ترغمني على القيام بحج آخر». وهكذا قـال الامبراطور إلى الرسل:«لقد سألت كـونت صنجيل فيما إذا

١ــ كذا ولم يصل وليم كونت بواتو ودوق أكوتين حتى تاريخ متأخر.

كان يرغب بمرافقتكم، غير أنه أوضح أن سنه وضعفه يحولان بينه وبين الانطلاق معكم، اذهبوا بسلام مأذونين مني، إنني لا أريد أن أخرج الكونت المتميز الذي التجأ إلى بلاطي، وفي الحقيقة ليس لدي حق في فعل ذلك»، وعاد الرسل على الفور، ورووا الذي سمعوه، وبما أن الجميع كانوا مشوشين تجاه هذه الأخبار، وشرعوا في تبادل الاقتراحات بين بعضهم بعضاً، قال لهم وليم بواتو وقتها:«خذوا أسلحتكم على الفور ودعونا نعود نلقي الحصار على القسطنطينية، دعونا نحاصر المدينة بجرأة وإقدام، وأن لا نعود حتى إما أن نقتل الامبراطور الآثم، أو أن نستخرج منه موافقته على مطالبنا التي تمنع عن إجابتها، فهو قد دمر آلافاً من المؤمنين بخداعه، وما لم أكن مخطئاً، إن أي واحد يأخذ حياة رجل أرهق الأرض وأفسدها، وإن شروره وخطره على الحشود سوف توفر مسوغاً يجعله قرباناً مقبولاً إلى الرب»، ولم يوافق ستيفن بليوس مع السادة الآخرين المعتدلين على هذا الاقتراح، بل عارضوه بتقديم حجج معقولة كانت تماماً صحيحة، وعلى كل حال قام الأكوتونيون والغسكونيون مع آخرين من الفوضويين الذين رغبوا بأن يداروا من قبل شباب طموحين، قاموا بتأييد الاقتراحات الحمقاء لقائدهم الشاب، لذلك عادوا على الفور، وحاصروا القسطنطينية لمدة ثلاثة أيام(١).

وعندما سمع الامبراطور بهجومهم، لم يعد في البداية حملتهم خطيرة، لأنه عرف بأن المدينة كانت كثيفة السكان، وكانت محاطة ومدافع عنها بسور ثلاثي، لكنه عندما لاحظ أنهم كانوا مصرين في جهودهم، أمر بإرسال ثلاثة أسود حادة وسبعة فهود وأن تساق إلى ما بين السور الخارجي والسور الأوسط، ووضع كذلك حراساً على السور الثالث، الذي في مواجهته كانت قد بنيت قصور النبلاء وأمر بإغلاق الأبواب،

---

١- يرجح أن القسطنطينية قد حوصرت في ربيع ١١٠١ من قبل عناصر غير مسؤولة من القوات اللومباردية، قبل وصول بقية الصليبيين.

وهكذا قرر بشكل ساخر إرعاب الغربيين وإبعادهم بوساطة حيوانات مفترسة، والدفاع عن المدينة من دون قوة بشرية، لكن خطط الرجال الدهاة هي لاشيء باستثناء إلا إذا سمحت الحكمة الإلهية، فعندما كان الغربيون واقفين جاهزين مسلحين في المعسكر ولم يجدوا أحداً يقف ضدهم، دخلوا بوساطة الباب الأول متشوقين إلى القتال، ونظروا من حولهم في الجهات كلها بأعين متفحصة، حيث كانوا متوقعين أن يجدوا مدافعين عن بلادهم، وعلى الفور وثبت الأسود المفترسة على أول الرجال الذين دخلوا، وجرحوا بعضهم بأنيابهم الحادة وبمخالبهم، ومزقوا الرجال الذين أمسكوا غير متوقعين، ولم تكن لديهم خبرة في قتال الحيوانات المفترسة.

لكن هجوم الحيوانات لا يمكن أن يهزم نباهة الإنسان لوقت طويل، فقد أرسل الأبطال المسلحون الرماح والحراب والنشاب الذي يصفر لقتل الحيوانات المفترسة، وبعدما قتلوا الأسود طردوا الفهود وطاردوهم لدى هروبهم إلى السور الأوسط، ثم إن الفهود زحفت مثل السنانير وقفزت فوق السور، ودخل الغربيون باب السور الثاني، وحاولوا الاستيلاء على الثالث بالهجوم، وفي المدينة كانت هناك فوضى ورعب عام، حيث أن جميع السكان صرخوا وتراكضوا في جميع الاتجاهات غير عارفين الذي عليهم أن يفعلوه في حالة الطوارىء هذه غير المتوقعة، وارتعب الامبراطور عندما سمع ضجيج الهجوم غير المتوقع، وأسف لأنه خدع بآمال كاذبة، وأرسل في النهاية رسل التماس إلى الحجاج والنبلاء، لتهدئة غضبهم بوساطة جميع أنواع الوعود، وأقنعهم بالإقلاع عن الهجوم على العاصمة الامبراطورية التي كادوا أن يخرقوا أسوارها.

وعندما عاد الفرنجة منتصرين إلى خيامهم، أرسل الامبراطور وهو حزين كونت طولوز، وقال له بأسف عميق: «أيها الكونت النبيل إنني

أناشدك بشيء من الضيق والإزعاج، وأطلب نصيحتك حول أفضل السبل للعمل في مثل هذه الأزمة غير المتوقعة، فإنك كما ترى، تجرأ الفرنجة برعونتهم وفي اندفاعهم الطائش في إلقاء أيديهم على المدينة الامبراطورية، التي هي حاضرة الشرق، وهاجموها بالقوة، وهذا خرق لسلطات الامبراطورية المقدسة، وإرغام لها على الركوع، لتجنب أشياء أسوأ، وإن ما يثير غضب الرب في حكمته الجبارة هو سفك دماء رعاياها المخلصين، فالجلالة الامبراطورية التي اعتادت من قبل على منح الشرائع إلى الأجانب وإلى السكان المحليين، هي الآن ويا للأسف مرغمة على قبول شروط فرضت عليها من قبل حجاج فوضويين»، وأجاب كونت ريموند قائلاً: «اعتاد أبناء بلادي في الغالب على هجمات من هذا النوع، وأنا على دراية تامة على تمرداتهم المزعجة التي يمارسها أفرادهم في مثل هذه المناسبات، وأنت يا صاحب الجلالة لا تحتاج بحكمتك إلى توضيح طويل وكثير العبارات، لنقم بعقد هدنة آنية مع مسببي التمرد، وهذا مطلوب من أجل الصالح العام، الذي في سبيله — إن لم أكن مخطئاً — كثيرون قد يفقدوا حياتهم، فالغاسكونيون المتعجرفون يطالبون بأن أرافقهم في رحلتهم، وبإلحاح يرغمونني على الذهاب إلى الحج ضد إرادتي.

ليس من دون ثمن يضغطون بطيش مثل هذه الخطط فأنا حزين بعمق، أيها الامبراطور العظيم، وآسف للأذى الذي ألحق بالامبراطورية المقدسة، لكنني لن أتفوه الآن بجميع ما هو في ذهني، فلسوف ننتظر إلى وقت الانتقام، عندما تجري عقوبة الوقاحة المزعجة لهؤلاء الناس الفوضويين، ونرى كيف أن أسوار القسطنطينية قد لطخت وتلوثت بدماء أبنائها، كما شهدنا هذا ونحن نشعر بالأسف والعار في هذه الساعة».

وتبادل الامبراطور والكونت مثل هذه الكلمات، وتآمرا كيف يجعلان أعداءهما يسددون بالدماء الذي صنعوه، واختار رسلاً متميزين، من

خلالهم تعهـد بنفسه، وارتبط نحـو الغربيين بيمين، وسألهم بتـواضع أن يذهبـوا بعيداً بسـلام، وأن ينتظروا قـدوم الكونت مع عشرين ألفاً من التـوركبليـة في كبـدوكيـا، وبعـدمـا تسلمـوا وعـد الامبراطور ويمينه، انسحبوا، واستراحوا لبعض الوقـت وعملوا تحضيراتهم، وبعد عدة أيام تبعهم الكونت، وأرسل الامبراطـور عـدداً من السفن محملة بنقـود من نوع Taurterons ، وأمـر بتوزيعهم على كل واحـد جدير بذلك تبعـاً لمراتبهم وأوضاعهم، وأطلق الإغريق على بعض النقود النحاسية المربعة الشكل اسم تارتيرون، وهـذه هي النقـود الإقليميـة لبـلاد الإغـريق وبيثينيـا، وتستخـدم للأعمال التجـاريـة مثل نقـود فيليب(المقـدوني) أو البيزنت، وبتشوق ولهفة قبل الحجاج الفقراء هدايا الامبراطور، جاهلين بالخداع والتـآمر الشريـر وراء هذه النقود السيئة، فبهـذه الوسيلة عـرف الباحث الداهية عددهم، عن طـريق إحصاء عدد الذين تسلموا، وذلك تبعـاً لكميـة النقــود التي أعطاها إلى كل واحـد، ثم إنـه أرسل تقـديراً بعـددهم إلى الدانشمند، وإلى قلج أرسـلان، وإلى أمـراء أتراك آخـرين، ونصحهم بحشد قوات جميع العالم الإسـلامي، وإرغامهم على الاشتباك في معركة في بافلاغونيا.

وكان رجـالنا جاهلين بالمؤامـرة، وكانوا مسرورين بوصـول الكونت، وقـد أقلعوا للقيـام برحلتهم، مع التوركبليـة الذين كانوا يعـرفون اللغـة الإغـريقية وعـادات البلاد التي جعلوهم يتيهـون فيها، وقـد تجولوا لمدة ثلاثة أسابيع في منطقـة صعبة حتى وصلوا إلى مـدينة غنغرة Gangra ، لأنهم ابتعدوا عن الطريق الذي يقـود مباشرة خـلال بلاد الروم وسورية إلى القـدس، وسـاروا على ممرات جـانبيـة خـلال بـونتـوس Pontus التي كـانـت فيما مضى عـاصمـة ميثـريداتس Mithridates الذي حـكم عـلى اثنتين وعشرين مملكة إلى الشمال وصـولاً حتى بافلاغـونيا Paphlagonia ، وأنا لست متأكداً فيما إذا كان الكونت صنجيل أضل

الطريق عن طريق الجهل، أو أنه أضل أبناء قومه عن قصد تآمري للقيام بالانتقام، وعندما سافر الصليبيون خلال أماكن وعرة، وأنهار خطرة، وغابات كثيفة، وترنحوا بعيدين عن بلدة غنغرة مدة ثلاثة أسابيع، قرروا الاستراحة هناك لبعض الوقت، فهاجمهم حشد كبير من المسلمين لا يمكن تعدادهم، لأنهم كانوا بقدر رمال البحر، وتحدوهم وهم جميعاً غير مستعدين فهكذا وجدوهم جميعاً وهم في غاية الإرهاق من خلال متاعبهم الكثيرة، وكان الأعداء قد جلبوا معهم زوجاتهم وقطعان مواشيهم، وأكواماً ضخمة جداً من الثروات محمولة على العربات، وبهذا كان بإمكانهم شخصياً حماية أكوام ثرواتهم، وإظهار أموالهم وعرضها أمام الأعداء والجيران سواء، وبذلك يمكن لمنظر ثرواتهم الواسعة أن يجعلهم مرهوبين عالمياً، وفي نهاية المطاف كانوا بالفعل قد تصرفوا هكذا حتى لا يكونوا بحاجة إلى أي صنف من أصناف الرفاه في البيت وفي ميدان القتال، ومع أن الصليبيين كانوا مرهقين بالجوع والعطش وبالمصاعب الأخرى، عندما فرضت المعركة عليهم أولاً، مع ذلك نهضوا إلى السلاح ناسين لمتاعبهم الماضية، واستردوا قواهم وشجاعتهم، وتعبأوا في صفوف قتالية، ولمدة خمسة أيام قاتلوا هناك ببسالة باسم الرب، وتبعاً لروايات حجاج موثوقين، لقد كان هناك خمسمائة ألف صليبي، وقد هوجموا بعنف شديد بما لايقل عن مليون مسلم، إن لم أكن حصلت على معلومات خطأ، وكان القتال من على الجانبين حاد جداً، وجرى قتل آلاف كثيرة، وفي اليوم الخامس عندما شاهد الأتراك أن أفواجهم أخذت تتراجع، بدأوا بقنوط يخشون من القوة التي لا تقهر للصليبيين، عندما أرسلوا أمراً عاماً إلى زوجاتهم اللائي كن في الخيام، وإلى الخصيان والتابعين الآخرين الذين كانوا يحرسون ثروات الزعماء، وأمروهم بأن يجمعوا بصورة سرية جميع ثرواتهم وأثاثهم، وأن يكونوا مستعدين للفرار من أمام وجه العدو في الليلة التالية، لكن الصليبيين، ويا لعارهم، لم يعرفوا بسقوط الأتراك، هم أنفسهم انهزموا، فعند

منتصف الليل قام الكونت ريموند مع توركبلية الامبراطور وقواته الإقليمية بإدارة ظهورهم، ومن دون معرفة القادة الآخرين شرعوا بالتسلل سراً والفرار، وعندما شاهد تابع كونت طولوز [الذي يحمل سلاحه]، وصدوراً عن شفقته على الجيش الصليبي قوض خيمة مولاه، حتى يعرف أصحابه بأن قد خانهم بفراره المفاجىء.

وقتل في المعركة ألبرت أوف بيندريت، الذي كان سيداً شجاعاً كثيراً، مع آلاف كثيرة أخرى أنا لا أعرف عددهم بدقة، أما دوق بواتو، وستيفن أوف بليوس مع سادة آخرين فقد فقدوا صوابهم لشدة رعبهم، لذلك حاولوا النجاة مع جيوشهم في اتجاهات أخرى، عندما علموا بالفرار الخياني الذي أقدم عليه أصحابهم، وبالنسبة للأتراك الذين أعياهم القتال، حتى أنهم رغبوا بالنجاة عن طريق الفرار بأنفسهم، فإنهم عندما عرفوا بأن الفرنجة أخذوا بالفرار، فقد استردوا شجاعتهم، وحملوا أسلحتهم وطاردوا الأعداء، وانقضوا على الساقة، فذبحوا آلافاً كثيرة، وحملوا معهم إلى حياة الأسر عدداً ممن كانوا في زهرة الشباب، ومات حوالي الأربعمائة ألف صليبي في الجسد، ولكن عاشوا بالروح بسلام سرمدي مع المسيح الذي ماتوا فيه.

وهرب كونت طولوز مع رجاله والتوركبلية عائدين إلى القسطنطينية، حيث بعثوا سروراً عظيماً لدى الامبراطور، بوساطة روايتهم عن المصير المأساوي للصليبيين، هذا وابتهج الدانشمند، وقلج أرسلان مع أمراء المسلمين الآخرين بسبب النصر المبين الذي نالوه، وأعادوا بشكل كامل إلى الامبراطور العدد الكبير من الخونة، الذين أعطيوا خيانة وخداعاً إلى الصليبيين، أعادوا بحجة اللطف، وأرسلوا إليه أيضاً نصف الأسلاب التي أخذوها من العدو المغلوب، وعلى هذا فإن الحانث الخانث بيمينه عمل صفقة مع الأتراك، وبهذه الطريقة باع المؤمنين إلى الكفار، وقد تلقى كميات كبيرة من نقود التارتيرون بمثابة ثمن لخيانته مقابل دماء الصليبيين، وقد تفاخر بحماقته.

وتمكن دوقا أكوتين وبيرغندي المتميزان مع نبلاء آخرين شجعان من النجاة، وأخفوا أنفسهم في وديان كثيفة وعميقة وأشجار كثيرة بقدر ما استطاعوا، وعاش في تلك المناطق سريان وأرمن مختلطين مع البرابرة، وعاشوا متفرقين في قرى تحت سلطة الأتراك، وقد دفعوا بشكل معلن ضريبة سنوية لشراء السلام والأمن، وكانوا أتقياء في ممارستهم العبادات المسيحية، وقد امتحنوا بالتنكيل مثل امتحان الذهب في الأتون، ولذلك انزعجوا كثيراً بسبب هزيمة الصليبيين، وقدموا تعاطفاً أخوياً إلى أي واحد وجدوه ضائعاً يتجول في متاهات وممرات صعبة، وساعدوهم صدوراً عن الشفقة، ولكن بقدر ما سمح لهم خوفهم من حكامهم الكفار، وقد أخفوا الفارين في مخابئهم، وزودوهم بالطعام هناك ووجهوهم في ظلمات الليل على طول الطريق الذي يقود إلى أنطاكية، وحموهم أثناء مرافقتهم لهم إلى جيرانهم وأبناء بلادهم الذين يعرفونهم، وجرى اقتياد الكثيرين بعيداً أسرى من قبل البرابرة إلى بلدان غير معروفة، وعاشوا في الأغلال بين أناس لم يفهموا كلامهم، وهناك بحكم قيامهم بواجباتهم تجاه خالقهم السامي تمتعوا بالنعمة، وتمت مساعدتهم بصورة إعجازية بطرق متعددة، مثلما كان بنوا إسرائيل بين الآشوريين والكلدانيين، وهكذا عاد كثيرون من الأسر، إما بالنجاة، أو بإذن من أمراء الفرس والشعوب الأخرى.

وهكذا إنه بعون الخالق الرحيم القريب دوماً لمساعدة الذين يحبونه، نجا حوالي المائة ألف صليبي، عاد بعضهم عبر طريق إيليريا Illyria ، وتابع آخرون طريقهم خلال مخاوف جمة ومصاعب كبيرة، وبالنسبة لدوق بواتو الذي غادر ليموزين Limousin مؤيداً بحوالي ثلاثمائة ألف رجل مسلح، وكان بشكل خاص مخافاً من قبل الامبراطور لحدته عندما حوصرت القسطنطينية، فقد كافح في أنطاكية كفقير متسول مع ستة من المرافقين، وجرى تجريد عدد كبير آخر من الدوقات والكونتات

المتميـزين والضبـاط من ثرواتهم، وبعـدمـا فقـدوا أتبـاعهم المحبـوبين وثرواتهم تحولوا إلى حياة البؤس وسط البرابـرة، لكنهم انتعشوا بالحفاظ على الإيمان الصحيح وعلى محبة يسـوع اللطيف، فقد بادروا مسرعين إلى ضريحه، ومع أنهم أعيقـوا بمختلف أنواع المصـاعب من خـلال أسرار حكمة الرب، كانوا متمسكين أقـوياء في الداخل بوساطة الرحيق الرباني الروحي، وكافحوا بكل وسيلة في قدرتهم لرؤية الأماكن المقدسة، لأنهم بسفك دمـائهم ربما سيكون بإمكانهم أن يصيروا شركـاء مـع الشهـداء المباركين، وبعـدما سكبوا دمـاءهم من أجل المسيح، إنهم الآن مبتهجون منتصرون، متوجون في السماء.

## —٢١—

حكم غودفري ملك القـدس لمدة عامين، وكان دوماً تقـريباً مشغولاً بالحرب ضـد الفلسطينيين، وبفضل شجـاعتـه العظيمـة، وسع حـدود مملكته، وبقي السكان المحليـون من الكفار في البلدات والقـرى بسلام، ولم يتجرأوا على التململ وإظهـار المعارضـة ضد الصليبيين، لكن لأنهم كانوا غير سعداء تآمروا بشكل سري لإلحاق الأذى بهم، وانتظروا بمكر قيام الفرصة ليفعلوا ذلك، وأخيراً تمكن سكان مدينة يافا من دس السم إلى الملك غـودفـري عندمـا كـان مقيماً هناك، وهكذا تسببـوا بوفـاة هذا الأمير الرائع مما سبب حزناً عظيماً للصليبيين، لقـد كان أول مسيحي— منذ الزمن الذي عـانى فيه مخلصنا من أجلنا في القـدس، والذي كرامـة منه وتشريفاً، تنازل أن يلبـس تاجاً من شوك من أجـل خلاص الجنس البشري— أرغم بوساطة انتخـاب لاهوتي على ارتداء التاج، وأن يدعى ملك القدس، في سبيل إلحاق الاضطراب بالكفـار، وعندما مات— كما قلت للتو— بدأ على التو نقاش لإيجاد خليفـة له كملك، وجرى إرسال رسل مسرعين إلى الرها، للإعلان عن وفـاة الملك وإخبار أخيه بلدوين، الذي دعي ليحكم مملكة القدس في مكان أخيه، وبناء عليه عهد بدوقية

الرها إلى قـريبه بلدويـن أوف لى—بورغ، وعبر هو نفسه خـلال أراضي العدو، وشعوب البرابرة، مثل صاعقة عند الصرفد، التي هي بلدة تابعة لصيـدا، فقـد واقف حـوالي الأربعين ألفـاً من الكفـار، وحمل عليهم بشجاعة مع عـدد قليل من الرجـال، وسبب لهم الرعب، وبقـوة الرب جعلهم جميعاً يفرون، وتابع رحلته فـرحاً منتصراً خلال اليهودية، وكان الأتراك الذين سمعـوا بمقـدمـه من قبل، قـد كمنـوا له وهم حـاملين لأسلحتهم، متـوقعين النصر، لكنهم خـدعوا بآمـال كـاذبة، وقـد هربوا بقـدر مـا استطاعـوا، وبادروا مسرعين عـائـدين إلى أوطانهم في خـوف عظيم، وخسارة وعار.

وبعـد استقبـاله من قبل المستقـرين بالقـدس، تناول بلدوين دفـة إدارة مملكة داود، وبقيت بين يديـه لحوالي اثني عشر عـامـاً، وقـد كـان رجـلاً وسيماً، وطويل القامة، معروفاً ومدهشاً لجرأته وشجاعته، لا يقهر، وقادراً على تحمل المشـاق، واسع الثقافـة بالآداب، ويتمتع بالفصاحـة والبلاغـة، وكـان كله منجمعـاً متميـزاً بكثير من فضـائله، وفي أثناء حكمـه، وصل ستيفن أوف بليوس والسادة الذين سميتهم أعـلاه إلى القدس، وذلك بعد محن كثيرة، وقـد استقبلوا بتشريف مـن قبل الملـك بلدوين والبطـريرك إيبريمار Ebremar ، وعندمـا أكمـل دوق بواتو أعمالـه التعبـدية في القـدس، رجع إلى الوطن مع بعض من مـرافقيـه، وما أن عـاد إلى الرفـاه حتى عاد إلى الفـرح حيث كان رجلاً مـرحاً، وكـان غالباً مـا يتحدث عن محن أسره(١) برفقـة الملوك والسـادة وحشود الصليبيين، وكـان يستخـدم النظم الشعـري مع بـراعـة في الانتقـال بين النغمات، لكن ستيفن أوف بليـوس وعدد كبير من الآخـرين بقيـوا في اليهـودية، بسبب حب المسيح، وقـرروا أن يقـدمـوا شجـاعتهم وجـرأة فـروسيتهم إلى الرب، وانتظروا وصول حاكم مصر، الذي علموا أنه كان على طريقه مع جيش عملاق.

١—هو لم يقع بالأسر.

—٢٢—

وعندما تسلموا أخباراً مؤكدة حول أن أمير مصر قد وصل إلى عسقلان، وكان قد عقد العزم على محاربة الصليبيين في اليوم التالي مع قوات كثيرة، شجع الملك بلدوين وستيفن مع بقية المؤمنين بعضهم بعضاً في الرب يسوع، وسلحوا أنفسهم بالإيمان لنيل نصر مجيد باسمه، إما بقتل أعدائهم أو موتهم هم أنفسهم، وأرسلوا قسماً من الجيش إلى يافا، وذهب الملك مع كتلة الجيش الكبرى إلى الرملة[١٧—أيار ١١٠٢]، لأنهم لم يرغبوا في أن يحاصروا في القدس، وبالإضافة إلى هذا هم لم يعرفوا أية مدينة سوف يهاجمها الأتراك أولاً، وبعد لأي قام الأمير مع جيشه الكبير بالهجوم على الرملة، ومحاصرتها، وحاول برمي المقذوفات وباستخدام مختلف أنواع آلات الحصار، أن يخرق السور، ولغمه بوساطة المعاول والمجارف، وكان هناك في المدينة بعض الفرسان المتميزين، لكن عددهم كان قليلاً، ولم يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية حتى يقاوموا ثقل مثل هذا الحشد الكبير، ولذلك نصح ستيفن، وأربين، ووليم سانس- أفوير Sans-Avior مع جميع الآخرين، الملك وحثوه، على أن يركب ويمضي بكل سرعة إلى القدس، وقالوا له:«اذهب بكل سرعة، أيها المولى الشجاع، إلى المدينة المقدسة، لأن هناك خوفاً من أن تذهب هذه القوة الكبيرة إليها وتحاصرها، حيث ليس فيها من يحامي عنها، فيدمروا مدينتنا الأم مع جميع أبنائها بهجوم مباغت، فأنت كما ترى نحن محاصرون هنا بالطريقة نفسها، وننتظر نهايتنا، واثقين بالإيمان بالمسيح، ندعو إلى خالقنا من أعماق قلوبنا، ونلتمس منه أن نكون شهداءه الحقيقيين، وأن نتطهر من ذنوبنا بسفك دمائنا باسمه، عسى أن نكون جديرين أن نرى مع قديسيه وجهه المبارك، وقد التفت بالرضا نحونا، وداعاً أيها الملك الصالح، غادر فوراً، مع أنه قد يكون من الصعب إيجاد أي طريق في الخارج خلال هذه الأفواج الكثيرة من القوات المعادية، ما لم تحطك الرحمة الربانية».

وتفوه السـادة القلقين بهذا الكلام، وتكلم آخرون باتجاه الغـاية نفسها إلى الملك، وحثوه على الخروج من خطـر أول إلى خطر أعظم، واستجاب من دون رغبـة إلى ضغوط هؤلاء السـادة الكبار، وقـام برفقة واحـد من الفرسـان بامتطاء مهره القوي والسريع، الذي اسمـه«الغزال»، وتسلل إلى خارج المدينة، وعبر أثناء الليل وبعون الرب خـلال عساكر الأعداء، دون أن يصاب بأذى، وعندمـا كان قد اجتاز معسكر الكفـار في الظلام، وكان يحاول أن يأخــذ طريقـه إلى القــدس عبر بعض الطرق الملتــوية، لاحظ الحراس الذين كانوا مداومين على المراقبة بأن فـارساً غير معروف قد عبر من هناك، فصرخـوا بـأصـوات مـرتفعـة، فأيقظوا العســاكـر، وطاردوا الهاربين، وكـانوا يصرخون بـأصوات حـادة، واستمـرت المطاردة لمسافـة ميلين، غير أن الملك الذي عـرف الممرات تابع جـريه نحو الأمـام، ونجا دون أن يصـاب بأذى، لكن بصعـوبـة كبيرة بعـون الرب، وعبر الجبـال، حيث تخلى وهو خـائف عن الطريق الذي يأخـذ إلى القـدس، وبألم جعل طريقـه عبر الشعـاب الجبلية والممرات الوعـرة إلى بلدة أرسـوف، حيث وجـد الحراس مستيقظين ومستنفـرين، وتحدث إليهم على الفـور، لكنهم كـانوا غير راغبين بإدخاله، ومع أنه قـال لرجال الحاميـة:«أنا بلدوين، لا تخافوا، أدخلوني»، لكنهم خافوا أن يكون العدو قد أعد خطة مخادعة، ولم يصدقـوه، حتى أوقدوا ناراً فـوق الأسوار، وعندمـا شاهدوا رأسـه، وقد رفع الخوذة عنه، وقتهـا سمحـوا له بفرح وسرور، وأعـاد تطمين رجـال الحامية، وأخبرهـم بالأنباء، وأمرهم بأن يستعدوا للدفاع.

ومن هناك امتطى الملك مهره الغزال، وبادر مسرعـاً إلى يافا، وبرفقته تابعـه الفـارس، وجـرى الترحيب به مـن قبل السكان عندمـا دخل إلى الأبواب، وأخبرهـم بالخبر الحزين، وقال:«إن عـدداً لا يحصى من الكفار يحاصرون الرملة، وهم يقـاتلون حتى الموت ضد رجـالنا المتمسكين بها، وأن السادات المشهـورين: كونت بالاتاين ستيفن أوف بليـوس، ومايلز

أوف بري، وأربين أوف بورجيس، ووليم ابن أفوير مع أخيه سيمون وعدد كبير آخر من السادة الشجعان مقبلون على أن يصبحوا شهداء في الرملة، وقد أرغموني على المغادرة، حتى أتمكن من إثارتكم وإثارة إخواننا الآخرين ليحذوا حذوهم، وقد طاردنا أعداؤنا بسرعة، وأنا أعتقد أنهم سوف يكونون هنا في أية لحظة، والآن إذا كنتم توافقون سوف نرسل رسولاً إلى القدس، ونأمر البطريرك وإخواننا حتى يقدموا مسرعين إلى عوننا ونحن وسط الخطر العظيم، وأن يقدموا في صفوف منظمة حسبما سأعينهم»، وبما أن الجميع وافقوا على هذا الاقتراح، دعا الملك واحداً من التابعين الشجعان، حيث قال له:«اذهب يا صديقي مسرعاً إلى القدس، وأحضر معك وأنت عائد قوة مسلحة من إخواننا إلينا، فإذا بقيت حياً وسلمت سوف أجعلك فارساً عندما نلتقي ثانية»، وقام على الفور بتنفيذ المهمة التي عهدت إليه بنجاح كبير، وبجدارة استحق أن ينال مرتبة الفروسية التي وعد بها.

ودمر الجيش البغيض العائد للكفار الرملة، وقتل أو أخذ أسيراً كل واحد جرى العثور عليه في المدينة، ثم بعدما ازداد هذا الجيش حماساً، زحف ضد يافا في اليوم نفسه، حيث غطى الأرض مثل سراب للجراد، وأرسل الكونت ستيفن مع الآخرين الذين عدوهم أسرى من النبلاء إلى عسقلان، ومكث رجال الجيش ليومين معسكرين، محاصرين للبلدة، وتراجعوا في اليوم الثالث، وانسحبوا مجللين بالعار مع الخسائر، لأن رجال حامية قلعة يافا شاهدوا رايات الجيش القادم من القدس على الجبال قرب قلعة البيرغنديين، وبسرور أوصلوا الأخبار إلى الملك، فحشد قواته من الأتباع، وشجعهم بكلمات حماسية حيث قال:« الآن جاء الوقت من أجل الفرسان الشجعان، إنها اللحظة الموائمة بالنسبة للأبطال النبلاء لينتقموا لرفاقهم وللكارثة، لأن الجبناء والكسالى هم الذين يعتمدون على مكر الثعالب والوحوش المماثلة، ها هنا كما ترون،

عند الأبـواب، عـــدو بغيض، مكـروه من قبل المولى الـرب، والمؤمنون جميعـاً، أقبلوا أيها المحاربون الشجعـان إلى السـلاح، واحملوا أسلحتكم، قومـوا بأبهة وفخامـة ضد أعـداء جميع الرجال الصالحين، دعـونا نحمل أسلحتنا، وأن ننتقم للرب، اخـرجـوا مـن المدينة واحملوا، طالما اقترب مـؤيدونا، وقـاتلوا بشجـاعـة مع الإيمان بـوجـود الحماية الربانيـة، واستعـرضـوا في قلوبكم جميع الأضرار والأخطاء، ودعـوا الأجـانب يشعـرون بقـوة أذرعتكم، إنهم قـد قتلوا الكونت ستيفن أوف أربين مع السادة الآخـرين، وأسروا فرسـاننا المتميزين وقادتنا، هـذا ما أعلنه لكم أيها السادة، وأنا أنتحب مثل أي واحـد موجـود في أي مكان من العالم، دعـوا أسهمكم الجديدة، بسبب مـوت أصـدقـائكم، تشعـل قلوبكم وتبعثكم على تدمير أعـدائكم، تذكـروا داود أشجـع الملوك وجنوده: أيوب، وأبيشـاهي، تذكـروا بانيـا، وأوريا الحيثي، وجـوناثان، ويهوذا المكابيين، وآخـرين كثـر أبطال مـذكـوريـن من شعبكم، دعـونا نخـرج ونشتبك بالقتـال، وإن جيش القـدس القـادم لمساعـدتنا سـوف يضرب الكفـار من جهـة أخـرى، وليكن عمانويل الجبـار ابن مـريم العـذراء المباركة، الذي هو ملككم وقائدكم، والمدافع عن الكنيسة، معكم».

وفي الوقت نفسه كـان جيش القدس قـد بات قريباً مـن قلعة أرنولد، وأصبحت راياتهم مشـاهدة من قبل الأتراك، وركع متعبـداً أمـام صليب الرب المقدس، وحملوا هذا الصليب، وهـم شاكي السلاح، وخـرجوا من الأبواب، وأقلعوا بهجوم عنيف على أعـدائهم غير المسلحين، هذا وعندما وجـد المسلمون أنفسهم، وقـد تعـرضوا للهجـوم من الجانبين، وهم غير مستعـدين، ومن دون خطة، شرعوا بـالفرار مع خـوف الرب في قلوبهم، وعـانوا من مأســاة مثل مأسـاة جيش هولوفيرنس Holofernes ، وطارد الملك بلدوين والصليبيون المسلمين بعيـداً حتى عسقلان، وهاجموا السـاقـة فقتلوا عـدداً كبيراً وخلصـوا جميـع الأسرى الذين أخـذوهم وسـاقوهم معهم، لكـن القادة الذين أرسلوا إلى عسقـلان فقـد ضاعـوا،

ونحن لم نستلم أية أخبار مؤكدة عن أي واحد منهم، باستثناء أربين، وهكذا إنه بعد محن كثيرة نال الصليبيون نصراً عظيماً باسم المسيح، وعادوا إلى القدس ومعهم كثيراً من أسلاب المسلمين، حيث قدموا بسرور الشكر للرب الذي انتصر معهم، واستردوا بعد ذلك الرملة، لتكون بوضع أحسن مما كانت عليه من قبل، وبتقوى أعادوا بعث الكرسي الأسقفي مع تبجيلات موائمة، وذلك باسم الرب، وأنا لا يمكنني هنا أن أكتب عدد القتلى بشكل أكيد، لأنني لم أكن هناك، والذين كانوا هناك كانوا مشغولين كثيراً بالقتل على أن يقوموا بالتعداد، وعادوا فقط لأخذ أسلاب القتلى.

—٢٣—

وحمل أربين أوف بورجي أسيراً إلى القاهرة، وحرس في سجن الأمير لأيام كثيرة، وكان يتذكر المحن الكثيرة التي كتب على الشهداء تحملها حتى الموت باسم المسيح، لذلك كان كثيراً يدعو إلى المسيح، ولهذا نال الطمأنينة منه، وفيما بعد أعيد إلى حريته الماضية، وبناء عليه قدم إليه شكراً خالصاً، وقد نال حريته وفق الطريقة التالية: زار تجار بيزنطيون القاهرة مع أنواع كثيرة من التجارات، وحسب مقتضيات شرائع الناس، دفعوا ضرائب محددة من الدولة للموظفين، ومكثوا هناك لبعض الوقت، ولأنهم كانوا مسيحيين، وامتلكوا ثروة كبيرة، زاروا كنائس المسيح، وتجولوا بين أماكن سكنى فقراء المسيحيين، وزاروا الأسرى المسيحيين، وهكذا جرى لأربين بعض الحديث معهم، وكلفهم بأن يكونوا رسله إلى الامبراطور ألكسيوس حاملين لهذه الرسالة: «إن عبدك أربين أوف بيرجي في حالة اضطراب عظيم، فهو منذ زمن طويل يئن في الزنزانات في القاهرة، وهو يطلب من عظمة جلالتكم الامبراطورية بتواضع بأن تعطفوا عليه، وتأتون إلى مساعدته، وتتوسطون مع الأمير لإطلاق سراحه وتحريره من آلام الأسر».

ولدى تسلم الامبراطور هذه الرسالة شعر بعاطفة رحمة كبيرة نحو النبيل الفرنسي، وأمر على الفور بوجوب قيام الأمير بإرسال أربين إليه، قائلاً: إنه في حال الرفض سوف يأمر بإلقاء القبض على جميع التجار والحرفيين المصريين في امبراطورية القسطنطينية كلها، وانزعج الأمير كثيراً وقلق تجاه هذا التهديد، فأطلق على الفور سراح أربين وحرره من أغلاله، وكرمه لبضعة أيام وأراه بعض الأشياء الثمينة، وأخيراً بعدما حمله ببعض التحف الثمينة وهدايا أخرى أرسله إلى الامبراطور، وبعد تحريره ذهب إلى الامبراطور في القسطنطينية، وشكره من أجل مساعدته الفعالة، وبعدما استقبله قدم جائزة منه إليه بإعادته إلى فرنسا.

وعلى طريقه زار البابا باسكال، وأخبره بقصة محنه وآلامه، وبإخلاص سأله تقديم نصيحة له حول سبيل الحياة، وقام البابا المقدر بعدما سمع أخبار صراعات البطل القاسية قال:«إن من المهم كثيراً بالنسبة إلى الإنسان الذي اغتسل بالحمام، وارتدى ثياباً حريرية جديدة بيضاء مثل الثلج، أن يتجنب السير فوق طريق موحل في ظلمات الليل، خوفاً من أن يقع في الوحل ويصبح ملوثاً بشكل مخجل أن يشاهد، انظر إلى قلبك يا بني، في ضوء هذا المثل، واعمل على تصحيح حياتك، فإنك قد تطهرت بالاعتراف والتوبة، وتلحفت بثياب القداسة أثناء متاعب حجك، وآلام الشهادة، وأثناء شقاء الأسر، لقد عملت توبة إلى الرب من أجل ذنوبك، وتعلمت الصبر والإحسان وبقية الأخلاق الحميدة من خلال الآلام، والليلة المظلمة هي حياتنا الحالية، التي هي ملوثة بظلام الجهل، والإنسان لا يعرف فيها إذا كان يستحق الحب أم الكراهية، ولا يمكنه أن يرى مسبقاً ما الغد مخبيء له، والطريق الموحل هو الحياة المدنية، التي عليك أن تبتعد عنها مهما كان الثمن، بسبب الخوف أن تصبح ملوثاً وأن تفقد تاج الآلام الذي به تمجدت، وخذ حذرك وانتبه أن لاتكون مثل«كلب قد عاد إلى قيئة وخنزيرة مغتسلة إلى

مراغة الحمأة»[بطرس ٢ / ٢ / ٢٢]، لا تحمل السلاح قط مرة أخرى ضد المسيحيين، وابتعد عن أبهة الحياة مثل واحد فقير للمسيح، وذلك كتابع للمسيح في أعمال العدالة، وتخل عن إرادتك من خلال الأمل في مكافأة سماوية، ولسوف تجد مباركة في ربح جائزة دعاءك السماوي مع المؤمنين في صدر إبراهيم»، وتلقى أربين مباركة البابا، وبإذن منه ذهب إلى فرنسا، وهناك استقبل بتكريم من قبل الناس، لكنه لم يمكث معهم طويلاً، حيث اتبع نصيحة البابا، أو بالحري نصيحة المسيح، فتخلى عن الدنيا، وتقاعد وذهب إلى كلوني، وأصبح راهباً، وقد حفظ في خدمة الرب حتى وفاته.

—٢٤—

ووقعت في هذه الآونة حادثة أخرى، كان لها نتائج خطيرة بالنسبة للصليبيين، وقد وقعت في سورية، فقد قاد الدوق الشهير مارك بوهيموند حملة ضد الأتراك، لكن أمير الدانشمند انقض عليه بشكل غير متوقع مع جيش كبير، فقتل كثيراً من الناس، وأسر بوهيموند مع رتشارد من الإمارة، وعدداً من الرجال الشجعان ذوي المراتب، واحتفظ بهم بالأغلال في زنزانته لمدة طويلة، ثم إنه عندما سمع تانكرد قائد الجيش بهذه المأساة بالنسبة لمولاه وقريبه حزن حزناً عظيماً، فحشد جميع جيش المؤمنين من المنطقة من حوله، وقوى أنطاكية وجميع القرى والبلدات من حولها بحاميات من الجند شجاعة، ودافع عن الإمارة بشكل مدهش ضد جميع الهجمات من أعدائه طوال مدة بقاء الدوق بالأسر، وفي الحقيقة قام هو بتوسيع حدودها.

وعندما علم الامبراطور الكسيوس بأن بوهيموند قد وقع بالأسر في أيدي الأتراك فرح كثيراً، وأرسل رسلاً مع كثير من الهدايا إلى الدانشمند، يحثه بإلحاح على أن يقبل فدية كبيرة عن بوهيموند، ويسلمه إلى الامبراطور، مقابل مائة ألف قطعة ذهبية، وقد فعل هذا ليس من

أجل إطلاق سراح الدوق وإعادته إلى حريته الماضية للدفاع عن المسيحية، بل من أجل إبقائه بقربه مسجوناً ومضيقاً عليه في سجنه الخاص إلى الأبد، لأنه كان منزعجاً كثيراً لأن بوهيموند قد أخذ مدينة أنطاكية منه، ولا ينكر أنها مدينة من مدن امبراطورية القسطنطينية، غير أنها كانت قد انتزعت من الامبراطور بالقوة من قبل الأتراك قبل أربعة عشر عاماً مضت، قبل قيام الشماليين بقتل يغي سيان، والاستيلاء على المدينة، وطالب الامبراطور دوماً بحقه، لكنه منع من تنفيذ رغبته بوساطة إصرار وشجاعة النورمان، وقد حاول مرات كثيرة، وبطرق عديدة، لكن مطالبه وأمواله كانت عاجزة أمام المسلمين والصليبيين سواء، فقد أخفقت محاولاته وبقيت المدينة في أيدي المنتصرين، أو على الأقل بأيدي الذين استولوا عليها بعد هزيمة المسلمين بشجاعة كبيرة، وبعدما فعلوا ذلك دافعوا عنها بأبهة مع عون الرب، وفي الحقيقة رفض الدانشمند التماس الامبراطور، وصمموا على إبقاء بوهيموند—الذي سموه إله الصليبيين الصغير—إلى الأبد في الأسر، لأنهم عدوا ذلك المجد الأعظم، وما من شيء يقارن بإيمانه الصالح.

وكان هناك إغريقي بيده بطركية أنطاكية تحت حكم الأتراك، وقد رفض أن يكيف نفسه مع المنتصرين النورمان، وقرر هؤلاء بعد الاستيلاء على الإمارة أن يفرضوا الطقوس اللاتينية على رجال اللاهوت والناس معاً، وكان هؤلاء هم الإغريق الذين تمسكوا بالأعراف القديمة، التي تعد فرضياً غير مقبولة، وبعد أسر بوهيموند انتشرت إشاعة بين الناس بأن الأسقف كان يعد العدة ليسلم أنطاكية خيانة إلى الامبراطور، وعندما علم بأن مثل هذا التقرير كان منتشراً ضده غضب غضباً شديداً، وأنا لا أعرف سبب غضبه فيما إذا كان مصدره فقط نقاء ضميره، أو أنه صعق بالخوف من التهمة بجريمة جادة، غير أنه تخلى عن كرسيه، وذهب إلى الدير، ولم يوافق مطلقاً على

العـــودة إلى هؤلاء الذيـن ازدرى عـاداتهم، المهـم أن الحكام الإغــريق للمـــدينة فــرحـــوا كثيراً عندمـــا تخلى عن البطركيـــة، وأرسلوا إلى بوهيموند—وهـو بالأسر—رسالة فيها كـامل التفاصيل حـول القضية، وطلبـوا منه نصيحتـه حـول تعيين بطريرك جـديد، فأمــر بنقل برنارد البروفانسي من أسقفيـة أرتاح إلى بطركية أنطـاكية، وكان برنـارد شماساً لدى أدهمر أسقف لى بوي، وعندما كان هذا الأسقف على فراش الموت أوصى به إلى بوهيمـوند كصديق خـاص إلى صديق خـاص، وهكذا إنه بناء على أوامــر الدوق انتخب رجـال الدين والشعـب برنارد، وجعلوه أسقفاً، وأقاموه على كرسي القديس بطرس الرسول وكان رجلاً صاحب ثقافـة عاليـة، ولكنه عندما صـار معروفاً من قبل رعيتـه أصبح مكروهاً بسبب جشعـه وحـدته الكبيرة، فقـد ارتفع من بين الشعب الكاثوليكي الطبيعي المتوحش، وقد حكم كنيسـة الرب لأعوام كثيرة، وشغل كرسي حكومتـه حتى سن متقـدم كثيراً، وهاجت في أيامه عـاصفـة ذات بلايا كثيرة كما قيل، وكما سيقال بوضوح أكثر فيما بعد.

وانتشرت أخبار وقـوع بوهيموند بأسر المسلمين حـول العالم، وبكى جميع المسيحيـون من أجله، لا بل حتى إن المسلمين أكـرمـوه في سجنه، وصلّت الكنيسة كلهـا من أجله، والتمست من الرب أن يخلصـه بكرمه من بين أيدي أعدائه، فالرب الرحيم، الذي خلق جميع الأشياء، ويعرف كيف يعاقب عبيده من أجل ذنوبهم، مثل ذلك يسـاعد بشكل إعجازي المحتاجين، والذين يدعـونه بتواضع، ويعمل حتى من خـلال أعدائهم، ويشجعهم بالأمل بأشيـاء أفضل، فهذا ما برهن عليـه إبراهيم ويوسف تحت فـرعون بين المصريين، وكـذلك توبياس وراغـويل تحت شلما نصر وسنحريب، وإيسار هدّون بين الآشوريين، ومثل ذلك دانيال والأطفال الثـلاثة والأبناء الآخرين في السبي البـابلي تحت نبـوخذ نصر، ومـردوخ الشرير بين الكلدانيين، وكـذلك إيسدراس ونحميـا ومردخـاي مع ابنة

أختـه تحت قـورش، وداريوس وأترا اكسرسيس بين الفـرس والميـديين، وهذا مـا عـانى منه الرسل وكثير من الـوعـاظ الآخـرين، عـانوا منه لسرورهم في مناسبات كثيرة، فعندما وصلوا أولاً إلى أمـاكن غريبة، بين أجـانب، ازدريـوا كغـرباء ومتسـولين، لكن بعـد وقت قصير، ظهـروا رائعين بسبب المعجـزات التي عملوها، وبـألسنتهم الموهوبة، وجلبـوا جميع السكان الذين رفضـوا من قبل جميع الخير، بثبات إلى الخضـوع إلى الشريعـة الربانية، وهكذا بالفعـل هو قد قـال:«أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»[يـوحنا: ٥ / ١٧] وفي الأيام الأخيرة تمت زيارة هـؤلاء الأبطال في سجـونهم، من قبل الذي صـدوراً عن العجب تجاه أعماله اللاهوتيـة التي أنا أكتب عنها لإعلام الأجيال المقبلة، وقد جلب لهم سروراً عظيماً مع الرحيق الإلهي الحلو للطفه، وإن الفـانين تجري مطاردتهم ومعاقبتهم بسيـاط الظلم بسبب الذنوب، التي الإنسـان عرضـة لها بسبب ضعفـه، وفيما هم يتألمون تحت السيـاط هم مـرغمـون وهم يبكون على التماس الرحمة من الخالق السماوي، لكن الرب ملكنا الذي يحفظ الذين يضعون ثقتهم به، هو قـوي قادر على تحمل التماسـات قرينتـه الكنيسة، فهـو قد أعـان الدوق الأسير ورفاقـه بوساطـة ذكاء ومسـاعدة ابنة عـدوه، مثلما ساعـد شعبه العطشان في بيت أوليـا بشجاعـة الأرملة الباسلة يهوديت، عندما قطعت عنق هولو فيرنس المتجبر.

وكـانت مـلاز Melaz ابنة الدانشمنـد جميلة وحكيمـة جـــــداً، وامتلكت سلطة كبيرة في بيت أبيهـا، واستحـوذت على ثروات عظيمـة وعلى الكثير من العبيد لخدمتهـا وتلبية طلباتها، وقـد أحبت هذه السيدة الفـرنجة حبـاً عظيماً عندمـا سمعت عن براعتهم العظيمـة، وغـالباً مـا تشوقت للتمتع بمرافقتهم، وبعـدما وزعت رشاوى كبيرة على الحراس، أرادت أن تنزل إلى الزنزانة، وتدخل في مناظـرة ذكية مع الأسرى حـول الإيمان المسيحي والعقيـدة الصحيحـة، وتعلمـت حـولها من خـلال

المناقشات المستمرة التي تخللتها تنهدات عميقة، وعنى لطفهم ودماثتهم بالنسبة إليها أكثر مما عناه حبها لأبويها، وقد اشترت لهم كميات وافرة من جميع أنواع الأطعمة والملابس التي احتاجوها، وإما أن والدها، الذي كان مشغولاً بشؤون أخرى كثيرة، لم يعرف شيئاً عن هذا، أو أنه اعتمد ضمنياً على أخلاق ابنته المحبوبة، ولذلك لم ينزعج من ذلك.

وبعد مضي عامين، تفجرت حرب أهلية سيئة جداً، بين الدانشمند وأخيه قلج أرسلان، ذلك أنها بدأت بهجوم ضد الدانشمند، فقام بحشد جيش كبير هاجم فيه أراضي أخيه، وأثاره بسرعة للدخول بالقتال ضده، ونهض الدانشمند واستثير بهذا الهجوم، فحصل على التأييد من كل جانب، وبينما كان هو نفسه ثملاً بكثير من الانتصارات الماضية، كان متعطشاً إلى الصراع الدموي، ولذلك عندما اقتربت ساعة المعركة نزل إلى الميدان مع أفواجه، وفي الوقت نفسه تحدثت ملاز على انفراد مع الصليبيين، وخاطبتهم بهذه الكلمات: «لقد سمعت الثناء على فروسية الفرنجة من قبل كثيرين، ومنذ مدة طويلة، والآن في وقت حاجة أبي الملحة، أريد أن أجرب هذه الفروسية، وبذلك فإن ما سمعته أذناي سوف يتأكد بعيني»، وأجابها بوهيموند: «أيتها السيدة الأكثر سعادة وشرفاً، إذا كان يرضي معاليك في لطفك بأن يسمح لنا بالذهاب إلى ميدان القتال مسلحين من أجل النزال، كوني متأكدة بأننا سوف نعرض كم هي ضربات الفرنجة جبارة بالسيف والرمح، ولسوف نقدم عرضاً جيداً لضرباتنا ضد أجساد أعدائك، وذلك أمام أعين شعبك»، وقالت السيدة: «عدني بإيمانك كمسيحي، أنه في القضية التي كنا نناقشها، أنك سوف لن تقدم على عمل أي شيء ضد أوامري، أكد لي هذا بالإقسام بدينك، وإنني سوف لن أتردد بعد الآن في كشف أسرار قلبي لك».

وكان بوهيموند أول من أقسم يميناً حول الذي سألته، وأقسم الآخرون كلهم من بعده، وأعطوا عهودهم إلى الفتاة حسبما طلبت، ثم

إنها قالت بسرور:«الآن اعلم أنني أستطيع أن أثق بكم، لأنه باعتقادي أنكم رجال لن تخضع عهود شرفكم إلى المساومة قط، قدموا المساعدة إلى أبي الذي على وشك الدخول في القتال، وبرهنوا على شجاعتكم النبيلة بالذهاب على الفور إلى مساعدته، وإذا كان النصر من نصيبكم—كما أنا واثقة أنه سيكون—تمنعوا عن مطاردة العدو الهارب، وعودوا إليّ مسرعين، وأنتم بكامل السلاح، ولا تلقوا بأسلحتكم ولا تنزعوها حتى أعطيكم أنا أمري، وفي الوقت نفسه سوف أجعل جميع الحراس ينزلون من الغرفة العليا في البرج الأعلى، إلى الأبواب السفلى، ويقفون معي في الساحة كأنهم ينتظرونكم، ولكن عندما تعودون، وعندما سأعطى الأوامر لوضعكم بالأغلال كما كنتم من قبل، عليكم إمساكهم بجرأة، واعتقلوا الجميع بشدة وألقوهم في الزنزانة مكانكم، وعند مشاهدة هذا سوف أهرب منكم وكأنكم ذئاب مفترسة، وعليكم احتلال أقوى الأبراج وأن تحرسوه بتصميم إلى أن تعقدوا هدنة مرضية مع أبي، وهناك أبواب عند قمة البرج، من خلالها يمكنكم النزول بوساطة درج حجري يقودكم إلى أماكن ثروات أبي وقاعاته، إنما إذا رغب أبي وهو غاضب أن يعاقبني لهذه الجرائم، عندها أرجوكم، يا أصدقاي الذين أحبهم كما أحب حياتي، القدوم على الفور لإنقاذي».

وعندما فرغت من كلامها هذا، سلحت الفرسان، وبعثت بهم إلى الخارج على الفور، وكانت قد تمكنت من خديعة الحراس في البرج وأفسدتهم، وبعدما أخبرتهم عن المسألة، قالت بين أشياء كثيرة:«إنني قلقة كثيرة ومزعوجة وأشعر بخوف كبير من أجل أبي، لأن حشوداً من شعوب كثيرة تجمعت للحرب ضده، إنما لأنه مقاتل شجاع هو لن يتوقف ليطلب المساعدة من الأسرى، وعلى كل حال يمكنني أن أخبركم بأنه قد فوضني بمعالجة هذا الأمر، أعني تزويد الصليبيين بالسلاح وإرسالهم إلى القتال لمساعدة قواتنا، وإنهم إذا ما هزموا قوات

العـدو، فإن الشرف والربح سوف يكون لنا، وإنهم—على كل حـال— إذا مـا أخفقـوا وقتلوا بسيوف أعـدائنا، إننا لن نبكي لفقـدان أجـانب، عـاداتهم وديانتهم مـزدراة من قبـل جميع الشعـوب الإسـلاميـة»، وقـد أصغـوا إليها، وبامتنان وشكر وافقـوا، وبحـرارة مدحـوا حكمة الفتـاة وبصيرتها، وعلى الفـور حـرروا الأسرى، واقتـادوهم إلى خـارج بيت الاعتقال، وأرسلوهـم—مسلحين تماماً— إلى المعـركة، ووجدوا الجيشين وقد انخرطا في صراع عنيف، وبثقـة تفوهوا بنداء الحرب لدى النورمان وهو (die ux aide) ، وبسبب صراخهم وحملتهم العنيفـة تزحـزحت أفـواج قلج أرسلان، وقـد كـان في جيشه عـدد من الصليبيين، وعندمـا لاحظوا الدوق بوهيموند المشهور، عبروا عن فرحتهم، وتخلوا عن قلج أرسلان، وألقوا بثقلهم مع الكاثوليك.

وعندما سمع مزربان الابن المتجبر لقلج أرسـلان بأن بوهيموند كان هناك، حمل إلى داخل الميدان، ودعاه بالاسم، حيث كـان متشوقاً لمنازلته بمبارزة منفـردة، والتقيا أخيراً تحت عيني الدانمشنـد وسددا إلى بعضهما بعضـاً ضربات شديدة، لكن المقـاتل النورمـاندي صرع التركي، واستل سيفـه فقطع رأسه، ووقتهـا صرخ الدانشمند«دعه، دعـه» إنه ابن أخي، وأدرك البطل الصليبي الـذي فعله، وأخفى سرور قلبـــه، تحت الملامح الآسفة لوجهـه، فرد بشماته«عفـواً يا سيدي، إن الذي فعلتـه صادر عن الجهل، فقد عددته عدواً، وليس ابن أخيك، وقد قتلته لأرضيك».

وبعــد كثير مــن القتل من على الجانبين، تمزق جيش قلـج أرســلان، وطاردته قـوات العــدو بقيـة ذلك اليـوم، وعــاد الصليبيـون—على كل حال— وفقاً لاتفاقهم، عادوا على الفـور، فوجدوا سيدتهم بانتظارهم مع السجـانين أمام البرج، وقـالت على الفور للحـراس«إن الفرنجـة هم بلا شك رجـال يحافظون على وعـودهم، وسـوف يحافظون على العهـد الذي قطعــوه إليّ، اذهبـوا إليهم، وخـذوا أسلحتهم واستردوها، ورافقــوهم

عائـدين إلى سجنهم السالف، إلى أن يعود والدي ويعطيهم جـوائز كبيرة مقابل قـوتهم»، وتحرك الأتراك لإطاعة الفتاة، لكن الفرنجـة أحاطوا بهم، وألقوهم كسجناء في الزنزانة، وأغلقـوا الأبواب وأقفلوها بعناية، واحتلوا الغرف الداخلية للبرج، من دون إحداث أي اضطراب، وبنجاح توصلوا إلى أهدافهم، من دون سفك للـدمـاء، وكـانت البلدة كلهـا فـارغـة من الجنود، لأنهم كـانوا جميعاً قـد ذهبـوا إلى القتال، وفقط شغلت زوجـاتهم وأولادهم المرتجفون البيـوت، وكانت الزنزانة في برج قـوي جداً، ومخازن الثـروات الغنيـة ومختلف أنواع الأثـاث والثـروات العظيمـة التي كـانت محفوظة هناك، وكان القصر الأساسي متصلاً بالبرج.

وفي الليلة التاليـة جلبت ملاز الصليبيين من البرج إلى القـاعة، وأرتهم جميع الغــرف والمداخل والحجـر السرية، ووجهتهم حــول الذي عليهم عمله عندما سيعود الدانمشند، وفي اليـوم التالي عاد المنتصر إلى البيت مع الحكام والضبـاط والنبـلاء، وركضت ابنتـه مسرورة لتحيتـه مع الفتيـات الأخـريات وقـالت:« مرحبـاً أيها القـاهر العظيم» غير أنه أجـابها بسخط عظيم قائـلاً:«اصمتي أيتها العاهرة بلا حياء، أنا لا أريد تحيـاتك الجوفاء، احتفظي بأماديحك الزائفة التي لا تسـاوي قشة، وبشريعة محمد(صلى الله عليه وسلم) المقدسة، الذي أعطاني النصر، سوف أجعلك تموتين غداً مع أحبائك، فأنت أعطيت السلاح إلى أعدائي من أجل إلحاق الضرر الكامل بي، وأنت معهم سـوف تحرقين بلهيب النار كخونة مـدنسين»، وإلى تلك السـاعـة لم يكن يعرف بأن حـرسه مسجونين في الزنـزانة المظلمة، وأنه في الوقت نفسه يتمتع النبلاء الفرنجة بالحرية في أعلى البرج، وكانوا يتآمرون لمحاربته بعون المسيح، وهربت الفتاة وهـي شاحبة ترتجف، من أمام أبيها الغاضب، لتلوذ بغرفتها، وهي بائسة خائفة.

وعندما بعد عدة ساعات كـان الأمير الغاضب جالساً للقضـاء، ومعه فقط نبـلائـه الرئيسيين، لأن البقيـة مـن رجـاله، والسـادة وبقيـة الخدم

والأتباع، كانوا قد توزعوا وذهبوا إلى مساكنهم، وكانوا يعتنون بخيولهم وأسلحتهم ويقـومـون بواجباتهم الأخـرى، وقتهـا أمـر بعض رجـاله بالذهاب إلى غـرفة ابنتـه، وجلب الخائنة الطائشـة إليه، وعندمـا دعيت ووقفت أمـام الطاغية الغـاضب ومن معـه وحـدها من دون مساعـدة، وسمعت تهديداته المرعبة وشتائمـه، نظر بوهيموند من البرج من خلال نافـذة إلى القصر، فشـاهد محررته واقفـة لوحـدها أمام منصـة القضـاء، عندها قـال بأسف:«انظـروا إن حـاميتنا في حـالة بائسـة كثيراً، علينا أن نذهب ونسـاعدها بكل مـا أوتينا من قوة»، وعلى ذلك تسللوا وزحفـوا بحذر من البرج، ونزلوا على السلم إلى القـاعة، وبما أنهم كانوا مسلحين فقد تفوقوا على الدانمشند وجميع ضبـاطه وأصحابه وقهروهم، وأغلقوا أبواب البيت، واحتلوا جميع الدفـاعات من حـوله، وكانوا جميعـاً ممتلئين بالرعب والشك حـول الـذي عليهم عمله، ولم يستطع الأتراك الخروج والنجـاة لأن الأبواب كـانت مغلقـة، وكـانوا غير قـادرين على التسلل والخروج، لأنه كانوا مطوقين برجال مسلحين، ولأن عـددهم كان قليلاً وغير مسلحين، كـان لا يمكنهم المقـاومـة، أو القتال ضـد رجـال أكثـر عدداً وأفضل تسليحـاً، منهم، وكان الصليبيـون من جهتهم قادرين على تمزيق جميع الأتراك الـذين كـانوا هناك، ولكـن بسبب القسم الذي أدوه للفتاة لم يتجرأوا على تسـديد ضربة أو إلحاق الأذى بأي واحد من دون رضـاها، ولذلك نظر الجميع إليهـا، وانتظروا الذي يمكن أن تأمـر به، لأنهم كانوا عازمين على عدم الحنث بتعهداتهم.

وأخيراً عندما شعـرت ملاز أنها باتت آمنة، بدأت تبتسم، وحيث أنها امتلكت الأمر على الفـرنجة، وصارت بمثابة سيـدة لهم قالت:« والدي العزيز أنت غاضب علي من دون سبب، وقد هددتني بتهديدات مرعبة، وكدست عليّ الشتائم بسبب مساعـدتي التي جاءت في وقتها، وصدرت عن اهتمامي بك، وشعـوري بالمسـؤوليـة نحـوك، فبعناية مصحـوبة مع

لطف كبير، جهزت الفرنجة الذين ساعدوا رجالك أثناء الصراع، وبفضل أعمالهم خرقوا صفوف الأعداء بسرعة أكبر، واعلم جيداً وأدرك تماماً وأعرف كم أن الصليبيين شرفاء، فلقد ساعدوك بإخلاص أثناء القتال، فعندما هاجموا العدو، أدار ظهره وهرب، حتى أن شبه الأعمى يمكنه أن يرى أنهم امتلكوا الفرصة كلها للنجاة، لكن بما أنهم لم يرغبوا بالمغادرة من دون إذن منك، عادوا متطوعين، وبثقة سألوا منحهم جائزة من أجل فروسيتهم من كرمك، وفي هذه اللحظة أيديهم على مقابض سيوفهم، ولديهم القدرة على قطع رقابنا لو أنهم اختاروا ذلك، وبأيديهم القلعة والقصر بكل ثرواته التي فيه، وبما أن حراسك أسرى، لا يمكن التفوه بكلمة ضدهم، وبهذه الأحوال فكر يا أبي بعناية قبل أن تعمل، وتشاور بحكمة مع مستشاريك الذين هم معك».

وما أن فرغت السيدة من كلامها هذا حتى وضعت نفسها على رأس الصليبيين، في حين انسحب الدانشمند جانباً مع رجاله ليطلب نصيحتهم، ثم إنه عاد إلى مجلسه وبعدما جلس قال:« نحن نرغب أولاً يا ابنتي أن نسمع الذي توصين به»، وعلى هذا أجابت:« إنني لن أتردد بقول ما أعتقد أنه موائم، اعقد صلحاً مع الصليبيين، ولتكن هناك معاهدة لا يمكن خرقها تربطكم معاً طوال ما أنت على قيد الحياة، وحرر جميع أسرى الصليبيين الموجودين في أي مكان من أراضيك، واجعلهم بالمقابل يطلقون سراح جميع الذين من قومك تحت سلطانهم، وامنح مكافأة مناسبة للخدمة الجيدة التي قدمها بوهيموند وأتباعه من الفرسان، الذين بعونهم الذي جاء في وقته، ربحت المعركة، وبالإضافة إلى هذا كله دعني أخبرك بأنني مسيحية، وأود أن أولد من جديد من خلال قداس الدين المسيحي، ولن أمكث بعد الآن هنا معك، لأن الديانة المسيحية مقدسة ومشرفة، وديانتك مليئة بالباطل، وملطخة بجميع أنواع الدناسات.

ولدى سماع الأتراك هذا الكلام، غضبوا غضباً شديداً، وأظهروا انزعاجهم من خلال عيونهم المتقدمة وحركاتهم القاسية، لكن الرب كبلهم، لذلك لم يكن بمقدورهم تنفيذ ما فكروا به وشعروا به من كراهية في قلوبهم الشيطانية، وبلورته إلى عمل، وعندما كانوا يتداولون حول ما ينبغي فعله، دعت ملاز الصليبيين جانباً وقالت:« الآن أيها الفرسان الشجعان، الذين برهنتم عن جدارتكم في كثير من المتاعب والمخاطر، وجئتم إلى هنا من بلدان نائية بمحض إرادتكم، وعشتم بعدما أكملتم بشجاعة كثيراً من الأعمال الصعبة والمعارك، اعملوا بجرأة باسم ربكم الذي أعلنتم أنه قدير، وإنكم تحتاجون الآن كل من الشجاعة والبراعة في السلاح حتى تجلبوا إلى نهاية مجيدة المخاطرة التي بدأت بشجاعة كبيرة، إن أبي غاضب جداً، وهو يتآمر مع رجاله لتدميرنا بكل وسيلة ممكنة له، وإلى الآن تمسكتم بإخلاص بالشروط التي اقترحتها لكم، ومن الآن فصاعداً أنا أحللكم من تعهداتكم التي قطعتموها على أنفسكم باليمين، قوموا الآن بتحصين القلعة والقصر، والسور من حول الغرف صغيرها وكبيرها، وأديموا الحراسة والمراقبة بدقة، واحرسوا المداخل حتى لا يمكن لأحد الدخول أو الخروج من دون معرفتكم، لأنه إذا ما غادر أبي هذا المكان، فسوف يدعو جميع الشعوب المجاورة، ويحاصركم بوحشية، حتى يصل بكم إلى الموت أو إلى الاستسلام المهين، لذلك أبقوه سجيناً مع جميع أصدقائه في غرفة واحدة، وأرغموهم على عقد الصلح، مستخدمين كل قوة ضرورية، لكن أبعدوا أيديكم—بقدر ما هو ممكن— عن سفك الدماء، وإنني أعهد بهذه الخطة والإشراف على هذا المنهج الذي أوصي به إليكم، يا لورد بوهيموند، لأنك رجل واسع التجربة، وتقديرك السليم، وحسن تفكيرك ممدوح في العالم أجمع، ومن الآن فصاعداً سوف أكون ملتحقة بكم بمثابة أخت، وسوف أشارككم الفرح والترح بالإيمان بربنا يسوع المسيح.

وهكذا فرح بوهيموند كثيراً، وضغط بعنف على الدانشمند وحبسه مع رجاله في الغرفة، ووضع حرساً مسلحاً على السقف، ثم وزع الفرسان الآخرين ومركزهم في مواقع متعددة، وأصدر تعليماته إلى كل واحد حول الذي عليه عمله، وبهذه الطريقة استبد بالقصر الملكي، وبجميع الذين كانوا به لمدة خمسة عشر يوماً تقريباً، وسمح لزوجات الرجال ولخدمهم من النساء وللخصيان غير المسلحين بالدخول، وأن يجلبوا إليهم ما يكفي من إمدادات الطعام وجميع الأشياء الأخرى التي احتاجوا إليها، واشتكى الدانشمند بمرارة من أن بيته أصبح سجناً، وأن ابنته هي السجانة التي سجنته بإحكام، ولذلك شتم ربه، وشتم محمد(صلى الله عليه وسلم) بصوت مرتفع، وصب اللعنات على جميع أصدقائه ورعاياه وجيرانه، لأنهم سمحوا بأن يعامل بمثل هذا السوء في قلب مملكته من قبل عدد قليل من الأسرى الأجانب، وأشار عليه السادة الذين كانوا مسجونين بأن يعقد صلحاً مع الصليبيين، حتى يمكنهم—على الأقل— النجاة بأرواحهم، وبعد لأي تنازلت الشدة أمام الخوف، فتكلم مع بوهيموند، وطلب أن يعقد صلحاً معه، ووعد بأن يسمح له ولرجاله بالمغادرة بحرية، وبتحرير جميع الأسرى الذين كانوا يعانون تحت حكمه، وعرض عليه ابنته ليتزوج منها.

وعندما سمعت ملاز هذه الاقتراحات من بوهيموند، أجابت بذكائها:«الكلام سهل التفوه به، لكن ليس كل الكلام يمكن تصديقه، أصغ بأدب إلى الكلام الناعم، لكن ليس للوعود المراوغة لأبي، وتابع في الوقت نفسه مراقبة مشددة على جميع الأماكن التي تحت سلطانك إلى أن تكون متأكداً من السلامة خلال نصر محدد، أحضر رسلاً مقبولين من الجانبين وأرسلهم إلى أنطاكية ليجلبوا معهم قوة مسلحة من فرسانك، فمع تأييد هؤلاء يمكنك أن ترافق بشرف ومن دون خوف الخداع، إلى أن تصل إلى أرضك، وبهذه الطريقة سوف تنجو من المصائد الغادرة،

لجميع الذين يتمنون لك الشر»، وأرضت هذه النصيحة الجميع، ولذلك جرى إرسال رتشارد الذي هو من الإمارة، وسركيس الجزري، إلى أنطاكية، وقد أخبرا الناس في المدينة الخبر الذي أبهجهم جميعاً حول سير الأحداث، وأرسل تانكرد الذي كان قائد الجيش، على الفور موظفين لإحضار فرسان المسلمين وأسراهم، وعندما اجتمع هؤلاء سلمهم إلى السيد رتشارد وسركيس لمرافقتهم عائدين، وفي تلك الآونة أطلق سراح ابنة يغي سيان، أمير أنطاكية، وكانت تبكي بمرارة عندما أخرجت من سجن الصليبيين، وعندما سئلت عن سبب بكائها بهذه الحرقة، أجابت بأن ذلك كان بسبب أنها لن تستطيع بعد الآن أكل لحم الخنزير اللذيذ، الذي يأكله الصليبيون، فالأتراك وكثير من شعوب المسلمين الآخرين لا يأكلون لحم الخنزير، مع أنهم يأكلون بمتعة لحوم الكلاب والذئاب، مظهرين بأنهم بهذا أنهم لا يأخذون لا بشريعة موسى ولا شريعة المسيح، وأنهم ليسوا يهوداً ولا مسيحيين.

وفي تلك الأثناء كانت هناك أحاديث متناوبة بين الدانشمند وبين بوهيموند، وبما أن بوهيموند كان رجلاً حكيماً وصبوراً، فقد عامله بأدب وأطراه إلى بعض الحدود حتى يحصل على شروط أفضل منه، من أجل الكثيرين الذين كان الطاغية قادراً على ظلمهم، وبهذه المجاملة والكلام اللطيف هدأ كلا من الدانشمند والذين كانوا معه، ونال عطفه بسبب لطفه وأدبه الزائد في المصاحبة، وقليلاً ثم قليلاً عرف الموظفون الإقليميون والنبلاء الحاكم الجديد، وبذلوا كل جهد ليحصلوا على المعلومات حول الأمير الأجنبي الذي كان سيد أميرهم الحقيقي، وعندما تكلموا مع سيدهم، بناء على إذن بوهيموند، أطروه كثيراً وحثوا سيدهم الطبيعي من أجل أن يعمل في سبيل منفعة الدولة، ونصحوه في أن يحاول ربح صداقة الدوق الكبير بكل وسيلة من الوسائل، وغالباً ما ذكروه بقول المهرج الهزلي:

بها أنك لا تستطيع أن تفعل ما تريد، ارغب بها تستطيع أن تفعل

وقد أضافوا وزادوا قولهم:«نحن أضللنا بسوء في النصر الذي نلناه مؤخراً، لأننا استخدمنا الخلفاء القادرين، الذين هم أعداء لديننا، من أجل قتل أبناء جلدتنا، وبشر وحماقة وجدنا سبباً للسرور بخسارتنا العامة، إن إلهنا محمد(صلى الله عليه وسلم) البغيض قد تخلى عنا وهجرنا، وسقط عاجزاً أمام رب الصليبيين، انظر كم بروعة وإدهاش، عمل المسيح المصلوب—الذي يسمونه القدير، وهذا صحيح بما أن أعداءهم يعرفون ويشعرون، على حسابهم—بشكل غير متوقع من خلال ابنتك، فحرر الرجال الذين اعتقدت أنهم مغلولين بشدة في السجن، وذلك حيث عزمت بالفعل على إبقائهم مسجونين مضيق عليهم إلى الأبد، لقد سلحهم وجعلهم ينتصرون بشكل مجيد في المعركة، وقد لطخوا سيوفهم بدماء إخواننا وأقربائنا، وبالإضافة إلى هذا حررهم وأرسلهم إلى الحصن الملكي حيث جميع ثرواتك، ووضع بين أيديهم كل منك شخصياً والنبلاء الرئيسيين لمملكتك، وهكذا أنت محروس من قبلهم تئن في السجن في قاعتك مثل أمة لا حول لها ولاقوة، وذلك من دون قتال، ونحن من الخارج لا يمكننا زيارتك من دون إذن الأجانب، وعاجزون عن تقديم أية مساعدة لك، ونحن لا نتجرأ على الوقوف ومقاتلتهم مع بعضنا جميعاً، لأنهم سوف يصبون على الفور جام غضبهم عليك، وإنه حتى لو حاول الملك العظيم، سلطان فارس أن يأتي إلى هنا مع جميع قواه، وحاول اقتحام القلعة، فإن شجاعة الفرنجة عظيمة جداً، وكذلك قوة القلعة وحصانتها، إلى حد أنهم سوف يتجرأون على مقاومته هناك، وسوف ينزلون خسائر كبيرة برجالنا قبل أن يجري أسرهم، لذلك إنه من الأفضل معاملة الأعداء بالصداقة بدلاً من أعمال طائشة، قد تثيرهم وتغضبهم إلى حد التسبب بموتك.

ورضي الدانشمند بهذه المشورة، وقبل الصداقة مع الدوق الشجاع،

وعن طواعية ومحض اختيار أصدر أوامر في بيته من أجل صالح الاثنين، ومنح هدايا كريمة ووزعها على الصليبيين الشجعان من ثرواته، كما أنه أمر بوجوب إطلاق سراح جميع الأسرى في جميع أنحاء مملكته، وبعناية جرى البحث عنهم، وعندما وجدوهم أحضروهم إلى الدانشمند، الذي تكرم عليهم فألبسهم، وسلمهم إلى بوهيموند فأضافهم على الفور إلى جماعته، وعين واجبات متنوعة إليهم، وذلك من أجل زيادة حجم الصفوف وليضمن سلامة مرافقيه، وكذلك من أجل أن لا يتعرضوا إلى أية إجراء شرير أو مؤامرة من قبل المسلمين.

وعاد رتشارد وسركيس بعد خمسة عشر يوماً، وقد أنجزت مهمتها، وجلبا معهما قوة كبيرة من الفرسان الصليبيين، وأمر الدانشمند باستقبالهم بتكريم كبير، وبإعداد أطعمة سخية لهم حسب عادات بلاده، وزودهم بوفرة بكل ما احتاجوه، وعقد بوهيموند والدانشمند معاهدة سلام دائم فيما بينهما بالذات، وقضى ثلاثة أيام في تجهيز معدات مناسبة لهم من كل نوع، وأخيراً مضى بوهيموند ورتشارد وأتباعهما من الأسرى، وتقدما مسرورين بعد تحريرهما من الأسر، ومثلهما مثل زربابل ونحميا أثنيا على المولى رب بني إسرائيل، وفرح الدانشمند مع نبلائه بسبب أنهم أيضاً تحرروا من السجن، وشيعوهم لبعض المسافة، وسافروا والمكر في قلوبهم، لأنهم كانوا يتآمرون لإلحاق الأذى بالصليبيين بطريقة أو أخرى وهم على طريق سفرهم، لكنهم أخفقوا في فعل ذلك لأن الرب حمى أخصائه، وذلك أن المؤمنين خافوا من خدعة ما، ولذلك سافروا وهم مسلحون تماماً وكأنهم جاهزون للمعركة، وبحرص أيضاً وعناية احتفظوا بالرهائن من أجل سلامتهم إلى أن وصلوا إلى مكان آمن كانوا قد حددوه، وأخيراً سأل الدانشمند حلفاءه وأصدقاءه الإذن بالمغادرة، وبعدما تسلم ذلك عاد آسفاً حزيناً، لأنه لم يكن قادراً على إلحاق الأذى بهم بأية خدعة من الخدع.

وتركت ملاز الحكيمة بيت أبيها وغادرته ومعها عبيدها وخصيانها والنبلاء من حاشيتها، وعن طواعية تخلت عن جميع قومها، وبتقوى تعايشت مع الصليبيين، مثلها مثل بيثية Bithiah ابنة فرعون، التي رافقت موسى والعبرانيين آمنة، عندما هلك المصريون، وفرح شعب أنطاكية كثيراً، وخرجوا لاستقبال الرجال الذين رغبوا منذ زمن بعيد في رؤيتهم، وبحرارة بارك رجال اللاهوت وجميع الناس الرب الملك الذي أنقذ الجميع، جميع الذين وضعوا ثقتهم فيه، ثم إن بوهيموند بعث رتشارد رفيق أسره إلى فرنسا، وبعث بقيود يديه الفضية إلى القديس ليونارد، المعترف المقدس، مقدماً شكراً تقوياً على خلاصه.

وبعدما أعيدت ولادة الأصيلة ملاز بوساطة التعميد في الكنيسة الكاثوليكية، اختار بوهيموند ساعة موائمة، فخاطبها كما يلي في اجتماع للسادة الأعيان:«أيها السيدة النبيلة، التي جاءت إلى إنقاذنا بشكل غير متوقع، عندما كنت ما تزالين كافرة، وراعيته فينا وأحببتيه الذي نحن أفراده وعبيده، وبفعلك ذلك حصلت على غضب والدك إلى درجة وصلت حتى الموت، اختاري منا القرين الذي تريدينه باسم المسيح، لأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نرفض طلباتك العادلة، بما أننا جميعاً مدانون لك للفضائل التي أظهرتيها، وأولاً وقبل كل شيء اسمعي نصيحتي، إنني أعترف بالتأكيد بأنك قد أعطيت لي من قبل أبيك، لكنني أود أن أعمل خياراً أفضل لك، ولذلك أصغ بعناية إلى السبب في هذا، منذ الصغر أنا كنت رجلاً لا يعرف الاستقرار، أعيش في الصراع، ولقد عانيت من كثير من المحن، ومع ذلك مازلت أنتظر ما هو أسوأ مخبأ لي للمستقبل، لأنني أنا في حالة حرب مع الامبراطور، ومع الكفار من جميع الجهات، بالإضافة إلى ذلك إنني كنت قد نذرت وتعهدت أمام الرب عندما كنت في السجن، أنه إذا ما أطلق سراحي سوف أذهب إلى مزار القديس ليونارد، الذي هو في أكوتين، وأقدم هناك اعتذاراً لك صدوراً

عن تقـوى خـالصـة، لأنني لاأرغب في أراك، التي أنت أكثـر من ابنة أو أخت بالنسبة لي، مهجـورة بأية طريقة من الطـرق، أو الدخول في روابط زواج، أنت سـوف تندمين عليهـا حـالاً، فما هو الفـرح أو السرور الذي ستحصلين عليه من خلال اتحادنا، إذا ما كنت سأقوم بعد الزواج مباشرة مرغماً على الانطلاق في رحلة طويلة عبر البحر والبر، وأسافر بمثابة حاج إلى بلاد نائيـة قـرب نهاية الأرض، فكـري في هذه الأشيـاء يا سيـدتي، واختاري لنفسك من بين الكثيرين، واختاري مصيراً أفضل، انظري الآن ها هو روجـر ابن الأمير رتشارد، هـو قريبي، وأصغـر سناً مني، ووسيماً أكثر مني، ومماثـل لي بالأصل، والثروة، والقوة، وأنا أنصحـك أن تتخذيه زوجاً لك، وآمل أن تعيشي معه لسنين طويلة».

ووافق جميع الحضور على هذه النصيحـة الصادرة عن الدوق الحكيم، ووافقت السيـدة العـاقلة على الفور على مـا أيده المجلس الاستشـاري، وجـرى قبوله من مثل ذلك العـدد الكبير من السادة، وبناء عليـه تزوج روجـر الفتاة بشكـل مشرف، مع فرح عظيم، واحتفلت أنطـاكية كلهـا بالعـرس بهتافات عـالية، وفـرح عارم، في حين خـدم بوهيموند بمثـابة وصيف أثناء وليمـة الزواج، وذلك مع السـادة الرؤسـاء للبلاد، وبعـد مضي ستة أعـوام، بعدما مـات بوهيموند وتانكرد، أصبح روجـر حاكماً على إمـارة أنطاكية، وبعـد مضي عامين قتل في ميـدان سرمدا مع سبعـة آلاف من الصليبيين على يدي إيلغـازي الفـارسي، لقد قلت كثيراً حـول تقلبـات شـؤون الإنسان وحظوظ البشر، وهناك أشيـاء كثيرة قـد بقيت لتقال في الكتب التـالية، إذا بقيت حياً، وأنهي هنا الكتـاب[العاشر] من التاريخ الكنسي، علني أنال راحة قصيرة، لأنني مرهق كثيراً.

**هنا انتهى الكتاب العاشر**

-١٨٤٢٦-

## الكتاب الحادي عشر

## هنا بداية الكتاب الحادي عشر

أيها الرب الرحيم، يا رب الحشود، والملك القدير الذي يتصرف بالأشياء جميعها

أيتها الإرادة اللاهوتية، الحاكمة السرمدية، وفري مخلوقاتك واحفظيهم

ودوسي على قوة الشيطان، الذي يحرض ضدك دوماً

لأنه يسعى جاهداً للإضرار بعبيدك في كل مكان.

أصغ إلى صلواتي، أرجوك أيها الآب الجيد، خالق العالم كله

أنا أعبدك وأسعى إليك، وأتعب لإرضائك بشكل صحيح

إنني الآن رجل مسن، أكتب أعمال الملوك والأساقفة

أنا في الستين من عمري، اجعلهم واضحين للمترهبنين،

منهم لا أطلب شيئاً كتعويض على أتعابي

بل أقدمه مجاناً، راضياً بمحبة إخواني،

وإذا كانت المعجزات الجديدة عملت ظاهرياً في هذه الأيام

سوف أسعى جاهداً لتضمينهم مخلصاً في فصولي

وأنا أعتقد أن رواية قصيرة عنهم لن تكون بعد الآن

مقبولة أبداً للأجيال الحالية والمستقبلية، ولا أكثر

نفعاً لي، ولا أكثر إرضاء للآخرين

من البحث عبثاً ثم تقديم قصص طويلة

عن الوقائع الأرضية، وعن تعاقب الأجيال وزوالها
ذلك أنني أتطلع إلى الأعمال العظيمة، وأتشوق للكتابة عن الروائع،
وأملأ أوراقي باسم المسيح بالمعجزات، وأثناء ذلك
أحب أن أغني في الثناء عليه، الذي هو يحكم المخلوقات
الذي يمكنه بإشارة أن يحررنا من جميع المصاعب
وأنا مرغم للحديث عن الأفاعيل المظلمة، وأتألم
وأنا أحكى عن الأعمال الزائلة للرجال الذين هم ضعفاء متقلبين
في سبيل حب الدنيا يجرفون جميع المخلوقات البشرية إلى الهلاك
ومبرد العدالة لا يزيل الصدأ عنهم
نزاعون نحو كل شر، يطيلون التفكير حول المسائل الدنيوية
ويزدرون المسائل اللاهوتية، وينحنون فلا يمكنهم رؤيتهم
إعلموا أنه بينما يحمل المذنبون الأحمال الثقيلة التي تدمرهم
الأعمال الرائعة للقديسين توقفت الآن، وبعدالة مطلقة
يستحق الآثمون الذين يرفضون الشريعة فقط
العقاب من غضب السموات، وليس عن المعجزات
بل كثيراً ما سوف يكتب عن الحروب وعن قضايا القضاء
التي الجشع الحاد للربح المتولد في الناس من أجل إدانتهم ولعنهم
ومن الممكن تدوين أخبار القتل وغشيان المحارم وآلاف
الجرائم، لو أن الناس المتعلمين سوف يتكلمون عن الأشياء المهنية كثيراً



١

ويعطي الأحمق نفسه مشاكل من دون فائدة ويبدد أوقاته
لكن ما من إنسان عاقل يسمح لوقته بأن يضيع هدراً
ويضيع وقته الذي ينظم أشعاراً لا فائدة منها
فتعبه ضائع إذا لم تتحصل منه فائدة
وتناضل أرواح النخبة بإخلاص ومن دون توقف
في سبيل الخير، ومنح تعبهم المستمر للمتعلمين المستحقين
لا حاجة للضغط على الذين يحملون عن طواعية أثقالهم
الذين يأخذون سنابل القمح وبسرور يحملونهم إلى الأهراءات
ما من حاجة لنخس الحصان الذي يجري عن طواعية
وفقط نوجه المقود، لمنعه من الكبوة
ويستخدم الراكب المنخاس الحاد لدى ركوبه مهراً عنيداً
ويحثه بكثير من ضربات السوط حتى يعدو
مثل هذا شريعة الكنيسة في أيدي الأساتذة المحبين
لأنهم يوقظون الكسول ويحركونه، ويكبحون المتشوق كثيراً
والآن إنه زمن انتصار الوحش الشيطاني ذي القرون العشرة
لطخت ذنوب جذام الغوغاء المجنونة العالم بأسره
أظهر الرب بهيموث وصنعه لصديقه أيوب
الشيطان الماكر مستعر في هذا العالم عالم الذنوب
أفلت الشيطان المسعور هؤلاء بين سكان الأرض

وهو يجرف يومياً أسراه إلى متاهات الجحيم
يضلل إبليس الفانين ويتلاعب بهم
يخدعهم بمكره ويغويهم ببهجة السماء
وا أسفاه سممهم الأفعوان المميت بسمومه
فذاك الذي حولهم إلى مجانين وجعلهم يذبحون بعضهم بعضاً
يتحمل الأحمق المرض والوباء، ويكدس
الشرير الذنوب على الذنوب القاسية من أجل ضرره وأذاه
نحن ننظر إلى سوء حظ الإنسان ونخشى الفواجع
بماذا يمكن للكاتب الغيور أن يملأ صفحاته
إذا أراد أن يصب عبارات فارغة على موضوعات متنوعة
هو سوف يجد مواد وافرة في هذه المصائب

العدو الحسود لبني البشر جميعاً مدعو ومسمى
بأسماء كثيرة في الكتابات المقدسة الممنوحة من السماء
فهو قد أصبح أسداً، أو ذئباً، أو تنيناً، أو حجلاً وعظاءه،
وعقاباً، وخنزيراً، وثعلباً، ودباً، وعلقة، أو أفعى بقرون،
أو ثعباناً مميتاً، عندما ينصب كميناً لنا
ويخطط لتدمير الأحمق بالقوة أو بالخداع
وألف اسم آخر سوف تقع للقراء البارعين

تبعاً للخدع الماكرة التي يمارسها العدو

فهو يفسد آلافاً بالآثام وغالباً ما يدمرهم

وا أسفاه، آلاف كثيرة من أفواج الناس، هلكت نهائياً

أيها الملك المبارك، يا يسوع المبارك، ويا رئيس الكهنة، أنقذنا

لا تدع ثعباناً عجوزاً يلدغنا بالهلاك

بل ارفعنا، طهرنا من الذنوب، ومن لجج محيط العالم

ألحقنا بالرحمة مع القديسين في ملكوت السموات

آمـــين

## هنا بداية الكتاب الحادي عشر

—١—

في عام ١١٠١ لتجسيد ربنا، وفي العلامة التاسعة، تمّ تثبيت الملك هنري، ملك انكلترا في سلطانه في المملكة، بعدما عقد صلحاً مع أخيه روبرت، وخطوة إثر خطوة اتخذ إجراءات لمعاقبة الخونة، الذين اقترفوا عار التخلي عنه في ساعة حاجته، واستدعى إلى المقاضاة: روبرت مالت، وإيفو أوف غراند ميسنيل، وروبرت أوف بونتيفراكت ابن إيلبرت أوف لاسي، وروبرت أوف بيليم، الذي كان أكثر قدرة من جميع هؤلاء، واستدعى أيضاً آخرين كثر، واتهمهم، لكن ليس جميعاً، بل إفرادياً في أوقات مختلفة، اتهمهم بجريمة خرق أيمانهم وتعهداتهم بطرق كثيرة، وقد فرض غرامات كبيرة على بعضهم الذين كانوا غير قادرين على تبرئة أنفسهم من الجرائم التي اتهموا بها، وجرد آخرين من أملاكهم، وأرغمهم على العيش في منفى أبدي، وكان هؤلاء ممن عدهم ما يزالون موضع ريبة.

—٢—

وفي العام التالي، وصل وليم أوف وارني إلى عند روبرت، دوق نورماندي، وهو في حالة بائسة صعبة، وأعلن أنه قد عانى من خسارة كبيرة بسببه، وذلك منذ أن فقد إيرلية سري Surrey التي أنتجت له مورداً سنوياً مقداره ألف باوند من الفضة، وبناء عليه أكد أنه سوف يكون من الموائم بالنسبة لروبرت أن يصبح متصالحاً تماماً مع أخيه الملك، وأن يتوسط من أجل ضمان إعادة مرتبة وليم السالفة، ووافق الدوق مباشرة على هذه المقترحات، وعبر إلى انكلترا، وعندما سمع الملك بهذا أصبح غاضباً غضباً شديداً، وسأل جلساءه ومستشاريه الأقربين حول«ما الذي ينبغي علي أن أفعله لأعدائي، عندما أقدموا على النزول علي، وعلى غزو مملكتي من دون إذني»؟ وقدم كل واحد إلى

الملك نصيحة مختلفة، وقام هو—على كل حال— بإرسال بعض من رجال حاشيته الأقربين لمقابلة أخيه، ومن خلال ذلك جعل رغباته واضحة بالنسبة إليه، وعرف الدوق الضعيف وقتها من رسل سريين بأن كان متهوراً في عبوره حدود انكلترا، وأنه ما لم يتقبل بحكمة النصيحة السليمة سوف يحبس في داخل تخوم الجزيرة، ولن يسمح له بحرية العودة إلى ممتلكاته، وجرى على كل حال بناء على أوامر الملك السياسي وعلى مشورة أصحابه، منحه مع أصحابه مرافقة جيدة، وتمّ إخفاء خطتهم الماكرة خوفاً من أن يقوم الغرباء بإمساك الأخوين وهما في صراع مرير، وهكذا فإن الدوق الذي كان مرعوباً تمام الرعب، استبدل خوفه بفرح مفروض عليه، ومثله أخفى الملك غضبه الشديد تحت غطاء وجه مبتسم.

وكان من بين التهم، التي اتهم بها الملك الدوق، الحنث بالوعد، بعدم اتخاذ أي إجراء حتى الآن ضد أي من الخونة المعروفين، وعدم فرض أي رقابة على الساخطين بوساطة سلطات الدوقية، وكذلك بترحيبه بروبرت أوف بيليم في نورماندي في ذلك العام نفسه، وإعطائه أملاك أبيه، أي قلعة أرجنتان، وأسقفية سيز، وغابة غوفيرن Gouffern ،لأن ذلك السفاح، أي روبرت أوف بيليم كان قد عبر إلى نورماندي، وأمن كونتية بونثيو Ponthieu إلى ابنه وليم تالفاس Talvas ،لأن حموه غي كونت أوف أبيفيل Abbeville كان قد مات، وأخيراً ارتعب الدوق تجاه هذه التهم، ووعد بتواضع بإصلاح جميع الأخطاء، وثبت عطاء الثلاثة آلاف باوند له، وبناء عليه هدأ الملك، وأكد له صداقته، وجدد المعاهدة المبكرة، وأعاد إيرلية سري إلى وليم ووريني، وبعدما استرد وليم ميراثه، تخلى عن حماقته، وبالفعل استقام وتهذب، فخدم الملك بإخلاص للأعوام الثلاثة والثلاثين المتبقية التي عاشها كلاهما، حيث نشطا وازدهرا وكان بمثابة واحد من أقرب أصدقائه إليه ومستشاريه.

وعاد بعد هذا الدوق روبرت إلى نورماندي، لينظر إليه ويقدر تقديراً أدنى من ذي قبل من قبل رجاله، وفي الحقيقة هو جنى لا شيء من تلك الحملة، غير الخوف، والتعب، والعار، ومن جانب آخر انتقل الملك من قوي إلى أقوى، وارتفع في كل سبيل إلى مكانة أعظم، وحيث أن سمعته انتشرت في الخارج في زوايا الأرض الأربع، أعلن عنه واحداً من أعظم الملوك، فما من ملك كان أكثر قدرة منه في مملكة انكلترا، ولا أكثر غنى، مزوداً بالأراضي في داخل تلك الجزيرة، ولا أكثر مباركة مع وفرة كبيرة من الثروات الإنسانية، وهذا بعون الرب—إذا ما عاشت— سوف أروي حكايته، وأجعله أكثر وضوحاً في الصفحات التالية.

وتمكن من إخضاع جميع أعدائه بوساطة حكمته، وشجاعته، والجوائز إلى مؤيديه المخلصين بالثروات وبالمراتب الشرفية، وهكذا تمكن من إسقاط رجال كبار من مراكزهم السامية بسبب سوء تصرفاتهم، وحكم عليهم بالحرمان والتجريد من أملاكهم إلى الأبد، ومن جانب اخر رفع آخرين إلى موقع النبالة من أصل وضيع وذلك ممن خدموه بشكل جيد، وارتقى بهم—كأن تقول—من الرغام، وغمرهم بجميع أنواع المكافآت، ووضعهم فوق الإيرلات وأصحاب القلاع المشهورين، ويشهد على صحة كلامي غيوفري أوف كلنتون Clinton ، ورالف باسيت، وهيوج بكلاند Bucklond ، وغوليغرب Guillegrip ، وريز أوف باث Bath، ووليم تروثبات Trussebut ، وهيمو أوف فالاسي Haimo of Falaise ، وغوغان ألغاسن Algason Guigan ، وروبرت أوف بوستاري Bostare ، مع آخرين كثر، الذين أغدق عليهم الثروات، وغمرهم بإسراف، على مستوى فاق إمكانات آبائهم، ويشهد على ذلك أيضاً الرجال الذين ظلموا من قبلهم بناء على تهم ملفقة وحجج ظالمة، فقد رفع الملك إلى مراتب عالية جميع هؤلاء، وآخرين كثر كانوا من أصل وضيع، والذين سيكون أمراً مرهقاً أن

نتولى تسميتهم إفرادياً، فلقد ارتقى بهم من الوضاعة إلى السلطة الملكية، ووضعهم على ذروة السلطة، وجعلهم مـــرعــــــوبين حتى مـن قبل الشخصيات الكبرى في المملكة.

ومثلما كان تماماً كريماً في أعطياتـه إلى خدمه المخلصين، كان حقوداً لا يعـرف الغفـران في عداوته تجاه الذين حنثـوا بأيمانهم وخـانوا عهـدهم، ونادراً مـا غفر لأي واحـد ذنبـاً معـروفاً، من دون القيـام بالانتقـام من أشخاصهم أو بتجريدهم من مراتبهـم الشرفية وثرواتهم، وعانى الرجال المذنبين من هذا بشكل عنيف جداً، وذلك عنـدما ماتوا مقيـدين بأغلاله وقيـوده، حيـث لم يكن بإمكانهم الحصـــول على إطلاق سراحهم، لا من خـلال القـرابـة الملكيـة، أو الأصل النبيل، ولا بوسـاطة دفـع فـدية عن أنفسهم بالمال، وقـــد عـرض تهماً كثيرة ضـد روبرت أوف بـونتيفـراكت Pontefract ، وروبرت مالت Malet ، وانتزع منهما مراتبهما الشرفية، وساقهما نحو المنفى، وكقـاضي لا يعرف التهاون واللين، اتهم إيفو[أوف غـراند ميسنيـل] الذي أخفق في تبرئـة نفسـه مـن تهمـة إثارة الحرب في انكلترا، وإحراقـه مواسم جيرانه، وهـي جريمة لم يسمع بمثلهـا في تلك البلاد، ويمكن التعويض عنها بعقوبة ثقيلة جداً، وقد فرض الملك غرامة كبيرة عليـه، وأنزل على رأسه الآسف جميـع أنواع العقوبات والملامـات، ولذلك التمس العـون من روبرت كـونت أوف ميـولان، الـذي كـان المستشـار الرئيسي للملك، وبات يائسـاً في جميع مشـاكله، فـوضع نفسـه تحت حمايتـه، ففي البـداية شعـر بالعـار بسبب الوضع المهين الذي جعله مضحكة، لأنه كـان واحـداً من«الراقصين على الحبل»، وقـد نزل منزلقـاً سراً على حبل من فوق أسوار أنطاكية، ثم إنه امتلأ خوفاً، حيث قلّب في ذهنه مأزقـه الذي وقع فيـه مراراً وتكراراً، ووجـد أنه سـوف يكون من الصعب كثيراً، إن لم يكن من غير الممكن بالنسبـة إليـه استرداد صـداقـة الملك التي تخلى عنها وقطعها، وأخيراً قرر الإقلاع من جديد للقيام بحج

آخـر، وتم التــوصل إلى حل بأنه بإمكان الكونـت إطفـاء غضب الملك نحـوه، بأن يستـدين خمسمائـة مارك من الفضـة، ليجهـز نفسـه من أجل رحلته، وقـد تسلم الملك جميع أراضيه رهناً لمدة خمسة عشر عـاماً، وعند نهاية ذلك الـوقت ســوف يعطي ابنة أخيــه هنري، إيرل أوف وورك Warwick زوجة إلى الشاب إيفو، وأن يعيـد ميراثه إليه، وجرى تأكيد هذا العقد بيمين، وتسلم الموافقـة الملكية، وانطلق إيفـو للقيام بالحج مع زوجته، وقد مات أثناء سفره، وانتقل ميراثه إلى أيدي أخرى.

وكـان لمدينة ليستر أربعة أسيـاد هم: الملك، وأسقف لنكولن، وإيرل سيمـون، وإيفــو بن هيــوج، وتمكن—على كل حـال— كـونت أوف ميـولان بدهاء من الحصول على مـوطىء قـدم هناك، من خلال حصـة إيفـو، الذي كان قسطـلان، وعمدة، وضـامن لها لصـالح الملك، وتمكن بمسـاعـدة الملـك، وبدهائـه، بوضع البلدة كلهـا تحت سيطرته، وبهذه الواسطة صار بمرتبـة إيرل في انكلترا، فتفوق على جميع سادة المملكة في الثروة والقوة، واعتلى فـوق جميع أقربائه تقريبـاً، واتخذ لنفسه زوجة هي إيسابـل، وكانت ابنة أخ جميلة لملك فـرنسا، وقـد ولدت له ولدين توأم هما: وولران Waleran ، وروبرت، وهيــوج، لى بوير Poer وخمس بنات، ولذلك عمي بالبطر، بسبـب هذا الازدهار، فلم يحافظ على يمينه نحو ابن إيفـو، لأنه عند حلول الموعد لم يتسلم الشـاب لا الزوجة التي وعد بها، ولا أراضيه الموروثة.

—٣—

وفي عام ١١٠٢ لتجسيـد ربنا، وفي العلامة العــاشرة، استدعى الملك هنري الإيرل الجبـار، روبرت أوف بيليم إلى بلاطه، وبعـدمـا وجه إليـه خمساً وأربعين تهمة بذنوب اقترفها فعلاً أو كلاماً ضده وضد أخيه دوق نورمـاندي، حكم عليـه بأمـره بأن يجيبـه علناً على كل تهمـة، ولمدة سنة وضع روبرت تحت المراقبة المستمرة وجـرى البحث بدقة وإمعان في كل

أعماله الشريرة من جـواسيس خاصين، ودونت بدقة وتفصيـل، وعندما طلب روبرت منحـه الإذن للذهاب والتشاور مع رجـاله، حسبما جرت العـادة، ولدى تسلمـه الأذن غـادر البـلاط، ولأنه أدرك أنه لن يستطيع تبرئة نفسه من الجرائم التي اتهم بها، قفـز بسرعة وامتطى ظهر حصانه، وهرب، وهو مصاب بالرعب، ووصل وهو مقطوع الأنفاس إلى قلعته، وانتظر مع باروناته تقديم الجواب، حتى جلب واحد من العبيد الملكيين الأخبـار بأن روبرت قـد هرب من دون إنذار، وغضب الملك كثيراً تجاه هذه الخديعة، لكنه كـان يعرف بشكل أكيد أن يوم الانتقـام سوف يأتي، ولذلك أعلن عن إدانة روبرت بشكل علني، على أنه رجل وجهـت إليه الاتهامـات بصورة علنيـة، وأخفق في تبرئـة نفسه بـوساطة الإجـراءات القانونيـة، وأعلن عنه عدواً صريحاً مـا لم يعد ويتصرف بشكل صحيح، ويخضع للعدالة، ومرة أخرى دعا المتمرد إلى البلاط، لكن روبرت أعلن بوضوح أنه لن يقدم، وعوضاً عن ذلك قـوى شرافات قلاعه وأسوارها في كل مكان، ودعـا أتباعـه من النورمانديين، ومن أهالي ويلز الغـرباء، وجميع جيرانه لمساعـدته، وقام الملك—على كل حال—باستـدعاء جيش انكلترا، وألقى الحصار على قلعة أروندل Arundel ، التي قامت قرب شـاطىء البحـر، وبنى قـلاع حصـار، وترك ضبـاطاً هناك مع عسـاكـر حاشيته لمدة ثلاثة أشهر.

وخـلال ذلك الوقت تقـدم المدافعون عن القلعـة بالترافع بتـذلل إلى الملك حتى يمنحهم هدنة، من أجل أن يتمكنـوا من الاتصال بسيـدهم، حتى يقـوم إمـا بإمـدادهـم، أو أن يمنحهم الإذن بالاستسـلام، ووافق الملك وبحث رسل عن روبرت حتى وجدوه في أراضي الميرسيان Mer-cians ، وعندما وجدوه، أوضحوا له بقلق وبينوا كم كانت القوة الملكية التي هددتهم مـرعبة، وكان آنذاك ماضياً في أعمال بنـاء قلعة قوية جداً عند برد جنورث Bridgnorth على نهر سيفيرن Severn ، وكان

من المحال طلب قـوات حليفة، من أجل أن يلقي قواته كلهـا في الدفاع عنها، وقد تملكه الرعب وغرق في الخوف عندما سمع عن انهيار رجاله، وقـد حللهم من ولائهم له، بما أنه لم يكن قـادراً على مسـاعـدتهم، وبألم مـرير فـوضهم في عقـد صلح مع الملك، وعندمـا عـاد الرسل، سلمت الحاميـة القلعة وهي شـاكـرة، إلى الملك، الذي استقبل أفـرادها بلطف، وأثقلهم بالهدايا والأعطيات.

ثم قاد الملك جيشـه إلى قلعة بلايث Blyth ، التي كانت عـــائدة من قبل إلى روجر أوف بُلي Bully ، وعلى الفور تقريباً خرجت الحامية منها وهي شاكـرة لاستقباله، معلنة إياه على أنه مولاهم الطبيعي، وقـد رحبوا به بالهتـافــات، وبعـد هذه الأحـداث، منح الملك النـاس مـدة استراحـة قصيرة، ووقف جلّ الأعيان في حالة رعب تجاه بصيرته وشجاعته.

وفي الوقت نفســه أرسل الملـك رسـلاً إلى نورمـاندي وأخبر الدوق برسائل صريحة، كيف أن روبرت قد اقترف ذنباً كبيراً بالنسبة إليهما معاً، وهرب بشكل سري من بلاطه، ثم إنـه ذكره، أنه وفقـاً للمعـاهدة التي عقـداها في انكلترا، عليهما توحيد قـواتهما من أجل معاقبـة الرجل الذي بات خائناً بالنسبة إليهما معاً، وبناء عليـه حشد الدوق جيش نورماندي، وألقى الحصار على قلعة فيغناتس Vignats ، التي كان مدافعاً عنها من قبل جيرارد أوف سينت هيـلايري Hilaire ، وكـانت الحاميـــــة في الحقيقـة تأمل في أن يعصف بها في القتـال، لأنه أفرادها كـانوا جـاهزين فقط لتسليم القلعـة في وجـه هجـوم قـوي، بسبب أنه لم يكن بإمكانهم الاستسلام بشرف من دون قتـال، وذلك خوفـاً من كسب الإدانة بأنهم جبناء من دون وفـاء، ولكن لأن الدوق كان كسـولاً ورقيقاً، ولم يمتلك أياً مـن الصـــلابة والثبـــات الموائمـــة لكل أمير، ألقـى روبرت أوف مونتفورت مع الآخرين الذين تبعوا إيحاءاته، والذين كانوا منقسمين فيما بين أنفسهم، النار عمـــداً في خيـــامهم، وأحـدثـوا اضطراباً في الجيش،

وهربوا من المكان، مع أنه ما من أحد طاردهم، وأرغموا بهذه الطريقة الآخرين، الذين كرهوا روبرت، ورغبوا في إلحاق الأذى به، على الفرار بشكل مهين، وشاهد رجال الحامية العار الذي لحق بالجيش النورماندي، فصوتوا بصرخات إهانة وشتائم نحو رجال هذ الجيش، ومنذ ذلك الوقت لم يبق لديهم أدنى خوف، فشنوا حرباً وحشية على الـ Hiemois روبرت أوف غراند ميسنيل، وهيوج أوف مونتبينكون Montpiincon ، وروبرت أوف كورسي Courcy ، وقد قاوم رجالهم رجال العصابات القساة بقدر ما استطاعوا، وناضلوا في سبيل الدفاع عن بلادهم، لكن الخارجين على القانون الذين تجمعوا بسبب الرغبة بالأسلاب، ازدادوا إرعاباً أكثر فأكثر، وكملاك متجبرين لشاتو -غونتير chateau-gontier ، وفوشيز Fourches ، وأرغنتان Argentan ، وإن استاءوا من حقيقة أن أياً من جيرانهم لن يتجرأ على النباح ضدهم من دون التأييد من قبل الدوق، لذلك نهبوا مقتنيات الفلاحين في جميع المقاطعة، وعندما أخذوا كل شيء، أحرقوا بيوتهم.

ولم يكن ملك انكلترا غارقاً في فسولته مثل أخيه، بل إنه أقدم على حشد عساكر انكلترا في الخريف، واقتادهم إلى داخل إقليم ميرسيا Mercia ، حيث حاصر قلعة بردجنورث لمدة ثلاثة أسابيع، وانسحب روبرت نفسه إلى شروزبري shrewsbury ، ووضع قلعة بردجنورث في عهدة روجر بن كوربت Corbet، وروبرت أوف نوفيل Neuville وأولغر الرجل الصياد Ulger the huntsman مع ثمانين فارساً من المرتزقة كانوا تحت إمرتهم، وقام هو نفسه وقتها بعقد معاهدة مع الويلزيين، وشكل تحالفاً مع ملكيهم: كادوغان cadwgan وآيرووريرث Irowerth ابني رايس Rhys ، وقد بعث بهما مراراً للإغارة على جيش الملك مع قواتهما وإلحاق الأذى به، وجرد وليم بانتولف Pantulfالذي كان فارساً مخلصاً ومتمرساً، وطرده من

حضرته حتى عندما عرض عليه وقدم له جميع أنواع الخدمات في وقت الحاجة الضاغطة، وهكذا فإن وليم الذي طرد من قبل روبرت مضى والتحق بالملك هنري الذي عرف روحه الشجاعة من الخبرة، ولذلك رحب به بسرور، ووضعه على الفور قائداً على مائتي فارس، وجعله آمراً لقلعة ستافورد Stafford التي كانت في ذلك الجوار، وقد ألحق أضراراً بروبرت أكثر من أي واحد آخر، وقدم بإصرار كل من مشورته وسلاحه لإسقاطه.

واجتمع إيرلات وأعيان المملكة مع بعضهم وتباحثوا بإسهاب حول كيف يمكن إجراء مصالحة بين المتمرد ومولاه، ذلك أنهم قالوا:«إنه إذا ما تمكن الملك من إلحاق الهزيمة بمثل هذا الإيرل القدير باستخدام القوة، واستمر في عدائه له إلى حد تجريده من أملاكه، وهو ما يسعى الآن جاهداً لتحقيقه، فلسوف يدوس من تلك اللحظة علينا وكأننا جارية مستعبدة لا حول لها ولا طول، ولذلك دعونا نبذل كل جهد ممكن لمصالحتهما، وبذلك نحقق المنفعة لمولانا ولزميلنا سواء في إطار القانون، ثم إننا في الوقت نفسه بقمع الاضطراب سوف نجعل الفريقين مديونين لنا، وبناء عليه قاموا في يوم جرى اختياره بالحضور جميعاً في خدمة الملك، وفي ميدان مفتوح ناقشوا بشكل جاد قضية السلام، مستخدمين الكثير من الحجج لتليين الملك المصمم بإصرار، وفي ذلك الوقت كان هناك ثلاثة آلاف فارس من أبناء المنطقة، واقفين بالقرب إلى جانب هضبة هناك، وقد حصلوا فكرة ذكية عن نوايا الأعيان، ولذلك صرخوا بصوت مرتفع وخاطبوا الملك قائلين:«هنري، مولانا الملك، لا تثق بهؤلاء الخونة، إنهم يريدون خداعك، ولغم عدالتك الملكية، لماذا أنت تصغي إلى رجال يريدون منك الصفح عن خائن، وأن تترك المؤامرة ضد حياتك تمضي من دون عقاب؟ انظر الآن، إننا جميعاً نقف بإخلاص إلى جانبك، وعلى استعداد كامل لإطاعة أقل أوامرك، اقتحم

القلعـة، واضغط على الخائن بشـدة وإصرار من كل جـانب، ولا تعقـد صلحاً معه حتى يكون قد صار بين يديك، حياً أو ميتاً».

وشجعت هذه الكلمات الملك، فـانسحب على الفـور، محبطاً الخطط المريبـة للسـادة، وقـد بعث خلـف الملكين الويلزيين من خــلال وليم بانتولف، وباسترضـائهما بالأعطيات والوعود، ربحهما بحذر إلى جـانبه، ومعهما قواتهما التي تخلت عن الطرف المعـادي والتحقت بطرفه، وراسل أيضـاً القادة الثـلاثة للحـاميـة، وأقسم لهم يميناً على مسمع من الجميع، أنهم مـا لم يسلمـوا القلعة إليـه خـلال ثلاثة أيام، سـوف يعـدم كل من سيأسره شنقـاً، وخاف هؤلاء مـن قرار الملك المصر، فشرعـوا في وضع خطط لتأمين سلامتهم، وبعثـوا إلى وليم بانتولف الذي كـان جاراً لهم، لسماع نصيحتـه، وقـد وصل ليعمل وسيطاً بينهم وبين الملك، وبكلمات أحسن اختيـارها حثهم على تسليـم القلعـة إلى ملكهم الشرعي، واعـداً إياهم باسم الملك بأنه سـوف يزيد ممتلكاتهم بأرض تساوي قيمتها مـائة باوند، وقـامت الحامية الإقطاعيـة تقديراً منهـا لمصلحة الجميع بالموافقـة على هذا، وخضعت للإرادة الملكية حتى تتجنب مخاطر العصيان، ثم قام قادتها، بمـوافقة من الملك، بإرسال رسول إلى اللورد روبرت، لإعـلامه أنه كـان من غير الممكن بالنسبة إليهم متـابعة المقـاومة لقـوة ذلك الملك الذي لا يقهر، وعلى كل حال لم يعرف الفـرسان المرتزقة أي شيء حول الصلح الذي قام رجال الحامية الإقطاعيون مع البورجوازيين بعقده من دون التشـاور معهم، في سبيل إنقاذ أنفسهم، وعندمـا سمعوا بالأخبـار غير المرحب بها، ثار غضبهم، وتناولوا أسلحتهم، وحاولوا إيقـاف عقد المصـالحة، ولذلك حبسهم رجـال الحامية الإقطاعيـون بالقـوة في داخل جـزء من القلعة، ورحبـوا بقوات الملك مع الراية الملكيـة، وذلك وسط سرور عام، وسمح الملك للفـرسان المرتزقة بالمغادرة بحـرية مع خيولهم وأسلحتهم، لأنهم خــدمـوا سيــدهم بشكل صحيح، وعندمــا ركبـوا

خارجين، وساروا بين القوات المحاصرة، ندبوا مصيرهم، واشتكوا بصوت مرتفع بأنهم قد جرى التخلي عنهم بشكل غير عادل من قبل الحامية وقادتهم، وطلبوا من الجيش كله أن يكون شاهداً على خديعة هؤلاء المتآمرين، وبذلك لن يكون لسقوطهم ولمصيرهم أي أثر مخزي على المرتزقة الآخرين، وعندما سمع روبرت بأن قلعة بردجنورث الحصينة التي وضع فيها ثقته قد استسلمت للملك أصيب باليأس، وبات تقريباً من دون عقل مع حزنه، ولم يعد يعرف الطريق الذي سيسلكه، وأمر الملك قواته بالتوجه عبر طريق Huvel hegen والقيام بإلقاء الحصار على بلدة شروزبري shrewsbury القائمة فوق هضبة محاطة من ثلاثة جوانب بنهر سيفيرن، وأطلق الانكليز على الطريق خلال الغابة اسم Huvel hegen الذي يمكن ترجمته بـ«ممر الشيطان» أو«طريق الشيطان»، فلطول ميل كامل يعبر الطريق ممراً عميقاً مقطوعاً في الصخر ومبعثراً فيه قطع جلمود هائلة، وكان الممر ضيقاً إلى حد أنه كان من المتعذر على خيالين السير إلى جانب بعضهما، وكان مغطى من على الجانبين بأحراش كثيفة، اعتاد الرماة على استخدامها للتخفي فيها، وللرمي من دون إنذار بحرابهم أو نشابهم المصفر، وذلك بغية أخذ الأتاوة من العابرين، وكان هناك في ذلك الوقت أكثر من ستين ألفاً من الرجالة في الجيش، وقد أمر الملك هؤلاء بقطع الأشجار بالفؤوس، وشق طريق أوسع كثيراً، من أجل الاستخدام من قبله، ومن قبل جميع المسافرين بعد ذلك أبداً، وعلى الفور تمت إطاعة الأوامر الملكية وبوساطة الكثير من الأيدي فتح الطريق وسط الغابة، وتمت تسويته، فبات طريقاً عريضاً.

وعندما وصلت الأخبار إلى روبرت أصابه رعب شديد، ورأى الكوارث محيطة به من كل جانب، وهكذا وجد نفسه مرغماً على الركوع ومرغماً على استجداء الرحمة من الملك الذي لا يقهر، وتذكر الملك

الصارم جميع ذنوبه، ولذلك صمم على اصطياده وإنزاله بوساطة جيش عملاق، ولم يمنحه أماناً حتى يستسلم من دون شرط، وقام روبرت وقد أنهكته آلام مصيره التعيس، بأخذ نصيحة أصدقائه، فخرج إلى لقاء الملك لدى اقترابه من البلدة، معترفاً بخيانته، ومسلماً مفاتيح البلدة إلى الملك المنتصر، وصادر الملك جميع رتب روبرت وممتلكات جميع الإقطاعيين الذين وقفوا إلى جانبه أثناء ثورته، وسمح له بالمغادرة من دون أذى مع خيوله وسلاحه، ومنحه أماناً خلال انكلترا كلها حتى ساحل البحر، وفرحت انكلترا كلها وابتهجت لدى مغادرة الطاغية البلاد والذهاب إلى المنفى، وهنأ كثير من المداحين الملك هنري قائلين:«افرح يا ملك هنري، وقدم الشكر إلى المولى الرب، لأنك بدأت الآن تحكم وأنت حر، وذلك بعدما قهرت روبرت أوف بيليم، وطردته خارج مملكتك»، وبعدما جرى طرد روبرت إلى المنفى بقيت مملكة الانكليز في سلام، وحكم الملك هنري بازدهار وتقدم لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً، ولم يتجرأ خلال تلك المدة أحد مرة ثانية على الثورة ضده في انكلترا، أو الاستحواذ على أي قلعة ضده.

وعبر روبرت إلى نورماندي، وهو يتفجر غضباً وحزناً، وهاجم بوحشية أولئك الذين كانوا رفاقه وحاولوا مساعدة مولاهم الضعيف، تاركاً ذيلاً من النار والقتل من خلفه، فكان مثل التنين الذي كتب عنه يوحنا الرسول في الرؤيا، والذي ألقي به من السماء، فنفث سمومه وغضبه القاتل بالقتال ضد سكان الأرض، والمسبب الشديد للاضطراب، والمفسد للسلام جرى طرده من بريطانيا، فانقض حانقاً على النورمان، فنهب مزارعهم وممتلكاتهم، وأحرق كل شيء بعده، وعذب حتى الموت أو شوه الفرسان، والأشخاص الآخرين الذين كان قادراً على أسرهم، وقد كان متوحشاً إلى حد أنه فضل تعذيب أسراه على أن يزداد ثراء بسبب أموال الفدية الكبيرة التي عرضت عليه مقابل إطلاق سراحهم.

وكان أخوا روبرت: روجـر البوتيفي Poitevin وأرنولف، إيرلان غنيان في انكلترا، وقـد نالا ثروة كبيرة ومراتب عـالية من خـلال جهود أبيهما الإيرل روجـر، واتخذ آرنـولف زوجـة لنفسـه ابنـة ملك إيرلندي اسمهـا مـورشيرتاس Murchertach ، وأمل من خلال امتيازها أن يحصل على مملكة حموه، والجشع الشديد الـذي من خلاله يصل كثير من الناس إلى أشيـاء خياليـة، غالبـاً ما يقـود إلى خسارة مفـاجئة لممتلكاتهم الصحيحـة، فبسبب أعمال روبرت الشريرة، سحب ملك انكلترا القـدير إيثاره وعنايتـه ولم يعد يقدمها إلى ذريتـه وأقربائه، وقرر اجتثـاثهم جميعاً واقتـلاعهـم من المملكة، ولذلـك بحث عن أعـذار للشكـوى ضـد الأخوين، واستغل حتى النهاية أي ذنب أو إساءة وجدها، فجردهما من ممتلكاتهما وطردهما إلى خـارج بريطانيـا، فقـد كـان الملك بلا رحمة إلى أقصى الحدود في أعمال انتقـامه، حتى أنه حـرم من دون شفقة راهبـات المنشيـز Almeneches من الأرض التي منحهم إياها روجر الإيرل الأول، لأن راعيـة الدير إمـا Emma كانت أخت الإيرل روبرت، وأرنولف، وروجـر، ومنحها إلى سافـاريك Savaric ابن كانا Cana [الزوجة الثانية لرالف أوف بيمونت] مقابل خدمة عسكرية.

وعندما جـرى طرد هؤلاء الرجال من انكلترا، ازداد الشر كثيراً واتسع نطاقـه في نورمـاندي، ولمدة ثلاثة أعوام اقترفـت آثام لا حد لها ولا عـد، فكثير من القرى أخليت من سكانها، وأحرقت كنائس كثيرة حتى الأرض مع الناس الذين هربوا والتجـأوا إليها، مثلما يفعل الأطفـال بالالتجـاء إلى صدور أمهـاتهم، وثارت نورماندي كلها تقريبـاً ضد روبرت، واتحدت في جماعـة متواثقـة بالعهـود والأيمان لمقاومتـه، ولكن مقـاومة ضـد مثل هذا الخارجي لم تحقق شيئاً من دون قائد قادر، فقـد كان روبرت بارعاً وقديراً، وكان قـد جمع ثروة كبيرة جداً في الأربع والثلاثين قلعـة حصينة التي كان قـد بناها لتـوسيع عصيـانـه، وهو لوحـده تمتع بميراث أجـداده، دون أن

يشـارك أياً من أخـويه اللذان جردا من أمـلاكهما بسببـه، وهكذا انسحب روجر إلى قلعـة تشارو Charroux التي كانت ميراثاً لزوجتـه وبقي فيها حتى صـار رجـلاً مسناً ومـات، تاركـاً أولاداً محترمين ليخلفـوه، أمـا فيما يتعلق بأرنولف، فقد غضب غضبـاً شديداً تجاه الشدائـد التي توجب عليه معـاناتها بسبب أخيـه، وذهب إلى الدوق، واسـتولى على قلعـة ألمانشي Al-meneches بعـامل المباغتـة، حيث استسلمت له، وكان قـد أخذ معـه عـدداً من مؤيـدي أخيه، وفي تلك الآونة كـان إقليم سيـز مضطرباً كثيراً، ووقف كثير من أهـل الإقليم إلى جـانـب أرنولف، وتخلوا عـن روبرت، وسلمـوا قـلاعهم إلى مـؤيدي الـدوق، أمـا روبرت الذي تخلى عنه أخـوه بالذات وهجره، فقـد امتلأ بالرعب، ونادراً ما صـار يثق بأي واحد، وبما أنه كان شخصيـة مرعبـة بالنسبة إلى كل واحـد تقريباً، تشكـك بإخلاص حتى الذين بقيوا واقفين إلى جانبه.

واجتمع في شهـر حزيران أعـوان الدوق مع بعضهـم في دير للنسـاء، واستعـدوا بشكل ضـار لنهب المنطقة، فحـولوا البناء المكرس دينيـاً إلى اصطبل لخيـولهم، وحصل روبرت على خبر عـن هذا، فـاندفع نحـو الموقع، وألقى النـار في الأبنيـة، وأحـرق الـدير النسـائي حتى سـواه بالأرض، وأسر أوليفـر أوف فـريسني مـع عـدد كبير آخـر، وأخضع بعضهم لحيـاة الأسر التعيسة الطويلة والمأسـاوية، أمـا البقية فقـد أدانهم وحكم عليهم بالموت أو بالتشـويه، ووصل الدوق روبرت إلى إكسمس Exmes. مع جيش نورماندي، وكـان متوجبـاً عليه مساعـدة مؤيديه، وفي ذلك الوقت كـان روجر أوف لاسي Lacy قائـد الفرسـان، وبناء على أوامـره كـان موغـر مـالهربي Mauger malherbie مسؤولاً عن قلعـة إكسمس، وكـان كثيرون مسرورين مـن أن المأسـاة تهدد الطاغيـة البغيض، واحتشـدوا وهم متشـوقين إلى الهجوم عليـه، وقـد تآمـر وليم كونت إيفري Evreux وروترو كونت أوف مورتغن، وغيلبرت أوف

ليغلي Laigle ، وجميع رجال إكسمس، وقد تـآمروا مع بعضهم ضده، لكن لم يكن بـإمكانهم إبداع خطة مناسبـة لـلانتقـام منه بسبب الأذى الشديد الذي غـالباً ما ألحقـه بهم، إنما على كل حال وقف روبرت أوف سينت سينري Ceneri ، وحـاجبـه بورتشـارد، وهيـوج أوف نونانت Nonant ضده لمدة طويلة، وقاموا أكثر من النورمانديين الآخرين بإلحاق الخسائر والأضرار به.

وعندمـا وصل الـدوق مع جيشـه، صف روبرت قـواتـه وعبأها من أجل الحرب، وجـرب قـوة الـدوق الكسـول بكثير من الطـرق، ثم إنه هاجمه بجرأة على الطريق المرتفع، وألحق به الهزيمـة وأرغمه على الفرار، وقد أسر وليم أوف كونفيرسانو Conversano أخي الكونتسة سيبل، مع عدد كبير آخر، وكـان النورمان الذين كانوا أكثر ارتفـاعاً بالمعنويات قد تجللـوا بالعار، بسبب أنهم بعـدما غلبوا منتصريـن شعوباً غـريبة، في أقاليم بربرية، أصبحوا الآن هم أنفسهم مقهـورين، وأرغموا على الفرار في قلب أراضيهم، وذلك على يدي واحد مـن أبناء نورماندي، وتشجع روبرت كثيراً بسبب الحوادث الموائمة له، وصار أكثـر حدة مما كان عليه قط، ومنذ ذلك اليوم نظر إلى الدوق نظرة استهتار واستخفاف، وحاول أن يضع نورمـاندي كلهـا تحت سلطتـه، وانصـاع سكان ذلك الإقليم، الذين كـانـوا من دون أية حماية، ولم يكن باستطـاعتهم تحمل الطغيـان الشديد للكـونت المحب للحرب، وحنوا رقابهم مـرغمين ليكونوا تحت نيره، وقـدموا له مسـاندة كـاملة صادرة عن الخوف وليس صـدوراً عن المحبة، وشن بمساعدة أعوانه حرباً بلا رحمة ضد مناوئيه الذين يسكنون على مقربة من هناك، وهكذا تلاشت قوات الدوق، وازداد روبرت أكثر فأكثر إرعـاباً، ولأن الفرسـان من جواره جاءوا إليـه والتحقوا بجـانبه، تمكن من الاستيـلاء على قلعـة إكسمس، كما واستـولى أيضـاً على قلعـة شاتو—غونتير، وعلى عدد آخر من القلاع في المنطقة هناك.

وبعدما جرى إحراق دير نساء ألمنشيز، كما وصفت ذلك، تفرقت الراهبات اللائي لم يجدن حماية وهن في حالة رعب عظيمة، والتجأت كل واحدة منهن إلى بيت قريب أو صديق، وذلك حسبما سمحت الفرص بذلك، وهربت إما—راعية الدير— مع ثلاث من الراهبات إلى سينت إيفرول، وعاشت هناك لمدة ستة أشهر في بيعة، قام فيها الأب المبارك إيفرول شخصياً بالعيش بعزلة من أجل التأمل السماوي، وعادت في العام التالي إلى كنيستها، وسعت جاهدة بمعونة الرب، والمسيحيين الصالحين إلى إزالة التهديم ومن ثم الترميم، وقد عاشت مدة عشرة أعوام بعد ذلك، وبصبر أعادت في تلك المدة بناء كل من كنيسة العذراء، والأم، والأبنية الديرية، وأعادت إلى حظيرة الدير جميع الراهبات اللائي تفرقن، وبعد موتها( ٤—آذار ١١١٣) خلفتها ماتيلدا ابنة أخيها فيليب، وبالتعب أعادت الدير مع جميع أبنيته، بعدما كان قد أحرق للمرة الثانية بشكل غير متوقع.

—٤—

ومات في تلك الأثناء بعض أعيان نورماندي الكبار مثل: وولترغيفارد Giffard ، ووليم بريتويل Breteuil ورالف كونشيز Conches ، وقد خلفهم بعض الشباب، ومات وولتر غيفارد Giffard إيرل بكنغهام في انكلترا، وأعيد جسده إلى نورماندي تبعاً لوصيته، وقد دفن في مدخل كنيسة العذراء مريم المباركة في لونغويل Longueville ، وكتبت الأبيات التالية على الجدار فوق القبر، الذي زين بالصور:

وولتر الذي هو فرع من بني غيفارد

حصل في حياته على قبر فيه يرقد

وهو مؤسس بناء هذا المكان للعبادة

وهو راقد في الخشخاشة العائدة إليه

وهو الذي قدم خدمات جليلة إلى بلاده

وكقائد قدير مغامر في أداء واجبه

كان حامياً لرجل اللاهوت من جميع التنظيمات

لكنه كان أكثر نحو الرهبان وفي بنائه للعديد من الكنائس

وهكذا احترم رهبان كلوني شجاعته، وزعامته الفعالة، وعهدوا بصلواتهم المستمرة بروحه إلى المولى الرب، متذكرين أعطياته الكريمة التي أضفاها عليهم، فيما أسسه بتقوى في لونغوفيل، وكانت زوجته هي أغنس أخت أنسلم أوف رابيمونت، وقد أنجبت له بعد خمسة عشر عاماً من الزواج ولداً، اسمه وولتر، الذي ربته بعناية بعد وفاة والده، حتى وصل إلى سن الشباب، فوقعت بالحب مع الدوق روبرت، وربطته إلى نفسها بشباك ماكرة من المتعة الجسدية، وقد وعدته بأنها شخصياً مع أقربائها الأقوياء سوف تقدم له مساعدة فعالة ضد جميع أعدائه، وما لبثت على الفور أن أقنعت بهذه الطريقة الأحمق المسكين أنه عندما تموت زوجته سوف يتزوجها ويسلمها جميع نورماندي لتكون تحت حكمها، وبعد مدة قصيرة جرى تقديم السم إلى الكونتيسة سيبل، التي حملت إلى فراشها وماتت أيام الصوم الكبير، وسط حزن عميم، وأدار وليم رئيس أساقفة روان طقوس أعمال دفنها، ودفنها بشكل مشرف في الكنيسة الكاتدرائية المكرسة للقديسة مريم أم الرب، وكان ذلك بحضور رجال اللاهوت والناس، وقبرها موجود في صحن الكنيسة، وهو مكسو بألواح مصقولة من الحجارة البيضاء، وعليها حفرت الأبيات التالية بشكل جميل حتى يراها الجميع:

الجمال والأصل الرفيع، والشرف، والسلطة، والثناء

هم ضعفاء غير قادرين على منح حياة خالدة

الكونتسة سيبل النبيلة، والعظيمة والغنية

ترقد هنا مدفونة، وإلى رماد قد تحولت الآن

وكانت بصيرتها، وسعة صدرها وإحسانها

ستغني بلادها لو أنها عاشت

وبكت نورماندي السيدة ومعها أبوليا

ابنها الذي بموتها خسر مجداً عظيماً

ولدى انتقال الشمس إلى برج الحمل

ولقد أخذتها الظلال، وصار الرب الآن حياتها

وعندما كانت هذه الحروب مستعرة، كما حدث منذ وقت طويل، وقد اشتد إوارها، لأسباب متعددة في كل مكان تقريباً، وفي هذه الأثناء وكل شيء كان ملتهباً بلا هوادة، لم يكن الدوق قادراً على التفكير بالزواج، وبقيت أغنس أرملة، متشوقة بعبث لأن تدعى إلى فراش الدوقية، وتفجر في ذلك الوقت صراع كبير بين شعب بريتويل Breteuil وشعب إيفري مع جيرانهم الآخرين، وكان وليم أوف بريتويل قد تزوج من آدلين Adelline ابنة هيوج أوف مونتفورت، لكنه لم يحصل على أولاد من زوجته الشرعية، ولذلك عندما مات في الثاني عشر من كانون الثاني في بيك Bec ، ودفن في دير كان أبوه قد بناه على أراضيه في لاير Lire ، خلفه ابن أخته وليم أوف غائيل Gael وناضل رينالد أوف غرانسي Grancey في سبيل ميراثه، وعلى كل حال قبل النورمان ابنه يوستاس الذي كان من خليلة، بسبب أنهم اختاروا أن يحكموا من قبل واحد من أبناء منطقتهم مع أنه نغل، وفضلوه على رجل بريتاني شرعي المولد أوبيرغندي، ولذلك تفجرت حرب كبيرة بين الفئات المتعادية، وازدادت تعاسة البلاد من دون حدود، وبما أن وليم أوف غائيل قد مات سريعاً،

احتل رينالد الواجهة، وجاء وليم كونت إيفري ليساعده مع كثير من الآخرين، وحشد رالف أوف كونشيز Conches ابن إيزابل( ورالف أوف توسني Tosny) وأنسلين أوف غائيل [زوج إيزابل الابنة غير الشرعية لوليم أوف بريتويل]، وعموري أوف مونتفورت، حشدوا قواتهم، ووقفوا إلى جانب رينالد. وبوحشية ألحقوا دماراً كبيراً بجيرانهم، ودمروا إقليمهم وكأنهم كانوا من الأعداء، لكن فعلوا القليل لدفع قضية الرجل الذي رغبوا في مساعدته، لأن يوستاس، الذي كان إلى جانبه وليم أليس Alis ، ورالف الأحمر، وثيوبولد، وباروناته الآخرين، قد قاوموا بشدة وعناد، وبناء على نصيحتهم طلبوا مساعدة ملك انكلترا ضد أعدائه الكثيرين، وزوجه الملك ابنته جوليانا Juliana ، ووعده بمساعدة فعالة ومؤثرة ضد غائيل، وجميع أعدائه الآخرين، وفي تلك الأثناء أيضاً زوج الملك واحدة أخرى من بناته إلى روترو كونت مورتغني، وقد أنجبت لزوجها ابنة اسمها فيليبا.

—٥—

في عام ١١٠٣ لتجسيد ربنا جاء البابا باسكال إلى فرنسا(١)، وقد استقبل بحفاوة من قبل السكان، وقام بإخلاص وإيمان بتنفيذ واجباته، وفي ذلك الوقت تفوق إيفو أسقف بلدة تشارترز، وامتاز على الأساتذة المتميزين الآخرين في فرنسا، بسعة معارفه الروحية والعلمانية، وبناء على دعوته احتفل البابا بعيد الفصح في تشارترز، وقدمت أيضاً الكونتسة أديلا أيضاً مبلغاً سخياً من أجل حاجات البابا، فنالت مباركة أبدية من الكرسي الرسولي لنفسها ولبيتها، وحكمت هذه السيدة النبيلة كونتية زوجها بشكل جيد بعد ذهابه في الحملة الصليبية، وربت أولادها الصغار بعناية، ونشأتهم على حماية الكنيسة.

---

١ —كذا والصحيح أن البابا باسكال الثاني زار فرنسا في عام ١١٠٧م وليس في عام ١١٠٣م.

وتزوج وليم، الذي كان الأسن ابنة غيلو أوف سلي Gilo of sully ، وقد عاش طويلاً وبسلام وهو يتمتع بممتلكات حموه، وأنجب أولاداً صالحين هم: أودو، وراهر Raher ، وثيوبولد كونت بالاتاين، الذي كان فارساً مشهوراً ونبيلاً محباً للسلام والعدالة، وكان متميزاً بين كبار النبلاء في فرنسا، لثروته ولأخلاقه، وقد تزوج ماتيلدا ابنة الدوق انغلبيرت، وبعد وفاة عمه(خاله) الملك هنري، تسلم دوقية نورماندي، وأرغم غير المنضبطين فيها من العصاة على الإنحناء أمام عصا الانضباط الدقيق، وبعد ذلك تسلم ستيفن الابن الثالث لستيفن أوف بليوس شعار الفروسية من خاله(عمه) الملك، وبعدما جرى أسر وليم كونت أوف مورتين في تنشبري Tinchebray أعطى الكونتية من قبل الملك، وقد تزوج ماتيلدا ابنة يوستاس كونت بولون، ومريم[أخت الملك هنري الأول] وحصل على الكونتية كلها بموجب حق الوراثة، وفيما بعد عندما مات الملك هنري في قلعة ليون—لى—فورت Lyons-la-foret في الثاني من كانون الأول، عبر ستيفن القنال، وتسلم في أوائل عام ١١٣٦م صولجان انكلترا، أما هنري الذي هو أصغر الجميع، فهو راعي دير رهبان كلوني، فهو عندما كان شاباً عمل راعي دير غلاستونبري Glastonsbury في انكلترا، ومن هناك تمت ترقيته إلى أسقفية وينكستر بعد وفاة وليم غيفارد(١).

وعندما بدأت أم هؤلاء الأبناء المتميزين تفكر عميقاً في قلبها حول ساعة الموت المرعبة والمظلمة، وبعدما تمتعت بالثروات وبكثير من أسباب الترف، التي ارتفعت خلالها حشود من الذنوب لتلطخ الروح وتدمرها، وقتها قررت التخلي عن المظاهر الخادعة، وأبهة الدنيا، وبعدما صارت راهبة في مارسغني Marcigny خدمت رب الحشود في ظل القانون الكلوني الدقيق، وقد استطردت مستبقاً الأمور لأقول شيئاً ما

---

١— صار هنري راعياً للدير في غلاستونبري في عام ١١٢٦م، واستمر يشغل هذا المنصب بناء على ترخيص من البابا بعدما صار أسقف وينكستر في عام ١١٢٩م.

حـول هذه الأم النبيلة وحـول أولادها، الذين هم محظوظين بالسعـادة، لكن نهايتهم الأخيرة هي الآن مخفيـة عنـي وإنني على كل حـال سـوف أعود إلى المسار الطبيعي لروايتي، الذي ابتعدت عنه قليلاً.

—٦—

أرسل ملك انكلترا روبرت كونت ميولان لإنهاء الاضطراب الداخلي في نورمـاندي، وأمر الدوق روبرت والأعيـان الآخـرين بتوفير صهـره، وأن يحملوا السـلاح ضـد أعـدائه، مـا لم يرغبـوا، في أن يشعـروا بوزن الغضب الملكـي، ولهذا فإن الكثيريـن، لدى معـــــرفتهـم بعنايـة الملك بيـوستـــاس، خمدوا، والذين آذوه من قبل بذلوا الآن أقصـى جهـودهـم لمساعـدته، وعلى كل حال ثابر روينالد، وغوئيل مع آخـرين ممن اتسموا بالطيش في ممارسة شرورهم، ولم يرغبوا بالتمنع عن إلحاق الأذى بصهر الملك، على الرغم من جميع التماسـاته باحترام المقام الملكي، وعـوضاً عن ذلك نشروا النار والقتل بوحشية بلا حـدود، وكان من بين أعمال رينالد الوحشيـة المرعبة كثيراً، أنه قام عـن سابق تصميم باقتحـام قلعة عـائدة للأعـداء، ولدى ظهور المدافعين عنهـا، اعتقل كل واحد منهم، فغـرس سيفه في أحشائهم، وذبحهم من دون رحمة، وكأنهم حيـوانات متوحشة، وكـان هذا هو العمل الرئيسي الذي كـان موضـوعـاً للكراهيـة العامـة، وعندما ازداد يـوستاس قوة، واستحـوذ على جميع ما كـان عائـداً لأبيه، جرى طرده من نورمـاندي إلى بلاده، وهناك بدأ بالتآمر ضـد أخيه وليم الأسن منه، ولكن بحكم الرب العـادل وقع بين يدي أخيه أثناء الصراع الذي كـان يثيره، فعـانى في زنزانتـه مـن العقـوبة التي استحقهـا بسبب أعماله الشريرة.

ثم وضع غـــوئيل جـواسيـس على جـون بن ستيفن أوف ميــولان، فـاعتقلوه وهو قادم مـن مقابلة مع مـولاه الكونت الذي كـان آنذاك في بومونت Beaumont في نورماندي، وأرغم المرابي التعيس على تحمل

السجن القاسي لمدة أربعة أشهر في سجنه، وقام كونت ميولان بمحاولات متكررة لإنقاذ برجوازيه، الذي كان غنياً جداً، لكن لم يتمكن من انتزاعه من بين فكي الذئب، من دون تهدين كثيرين آخرين، وهكذا فإن الكونت الذي كان رجلاً داهية صنع سلاماً مع وليم كونت إيفري Evreux ، وخطب ابنته، التي كانت وقتها ابنة عام واحد إلى عموري حفيد وليم، وأدخل في هذه التسوية رالف أوف كونشيز، ويوستاس أوف غوئيل، ولو رادت الحدود الآخرين المتعادين، وعندما جرى إبرام المعاهدة أطلق سراح جون، وتمتع مرة أخرى كثير من الناس العيش في أمن، ونعمة مباركة السلام.

وفي العام التالي، ولدت إيزابل زوجة كونت ميولان ولدين هما: واليران Waleran ، وروبرت، وقامت ظروف كثيرة حالت دون زواج عموري من الفتاة التي خطبت له.

—٧—

وعندما رأى الدوق الكسول بأن بلاده كلها لحقها الدمار، وأنه غير قادر على الدفاع عن أراضي دوقيته ضد روبرت أوف بيليم، خرق المعاهدة التي كان قد عملها مع الملك، وقام من دون أن يشاوره بصنع سلام مع روبرت، ومنحه لوردية أبيه، التي تألفت من أسقفية سيز، وأشياء أخرى تقدم ذكرها، وبناء عليه رفض سيرلو Serlo ، الأسقف المبجل لسيز، أن يتحمل طغيان روبرت أية مدة أخرى أطول، واختار أن يترك أسقفيته كلها، وآثر ذلك على العيش تحت سلطة روبرت، فتخلى عن كرسيه ومضى إلى المنفى، بعدما شجب كل من روبرت وأعوانه وحرمهم كنسياً.

وأنزل روبرت أوف بيليم كل أنواع البلايا على رالف راعي دير سيز، الذي كان رجلاً مرحاً، وذكياً، ومحبوباً، وعذب رجال دير القديس

مــارتن بأنواع مـن العـذاب لا تحتمـل، وأخيراً بظلمــه لرعــايا رالف الأبرياء، أرغمـه على الذهاب إلى المنفـى، وهكذا هرب الأسقف وراعي الدير بعـــدمــا أنهكا بطغيــان روبرت هربـا إلى انكلترا، حيث جــرى استقبالهما بلطف من قبل الملك هنري، وسمح لهما بالتعويض.

ومــات في هـذه الآونة غــوندولـف الأسقف المحترم لـ«روكستر»، وجرى انتخـاب الراعي رالف قانونيـاً لخلافته، وتمت مبـاركته كأسقف لروكستر من قبل أنسلم، رئيس أسـاقفة كـانتر بري المحترم، وهو الذي سيخلفه بعد عدة سنين مقبلة في رئاسة الأساقفة.

—٨—

وفي تلك الآونة، أبحـر ماغنوس ملك النروج حـول جزر بريطانيـا، واحتل مع أسطـول كبير الجزر غير المسكونة حتى إيـرلاندا، وبحكمــة أقام سكاناً هناك، وأمـر ببناء بلدان وقرى وفق طريقـة الناس الآخرين، وشعر الإيرلنديون بعدم ثقة كبيرة نحوه، وحاولوا إلحاق الأذى به بكل طريقة من الطرق كـانت بمقدروهم، وتآمروا لتدمير أعـدائهم بالقوة أو بالمكر والخداع، ولـذلك أعـد الملك صـاحـب العقل النبيل حملة ضــد إيرلندا، ووصل إلى الساحل الإيرلندي مع أسطوله، وخاف الإيرلنديون من قـوة الملك وشعـــروا بالرعب، ولذلك بعثـوا خلـف النورمـانديين، وبادر أرنولف[أوف مونتغومـري زوج ابنة ملك إيرلندا] إلى مساعدتهم ومعـه أعـوانه، ولكن عندمـا احتشدوا جميعـاً ظلوا خـائفين من مقـدرة مـاغنوس، فلم يتجـرأوا على الاشتبـاك معـه في معركـة وقتـال قـريب، وعوضاً عن ذلك شغلوا أنفسهم بالتآمر بعملية خيانية قذرة ضده.

وأخيراً ذهب إليـه بعـض الرسل الجديرين ظاهريـاً، والقـادرين على الكلام، خـداعـاً ومكيدة، فـأضلوه وخدعـوه بوعـود مضللة، وأقنعـوه بالنزول إلى البر مـع عـــدد قليل من الرجــال مـن أجل.تفقــد الإقليم

واستلام الخضوع، ووثق بحماقة بالخونة، وترك أفواجه المدرعة على الشاطىء، وتبع الأوغاد لمسافة ميلين، موجهاً الدعوة لدماره الذاتي، فوجد هناك عدداً كبيراً من العساكر من أعدائه في كمين منصوب، وقد انبعثوا من أماكن تخفيهم، وأبدى النروجيون—الذين كانوا يأبون الفرار—مقاومة شجاعة، ولم يكن بإمكان عدة رجال قتال الآلاف، واستدار الملك ماغنوس ليسند ظهره إلى شجرة، وقام بحماية نفسه بترسه، وتمكن برماياته التي قذفها من جرح الكثيرين ولكنه هلك أخيراً، بعدما تغلب عليه العدد الكبير.

وكان هناك رجلاً ثرياً من لنكولن محتفظاً بأموال ماغنوس بعهدته، وكان قد زوده بمراكب وبزينة، وأسلحة، وأثاث، وأشياء أخرى ضرورية للبيت الملكي، وعندما سمع بموت الملك، بادر مسرعاً إلى وطنه، واستخدم الأموال الملكية بالتجارة، فأمن لنفسه الحصول على مخزون كبير من الثروة، وعندما سمع ملك انكلترا بموت الملك ماغنوس، رحب بالأخبار، التي استحوذت على جزء كبير من تفكيره، وبعد مضي بعض الوقت طلب الأموال الملكية من الرجل اللنكولني، وفي البداية أخفى هذا الرجل الذي فعله، ولكن على الفور تبين أنه مذنب، فاعتقله الملك، وقد قيل بأنه أخذ منه ما يزيد عن عشرين ألف باوند من الفضة.

وعندما تذوق الإيرلنديون طعم الدم بقتل الملك ماغنوس وأصحابه، ازدادوا عدم انضباط، وفجأة انداروا لقتل النورمانديين، وانتزع ملكهم ابنته من أرنولف، وأعطى الفتاة الداعرة في زواج غير شرعي إلى واحد من أبناء عمه، وقرر أن يقتل أرنولف نفسه، كجائزة على تحالفه، ولكن عندما علم الأخير بالمؤامرات اللعينة لأبناء جنسه البرابرة، هرب إلى شعبه، وعاش عشرين عاماً بعد ذلك من دون مقر دائم، وأخيراً عندما صار في عمر متقدم، تصالح ظاهرياً مع الملك، واتخذ لنفسه زوجة، وفي

اليوم المعين لعرسه، سقط بعد الاحتفال بنوم عميق، ولفظ أنفاسه، تاركاً عروسه تغني ألحاناً جنائزية حزينة عوضاً عن أغاني الأفراح.

وازداد الملك هنري قوة، وذلك بحكم أن جميع أعدائه من جميع الجهات سقطوا بالحظ العاثر، وصار عرشه أكثر أماناً خاصة بعد وفاة الملك ماغنوس، وتعاظمت أبهته بحصوله على ثروة كبيرة.

— ٩ —

وعبر في هذه الآونة لويس الشاب إلى انكلترا، بناء على إذن أبيه، وكان محاطاً بحاشية كان تعداد أفرادها قليل، لكنهم كانوا ناضجين في الأحكام، ووصل إلى بلاط الملك ليخدمه كفارس شاب متميز، واستقبله هنري بتشريف وتكريم بحكم أنه كان ابن ملك، وأبدى نحوه كثيراً من الرعاية في كل جانب من الجوانب، وأعقب وصوله مجيء سفير من عند زوجة أبيه بيرتريد Bertrade ، سلم خلسة رسالة إلى الملك هنري مختومة بختم فيليب ملك فرنسا، وقام الملك التي كان متعلماً بقراءة الرسالة، وبعدما أكمل قراءتها دعا مستشاريه للتشاور معهم، وعقد معهم جلسة مناقشات طويلة وحيوية، لأن الذي قرأه بالرسالة، هو أن فيليب ملك فرنسا، قد أمره باعتقال ابنه لويس، الذي جاء للالتحاق ببلاطه، وأن يبقيه مسجوناً وتحت حراسة مشددة حتى نهاية حياته، وقدر الملك الحكيم في مناقشاته مع أتباعه من البارونات، بكل دقة كم هو متناقض ومستعبد أن يقوم ملك غالياً بالسماح فعلاً بمثل هذا الطلب، مع أنه محكوم عليه من قبل زوجته التي لاتعرف الحياء، ولذلك رفض بكل حزم أن يتورط هو من جانبه، أو رجاله، في مثل ذلك العمل الشرير، والبغيض كلياً للملوك، وأصبح وليم أوف بوشلي Buchelay ، الذي كان فارساً حكيماً، وكان برفقة لويس، عارفاً بالمؤامرة قبل الكشف عنها، ومع أنه لم يدع إلى اجتماع البارونات، ذهب إليه وكأنه قاصد التسلي، وبوساطته أرسل الملك على الفور رسالة إلى لويس، نصحه فيها بلطف

بأن ينسحب بسلام وأرسله مع مرافقيه عائدين إلى فرنسا، وقد حملهم بكثير من الهدايا، وعندما علم لويس بهذه الطريقة بالعمل الخياني لزوجة أبيه، ذهب غاضباً إلى أبيه، واتهمه بأنه سعى إلى تدميره بوساطة الرسائل، وهو في بلاد أجنبية، وأنكر الملك الذي كان جاهلاً بالمؤامرة الغادرة، أنكر كل شيء، وحاول الشاب في غضبه المحق أن يقتل زوجة أبيه، وحاولت هي—على كل حال— أن تضرب الضربة الأولى، وأرسلت وراء ثلاثة من السحرة، من الذين كانوا بين كتابها، ووعدتهم بمكافأة عظيمة، إذا ما استطاعوا تدبر موت الأمير، وعمل السحرة أعمالاً سرية، توجب أن تستمر عدة أيام، ووعدوا الزانية الشريرة، أنهم إذا ما استمروا في هذا العمل وتابعوه حتى اليوم التاسع، فسوف يلاقي لويس حتفه، وفي تلك الآونة أباح واحد منهم خبر مؤامرات رفيقيه، وجرى اعتقال الاثنين الآخرين، وبمشيئة الرب دفنت المؤامرة قبل أن تثمر، وإثر هذا اتصلت زوجة الأب الفاسدة بالمسجونين، وكسبتهم إلى جانبها بوعدهما بجوائز كبيرة إذا ما دسا السم لابن الملك، ونتيجة لذلك جرى حمل الشاب النبيل إلى فراشه، ولم يعد بإمكانه لا أن يأكل ولا أن ينام لعدة أيام، وباتت كل فرنسا تقريباً في حالة حزن كبيرة وعميقة بسبب أن الوريث الحقيقي للملك كان في حالة خطر الموت، وأخيراً عندما عجز رؤساء الأطباء الفرنسيين وأخفقوا، جاء طبيب أشعث المظهر من بلاد المغرب، وأظهر براعته الطبية على الشاب، الذي كان ميئوساً من شفائه، وشفاه بإرادة الرب، مما أثار حسد الأطباء المحليين، فقد عاش هذا الرجل لعدد كبير من السنين بين المسلمين، وتعلم الأسرار العميقة للطب والمعقدة من الذين يدرسون يومياً الفلسفة الطبيعية، حتى أصبح الأكثر شهرة بين جميع المعلمين المسلمين، المعروفين بمعرفتهم بمعاني الأشياء، وتعافى الأمير أخيراً، لكنه بقي شاحباً طوال بقية حياته، وأنجب خوفها من نتائج مؤامراتها الخيانية البغضاء، وقد ازداد هذا يومياً، وقد تطلعت بشكل جامح إلى تدميره، وحاولت مرات عديدة بمعونة مختلف العاملين

بالشرور أن تضمن ذلك، حيث أنها رأت أنها إذا مـا تحررت من الرجل الذي أخطـأت بحقـه كثيراً وتخلصت، يمكنهـا بـذلك أن تشرف على الحكومـة، وتجد الأمـر أسهل لتنصيب ابنيهـا فيليب وفلورس Florus على العرش إذا مات لويس، وأخيراً تدخل والـد لويس لصالح السحرة، وطلب من ابنه أن يعفـو عن جـرائم زوجـة أبيـه، واعـداً بـالتعـويض وإصـلاح الحال، وأعطاه كثمن للمصـالحة بونتي Pontoise ، وجميع فكسين Vexin ، وقـام لويس بناء على نصيحـة الأساقفـة والبـارونات الذين عرف بأنهم مخلصين له، وصدوراً عن احترامه لمقام أبيه، قام بالعفو عن الذين أجـرموا بحقـه، وارتعبت بيرتريد وارتجفت تجاه هذه المبـادرة، لأن شرورها باتت مكشـوفة معـروفـة، وخجلت كثيراً وشعرت بالعـار، وأخضعت نفسها له كـأمة مسترقة لتضمن العفـو، وأقلعت وهي مكرهة عن شرورها ومؤامـراتها، وذلك بعدما قامت بعـدة محاولات ضد حياته، وبعد مضي خمسـة أعوام وصل لويس إلى عـرش فرنسـا، وذلك عند وفاة والده، وحكـم لمدة سبعة وعشرين عاماً، وقـدّر دوماً، الملك هنري تقديراً عـالياً، فهـو الذي وجده مـوضع ثقـة تامة بالأسلوب الذي وصفتـه، ولم يتخـاصم قط معـه، باستثناء إذا كـان ذلك من دون إرادته، ومن خـلال تدخل الخونة الذين تآمروا ضده، وأساءوا إلى سمعته.

— ١٠ —

وعبر رالف أوف كونشي Conches القنال بعد وفاة والده، وجرى الترحيب به من قبـل الملك، كما منحـه ممتلكـات أبيـه، وقـد تزوج من أديلـــزا Adeliza ابنة ولثيوف Waltheof ، قريب يودس Judith قريبـة الملك، وقد أنجبت له روجر وهيـوج وعدة بنات، وتخلى كثير من السـادة العقـلاء عن سيـدهم الأحمق وفـق الطريقـة نفسهـا، وطلبـوا الالتحاق بالملك السياسي لأسباب جيـدة، وسألوه مع الدموع بأن ينجد كنيسة الـرب المتألمة ويُفرج عنها وعـن البلاد غير السعيدة، وأمطـر حبياً

بكثير من الالتماسات من قبل عدد كبير من النورماندين، وتعرض لإلحاح كثير من الشخصيات المتميزة من كل رجال اللاهوت والعلمانيين حتى يزور أراضي وبلاد ميراث والديه، التي كانت قد تعرضت للتخريب بشكل مأساوي، وفرح الإقليم كثيراً بحضوره، ذلك أنه كان من دون حاكم، وحمل عصا العدالة للدفاع عن البلاد ضد العصابات الشريرة المفسدة.

وفي عام ١١٠٤ لتجسيد ربنا عبر هنري، ملك انكلترا، إلى نورماندي مع أسطول كبير، وقد زار دومفرونت Domfront وحصون أخرى كانت تحت إشرافه بأبهة عظيمة، وقد استقبل بتشريف من قبل أعيان رجاله، وخدم بطريقة ملوكية مع هدايا فاخرة، وقام روبرت كونت ميولان، ورتشارد إيرل تشيستر، وستيفن كونت أوف أوميل Aumal ، وهنري أوف أيو Eu ، وروترو أوف مورتغني، ويوستاس أوف بريتويل، ورالف أوف كونشي Conche ، وروبرت فتزهامون Hamon، وروبرت أوف مونتفورت، ورالف أوف مورتمير Mortemer مع آخرين كثر، ممن كان تحت تصرفهم ممتلكات كبيرة منه في انكلترا، كانوا قد ذهبوا إليه للوقوف إلى جانبه في نورماندي ومعهم أتباعهم، وكانوا جاهزين، لا بل متشوقين للقتال معه ضد جميع الدنيا، وبعد ذلك بوقت قصير دعا الملك إليه أخاه لعقد مؤتمر، وقد التقاه عندما وصل مع مقيميه المتملقين، واتهمه بخرق المعاهدة التي كانا عقداها في انكلترا حين لم يقدم على مشاورة الملك، وعقد صلحاً مع روبرت أوف بيليم، الخائن لهما معاً، وأعطاه ممتلكات والده، بصورة مضادة للعمل القويم والعدل والقانون المحلي، كما وجه إليه اتهام، أنه بات غارقاً في ملذاته، ولذلك أهمل جميع بلاد نورماندي وتركها إلى اللصوص وقطاع الطرق، ومقترفي الشرور الآخرين، ووضعها بكسل وإهمال تحت رحمة أوغاد بلا حياء، هم الآن متحكمون

به، حتى أنه الآن مجرد رأس وهمي في كرسي أمير وراعي أبرشية، لأنه لم يستخدم منصب الحاكم حتى يزود كنيسة الرب والناس الضعفاء ويحميهم، بل بدلاً عن ذلك هجرهم وتخلى عنهم إلى المضطهدين الذين من دون مبادىء، مثل شاة تركت في الخلف حتى يلتهمها الذئاب، وتولت محكمة الملك العرفية فحص القضية منطقياً، وقضائياً تماماً، وقضت بأن الدوق قد خرق المعاهدة مع أخيه باقتراف الكثير من الجرائم الكبيرة، مما لايمكنه نكرانه، ولا يمكنه التخلص منه وتبرئة جانبه بوضع اللوم على أصحابه، فهو كان أحمقاً، وبلا صداقة، لأنه لم يقدر قيمة رفقة الرجال الجيدين، أو مشورة الأناس الحكماء، بل إنه اختار بشقاء وتعاسة رفقة النوع المضاد، وبذلك ألحق الأذى بنفسه وبكثيرين آخرين، ووقع الدوق في شرك مختلف تقنيات الاتهامات، فتشاور مع رجاله وبقدر ما يوائم الفريق الأضعف، طلب صداقة الأقوى، وعرض أن يسلم إلى هنري وليم كونت أوف إيفري مع كونتيته وجميع المتعلقين به، لأنه خاف هو ومعه جميع المرتبطين به كما أنه من الممكن تعرضه إلى محاكمة علنية، وجعله بعدل يتخلى عن الدوقية التي حكمها من دون فعالية وبالاسم فقط، أو أن يرغم على خوض حرب مرعبة ضد أخيه الملك، حتى يلحق به الدمار تماماً.

وعندما سمع الكونت المشهور أنه سوف يلقى به ويتم التخلي عنه مثل حصان أو ثور، وصدوراً عن رغبته بالحفاظ على مقامه وعلى إقطاعيته، أعلن بشكل مكشوف في الاجتماع قائلاً: «إنني قد خدمت والدك بإخلاص طوال حياتي، ولم أتخل قط أو أساوم على يميني له بأية طريقة من الطرق، ومثل هذا حافظت على إخلاصي لوريثه حتى الآن، وأنا مصمم على أن أفعل هذا دائماً بجميع القوة التي أمتلكها، ولكن مثلما قال الرب نفسه في الإنجيل، وكما سمعت غالباً من رجال متعلمين: إنه من غير الممكن أن تخدم بسلام وهدوء سيدين لا يتفقان

مع بعضهما بعضاً، لذلك اخترت لأن أضع نفسي تحت حكم واحد، بسبب الخشية أن أكون غير قادر على إرضاء أي منهما إذا ما تورطت بولاء مزدوج، وإنني أحب الملك والدوق، فكلاهما ولدا الملك، وأرغب في أن أحترمهما معاً، لكنني سوف أقدم الولاء لواحد منهما، وله سوف أخدم على أنه مولاي الشرعي»، وجرى الترحيب بهذا الإعلان الذي قدمه الكونت، من قبل الجميع.

ثم إن الدوق روبرت وضع يد الكونت في يد الملك، وتمت المصالحة بين الأخوين، وعاد الملك إلى انكلترا قبل الشتاء، وعلى الفور بدأت العصابات العنيفة الحرب مرة ثانية، ودمرت بقسوة كل شيء كان الملك والنبلاء قد رتبوه من أجل السلامة العامة للإقليم، لأن روبرت أوف بليليم الذي كره الملك بحكم أنه عدوه وحسد نجاحاته، كان يشعر بالمرارة في قلبه، وسعى مع قريبه وليم كونت أوف مورتين Mortain ، ومع كل واحد آخر استطاع أن يكسبه إلى جانبه، لأن يمارس الضغط على مؤيدي الملك بشن الحرب، ومن غير الممكن وصف الدمار الذي عمله الرجال الأشرار في المنطقة، فقد صبغوا المنطقة كلها بالقتل والاغتصاب، وبعدما أخذوا الأسلاب، وقتلوا الناس، أحرقوا البيوت في كل مكان، وهرب الفلاحون إلى فرنسا مع أزواجهم وأولادهم، وعانوا من مشاق كبيرة في المنفى، وهكذا فإن النورمانديين الذين اعتادوا أن يفتخروا بأنفسهم بأنهم تمكنوا من الاستيلاء على انكلترا، وأن الأبوليين في أيديهم، هم الآخرون باتوا حزينين وتعساء، ويعانون، ويندبون مصيرهم في حقول فرنسا، وفي الوقت نفسه فإن بساتينهم التي تركت للإهمال لانعدام الفلاحين، نما فيها في كل مكان الشوك والقراص وخنق الأرض.

— ١١ —

وعانت الكنيسة المقدسة من الاضطهاد الحاد خلال هذه الاضطرابات، وبما أنها كانت بالغالب مرغمة على تولي أعباء جنازات

أبنائها الأبرياء، والذين دمرت أرواحهم كلياً، صلت برفع قلبها ويديها النقيتين إلى عريسها حاكم السموات، وتوجهت إليه بالدعاء، ليأتي إلى إنقاذها، وحملت دموع الباكين التعساء في نورماندي عبر البحر، وجرى استدعاء ملك انكلترا بالتماسات المتضررين، وقام غونتر أوف أوني Gunter of aunay الذي كان حارساً لبي Bayeux ، ورينالد أوف وارني، اللذان آثرا جانب الدوق، قاما ومعهما الأتباع الآخرين للدوق بخرق معاهدة الصلح، واعتقلا روبرت فتز هامون Hamon ، وعدداً آخر من أعضاء حاشية الملك وعساكره، واحتفظوا بهم في سجن مشدد عليهم لمدة طويلة، من أجل استخراج الفدية، ولإظهار رفضهما وكراهيتهما لمولاهما، وعندما سمع الملك المتيقظ بهذا، أمر بتجهيز أسطوله، وعبر إلى نورماندي في الربيع، ونزل في الأسبوع الأخير من الصوم الكبير في ميناء بار فليور Barfleur ، وفي يوم السبت المقدس عبر مخاضة الفاير Vire ووجد مكان إقامة في قرية كارنتان Carentan حيث استراح.

ووصل إلى هناك سيرلو أسقف سيز المحترم، فكان أول نورماندي اندفع لتقديم خدماته إلى الملك، وهناك أقام قداس الفصح لملك الملوك، الذي كان قد بدأ، وبعدما ارتدى ملابسه المقدسة، قام بالجلوس في الكنيسة مع الملك، متشوقاً لأن يبدأ القداس، لكنه عندما كان ينتظر بصبر اجتماع الناس وجنود حاشية الملك، وقد رأى وقتها بأن الكنيسة كانت ملأى بصناديق الفلاحين، وبالأدوات والوسائل من كل نوع، تنهد طويلاً وبحزن قال للملك، الذي كان بتواضع قد أخذ مقعده مع بعض أعيان رجاله في نهاية الكنيسة بين صناديق الفلاحين، وقال:«ينبغي على جميع المسيحيين أن ينوحوا وأن يبكوا من قلوبهم لرؤيتهم الكنيسة وقد وطئت وصارت تحت الأقدام، وأن الشعب البائس قد جرى تدميره، ولقد بات واضحاً وبديهياً بأن جميع سكان

كـوتنتن قـد جـرى اجتثـاثهم بشكل بائس وتعيس، وفي الحقيقـة إن نورمـاندي كلهـا محكومـة من قبل عصـابات لا رب لها، وهي من دون حاكم حقيقي، وكنيسة الرب التي كان اسمها من قبل بيت الصلاة، هي الآن كما تراها، أصبحت ويا للعـار، محشـوة بالأشيـاء الدنيـوية، والمبنى الذي ينبغي أن يكون مكرسـاً كلياً وحصراً للقـرابين المقدسـة، قد تحول الآن إلى مخزن جماعي لانعـدام الحامي العادل، ولا تمتلك جماعـة المصلين مكاناً لتجثـو عليـه باحترام وإجـلال أمـام المذبح، ولا أن تقف بشكل مريح وتقي كما ينبغي أن تفعله في حضرة الرب، وذلك بسبب الأدوات من جميع الأنواع التي جلبهـا السكان الضعفاء البـائسين وأحضروها إلى داخل بيت الرب خـوفاً منهـم من الناس الأشرار، فلهذا السبب غـدت الكنيسـة ملجئاً للجماهير، مع أنه حتى الكنيسـة لم تعـد مكاناً آمناً تمامـاً وكليـاً، ففي هذا العـام نفسـه أحـرق روبرت أوف بيليم كنيسـة تورني Tournay في أسفيتي، ودمـر خمسـة وأربعين رجـلاً وامـرأة في داخلهـا، وإنني أعيـد ذكر هذه الأشيـاء مع الأسف أمام الرب وعلى مشهـد منه، وإنني أتوجه بهم وأخاطب يا مولاي الملك أذنيك، حتى تلتهب روحك بالحماسة للرب حتى تقلد فنحـاس[سفر العدد ٢٥ / ٧—٨] ومـاتياس وأولاده(المكابيين)، انهض بشجـاعـة باسم الرب، واحصل على ميراث آبائك بسيف العـدل، وأنقـذ أرض أسـلافك، وخلص شعب الرب من أيدي الأشرار، وإن أخـاك بـالحقيقـة ليس مستحـوذاً بـالفعل على نورماندي، كما أنه لا يحكم الناس كما ينبغـي للدوق أن يفعل، باقتيادهم إلى طريق الاستقـامة، عـوضـاً على أن يغرق في الكسل واللامبـالاة، إنه محكوم عليـه من قبل وليم أوف كونفير سـانو Canversano ، وهيوج أوف نونانت Nonant الذي هو الآمـر في روان مع غـونتر Gunter حفيـده، ورجـال آخـرين لا قيمـة لهم، ومن المحـزن أن نحكي أنه بدد ثروات دوقيـة كبيرة على التافهين والحمقى، في حين أنه غـالباً مـا يصوم حتى الظهر لانعدام الخبز، وغالباً هو لا يتجرأ عن النهوض من فراشه،

ولا يمكنه الحضور إلى الكنيسة، لأنه يكون عارياً، وليس لديه سراويل، ولا جوارب أو أحذية، في الحقيقة يقوم البهلوانيون والعاهرات الذين يقيمون دوماً بصحبته بالاستيلاء على ملابسه وسرقتها في الليل، أثناء النوم وهو يشخر مخموراً، ويقهقهون بأصوات عالية وهم يتبجحون متفاخرين بأنهم قد سرقوا الدوق، وهكذا فإنه عندما يكون الرأس مريضاً، يكون الجسد متأثراً معلولاً، وعندما يكون الحاكم أحمقاً يكون الإقليم كله في خطر، ويعاني الناس التعساء من الحرمان الكلي، فمنذ أيام رولو Rollo الذي كان النورماندي الأول، الذي تولى حكم نورماندي، والذي منه تنحدر أسرتك، وإلى وقت الضعف هذا، حكمت نورماندي دوماً من قبل دوقات نشطين ذوي فعالية، أيها الملك العادل، إنه في هذه الأزمة، الشديدة التي تتعرض لها بلادك وأرضك، كن غاضباً لبعض المقاصد، وكن مثل داود النبي والملك، بشّر وعلم«لاتذنب» بحمل السلاح ليس من أجل طمع بسلطة أرضية ودنيوية، بل للدفاع عن بلادك».

وتشجع الملك بكلام الأسقف، وبعدما أصغى إلى وجهات نظر وآراء الأعيان من رجاله الذين كانوا معه قال:« سوف أقوم ناهضاً للعمل من أجل السلام باسم الرب، ولسوف أكرس جهودي كلها للحصول-بمساعدتكم- على أمن كنيسة الرب وهدوئها»، وكان كونت ميولان حاضراً للمصادقة على هذا الإجراء، والنبلاء الآخرين الذين كانوا هناك، وكانوا بعيدين عن رفضه، حثوا بحرارة قائدهم العام ليحمل السلاح ضد المفسدين والسالبين للناس وفي سبيل الحفاظ على نورماندي.

ن اسيأتف الأسقف البليغ منعظيه المقدسة، نقام نةن على دراية ئامة نااتيباه لمقامه نعمله، فيابع في ئقديم المنفعة إلى المسيمعين إليه قائ لَ:«ينبغلأ من دنه ئنقف أه تسعو ينمياً نراء طديع الحياة الصيبية، نأه تريع في كك ما تعمله الشريعة المقدسة، اليلأ ةلأ فنق

النقـد، ونبا أتنـ ا لم تسيريع أه تزيك جميع الذتنأ اليـلأ اقترفناقا بالسر، نلم أه تغسلهـــا، علينا—على الأقـ كـ— أه تنيث بسيف الدنح الـذين يقترفـ نه الذتنأ عـ لتيـة ضـــ د الدأ، نأه تفصلهم عنا نفقاً لأنامد الدأ، نمبادوء الآباء المقدسين، إتكم جميعاً ئيعاملنه مع شعنركم نفع طدائع النساء، نةن ليس لمئع بكم، أتيم الذين صنعيم على صنرة الدأ نشكله، نينبغلأ عليكم أه ئسيجدمنا قناكم كـدجال، نقد أظهد بنلص الدسنل، الذي جلو اجييـاره ئابعاً نمعلماً للأميين Gentiles نأنضح كيف أته غير لمئع نمدفنض بالنسبـة للدجـ ال جصك الشعد المنعـدة، نذلق عندما قـال في رساليه[الأنلى] إلى أةك كـ نرتثنس:«فإه الدجك لم ينبغلأ أه يغرلأ رأسـه لكنته صـنرة الله نمجده، نأمـــا المدأة فهلأ مجد الدجك»[١١ / ٧] بم قـال بعـ د ذلق بقليـ ك:«أه الدجك إه كـاه يدجلأ شعده فهن عيب له. نأما المدأة إه كانت ئدجلأ شعـدقا فهن مجد لها لأه الشعد قـ د أعرلأ لها عنض بدقع»[١١ / ١٤—١٥] نإته ليس من أجك الجال أن الميعة أه اليـائبين قد أملنا أه لم يحلقنا شعـنرقم أن يقصنقا، بك فعلنا ذلـ ق، لأه ةؤلاء الذين أمـــ ام الدأ غمـلنا بالـ ذتنأ، نقم شعث غير مصقـنلين في الداجـك، يمكنهم السير في الخارج نشعـنرقم منفـنشـة نغير مقصـنصـــة، أمـ ام الناس، نبذلق يعلننه بمظهـــدقم الخارجلأ عن اتعــدام النعمـة نالدتـ اءة نالمتيراط للإتسـاه البــاطنلأ، نئعريهم الليية الرنيلة مظهـد اليينس، الذي يجدي ئقليـ دقم بلا حياء من قبك الفاسدين القنرين، نالمنيلين الزتاة الفاسقين نالسدنميين، نقم بيع مبغنضين مـن قبك الدجال الصالحين بسبب قـذارة شبقهم الشريد، نإنهم بيرنيلهـم لشعـــنرقم جعلنا أتفسهم مقلـدين للنســـاء، نإنهم بنعنميهم النسائية قد فقدنا قنة رجنليهم، ناقييدنا إلى الإبم، نغالباً ما سقرنا بشكك ئعيس في الددة البغيضة، نمن الميزه القنل، نيا للأسف أه ةؤلاء أبناء الجييم قـامـنا بناء على تحديض من الشيراه فـاغيصبـنا لأتفسهم المداتة نهلاكهم العـ لج المبـارك، الذي ئنلى ئأسيسـه منذ زمن

طويل مضى لاهوتيو الكنيسة الذين هم أطباؤنا الروحيون، وقد فعلوا ذلك بموجب إرشاد الرب وبعد النظر، من أجل خلاص الأرواح، وقاموا بسبب طول الاستخدام، بالعنف بتحويل ذلك إلى عادة، وقد حرم بابوات الكنيسة الرومانية وبقية الأساقفة هذا الاغتصاب الطائش، وقد أدانوا ذلك في مجامعهم، بموجب السلطة الربانية، لكن المذنبين أصروا في تصلبهم وثابروا بحماقتهم، وبعناد أزاحوا جانباً وأبعدوا رمح الوعظ المقدس بوساطة ترس الشر، وتمنعوا عن حلق لحاهم خوفاً من أن خصال شعرهم القصيرة سوف توخز غوانيهم عندما يقبلوهم، وإنهم بشعورهم الكثيفة يجعلون أنفسهم أكثر شبهاً بالمسلمين منهم بالمسيحيين، وهكذا حولوا ما ينبغي أن يكون شعوراً شعثاء للمذنبين إلى وسائل لمتابعة ممارسة آثامهم، لقد صنع أبناء الشيطان الفاسدين جدائل شعر على رؤوسهم مثل النساء وزينوا أظافرهم بأذناب العقارب، مظهرين أنفسهم أنهم مخنثين بنعومتهم، ومثل الأفاعي بلدغاتهم كالعقارب، لقد جرى تصور هذا النمط من الرجال منذ ألف سنة مضت من قبل يوحنا الرسول على شكل الجراد، وقد وصفهم بوضوح في سفر الرؤيا العائد له، والذي كتبه من أجلنا في جزيرة باتموس Patmos ، وهناك العديد الذين يقلدون طرائق هؤلاء الفاسدين تماماً، غير مدركين مدى الشر الموجود في خصل شعرهم الطويلة التي يتفاخرون بها، لذلك أرجوك أيها الملك المجيد اضرب مثلاً حميداً يستحق الثناء، إلى رعيتك، ودعهم يرون أولاً فيك كيف ينبغي أن يعدوا أنفسهم».

وعندما فرغ من خطابه أظهر الملك موافقته عن طريق إبداء الابتهاج، ومثله فعل أعيان رجاله، وكان الأسقف جاهزاً للعمل، فأخرج عن الفور مقصاً من حقيبة ردائه، وسار ليقطع أولاً شعر الملك، ثم شعر كونت ميولان، وشعور معظم الأعيان بيديه، وقام جميع رجال الحاشية وجميع الذين كانوا من رعية الكنيسة بتقليدهم، فقصوا

شعورهم وحلقوها تماماً، لأنهم خافوا من مرسوم ملكي، لذلك سبقوا صدوره، فقصوا جدائل شعرهم التي اكتنزوها حتى الآن، وداسوا بأقدامهم على ما كانوا قد رعوه من قبل واعتنوا به، ورفضوه بازدراء، وبعدما احتفلوا بعيد الفصح أرسل الملك رسلاً إلى فيليب ملك فرنسا، واستدعى غيوفري مارتل، كونت أوف أنجو، وأنزل برجولة انتقاماً على أعداء كنيسة الرب.

—١٢—

كان في عام ١١٠٦ لتجسيد الرب تغييرات في الحكام في مختلف أنحاء العالم، ووقعت حوادث مذكورة في مختلف الأماكن، ففي الأسبوع الأخير من شباط ظهر مذنب رائع في الغرب، يجر وراءه ذنبه الطويل نحو الشرق، وقد ألقى بالرعب في قلوب كثير من الناس، خلال الأسابيع الثلاثة التي ازداد فيها وهجه في الليل، وأوحى بكثير من التقولات حول خطط الناس الخفية.

ووصل في آذار الدوق بوهيموند إلى غاليا، تماشياً مع عهد قطعه للرب عندما كان في سجن الدانشمند، ووفى بعهده بشكل مهيب عند ضريح القديس ليونارد المعترف، في ليموزين، وكان قبل وصوله إلى غاليا قد بعث برسله إلى انكلترا، لإعلام الملك عن سبب قدومه إلى جنوب إيطاليا، وألمح بأنه يرغب بعبور البحر لزيارة بلاطه، لكن الملك الحكيم خاف من أن يغوي خيرة فرسانه ويجذبهم إليه، نصحه بعدم المغامرة بالسفر في الشتاء، وخاصة أنه هو نفسه سوف يعبر إلى نورماندي قبل الفصح، ويمكنه أن يتشاور معه هناك، وهذا بناء عليه ماكان قد عمل.

وهكذا فإنه بعدما قدم بوهيموند صلواته، وترك القديس ليونارد-لي-نوبلاك Leonard-le-Noblac حيث كان ضريح المعترف

المحبوب موجوداً، سافر أثناء الصوم الكبير خلال مدن وقلاع غاليا، وقد استقبل في كل مكان بتشريف من قبل كل من رجال اللاهوت والناس، وحكى لهم عن مختلف المغامرات التي أسهم فيها، ووضع أخيراً آثاراً مقدسة، مع طيلسانات حريرية وأشياء أخرى مرغوب بها على المذابح المقدسة، وقد فرح كثيراً بالاستقبال الحار الذي قدم له في الديرة والأسقفيات، وشكر الرب على لطف الناس الغربيين، وجرت مرافقته من قبل ابن الامبراطور دايوجينس، مع شخصيات إغريقية أخرى ومن أعيان تراقيا، الذين ترافعوا ضد الامبراطور ألكسيوس واتهموه أنه قام غدراً بتجريدهم من مناصبهم الرفيعة التي ورثوها عن آبائهم، وعلاوة على ذلك أثار الغربيين المحبين للحرب، حتى جعلهم غاضبين منه، وجاء كثير من النبلاء إليه، وقدموا أولادهم إليه، فقام هو عن طواعية فعمل عراباً لهم، لا بل إنه منحهم اسمه، وكان اسمه الذي تعمد به هو مارك، لكن والده الذي كان قد سمح بحكاية العفريت بوهيموند أثناء واحد من احتفالات القصف، منحه ذلك اللقب وهو يمزح، وصار هذا الاسم فيما بعد مشهوراً في أقصى زوايا الأرض، وردده الآلاف في قارات العالم الثلاث، ومنذ ذلك الحين صار هذا الاسم يتمتع بالشعبية في غاليا، مع أنه لم يكن بالفعل معروفاً لدى معظم الناس في الغرب.

والتقى الأمير بوهيموند مع الملك فيليب، وطلب منه يد ابنته كونستانس Constance لتكون زوجة له، وقد تزوج منها أخيراً في تشارترز بعد عيد الفصح، وأعدت الكونتسة أديلا حفلة عرس فخمة لكل إنسان، وقد حضرها ملك فرنسا مع حاشية كبيرة، وقدم ابنته إلى بوهيموند، وبذلك عمل على إلغاء زواجها من هيوج كونت أوف تروي Troyes ، وقد فعل ذلك بسبب ما غير معروف بالنسبة لي، ثم إن الدوق الذي كان بهي القامة حتى بين أعظم الناس، دخل إلى الكنيسة،

وصعد المنبر الموجود أمام مذبح العذراء المباركة والأم، وحكى هناك للحشد الكبير من الناس، حول كل أعماله ومغامراته، وحث جميع الذين يحملون السلاح على أن يحاربوا الامبراطور معه، ووعد مساعديه المتحمسين بنيل مدن غنية وقلاع، والتهب كثيرون حماساً لدى سماعهم كلامه، وحملوا صليب الرب، وتركوا كل ما كان عائد إليهم، وأقلعوا آخذين الطريق إلى القدس، وساروا مسرعين مثل أناس مستعجلين إلى حفل، وانطلق في هذه الآونة: رالف أوف بونت إيكانفري Echanfray الذي عرف بالأحمر، وأخوه والشلين Walchelin ، وسيمون أوف آنت Anet ، وروبرت أوف مولي Maule مع ابن عمه(خاله)، وهيوج سانس-أفوير Sans-Avoir وكثيرون آخرون أنا لا يمكنني ذكر أسمائهم على انفراد.

## —١٣—

ووقعت في العام نفسه الواقعة الغريبة التالية في نورماندي، فقد كان هناك روبرت أوف ستوتفيل Stuteville ، وكان مؤيداً قوياً للدوق، ومسؤولاً عن فرسان بيته وحاشيته، وعن قلاع منطقة كوكسCaux ، ففي يوم أحد الفصح، عندما كان الشماس يؤدي قداس القربان المقدس له ولبيته وحاشيته من الفرسان، ذهب واحد من الفرسان باحترام إلى المذبح ليتسلم القربان المقدس، وتناول الكاهن خبزة القربان، عازماً على وضعها في فم الرجل المفتوح، لكنه كان تماماً غير قادر على رفع يديه من فوق المذبح، وارتعب كلاهما من هذه النبوءة، وبعد لأي قال الكاهن للرجل:«خذه إن كنت قادراً، لأنني غير قادر على تحريك يدي، أو إعطائك جسد الرب»، لذلك مدّ رقبته فوق المذبح، وبذل جهده حتى يصل إلى قرب كأس القربان، وأخذ خبزة القربان من يد الكاهن ووضعها في فمه، وأزعجت هذه الواقعة الفارس وخاف من مصيبة مستقبلية لا يمكنه التنبؤ بها، فأعطى ثيابه وممتلكاته الأخرى إلى رجال

اللاهوت والفقراء، وقـد قتل بعد ذلك في أول مناوشة وقعت بعـد عيد الفصح في مارومي Maromme قرب روان، وحكى الشماس، واسمه روبرت، لي شخصياً تفاصيل مـا وقع له ووقع للفارس الشقي أثناء أداء أسرار القداس الموصوف أعلاه.

—١٤—

ومـات في هذه الآونة فـولك راعي دير القـديس بيير-سـور- دايف Pierre-sur-dive في انكلترا، في وينكستر، في الثـالث مـن نيســان، وجرى تعيين إنسان وضيع وصغير اسمه روبرت، وأقحم في محله بعدما دفع إلى الدوق مائـة وأربعين ماركاً من الفضة، وكـان هذا الرجل راهباً دخل الرهبنة في دير القديس دينس، وصار مبعثـراً أكثر منه راعياً لرعية الرب، وكـان مزدرى بشكل عام وممقـوتاً بحكم أنه سيمـوني[سمعاني= يشتري المناصب الدينية]، وهرب الرهبان من أمامه كما يكون الفرار من أمــام ذئب مفترس، وتبعثــروا بين الأديرة الأخــرى، على أمل إنقــاذ أرواحهم، وقـد حول دير القديـس بيير-سور-دايف إلى قلعـة، وحشد قوة من الفرسان، وهكذا تحول معبد الرب إلى وكر للصوص، وباع زينة الكنيسة، التي كان المؤمنون قد زودوها بها قياماً بواجبهم، وبذلك صار قسطلاناً(شحنة) سيمونيا، اعتاد على الاستمرار بالدفع إلى عساكره.

—١٥—

وانتشر في شهر أيار مرض من النـوع البلغمي في جميع أنحاء الغرب، وأصاب كل إنســان بنزلة حادة مع سيـلان الدموع من العينين، ولذلك صــارت جميع وجنـات الناس في فــرنســا-حيث كنـت آنذاك- مبللة بالدموع، وتسببت الحرارة الحادة للصيف بنضوج المحاصيل قبل وقتها، وتبعـه منـاخ مشـابه في الخريف، وجـاء على أعقـابه مبـاشرة، وسببت حمّايات مختلفـة الأنواع مع أمـراض أخـرى كثيراً من الآلام الإنسـانيـة، وأجبرت كثيراً من الناس على التمدد في غرف المرض.

**—١٦—**

وحـاصر في الشهـر نفســه غيـوفـري مـارتل قلعــة كـاندي Cande النورمـانية في مونتريفـولت Montrevault ، واستولى عليها عنوة، ذلك أنه كـان شجاعاً ونشيطـاً في فرض العدالة، وأشهـر عصا النظام ومـدها فـوق رقاب اللصـوص وقطاع الطرق، وكان والده قـد مارس المحـافظة على مثل هؤلاء الناس، لأنه اعتـاد على مشاركتهم في سرقـاتهم وغارات سلبهم، وأخـذ حصته من الأسـلاب، وعندما شب هذا الرجل وشـاهد الانتشـار الواسع للشر الذي ازدهـر وعم جميع آنجـو بسبب إهمال أبيـه المشجوب، وقـد تحرك بسبب رفضه المحق في سبيل الشفقـة على الإقليم غير السعيـد، الذي كـان قـادراً على الازدهار مـن كل جـانب إذا أمكن إعادة السلام، وأخيراً تسلم حقوق مقاطعـة أنجو وحولت إليه بموجب منحة من عمه غيوفري، وجاء ذلك بموافقة أبيه، فقد كان عمه غيوفري هو الوريث الشرعي، لكن فولك قام غدراً بسلب الكونتية منه، واحتفظ به مسجوناً في زنزانة قلعة شينون Chinon لحوالي الثلاثين عاماً، وذلك حتى زار البابا أوربان وأصر على الوقوف ضد جميع المعارضات لإطلاق سراحه، ويسجل لصالـح حسن سمعة غيوفري الشاب، أنـه أجهد نفسه في سبيل ممارسة العـدالة لصالح الفقراء والمتـواضعين، وأن يجلب السلام الحقيقي إلى كنيسـة الرب، وقد تمكن بعـون الرب من إخضـاع المقاطعـة كلها بسرعة، وبذلك تفوق على جميع أسلافه بشجاعته وعدله، وقد نجح في إنجاز الكثير في وقت قصير، عندما أصابه الموت ونزل به بعدما حكم لمدة ثلاثة أعوام، فهـو قد حاصر كاندي، كما قلت أعـلاه، وقمع العصاة على الرغم من دفـاعهم ومقـاومتهم، وحقق ذلك بوسـاطة فـرسـانه الشجعان، وعندمـا خرج قـادة حامية القلعـة للتفاوض معـه حول عمل سلام، وتسليم القلعة إليه في اليوم التـالي، قام رامي قوس عقار، محرض من قبل الشيطان، فأطلق عليه رمية من فوق الأسوار، بها أصاب الشاب

المتميز، الـذي كان قد ذهـب للتشاور مع أعيـانه، وجرحـه جرحـاً مميتاً، وأصاب الحاكم العادل بذراعه، وفي اليـوم التالي مات المدافع العادل عن الإقليم، ودفن وسط حـزن عام وبكاء، في دير كنيسة القـديس الأسقف نيقولا [في أنغيرس Angers].

وبعـد مـوته منح فيليب ملك فـرنسـا كـونتيـة أنجـو إلى فـولك ابن زوجته، ووضع هذا الشاب تحت عهـدة وليم، دوق بواتو، الذي صدف أنه كـان وقتذاك في البـلاط، حتى يقـوم بحمايتـه أثناء رحلته، وليرافقـه ويحافظ عليه حتى يوصله إلى عند أبيه، وقام وليم على كل حال بمرافقة الشـاب الذي كـان بعهـدته إلى تخوم مقـاطعتـه، وتصرف هناك- دونما تقـدير للقـانون، وللعـار الذي سوف يجلبـه على نفسـه- بأن أقـدم على إعتقاله، حيث أبقاه في السجن لأكثر من عام، وعندما سمع ملك فرنسا البدين بهذا، انزعج انزعاجاً عظيماً، وحـاول عن طريق الرجاء والتهديد إنقـاذ الطفل مـن السجن، وكـانت بيرتريد أم الفتـى، زوجـة الملك، فضغطت على الملـك ضغطاً شـديداً، واستخـدمت كثيراً مـن الناس لمساعدة السجين، ولكن عبثـاً كان، وانزعج الملك من هذا الألم المستمر، ورغب في معـاقبة هذه الجريمة التـي لا تغتفر، فعمل تهديدات مـرعبة، ولكن الدوق المتعجـرف، استخف بالملك البـدين، وأبقى الفتى في أسره لوقت طويل، حتى حصل على بعض القلاع على تخوم بواتو وأنجو، من فولك لى ريشين Rechin من أجل إطلاق سراح ابنه، ولم يمض وقت طويل بعـد هذا حتى مات الملـك العجوز، وتزوج الكونت الشـاب من إيريمبيرغ Eremburge ، ابنه هلياس Helias كـونت مايني، وجـاءه منها أولاد نبلاء من الجنسين.

—١٧—

وفي ربيع العام نفسه عبر الملك هنري إلى نورماندي، وذلك كما ذكرنا من قبل، وطالب بميراث آبائـه، الذي بات مـداسـاً تحت أقـدام الخونة،

وقطاع الطرق، والأوغاد، وأخذ معه هيلياس أوف مايني ومعه قواته، وألقى الحصار على بلدة بايو، التي كان يحرسها ويدافع عنها غونتر أوف أوني Aunay ، وخرج غونتر إلى عند الملك، وأملاً منه أن ينال حظوته سلمه روبرت فتزهامون، الذي كان قد أسره، لكنه رفض أوامر هنري الملكية بتسليم البلدة، وقام الملك على الفور باقتحام البلدة، وألقى النار فيها، وأحرقها حتى سواها بالأرض، واعتقل القسطلان غونتر مع حاشيته وأتباعه الفرسان.

وعندما سمع شحن القلاع الأخرى عن تدمير هذه المدينة الكبيرة، ارتعبوا تماماً، وخافوا من عمل مقاومة كبيرة للملك، بما أنه كان زاحفاً مع هذا الإصرار، وسمع شعب كين Caen بمقتل الذين كانوا في بايو، وخافوا من أن يعانوا من مصير مماثل، فراسلوا الملك، الذي كان زاحفاً ضدهم بسرعة، بصفوف عنيفة، وعقدوا الصلح معه بناء على شروطه، وقاموا على الفور بطرد القسطلان أنغورراند Enguerrand بن إيلبيرت Ilbert مع رجاله، وسلموا القلعة إلى الملك، ثم إن الملك سلم إلى الرؤساء الأربعة لمدينة كين دالينغتون Dallington ، التي كان واردها في العام أربعين باوندا، ولذلك سميت منذ ذلك الوقت فصاعداً«قرية الخونة»، مع أنها ليست الآن في أيديهم، ثم توجه الملك إلى فالاسي Falaise ، لكنه لم يقتحمها لأن الكونت انسحب بناء على طلب النورمانيين، وكان هناك-على كل حال- بعض الفرسان الذين كانوا يتبارزون، وقد قتل في أثناء المبارزات الفارس الشجاع روجر أوف غلوستر.

والتقى الأخوان الأميران: الملك والدوق في سينتو Cinteaux في أسبوع عيد العنصرة، وتباحثا لمدة يومين، حيث حاولا إقامة سلام، وعقد صلح، ولكن بسبب تدخل مقترفي الاضطراب الأشرار، خرقت جميع الاتفاقات، وانفصلا أخيراً، وانشغلا بعد ذلك في إثارة الحروب

مع جميع قـواتهم، واختـار الأعيـان والفـرسـان، كل منهم الوقـوف إلى جـانـب من الجانبين، وشغلوا أنفسهم بأعمال الحرق والسلب مـن عيـد العنصرة حتى عيد القديس ميكائيل(٢٩—أيلول).

—١٨—

ومـات في تلك الآونة هنري، امبراطور الألمان في الســابع من آب، ولكن بما أنه لم يكفر ولم يتب للرب عن جـرائمه الكثيرة، حسب شهادة الكنيسة، لم تستقبله الأرض، ولم ينل حق الدفن مع الطقـوس لعدد كبير من السنين، وحكم بعـده ابنه شـارل هنـري الخامس، وبعـد مضي ثلاثة أعـوام تزوج من مـاتيلدا ابنة هنري ملك انكلترا، غير أنه لم يحصل على وريث شرعي منها.

—١٩—

وأضـاف روبرت المقتحم لدير القـديس بيير-سـور-دايف جـريمـة صارخة مثل جريمة يهوذا، وذلك بالإضافة إلى ذنب السيمونية وشروره الأخرى، ودخل في اتفاق تآمري مع الدوق روبرت وأعيانه في فالاييس Falaise ، بأنه سوف يجلب بعد وقت قصير الملك إليهم مع عدد قليل من الرجال فقط، وهم سوف يكونون جاهزين لاعتقاله، وبعدما نصب فخه التآمري ذهب إلى كين، وبحث عن الملك، وأشعره أنه صديق قائلاً له:«إذا تفضلت بمـرافقتي فإنني سـوف أسلمـك قلعتي على الدايف»، وعندما أظهـر الملك موافقته قـال له:«ليس من الضرورة بالنسبة لك أن تجلب جيشـاً كبيراً معك الآن، لأن صـوت حشـد كبير يمكن أن يكون مسموعاً، وبالتالي سوف تخفق خطتنا، لأن هناك في الداخل عدداً صغيراً من الأعـوان غير المهمين، وهم يطيعـونـني بشكل مطلق، ولذلك نهض الملك عند حلول الظلام، وسار طوال الليل مع سبعمائة فارس، ووصل إلى خـارج المكان عند حلول الفجر تمامـاً، وفي ذلك الوقت كـان رينالد

أوف وورني، والشاب روبرت أوف ستوتفيل Stuteville مع مائة وأربعين فارساً آخرين قد استولوا على قلعة دايف وتحصنوا فيها، وعند انبلاج نور الفجر صرخوا بقهقهات وشتائم نحو الملك، عند اقترابه، وكان هناك عدد كبير آخر من الفرسان على طريقهم من فالاييس والقلاع الأخرى في ذلك المحيط، عازمين على الالتحام بمعركة قريبة مع الملك وأتباعه، ولكنه وقد أصبح مدركاً للخيانة، أمر رجاله وهو شديد الغضب بمهاجمة الحامية، وبناء عليه أقلع فرسان الملك على الفور بحملة شديدة، وألقوا النار في القلعة والدير، وأحرقوهما تماماً، وجرى هناك اعتقال الفارسين الأنيقين: رينالد، وروبرت مع كثيرين آخرين، واحترق كثيرون ممن هربوا إلى برج الكنيسة معها، وعندما شاهدت النجدة التي كانت مسرعة لمساعدتهم، الحريق الهائل والركام هربت مسرعة عائدة إلى فالاييس، وطاردهم الملك المنتصر مطاردة شديدة وعن قرب، لكن ما من واحد منهم تجرأ على الوقوف ضده، وكانوا يستحقون تماماً هذه النازلة، لأنه كما قال الرسول:«عندما يدنس أي واحد معبد الرب، الرب سوف يدمره»، فهؤلاء الرجال الذين جعلوا من معبد الرب وكراً للصوص، ودنسوه بالآثام وبقذارة الناس والخيول، هلكوا مستحقين، بالسيف أو بالنار الملتهمة.

ثم إنه جرى اعتقال الخائن روبرت، وأخذ إلى الملك، وهو ملقى مثل جوالق على ظهر حصان، وإليه قال الملك:«أيها الخائن، اخرج سريعاً من مملكتي، فقط لاحترامي لزي الرهبانية الذي ترتديه ظاهرياً، أيها التعيس الشرير، إن هذا ما يمنعني من تمزيقك عضواً عضواً في هذا المكان، انطرد وأغرب هكذا»، وهرب المرتد على الفور وهو يشعر بالعار إلى فرنسا، لأنه كان رجلاً فرنسياً، وقد حصل على رئاسة كنيسة أرجنتويل Argenteuil ، لأنه لم يعبأ بالاستمرار في حياة الرهبنة الهادئة مع الفقر داخل الدير، وخلال ذلك العام نفسه كان يطارد رجلاً اسمه جون

ببعض التهم، وبعنف كان يطالب ببعض الأثاوات المستحقة له، منه، وضربه الفلاح المغضب فألقاه أرضاً، وهكذا هلك هذا الشقي دون اعتراف، وقد استحق ذلك بسبب ذنوبه.

—٢٠—

وكان ذلك الخريف عاصفاً في نورماندي، مع رعود وأمطار سيلية وحروب، ولهيب المعارك، التي أثيرت وأججت من قبل كثيرين، انفجرت بشكل معلن، ووقف روبرت أوف بيليم، ووليم كونت أوف مورتين مع كثيرين آخرين صامدين إلى جانب الدوق روبرت، لأنهم خافوا من الملك، وكانوا غير راغبين تماماً بالخضوع لحكمه، ولذلك قاوموه بكل ما ملكوه من قدرة، ولذلك حشد الملك رجاله، وشيد قلعة حصار في تنشيبري Tinchebray ، ووضع توماس أوف سينت جون مع عدد كبير من الفرسان والجنود الرجالة فيها لحصار الحامية، ولكن عندما سمع وليم أوف مورتين، الذي كانت القلعة عائدة إليه، بأن قلعته كانت محاصرة، حشد قوة نبيلة من الفرسان، وأوصل إلى داخل القلعة كميات كبيرة من الأطعمة والإمدادات الأخرى، التي رأى أنها ضرورية للحامية المحاصرة، وحدث ذلك وعساكر الملك ينظرون بكآبة إلى ذلك، لا بل إنه أمر بقطع زرع القمح الأخضر من الحقول، وزود به حاميته ليكون علفاً لخيولهم، وكان هذا الشاب عظيم المغامرة، وكانت لديه قوة عظيمة من الفرسان، إلى حد أن الحراس الملكيين لم يتجرأوا على المغامرة بترك قلعتهم لأي سبب من الأسباب، ولا على أن يقاتلوا ليمنعوهم من الذهاب والإياب وهم أحرار، وعندما سمع الملك بهذا بات غاضباً كثيراً، واستعد للإقلاع بحملة أكثر عنفاً على الأعداء، فحشد جيشه وجاء إلى تنشيبري، وحاصرها لبعض الوقت عن قرب.

وفي الوقت نفسه توجه الكونت وليم إلى الدوق وإلى روبرت أوف بيليم وإلى أصدقائه الآخرين طالباً العون، وحصل على الفور على

المساعدة ضد الملك، وحشد الدوق جيشه وأمر أخاه برفع الحصار الذي كـان يقـوم فيـه في أراضيه، تحت تهديد إعـلان الحرب، ولكن الملك تصلب في مـوقفه، وثابر على الحصـار، ودخل في أكثر من حـرب أهلية من أجل السلام المستقبلي، وكان معه أربعـة كونتات: هلياس أوف مين، ووليم أوف إيفـري، وروبرت أوف ميـولان، ووليم أوف وارني، مع بارونات مشهورين آخـرين مثل: رالف أوف بايو، ورالف أوف كونشي Conches ، وروبرت أوف مونتفورت، وروبرت أوف غراند ميسنيل وكثيرين آخرين مع عساكـرهم، ومن الجانب الآخر كان الدوق روبرت مصحوباً بروبرت أوف بيليم وابن عمه، ووليم أوف مورتين، وروبرت أوف ستـوتفيل، ووليم أوف فيريري Ferrieres وكثيرين آخرين مع قواتهم، وكان لديه عدداً أقل من الفـرسان من أخيه، لكنه قاد كتلة أكبر عدداً من الجنود الرجالة، وبات الإخوة والأقرباء مسلحين وواقفين على طرفين متعـاكسين، وكل منهم عمل استعـداداته لجرح الآخـر، وأشهـر بعض الفارين المخادعين خناجر، لكنه لم يمتلكوا الشجاعة في القتال من أجل أميرهم، وجعلهم خداعهم أكثر استعداداً للفرار منهم للقتال.

وحـاول عدد من رجـال الدين الحيلولة دون وقـوع الكارثة المرعبـة، وتملكهم الخوف من مشهـد الأخ يسفـك دم أخـاه، وكـان فيتـالس الناسك، الذي كان الأكثر احتراماً بين الجميع، الأكثر حرارة وتحرقاً في الوساطة بين الأخـوين المتحاربين، وحرم عليهما بشجاعـة أن يقاتلا يداً بيـد، خوفـاً من أن يقلدا جـريمة أبناء أوديبـوس Odipus المقوتة من قبل الناس جميعاً، حيث من الممكن أن يعانيا خلال خطيئتهما من المصير الرهيب والمرعب لـ«إيتيوكلس Eteocles وبولينيسز Polynices ».

وبعـد لأي قـام الملك بعـدمـا تفحص بعناية جميع جـوانب الوضع، واضعاً في تقـديره نصيحة الرجال العقـلاء، ومفكراً بعمق ومتأملاً جميع الآراء، قـام بإرسـال الرسـالة التاليـة إلى أخيـه:«إنني لم أقـدم إلى هنا يا

أخي، صدوراً عن الجشع بنيل أية سيادة دنيوية، كما أنني لا أستهدف تجريدك من حقوقك في دوقيتك، بل جئت تلبية واستجابة للالتماسات الباكية للفقراء، وأنا أرغب في أن أساعد كنيسة الرب، التي هي مثل سفينة بلا ربان في وسط بحر عاصف، وفي خطر عظيم، وفي الحقيقة إنك تملك البلاد مثل شجرة جرداء، دون تقديم ثمار العدالة إلى خالقنا، فأنت دوق بالاسم فقط، تتم السخرية منك من قبل خدمك الخاصين بك، وأنت غير قادر على الانتقام للإهانات التي لحقت بك عن طريق سخريتهم، ولذلك يقوم أبناء الشر للاضطراب، بظلم المسيحيين الذين يعيشون تحت ظلك، ولقد قاموا بإفراغ عدد من الأسقفيات من جميع سكانها تقريباً في نورماندي، ولدى مشاهدتي لهذه الأشياء التهبت حماساً وغيرة من أجل الرب، الذي يحكمنا، وسألت فقط أن أقدم حياتي من أجل سلامة إخواني وشعب بلادي المحبوبة، قدّر هذا، وأنا أطلب منك أن تكون متقبلاً للنصيحة مني، ولسوف تكون قادراً على أن تبرهن لكل من تراه على أنني لست مثاراً بالجشع، بل محرضاً بالنوايا الطيبة، سلمني جميع هذه القلاع، وجميع الشؤون القضائية والإدارية في نورماندي، ونصف الدوقية، واحتفظ بالنصف الثاني لنفسك من دون تعب أو مسؤولية، ولسوف تتسلم ما يعادل قيمة القسم الأول سنوياً من خزانتي في انكلترا، ووقتها يمكنك أن تتمتع بالحفلات والألعاب وبجميع أنواع التسلية وأنت مرتاح، وأنا من جانبي سوف أتحمل جميع المشاق وأقوم بكل الأعمال الضرورية للحفاظ على السلم، ولسوف أحافظ بإخلاص على وعودي، وأنت مرتاح، ولسوف أضبط بعون الرب قانونياً وحشية الذين سوف يكونون ظالمين، حتى لايعودوا قادرين على وضع الناس تحت أقدامهم والدوس عليهم».

وبعدما سمع الدوق هذا، دعا إليه مستشاريه، وحدثهم عن إنذار الملك إليهم، وقد رفضوه على الفور مع نزق، وحذروا الدوق بكلام

تحريضي أن لا يصغي إلى كلام السلام، وعندما روى الرسل بأن الدوق وأعوانه جميعاً مصممين على الحرب، وليس على السلام، عهد الملك بنفسه إلى الرب قائلاً:«إن الرب القدير، الذي أنا أثق به، يعرف بأنني ذاهب إلى هذه المعركة لمساعدة شعبه المضطهد، وإنني أتوسل إليه، وهو الذي صنعنا، من أعماق قلبي لأن يمنح النصر في يوم الصراع هذا إلى الذي من خلاله يرغب في منح الحماية والأمان لشعبه».

وبعدما تفوه بهذه الكلمات دعا إليه ضباط حاشيته وأعوانه، وعبأهم من أجل القتال، وأعطاهم أوامر مختصرة تتواءم مع الوقت والمكان، وأطلق سراح رينالد أوف وارني وجميع الذين أسرهم في كنيسة القديس بيير-سور-دايف، ونذر إلى الرب وتعهد بأنه سوف يعيد بناء الكنيسة التي احترقت، ثم جرى صف الأرتال المدرعة من المقاتلين، وقد زحفوا متراصين، وكان رالف أوف بايو هو قائد الرتل الأول، وكان روبرت كونت أوف ميولان قائد الرتل الثاني، ووليم أوف وارني قائد الثالث، وكان مسروراً بشكل خاص لإطلاق سراح أخيه، وبإقدام حث جميع رفاقه على تحقيق النصر، واحتفظ الملك بالانكليز والنورمان معه، وترجل، ومركز المانكوسيين Manceaux والبريتانيين على بعد مسافة في الميدان تحت قيادة الكونت هيلياس، وفي جانب القوات المقابلة، كان وليم كونت أوف مورتين قائداً لقوات الصف الأمامي، وروبرت أوف بيليم قائد قوات المؤخرة، وعندما اصطدم الجيشان، وفيها قوات وليم تحاول تمزيق قوات رالف احتشدوا متلاصقين كثيراً، واضطروا إلى التوقف مع أسلحتهم وهي متلاصقة كثيراً إلى حد بات من غير الممكن بالنسبة إليهم أن يضرب أحدهم الآخر، وحاول كل واحد منهم خرق الصفوف المتماسكة، ومع ارتفاع الأصوات والصراخ من كلا الجانبين، حمل هلياس فجأة برجاله، وهاجم قوات الدوق من الجنود الرجالة الذين كانوا بلا حول ولا طول، وجاء الهجوم من على الجناحين، فقتلوا

مـائـة وخمسـة وعشرين منهم في الحملة الأولى، ولدى مشـاهدة روبرت أوف بيليم هذا فرّ، وتخلى عن جيش الدوق الممزق، وتركه للمنتصرين.

ثم تمكن وولـدريك Waldric من أسر الدوق وسلمـــه إلى سجن الملك، فقـد كـان هو نفسـه واحـداً من حجـاب الملك، وقـد التحق بالفـرسـان، ورافقهم إلى المعركـة، وعمل بعـد هذا بوقت قصير أسقفـاً للاون Laon، وقد ظلم رعيتـه ظلماً كبيراً، وكانت نتيجة ذلك مهـاجمته من قبل مواطنيـه داخل حديقة متعة في يوم الجمعـة من أسبوع الفصح، وقتل مع سبعـة من كبار مـوظفي الكنيسـة، وأسر البريتانيـون الكونت وليم، ووجد الملك ورفاقه صعـوبة كبيرة جداً حتى استخلصوه من بين أيديهم، وجـرى أسر روبـرت أوف سـتـوتفيل Stuteville ووليم أوف فيريري Ferrieres ، وجرت مسامحة بعضهم بإحسان من الملك حتى يتمتعـوا بالحرية التي من أجلهـا رجـوه، ولكن جـرى إبقـاء آخـرين في الأغلال حتى يوم وفاتهم، لأن جرائمهم استحقت ذلك.

وفرح الملك كثيراً بانتصـاره، ودعا قواته للوقـوف من حوله، وعمل ترتيبـات حكيمة لشؤونـه، وأمر بوجـوب حراسة الأسرى مـن الأعداء حراسة مشددة، وقال الدوق له:«لقد خدعني الخونة النورمان، وبكذبهم أقنعوني حتى أرفض نصائحك، يا أخي، فلقد كان فيها خلاصي لو أنني اتبعتها، ولقـد ربطت المدافعين عن فالايس—عندمـا تركتهم— بيمين، أن لايسلموا قلعة فـالاييس إلى أي واحد إلا أنا، أو وليم أوف فيريري، الذي وجــدته مخلصـاً في كل شيء، ولذلـك أسرع الآن يا أخي وأرسل وليم لاستــلام القلعـــة، لأنني أخــاف أن يقـــوم روبرت أوف بيليم بخـداعك بواحـدة من حيله، وإنه باحتـلاله لهذه القلعـة-التي لاترام - قبلك، سوف يقف فيها ضـدك لوقت طويل من الزمن، وبناء عليه أخذ أخاه بطـريقة حكيمة وصـديقه معـه، وبعث وليم أوف فيريري أمـامه مسرعـاً ليستحـوذ على القلعة، وقـام هو باللحـاق به على الفـور، وبادر

مسرعاً إلى فالاييس، وتسلمها، وتلقى عهد الولاء من البرجوازيين، بناء على أوامر الدوق، أما الطفل وليم الذي تربى هناك ونشأ، فقد حمل عندئذ إلى الملك، واعتنى الملك بالطفل الذي كان يرتجف رعباً، وهدأه بنوع من الوعود، لأنه كان قد عانى من مصائب كثيرة في سن الطفولة الغض، ثم خشية منه أن تقف القلعة ضده لو أن الطفل تعرض إلى أي أذى أثناء وجوده بين يديه، قرر أن لا يبقيه تحت إشرافه، بل عوضاً عن ذلك عهد بتنشئته إلى هلياس أوف سينت سين Saens ، وقام الدوق فوراً بإعطاء ابنته -من خليلته -زوجة إلى ذلك الفارس ورقاه إلى أعلى مرتبة في نورماندي بمنحه كونتية أرقوي Areques.

وشعر جميع الرجال الأتقياء بسرور عارم عندما سمعوا بأخبار نصر الملك، وامتلأ الخارجون على القانون، ومقترفوا الشرور، وبقية العصابات، بالرعب والأسى، لأنه لم يعد لديهم أدنى شك بأن النير قد وضع بإرادة الرب على رقابهم التي كانت حتى الآن غير مقهورة، وعندما اكتشف هؤلاء المجرمون الأشرار بأن الملك، الذي جربوا عدالته الفعالة وتذوقوها، بأنه قهر أعداءه في المعركة بعون الرب، اعترفوا بعظمته، وفروا جميعاً في مختلف جميع الاتجاهات، وتخلوا عن مظالمهم المعتادة، فقط صدوراً عن الخوف منه، وعندما تفرق أصحاب الشيطان هؤلاء بالطول وبالعرض، موهوا أنفسهم، لأنهم كانوا مرعوبين من أن يجري التعرف عليهم من قبل الذين كانوا قد اضطهدوهم، وذهب الملك مع الدوق إلى روان، حيث جرى الترحيب به من قبل السكان، وقام بتثبيت قوانين أبيه، وأعاد الامتيازات القديمة للمدينة، وسلم هيوج أوف نونانت Nonant قلعة روان إلى الملك، بناء على أوامر الدوق، فبفضل قوة الملك استرد مرتبته، الذي كان صاحب بيليم قد جرده منها، واحتفظ بها بسلام حتى نهاية حياته، وجرى تحليل قادة القلاع الأخرى في نورماندي من قبل الدوق، من الولاء له، وسلموا جميع قلاعهم بناء على موافقته، وبذلك تصالحوا مع المنتصر.

—٢١—

في منتصف شهـر تشرين الأول وصل الملك إلى ليـزوي، ودعـا إليـه جميع أعيـان نورماندي، وعقـد اجتماعاً له منفعـة عظيمة لكنيسـة الرب، وقضى هناك بمـوجب السلطات الملكية ورسم بوجـوب تثبيت السلام ونشره في جميع أرجاء نـورماندي، وأن جميع اللصـوص والنهابين ينبغي قمعهم تمامـاً، وأن جميع الكنـائس ينبغـي أن تكون بعهـدتهن جميع ممتلكاتهن، مثلما كانـوا في عهدتهن في اليوم الذي توفى فيـه والده، ومثل ذلك تمامـاً يتـوجب أن يستحـوذ جميع الورثة الشرعيين على مـواريثهم، ووضع بين يديه واستحـوذ على جميع ممتلكات أبيـه، وبحكم صـدر عن مستشاريه الحكماء رسم بإلغاء جميع الهدايـا التي أعطاها أخوه بحماقة إلى أناس ناكـرين للمعـروف، وجميع التنازلات التي عملهـا من خـلال ضعفه، وعد ذلك غير قانوني، وأرسل إلى انكلترا الأعداء الذين أسرهم في المعركة، وحكم على وليم أوف مورتين، وعلى روبرت أوف ستوتفيل وعلى آخـرين بالسجن المؤبد، فنحـو هؤلاء الرجـال بقي لا يعـرف التراجع، ومع أن عـدداً كبيراً من الأشخـاص حـاولوا إلانة قسـوته، بالالتماسات، والوعود، والأعطيات، لم يمكن إقناعه بالتراخي.

—٢٢—

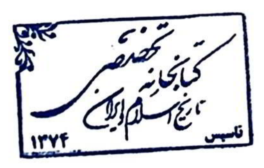
وندب روبرت أوف بيليم حظه، لأن جميع آماله قـد تلاشت للنتيجة غير المتوقعـة للأحداث، وسعى نحـو كونت هيليـاس، وبذل جهده من أجل أن يتـابع الحرب ضـد الملك، وقـال:«سيـدي الكونت أرجـوك أن تسـاعدني لأنني من أتبـاعك، ولي أمل كبير بك، انظر، إنني بحاجـة إلى مساعدتك الآن، لأن الدنيـا عاليها سافلهـا، فقد تمرد الأخ الأصغر على أخيه الأكبر، وقهر الخادم مولاه في الحرب، وألقـاه في الأغلال، وعلاوة على ذلك لقـد سلبـه من ميراث آبائه، وكأنـه تابع حانـث بعهده، فلقـد استـولى على حقـوق مـولاه ووضعهـا بين يديه، غير أنني حـافظت على

ولائي إلى مولاي الطبيعي، ومثلما أطعت الأب بإخلاص، سوف أطيع الابن حتى نهاية حياتي، وإنني مادمت حياً، لن أسمح أبداً للرجل الذي اعتقل مولاي وسجنه، وما هو أكثر سلبه حكمه لنورماندي بسلام، إنني مازلت أمتلك أربعاً وثلاثين قلعة حصينة جداً، منها سوف أكون بشكل مؤكد قادراً على شن حملات مؤذية جداً ضد الغازي، وإنني أطلب مساعدتك ببساطة فقط من أجل استخدام قوتك لمساعدة مولاي الأسير، ولإعادته إلى ميراثه، إلى دوقية نورماندي».

وعندما فرغ مما قاله، أجابه هيلياس قائلاً:«على الإنسان أن يكون حذراً منذ البداية، وأن لا يقلع للقيام بأية مغامرة، لا يمكن تنفيذها، أو لا ينبغي القيام بها، ويتوجب عليه أيضاً أن لاينشغل لرفع أي إنسان وترقيته أعلى مما يستحق، أو السماح إلى أي إنسان، لايعرف كيف يحكم نفسه، أن يمتلك سلطة على الآخرين، وكما يقول المثل العامي: إن الذي يسعى لترقية أحمق، هو مقدم على تحدي الرب، وإنني مرتبط بمعاهدة مع الملك هنري، ولا يمكنني أن أجد في سلوكه أية مسوغات لخرقها، وأنا ليست لدي رغبة بالإساءة -ولو إساءة خفيفة -لمثل هذا الأمير الكبير، وعليّ عدم الإصغاء إليك أو إلى أي رجل آخر حول مثل هذا الموضوع، لأنه حكيم، وقوي، وثري، ولا أعتقد أن هناك أي رجل في الغرب يمكن أن يكون مساوياً له في مزاياه الظاهرة، وإذا كان في الحقيقة قد قاتل ضد أخيه الأكبر منه-كما تؤكد أنت- لقد أرغم على خوض هذه الحرب بموجب ضرورات ملحة كثيراً، وجاء ذلك استجابة لدعوات ولصلوات رجال الكنيسة الذين اضطهدوا بشكل مأساوي من قبل الأشرار الفاسدين، وفي الحقيقة إن الحال كما جاء في القول الدارج:«يزال الخطأ ويوضع حد له بخطأ أشد منه وأسوأ»، وهذا أنا أردده في الحقيقة بمثابة مثل عام، وأنا لا أدعي بوجود سلطان لاهوتي له، ولقد جرى القتال في معركة واحدة بين أخوين، من أجل وضع نهاية

لحروب دائمة، لطخت الأرض يومياً بدماء أبنائها، فمنذ أن عاد الدوق من القدس، واسترد دوقيته في نورماندي انغمس باللهو والكسل، وشجع بفسولته الرجال الخارجين على القانون، الذين حتى هذا الوقت أوقفوا أنفسهم كلياً على كل نوع من اقتراف الشرور في نورماندي، بشكل سري خاص، وبشكل معلن، فلمدة ستة أعوام وأمنا الكنيسة المقدسة وهي تتعرض للانتهاك بإحراقهم لها وسلبهم، ونتيجة لذلك جرى إرغام كثير من الناس المساكين والفقراء على الذهاب إلى المنفى للعيش في بلاد أجنبية، وتم سلب ديرة من مقتنياتهم ومن الهبات المعطاة إليهم في العصور الماضية من قبل سادة محترمين، ولم يوفر عنف هؤلاء الناس الأشرار أحداً، وانتشر الرعب والنحيب في كل مكان بشكل كبير جداً، بحكم أن جرائم هؤلاء الناس الأشرار ازدادت يومياً، وتضاعفت، إلى حد أن التوقير للقداسات قد توقف تقريباً، وليس لدي من حاجة للإسهاب طويلاً في شرح هذا كله، فنحن إذا ما نظرنا من حولنا نشاهد كنائس في كل جزء من نورماندي قد أحرقت وتحولت إلى رماد، وأن أسقفيات قد أفرغت تقريباً من سكانها، ومدناً وقرى في كل مكان وقد امتلأت بالفوضى والاضطراب، فلقد قمت أنت والمتحالفين معك بتدمير هذه المقاطعة النبيلة، وأثرتم غضب الرب ضد أنفسكم، وإنه بالقضاء العادل للرب جرى منح النصر من السماء إلى صديق السلام والعدل، وتم تدمير الفريق المعادي تدميراً كاملاً، وإنني لن أحاول في أي ظرف من الظروف العمل على القيام ضده، بسبب الخوف من إغضاب الرب، الذي هو حاميه، ولكي لا أجلب غضب الرب وأنزله على رأسي، ولكن إذا كنت على استعداد للتخلي عن نواياك الشريرة وعن أعمال خداعك الخبيثة، وسوف تنشد سلوك طريق استرداد صداقة الملك القدير سوف تجدني جاهزاً لمساعدتك بالتباحث معه».

وعندما وجد روبرت أنه من غير الممكن كسب هيلياس للوقوف إلى



جانب المخاصمين المثيرين للشقاق، لأن ذلك غير مفيد له، وأدرك أن نصيحته مفيدة ومليئة بالمنطق الصحيح، لأنه لا يخفي الخداع، تظاهر بأنه يريد التباحث، وشكره من أجل نصيحته الحكيمة، وسأله أن يعمل سلماً مع الملك باسمه ولصالحه، لأنه كانت هناك صداقة وشيجة بين الملك وبين هيلياس، وقد حصل على هذا، وقد سلم أرجنتان وكل الذي حصل عليه من ممتلكات الدوق، لكنه أمن لنفسه كونتية فالاييس، وكل شيء آخر كان عائداً إلى أبيه.

—٢٣—

وهكذا تمكن الملك بعون الرب من إخضاع جميع أعدائه إلى القانون، وأزال القلاع غير المرخصة التي كان روبرت والسادة المثيرين للشرور قد بنوها، وخوفاً من أن يقوم المثيرون للشغب بخديعة الناس البسطاء والعوام بحجة مساعدة أخيه الدوق، بعث به إلى انكلترا، واحتفظ به لمدة سبعة وعشرين عاماً في السجن، مزوداً إياه بكرم بجميع وسائل الراحة، وخلال هذه المدة حكم هو نفسه، دوقية نورماندي بحزم مع مملكة انكلترا، حتى نهاية حياته، حيث كان دوماً مكرساً حياته للحفاظ على السلام، وبعدما أمن الازدهار الدائم الذي رغب به، لم ينحرف عن قوته المبكرة وعن العدالة الدقيقة، وبذكاء أبقى تحت الاحتزاز الكونتات المشهورين وقادة القلاع، والطغاة الجريئين، ليمنع الثورات الانفعالية، وقد حرص دوماً على رجال السلم، والرهبان، والناس المتواضعين وحماهم، وبعدما غدا ثابت الأركان في حكومته على جانبي القنال في العام الثامن من حكمه، سعى دوماً لإعطاء السلام إلى الناس من رعاياه، وعاقب دوماً بدقة الذين خرقوا القانون، وفقاً للشريعة القاسية، وقد امتلك ثروات فائضة وافرة، مع أسباب الترف، وقد تساهل كثيراً في اقتراف ذنب الشبق، فقد كان منذ صباه حتى تقدمه بالسن مستعبداً بإثم اقتراف هذا العمل الشرير، وقد امتلك كثيراً من الأبناء والبنات

من خليـلاته، فلقـد كـان رجـلاً صـاحب نشـاط هائل، وقـد زاد كثيراً ممتلكاته الدنيـوية، وجمع ثـرواتاً ضخمـة، وأشيـاء ثمينة، وادعى لنفسـه وحده حقوق الصيد في جميع أنحاء انكلترا، إلى حد أنه أمر بتشويه أقدام الكلاب الذين كـانوا يعيشـون في المناطق المجاورة للغـابات، وسمح -فقط بتذمر-لعدد قليل من أعظم نبلائـه وأقرب الأصدقاء إليه بامتياز الصيد في غـاباتهم، وكان باحثـاً متقصياً نشيطاً، وقـد بحث في كل شيء واحتفظ بكل شيء معـه في ذاكرته الدقيقـة، وقد رغب في معـرفة أعمال جميع الموظفين والمناصب، وبما أنه كان حـاكماً متيقظاً، حافظ على مـراقبة الكثير من الوقـائع في انكلترا ونورمـاندي، وكـان على اطلاع دقيق على جميع الأسرار، والأشياء التي وقعت بصـورة خفية، وبلغ الأمـر إلى حد أن مقترفي هذه الأعمال لم يستطيعوا أن يتصـوروا كيف أمكن للملك أن يكون على معـرفة بالأسرار الخفيـة كثيراً لمؤامراتهم، وبعـد دراسة دقيقـة للتاريخ الماضي، يمكن التأكيد بثقة أن ما من ملك في المملكة الانكليزية كـان قط أكثـر ثروة، أو أعظم تجهيـزاً من هنري في كل شيء ينتمي إلى المجد الدنيوي.

—٢٤—

في عام ١١٠٧ لتجسيد الرب دعـا الملك هنري أعيانه إلى الاجتماع مع بعضهم، واتهم روبرت أوف مـونتفـورت بخـرق الـولاء، وبما أن كـان يعرف نفسـه أنه كان مذنباً، فقـد حصل على الإذن بالذهاب إلى القدس، وتخلى عن أراضيه وأعطاها إلى الملك، وانطلق مع عدد من المرافقين، وقد ذهب إلى عند بوهيموند في أبوليا، ولسروره اكتشف هناك بعضاً من أبناء منطقتـه، فقـد كـان مع بوهيمـوند: هيـوج أوف لي بوسيت Puiset ، وسيمـون أوف آنيت Anet ، ورالف أوف بـونت أشـانفـري Pont,Echanfray ، وأخيـه والشيلين Walchelin ، وكثيرين آخـرين من شمال الألب، وكـان هناك كثير من الناس من بلدان أخـرى ينتظرون

موعد العبور البحري، وهم جميعاً كان قد جرى اختيارهم للقتال ضد الامبراطور[البيزنطي] مع الدوق بوهيموند، فبفضل كرمه كانوا يتسلمون المؤن لأنفسهم ولخيولهم أثناء انتظارهم، وفي الحقيقة لقد أنفق على عدد كبير من العساكر لمدة عامين، إلى حد أنه استنزف أمواله، وبسرور جهز سفناً للجميع، من دون أن يدفعوا إيجار العبور، وقد رحب بروبرت أوف مونتفورت بشكل مشرف، وارتقى به بين الرجال ذوي المراتب بسبب أنه كان المشرف على الجيش النورماندي بموجب حق الوراثة، وكان منذ بعض الوقت يحشد السفن والحجاج في الموانىء البحرية، وقد زود الجميع بكميات وافرة من الإمدادات من موارده، وقد أعد بعناية أسطولاً مسلحاً بصورة جيدة لمهاجمة الامبراطور، وأبحر الأسطول أخيراً إلى ثيسالي Thessaly مع ريح موائمة، وأخضع دورازو إلى حصار طويل، وحاول الدوق العالي الحماسة بمختلف الطرق اقتحام المدينة، غير أن الذين كانوا من المفترض أن يكونوا عوناً كبيراً له أعاقوه، فقد ذهب أخوه غي وروبرت أوف مونتفورت، اللذين وثق بهما بشكل خاص، بشكل غير مشرف للوقوف إلى جانب الامبراطور، ذلك أنهما دهشا كثيراً بسبب الهدايا المالية الضخمة التي أرسلت لهما من قبل الامبراطور، وببراعة ودهاء أحبطا خطط أميرهما، فعندما أكمل إعداد آلات الحصار، وعزم على اقتحام المدينة في يوم محدد، طلبا عقد هدنة، وبخداع تقدما ببعض المسوغات من نوع ما، وأخبرا العدو بشكل سري بماهية الإجراءات التي عليه اتخاذها ليتصدى للخطر الذي كان وشيكاً، وبهذه الطريقة أعيق بوهيموند وجيشه وتأخر بسبب خيانة رجاله، لمدة طويلة، وعندما جرى استنزاف الإمدادات وباتت قليلة في المنطقة المجاورة، ازداد جيش المسيح ضعفاً، وأخيراً عندما بات أفراد الجيش غير قادرين على تحمل المجاعة، انسحبوا بالتدريج، وتفرقوا خلال إقليم مقدونيا، وعقدوا سلاماً مع الامبراطور، الذي استقبلهم، وأعطاهم حرية الاختيار: البقاء والدخول في خدمته، أو الذهاب إلى المكان الذي يريدونه، وتسلم كثير منهم هدايا

واسعة، وتلقوها مـن يديه، وعندما تمتعوا بسخائـه، واستراحوا بعد الذي عانوه من الشدائد شكروه من قلوبهم.

وعندمـا رأى بوهيمـونـد أنه لايستطيع التـوصل إلى تحقيق مطامحه وخططه الكبيرة، بات مـريضـاً بالقلب، لكنـه قـاوم لمدة طويلة المطالب اليومية من أصحابه، في أن يلقي بنفسه تحت رحمة الامبراطور، فقد قالوا له: «إننا ندفع عقوبة ثمن ما أقدمنا عليه، لأننا تولينا القيام بمشروع كبير جـداً، هو أعظم من حق بكورتنا، وفـوق طاقـاتنا، فقـد تجرأنا على رفع أيدينا ضـد الامبراطورية المقدسـة، ولا يوجـد حق وراثي يشدنا للقيـام بهذه المغامرة الجريئة، ومـا من نبي أرسل من عند الرب، فأيقظنا برسالة من السماء، وإن الذي أقنعنا هـو فقط الرغبـة العـارمـة في أن نحكم في ممالك الآخرين، فهذا ما دفعنا للقيام بهذه المهمة الصعبة، ومن جانبنا إن الجشع للربح هو الذي جـذبنـا ودفعنا حتى نعـاني من حمل ثقيل جـداً، متعب ومـرعب، ولكن بما أن الرب لا يمكن الاستهـزاء به، ولا يدمـر العـدل، أو يحطم مـا هو صحيح، قـد أعـار أذناً صـاغيـة إلى صلوات الرجـال الصالحين الذين توجهـوا بالدعاء إليـه صارخين ضـدنا في بلاد الإغريق، ففـرق جيوشنا، وأضعفهـا ليس بوساطة الحرب، بل بـوساطة المجاعـة، ولغم قوتنا وأضعفها من دون سفك للدمـاء، ولذلك نرجوك أن تعقـد الصلح مـع الامبراطور قبل أن تقع بـالأسر، أو يحكم عليك بالموت، وعلى جميع أتبـاعك المتورطين في مأساة سقـوطك بشكل لا يمكن رأبه».

وعندمـا سمع الدوق هذه الخطابـات الرنانة، أدرك أن رجـاله غير متعـاطفين معـه بشكل صريح، وبعـد لأي تنازل مكرهـا وقبل حتى يتجنب عاراً أبدياً ودماراً لذاته، فالتمس التصالح مع الامبراطور، وعاد حزيناً إلى أبوليا، وشعر بالخجل من مواجهة الناس من فرنسا الذين كان قد وعدهم بالحصـول على ممالك كبيرة، وبضيق وانزعاج أعطاهم الإذن

في أن يتابعوا سفرهم للقيام بحجهم، ثم غادره هيوج أوف لى بوسيت، ورالف أوف بونت اشانفري مع أخيه والشلين وعدد كبير من الآخرين، وتوجهوا إلى القسطنطينية، حيث استقبلوا بحفاوة، ومنحوا هدايا كثيرة من قبل الامبراطور ألكسيوس، ومن هناك ذهبوا إلى القسطنطينية، وفي العاصمة الامبراطورية ماتت زوجة رالف، التي كانت ابنة جوسلين أوف ليفي Leves ، ودفنت هناك بشكل مشرف، وبعدما أكملوا تأدية عباداتهم، انطلق بعضهم عائدين إلى بلادهم، وواجهوا الموت بطرق متنوعة، فقد وقع غي مريضاً بعد ذلك بوقت قصير، واعترف بصورة علنية بالخيانة التي اقترفها، غير أنه لم يستطع الحصول على الغفران من أخيه، ثم إن روبرت شريكه بالخيانة مات أيضاً، ونال جزاءه، لأن ما من واحد قال كلمة في الثناء عليه.

—٢٥—

في عام ١١١١ لتجسيد ربنا، وفي الإشارة الرابعة، مات مارك بوهيموند، بعد كثير من الصراعات والانتصارات باسم يسوع، وخلفه تانكرد، الذي كان فارساً جديراً بالثناء الكبير، وتولى بعده أعمال مقاومة المسلمين لعدد من السنين، وبعد موته حصل روجر بن رتشارد، الذي كان قريباً لكل من بوهيموند وتانكرد، على إمارة أنطاكية، لكنه أصيب بسوء الحظ، واحتفظ بها لوقت قصير فقط، وانتشرت أخبار موت هذين الأميرين اللذين لا يقهران في جميع أرجاء الدنيا، مسببة بكاء الصليبيين وفرح المسلمين، وجاءت وفاة روجر نتيجة لقيام الأمير إيلغازي، الذي هو حفيد للسلطان، أمير فارس، بشن الحرب، ضد الصليبيين، فقد اصطحب جيشاً كبيراً لحصار زردنا، وهي قلعة تبعد عشرة فراسخ عن أنطاكية، والتي كانت بأيدي الصليبيين، وانطلق روجر بن رتشارد، أمير أنطاكية إلى الحرب، على الرغم من النصيحة المعاكسة للبطريرك برنارد، وفعل ذلك رافضاً انتظار قدوم بلدوين،

ملك القدس، الذي كانوا قد استدعوه، فقد كان جريئاً وفارساً شجاعاً، لكن ليس معادلاً لسلفيه، لأنه كان لايعتمد عليه، وعنيداً، وطائشاً.

وكان البطريرك، الذي شعر بعاطفة أبوية نحو الناس، قد قال للدوق، عند انطلاقه مبكراً وقبل الوقت المتوجب:«اعقل حماسك بالحكمة، أيها الفارس الشجاع، وانتظر الملك بلدوين وجوسلين والسادة المخلصين الآخرين، القادمين منذ زمن لمساعدتنا، إن السرعة الطائشة، قد جلبت الدمار لكثير من الناس، وجردت أمراء كبار من الحياة والنصر، اقرأ التاريخ القديم والحديث، وفكر بعمق حول مصير بعض الملوك المشهورين، وتذكر شاول، ويشوع، ويهوذا المكابي، والرومان الذين هزموا من قبل هانيبال في كاني Cannae ، واحذر تمام الحذر من أن تورط رعاياك مع نفسك في مأساة من النوع نفسه، وانتظر قدوم حلفائك الصالحين، الذين هم مخلصين بشكل واضح وأقوياء في كثير من الجوانب، فبالقتال معهم ضد المسلمين بقوة الرب القدير، وبعون الرب سوف تتمتع بالنصر الذي ترغب به»، وقال البطريرك البعيد النظر هذا، وكثيراً آخر للغاية نفسها، لكن الأمير المتجبر انطلق دون الإصغاء إلى أي شيء، ونصب خيامه في سهل سرمدا ومعه سبعة آلاف رجل.

ثم قام إيلغازي مع الأفواج الضخمة من المسلمين فجأة برفع الحصار، وزحفوا نازلين بشكل غير متوقع من الجبال القريبة، إلى السهل، وغطوا وجه الأرض مثل أسراب الجراد مع غيرهم من الحشرات، وحملوا على معسكر الصليبيين، وقاتلوهم وهم غير متوقعين، بالعنف الأشد، وقتلوا الأمير روجر مع سبعة آلاف رجل في ميدان درب سرمدا، وكان على كل حال روبرت أوف فو-بونت Vieux-Pont وبعض الفرسان الآخرين والأتباع قد خرجوا في الصباح للاحتشاش، أو تركوا المعسكر للقيام بالصيد، أو لبعض الأسباب الأخرى، كانوا قد شاهدوا الهجوم المفاجىء، فهربوا وساروا مسافة سبعة فراسخ إلى

المدينة، حيث أثاروا السكان وأيقظوهم بوساطة الأخبار الرهيبة، وحثوهم على الدفاع عن بلادهم، وكان عدد الذين كانوا خارج المعسكر حوالي مائة وأربعين رجلاً، وهم الذين نجوا، وبرحمة من الرب جرى حفظهم لحماية المؤمنين.

وعندما سمع البطريرك برنارد بالأخبار، قام بمساعدة رجال اللاهوت والمدنيين الذين تسنى له أن يجدهم، باتخاذ إجراءات للدفاع عن المدينة، وقامت سيشيليا Cecilia ابنة فيليب ملك فرنسا، التي كانت أرملة تانكرد، برسم غيرفاس البريتاني فارساً، وهو ابن هيموكونت دول، ورسمت عدداً آخر من الأتباع، وأعطتهم شارات الفروسية ليقاتلوا المسلمين، وفرح المسلمون كثيراً بمقتل الصليبيين، وبادروا مسرعين كلهم كتلة واحدة إلى المدينة، وتآمروا لقتل المدافعين، والدخول إليها بشكل مفاجىء، ولكن بالقضاء الحكيم للرب، وبقوة الصليبين القلة تم صدهم وإبعادهم عن أسوار أنطاكية.

وبعد مضي خمسة عشر يوماً التقى ملك القدس، وبونز كونت طرابلس عند حصن هاب، وتوجها بالدعاء إلى اسم يسوع الرحيم، عندما أنشبا القتال، وقد انتصرا بخرق جناحي جيش المسلمين، وهناك قتل الفارس الشاب غيرفاس إيلغازي، وتمكنت الشجاعة الصليبية من تدمير القدرة الإسلامية، وأثرى الصليبيون بأسلاب المسلمين، وبسرور قدموا الشكر للرب.

وبما أن تانكرد لم ينجب أولاداً، تولى الملك بلدوين المسؤولية عن أنطاكية، ودافع عنها ضد المسلمين لعدد من السنين، وبعد بعض الوقت وصل بوهيموند الشاب إلى سورية قادماً من أبوليا، وقد استقبل بسرور عارم من قبل كل إنسان، وتزوج من ابنة الملك، واسترد جميع ممتلكات أبيه، وحكم بشكل متميز، وسار على خطى أبيه لمدة تقارب الأربعة أعوام، لكنه مثل الورود النضرة ما لبث أن ذبل وتلاشى.

وفي هذه الآونة قـام زين الدين بلك، الذي كان نائب بغـداد، والذي كـان متزوجـاً من ابنة رضـوان ملك حلب(١)، وقد استـولى على مملكة حلب معها، وشن حـرباً عنيفة ضد الصليبيين لمدة طويلة، وعندمـا كان هذا المحارب القديم ملقياً الحصار على بلدة منبج، ويشعر بالفخر نتيجة لخسـائر الصليبيين، علـم بأن بلدوين وجوسلين وآخـرين عـازمين على القـدوم إلى الرها، وأنهم قد قـرروا الاحتفال بعيـد الفصح هناك، وبناء عليـه قام في الأسبـوع الأخير من الصوم الكبير بالانسحـاب بهدوء من الحصـــار مع أربعين ألف رجل، وأسر في يوم خميس العهـد جــوسلين صـاحب تل باشر، وفـاليران أوف لى بـوسيت، اللذان كـانا في مقـدمـة الجيش، ثم قـام مثل ذئب بنصـب كمين مع رجـاله في غـابة كثيفـة من أشجــار الزيتـون، وانتظر عنـد جسر سنجـة على الفــرات يوم السبت المقـدس، وصـــول الملك بلدوين، الذي كـان جــاهلاً لا يعـرف مصير أصحابه الذين بعثهم أمامه، وشـاهد الجاسوس الداهية بعض الشمامسة وبعض الناس غير المسلحين، فسمح لهم بـالمرور من دون أن يلحق بهم أذى، لأنه كـان ينتظر غنيمـة أغنى، وأخيراً أسر الملك، الذي كـان يسير وهو فـارغ البال خلف رجـاله، ومعه خمسـة وثلاثين فارسـاً، ثم أرسل جميع عســاكــره مثل نمــور هائجــة خلـف الناس غير المسلحين، مع توجيهـات بقتلهم جميعاً حيث هم، وتم تنفيـذ هذا الأمر، وجـرى ذبح جميع شمامســة الملك والرجــال غير المسلحين الذين كــانوا يسيرون في الأمام، مثل الأغنام في يوم السبت المقدس.

وشعـر بلك بسرور عـارم نتيجة هـذا النجاح السعيـد، وأخـذ الملك وحمله مع فـرسانه وهم في الأغـلال إلى حران، ومن هناك إلى خـربوط، حيث احتفظ بهم هناك تحت الحراسـة لمدة طويلة، وقـد كـان هناك برج

---

١ —كذا والذي كان متزوجاً من ابنة رضوان هو ايلغازي.

جميل جداً، محصناً بشكل جيد، وكانت القلعة من أشهر القلاع في أي مكان، القلاع التي صنعت مجد الطغاة.

وكان هناك الملك بلدوين، وجوسلين، وفاليران، وكذلك بونز فيزكونت أوف غفارت Gavarret والفارس الشاب غيرفاس، وغي البريتاني ابن الكونت ألان Alan مع اثنين وثلاثين فارساً، كانوا جميعاً قد مكثوا في الأغلال لمدة عام، وقد وجدوا هناك أيضاً أربعين سجيناً أرمنياً وسريانياً، جرى أسرهم من قبل، وعهد بلدوين بحراسة البرج والسجناء إلى ثلاثمائة وخمسين فارساً، وأعطى أوامر قضت بإجاعة الملك حتى يسلم القلاع التي رغب بالسيطرة عليها، وتطلع إلى تملكها، وجرى تكليف الآخرين بأداء واجبات ومهام متنوعة يومياً تحت الحراسة، ثم إنه حشد جيشاً كبيراً جداً لمحاربة الصليبيين معتقداً أنهم باتوا من دون قيادة، وقد أخضع قلعة زردنا، التي هي على مقربة من أنطاكية، إلى حصار طويل، لكنه لم يكن قادراً على الاستيلاء عليها، لأن الرب القدير، رب الحشود قد متن حاميته الصليبية.

وفي الوقت نفسه كان الأسرى يعملون بتعب في سبيل حراسهم المسلمين، وأطاعوا أوامرهم وقدم واحدة مغلولة، وحملوا يومياً الماء لمسافة ميل واحد من الفرات، وبأرواح عالية نفذوا الأعمال الأخرى التي فرضت عليهم، وقدرهم المسلمون تقديرهم لدواب التحميل، وعاملوهم بلطف، وأطعموهم بشكل جيد، حتى لا يفقدوا خدمهم الجيدين وعمالهم، وفقط الملك بلدوين وجوسلين لم ينفذا أية واجبات، لكنهما حرسا حراسة دقيقة، وبناء على أوامر بلك، سمح للملك بالطعام فقط يومي الأحد والخميس، ثم أعطى وجبة إلى الثلاثمائة والخمسين جندياً، الذين يتولون حراسته، وقدم أيضاً إمدادات وافرة إلى أصحابه والأربعين أسيراً الذين وجدهم بالسجن، وكان محرضه على ذلك الأبهة الملكية، ورغبة منه بشراء النوايا الطيبة للحراس، وكان لهذا الكرم فائدة كبيرة

لهم، لأن الفرسان المسلمين حرسوهم باحترام، ولم يطيعوا بلك، بتزويد الملك في غالب الأحيان، سراً، بولائم فخمة، وساعده أمير قلعة جعبر، الذي كان عم زوجته، بأن أرسل إليه مائة من الدنانير كل أسبوع.

وغالباًما عامل المسلمون الدهاة الصليبيين، معاملة طيبة، لكن أتمنى أن يتعرض إيمانهم الحقير إلى الدمار السرمدي، لأنهم أخذوا مرتين أثناء احتفالهم بأعيادهم واحداً من الفرسان الصليبيين بالقرعة، وربطوه إلى عمود، ورموا نحوه السهام، وبممارستهم للرياضة كانوا يتولون قتله، وعندما شاهد الأسرى هذا أصيبوا بالأسى، وقرروا أنه أفضل سمعة أن يموتوا من أن يعيشوا بتعاسة، وبناء عليه بعد مرور عام واحد، جدد الصليبيون شجاعتهم، وفي واحد من أيام الأحد جعلوا حراسهم يسكرون عندما كانوا قد أتخموا بعد وليمة ملكية، وفي الوقت الذي كان المسلمون فيه يشخرون، استولى الفرنجة على أسلحتهم، والتحق بهم الأربعون مسيحياً من الأرمن والسريان الذين كانوا بالأسر منذ زمن طويل، فقتلوا جميع الأتراك، وبعدما قتلوا البوابين، استولوا على القلعة كلها.

واندفعوا في اليوم التالي بجرأة إلى داخل المدينة، فقتلوا آلافاً كثيرة من المسلمين، وأخذوا أسلابهم معهم، وأبقوا البرج الحصين لحوالي الثمانية أشهر في أيديهم، ثم بعثوا جوسلين وغيوفري لى غريلي Grele ينشدون العون من جميع المسيحيين.

وفي هذه الآونة أرسلت ملكة القدس، التي كانت من أصل أرمني، مائة أرمني موثوق، مرتدين لألبسة تركية، وحاملين لأسلحة تركية، لمساعدة زوجها، وعندما وصلوا إلى خربوط، دخلوا إلى البرج، وكانوا عوناً كبيراً للفرنجة، بسبب معرفتهم باللغة وبطرائق الخداع التركية.

وفي أثناء سير جوسلين وغيوفري على طريق غير معروف خائفين من جميع الناس، وكأنهم جميعاً أعداء في هذه البلاد البربرية، التحقوا بفلاح

كان مسـافراً من الجزيرة إلى سـورية مع زوجتـه التي كانت جـالسة على ظهـر أتان صغيرة، وفي أثناء سفـرهم مع بعضهم، عـرف الفـلاح فجأة جوسلين، ولدى سماع اللورد الشجاع كـلام هذا الغريب ارتجف وأنكر أن يكون جـوسلين، لكن الرجـل الآخـر قـال:«أيها الفـارس الشجـاع، لاتنكر من أنت، لقـد عرفتك دونما خطـأ، فأنت مولاي جـوسلين، فأنا غـالباً مـا خـدمتك في بيتك، وكنت أشعـر بالسرور العـارم عندما كـان يسمح لي بخدمة أكثر متعلقيك تواضعاً، حيث كنت أجلب الماء، وأوقد النار، وأحصل على طعـامي وثيـابي، بين خـدم حـاشيتك، من كـرمك الكبير، ولقد ذهبت بعـد عدة سنوات عـائداً إلى بني قـومي، الذين هم أتراك، ولكنني اليـوم مغادرهـم مرة أخـرى لأنهم كفـار، وأنا عائـد إلى الصليبيين الذين عشت بينهـم بسعـادة أكبر من العيش بين بني قـومي وأبناء منطقتي، وكنت قـد سمعت بما ألم بك من سـوء حظ، يا مـولاي الشجاع، وكنت لمدة طويلة منزعجـاً بسبب محنتك ومحنة رجالك، والآن وقـد نجـوت من أغـلالك، وأنت الآن على طريقـك إلى الديار، إنني سـوف أكون رفيقك المخلص، وسـوف أكون بمثـابة دليلك في رحلتك حتى أنطاكيـة»، ولقد قال الفـلاح هذا مع المزيد للغاية نفسهـا، ولذلك فرح جـوسلين ورفيقه فـرحاً كبيراً، وغيروا على الفـور ملابسهـم، وقاد البربري وسـار على الطريق على أنه السيد، وتحدث إلى كل من واجهـوه على الطريق أثناء السفـر، وتبعـه النبيـلان الصليبيـان مثل خـادمـان متـواضعان، وصليـا بصمت إلى رب الحشود، من أجل سـلامة الجماعـة كلها، وبسرور وحماس حملا ابنة المسلم التي كان عمرها ستة أعوام، على ذراعيهما، وسـاروا خطوة خطوة هنـاك، وارتحلوا خـلال القـلاع والمدن دون أن يعرفوا.

ودعونا الآن نخبركم بالذي حدث للرجـال الذين كانوا يكابدون في خـربوط، فقد كـانت ثلاثة من زوجات بلك متخفيـات في البرج، ولمدة

أسبوعين لم يعـرف الصليبيون بوجودهن، وكانت فـاطمة ابنة علي ملك الجزيرة(ميـديا) الأكثر جمالاً بينهن ونفـوذاً، وكانت الثـانية ابنة رضـوان ملك حلب، وكـانت الثـالثة ابنة أمير قلعـة جعبر، وكتبت ابنة رضـوان رسـالة، وبعثت بها من البرج يحملهـا طائـر، حيث كـانت مـربوطة إلى رقبتـه، ووجهت الرسـالة إلى زوجها الـذي كان يحاصر زردنا مع مـائـة ألف رجل، وفي الرسالة وصفت وصفاً تاماً عملية الاستيلاء على البرج، ومقتل الحراس، ونهب المنطقة، وانزعج بلك، فـرفع على الفور الحصار، وأخذ الطريق عـائداً بسرعة إلى خربوط، التي حـاصرها لمدة ثمانية أشهر بعدما حشد القوات من القرب والبعد.

وعند تلك النقطة عبر جوسلين ورفاقه، دون أن يلاحظوا، من خلال قـوات بلك، ووصل إلى دياره، وكافأ دليله بكرم، وتدبر تعميـد الأسرة كلهـا، وأغنى الـزوج والزوجـة بممتلكات كبيرة، أمـا بالنسبـة للفتـاة الصغيرة التي حملها بين ذراعيـه عندما تموه حتى يخدع القبـائل المسلمة، فقد زوجها بتشريف كبير إلى فارس صليبي.

وحـاصر بلك مع جيشـه الضخم خـربوط لوقت طـويل، وأبدى بلدوين مع رجـاله دفـاعـاً ملحوظـاً، وكان في داخل البرج عـدة قـلاع واسعة وفخمـة، وغرفـاً بنيت داخل الأسـوار نفسها، فيها جـرى حفظ كنوز وأمـوال كثيرة جـداً، فقـد كـان هناك أكـوام من الذهب والفضـة والأحجار الكريمة، واللآلىء والحرير، ووفرة عظيمة من جميع الثروات، وكان هناك جـدول يتدفق كاملاً بالماء، الذي جلب من الفـرات بطريقة ذكيـة، بقنـاة تحت الأرض، وصلت إلى هناك، وزودت المحـاصرين بكميات وافية، حيث لبت جميع احتياجـاتهم، وكان مخزن الخبز والخمرة مع كل من اللحم الطازج والمجفف، فيـه ما يكفي لإطعـام ألف فارس لمدة عشر سنوات، ولذلك كـان الفـرنجـة الشجعـان قـادرين على أن يتطلعوا بثقة وأن ينتظروا عودة جوسلين، ومعه قوة تفريج صليبية.

ولذلك كـان بلك قلقاً كثيراً، وعمـل مناشـدات متـواليـة إلى الملك بلدوين، من خلال رسل موثـوقين، وأعطى وعوداً كثيرة، لا بل إنه قام في بعض الأحيان بلومـه بشدة قائلاً:«السيد الملك، إنـك تقترف جريمة مهينة سـوف تسبب تلطيخ سمعتك الآن وفي العصور المقبلة، فأي عـار اقترفته بمعاملتك سيدات نبيلات بوحشية، واضطهدتهن بشكل معيب، فمثل هـذا العمل لا يشرف مملكتك أو الـديانة المسيحيـــة، فلماذا أنت محتفظ بزوجاتي اللائي لا حول لهن ولا طول مثل السجينات المغلولات في الزنزانة، مـع أنهن لم يلحقن بك أي ضرر من أي نوع؟ ولماذا تقـوم بتقييد ملكات من أصل ملكي وكأنهن لصوص أو خونة؟ وأعمالك هذه هي عار لجنسك ولسوف تبقى وصمة عار على دينك حتى نهاية الزمان، أرجـوك ألـن قلبك الحديدي، وكن رحيماً بسني المتقـدم، وحـافظ على هشـاشـة النسـاء، وأعـد زوجـاتي إليّ، أتـوسل إليك، ولسـوف أعطيك وأعطي رجـالك يميناً مـؤكـداً بأنني سـوف لن أوذيك بأية طريقـة من الطرق لمدة عـام، إلى أن يعـود رسولـك جوسلين الذي أرسلتـه، ومعـه المسـاعـدة التي تحتـاجهـا، فإلى ذلك الوقت، أنا آمل بأن تعيـد زوجـاتي العزيزات إليّ، وأنا سـوف أنسحب وأمضي لقضاء أشغـالي في مقاطعتي، وأنت يمكنك أن تتمتع بـالسـلام حتى الوقـت المحـدد، وتقبل حـرية الشراء من الأسـواق في كل مكان في مقاطعتي، واشتر كل مـا ترغب به من أي مكان، بأمـوالي، التـي وضعهـا الحظ بين يديك»، وحمل غـازي، وبرسق، ورجال آخرين من ذوي المراتب الرسـائل، وببلاغة حثوا الملك على قبول مقترحات الآخر.

ودعـا الملك بلدوين جميع الرجـال الذين كـانوا محاصرين في البرج، وأخبرهم بمقترحات بلك، وسألهم جميعـاً أن يقدمـوا نصائحهم، وبما أن الآراء اختلفت، وهم ترددوا في إعطاء نصيحــة إيجابيـة في تلك الأزمـة، تكلمت الملكة فاطمة قائلة:«إنني أرى، أيها الفرسان البواسل، أنكم لستم

متأكـدين حــول مـا هو الجواب الذي عليكم تقـديمه على اقتراحـات مــولاي، وأطلب منكم الآن أن لاترفضــوا الإصغـاء إليّ، لا تثقــوا بمقترحـات مـولاي، لأنه لا توجـد كلمـة صـدق فيهم، فجميع وعـوده زائفـة، فهو يريد تضليلكم فطوال مـا أنتم متملكين لهذا البرج، الذي هو لا يرام، ومحتفظين بي وبربفيقتي معكـم، من المؤكـد أنـه سـوف يستمـر بالخوف منكم، ولن يغـامر أبداً بالإقـلاع بهجوم عليكم، ذلك أنه مـدرك بدهاء، وغـالبـاً مـا يردد في اجتماعـاته مع أقـرب رجـاله إليـه، بأنكم إذا مـاقتلتمـونا، بسبب أي ضرر لحق بكم، هـو سـوف لن يتخلص قط من الحرب، فجميع آلنا الذين يمتلكون الجزء الأكبر من بلاد الشرق، سـوف يتحاربون معه حتى الموت، ولذلك انتظروا بإخـلاص قدوم المساعدة من السماء، ومن أصدقـائكم المخلصين، واجعلوا الحكمة تتولى الحراسـة ضد المؤامرات المميتـة لعدوكم المخـادع، إنكم في وضع متحكم، ويمكنكم أن تصدوا المهـاجمين وتضربوهم بالمقذوفـات وبالحجارة، فماذا تحتـاجون غير هذا، إذا كنتم تمتلكون قلوباً شجـاعـة؟ فـأنتم لدبكم كميـات وافـرة من السـلاح، ووفـرة من الأطعمــة، فأنتم لـديكم الخبـز، والماء، والخمـرة واللحـوم، وأنتم في داخل قلعـة لا ترام، تذكـروا سنوات الحصـار العشر لطروادة، وأعيـدوا إلى أذهانكم الأفـاعيل الرائعـة للسـادة الأبطال، التي يغنيهــا الشعــراء المتجــولون في كل يوم، واستردوا قــواكم، وجــددوا شجـاعتكم من هذه الأغـاني وقاتلوا بشجـاعـة وفق الطريقـة الفرنجيـة، وثابروا إلى أن يكون النصر لكم، وذلك خشية أن تغنى أغـاني عار عنكم في كل بلد من البلدان، فحتى الآن، الثناء المجيـد عن شجـاعـة الفرسـان الغربيين يتردد صداه في جميع أنحاء العالم، وشهرة الفرنجة معروفة خلال المملكة الفارسية، ونحن لسنا غاضبات لكوننا مسجونات من قبلكم، مع أن الملك بلك يعد ذلك غير لائق بشرفكم، ونحن راغبات تمام الرغبة في تحمل هذا السجـن، ونؤثر ذلك على المشــاركـــة مع الكفــار في عبــادة الشيـاطين، ونحن نرحب بعاداتكم اللطيفـة، ونحن نتمنى الخير لإيمانكم

ودينكم، ونأمل أنه بنعمة ربانية سنكون قادرين على النجاة سالمين من ها هنا معكم، حتى نستطيع تلقي القداسات السماوية للمسيحيين.

وبحماس أكدت الملكتان الثانيتان كلام فاطمة، وأفرحت التشجيعات التي تقدمت بها هذه النساء الغريبات الصليبيين، وشجعتهم على الاستمرار بالاحتفاظ بالبرج لأيام كثيرة، لكن بعد بعض الوقت لحق الإنهاك بالملك بلدوين، واستسلم لطلبات بلك ولوعوده الكثيرة، أعاد الزوجات الثلاث إليه مع أنهن رغبن بغير ذلك، وبعث بهن تحت حراسة خمسة من الفرسان الشجعان، وعندما قام هؤلاء الرجال بتسليم زوجات بلك إليه بطريقة لائقة، ورغبوا بالعودة إلى رفاقهم في البرج، جرى الاحتفاظ بهم من قبل الطاغية مما سبب أسفاً كبيراً لكثير من الناس، وبهذه الطريقة جرى اعتقال: غي البريتاني، وغيرفاس أوف دول DOL ، وروبرت أوف كين، وموسكيد MUSCHED أوف ئ مانس، وروالون Rualon أوف دينان Dinan ، من قبل بلك الزائف، وقد سلمهم إلى علي ملك الميدين، وقد كان حاكماً قديراً، وبعدما احتفظ بالفرنجة بأسر كريم لمدة تسعة أشهر، أعطاهم إلى خليفة بغداد، وتسلمهم في اليوم التالي السلطان من الخليفة، وعلى الفور منحهم حريتهم مع هدايا ثمينة كثيرة، واختار هناك أربعة من الأبطال غي ابن كونت ألان، قائداً لهم، ومكثوا تحت قيادة السلطان لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة، وشرفوا كثيراً، وعادوا في السنة الرابعة إلى أنطاكية.

ولم يسحب ربنا الرحيم عونه من أتباعه وهم في المنفى، فهؤلاء الفرسان الخمسة الذين حملوا بعيداً إلى الأسر، وجدوا حظوة كبيرة بين البرابرة، فقد أعطاهم ملك الميدين وعهد بهم إلى حاكم المدينة، وأمرهم بأن يقوموا بخدمته يومياً وهم يرتدون ملابسهم وفق الأزياء الفرنجية، فلقد لبسوا الحرائر المطرزة بالذهب، وتم تزويدهم بالخيول، والأسلحة، وبالتجهيزات من جميع الأنواع، وبكل شيء طلبوه من الملك ومن

الحاكم، وقد تركوا صورة رائعة في أعين الميدين، الذين أعجبوا كثيراً بمظهر الفرنجة، وشاركوا في مديحهم، وأعجبت بنات الملوك بلياقتهم، وابتسمن تجاه مظهرهم الجميل، حتى الملوك والأمراء ودوا لو كان لهم أحفاد من شعب الفرنجة، وما من أحد بذل أدنى محاولة لتحويلهم عن عبادة المسيح، أو أرغمهم على التخلي عن دينهم.

وجلبوا معهم قصصاً مدهشة عن ثراء السلطان، وعن المشاهدات غير العادية التي رأوها في الشرق، وعرف السلطان بهذه التسمية بسبب أنه كان السيد الوحيد على جميع أمراء الشرق، ففي السنة الرابعة أعطاهم إجازة للعودة إلى الوطن، وأهداهم سهاماً ذهبية، وهي رمز على العفو الملكي، ومنحهم بنات أعظم الأعيان وثروات ضخمة وممتلكات لو أنهم وافقوا على البقاء، ولكن بما أنهم رغبوا بالمغادرة أراهم كنوزه الضخمة، وثرواته من جميع الأنواع، وأخيراً بعدما كوفئ الفرسان بهدايا كثيرة، ودعوا معارفهم والمحسنين إليهم وعادوا إلى أنطاكية مع أمان من داود ملك الجورجيين وطوروس الجبلي، وهناك رووا وهم يشعرون بالسرور إلى رفاقهم كيف عاشوا في نينوى، وبغداد، وبابل، ووصفوا أشياء كثيرة، هي غريبة بالنسبة لنا، وهي التي شاهدوها في بلدان الشرق.

وعندئذ علموا بأن بلك كان يحاصر منبج، وأن الملك ما يزال مسجوناً تحت حراسة مشددة، بعدما جرى قتل أصحابه، وأن جوسلين الذي تسلل من خربوط وأرسل رسلاً موثوقين إلى الامبراطور جون وإلى الإغريق والأرمن، قد عاد بعد مضي ثمانية أشهر مع جيش كبير، لمساعدة الملك الذي تركه محاصراً في برج خربوط، كما سلف ورويت، وخلال هذا الوقت حاصر بلك القلعة، وبعث حفيده غازي، وبرسق الذي كان شاباً متسلماً قيادة الفرسان، بعثهما في مهمات متوالية إلى الملك، يقترحون عليه عهداً مرتبطاً بقسم، أنه إذا ما سلم القلعة بسلام،

هو سوف ينال حريته في أن يذهب مع جميع رجاله إلى حيث يختار، وأن يأخذ كل ما يطلبه، وكان الملك قد شعر بالإنهاك لطول الحصار، وكان مستعداً أيضاً لأن يثق بالغدار الكافر، فسلم البرج، مما أحزن الصليبيين، وأفرح المسلمين، وعندما ظهر الملك، أمر بقلع أربعة من أسنانه، وأمر أيضاً بقلع العين اليسرى لفالران أوف لى بوسيت، وأن تقطع عروق ذراعه الأيمن حتى لايتمكن بعد الآن من حمل الرمح، وأمر كذلك بقطع رؤوس جميع أصحابهم، وجرى تنفيذ الأوامر كلها، ومات فاليران بعدما جرى تشويهه، وألقي بالملك مرة ثانية في الزنزانة، وتحمل متاعب أكثر مما تحمله قط لمدة أربعة أعوام، وجرى إعدام الأربعة والعشرين فارساً، وكذلك المائة والأربعين سريانياً وأرمينياً بقطع رؤوسهم، علهم يعيشون مع المسيح الذي يؤمنون بدينه، والذي خدموه طوال ما كانوا أحياء، وعندما سمع جوسلين، الذي كان على طريقه، باستسلام الملك، وبمقتل رجاله، توقف وانفجر باكياً وأخذ ينتحب بصوت مرتفع مع جميع الجيش الصليبي، وبعدما عقد اجتماعاً هناك، ذهب كل واحد إلى حال سبيله وعمله، وانتشرت أخبار المأساة في جميع أنحاء العالم، مسببة البكاء للصليبيين والسرور للمسلمين.

وبالنسبة لبلك، بعدما تحقق له كل الذي رغب، وبدا وكأن الصليبيين قد نسوا ملكهم، لكن تابعوا مقاومتهم له بشجاعة في كل جزء من سورية وفلسطين، بعث برسائل إلى ملوك وأمراء جميع أنحاء العالم الإسلامي، وجلبهم مع بعضهم مع عساكرهم، وألقي مرة ثانية الحصار على منبج، ورحب جوسلين والصليبيون جميعاً بالأخبار هذه، واحتشدوا بتشوق لخوض معركة مع المسلمين، وفي تلك الساعة، وبمشيئة مخلصنا الأبوي، وصل الفرسان الخمسة، ذلك أنهم كانوا قد عادوا في ذلك الأسبوع من حياة الأسر بين البرابرة كما حكيت، وجرت معركة كبيرة في السهل الواسع فيما بين منبج وتل خالد، وقاتل مع بلك

أخواه موسى وهارون مع عدد كبير آخر من الأمراء، وناضلوا بجميع قواهم من أجل تدمير الصليبيين، وكان هناك أن سأل بلك غيوفري الراهب، صاحب مرعش، في أن يقبل حمولة حمارين من الذهب، حتى ينسحب لوحده من المعركة، وذلك لخوفه من أن يموتا معاً في ذلك اليوم في ميدان القتال، وكانت أخته التي كانت ساحرة خبيرة كثيراً جداً، قد رأت في النجوم بأن غيوفري وبلك سوف يقتل أحدهما الآخر في اليوم نفسه، وترجت أخاها وهي تبكي، في أن يتخذ الاحتياطات، وازدرى الكونت التقي هدايا الطاغية بقدر ما يزدري القذارة، وأعلن أنه على استعداد للتضحية بنفسه بسرور في سبيل عقيدة الرب، وانتقاماً لدم كثير من القديسين، قتل بلك، وهو نفسه هلك بشكل مجيد، وهو يقاتل بإصرار من أجل المسيح، وتم العثور على علمه في جسد بلك، وبموت بلك ارتفع عن كاهل الصليبيين نيراً ثقيلاً ورهيباً، وقاتل في ذلك الميدان تسعمائة من الفرسان الصليبيين ضد ثلاثمائة ألف من المسلمين وهزموهم، وجاء ذلك بفضل المساعدة القوية التي قدمها رب إسرائيل القدير إلى خاصته، ومن الجانب الصليبي سقط ستة فرسان، وأحد عشر من الجنود الرجالة، في حين جرى قتل ثلاثين ألفاً من المسلمين، أسماؤهم موجودة قد كتبت في سجل إبليس، فقد باركهم عمانويل القدير، والذي هو ابن عذراء خالصة، إسرائيلية بقوة، وجعلهم يبتهجون بالانتصار على العدو، الذي استخدمه كمطرقة أو عصا لغضبه، لمعاقبة المجرم، وسمح لهم بمدة من الهدوء والازدهار بعد العاصفة الهوجاء، ولذلك جرى تحطيم قرون الأميين (gentiles) بعاصفة الرب، ورفع الصليبيون رؤوسهم، وقدموا الحمد إلى رب الحشود الذي لايقهر.

وخلف الأمير غازي( اقرأ: تمرتاش بن إيلغازي) حفيد بلك وورثه، في تملك حلب، ولكن بسبب التغييرات الحالية، وتناقص أمواله، لم يكن

راغباً بالقيام بالمهام الكبيرة، والاستمرار في خوض المغامرات الصعبة، التي كان سلفه قائماً بها، ذلك أن سلفه كان رجلاً صاحب خبرة عظيمة، وكان ذكياً وامتلك موارد كافية للإنفاق على قواته الرئيسية، ولذلك أطلق غازي سراح بلدوين، مقابل فدية قدرها مائة وخمسين ألف دينار، وقد تسلم أربعين رهينة منتخبة من أكثر الأولاد نبالة في القدس، والمقاطعة من حولها، وطلب ضماناً من أجل إطلاق سراح المسلمين الذين كانوا مأسورين لدى الصليبيين، وعندما تم الاتفاق على الشروط، أطلق سراح الملك، وفي الوقت المحدد انتظر في قلعة غيز Gis في جوار بانياس(قيسارية فيليب)، ووصل الصليبيون مع الذهب الذي وعدوا به فدية للملك، وأقلعوا بهجوم جرى باسم المسيح، واستولوا على القلعة وأسروا الأمير، وأخذوا رهائنه، وعادوا إلى القدس يغنون ويقدمون شكراً بهيجاً إلى الرب(١).

وأمن غازي إطلاق سراح نفسه مقابل فدية مقدارها مائة ألف دينار ذهبي، وتعهد بسلام دائم مع الصليبيين، لكن حكمه استمر لوقت قصير فقط.

## —٢٧—

خلال الوقت الذي بقي فيه بلدوين بالأسر، كما وصفت، وفقدان الصليبيين الأمل تقريباً في إطلاق سراحه، حث أسقف القدس رجال اللاهوت، والناس، وحرضهم أن لايغرقوا تحت محنهم، لكن أن يثقوا في المسيح، في أن يقاتلوا بشجاعة ضد المسلمين، من أجل توسيع أراضيهم بقوة السلاح، في سبيل تمجيد الخالق، وبناء عليه بعثوا رسلاً إلى إيطاليا لدعوة دوج البندقية مع أسطول كبير، وإلقاء الحصار على صور، وهي مدينة مشهورة في الكتابات المقدسة، وفي الكتب غير الدينية، وقد حاصروها من جهة البحر، حتى أرغمت على الاستسلام،

١— تعذر التعرف على هذه القلعة، فضلاً عن أن عملية إطلاق سراح بلدوين كانت في الشمال، ثم إن القول بأسر تمرتاش مجرد أسطورة.

وبعدما استولوا على المدينة، عينوا كاهناً من أصل انكليزي أسقفاً، وبنوا كنيسة كرسوها على اسم القديس المخلص، خارج المدينة، في المكان الذي وعظ فيه مولانا يسوع الناس بكلمة الخلاص السرمدي، وعملوا مذبحاً من ركام الحجارة التي جلس عليها عندما كان يعظ، وهو لم يرغب في دخول مدينة غير المختونين، خوفاً من أن يبدو وكأنه يقدم عذراً لليهود للتآمر، على أساس أنه كان عبرياً، ودخل مدينة الأميين، وتعايش معهم، وجمع المؤمنون بعض شظايا الحجارة التي هذبها الحجارون بالمطارق، وقطعوها من الحجارة الخشنة، وحملوها إلى كل جزء من أجزاء العالم، صدوراً عن التبجيل لمكان جلوس الرب، وقد أودعوها في أماكن مكرسة ومقدسة بين الآثار الدينية المقدسة.

—٢٨—

قدم إلى أنطاكية رافندينوس Ravendinos الذي كان متنفذاً إغريقياً، لإيصال رسالة من الامبراطور ألكسيوس إلى الأمير روجر، الذي كتبت عنه أعلاه، يطلب فيها ابنته لتكون زوجة لجون ابن الامبراطور، ذلك أن كراهيته الطويلة الأمد، ضعفت الآن بالتدريج، لأنه كان رجلاً حكيماً، وقد أدرك بوضوح أن الحالة العامة للموت قد أخذت بوهيموند وتانكرد مع عصاة آخرين كان هناك خوف منهم منذ زمن طويل، وأنهم كانوا يهددونه أيضاً، ولذلك عزم على عقد تحالف فيما بين أبنائه وبين هذا الجنس المحارب، وبذلك يمكن لورثته الاستحواذ على الأقل، على إمارة أنطاكية بوساطة رابطة الزواج، ولذلك بعث بالإغريقي رافندينوس إلى النورمانديين، لكن أصابته سلسلة من المصائب عندما كان ينتظرهم للاتفاق على جواب، فعندما كان مقيماً في أنطاكية، ومتوقعاً جواباً مشرفاً من خلال المناقشات العامة، قام الأمير الفارسي إيلغازي—حسبما رويت أعلاه— بغزو أراضي الصليبيين بكل عنف، ووقع رافندينوس الذي انطلق مع روجر للقتال ضد العدو،

بالأسر، وجرى إطلاق سراحه فقط بعد دفع مبلغ خمسة عشر ألف دينار، ولم يؤذه الأتراك لأنه كان إغريقياً، وحافظوا عليه صدوراً عن الاحترام لجيرانهم، ولتأمين النوايا الطيبة للامبراطور، وعلى أساس دفع الفدية تركوه يذهب بأمان، وهكذا روي لي أنه عندما وجد بأن روجر قد هلك، وأن الملك بلدوين قد استحوذ على مملكة القدس وإمارة أنطاكية، اتصل به باسم الامبراطور، وطلب ابنته لتكون زوجة لجون، وتلقى الملك بلدوين الرسالة ورحب بها ووافق على الطلب، وأرسل السفير إلى القدس لرؤية ابنته، ووجه رسالة سرية إلى الملكة حملها بيده، وهكذا وصل رافندينوس إلى القدس، ورحبت الملكة مع أولادها، به بحرارة، وأطاعت توجيهات زوجها، وأعجبت الفتاة المهذبة الذين رأوها كثيراً، عندما ظهرت علانية، وكانت هي نفسها مسرورة جداً، بالأخبار الطيبة التي سمعتها، لكن ذلك كله كان عبثاً، لأن ما من شيء يدوم، باستثناء الذي يعمل كل شيء وحده ويوزعها، فقد أبحر رسول الامبراطور إلى جزيرة قبرص مع خدمه وبعض الحجاج الذين التحقوا بهم، وعزم دوق قبرص على الذهاب معه إلى القسطنطينية بعد أسبوعين، وأمر بمعاملة الجميع معاملة حسنة ومنحهم ضيافة مشرفة حتى حلول عيد العنصرة، وسكنوا في قاعة مجهزة وموائمة، على بعض المسافة من القصر، وتم إمدادهم وتزويدهم بما احتاجوه من قبل الدوق أثناء انتظاره حتى حلول الوقت المحدد.

وفي الوقت نفسه اغتيل الدوق في بيته، خلال ثورة عامة، واقتلع لوحاً واحداً من كل سفينة كانت راسية عند شاطىء البحر، وقرر القتلة المتعطشون للدماء بشكل صريح أن يقتلوا حتى السفراء والحجاج، لكن الخطة أعيقت بدهاء، وأجلت مراراً من قبل واحد من الرجال الحكماء كان قد شارك في مجلسهم التشاوري، وقد قال لهم: «إخواني وأصدقائي، إنني أتمنى عليكم من أجل سلامتكم، أن تستثنوا هؤلاء الرجال وأن

تحافظوا على حياتهم، وأن تمسكوا أيديكم وتمنعوها عن سفك دماء أناس لم يلحقوا بكم قط أي أذى، اضبطوا أعمالكم باستخدام شكيمة لجام التمييز، وميزان العدل، من أجل عدم إثارة الرب والبشر ضدكم، بوساطة جرائمكم المرعبة، وعليكم تخفيض غضب الأمراء الكبار من على الجانبين، انظروا ها هنا، لقد اقترفتم عدواناً مرعباً ضد الامبراطور، بقتلكم دوق امبراطور القسطنطينية، الذي هو قريبه، في مذبحة عامة أثناء الليل، وأنتم حتى الآن يمكنكم أن تجدوا ملجأ ضد انزعاجه بين رجال القدس الذين لم تلحقوا الأذى بهم بعد، ولكن إذا ما أغضبتم الفرنجي صاحب الروح المتجبرة، الذي هو ملك القدس، وأثرتم الحرب ضدكم من على الجانبين، ما الذي سوف تفعلونه؟ وإلى أين سوف تطيرون؟» وبهذه الكلمات وبكلمات أخرى لجم السيد الحكيم ومنع الاغتيالات الوحشية، وجاهد بصعوبة في سبيل إبقاء أيديهم بعيدة عن أعناق الناس الأبرياء، ونجح فقط في الحصول على الإذن لمغادرتهم، في حوالي أيام عيد القديس يوحنا.

وأخيراً سمحوا لهم وهم يتذمرون بالمغادرة وبالركوب في سفينتين قديمتين، وبعد أيام كثيرة، وصعوبات عظيمة رسوا على شواطىء إيليريا Illyria ، وتابعوا سفرهم بسهولة أعظم وأخذوا طريقهم إلى بيزنطة خلال مدن غدت مشهورة في أغاني الشعراء، ومروا خلال أثينا، أم البلاغة، ومبدعة الفنون الحرة، وأيضاً خلال طيبة Thebes التي رعت الطغاة، الذين تعطشوا إلى الحروب الأهلية، وقدم رافنديوس الأخبار السيئة عن الحوادث التي وقعت أثناء سفارته إلى مواليه، الذين أرسلوه وبعثوا به، وقد علم بأن كثيراً من التغييرات قد وقعت في بلاده أيضاً، لأنه أثناء هذه المباحثات جرى اعتقال الملك بلدوين من قبل بلك، حسبما حكيت بالتفصيل، ومات الامبراطور ألكسيوس بعد ذلك بوقت قصير، وأصبح جون امبراطوراً، ونتيجة لذلك باتت الاستعدادات من أجل الزواج المنوي غير ممكنة تماماً، في ظل هذه الأحوال المتغيرة.

—٢٩—

وولدت كونستانس، السيدة العالية الأصل، ابنة فيليب ملك فرنسا، ولداً ذكراً لبوهيموند، وقد ربته بعناية في تارانتو Taranto في إيطاليا، ورعته كما ينبغي أن تفعل الأم إلى أن وصل إلى سن البلوغ، ورعى الحظ بوهيموند، فكان وهو يتقدم نحو سن الشباب شاباً صاحب أخلاق جيدة، وعندما وصل إلى سن المراهقة تسلم شعار الفروسية وسط فرح عام، وكون نفسه على شكل أبيه، وسعى جاهداً لتقليد شجاعته، وطريقته في الحياة، وضرب مثلاً في كل نوع من الصلاح والجودة، وشجع الذين انتظروا وتوقعوا أشياء كبيرة منه، وعندما سمع أهل أنطاكية هذا، خلال الأيام التي كان فيها الملك بلدوين أسيراً في خربوط في سجن بلك، الذي مكث فيه حوالي الستة أعوام، أرسلوا كثيراً من الرسل في كثير من المناسبات لدعوة الوريث الحقيقي للعبور وهو سالم إلى سورية، لكي يتسلم حكومة إمارة أبيه، مع القبول والرضا لرعيته، وعلى كل حال أبقته الأم القلقة واحتفظت به إلى أن نجا الملك وتحرر من أغلاله، كما روينا أعلاه، وبعد لأي، عندما بات الملك مدركاً لرغبات أهل أنطاكية، وقدر أنه سوف يكون نافعاً للناس، بسبب الاحترام الذي جرى تذكر أبيه به، قام بالتشاور مع أعيانه، وقدم ابنته إلى بوهيموند الشاب، واستدعاه للقدوم وليتسلم حكم إمارة أبيه، ما دام الوقت موائماً، وبناء عليه صعد الشاب المهذب ظهر سفينة، وذلك في وقت قدّم فيه كل واحد الصلوات للرب لصالحه، وعبر إلى أنطاكية، وتسلم إمارة أبيه وسط سرور عام، واتخذ زوجة لنفسه ابنة الملك التي ولدت له ابنة، وما أن أسس نفسه أميراً حتى برهن على أنه لطيف نحو جميع رعيته، لكنه أثار الحرب وشنها ضد المسلمين وبقي حياً، يا للأسف، فقط لمدة قصيرة من الزمن، فقد حكم لحوالي الثلاثة أعوام، ثم قطع فجأة بوساطة موت مفاجىء، مما سبب الأسف والخسارة لكثير من الناس.

ولأن خلافاً نشب بين أميرين صليبيين هما: بوهيموند، وليو الأرمني، أخذ الحمقى المرعبين من الصليبيين يقتلون الصليبيين، ويقطفون ثمار فرح النصر لصالح المسلمين، وكان ليو الأرمني ابن طوروس صاحب الجبال، خالاً لزوجة بوهيموند، وحدث أن حشد الشاب جيشاً، وشرع بقيادته إلى داخل أراضي الأعداء، وعندما وصل إلى نهر الفرات، نصب خيامه هناك، وعلم من واحد من الأرمن بأن الأمير سنقر[اقرأ: الدانشمند غازي] كان وشيك الوصول مع فوج ضخم من الترك، وأنه كان مستعداً لغزو الأراضي الصليبية، ولم يصدقه في البداية، فحاول بوهيموند أن يكتشف الحقيقة، ولم يثق بتقارير الآخرين، فترك قواته الخاصة، وتسلق رابية عالية مع مائتين من الشباب ليتجسس ويتعرف إلى المنطقة، وشاهد من هناك سبعة آلاف من الطلائع يسيرون أمام العساكر، وقدر أنهم ضعفاء فهاجمهم، وقاتل بحدة حتى أنه قتلهم كلهم تقريباً، وفقد جميع رجاله إلا عشرين واحداً، وكان في الوقت نفسه الجيش الكبير قد بات قريباً، وعندما شاهد الذين بقيوا أحياء الأرتال الضخمة وهي تتقدم نحوهم أخذوا يترجون الشاب المتعجرف الذي أصيب بدوار وتحامق مع الحزن وأخذ يقول لهم:«اذهبوا بقدر ما تستطيعون من سرعة إلى قواتكم، وهاجموا الأعداء بصفوف نظامية، وقدموا دفاعاً جيداً عن بلادكم»، ثم رفض الاستجابة للتوسلات، واختار بالحري الموت على أن يدير ظهره بعد فقدانه رفاقه، وبناء عليه دفع الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد يده ضد الحشود، وقاتل باسم المسيح، وسدد ثمن القصاص الأعلى، وقام العدد الصغير من الرجال، الذين استطاعوا النجاة بخوض الفرات، والتحقوا برفاقهم، وبحزن جلبوا معهم الأخبار المرعبة حول وفاة الدوق، وانسحب الجميع على الفور كتلة واحدة إلى حصونهم، وبنشاط حصنوا المنطقة كلها ضد المسلمين.

وعندما سمع بلدوين، ملك القدس، بوفاة صهره، بادر مسرعاً إلى سورية مع قواته، ليواجه المسلمين، ورحب الصليبيون به هناك، ودافع هو عن المنطقة كلها ضد الأعداء، واستحوذ على إمارة أنطاكية لبعض الوقت، وأخيراً نقلها إلى خليفته، فولك أوف أنجو، الذي جعله وريثه، وهذه هي أشياء قد علمتها حول حظوظ الصليبيين الذين عاشوا في المنفى، في الشرق، من أجل يسوع المسيح، وقد دونتها بصدق من أجل معرفة الأجيال المقبلة، وذلك مثلما سمعتها من الذين كانوا حاضرين، لكنني سوف أعود الآن إلى رواية أخبار الأحداث التي وقعت في جزئنا من العالم في: إيطاليا، وغاليا، واسبانيا، وانكلترا، وفلاندرز.

— ٣٠ —

في العام ١١٠٧ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الخامسة عشرة، وبعدما استولى هنري ملك انكلترا على نورماندي بالقتال، دعا الذين يمتلكون الحق القضائي على الناس، للاجتماع مراراً عدة في بلاطه، وبحكمة هدأهم واسترضاهم، لأنهم اعتادوا لمدة طويلة على الاضطرابات والحروب، وضغط عليهم بالطلبات والتهديد وأوضح بأن عليهم السير في طريق العدل، وفي كانون الثاني، أثناء الاجتماع الكبير للنبلاء في فاليسي، وقع روبرت راعي ديركين فجأة مريضاً، ولفظ أنفاسه، وحل محله إيدو Eudo ، الذي كان من الدير نفسه، وشغل المنصب بعد ذلك لعدة أنصاف عقود من الزمن(١).

وعقد الملك في آذار مجمعاً في ليزي Lisieux ، وبحكمة ثبت المراسيم وأكدها، وهي التي كانت ضرورية لرعيته، وكان ذلك بموافقة الأعيان، وبعدما هدّأ حدة الحروب بقدرته الملكية، تسلم سيادة نورماندي وجعلها خاصة به، وعندما كان وليم أوف روتز Rots

١—شغل إيدو منصبه من ١١٠٧ إلى ١١٤٠، ولابد أنه ظل حياً أكثر من ثلاثين عاماً بعد كتابة أودريك لهذا النص.

الراعي الثالث لدير فيكامب Fecamp عائداً من ليـزي، وقع مريضاً، وقبل انقضاء شهـر مات سعيـداً، وعاش هذا الرجل المبجل الـذي كان مثلاً في الأخلاق، حياة تجاوزت الإطراء والمديح، فهـو كان منذ طفولته مليئاً بالرحيق الإلهي الحلو، وبكثير من الفضـائل، وعندمـا كـان كـاهناً مدنيـاً ثم راهباً، كان مـرآة منيرة للأعمال الصالحة للعـالم كله، وقد عمل راعيـاً لديـر فيكامب عندمـا كــان مـا يزال جـديـداً على سلوك الحيـاة الرهبـانية، وحكمه لما يقـارب سبعة وعشريـن عاماً، وأحـدث تحسينات كثيرة في كل من الداخل والخارج، فقـد هـدم القناة القـديمـة العـائـدة للكنيســة والتي بناها الدوق رتشـارد، وبنى واحدة جـديدة، على درجـة عـالية من الجمال، وزاد في طـولها وفي عرضهـا، لتكون أكثـر مواءمـة في مسـاحتها، ووسـع أيضاً بشكل أنيق صحن الكنيسـة حيث كـان مصلى القديس فروموند Fromund قائماً، وعندما اكتمل العمل نهائياً كُرس في ١٥ —حزيران من قبل رئيس الأسـاقفة وليم مع أربعة من الأسـاقفة الآخـرين، وعندما مـات دفن بشكل لائق في الجزء الجديد من الكنيسـة وهو الجزء الذي كان قد بناه أمام مذبح مريم العذراء التي لانظير لها.

وتدفق كثير من المتعلمين والرجــال المشهـورين على فيكامب، وقـد جـذبهم إلى هناك ما شعـروه من عـاطفة تجاه الراعي اللطيف، وتعبـدوا بتقـوى الثـالوث العظيم وغير المقسم تحت قيـادته، في مـدرسـة العبـادة اللاهوتيــة، وكتب تلاميـذه المؤمنين والمتأثرين بـه، كثيراً من المذكـرات حوله شعراً ونثراً، لكنهم اختاروا أبياتاً شعرية خاصة نظمها هايلدبيرت Hildebert أسقف لى—مانس، وقد وضعت فوق ضريحه، بعدما حفرت وكتبت بحروف من ذهب، ونصها هو التالي:

جسد الراعي وليم وحده رماد

وليم صاحب الذكرى المباركة الذي أغنى الفقير

حر الآن، ولقد وصل منتصراً إلى القدس

من بلاد مصر، مخلفاً الفيافي من ورائه

عدواً ملتزماً للشر، صديقاً دائماً

للصلاح، وفيهما كان إيمانه ثابتاً

يوم سماوي، قبل ستة أيام من نهاية آذار

ذهبت روحه إلى موطنها، وعظامه إلى الأرض

وكان أثيليلم Athelelm راهب فلاي Fly ، الذي عاش بتقوى لمدة طويلة بين طائفة فيكامب، وكان قارئاً جيداً لكل من علم اللاهوت، والمعارف البشرية، كان مرتبطاً بحب كبير بالراعي وليم وذلك حتى وفاته، وهذا من الممكن مشاهدته من خلال مناقشاته البارعة في أعماله التي كتبها، وقد نظم ذكرى بليغة جداً في مدرجه الذي أبّنه به، واختار صفحات منيرة من الكتابات المقدسة لتتماشى مع حياة وليم المبجلة، حيث تثور عاطفة أبوية لطيفة عند مشاهدة كلماته، وتسبب انحدار دموع كثيرة من أعين قرائه، وأنا أعتقد أن هذا ليس من الذكاء البشري الذي تحدث بمثل هذه الطريقة المباركة، بل بالحري أظهرت النعمة السماوية إلى القراء المتعاطفين المواهب الروحية التي أضفاها الرب على المعلم المؤمن باقترانه بالكنيسة لصالح الآلاف، ووضعت شمعة مضيئة على حامل شموع لبث الضوء في العالم، وقد بكى كثيرون صدوراً عن حب أبوي عندما قرأوا المدخل على المدرج، وأبدوا دهشتهم نحو موهبة النعمة السماوية، فقدموا الصلوات للرب ممزوجة بالدموع من أجل روحه المسيحية، ولقد نظم أثيليلم ثلاثة أبيات مزدوجة، أشعر بالسرور في إقحامها هنا، في ذكرى عبد للرب:

شرف ثلاثي كلف به بشرف وكرامة

وليم في شغله عملاً دنيوياً في باري
تخلى عن ثروته وجاء إلى كين، منسحباً
ليجلب الشهرة إلى فيكامب، الذي بجله
ومع ستة أيام عليها أن تمضي قبل نهاية آذار
توقفت معركته، وبدأت مكافأته

وبعد لأي، جرى وفاة الراعي الذي غالباً ما تحدثت عنه، انتخاب روجر أوف باي، وجرى رسمه من قبل رئيس الأساقفة العجوز وليم في الحادي والعشرين من كانون الأول، وبذلك غدا راعي الدير الرابع الذي سيحكم كنيسة فيكامب، فأول كل شيء أسسه وليم أوف ديجون Digon بعناية، حياة رهبانية في الدير، تحت ظل حكم الدوق رتشارد، وحكم الدير بعده جون الإيطالي لمدة واحد وخمسين عاماً، وكان الذي ترأس هناك هو وليم أوف باي، الذي دعي باسم الفتاة، بسبب جماله العظيم، ومنه تعلم خليفته، عندما دخل في الحياة الديرية، الذي عليه تعليمه فيها بعد، ثم قام فيها بعد، في عيد القديس توما الرسول رئيس الأساقفة العجوز بتكريس روجر ومائة وعشرين آخرين ككهنة، وفي اليوم التالي بارك روجر كراعي دير في روان، وعاد الكهنة الجدد وراعي الدير إلى فيكامب للاحتفال بعيد الميلاد، وترأس بعد ذلك على الدير لحوالي اثنين وثلاثين عاماً.

ولقد قدمت رواية أصيلة حول هذا التكريس، لأنني أنا شخصياً كنت موجوداً، ومع أنني لم أكن جديراً، تسلمت مسؤولية الكهانة بناء على أمر السيد روجر، الذي كان راعي ديري، واجتمع في تلك المناسبة حشد كبير من رجال اللاهوت في روان، وازداد قداس المسيح بصورة موائمة بوجود حوالي السبعمائة من رجال اللاهوت، الذين جرى تكريسهم في ذلك اليوم لصالح رهبانيات عدة، ثم قمت وأنا ممتلىء

بحماسة الشباب بنظم عدة تفاعيل من الشعر، جمعت فيها عدد الكهنة والشمامسة في أبيات قليلة:

عندما تسلمت تاج الكهانة، الرب

أعطاني مائة وعشرين رفيقاً

ووضع بطرشيل الرهبانية اللاوية على مائتين

وأربعة وأربعين شماساً للمساعدة في قداس أسرار المسيح

—٣١—

وفي أثناء العواصف الهوجاء التي عانت منها نورماندي، عندما كانت من دون حاكم قدير، بقيت أسقفية ليزي فارغة لمدة طويلة بعد موت الأسقف غيلبرت مامينوت Maminot ، وأعطيت إلى اثني عشر ذئباً بدلاً عن الرعاة، ورقدت من دون رحمة تحت سلطة العصابات، وليس تحت سلطة الحماة، ولكن عندما انتصر الملك هنري في تينشبري، رأى رانولف فلامبارد Ranulf Flambard ، الذي كان عدواً للملك، مقيماً في ليزي مثل أمير في المدينة، رأى بذكاء فرصة للخروج من متاعبه، فأرسل بسرعة رسلاً إلى الملك—عندما كان منتشياً بنصره الأخير— يرجوه بتواضع التصالح معه، ومقابل ذلك عرض أن يسلم المدينة التي كانت بين يديه، وقام الملك الذي آثر دوماً السلام على الحرب، التي ينتج عنها بالعادة الخسارة والتخريب، بالعفو عن الجرائم السالفة للأسقف الذي رغب بالتصالح، وقد تسلم على الفور ليزي، وأعاد الأسقف إلى حظوته، فأرجع كرسي دور هام Durham إليه، وأعطى أسقفية ليزي إلى جون رئيس شمامسة سيز، وبعدما فرغ من ترتيب أعمال نورماندي، عبر إلى انكلترا، ليتعامل مع شؤون المملكة.

وكان رئيس الشمامسة جون ابنا لعميد نورماندي، وقد تعلم منذ أن كان طفلاً في كنيسة سيز، وهناك نشأ وازدهر في مجتمع أساقفة ذلك

الكرسي: روبرت، وجيرارد، وسيرلو، وتثقف بشكل جيد وفقاً لمختلف أنواع النظم المدنية واللاهوتية، ولأنه أظهر قابلية كبيرة للمنطق والبلاغة تمت ترقيته إلى منصب رئيس شمامسة من قبل أساقفته، واتخذ مقعده بين كبار القضاة في فحص القضايا القانونية، وأدار لسنين كثيرة الأعمال بذكاء وبراعة، ولكن قام أخيراً روبرت أوف بيليم بالتدخل بغضب ضد الأسقف سيرلو، وقد أبغض رئيس الشمامسة جون، لأنه كان يقدم تأييداً مهماً لأسقفه، وشرع في اضطهاده بتهديدات وحشية ومظالم، وقام وهو يشعر بخوف عظيم، لأن قوة روبرت أوف بيليم كانت في ذلك الوقت في ذروتها، حيث كان من الصعب لأي واحد في نورماندي أن يقاوم هجماته، قام رجل اللاهوت الذي لا حول له ولا طول، بالفرار إلى انكلترا، حيث استقبل هناك من قبل الملك، الذي كان يعرفه من قبل، وبقي هناك في المنفى يعيش بشكل مشرف، وبات يعد واحداً من كهنة الملك، وغالباً ما دعي إلى حضور المجالس الاستشارية للملك بين المستشارين المقربين منه، وكما قلت، أصبح الملك يقدره بسبب صفاته الفطرية الأصيلة، وأعطاه أسقفية ليزي، وفي شهر أيلول كرس سيرلو أسقف سيز جون الشماس كاهناً، وبعد ذلك بوقت قصير باركه رئيس الأساقفة وليم كأسقف، ومارس العمل الذي أسند إليه بمقدرة كبيرة لحوالي أربعة وثلاثين عاماً، وحسن أوضاع الكنيسة، ورجال اللاهوت، وشعب الرب بطرق كثيرة.

ومات في تلك الآونة موريس أسقف لندن، وكان رجلاً صالحاً وتقياً، وحدث في أيامه أن احترقت كنيسة بولص الرسول مع جزء كبير من المدينة، وخلفه في الأسقفية رتشارد أوف بيلمي BELMEIS الذي كان النائب الملكي لشروبشاير Shropshire ، وقد بذل جهوداً كبيرة نحو إعادة بناء كنيسة القديس بولص، وهو العمل الذي كان سلفه قد بدأ به، وأكمل جزءاً كبيراً منه.

—٣٢—

ومات في تلك الآونـة رتشارد أوف ريفير Reviers وروجر أوف بيغود، وكـانا معاً من أعيان انكلترا ودفنا في ديرين كانا قـد أسساهما في أراضي ممتلكاتهما، ودفن رتشـــارد في ثيتفـــورد Thetford في انكلترا، ورتشـارد في مونتبـورغ Montebaurg في نورماندي، وكتـــب الرهبان الكلونيون هذه الأبيات على قبر روجر:

أغلق على روجر بيغود في هذا الضريح الضيق

أنت أبقيت مجرد حصة صغيرة في الصلاح الأرضي

والثروة، والنسب، والبلاغة، وابتسامة الملوك

كل هالك وما من أحد يمكنه أن يخدع الموت

الثراء يفسد العقل، لعل واجب التقوى

يرفعك بقوة الرب ونعمته

ثلاث مرات لثمان ليالي حكم الظلام على الشمس

في برج العذراء عندما سددت دينك للموت

—٣٣—

عندمـا تقـدم وليم كـونـت أوف إيفـري بسني عمـره، وامتلك سبباً للخوف من أن نهايته التـي لابد منها لم تعد بعيدة، اتبع نصيحـة كونتسته هيلوايز Helwise وعزم على بناء دير في أراضيـه الموروثة، حيث اختار رهبـاناً قادرين مع انقطاع للعبـادة حقيقي، وجـديرين بتقديم العبـادة إلى ملك الملوك، ولذا لجأ كل من الزوج والزوجة بالتقـدم بالطلب إلى روجر راعي دير القـديس إيفـرول، يطلبـان مساعـدته ونصيحتـه في تنفيـذ هذا المشروع، وطلبـا بشكل خـاص الحصـول على اثني عشر راهبـاً لتأسيس

قلاية في نويون Noyon (الآن شارلفال Charlval) وتبعاً لذلك جاء راعي الدير مع الاثني عشر راهباً ووصلوا إلى نويون في الثالث عشر من تشرين الأول، وهناك أقاموا حياة ديرية في بيعة رئيس الأساقفة القديس مارتن، في مكان غير مسكون، عرف السكان من حوله باسم «بوسشيرون Buscheron»، ورحبوا هناك بعدد كبير من الرجال، من مختلف الأعمار، ممن تخلوا عن الدنيا وهجروها، وبسرور علموهم سبيل الحياة، ووضعوا قواعد أحكام القديس بندكت، ولكن بسبب أن مواسم القمح عانت من كوارث كثيرة فيما بين وقت البذار والحصاد، وبما أن جميع الفواكه لم تنضج حسب الأوضاع الجيدة المعتادة، أو تلفت في كارثة عمومية، أو نمت بصعوبة لدى تحملها مختلف الشدائد الناجمة عن عواصف الشتاء وعن حرارة الصيف، لهذا السبب تشتت الرجال من الرهبانيات الانفرادية أو من الجماعات وتفرقوا بوساطة العواصف من مختلف الأنواع، وهكذا لم ينالوا بشكل متساوي لا البركة بوساطة الازدهار نفسه، ولم يتعرضوا للدمار بسوء حظ كارثي متشابه.

وفي العام ١١٠٨ لتجسيد ربنا، في العلامة الأولى، بدأ الكونت وليم تساعده زوجته ببناء كنيسة كبيرة على شرف مريم الأم المقدسة للرب، وأمن مبلغاً كبيراً من المال من مصادره الخاصة لتنفيذ هذا العمل، ولكن بسبب معيقات الأعمال الدنيوية لم يكن قادراً على إكمالها، وكان جزئياً غير قادر بسبب السن والأحوال الخاصة، وتولت زوجته إدارة الكونتية كلها، واعتمدت أكثر مما ينبغي أن تفعل على تقديراتها، وكانت من المؤكد جميلة، وبليغة، وكانت طويلة البنية تماماً حتى أنها كانت أطول من جميع النساء الأخريات في إيفريسين Evercin ، وكانت متميزة بأصلها النبيل، بما أنها كانت ابنة وليم، الكونت المشهور لـ «نيفري Nevers»، ولكن بإهمالها آراء بارونات زوجها، وباعتمادها على حكمها الخاص، غالباً ما تورطت بمتاعب في الشؤون الدنيوية، وكانت

مستعدة كثيراً لأن تتهور في مغامرات طائشة، ولذلك كانت مكروهة تماماً لإقدامها النسوي من قبل روبرت، كونت ميولان، ومن قبل نورمانديين آخرين، أهانوها بحقد بحضور الملك، وحرضوه على أن يبغضها بسبب كراهيتهم المريرة، وحدث أخيراً أنه بسبب إقدام كونت وكونتسة هيلوايز Helwise على تدمير القلعة الملكية في إيفري، وبسبب الإساءة إلى الملك في قضايا أخرى كثيرة، فيها مع ذلك حافظا دوماً على إخلاصهما لمولاهما بشكل جيد، حدث—مع ذلك— أن جردا مرتين من أراضيهما في نورماندي، وأرغما على الذهاب إلى المنفى في آنجو، وتدخلت هذه الاضطرابات كثيراً في أعمال بناء الدير، وعندما ماتا بعد ذلك بوقت قصير، تركت الكثير من الأشياء مهملة، ودفنت الكونتسة التي ماتت أولاً في نويون، وأصيب الكونت بعد ذلك بسكتة دماغية، ومات [في ١٨ نيسان ١١١٨] من دون قربان الموت، وتهرأ جسده في سينت واندريلي Wandrille مع جسد أبيه.

وبما أن الكونت مات من دون أولاد، وحيث أن حفيده عموري حرم من حظوة الملك بسبب وقاحته، استولى الملك على كونتية إيفري ووضعها بين يديه، وكان هذا أصل كثير من الاضطراب، كما سوف يظهر في الصفحات المقبلة، وتركت المدينة مع جميع المنطقة التي أحاطت بها طعمة للنيران وللمذابح، وهكذا بقي الدير الذي شرع الكونت بعمارته في نويون—كما حكيت— من دون إكمال حتى اليوم الحالي، تحت رعاية كل من الرعاة: روبرت، وروجر، ورالف، وكان الأول بين هؤلاء، هو روبرت أوف برونيلاي Prunelai ، الذي كان ابن هايمو Haimo أوف برونيلاي، وكان فارساً صاحب رتبة، وقد تمتع بسمعة طيبة من أجل علمه بين الفلاسفة المتعلمين في مدرسة النحو والحوار، وقد دعي من قبل الملك، فترك رعايته، وعبر إلى انكلترا ليصبح راعياً لدير ثورني Thorney بعد الراعي غونتر، وقد أداره وحكمه بكفاءة

لمدة[؟](١) سنة، وثورني هو الاسم الانكليزي لجزيرة الشوك، لأنه الأكثف بين مختلف أنواع الأشجار، وهي محاطة تماماً بعدد كبير من النهيرات العريضة، وقائم في هذه الجزيرة دير مكرس على شرف مريم، الأم المقدسة للرب، وهو مشهور بسبب أعماله وممارساته التقوية للقداسات، وهو بعيد تماماً عن علاقات التدخل اليومية مع الأشخاص العلمانيين، وكان قد بناه إيثلوولد Aethelwold ، الأسقف المحترم لوينكستر، في أيام الملك إيثلرد Ethelred [٩٧٢—٩٧٣]، ونقل إلى هناك جسد القديس بوتولف Botolph ، الراعي المحترم لدير إيكانبو Icanbo مع الآثار المقدسة لعدد كبير من القديسين الآخرين، وبعد المذبحة التي اقترفها الدانيون، والتي سقط فيها أدموند، ملك شرقي أنجليز Angles ، شهيداً مؤمناً بالمسيح، بقي فيه الرهبان فقط مع خدمهم، وعاشوا في الأماكن المنعزلة الداخلية والمظلمة في ثورني، وعبدوا الرب بإخلاص وهم يشعرون بالأمان، وما من امرأة وضعت قدمها على الجزيرة ما لم تكن قد أتت للصلاة، وما من واحدة سمح لها بالبقاء هناك بناء على أي عذر من الأعذار، ومن خلال بعد نظر الرهبان، حرم على النساء العيش ولو على بعد أميال، وبعد استيلاء النورمان على انكلترا، بوساطة شجاعتهم، وبعدما وضع الملك وليم البلاد تحت حكم قوانينه من أجل منفعتها، عين فولكارد Folcard ، الذي كان راهباً متعلماً كثيراً، من دير القديس بيرتن Bertin مسؤولاً عن إدارة ثورني، وقد عمل بمثابة راعي دير لحوالي ستة عشر عاماً، من دون أن يبارك، وقد كان لطيفاً وبشوشاً ومحبوباً، وعالي المعرفة في الآداب والموسيقى، التي ترك فيها أمثلة مختارة في انكلترا، لتبرهن على براعته إلى الأجيال المقبلة، وأنتج عدداً من الأعمال الأدبية الخالدة، ونظم على شكل قطع موسيقية عدداً من الأساطير الرائعة ليغنى بها

١— ترك أوردريك فراغاً بالأصل لم يملأه فيما بعد بذكر الرقم لأن روبرت مات في ١١٥١م بعد موت أوردريك والدير لم تكتمل عمارته.

حول القديس أوسوولد Oswald أسقفووركستر وحول قديسين آخرين كانوا من شعب الألبيون Albion ، وتقاعد واستقال بعد ذلك نتيجة لخلافات متنوعة مع أسقف لنكولن، وخلفه غونتر Gunter أوف لامانس، راهب بتل Battle، والذي كان رئيس شهامسة لسبري، وأسس غونتر عادات المارموتيير Marmoutier في دير ثورني البندكتي، وصرف كثيراً من العناية لإكمال إعادة بناء كنيسة على درجة كبيرة من الجمال، مع أبنية ديرية، ومات في الكنيسة حيث دفنه أتباعه المخلصين بعد موته، وكان الشعر الذي نظم ونقش على قبره، مجرد عدد من الأبيات المثنوية الطويلة، وهي تخبر القراء باختصار على أية أخلاق كان ذلك الرجل:

هنا في هذا الضريح، يرقد غونتر راعي الدير الشهير

والباني النبيل لكنيسة ثورني هذه

ولستة وعشرين عاماً حكم وقاد

ديره، وساعده في كثير من السبل

ووجه كل الذين يستمعون في الفضائل

التي بها أمل في أن يتسلق إلى مملكة النجوم

ثم خمسة عشر يوماً قبل بداية شهر آب

مات مؤمناً، علّ المسيح يمنحه السلام والبركة

وتفوق روبرت خليفته عليه في المعرفة، وبسبب مثابرته وفصاحته، كان واحداً من أعظم الأساقفة المشهورين في انكلترا، وعمل روجر الذي خلفه في رئاسة الدير في نويون جاهداً لمدة أربعة وعشرين عاماً ليكمل العمل في البناء الجديد، وليزيد من منافع رهبانه، وأخيراً لزم فراشه، وانقطع معذوراً عن القداسات ومات في الحادي والعشرين من كانون

الثاني، وخلد واحد من أصدقائه ذكراه في قصيدة قصيرة هذه هي:

روجر الرابع، رئيس رهبان نويون، صاحب الحياة المقدسة
مات مؤخراً في اليوم العشرين من كانون الأول
عندما كان طفلاً تعلم النحو ودرس اللاهوت الصحيح
وكشاب تخلى عن الدنيا وعن تقلباتها
ولمدة تقارب الأربعين عاماً عاش في تقوى
كراهب حاملاً بسرور نير الرب الأعلى سمواً
ولمدة ضعف اثني عشر عاماً تصرف بذاته بجدارة
كراعي للدير ضارباً لإخوانه مثلاً ثميناً
كان محباً للسلام موقفاً نفسه على خدمة
كثيرين، مقدماً يده إلى كل من يرغب بمساعدتهم
وكانت أعز أمانيه أن يبني معبداً لائقاً
للرب، وعلى شرف العذراء مريم التي لا نظير لها
أيها الرب القدير، اغفر له ذنوبه، أرجوك
أيها الأب السماوي، امنحه حياة تكون سرمدية
آمين

وبعد إكمال هذه الملاحظات حول أصدقائنا وأصحابنا، سوف أعود إلى السياق التاريخي لروايتي، من المكان الذي توقفت أنا فيه.

—٣٤—

في العام ١١٠٨ لتجسيد ربنا، في العلامة الأولى، حمل فيليب ملك فرنسا إلى فراشه، وعندما أدرك بعد مرض طويل بأن ساعة موته قد

دنت، عمل اعترافاً تقوياً، ودعا إليه نبلاء فرنسا الكبار، وأصدقائه، وقال: «إنني أعرف أن مكان دفن ملوك فرنسا هو في كنيسة القديس دينس، ولكن بما أنني مدرك أنني مذنب شقي، لا يمكنني المطالبة بأن أدفن إلى جانب جسد الشهيد الكبير، وأنا مقهور بالرعب بسبب ذنوبي بأنني سوف أسلم إلى الشيطان، وإنني شديد الرعب من المصير، الذي تخبرنا المدونات، بأنه ألمّ من قبل بشارل مارتل، وإنني أحب القديس بندكت، وإنني بتواضع أستمد الرحمة من أبي الرهبان، وإنني أرغب في أن أدفن في كنيسة على اللوار Liore ، فهو لطيف ورحيم، ومستعد لاستقبال جميع المذنبين، الذين يودون حقاً في إصلاح حياتهم، ويجاهدون في سبيل التصالح مع الرب في ظل أنظمة أحكامه، وبعدما قال هذا وأشياء أخرى متنوعة، بذهن نقي، مات الملك فيليب في التاسع والعشرين من تموز، في العام السابع والأربعين لحكمه، ودفن وفقاً لرغبته في دير القديس بندكت في فلويري Fleury بين السدة والمذبح.

وفي يوم الأحد التالي جرى تتويج ابنه لويس ثيوبولد Louis theobold في أورلين Orleans ، وحمل صولجان جميع فرنسا، خلال الازدهار، والنمو، لمدة تسعة وعشرين عاماً، وقد تزوج من آديلا Adela ابنة همبرت Humbert أمير موريني Maurienne ، وقد أنجبت له أربعة أولاد هم: فيليب، ولويس فلوريوس Florus ، وهنري، وهيوج، وعاني لويس من مختلف التقلبات، كما هي العادة في الشؤون الإنسانية، وفي الحروب كان بالغالب خائباً بسبب سوء الحظ، الذي هو غير مستقر مثل دولاب دائر، وغالباً ما ثار كبار نبلاء مملكته ضده، حيث هاجموه وآذوه مع مؤيديه مراراً وتكراراً، حتى في أيام حياة أبيه، الذي كان كسولاً وكثير اللامبالاة في الميدان، وفي مجلس العدالة، فلقد كانوا متجبرين ومتمردين نحوهما، وقد تجاهلوا بازدراء أوامر الأب والابن سواء.

وهكذا لقد كان بسبب أن الملك فيليب أنهك بطول العمر والمرض،

أنه سمح لسلطته الأميرية بالانحدار، وأصبحت العدالة الملكية متراخية كثيراً غير قادرة على معاقبة الطغاة، وكان لويس في البداية مرغماً على أن يطلب المساعدة من الأساقفة في جميع أنحاء مملكته، لوضع نهاية لمظالم العصابات والعصاة، وكنتيجة أقام الأساقفة الجماعات من الناس في فرنسا، وبذلك بات يمكن للكهنة أن يرافقوا الملك في المعارك أو في أعمال الحصار، حاملين الأعلام وقائدين لجميع أهل أسقفيتهم.

—٣٥—

وكان لويس قد خطب ابنة غي الأحمر كونت أوف روشيفورت Rochefort عندما كان في سن المراهقة، وسعى جاهداً لوضع كونتية غي التي كان يمتلكها بحق الوراثة تحت حكمه، وقد ألقى الحصار على شيفري Chevreuse ، ومونت لهري Montlhery ، وبرثنكورت Brethencuert وقلاع أخرى، لكنه أخفق في الاستيلاء عليهم، بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها عدد من الأعيان، خاصة بسبب أنه أعطى يد لوسيانا Luciana الفتاة التي كان قد خطبها إلى غيتشارد أوف[بيجو] Guichard of Beaujeu.

وفي تلك الآونة نهب متى كونت بيمونت، وبوتشارد أوف مونتمورنسي Montmorency أراضي القديس دينس الشهيد، وتجاهلا الأوامر الملكية بالابتعاد عن النار والاغتصاب، والذبح، وبناء عليه قام لويس الذي عهد والده إليه بحكومة المملكة، بعد الإصغاء إلى نداءات الاستغاثة التي خاطبه بها راعي الدير آدم مشوبة بالبكاء، بإلقاء الحصار على قلعة مونتمورنسي، واقتحم في وقت واحد ثلاثة من أبوابها، وقدم الشاب سيمون أوف مونتفورت الذي خلف أخاه رتشارد في منصبه تأييداً شجاعاً وفعالاً إلى الجيش الفرنسي، وأرسلت الكونتسة آديلا أيضاً إلى الملك مائة فارس مجهزين بشكل جيد، وذلك بسبب أن زوجها الكونت ستيفن كان قد ذهب في الحملة الصليبية، ولم يكن ولداها:

وليم، وثيوبولد، اللذان كانا ما يزالان صغيرين، غير قادرين على قيادة عساكر الفرسان، وقام—على كل حال— المرافقون الخونة لهما، الذين آثروا العصاة ورغبوا فقط في النهب والقتل، قاموا دونهما انزعاج بالفرار، وسخروا من النظام العسكري، ونشروا الرعب بين أتباعهم الجنود، ونتج عن ذلك ليس الخوف من العدو، بل من الخونة المخادعين، وأرغموا على إدارة ظهورهم ملاحقين بالضحك البذيء لأعدائهم، وفي تلك المناسبة—من المؤسف أن أروي— جرى قتل الفارس الجريء ريمبولد كروتون Raimbold croton الذي كان أول من دخل القدس عندما اقتحمت، وجاء مقتله على الفور، وسقط أيضاً في المعركة رتشارد أوف لوي Lewes ، الذي كان واحداً من القادة، وصليبيا.

ومرة أخرى، حشد لويس في العام التالي عساكر من الفرنسيين، وحاصر شامبلي Chambly في حملة ضد كونت أوف بيمونت، لكنه تعرض للخيانة بخديعة مماثلة، وفر متلبساً بالعار، بعدما فقد عدداً من رجاله، ولم يكن قادراً على القيام بانتقام كامل لجميع هذه الجرائم، ووقعت هذه الأحداث عندما كان والده ما يزال حياً، وقامت زوجة أبيه بتدبير جميع أنواع المؤامرات الخيانية، وسلحت بشكل شرير عدداً كبيراً من أعدائه ضده.

—٣٦—

وبعد موت الملك فيليب، حكم لويس، وأمسك على الفور بصولجان السلطة بثقة أكبر، وأخذ بزمام المبادرة واستعد حتى يضرب العصاة، وقام أولاً بإلقاء الحصار على لي—بوسيت، وهاجم هيوج، الذي كان وسيماً ولكن شريراً، بقوة من الفرسان قوية، ففي قلاعه وجد رجالات العصابات، والخارجون على القانون وكرهم المواثم، حيث اقترفوا جرائم يصعب وصفها والحديث عنها، ورفضوا الإقلاع عن أفاعيلهم الشريرة بوساطة غضب الملك وحنقه، أو بالتهديدات من قبل الأساقفة

والحرمان الكنسي، وفي أحد الأيام عندما كانت القوات الملكية تطارد هيوج على طول ممر ضيق، وكان هو فاراً أمامهم، آخذاً طريقه إلى القلعة، وجد نفسه وجهاً لوجه مع أنسلم أوف غارلاندي Garlande قائد الجيش الفرنسي، الذي صرعه، وألقاه أرضاً، وقتله في ذلك المكان، وقدم— على كل حال— ثيوبولد كونت أوف بليوس Blios ، لمساعدة المحاصرين، وبقوة السلاح أرغم الملك على التراجع مع الجيش، وبعد لأي، حشد الملك مرة ثانية جيشاً، وعاد إلى لي—بوسيت، وأرغم العصاة على الاستسلام بوساطة تفوقه العددي، وبناء على رجاء من حلفائه، حافظ—على كل حال— على حياة المحاصرين، وسامحهم وعفا عن حياتهم، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك، وهدم القلعة وسواها بالأرض، مما أبهج كلا من الشعب الذي كان يعيش قربها والمسافرين والرحالة، وحاصر أيضاً غورني-سور-ماني Gournay-sur-Marne ، وأنهك المحاصرين بالجوع، وكان هذا بسبب هيوج أوف كريسي Crecy ابن غي الأحمر، الذي كان متملكاً بها، وكان يرفض إطاعة الملك، الذي أمره بتسليمها إلى وريث غارلاندي، الذي طالب بها.

وفي أحد الأيام، وصل الكونت ثيوبولد مع كثير من الفرسان إلى نهر تورسي Torcy ، واشتبك بالقتال مع القوات الملكية، وقد رجحت كفتهم عليه، وتمت مطاردة الكونت وأصحابه حتى أبواب لاغني Lagny ، وجرى أسر الكثيرين الذين تخفوا في الكروم ووراء الأسيجة، وارتعبت حامية القلعة من هذه الانتكاسة، وما لبثت أن طلبت الصلح واستسلمت.

وكان الكونت ثيوبولد، الذي انحدر من ذرية الملوك والكونتات، واحداً من أعظم الأعيان في غاليا، وكان يتمتع بالثروة والقوة، وبمرتبة عالية ظاهرة كثيراً، وامتلك كثيراً من الأتباع الأقوياء والمحبين للحرب، حيث كانوا عدوانيين بعنف نحو أبناء منطقتهم وجيرانهم، وكان بعضهم حسبما هو واضح من سجلات أفاعيلهم، قد أعلنوا بصورة

مكشـوفـة أنهم لا يحترمـون الرب ولا الإنسـان، حسبما هو متـوجب عليهم، ولذلك اشتـد غضب الملك لدى سماعـه التقـارير المتـواليـة عن أفاعيلهم الشريرة، فانطلق من أجل ردعهم، بقـوته الملكية، عن اضطهاد الضعفاء، ولـذلك قاموا خـوفاً منهم من أن يتعـرضوا للسحق بوسـاطة القوات الملكية، ومن ثم سوف يرغمون على الامتناع عن إشباع رغباتهم الشريرة، قـامـوا بالفرار، إلى مـولاهم القـوي، من أجل الحماية، وكـانوا واثقين بمساعـدته، فغامروا باقتراف كثيراً من الاعتـداءات الخطيرة ضد الرب والكنيسة، وقـاد هذا إلى مصادمات متـوالية بين الملك والكونت، وبما أن الشيطان ثابر، فقد تم قتل الكثير من الناس من على الجانبين.

وفي إحدى المناسبات قام الملك بهجوم على ثيوبولد في منطقة ميوكس Meaux ، وكـان معه روبرت كـونت فلاندرز، ونبـلاء آخرين، وقـد واجه هناك مقاومة شديدة من عسـاكر حاشية الكونت وأعوانه، وحيث أن أعدادهم كانت متفوقة، فقـد ربحوا المعركة، وأرغم على الفرار، وفي أثناء فرار الملك مع رجاله، وقع كونت فلاندرز في الممر الضيق، وسقط تحت حـوافـر الخيـول الحديدية، ولذلك لم يستطع النهـوض، وقـد رفع بصعـوبة، حيث كانت أطرافـه قد تقطعت بشكل رهيب، ولذلك مـات بعـد مضي عـدة أيام، وقـد بكى لموته ملوك وأمـراء وكثير من الناس، وبعيـداً حتى بلاد العرب بكاه الصليبيـون والمسلمـون سواء، وانتحبـوا لوفـاة محارب صليبي شـديـد المراس، وحمل جسـده مع تفجع كبير، من قبـل الفليمنغيين Fleminge إلى بلـدة أرّاس Arras التي كان قد حصنها مؤخراً ضد الامبراطور هنري، وأكمـل إحاطتها بسور قوي من الحجارة البيضـاء، وقد دفن في كنيسـة القديس الأسقف فـاست Vaast التي أسسهـا الملك ثيودورك، بمثـابة كفـارة على قيامـه بإعدام القـديس ليغر Leger أسقف أوتون Autun.

—٣٧—

وخلفه ابنه بلدوين، الذي كان ما يزال طفلاً، ولعدد من السنين حكم إمارة أبيه مع أمه كليمينتيا Clementia ، وقد أظهر صفاتاً بدت إلى أصدقائه بأنها واعدة بأشياء عظيمة في المستقبل، ولكنه ذبل وهلك مثل وردة جميلة في لحظة واحدة من جرح عادي، وكان الملك هنري بعدما عاد منتصراً إلى انكلترا، وحكم على الدوق روبرت مع بعض من الآخرين الذين وقعوا بالأسر معه، بالسجن المؤبد، أمر- بناء على نصيحة مستشاريه المقربين- بوجوب اعتقال الطفل وليم، الذي كان قد عهد بتربيته إلى هيلياس أوف سينت سين Saens ، ومن أجل هذه الغاية بعث روبرت أوف بوشامب Beauchamp فيزكونت أوف آرقوى Arques من دون سابق إنذار، إلى قلعة القديس سين، وعندما ظهر الفيزكونت هناك، في صباح أحد أيام الأحد، وأرعب الحشود في الكنيسة بوصوله المفاجىء، لم يكن هيلياس الوصي على الطفل موجوداً، ولكن بعض الأصدقاء من الأقرباء انتزعوا الطفل من الفراش وهو نائم، وأنقذوه من قبضة مطارديه ومن خطر مشاركة أبيه في سجنه، وعندما سمع هيلياس بهذا، بحث وتقصى بسرعة فوجد الأمير الطفل اللطيف، فقام بتربيته بإخلاص في المنفى بين الأجانب، ولذلك استولى الفيزكونت على قلعة هيلياس، وأودعها بين يدي الملك، وأعطاها الملك بعد ذلك إلى قريبه وليم أوف ورني، ليضمن تأييده المخلص، وليقدم دفاعاً قوياً ضد هجمات الأعداء، وبحث هيلياس عن الملجأ من مكان إلى آخر، محافظاً على الطفل وحامياً له، وقد رباه واعتنى به كأنه ابنه إلى أن وصل إلى سن المراهقة، وقد اصطحبه ورافقه خلال مختلف المناطق، وترك عدداً كبيراً من السادة وقادة القلاع ذوي الأنساب الرفيعة، يشاهدون ملامحه وإمكاناته النبيلة، وبحكم أنه كان دائم النشاط، فقد ربح الذين يمكنهم أن يؤثروا بوساطة الصلوات، والذين

وعدوا بأن يقفوا إلى جانب الشاب، وعمل شكوى معلنة حول تجريده من أملاكه، ولذلك تمكن من إقناع كثيرين بسبب سوء حظه، ونيل تعاطفهم معه في قلوبهم، وكان كثير من النورمانديين ميالين إلى جانبه، وكانت أغلى أمانيهم أن يكون هو مولاهم، ونتيجة لذلك فقد كثيرون حظوة ملكهم القدير، الذي تولى حكمهم آنذاك، وأعطوه بكثير من السبل المسوغات لعدم الوثوق بهم، وفوق الجميع تذكر روبرت أوف بيليم الصداقة والعاطفة التي شعر بها دوماً نحو الدوق، والسلطة الكبيرة التي تمتع فوق أقدر النورمانديين وأقواهم في أيامه، ولذلك بذل كل جهد ممكن لمساعدة المنفي، الذي كان ابن الدوق، وجرى تبادل الرسل مراراً بينهما، وقام مبعوثون بالإنشغال بإباحة أسرار خطط كل واحد منهما إلى الآخر، وبناء عليه حث روبرت وهيلياس أحدهما الآخر حول تأييد بعضهما المتبادل، وعملا بشكل مواظب في سبيل إعداد خطط من أجل تقدم ابن الدوق، وقدما الالتماسات إلى لويس ملك فرنسا، ووليم دوق بواتو، وهنري دوق بيرغندي، وألان دوق بريتاني، وأمطروهم بسيل من المبعوثين والرسائل، وبكل وسيلة يمكنهم تقديم العون فيها إلى وليم كليتو Clito.

وبعد لأي قام فولك أوف آنجو بتخطيب ابنته سيبل Sibyl إليه، ومنحه كونتية مين Maine ، وقدم لبعض الوقت مساعدة كبيرة إلى الفارس الشاب، ولكن الملك هنري بذل جهوداً مضنية حتى أحبط الخطة، وفسخ الزواج المنوي، واستخدم الوعد والوعيد، وبذل كميات كبيرة جداً من الذهب والفضة وأشياء ثمينة أخرى، وبعث بمحامين دهاة للادعاء بوجود قرابة عصب بين الفريقين، وبموجب حكم أنهما لا يجوز أن يتزوجا بموجب الشريعة الكنسية، لأن رتشارد دوق نورماندي، الذي كان ابن غونور Gunnor قد أنجب روبرت، وأنجب روبرت وليم النغل، الذي أنجب روبرت والد وليم كليتو،

ومن جانب آخر أنجب روبرت، رئيس الأساقفة والكونت، وأخو الدوق رتشارد، وأنجب فولك سيبل، وهكذا جرى الكشف عن القرابة بين وليم وسيبل، والتحالف الذي ارتجاه الشاب المتميز طويلاً بات لاغياً، وهكذا أرغم الشاب النبيل على المغادرة وطرد بوساطة الأنجيفيين Angevins ، وأجبر على التماس المساعدة من الأجانب مع الخوف والمصاعب، وأخيراً وبعد تجوال كبير أخذ طريقه إلى عند قريبه، بلدوين أوف فلاندرز، والتمس من شرفه وشجاعته العون، ورحب بلدوين به على الفور، ووعده بدعم كامل، وقاتل بإصرار لصالحه حتى مات، كما سوف أروي في الصفحات التالية.

—٣٨—

في العام ١١٠٩ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثانية، تسبب انتقام رباني بعدد من الضربات لمعاقبة ذنوب الناس، ولكن كما يحدث دوماً، جرى استخدام الرعب مع توسلات أبوية، تمت الدعوة بموجبها إلى المذنبين إلى التوبة مع إظهار العفو والخلاص إلى التائبين، ففي فرنسا، وبشكل خاص في أورلين ومقاطعة تشارترز هاجم مرض الحمى كثيراً من الناس وأضعفهم، مسبباً بعض الموت، وأغرقت أمطار كثيفة المزروعات والمواسم، وصرخ جدب الأرض بصوت مرتفع، ولم يكن هناك موسم من الأعناب تقريباً، وحيث أن سيرس Ceres وباخوس أخفقا وسقطا، استبدت مجاعة رهيبة وقتلت عشر بني البشر في كل مكان، وكانت سنة المصائب هذه السنة الثالث من حكم لويس، الذي كان ابن فيليب ملك فرنسا، والسنة التاسعة لهنري، الذي كان ابن وليم النغل، دوق نورماندي وملك انكلترا.

وفي ذلك العام أعطى الملك هنري ابنته ماتيلدا لتكون زوجة إلى شارل بن هنري، امبراطور الألمان، وتسلمها بورتشارد Burchard أسقف أوف كامبريا Cambria من أبيها، ورافقها إلى عند زوجها،

ورافقهـا أيضاً روجـر بن رتشارد مـع كثير من النورمانديين الآخـرين، متأملين أنه سيمكنهم من خلال هذا الزواج التسلق إلى مراكز النفوذ في الامبراطوريـة، وبالنهـايـة يأملون بأن ينـالوا المراتب العليـا لأنفسهم بجـرأتهم، أو بقسـوتهم، فهـذا كـان هو الطريق الذي نال به أجـدادهم السلطة في انكلترا من خـلال إمّـا Emma ابنة الدوق رتشارد، وفي أبوليـا قمعـوا بعنف الـورثة الحقيقيين سيشلغـايتـا Sichelgaite ابنة غيهار Gaimar دوق سـالرنـو Salerno ، وأدرك الامبراطور الداهيـة، الذي كـان رجلاً صـاحب خبرة كبيرة، هذا، ولم يكن في نيتـه الانحناء برقبتـه إلى الأجـانـب، الأدعيـاء من دون أسـاس، وقـد أخـذ النصيحة من الألمان، وبعدما وزع الهدايا، أعاد كل واحد إلى وطنه.

—٣٩—

ومـات في ذلك الوقـت عـدد من علماء الدين، المشهـوريـن من أجل قـداستهم. وأخـذ من هذا العـالم: أنسلم رئيس أسـاقفـة كـانتربري، ووليم رئيس أسـاقفـة روان، والمبجل الذي كـان مشرفـاً ورئيسـاً للديرة، وهيـوج راعي دير كلوني، وغيرفاس أوف ريني، ووليم أوف كورمللي Cormelles ، وعـدد كبير آخـر، نحن نؤمـن أن أرواحهم هي بكل تأكيـد في يد الرب، ويبدو العالم ذاته وكأنه يبكي لرحيل مثل هؤلاء السـادة الكبار، لأن مواسم القمح والأعناب قـد جـاءت بائـرة، حتى الناس غير المتـدينيين الذين لم يشعـروا بالحزن الذي يشعـر به الأبناء، لدى مـوت مثل هؤلاء الآباء، حتى هؤلاء كـانـوا مع ذلك مـرغمين على النحيب بسبب المصـائب من مختلف الأنواع، التي فـرضهـا الرب بعـدله عليهـم، حتى يتألموا بسبب انعـدام الاحترام والطاعة.

وأدار أنسلم كنيسـة كانتربـري وحكمها لمدة ستـة عشر عـاماً، وفقـاً لأحكام الشريعة الكنسية وأشع-مثل وردة- فوق جميع الناس الصالحين لأيامنا، ونشر السيد إيدمير Eadmer الذي كـان واحداً بين رجـال

الرهبنة المباركين، والذي كان صاحبه في المنفى، كتاباً ثميناً ومتميزاً حول حياته، وأخيراً مات رئيس الأساقفة الصالح في الحادي والعشرين من نيسان، وذهب ليتسلم جزاء أعماله من الرب، وقد دفن أمام المصلوب في كنيسة الثالوث المقدس وغير المقسم.

ثم إن المبجل هيوج راعي دير كلوني، وقع مريضاً بعدما أقام قداس الآلام والقيامة للمسيح، ونقل إلى فراشه في اثنين الفصح، وقام لمدة ثلاثة أيام بتحضير الطريق إلى الرب مع الاعتراف والصلاة، وأمر الدير بانتخاب خليفة له، وبموجب سلطته، ثبت الشاب الذي انتخب، وكان اسمه بونتيوس، ثم أمر بأن ينقل هو إلى إخوانه في مكان العناية، وفي يوم الأربعاء انتقل راعي الدير المسن إلى المسيح، الذي عبده منذ الطفولة، ولقد قيل بأنه أدار دير كلوني لمدة أربعة وستين عاماً، واستقبل أكثر من عشرة آلاف راهب من أجل عبادة رب الحشود، وبعد موته دفن في الكنيسة التي كان قد بناها من أساساتها، وهكذا حدث أنه في وقت واحد هو نفسه أنه جرى نقل عمودين من أعمدة الكنيسة من القدس الدنيوية، التي مع أنها في المنفى بين الكفار، ونحن نعتقد أنه بسبب معاناتهم المقدسة قد وضعوا في صهيون السماوية، التي لن يغادرونها أبداً، ومات أنسلم رئيس أساقفة كانتر بري المشهور قبل عيد الفصح، ثم في يوم الأربعاء من الأسبوع المقدس، ألبس كأسقف، واقترب من بلاط المولى الرحيم، ومثل هذا، بعد احتفالات عيد الفصح، غادر هذا العالم صديقه العزيز راعي الدير هيوج، وكانت وفاته في يوم الأربعاء، ونصب رالف أسقف روكستر على الكنيسة الكاتدرائية لكانتربري، واستمر يشغل منصبه لمدة تسعة أعوام، وذلك في أيام أصيب فيها بمرض شديد، وتولى بونتيوس Pontius كونت أوف ميلغويل Melgueil دير كلوني، واستقال بعد بعض الوقت لأسباب متعددة، حسبما سنروي فيما بعد، وقد انطلق للقيام بالحج إلى القدس،

وقد مات وهو على طريق العودة في روما في سجن البابا كاليكتوس Calixtus وظهرت قداسته بصورة رائعة، وتمّ التأكد منها بمعجزات عند ضريحه.

— ٤٠ —

وفي العام ١١١٠ م لتجسيد الرب، وفي العلامة الثالثة، مات رئيس الأساقفة وليم، بعدما حكم مقاطعة روان بشكل نال الإعجاب، لمدة اثنين وثلاثين عاماً، وجاء موته عن عمر طويل في التاسع من شباط، وقد دفن في بيعة الرهبان التي بناها هو نفسه، والنص الذي رثي به ووصف أخلاقه، تمت كتابته على الجدار الشرقي وهو:

كرمك، وطريقة تقوى حياتك، و

قداستك، يا وليم، تجعلنا نبكي لوفاتك

لأنك علمتنا، إن أعمالك تعلن

المدى الذي نجحت فيه في أداء واجبك كأسقف، ولرجال لاهوتك

كنت لطيفاً، والمدافع عنهم، ومجدهم، وكنت ضياء الكنيسة،

وحكيماً، ودوماً كنت جاهزاً لجميع الأعمال الصالحة

وأنت الذي خطط هذه الكنيسة والدير للرهبان

وكان بابك دوماً مفتوحاً للفقراء

وكان كرمك هو المورد لكهنتك

وللكنائس، والأراضي، والعشور، والموارد، والبيوت

وعالجت شعبك، بمثلك الصالح الذي ضربته

ويا للأسف أن نقول مع جميع الأعمال الخسيسة أنه

ستة أيام قبل أن تتحول الشمس فتدخل

برج الحوت، أنت مت، في أمل السرور

وشوهد في ذلك العام مذنباً عالياً في السماء من العاشر من حزيران حتى الثلاثين منه، وبعد ذلك بقليل مات هيلياس كونت أوف ماينى.

ولمدة ثلاثة أعوام متوالية، من العلامة الرابعة، كانت هناك مجاعة مرعبة في فرنسا، وضعف عدد كبير من العوام ضعفاً شديداً.

—٤١—

في العام ١١١١ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الرابعة، جرى استدعاء غيوفري بريتو Brito عميد لامانس إلى انكلترا، من قبل الملك هنري، وتم تعيينه رئيساً لأساقفة روان، وكان رجلاً متميزاً لبلاغته وثقافته، وقد علم رجال اللاهوت والناس العقيدة الصحيحة، وأدار كنيسة الرب لصالحها لمدة سبعة عشر عاماً، وفي العام نفسه اعتقل الامبراطور شارل[ اقرأ: هنري الخامس] البابا باسكال، وسبب بذلك الاضطراب الشديد والإزعاج لسلام كنيسة الرب، حسبما روينا في مكان آخر.

—٤٢—

في العام ١١١٢ لتجسيد ربنا مات غيلبرت العجوز، أسقف إيفري في التاسع والعشرين من آب، عن عمر مديد، بعدما أمضى أربعة وثلاثين عاماً كأسقف، ودفن في كنيسة مريم، الأم المقدسة للرب، وكان هو نفسه قد أكمل الكنيسة التي كرسها، وأغناها بالمقتنيات والزينات، وزاد من عدد كهنتها، وأمن أداء القداسات هناك ليلاً ونهاراً، وخلفه في العام التالي قسيس الملك أودوين أوف بايو Audoin of Bayeux ، وكان رجلاً مشبعاً بالعلوم، وقد علم رعيته طريق الرب، تبعاً لقوانين الكنيسة وأحكامها.

—٤٣—

في العام ١١١٣ م لتجسيد ربنا، وفي العلامة السادسة، وصل الملك هنري ملك انكلترا إلى دير سينت إيفرول، مصحوباً بعدد كبير من أعيانه، وهناك احتفل بعيد طهارة العذراء(٢—شباط ١١١٣) مع دماثة عظيمة، وعقد جلسة طويلة في دير الرهبان، وقام بفحص دقيق لمؤسستهم، وبعدما عِرف بإدراك انتظام حياتهم الرهبانية، مدحهم بحرارة، ووصل في التالي إلى بيت الكهنة، وسأل بتواضع أن يسمح له بالدخول إلى جمعية إخوتهم، وقد منح ذلك، وكان معه حفيداه: ثيوبولد، وستيفن، وكونان البريتاني، ووليم أسقف إكستير Exeter وعدد آخر من الإيرلات والأعيان مع أتباعهم من النبلاء، ثم أمر الملك- بناء على اقتراح روبرت كونت ميولان- بكتابة صك Charter ، وأن يدون فيه باختصار كل شيء يمتلكه دير القديس إيفرول في ذلك اليوم، ثم أخذ الصك أرنولد رئيس الرهبان، وغيلبرت أوف لى- إيسارت Essarts إلى الملك في روان، فقام عن رغبة وطواعية بتثبيته، ورسم عليه صليباً، ثم ناوله إلى أعيانه الذين كانوا حاضرين، ليقوموا مثله بالتصديق عليه بعلامة الصليب، ووقع عليه التالية أسماؤهم:

روبرت كونت ميولان، ورتشارد إيرل شيستر، ونيغل أوف أوبغني Aubigny ، وغويل أوف آيفري Goel of Ivery ، ووليم بيفيريل Peverel ، وروجر أوف ثيبوفيل Thibouville ، ووليم أوف لى- لاندي Lande ، وروبرت ابن الملك، وعدد كبير آخر وتعهدوا بأن هذا الصك قد عمل بناء على نصيحة رجال حكماء، ليكون بمثابة حماية ضد الورثة الجشعين، الذين اعتادوا أن يستردوا في كل عام الصدقات التي أعطيت من قبل أقربائهم، وعلى جرجرة الرهبان وإدخالهم في مسائل قضائية في سبيل الإنقاص الكبير لمقتنيات الكنائس، ولذلك قام الملك بختم هذا الصك بختمه، وبموجب سلطاته حرم على أي واحد مقاضاة

الرهبـان من أجل أية ممتلكـات مثبتـة بصكه الملكي، في أي مكان إلا بناء على أمـر من محكمـة البـلاط الملكي، وقـد أعطى ستين خنـزيراً مملحـاً، وعشرة معايير من الطحين إلى رهبان القديس إيفرول، وأمر جون أسقف ليزوي بـإمداد الرهبان بـالطحين في أرغينتان Argentan ، الأمر الذي نفذه جـون وعمله عن طواعية وعلى الفـور، وبعد الاحتفال بعيـد طهارة العذراء في دير القـديس إيفرول، كما وصفت، ذهب الملـك للقيام بمسح أراضي دوقيته، ومتن المناطق الضعيفة ضد الأعداء والنهابين.

—٤٤—

في هذه الأيام عندمـا كـان أبنـاء الضيـاء يتمتعـون بالسـلام والسكينة، وكـان- من جهـة أخـرى- أبنـاء الظلام ينخسـون بـالذنوب والشرور، تفجـرت فتنة كبيرة في المملكة الفرنسيـة، قـادت إلى سفك عنيف ووحشي للدماء، فقد تمت إثارة الشاب فولك، كونت أوف أنجو، والذي كان ختن هيلياس كونت مـايني ووريثه، من قبل خاله عموري للقيـام بغارات ضد الملك هنري، وأن يلتمس المساعدة من الملك لويس حتى يأتي إلى عونه مع جميع القوات التي يمكنه حشدها، أما هنري الذي كان في آن واحد حكيماً وثرياً، ويمكنه الاعتماد على جيش قـوي جـداً فقـد سحق خطط أعـدائـه بعـون الرب، وأزالها وكأنها نسيج عنكبوت، ونال متعـة سحقهم من دون أن يسفك دمـاء رجاله، وقام في تصـديه لغيرفاس أوف شـاتونوف Cha- teauneuf الذي بذل محاولة شديدة لأن يقاتل من جديد، قام بتحصين اثنتين من قلاعه اسم أولاهما نونانكورت Nonancourt واسم الأخرى إيلليرى-لى-إيفيقـوى Eveque-Illiers-l' واستـولى على قلعـة ثالثـة تشرف على أراضي غيرفـاس، اسمهـا سـوريل Sorel ، وقـام كثير من النبـلاء في مـايني بالانضمام إلى جـانب هنري، وبعدمـا قـدمـوا الولاء له سلمـوه قلاعهـم، وقام في العـام نفسـه ثيوبـولد كونت بليـوس، بالقتـال بإصرار ضد الملك لويس، وألحق به خسائر كبيرة في عدة مناسبات، لا بل

إنه أرغم الملك نفسه بقوة السلاح على الانسحاب من قلعة لى بوسيت التي كان محاصراً لها، وبذلك تذوق قوة شبابه بمثل هذه الحملات، وأبقى ملك فرنسا مشغولاً جداً، وبذلك كان عاجزاً عن إزعاج ملك انكلترا، وأيضاً إزعاج عم(خال) ثيوبولد بغزو نورماندي.

وفي تلك الآونة أطلق روبرت أوف بيليم العنان لمشاعر كراهيته الحادة نحو الملك، وهي المشاعر التي رعاها لمدة طويلة، وخرج بصورة معلنة ضده مع أنه كان هو الذي هدأه من قبل، لكنه كان مخفياً لسموم كراهيته، وقد كان رجلاً قوياً، طليق الحركة، متمسكاً متشدداً إلى أبعد الحدود، ووحشياً، مضطهداً عنيداً لكنيسة الرب وللفقراء، وإذا أردنا أن نقول الصدق: لا نظير له في مظالمه في التاريخ المسيحي كله، حنث بيمين الولاء، واقترف بشكل معلن الحنث باليمين، لأنه تخلى عن مولاه الطبيعي هنري، في الوقت الذي هاجمه فيه الأعداء من جميع الجوانب، وقدم كل من المشورة والدعم العسكري لمساعدة فولك أوف آنجو مع أعداء آخرين معلنين لمولاه، وفي الرابع من تشرين الثاني، وفي بونيفيل Bonneville استدعاه الملك هنري —لسبب صحيح— إليه، للإجابة على التهم التالية:

لماذا هو عمل ضد مصالح مولاه، لماذا امتنع عن القدوم إلى بلاطه، بعدما جرى استدعائه ثلاث مرات، لماذا لم يقدم حساباً إلى نائب الملك ومعتمده عن الموارد الملكية المتعلقة بنيابات: آرجنتان Argentan ، واكسمي Exmes وفالاييس، وكذلك من أجل ذنوب أخرى، وحكم عليه بحكم عادل من قبل محكمة البلاط الملكي بالسجن المضيق بالأغلال، بسبب الجرائم المريعة والكثيرة التي اقترفها، ولم يكن قادراً على إنكارها، وأنه قد اقترفها ضد الرب وضد الملك، وبعد سجن الطاغية الذي أثار الاضطراب في البلاد، وكان مستعداً لإضافة أخرى أسوأ من ذي قبل، إلى جرائم نهبه وإحراقه، تحرر شعب الرب من نير

رجالات العصابات، فـابتهج، وشكر الرب محرره، ورغب بحياة طويلة ومزدهرة للملك هنري، ثم قـام الملك بحصار قلعة ألنكون Alencon ، وبعد عدة أيام تسلم الحصن مستسلماً، وسمح لغودفري، ولآدم لى سور Le-sor مع الفـرسـان الآخـرين الذيـن كـانوا يدافعـون عن القلعـة بالذهـاب أحـراراً، وأطلق سراح هيـوج أوف ميـدافي Medavy مع فارسين آخرين كانا قد أسرا في الوقت نفسه مثل روبرت.

—٤٥—

وألقى الفـرنسيـون والنورمـانديون والناس الآخـرون على حـدودهم أسلحتهم لوقت قصير، وبعـد ذلك مبـاشرة بدأ رسل السـلام يروحـون ويجيئون حتى أمنوا قبـول السـلام الثـابت من قبل جميع الفئات، ووصل فـولك أوف آنجـو إلى منطقـة ألينكون في الأسبـوع الأول من الصـوم الكبير، وبعد تفاوضه مع الملك هنري في بيترا بيكيولاتا Petra peculata أقسم يمين الولاء له، وتسلم كـونتيـة مـايني منه بمثـابة تابع له، وأعطى ابنتـه لتتـزوج من ابن الملك، الأمير وليـم، ثم أعـاد الملك هنري كـونتيـة إيفري إلى الكونت وليم، الذي كان منفيـاً في آنجو منذ أربعة عشر شهراً، وعفـا عن جميع الذنوب التي اقترفهـا بحقـه عموري أوف مـونتفـورت، ووليم كـريسبن Crispin ، واستـدعى أيضـــاً من المنفى المنفيين الذين طردهم روبرت، وبكـرم ونعمـة أعـاد إليهـم أراضيهم الموروثة، وجلب بذلك البهجـة والفــرح إلى كنائـس الرب في سينت إيفـرول، وسيــز، وتروآرن Troarn التي عـانت لزمن طويل تحت النير الثقيل للطاغيـة، ولقد أعادهم مع كنائسهم وعشورهم والممتلكات الأخرى التي كانت قد انتزعت منهم بشكل غير عـادل، وأعاد إلى سينت إيفـرول الثلاثين شلنا مانسيليـا Mancel من مـوارد ألنكون من أجل إضاءة الكنيســة، وهو المبلغ الذي كـان الإيرل روجـر قـد منحه بمـوافقـة ابنه روبرت، على أن يدفع سنوياً عند بداية الصـوم الكبير، وأعاد أيضاً جميع الأشيـاء الأخرى

التي كان الإيرل روجر قد صادق عليها في صكه، لكن ابنه الظالم كان قد صادرها ظلماً وعدواناً.

وفي النهاية، بعدما جرب الملك لويس بطرق كثيرة عظمة الملك هنري، وعرف قدراته الكبيرة وشجاعته، أصم أذنيه عن الاستماع إلى الخونة الذين فضلوا الثورات على السلام، وطلب التفاوض، وقرر أن يبرم سلاماً ثابتاً في سبيل منفعة الكنيسة المقدسة، وبناء عليه التقى الملكان في غيسور، خلال الأسبوع الأخير من شهر آذار، في العلامة السادسة، وبعدما أقسم الطرفان وتعهدا بالحفاظ على السلام، ارتبطا بتحالف صداقة، وسط بهجة عامة، وعندها منح لويس: بيليم، وكونتية ماين، وجميع بريتاني إلى هنري، وكان ألان فيرغانت Fergant دوق بريتاني قد أصبح من قبل تابعاً لملك انكلترا، وخطب الملك ابنته إلى كونان بن فيرغانت Fergant.

وقام على كل حال أيمير أوف فيلاري Aymer of Villeray ، ولوردات بيليم الآخرين، الذين إليهم أسند وليم تالفاس Talvas ابن روبرت وعهد بالحصن، عندما كان غائباً يدافع عن كونتية بونتيو Pon-thieu ، حيث وضعوا ثقتهم في القوة الهائلة للقلعة، وفي العدد الكبير من رجالهم، وقد أعدوا أنفسهم بتقديم دفاع شديد ومقاومة إلى أي هجمات، ومن جانبه قام الملك هنري بحشد جيش نورماندي كلها، وحاصر بيليم في الأول من أيار، وقد نجح فوق آماله، حيث جاء ثيوبولد كونت أوف بليوس، وفولك أوف آنجو، وروترو أوف مورتاغني Rotrou of montagne مع أعيان آخرين كثر ووصلوا إلى مساعدة النورمانديين، وأحاطوا بالحصن مع قواتهم، ودخلوه في اليوم الثالث منتصرين، وكان وقتها عيد اكتشاف الصليب المقدس، وأمر الملك الجيش كله بالتوقف عن مهاجمة القلعة، أو القتال بأي حال من الأحوال، ولكن قوات كونتي ثيوبولد، وروترو، اللذان لم يسمعا مرسوم الملك،

سلحا نفسيهما، كما أن بعض فرسان القلعة خرجوا منها ليقاتلوا قتالاً إفرادياً، وعندما قام المحاصرون بالحملة عليهم، وأثناء استدارتهم على أعقابهم، وفرارهم إلى الباب الشرقي، تلقوا ضربات شديدة من قبل مطارديهم في داخل الباب مباشرة، مما حال دون إغلاق الأبواب بوساطة رماح الأعداء، وأرغموها على البقاء مفتوحة على مصراعيها، وعلى الفور دخل الجيش الملكي مع صرخات عالية، وبشجاعة استولوا على جزء كبير من البلدة المحصنة، وبما أن المدافعين التابعين للقلعة ثابروا على المقاومة ألقيت النيران في المكان، فاحترق الحصن الذي حصنه روبرت منذ وقت طويل، وأثراه، لقد احترق حتى الأرض، وهكذا عاد هنري منتصراً إلى انكلترا، بعدما عقد السلام مع جميع جيرانه، ولمدة خمسة أعوام حكم المملكة والدوقية في الجانب المقابل من القنال، بهدوء عظيم وسلام، وبإخلاص وتقوى قدم أصدقاؤه الحمد الصافي إلى المولى رب الحشود الذي يأمر جميع الأشياء بقدرة وإرادة.

آمين

## هنا نهاية الكتاب الحادي عشر من التاريخ الكنسي



# الكتاب الثاني عشر

## هنا بداية الكتاب الثاني عشر

### — ١ —

في العام ١١١٨ لتجسيد الرب، وفي العلامة الحادية عشرة، كانت هناك عاصفة هوجاء عنيفة مساء عيد الميلاد، دمرت كثيراً من الأبنية والأحراش وسوتهم بالأرض في البلدان الغربية، وبعد موت البابا باسكال، جرى انتخاب جون أوف غايتا Gaeta ، الذي كان من قبل مستشاراً للبابا ومعلماً، جرى انتخابه بابا باسم غيلاسيوس، وجرى رسمه قانونياً من قبل الكهنوت الروماني، على الرغم من معارضة الامبراطور، وبناء عليه أطلق على بوردين رئيس أساقفة براغا Braga اسم غريغوري الثامن، من قبل مؤيديه، وأقحم بدعم من الامبراطور في كنيسة الرب، وكان هذا الأصل لانشقاق مخيف، وحدوث اضطهاد حاد، وتسبب في هيجان كبير في العالم الكاثوليكي.

وكان في ذلك الوقت هناك عداء مريراً بين لويس ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وقاد النزاع بين هذين الأميرين الكبيرين إلى قتال مستمر، دمر أراضيهما معاً، لأن الملك لويس تلقى المساعدة من وليم المنفي حتى يسترد ميراثه، وكان معظم النورمان بقلوبهم كلها واقفين إلى جانبه، وعلى كل حال استطاع هنري الاستيلاء سرياً على حصن مدينة سينت-كلير-سور-ايبتي Clair-sur-epte ، واحتفظ بها لمدة طويلة ضد أوتموند Otmund ونهابين آخرين على التخوم، موقعاً خسائر كبيرة بالفرنسيين، ولذلك قدم لويس سراً إلى مخاضة نيكاسي Nicaise ، التي تعرف بالكلام العامي باسم غاسني Gasny ودخل إليها بشكل غير متوقع، متخفياً كراهب ومعه أعوانه من الفرسان وقد ارتدوا قبعات سوداء، وحصن هناك قلعة في قلايات رهبان أوين Auen ،

ويا للعار بالنسبة له، لقد أسس وكراً للصوص في بيت الرب، الذي ينبغي استخدامه فقط لتقديم الصلوات للرب، وعندما سمع ملك انكلترا بهذا بادر مسرعاً نحو المكان مع جيشه وألقى الحصار هناك على قلعتين، كان العدو قد أطلق عليهن أسماء عامية بصورة مؤذية وساخرة، فقد سمى الأولى: موضع سيء، والثانية: شكل الأرنب البري، واستعرت نيران الحرب لحوالي أربعة أعوام، ولحق الدمار بكل من جانبي الحدود بالنار والنهب، والقتل الوحشي.

وكان البابا غيلاسيوس جيد المعرفة بالآداب بشكل خاص، وبما أنه ظل يشغل منصب المستشار الشهير للبابوية قرابة الأربعين عاماً، فقد كسب براعة عملية بسبب طول التجربة، لكنه حكم الكنيسة الرومانية لأقل من عامين، فقد جلبه جشعه إلى فرنسا، حيث بدأ باضطهاد الكنائس بوساطة العدد الكبير من أتباعه الرومان، غير أنه عبر، ومضى سريعاً مثل صباح جليدي أمام نسمة من الرب.

في تلك الآونة ظهر الشيطان في بريتاني إلى إحدى النساء، وكانت مستلقية في الفراش بعد ولادتها، وقد ظهر على شكل زوجها، وجلب إليها طعاماً هي طلبته منه، ولأنها رأت أنه بدا كأنه زوجها انخدعت وأكلت، وبعدما أكلت اختفى الشيطان، وبعد وقت قليل جاء زوجها، وسمع بالذي وقع، فارتعب فأخبر الكاهن، ولمس الكاهن المرأة، ودعا إلى اسم الرب، ورش عليها الماء المقدس، وعلمها ماذا تقول إذا عاد ذلك المغوي، وجاء الشيطان مرة أخرى، وسألت مثلما وجهت أن تسأل:« ماذا كان معنى تلك العاصفة المرعبة، التي تسببت بذلك الدمار الهائل قبل عيد الميلاد الأخير، وأخافتنا حتى الموت؟ فقد مزقت وانتزعت سقوف الكنائس والمنازل، ودمرت أعالي الأبراج، ورمت إلى الأرض كثيراً من الأشجار الجبارة في الغابات»؟ فأجاب:« لقد أمر الرب بوجوب هلاك القسم الأكبر من الجنس البشري، غير أن صلوات الحشد السماوي

نجحت في إقناعه في إبقاء الناس وجرف عدداً كبيراً من الأشجار، ينبغي أن تخافي من هزة كبيرة للأرض، في خلال ثلاثة أعوام، وعدداً من كبار الشخصيات سوف يهلكون »، وعندما قال هذا، رشت المرأة ماء مقدساً، فاختفى الشيطان على الفور، وشوهدت في الوقت نفسه أعجوبة في انكلترا، ففي إيلاي Ely جلبت بقرة حامل من قبل واحد من الفلاحين، بناء على أمر هيرفري Hervery البريتاني أسقف تلك الأبرشية، وقد ذبحت وقطعت وفتحت، وغريب أن تحكي، وجد في داخلها عوضاً عن العجل ثلاثة أعاجيب، وهذا قد تنبأ به واحد من حجاج القدس، الذي صدف والتقى بالرجل وهو يقود الدابة من السوق، وأنه قد قال أيضاً إلى الأسقف وإلى الآخرين الذين كانوا موجودين، بأنه في ذلك العام بالذات، سوف يموت ثلاثة أشخاص من الخاضعين للملك هنري، وأن عدداً من البلايا المخيفة سوف تتبع، وبرهنت نتائج الوقائع صدق نبوءة الحاج في الوقت المحدد الذي تنبأ به.

مات وليم أوف إيفري Evreux في الثامن عشر من نيسان، ودفن في فونتنلي Fontenelly في دير القديس واندريل Wandrille مع أبيه رتشارد، ثم ماتت الملكة ماتيلدا، التي كان اسمها المسيحي إيدث Edith في الأول من أيار، ومددت لترتاح في كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وأخيراً مات روبرت كونت ميولان في الخامس من حزيران، ورقد في براو Priaux في بيت اجتماع الرهبان مع أبيه وأخيه، وبعدما مات هؤلاء الأشخاص بدأت محنة كبيرة للنورمان.

طالب عموري أوف مونتفورت ابن سيمون وأغنس، وحفيد وليم كونت إيفري من خلال أخته، بالكونتية التي رفض الملك هنري- بناء على نصيحة أودين Audoin ، أسقف إيفري- بشكل فظ منحه إياها، ففجر ثورة كبيرة، وحرك جميع غاليا تقريباً ضد هنري، وقد كان فارساً ورجلاً قوياً، وكانت لديه قلاعاً جيدة التحصين، وقادة أقوياء للقلاع تحت قيادته،

وكان آله أصحاب ثروات واسعة، ومصادر كبيرة، وبناء عليه كان واحداً من أعظم نبلاء فرنسا، وفي تشرين أول من العام نفسه سلم وليم بونتيل Pointel قلعة إيفري إليه، وتعرضت المدينة كلها للنهب، وجرى نهب قصر الأسقف، وأرغم الأسقف أودين على النجاة مع كهنته وخدمه، وثار في ذلك الوقت أيضاً هيوج أوف غورني Gournay، وستيفن كونت أوف أوميل Aumale ، ويوستاس أوف بريتويل Breteuil ، ورتشارد أوف ليغلي Laigle ، وروبرت أوف نوبورغ Neubourg مع كثيرين آخرين ضد الملك هنري، وحاولوا إعادة وليم المنفي ابن دوق روبرت إلى دوقية أبيه.

—٢—

ذهب بلدوين كونت فلاندرز، الشاب المتصلب، إلى الحرب ضد الملك هنري مع جميع قواته، من أجل إعادة قريبه وليم إلى ميراثه من آبائه، وفي المراحل الأولى كان هنري كونت أيو Eu واحداً من أول المتعاطفين لمساعدة الثوار، غير أن الملك العاقل، سمع بهذا، فاعتقله في روان مع هيوج أوف غورني، وألقاه في الأغلال، وأرغمه على تسليم قلاعه، ثم إن بلدوين تقدم في داخل نورماندي بعيداً حتى أرقوي Arques ، مع جماعة كبيرة من الفلمنغيين، وأحرق قرى في لى-تالو Le-talou تحت أعين الملك والنورمان، وتصرف الملك بحذر، حيث حصن بوري Bures ، ولأنه نظر إلى كثير من النورمان بعين الريبة، وضع هناك كثيراً من المرتزقة البريتانيين والانكليز مع كميات وافرة من المؤن، وغالباً ما وصل بلدوين إلى هناك، حتى يستدرج للمعركة، ويحرك البريتانيين لاستخدام السلاح، وفي الأخير أصيب بجراحة من قبل واحد اسمه هيوج بوتريل Boterel ، فتراجع إلى أوميل Aumale ، لأن الكونت ستيفن والكونتسة هاوايز Hawise كانا من أكثر مؤيديه، وفي الليلة التالية انتشرت حكاية قالت بأنه أكل لحم حيوان مات حديثاً، وشرب

شراب عسل مخمر، ونام مع امرأة، وسبب له هذا التورط، بالإضافة إلى جرحه، مرضاً مميتاً، وهكذا بقي مريضاً يتألم من أيلول حتى حزيران، حيث مات، وعلم جميع الذين وضعوا آمالهم فيه، وعرفوا منذ ذلك الوقت أن علينا أن لا نثق بإنسان بل بالرب.

بعد موت بلدوين خلفه شارك أوف إينكري Encre ، ابن خاله من خلال ابنة روبرت الفريزي Frisian ، وفي سبيل ضمان رغد شعبه حافظ على السلام مع ملك انكلترا ومع جيرانه الآخرين.

—٣—

وجرى تنصيب هيوج بن جيرارد أوف غورني، الذي رباه الملك مثل ابنه، فارساً عندما أصبح رجلاً، وتمت ترقيته إلى مرتبة عليا بإعادة أملاك أجداده إليه، التي أدارها دروغو Drogo لبعض الوقت، وتقبل متموهاً على شكل صديق القلاع التي أعطيت إليه لحفظها من قبل الملك، الملك الذي ضلل بثقته، ولم يسدد معروف مولاه وولي نعمته بالشكر المتوجب، بل حالف نفسه مع الخونة، وامتلك التهور والطيش ليثور ضد مولاه ووالده الذي رباه.

ففي حزيران تباحث مع الملك حول مستقبل أخته التي اسمها غوندريدا Gundreda ، وبناء على توصية الملك أعطاها زوجة إلى نيغل أوف أوبني Nigel of Aubigny ، وكان رجلاً قوياً، وبعد الزواج تابع الزوج والزوجة احتفالها بعرسهما، غير أن هيوج انسحب سريعاً مع أتباعه وكان ذلك في اليوم نفسه، وحمل السلاح ضد الملك، ودخل إلى قلعة لي-بليسيس Plessis من دون إنذار، وقتل برتراند رومي Rumex ، وكان رجلاً شريفاً، وكان وصياً مخلصاً لكل من الملك وله شخصياً، وعهد بالقلعة إلى واحد من أقربائه، واسمه هيوج تالبوت Talbot ، واسترد الملك- على كل حال - القلعة بعد ذلك

بوقت قصير، وحصنها بشكل جيد، ووضع هناك روبرت ووليم ابني عموري، مع مجموعة منتخبة من الفرسان لحماية المنطقة.

وأصر هيوج بعناد على الاستمرار بثورته، فشحن قلاعه في غورني، ولى فيرتي-ان-بري، La Ferte- en- Bray وغيليفونتين gaillefontaine بالرجال، وجهزهم بالسلاح، ودمر جميع المنطقة ما بين السين والبحر بالنار والنهب، وكان هاغت وجيرارد أوف فيكامب Haget and Gerard of Fecamp وأينغوراند أوف فاسكويل Engurrand of Vascoeuil ، وأنسيوم Anceaume ، وغيلبرت أوف كريسي Gilbert of cressy مع آخرين من رجال العصابات الأشرار بين شيعته، وقاموا بحرب وحشية في منطقة تالو Talou وكاو Caux ، وقاموا بإغارات نهب في ليالي الشتاء، وأسروا فرساناً وفلاحين مع زوجاتهم، لا بل حتى رضعاً في مهودهم، واستخلصوا أموال فدية كبيرة منهم بوسائل السجن الوحشي، وكان لديهم كثيراً من المؤيدين في تلك البقاع، كانوا يستطيعون أن يستريحوا في بيوتهم وإذا اقتضت الضرورة الاختباء لمدة طويلة، ثم ينبعثون من دون سابق إنذار لاقتراف جرائم جديدة، وقد أرعبوا المنطقة والناس لمسافة أميال، وأحدثوا دماراً كبيراً، وهكذا ظلم رجال بري منطقة روان، وأبقوها في حالة هياج بالتهديد بأسوأ الأمور، وقاموا بمساعدة كل من الفرنسيين والنورمان بإلحاق العذاب والضرر بجيرانهم.

وكان وليم أوف رومير Roumare قسطلان قلعة نوفمارشي Neufmarche ، وكان أصحابه لوحدهم يتولون القتال ضدهم، وقد حملوا من المروج الخضراء المتاخمة لإبتي Epte إلى بيوتهم كميات كبيرة من المنهوبات التي كان رجال العصابات قد جلبوها من أماكن قصية، وفي ذلك الوقت بقي ثمانية عشر قسطلاناً من نورماندي مع أعيان من هناك متمسكين بقوة ومحافظين على موقفهم الخياني، يؤثرون مؤيدي وليم المنفي، ونظروا برضى إلى إضعاف قضية الملك.

— ٤ —

وصل في ذلك الوقت فولك أوف آنجو، بناء على دعوة روبرت غيروي Giroie ، الذي كان يدافع عن قلعة سينت-سينري Ceneri ضد الملك، وقام مع خمسمائة رجل بإلقاء الحصار على لى-موتي-غوتيير-دي كلنشامب La motte-gautier-de-clinchamp ، التي كان الملك قد حصنها، ومع مساعدة جيش كبير كان يزداد قوة، تمكن من اقتحامها خلال ثمانية أيام، وجاء ذلك في نهاية تموز، ولدى سماع الملك هنري بهذه الأخبار وصل إلى ألنكون Alencon ، وبعث برسل لحشد قوات عسكرية من جميع نورماندي من أجل القتال، وفي الوقت نفسه كان الأنجيفيون قد أنهكوا النورمان بالحملات المتوالية، وبقصف القلعة بزخات ثقيلة من الحجارة، وبهذه الطريقة قام مائة وأربعون فارساً، كانوا تحت قيادة روجر أوف سينت جون مع أخيه جون، والذين كان الملك قد انتقاهم بنفسه، قاموا مرغمين بالاستسلام من دون معاناة لجراحة أو خسارة لسلاح، واجتث الأنجيفيون القلعة وسووها بالأرض في الأول من آب، وعادوا إلى موطنهم منتصرين مبتهجين، وبكت الحامية سوء حظها وندبه أفرادها، ووصلوا إلى ألنكون Alencon ، وغضب الملك من الاستسلام، وهم شعروا بالخجل، لكنهم دافعوا عن إخفاقهم على أسس مشابهة في أنهم انتظروا طويلاً، وقد أرسلوا مراراً رسلاً مستعجلين، وأنه تأخر كثيراً في إحضار المساعدة التي احتاجوها، وأنهم عاشوا محاصرين تحت قصف مستمر من قبل المحاصرين، ثم أعطى الملك هنري سيز وألنكون وجميع البلاد العائدة إلى روبرت أوف بيليم في تلك المنطقة إلى كونت ثيوبولد، الذي قام بناء على إذن الملك بمنح تلك المرتبة إلى أخيه ستيفن، بمثابة حصته من ميراث آبائه في فرنسا، وهكذا تملك الشاب ستيفن: سيز، وألنكون، ولى ميلي-سور-سارثي Le mele-sur-sarthe وألمنيشي Alemeneches مع لى

روشي-مـابللي La roche -mabille ، وحصن القـلاع بأن شحنهن بالأسلحـة وبعسـاكـره، وفـرض سخـراً ثقيلة وضرائب على السكان، وبتغييره العـادات التي تمتعوا بها تحت إدارة الملك جعل نفسـه مكروهاً، وجعل رجاله غير مخلصين.

وفي هذه الأيام جلس أبناء الجور على مقعـد الطاعـون، واقترفـوا كثيراً من أفـاعيل الشر التي عمت الدنيـا، وفي هـذه الآونة طالب ريشير أوف ليغل Richer of laigle بأراضي أبيـه في انكلترا، لكن الملـك رفض مباشرة منحها له، قائلاً بأن أخويه: غيوفري واينغنولف Engenulf كانا يخدمان في قـوات الحاشية الملكيـة، وبثقة يتـوقعان نيل المطلوب بمـوجب حق الوراثة، وعندمـا سأل الشـاب بشكل متواصـل ما هو حقـه، وأتعب الملك وأفقـده صبره بوقـاحته، ولأن الملك هنري كـان مشغـولاً بكثير من القضايا، رفض الاستجـابة له بصراحة وبكلام فيـه قسوة وعـدم استجابة لعقـد صفقة، ولذلك انسحب الشـاب المتكبر، وهو يشعـر بالغضب، من البلاط النورماندي، وبسرعة عقد حلفاً مـع ملك فرنسا، أنه ما لم يعد إليه ميراثه، هو سيتخلى عن ملك انكلترا، ووعد الملك لويس ريشير، أنه إذا ما أيد قضيته، فلسوف يمتلك هو نفسه ستين فـارساً وعموري خمسين فارساً ولى ليغلي Laigle ، وتشجع ريشير بهذا فزار البلاط، ومـرة جديدة سأل ملك انكلترا منحه ميراثه، لكنه لم يحصل على ما يرضيـه، فانسحب مقطباً، وفي اليوم التالي طلب خاله الكونت روترو Rotrou المعروف نفسه من الملك، ونصحه كصديق ألا يسمح للعصيان بالانتشار، وأقنع عتابه الملك، الذي أخبر ريشير من خلاله، أنه سيعيـد كل ما طلبـه، وفرح ريشير لدى سماع هذه الأخبار، وذهـب لمقابلة الملك لويس، الذي كـان قادمـاً بسرعة على رأس جيش كبير وقـال:« مولاي، أنا عقدت حـديثاً حلفـاً معك، أنا غير قادر على الحفاظ عليه، لأن مولاي ملك انكلترا قد أعاد إليّ كل الذي طلبتـه، ولذلك من العدل أن أطلب الحفـاظ على ولائي له في كل شيء»،

ورد عليه الملك لويس قـائلاً:« ارجع ولسوف أعتمد على قـوتي الخاصة»، وعاد ريشير مسرعاً إلى موطنه، ووصل الملك إلى أبواب ليغلي بعده مباشرة ومعه جميع قـواته، وهاجم الملك رجال الحاميـة الذين حاولوا الـدفاع عن أنفسهم، وأثارت رياح قـوية ناراً كـان قد أشعلهـا شخص غير معـروف، وظلت النار الجائعــة ملتهبــة حتى التهمـت البلدة كلهـــا، وأرغم ريشير بوساطة المأساة على أن يتوجه إلى الملك، وبوساطة معاهدة جرى التصديق عليها في الثـالث من أيلول سلم الحصن إلى الفرنسيين، وبقي ملك فـرنسا هناك مع رجـاله لمدة ثلاثة أيام وفي حـالة عـوز كبير، وانسحب في اليـوم الرابع تاركـاً الكونت عموري، ووليم كـرسبين Crispin ، وهيوج أوف شـاتونوف-ان- ثيميريس Chateauneuf-en-thimerais لحماية الحصن، ثم إن وليـم أوف ري وســانشـــو Ray and sancho ، ووليم أوف فـــــونتنيل Fontenil ، وإيسنارد أوف أكــــــوبلي Isnard of ecublei غادروا إلى بونت-إيشانفري Pont-Echanfray ، صدوراً عن الإخلاص للملك هنري، وتخلوا عن كـل شيء استحـوذوه تحت المفسـدين للسـلام، وانضموا بقواتهم ووحدوها مع رالف الأحمر ضد أعداء الملك، ولم يرتجف الفرنسيـون مثل الأرانب الجبانة، بل كانوا واثقين وشجعـاناً مثل الأسود، فقامـوا بمسح رماد البلدة، واستخـدموا مواقع البيـوت الفارغـة، ونصبوا خيامهم هناك، وخرجوا وهم مسلحين من أجل الاحتشاش وجمع الطعام.

وعندمـا أصبحت أخبـار هذه الأحداث معـروفـة، بادر الملك هنري مسرعـاً في اليوم التـالي نحـو المكان مع جيش كبير، ولم يضع الوقت بل ألقى الحصـار على ليغلي، التي كـانت مشعثة تمامـاً، وكـان جميع السكان يرتجفـون، لكن محاولته أخفقت بوسـاطة رسـول بلاء وويل، فقد أخـذ وليم أوف تانكارفيل Tancarville -الذي وثق فيـه الملك- الملك إلى قرية ليفت Livet وقال: مـولاي الملك، ماذا تفعل هنا؟ لقـــد بعثني الكاشونيين Cauchois إليك، حتى تسرع عـائداً مع قواتـــك، فلقد

قام هيوج أوف غورني وستيفن أوميل مـع مؤيديهما بمركزة أنفسهم على الهضبـة فـوق روان، وهم يحاولون بناء قلعـة في دير الثـالوث المقـدس، وهم ينتظرون ابن أخيك ليصل مع قـوة كبيرة من الفرنسيين، لذلك من الممكن أن يقوم سكان المدينة بالتخلي عنها خيانياً وتسليمها إليه»، ولدى سماع الملك هذا عـاد على الفـور، وقامت قـوات الحاميـة بمطاردته، ثم انحرفوا جـانباً من أجل غارات متنوعـة، وأسروا حوالي الأربعين رجلاً من مـولين-لي-مارشي Moulins -la-marche ، وجمعوا كميـات من المنهـــوبات من جميع الأحـــواز، وحصنوا حصن ليغلي، واحتفظـوا به بشجاعة لمدة عام كامل.

ووصل الملك فـوراً إلى روان، لكنه لم يجد العدو الذي أخبر أنه كـان موجوداً هناك، لأن حاجبه بإبعاده له عن ليغلي قام بتضليله، وكان وليم الواسطة في جلب تفريج مرحب به إلى النـاس الذين كانوا يرتجفون من البرد ومن الرعب في العراء، وذلك عندما حث الملك غلطاً على الاهتمام بعمل آخر، وصرفه مع قواته وأبعده بوساطة رسالة شفوية عابثة.

—٥—

بعد هذا قام الملك بهجوم ضد هيوج في بري، وشرع مع ألف فارس بالهجـوم على قلعة هيـوج: لى فيرتي- ان- بري Le Ferte-en-bray ، لكن أمطاراً عـــاصفيـة تسـاقطت على الفـــور من دون انقطاع، وأخيراً انســـحب بعـدمـا دمـر المنطقـة كلهـــا، ومن هناك ذهب إلى نيــوبورغ Neubourg ضـد الثـائر روبـرت، واقتحمها وأحـرقهـا حتى ســـواها بالأرض، وكـان روبرت أوف نيـوبورغ ابنا لإيرل هنري ومـرغـريت، وعمل دعوى ضـد واليران كونت ميـولان، ابن خاله كـونت روبرت، لكنه كان غير قادر على سحق ابن خـاله كما رغب بسبب الحماية الملكية القـوية، وهكذا أغوي من قبل الثـوار، فنهض ضـد الملك، لكنه بعدمـا فقـد كثيراً من ثروته بـالنار وبالسيف، كـان غير قـادر على استرداد أي

شيء، وكـان رجـلاً صـاحب بلاغـة كبيرة، لكن سيفــه كـان بطيئاً في العمل، وقد ربح بلسانه أكثر مما ربحه برمحه.

وفي ذلك الوقت لم يكن باستطاعة الملك هنري القيام بحصار طويل، لأنه خـلال الفـوضى العـامـة التي تحدث دومـاً أثناء الصراعـات بين الأقرباء، كـان غير قادر على الوثوق برجاله، والرجـال الذين أكلوا معه آثروا قضية ابن أخيه مع أعدائـه الآخرين، وبتعمقهم في معرفة أسراره، ساعدوا كثيراً هؤلاء الناس، وكان هذا في الحقيقة أكثر من حرب أهلية، وبسبب روابط الـدم التي ربطت الإخـوة مع بعضهـم، والأصـدقـاء والأقـرباء الذيـن كـانـوا يقـاتلون من على الطرفين، لم يرغـب أياً من الفريقين أن يؤذي الآخـر، وقلد كثير من النورمان: أخيتـوفل وشمعي، وقلب آخـرون ولاءهم، واقترفـوا أعمالاً مثل أعمال أولئك الناس الذين ازدروا قـداسة الملك الذي رسمـه صمـوئيل، والتحقوا بـأبشالوم قـاتل أبيه(١)، وكان هذا تمامـاً ما فعله كثير من الناس عندما تخلوا عن الأمير المحب للسلام، والمنتخب والمبارك من قبل الأساقفة، بالتخلي عن الولاء الذي تعهـدوا به لمولاهم، وتبنوا قضيـة كـونت مـا زال من دون لحيـة لاقتراف الخطأ، وليس بسبب واجب أرغمـوا على أدائه، بل فعلوا ذلك بمحض اختيارهم.

—٦—

في السابع مـن تشرين الأول، وفي العلامة الحاديـة عشرة، عقد مجمع في روان، وهنا فحـص الملك قضيـة السـلام في المملكة مع رالـف، رئيس أساقفـة كانتربري، ومع بارونات آخرين، هو كان قـد دعاهم، وهنا بحث غيوفري رئيس أسـاقفة روان أوضاع كنيسة الرب مع أربعـة من الأساقفة المسـاعـدين هم: رتشارد أوف بـايو، وجون أوف ليـزي، وتورغيـز أوف أفرانشي Turgis of avranches ، وروجر أوف كوتانس Coutance ،

١— انظر سفر صموئيل ٢: ١٥—١٨ .

وعـدد كبير من رؤســاء الديرة، وكـان التـالين حـاضرين: روجـر أوف فيكامب Fecamp ، وأورسوس أوف جوميز Ursus of jumieges ، ووليم أوف بك-هيلوين Bec-hellouin ، وأيدو أوف كـاين Eudo of caen ، ورتشـارد أوف بريوي Preaux وأندرو أوف تريبـــورت Treport مع كثيرين آخرين، أنا لا أحتـاج إلى ذكر أسمائهم، وكان نائب البـابا غيلاسيـوس في ذلك المجمع كاهن رومـاني اسمه كـونو Cuno ، وقد ألقى كلمة بليغـة، لأنه كان قارئاً بعمق للآداب الـلاتينية منذ أن كان طفـلاً، وفي كلمته عمل اتهامـات ضد الامبراطور شـارل(هنري الخامس) المذنب المدمـر للأعمال الجيدة للبـابا باسكال ولإنجازاته، والمنكل القـاسي للكاثوليك، وأضاف أيضاً شكوى ضد البابا المضاد بوردين Bourdin ، والمغتصب للمقام البـابوي، وحول المحن المضاعفـة للكنيسة في توسكاني، وروى أيضـاً كيف أنه عندما هبت العـاصفة، كـان البابا غيـلاسيوس قـد وصل إلى المنفى في شمالي الألب، وتـوسل طالبـاً المسـاعـدة من الكنيسـة النورماندية، بوساطة الصلـوات، لا بل أكثر بوساطة المال، ولم يكن سيرلو Serlo أسقف سيز حاضراً في هذا المجمع، لكـن مبعوثه أعلن أن غيابه كـان بسبب السن واعتلال الصحـة، وأرسل أودوين Audoin أسقف أوف إيفري رسالة مع مبعوثه بأنه لا يستطيع القدوم بسبب أنه كان يدافع عن مقاطعتـه ضد الثوار، لكن مـا لم يحفظ الرب المدينة، فإن الحارس كان مستيقظاً لكن من دون فائدة، ففي ذلك اليوم نفسه استسلمت قلعة إيفري إلى عموري.

—٧—

قـام قـريب لـرالف غـويتـوت Guitot اسمـــــه وليم بوينتيل Pointel كان الملك قد عهد إليه بالمسـؤولية عن قلعة إيفري، بالتفكير ملياً حـول علاقته الماضية مع عمـوري في بلاط الكونت وليم، وقرر في ذهنه بأن هذا الرجل الكبير قد حـرم بشكل غير عادل من ميراث آبائه،

وأدخل بشكل غير متوقع شركاء موثوقين بالجريمة إلى القلعة حيث كان، وتصرف من دون مراعاة للسلام العام للجماعة كلها، فتخلى عن الملك والتحق بعموري، وعلى الفور التحق به الينانس أوف أوتيويل Elinance of auteuil مع عدد من الآخرين، وحدث هياج كبير هز المقاطعة كلها، واستولى المقيمون بالقلعة على قصر الأسقف وعلى البلدة، ونهبوا وسلبوا كثيراً من أثاث الأسقف وكتبه وزينته، وفرضوا بقوة السلاح إرادتهم على جميع المنطقة من حولهم.

وهرب الأسقف أودوين مع واحد من خدمه لإنقاذ حياته، وأمضى عاماً في المنفى، يتجول من مكان إلى مكان، ولم يقم بحلاقة ذقنه، وبمظهره صوّر الكنيسة الباكية من بلواها، وعانت إيفري من هذه المحن، وبعدما جرى طرد رجال الدين ومنعوا عن أداء القداسات لم تكن هناك قداسات لمدة عام.

—٨—

في الأسبوع الثاني من تشرين الثاني وصل الملك هنري إلى ليغلي مع جيش قوى من الفرسان الخيالة، والجنود الرجالة، وعاث فساداً في جميع المنطقة هناك، وقام رجال قوة الحامية، الذين كانوا واثقين بأنفسهم ومتفاخرين بقوتهم بالظهور، ولم يكونوا بطيئين بالاشتباك ببراعة فروسية بالسلاح، مع قوات الملك، ونجحوا في ترحيل الكونت ثيوبولد وأسره، لكن الملك وصل هو والكونت ستيفن ومعهما قوة من الفرسان، وبالشجاعة والفروسية أنقذوا الكونت من أيدي الأعداء، ثم كان هناك اشتباك عام وقتال عنيف وحاد، حتى أن الملك نفسه أصيب بحجر سقط على رأسه، لكن الخوذة النحاسية صدت بسلام قوة الضربة.

وفي ذلك الوقت ثار سكان بلدة ألنكون Alencon ضد الملك هنري، ولسوف أبين لماذا آذوا الملك بمثل هذه الجريمة: كان ستيفن

كونت أوف مورتين Mortain ، الذي كان مولاهم في ذلك الحين شاباً، لم يحب البرجاسية كما توجب عليه أن يفعل، ولم يظهر نحوهم الاحترام الذي استحقوه، وقد اقتيد مثل رحبعام من قبل متملقين أذلاء، وليس بنصيحة الشيوخ، وشكل الرأي العام لأهل البلدة بأنهم غير مخلصين له ولا للملك، ونتيجة لذلك ظلمهم بأحمال ثقيلة وباستخراجات غير معتادة، وبات أعمى بحماقة تجاه النتائج التي سوف تتبع، وأخيراً دعاهم جميعاً وأمرهم بأن يسلموه أولادهم كرهائن، وقاموا وقد امتلأوا ضغينة بانتظار وقتهم للانتقام، وبدهاء أخفوا غضبهم، لكنهم تآمروا للقيام بالانتقام بعد وقت قصير، وأخذ الكونت الرهائن، لكنه لم يعاملهم بشكل لائق، ووضع زوجة مواطن شريف، كانت ابنة باين أوف شاسي Pain of chasse الذي كان فارساً مشهوراً، تحت الحراسة في برج، ولأساها العميق كانت بأيدي حراس فاسقين، وغضب زوجها آميوتوس Amiotos غضباً شديداً لما لحقه من عار، وشكل بصورة سرية مؤامرة مع آخرين كثر، أقسموا على العمل معه لأنهم عانوا من إثم شبيه، وكان هؤلاء الغاضبين خائفين من التماس العدالة من محبها الملك، لأنهم خافوا من أنه قد يرفض الإصغاء إلى شكواهم ضد حفيده، ولذلك ذهبوا إلى أرنولف أوف مونتغومري Montgomery أخي روبرت أوف بيليم، ومن خلاله سألوا فولك كونت أوف آنجو القدوم لتسلم ألنكون، التي كانوا على استعداد لتسليمها له، واسترداد حرية السكان بمجرد طرد حامية الكونت من القلعة، ووافق الكونت فولك على هذا، وحشد فرسانه الخيالة، والرماة والجنود الرجالة ووصل ألنكون، ودخلها ليلاً مع رجاله، وألقى الحصار على القلعة، وبحدة قاتل المدافعين، ونشرت إشاعة- ما من شيء كان أسرع منها سفراً على وجه الأرض- أخبار هذه الحادثة بالطول وبالعرض، ووصلت على الفور إلى مسامع الملك، الذي كان دوماً مستنفراً لتلبية حاجات المملكة.

وعندما كان الملك النبيل والمتجبر متأكداً من أن الأخبار كانت معتمدة وموثوق بها، حشد بوساطة مرسوم ملكي النورمان والانكليز مع آخرين كثر، واستدعى أيضاً ثيوبولد، كونت أوف تشارترز مع رجاله ليأتي إلى دعم الملك، ثم إنه في كانون الأول تجمعت القوات على ألنكون، وقامت بمحاولة جادة للتفريج عن الحامية المحاصرة، ومضى الأخوان المشهوران: ثيوبولد وستيفن أمام الملك مع فرسانهما، آملين بشق طريق بالقوة لإيصال المؤن إلى القلعة، لكنهما أخفقا في صنع ذلك، لأن الكونت فولك أوف آنجو قاد رجاله إلى الخارج ضدهما، فقتل بعضاً، وأسر وسجن الكثيرين، وبعدما هزم البقية، رجع إلى البلدة منتصراً مع أسلاب كثيرة، وبات أكثر أماناً من المهاجمة، شدد الحصار أكثر، وقطع موارد المياه عن المحاصرين بالحفر تحت الأرض وقطع الأنابيب بشكل سري، وكان هذا ممكناً بسبب أن سكان البلدة عرفوا القناة، التي بوساطتها حمل بناة القلعة الماء من مورد هناك، وعندما رأى الرجال المحاصرون في القلعة أنه لم يعد لديهم ما يكفي من مؤن، وأن ما من مساعدة وصلت إليهم من أية جهة من الجهات، عقدوا صلحاً وسلموا القلعة، وخرجوا دون أن يلحق بهم أذى مع جميع رجالهم، وشجعت هذه المصائب كثيراً من الناس للتصرف بشكل غير قانوني، وخرق كثيرون السلام في موسم عيد الميلاد، وازداد الشر في كل مكان، وتلوثت نورماندي كلها بالمذابح والسلب والنهب والحرق، ومثلما يخرج العقرب الصغير قبل موعد ولادته الطبيعي ويدمر أمه، مثل ذلك فعل النورمان أمام الشروط القانونية لحكم وليم، فلوثوا بلادهم، وحولوها إلى وضع تعيس بوساطة آثامهم المرعبة.

وفي أثناء احتفال المسيحيين بعيد الرسول توما، سببت عاصفة هوجاء دماراً كثيراً على الأرض، وأنذرت بوقوع فواجع بين الناس وتغير في الحكومة في الزمان المقبل، وبعد مضي وقت قصير وقع اضطراب عظيم

فـوق الأرض كلهـا، وسقط كثيرون من مـواقع الشهـرة، وآخـرون ممن رفعـوا الفقــراء من القـذارة ونهضـوا بهم، ارتقــوا- بإرادة الرب- إلى مراتب عالية.

—٩—

في عام ١١١٩ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثانية عشرة، مات البابا غيلاسيـوس الثاني في التاسع والعشرين من كـانون الثاني في كلوني، حيث دفن هناك، وجـرى انتخـاب غي رئيس أساقفـة فين Vienne بابا في الثاني مـن شباط، باسم كاليكستـوس، وكان آنذاك مـوجوداً: لامبيرت أسقف أوستيــا، وبوســو Boso أسقف بورتو Porto ، وكــونو Cuno أسقف بالسترينا Palestrina ، وجــــون أوف كريما Crema ، مع عـدد آخـر من رجـال الدين من بلاط البــابا، الذين منحوا امتيـازاً خاصاً في انتخـاب البابا ورسمـه، وهكذا جرى تتويج غي، وكان رجلاً تزين بكثير من الفضـائل السامية، عفيفاً منذ الصغـر، وتقيـاً وكريماً، وغيـوراً في مـركـزه الديني، وكـان ابناً لوليم تيتيهاردي Tetehardie دوق أوف بيرغندي، الذي ولدته أديليزدا Adeliza ابنة رتشـارد الثـاني، دوق نورمــاندي إلى الدوق رينالد، وكـان غي نفسه ابن أخت غي المحـارب الذي تقـدم بادعاء بدوقيـة نورمـاندي، وقاتل في فـال-إيس-دون Val-es-dunes ضد وليم النغــل، وهنري ملك فرنســا، واحتفظ بإصــرار بفيرنون Vernon وبريوني Brionne ضــدهما لمدة ثلاثة أعـوام، وهكــذا إنه نبع من جبلة ملكيـة، وكان أخـاً لدوقـات، وقريبـاً لملوك وأباطرة، ومتحليـاً بعمق بالصفات الحميـدة، وجرت ترقيته إلى العـرش البابوي، حيث شغله بنشـاط لمدة خمسـة أعـوام، عـاملاً قـوانين صحيحـة، ومنجـزاً أعمالاً جيدة كثيرة في بيت الرب.

## - ١٨٥٥٤ -

## ـــ ١٠ ـــ

في العام نفسه جرى تحريض يوستاس أوف بريتويل، وصهر الملك مراراً من قبل مواطنيه وأقربائه بأن يسحب تأييده للملك، ما لم يوافق هنري على أن يعيد إليه قلعة إيفري، التي كانت عائدة إلى آبائه، وقام الملك- على كل حال- بتأجيل الموافقة على طلبه في الوقت الحالي، لكنه وعد بأن يفعل ذلك في موعد مستقبلي، واسترد تأييده له وربحه بكلام لطيف، لأنه لم يرغب بأن يكون على علاقات سيئة معه، لأنه كان واحداً من أقوى نبلاء نورماندي، كانت لديه قلاعاً حصينة، وكان مدعوماً بشكل جيد من قبل أصدقاء وأتباع، ولذلك حاول أن يربطه بروابط للإخلاص أقرب وأقوى، بإعطائه ابن رالف هيرنك Harenc الوصي على القلعة، وتركه لديه كرهينة، واستلامه بالمقابل ابنتي يوستاس، اللتان كانتا حفيدتيه، واتخاذهما رهينة لديه، وعلى كل حال أساء يوستاس معاملة الرهينة التي تسلمها، فقام بناء على نصيحة عموري أوف مونتفورت الذي كان يتآمر بدهاء لإثارة المزيد من الاضطراب، وقدم ليوستاس كثيراً جداً من الوعود التي أرفقها بالقسم، لكنه لم يف بها مطلقاً، فقلع عيني الصبي، وأعاده إلى أبيه، الذي كان فارساً صاحب شجاعة كبيرة، وذهب الأب الغاضب إلى الملك، وكشف له عن سوء معاملة ابنه، وانفعل الملك كثيراً تجاه ما حدث، فسلمه حفيدتيه، حتى يقوم بالانتقام على الفور، وأخذ رالف هيرنك ابنتي يوستاس بإذن من الملك الغاضب، وانتقم لابنه باقتلاع عينيهن بشكل وحشي، وقطع شفتيهن حتى فتحات أنفيهن، وهكذا دفعت الطفولة البريئة، وعانت- للأسف- من أجل ذنوب الآباء، وأثيرت مشاعر الأبوين بسبب آلام وتشويه أولادهم، وفي النهاية أرضى رالف الملك بوساطة الهدايا، واستعاد إمرة قلعة إيفري، وأرسل أخباراً إلى يوستاس حول الانتقام الذي نفذه بانفصال الملك عن بناته، وشعر كل من الأب والأم بأسى كبير لدى سماعهما بأن ابنتيهما قد أعميتا، وقام يوستاس

بتحصين قلاعه في: لاير Lire ، وغلوس Glos ، وبونت-سينت-بيير Pont-saint-Pierre ، وباسي Pacy ، وحرس الأبواب بعناية ليمنع الملك أو رجاله من الدخول إليها، وأرسل زوجته جوليانا، التي كانت ابنة الملك من خليلة، إلى بريتويل، وزودها بالفرسان الضروريين للدفاع عن القلعة.

وبحكم أن البرجاسية Burgesses ، كانوا- على كل حال- مخلصين للملك، ولم تكن لديهم رغبة في إثارة غضبه، وبسبب معرفتهم أن وصول جوليانا سوف يؤذي كثيراً منهم، أرسلوا على الفور يحثون الملك أن يقدم سريعاً إلى بريتويل، وكان الملك الحكيم، واضعاً في ذهنه قول كوريو Curio الجريء إلى قيصر حول أعمال الحرب:

لا مزيد من التأخير، فما هو ناضج يؤجل معلولاً

ولدى استلام الملك لرسائل البرجاسية، بادر مسرعاً إلى بريتويل، وبما أن الأبواب كانت مفتوحة له، دخل إلى البلدة، وشكر السكان المخلصين على الولاء الذي أظهروه، ومنع فرسانه من نهب أي شيء هناك، ثم ألقى الحصار على القلعة التي كانت فيها ابنته الجريئة قد اتخذت موقف الدفاع.

ولقد رأت الخطر من على كل جانب، ولم تعرف ماذا تفعل، وقد عرفت بشكل مؤكد أن والدها وصل وهو حانق عليها، وأنه لن يرفع الحصار الذي بدأه حتى يحقق النصر، وعلى كل حال، إنه كما قال سليمان: «لاشيء أسوأ من امرأة سيئة»، وأخذت بالنهاية تتآمر برفع يدها ضد الممسوح من قبل الرب، فطلبت مع نية خيانية أن تتحدث إلى والدها، وكان الملك جاهلاً بخديعة المرأة، فجاء إلى المقابلة، إلى حيث أملت ابنته اللعينة بقتله، وكان لديها قوس عقار، كان جاهزاً لرمي نشابة على أبيها، لكنها أخفقت في جرحه، لأن الرب قد حماه، وأمر

الملك على الفور بتدمير جسر القلعة المتحرك، وبذلك لم يعد بإمكان أحد الدخول أو الخروج، وعندما وجدت جوليانا نفسها محاصرة تماماً، وما من أحد هناك ليقدم لها المساعدة سلمت القلعة إلى الملك، لكنها لم تجد وسيلة لإقناعه بأن يتركها تذهب حرة، وفي الحقيقة أرغمت-بناء على أمر الملك- بأن تقفز من الأسوار، من دون جسر أو دعم، وسقطت بشكل مهين مع ردفين عاريين، في أعماق الخندق، وحدث هذا عند بداية الصوم الكبير، في الأسبوع الثالث من شباط، عندما كان خندق القلعة مليئاً إلى حد الفيضان من مياه أمطار الشتاء، وبشكل طبيعي صدمت المياه المتجمدة ببردها الفاقد الإحساس الجسد الغض للمرأة عندما سقطت، وتمكنت الأمازونية التعيسة من الخروج من مأزقها مهانة حسب أفضل ما كان باستطاعتها، وانسحبت إلى زوجها الذي كان آنذاك في باسي، وقدمت له رواية مباشرة حول ما نزل بها من سوء حظ، واستدعى الملك البرجاسية، وشكرهم لمحافظتهم على ولائهم، وكافأهم بجوائز، ووعدهم بالمزيد، وسلمهم قلعة بريتويل حتى تكون تحت رعايتهم.

وأعاد بعد مدة قصيرة قلعة غائيل Gael إلى رالف الذي كان بطلاً جريئاً، والذي كان حفيد وليم أوف بريتويل من خلال أخته، مع جميع أملاك آبائه باستثناء باسي، التي كانت بحوذة يوستاس، وبعدما تسلم القلعة بموجب أعطية الملك، حرسها بعناية، وبرهن عن نفسه أنه كان مخلصاً إلى الملك، ومليئاً بالسمات النبيلة، وقاتل بشجاعة أعداء المملكة في كل مكان.

— ١١ —

وفي ذلك الوقت نفسه كان أهل إكسمس Exmes يفكرون بالثورة، لأن رجال كورسي Courcy والحاميات الأخرى في الجوار، قد سمعوا بأن جميع النورمان تقريباً قد تخلوا عن الملك، ووقفوا إلى جانب

قضيـة ابن أخيه، ولذلك قـرروا هم أنفسهـم أن يتصرفـوا مثلهـم، وهكذا ذهب أولاً رينـالد أوف بيلـويل Bailleul إلى فـــالايس Falaise ، وأعلن عن تخليـه عن ولائه للملك، وعنـدما طلب الملك منه أن يسلمـه قلعـة لى رينوارد Le renouard رفض بتجبر، ثم قـال له الملك:« لقـد قـدمت إلى بلاطي، وأنا لن أعتقلك لكنك سـوف تأسف لتحـديك لي»، وما أن انسحب رينالد، حتى قام الملك بحشـد فرسانه، ووصل إلى قلعته في ذلك المسـاء، وعند وصـوله هو تقـريبـاً، ولاحظ رينالد أنه لم يمتلك الموارد لمقاومة مثل تلك القوة، فخرج في الصباح، وسلم المكان الحصين، راجياً الملك الرحمة، وأمر الملك على الفور بوضع البناء الحجري مع جميع المؤن التي فيـه وكل شيء في داخله للنيران، وعندما سمع أهل كـورسي، وغـراند ميسنيـل، ومـونتبيكون، الذين كـانـوا على وشك الثـورة، بهذا، خمدوا، وقمعوا بشدة كل النوايا الشريرة حتى يتجنبوا مصيراً مشابهاً، ولم يقتنعوا ثانية بتكشير أنيابهم ضد مولاهم الملك.

—١٢—

وأقنع غيوفـري، رئيس أساقفة روان، عـدداً من أتباعـه، مكرهين ضد أسلين Ascelin ، وظلموه كثيراً بأخـذ ممتلكاته بشكل غير عادل، حسبما بدا لبعضهم، وبناء عليه مضى أسلين وهو يغلي بالحقـد إلى ملك [فرنسا] في بونتيوس Pontoise ووعده بأن يسلمه أنديلي Andely إذا ما قدم لتسلمها مع قوة مسلحة، واغتبط الفرنسيون تجاه هذا، وحثوا الملك أن لا يفقد الوقت ويضيعه، وجـرى تثبيت التحالف من الجانبين، وأخذ أسلين بعض الجنود الموسميين معه، وأدخلهم أثنـاء الليل في مخزن لحبوبه، حيث أخفاهم سالمين تحت القش، وسار الملك لويس على أعقابه ولحق به بحذر مع قـوة من الجنود، وفي الصباح كـان هناك صراخ عظيم بين الناس لدى رؤية الملك، وارتعب سكان البلدة كثيراً من هذه الحادثة غير المتـوقعة، ثم إن الرجـال الذين كانـوا متخفين تحت القش اندفعوا فجأة نحـو الخارج،

وهم يصرخـون بنداء الحرب الملكي للانكليـز مع الناس، وركضوا نحو القلعـة، لكن مـا أن أصبحـوا في داخلهـا حتى غيروا صراخهم وأخـذوا يرددون صــوت الحرب الفــرنسي وهو«جبل البهجــة»، وهكذا احتل الفـرنسيون القلعـة، وطردوا السكان، واندفعت أفـواج الملك إلى الداخل من خـلال الأبواب، واستـولوا على البلدة كلهـا، وفـوجىء رتشـارد ابن الملك مع بقيـة الحامية بالهجـوم المبـاغت، وفقدوا كل أمل في الدفـاع عن البلدة من الداخل أو من الخارج، فهربوا إلى كنيسة العذراء مريم المباركة، وعندمـا استـولى الملك لويس نهائيـاً على القلعـة وعلى البلدة كلهـا، أمـر بوجـوب مغادرة رتشـارد وأتباعـه من الفرسـان بحرية إلى حيثما رغبـوا، وذلك صدوراً عن الاحترام للأم العذراء التي ولدت مخلص العالم، والتي استرد كنيستهـا إيماناً منه بالحصـول على عونها، وبعـدمـا انسحب الملك، حـرس الفـرنسيـون بتيقظ القلعـة التي استـولوا عليهـا في قلب الإقليم، وأخضعـوا المنطقـة المحيطة كلهـا على امتـداد السين ووضعـوهـا تحت سلطتهم، وهناك بقي غـودفـري أوف سيرانس Serans ، وأينغوراند أوف تراي Enguerrand of trie ، وأوبري أوف بـوري Aubrey of boury ، وبودري أوف بري Baudry of bray مع فرسـان فرنسيين آخـرين، وقد جـرى حـرمانهم كنسيـاً من قبل رئيس الأسـاقفة لغـزوهم أراضي الكنيسة، لكنهم قاوموا لبعض الوقت، وبعناد متنوا قلوبهم بسبب المكاسب المجنية من مواصلة الحرب.

وحصن الملك هنري كل قلعـة قوية في نويون-ســور-أندلي Noyon-sur-andelle ضـد الفرنسيين، ومـركز مـائـة فارس هناك تحت قيـادة وليم بن ثيري Thierry.

—١٣—

أُغوي رتشارد أوف فريسنيل Fresnel ، الذي تفاخر بأولاد ثمانية، عند نهاية حيـاته بالمناكـدة الحمقـاء لزوجتـه إيما Emma ، من أجل

تعـريض السلامـة العـامة للناس للخطر، بممارسـة الطغيـان بمساعـدة أولاده، فبنى قلعة في آنسين Anceins في أراضي خاضعة لجزية الملك، وأيد مـولاه يوستـاس وتعـاطـف معـه في النهب المنظم لحقـول جيرانه وتدميرها، ومع أنه كـان عجوزاً هو لم يشعـر بالخجل، بعدّه واحـداً من العصاة، وهكذا عـرض أبناء الناس أرواحهم للخطر بإثارة الاضطراب في موسم الصيام الكبير.

وكـان روبرت بن أسلين غـويل Goel أول أعداء الملـــك عودة إلى العقلانيـة، وأعلن عن أسفه في أنـه شارك في المؤامرة، وطلـب الحصول على صـداقة الملك الحاكم، وبعـد حصـوله عليها بقـي مؤيداً مخلصـاً له حتى تاريخ وفاته، الذي لم يتأخـر كثيراً، وقام عدد من الآخـرين بحذو حذوه لمنفعتهم.

وأرسل الملك إلى عمـوري يطلب منه عقد سـلام، وأن يسلم القلعة، وأن يتسلم منطقة إيفري كلها من دون إزعـاج، ولكن بما أنه كان رجلاً متمـرداً، رفـض بحماقـة العـرض الحر الذي عملـه الملك بكرم، وبما أنه امتلك سبباً رئيساً لإثارة الحرب، بحكم أنه قـد حرم من ميراث آبائـه، غـالبـاً مـا كـان يخرج أثناء الليل من قلعـة أولى بسرعـة كبيرة إلى قلعـة أخـرى، موقظاً كل واحـد بحـراسة مستمـرة، مشجعـاً المتحالفين معـه، وموجهاً التعليمات لهم لحراسة قلاعهم بشكل جيد، ولإقامة حراسة من دون نوم ضُد الجواسيـس الدهاة، أن يكونوا جريئين وأدباء في مضـايقة أماكن سكنى الجيران، ولذلك هم إما نهبـوا كل شيء، موفرين الكنائس فقط، وضعـوهم بثبـات تحت إشرافهم، وعمـل من دون توقف في شن الحرب لاسترداد كونتيتـه في هذه المدة، وأعاق خططهم كثيراً، فقـد كان فارساً شجاعاً ومتدرباً، ومشهوراً لشجاعته المدهشة ولجرأته.

وفي إحـدى المرات عندما كـان هو وعساكـر حاشيـة الملك يقومـون بغـارة في فكسين Vexin ، وحدث أن القوات الفرنسية، كانت متفوقة

بسبب حظ الحرب، لذلك أرغمت أعداءها على الهزيمة والفرار، في تلك الأثناء فجأة قُتل حصان رتشارد ابن الملك وهو تحته، وكاد الشاب أن يقع أسيراً بيد العدو، وقتها رأى رالف هذا فقفز من على ظهر مطيته، وقال لابن الملك:«اركب بسرعة لتنجو من الأسر»، وعندما عدا هارباً، وقع رالف بالأسر، لكن أطلق سراحه بعد خمسة عشر يوماً مبادلة مع والو Walo أوف تراي Trie ، وكان هذا الفارس أخاً لـ«انغورراند Enguerrand »، وقد أسر قبل وقت قصير، وكان يئن في زنزانة الملك العميقة، ثم إنه مات بعد وقت قصير من الجراحات، ومن سوء المعاملة التي تلقاها، وأكرم رالف المخلص وشرف من قبل الملك، وبات منذ ذلك الحين يعد من أكبر أصدقاء الملك وأقربهم إليه، ووعده الملك[وكان سيعطيه] كثيراً من التشريفات لو أنه عاش مدة أطول.

وحدث أن ثلاثة من سادات القلاع هم: يوستاس، وريشير، ووليم أوف لى فيرتي La ferte في بيرشي Perche ، قاموا مرة بتوحيد قواهم، وغزوا نورماندي، ونهبوا البلاد حتى نبع تيرنانت Ternant ، وأحرقوا حتى الأرض بيوت فيرنيوسيس Verneuces في مقاطعة سينت-إيفرول، وشاهد رالف الذي كان مقيماً في بونت- إيشانفري Pont-Echanfray الدخان، وجمع على الفور الفرسان من كل مكان أمكنه، وانطلق لمقاتلة العدو، وكان الملك قد وضع ثلاثين فارساً في لى-ساب Le-sap والعدد نفسه في أوربك Orbec بسبب غارات العصابات، التي قدمت مجتاحة من جميع الاتجاهات لاقتراف أعمالهم الشريرة، وهكذا وحّد رالف جميع هؤلاء في قوة واحدة، وهاجم ثلاثمائة فارس خيال بعصابته الصغيرة عند مخاضة تشارنتوني Charentonne، واسترد كميات كبيرة من المنهوبات التي كانوا قد أخذوها، وأسر عدداً قليلاً من الفرسان، وطارد البقية حتى لى فيرتي-فرينيل La ferte-frenel ، ولكن لولا حقيقة أن العدو كان لديه ملجئاً قريباً، لكان ألحق برجاله خسائر أكبر.

وليس بعد مضي مـدة طويلة خاطب الفارس الشجـاع الملك بمودة، ورجاه بتـواضع أن يظهر حضوره في مـواجهة رجـال لى فيرتي-فرينيل، الذين كانوا ضعفاء، بقدر ما كانوا مثيرين للاضطراب، وأخيراً بعد عيد العنصرة اقتنع الملك بالتماسات رالف المتـواترة بتفقد القلعة التي أرعبت منهـا بلاد سينت-إيفـرول، وأصيب سكان لى فيرتي -فـرينيل برعب بسبب قدوم الملك، وبخـوف وارتجاف أخذوا يبحثـون ماذا يمكنهـم أن يفعلوا، وبما أن رالف الأحمر أوف بونت إيشـانفـري بدأ بإصرار يقـوم بهجوم حـاد، عرضـوا مفاتيح الأبـواب على الملك، وبعدمـا وافقوا على الحكم الذي صدر حـول محاولتهم العصيان، تصالحوا معـه، وفي حوالي نهاية حـزيران وصل رتشـار العجـوز إلى سينت-إيفـرول، وتسلم رداء رهبـانياً كـرجل مـريض، ومـات في أوائل تموز، ورقد مـدفـوناً في بيت صلوات الـرهبـان، وأعطـى إلى سينت-إيفـرول حصـة في كنيسـة لى-كـونفـريري Confriere ونصف عشوره، وأقنع ابنه الأكبر وليم، وأولاده الآخرين بأن يوافقوا على هذه المنحة.

—١٤—

وفي وسط هـذه العـواصـف الكثيرة التي هاجت بعنـف كبير، أمسك الملك بقوة بالمقام الملكي، وشحن جميع قلاعه وحـرسها بحاميات مخلصة، تمركزت هناك بشكل ذكي، لذلك لم تنجح جميع المؤامـرات الشريرة للعدو في شق طرقـها إليهـا، وبالنسـبة إلى روان المدينـة العاصمـة، ومـدن بايـو Bayeux ، وكوتاس، وأفـرانش، وسيز، وآرقـوي، ونونانكورت، وإيلير Illiers ، وكاين، وفالاسي، واكسميس Exmes ، وفيكامب، وليليبوني Lillebonne ، وفيرنـون، وآرغنتـــان Argentan ، والمدن المحصنة الأخـرى، التي كانت خـاضعة إلى الإشراف الملكي المبـاشر، لم يسمح قط بالاستيلاء عليهن وانتـزاعهن من حكمه العـادل بمناقشات مضللة، وبقي السـادة التابعـون له: رتشارد إيرل أوف تشيستر، وقـريبه وخليفتـه رالف

أوف بريقويسارت Briquessart ، ورالف أوف كونشي Conches ، ووليم أوف وارني، ووليم أوف رومير Roumare ، ووليم أوف تانكارفيل Tancarville ، ورالف أوف سينت فكتور Victor ، ووولتر غيفارد، ونيغل أوف أوبيني Aubigny ، وأخوه وليم، ولوردات آخرون مشهورون، مخلصين له في الشدة والرخاء وازدروا وجود أية معاملة مع الخيانة القذرة، وحنث اليمين، ووقف أيضاً إلى جانب الملك واليران وروبرت الذي من دون لحية، ولدا روبرت، كونت ميولان، وأطاعه أتباعهم مع قلاعهم الحصينة جداً، بشكل مطلق، وقاوموا بشدة الحملات المعادية، وكانت مدن: بونت-أوديمير Audemer ، وبيومونت Beaumont ، وبريوني Brionne وفاتيفيل Vatteville قد وقفت كلها بحزم خلف الملك، وقاتلت قوات أصحاب هذه المدن بإخلاص إلى جانبه.

## —١٥—

عبر في أيار وليم ابن الملك من انكلترا إلى نورماندي، وفرح والده كثيراً لقدومه، ثم كشف عن الخطة التي أبقاها من قبل سرية، وبعث رسلاً للسلام إلى فولك كونت آنجو، وبعد الموافقة على شروط سلام مرضية معه، قام وبلطف فدعاه لزيارة بلاطه.

وفي حزيران تزوج الأمير وليم ابنة الكونت في ليزوي، وأفرح اتحاد هاتين الأسرتين النبيلتين كثيراً من الناس الذين تطلعوا نحو السلام، مع أنه عاش مدة قصيرة، لأن المنية قطعت على الفور خيط حياة الزوج الشاب في البحر العميق، مما أعطى في الوقت الحالي فرصة تنفس كان يحتاجها كثيراً من الناس المعادين، ثم إن الملك استقبل- بناء على طلب الكونت- وليم تالفاس Talvas ابن روبرت أوف بيليم، وأعاده إلى الحظوة، وأرجع إليه جميع أراضي والده في نورماندي، ومنحه ألنكون، وألمينيشيز Almeneches وفيغنات Vignats وحصون أخرى، باستثناء القلاع، التي عهد بها إلى حراسه.

وقـام الملك أيضـاً بناء على التماس حمو ابنه بالعفـو عن روبرت أوف سينت- سينيري Ceneri ، الذي كان قـريبه، لأنه قام مـؤخراً بالتخلي عن القضية الصحيحـة والالتحاق بالعدو، وأعـاد مونترويل Montreuil وايشوفور Echauffour إليه.

ودعـا إلى عقد مجمع كبير للأسـاقفة والنبلاء في ليزوي، حيث قـدم إليهم أخبـار الموت المبكر لبلدوين كـونت أوف فـلاندرز [١٧ حـزيران ١١١٩]، وأمـر رجـال الدين بقـرع النواقيس والصـلاة من أجل راحـة نفسـه والعفـو عنهـا، وكـانت الأخبـار التي قـالت بأن ذلك الفليمنغي Fleming الذي كـان أشـد أعـداء الملـك قـد مـات، وأن أصـدقـاءه الأنجيفيين سادة المدن الثلاثة قد تحالفـوا بأنفسهم مع الملك الجبار، سبباً لفرح بعضهم ولترح آخرين في نورماندي.

وفي الصيف، وبعد توقف طويل، وبعد أن حاول الملك خلاله بطرق عديدة أن يقنع الحانثين باللين، قام بزحف رهيب خلال نورماندي، وقد أحـرق بونت-سينت-بيير Pierre وأمـاكن أخـرى حصينة وقـــرى كانت عائدة إلى أعدائه، وأنزل انتقاماً قاسياً بخصومه والمؤيدين لهم.

—١٦—

في أثناء وقـوع هذه الحوادث، أظهـر الرب أعمالاً رائعة وجبـارة على الأرض، بوسـاطتهـا حـرك قلوب المشـاهـدين حتى يمتنعـوا عن أعمال الشر، فقد سقطت في الشتـاء الماضي أمطاراً غزيرة، وتدفقـت فيضانات ميـاه غير معتـادة خـلال بيـوت النـاس، ويمكن لسكان روان وباريس ومواطنين آخـرين وفلاحين أن يشهدوا على هذا، لأنهم شعروا بفـداحة الخسائر التي لحقت ببيوتهم ومحاصيلهم بتحكم فيضان مياه السين.

وفي أثناء الصـوم الكبير التالي هبت رياح قـوية فوق السين، وجففتـه لبعض الوقت، وبات ممكناً للإنسـان أن يعبر من شـاطىء إلى شـاطىء،

إذا امتلك الشجاعة ليغامر بالسير فوق طريق غير معتادة، وشاهدت باريس هذا، وحق لها أن ترتجف.

وفي آب عندما كان القمر جديداً، ظهر أحمر كأنه دم في المساء، وبدا اعوجاجه لأناس في فرنسا مثل قعر جرة كبيرة، ثم إنه قطع في الوسط بوساطة لون كأنه الزفير، وظهرت مسافة ما بين النصفين للمراقبين، بما يشبه أي شيء يشاهد على الأرض يمكن أن يعد ممراً موائماً للناس لأن يسيروا عليه، وبعد مضي ساعة شوهد ثانية وقد التحم، وعندما أخذ اللون الأحمر يخف تدريجياً ظهر الهلال الشمعي، وأشع القمر بالشكل الطبيعي مرة ثانية، وشوهد في الوقت نفسه لون أحمر براق يندفع منطلقاً من بوسي Poissy خلال مانتي Mantes في نورماندي، ولمدة ثلاث ليالي ظهرت هذه الأعجوبة في السموات وشوهدت من قبل كثيرين من الفرنسين، وجرى تفسير هذا بطرق مختلفة من قبل المشاهدين، الذين أخبروا المستمعين إليهم بكل ما رغبوا به، تبعاً لتذوقاتهم الفردية، وقد تبجح المتكبرون في حماقتهم وجنونهم وتحدثوا عن حوادث مستقبلية، وكأنها قد حدثت، مؤكدين من دون إدراك، أن الملك لويس الذي كان آنذاك مع الفرنسيين في آندلي Andely ، سوف يدمر النورمان مثل لهب، ولسوف يستولي على جميع مقاطعة نورماندي بسيف حاد، وهكذا فإن رغباتهم لوت بعنف من دون انتباه، النبوءة لصالح رغباتهم، لكن محصلات القضايا جلبت لهم نتائج مختلفة تماماً، وسوف أترك هذه الأشياء، وأتابع السير مع سياق روايتي.

—١٧—

مال الملك هنري إلى عدم الصبر على الثوار أية مدة أطول، فدخل إلى إيفرين وشرع بمهاجمة إيفري بقوة قادرة، ولكن بما أن الحامية في الداخل اتحدت مع السكان للمقاومة بشجاعة، كان غير قادر على شق طريق للدخول بقوة، وكان معه: ابنه ورتشارد ابن أخته، والكونت ستيفن،

ورالف أوف غايل Gael ، وقوة كبيرة جداً من النورمان، فقد جرى حشد هؤلاء جميعاً من قبل الملك، الذي قال للأسقف أودوين Audoin: «ألا ترى يا مولاي الأسقف أننا قد دفعنا إلى الخلف من قبل أعدائنا، وأن النار فقط يمكنها أن ترغمهم على الاستسلام؟ لكن إذا ما أشعلت النار، سوف تحترق الكنائس، وسوف يعاني الأبرياء من أضرار كبيرة جداً، لذلك فكر بدقة، وكراعي للكنيسة، وأخبرنا بحكمتك، أي طريق تعتقد أنه الأفضل، فإذا ما منحتنا السماء النصر من خلال النيران، عندها مع معونة الرب، سيجري ترميم المضار التي لحقت بالكنيسة، لأننا سوف نمنح بسرور مبالغ كبيرة من خزانتنا، حتى يعاد بناء بيت الرب، أحسن- كما أعتقد- من قبل»، وتردد الأسقف القلق حول مثل هذا الخيار، غير عارف أية أوامر سوف تكون الأكثر قبولاً لدى الإرادة اللاهوتية، ولم يكن متأكداً مما عليه أن يرغب به، ويختار ويكون هو الأفضل، وقام أخيراً بناء على نصيحة أناس مجربين، بإشعال النار، وأحرقت المدينة، حتى يمكن أن تتحرر من الخونة المحرومين كنسياً، وعادت إلى السكان المخلصين، وهكذا أشعل رالف أوف غايل النار الأولى على الجانب الشمالي، وانتشرت ألهبة النيران المستعرة على الفور خلال جميع أرجاء البلدة، وبما أن الفصل كان هو الفصل الجاف للخريف، جرى تدمير كل شيء، وفي تلك المناسبة احترقت كنيسة القديس المخلص، التي كانت ديراً للراهبات، وكذلك الكنيسة المشهورة للعذراء المجيدة والأم مريم، التي كان يخدم فيها الأسقف وكهنته، وحيث اعتاد أهل الأبرشية حضور محكمة الأسقف، وأعطى الملك وجميع أعيانه إلى الأسقف ضمانة بتقديم التعويضات عن الكنائس المحترقة، ووعدوا بشكل معلن بمبالغ كبيرة من مواردهم، لإعادتهم.

وكان الملك البعيد النظر قد عقد سلاماً مع روبرت غايل، كما تقدم الذكر، وعهد بقلعة آيفري إليه، حتى يضمن إخلاصه، وتسلم إخوته

رهائن لضمان سلوكـه الحسن، وكان رالف الأحمر ضمانة فعـالة من أجل سلام دائم، لأنـه كان ختن غايل، وهكذا ربطـه بتحالف أسروي متين، وقبل ذهاب الملك إلى إيفري أمر روبرت بأن يتحدى عموري ومواطنيه وأتباعه مـن الجنود للمنازلة بالسـلاح، وجرى ترتيب بـوجوب التقـاء الفرسان ودخولهم في منازلة على ضفاف نهري يوري Eure ، قرب آيفـري، وأخبره باليـوم الذي ينبغي أن يعمـل فيـه هذا، وأطاع روبرت بدقـة وباتت الأمور خـاضعـة لرغبات الملـك، وفور رؤية الملك مـدينة إيفـري وهي تحترق، أرسل رسـولاً إلى روبرت ليعلن له الذي حـدث، فصرخ هو على الفـور وهو مثـار:«أصغ يا سيـدي عموري إلى الأخبـار التي سأخبرك بها، التي سوف تجلب لك لا شيء سـوى الأسف، أحرق الملك هذا اليوم مدينة إيفري، وحامية القلعة هي الآن تحت خطر الموت في أية دقيقة»، ولدى سماع عمـوري لهذا جمع فرسـانه مع بعضهم وعاد إلى أراضيه، وهو يندب دمار مدينته.

وكـان فيليب وفلورس Florus ولدا الملك فيليـب ملك فـرنسـا وحفيـدا عمـوري من خـلال أختـه بيرتريـد، ووليم بوينتل Pointel ، ورتشـارد أوف إيفري بن فـولك البروفـوست Provost، مع فـرسان شجعـان آخرين كـانوا يدافعـون عن القلعة، وقـد قاومـوا بإصرار كبير، وبشجاعة أكبر بعدما أحرقت المدينة، بسبب أنه كان لديهم الأقل للحماية، بعـدمـا هرب سكان المدينة، فبعـد تدمير المدينة تفـرق السكان في جميع الجهـات، ولأنهم فقـدوا كل مقتنياتهم، أرغمـوا على التجـول ببـؤس من منزل غريب إلى آخر، واستخدم الملك الضبط، فأمر الحامية بتسليم القلعة له، ضامناً العفو عن جميع خروقاتهم للقانون، وعمل وعوداً كثيرة، لكنهم بما أنهم لم يوافقوا على شروطه، ذهب مسرعـاً لمعالجة مسـائل أخرى تؤثر على المملكة، وبعد مضي عدة أيام عاد- على كل حال- أثناء الليل مع قوة كبيرة من الفـرسـان، وشرع فجأة بتحصين قلعـة قبل الفجـر على ضـوء

المشـاعل، وعندمـا اكتمل العمل عهـد بها إلى مقاتلين مـوسميين، وكـان القـادة الـذين وضعهم هناك: رالف الأحمر، وسيمـون أوف مـولين، مع غيلبرت أوف إكسمي Exmes ، وعـدد من الآخرين الذين كـانوا بين أشجع الشجعان، وكان للملك ثقـة كبيرة فيهم، وقد استخدمهم للضغط على العدو بشدة، حتى يسترد المقاطعة التي سرقت.

وكان عموري، ويوستـاس، وأودو أوف غومتز Gometz ، وغي موفـويزن Mauvoisin مع فرسـان آخرين شجعـانـاً آنذاك في باسي، وقـد زاروا رجـالهم بجرأة كبيرة وشجـاعـة، وشجعـوهم بحضـورهم، وقاموا مـراراً بمضايقة الحامية الملكية بغـاراتهم الشديدة، لكن الرجال لم يمسكوا قط وهم غير محترسين، لأنهم كـانوا دومـاً خـائفين، ويراقبـون رجـال العـدو الداهيـة، وقـد هاجموهم والخوذات على رؤوسهم، وهم شـاكي السـلاح وانقضوا عليهم مثـل أسود مفترسـة، وعلى هذا جـرى تبـادل ضربات شـديدة من على الطـرفين بالرمـاح والسيـوف، ومـا من طرف كان سيتـزحزح أمـام الطرف الآخر، لأن كل طرف كـان يتحرق حتى يحكم عليـه أنه الأكثـر شجـاعـة، ولذلك جـرى قتل الكثيرين في الاشتباكـات اليوميـة، وهناك قتل الفارس وليم بن روجـر أوف سينت لورانت، وقـد دفن جسـده في دير القـديس فكتور الشهيـد، وكـان من أصل رفيع، من ذرية أشهر لوردات كوكس Caux ، وكانت شـهرة شجـاعته الواسعـة بالغالب مـوضع تعجب بين أعـظم مقـاتلي لى-تـالو Talou ، وعلى هذا يقود ممارسة فن الحرب العنيف إلى كثير من سفك الدمـاء، وإلى الموت الوحشي لكثير من الشبـاب، حيث تجلب خسارتهم الحزن إلى كثيرين.

وألقى الملك لويس الحصـار على قلعـة دانغـو Dangu ، وضغط بشـدة على القسطلان روبرت مع قـوة كبيرة من الفرنسيين، وبعـد لأي قام القسطلان- بناء على نصيحـة أصدقاء كانوا بين المحـاصرين- بإلقاء

النيران في القلعة، وأحرقها، وركب مغادراً إياها، تاركاً لا شيء فيها للأعداء سوى جمر النيران، وفي الأسبوع نفسه قام هو نفسه مع بعض فرسان غيسور Gisors بغارة ضد الفرنسيين، واستولى على كثير من الأسلاب من تشومنت والقرى من حولها، وعلى كل حال فرح الملك الفرنسي فرحاً كثيراً واغتبط بإحراق دانغو، وحاصر شاتونوف- سور- إبتي، التي كان وليم روفوس قد بناها عند فوسيلمونت Fuscelmont قرب الإبتي، لكنه لم يستطع الحصول على جميع أهدافه، لأن وولتر ريبلارد Riblard وعساكر الملك قاوموا بشجاعة، وبرمي المقذوفات على المهاجمين جرحوا الكثيرين منهم جراحة بالغة، وبعد خمسة عشر يوماً أرسل عموري رسولاً إلى الملك، لإعلامه بإحراق إيفري وبالكوارث الأخرى، وليضغط عليه حتى يرسل مساعدة بأسرع ما يمكن، ولدى سماع الملك بهذه الأخبار، انسحب بسرعة، وبعدما أحرق أكواخه، غادر، مما بعث الغبطة في نفوس أعدائه، وجرح انغورراند أوف تراي Enguerrand of trie الذي كان فارساً عظيم الشجاعة بمرفقه هناك، وبعد عدة أيام فقد عقله ومات بتعاسة.

—١٨—

وفي الوقت نفسه قام الملك لويس بزيارة سريعة إلى فرنسا، وعاد فجأة إلى نورماندي من إيتامبي Etampes جالباً معه كثيراً من الفرسان المحبين للقتال، وفي العشرين من آب استمع الملك هنري إلى قداس في نويون-سور-أندلي Noyon-sur-andelle ، وانطلق للقيام بحملة ضد العدو مع أعيانه الكبار، وزحف ملك أليبون Albion مع رتل جيد من الرجال، وتدبر حصد المواسم حول إيتريباغني Etrepagny من قبل نهابيه الجشعين، وأمرهم بحمل الحزم الكبيرة إلى قلعة ليون على ظهور خيولهم، ومركز أربعة من الفرسان فوق فيركليفي Verclives للقيام بالمراقبة ولمنع القادمين من الخارج من إعاقتهم بأية طريقة من الطرق،

وشـاهد هؤلاء عسـاكـر على رؤوسهم الخوذ مع رايات يتحـركـون نحـو نيون، فأخبروا ملكهم بذلك على الفور، وفي اليوم نفسه غادر الملك لويس أندلي Andely مع أرتال فـرنسية، وهـو يتشكى مراراً إلى رجـاله أنهم لن يستطيعوا قط إبداع وسيلة لمقـابلة ملك انكلترا في ميدان مفتوح، ومن دون أن يعرف كم كـان الملك قريباً منـه، بادر مسرعاً نحو نيـون مع نخبة فرسانه، لأنه كان يأمل بالاستيـلاء على القلعة في ذلك اليوم نفسه بوساطة خيانة كـان قد خطط لها، لكن المسألة أخذت شكلاً آخر مختلفاً تماماً، لأن النصر في المعـركـة قـد حجب عن النظراء المتجبرين المتشـوقين للحـرب، وتملص النصر من المتفـاخرين الذين سيصبحـون فارين مهـزومين، وحث بوتشارد أوف مونتمورنسي Butchard of montmorency مع رجال آخـرين حـذريـن لويس على عـدم القتـال في نورمـانـدي، لكن فـرسـان تشومنت المتمردين أثاروا الملك وحثـوه على القتال، وحاول وليم الحاجب أيضاً أن يمنع هنري عن الدخول بالمعـركة، لكن وليم أوف وارني وروجر أوف بينفيت Bienfaite حثـوه وشجعـوه، ثم أخـذ الرسل يركضــون جيئة وذهاباً، ونشر مروجوا الإشاعات تقارير في كل مكان، وبات معروفاً بشكل مكشـوف بـأن الملكين قـد زحفـا مع قــواتهما، ويمكنهما الالتحـام بالقتال فوراً إذا رغبا.

واقترب الفرنسـيون الآن من نيـون، وأحرقـوا مخـزن حبـوب لرهبان بوسشــــيرون Buscheron (نيــون)، وحصــــل الانكليــــز على معــلومـاتهم من الدخـان المتصـاعــد، وعلى مقـربة من هضبـة اسمهـا فيركليفي Verclives ، وفي ميـدان مفتوح وسهل واسع اسمـه لدى السكان المحليين بريميول Bremule قدم ملك انكلترا نـازلاً إليه مع خمسمائـة فـارس، وسلح نفســه للقتـال كسيــد محارب، وبحكمـة وزع الصفوف المدرعة من المقـاتلين، وكان هناك اثنان من أبنائه وهما: روبرت ورتشارد، اللذان كانا فارسين متميزين، كما كان هناك ثلاثة إيرلات هم:

هنري أوف إيو، ووليم أوف وارني، ووولتر غيفـارد، وإلى جانب هؤلاء كـان روجر بن رتشـارد وأقربائـه، ووولتر أوف أوفي Auffay ، ووليم أوف تانكر فيل Tancarville ووليم أوف رومـاري Roumare ، ونيغل أوف أوبني Nigel of aubigny وعدد كبير آخـر التفوا حـول الملك، وكـل هؤلاء يمكـن مقـارنتهـم مع المراقبين الـرومـان، ومع السيبيـوسيين Sipios أو المارين Maru أو الكاتوين Catos ، لأنهم كانوا متميزين من أجل مكانتهم السيـاسية، ومن أجل مقدرتهم في الفـروسيـة، كما برهنت النتيجة، وحمل ادوار أوف سـالسبري الذي كـان بطلاً شجاعاً، مشهوراً بشجاعتـه المجربة، والذي بقي صامداً حتى موته، حمل اللواء هناك.

وعندما رأى الملك لويس الفرصـة التي تشوق إليها من زمن طويل، حشـد الأربعمائة فـارس الذين كانوا جـاهزين للعمل المباشر، وأمـرهم بالدخول إلى المعركة بشجاعة من أجل شرف الفروسية وحرية المملكة، حتى لايظلم مجد فـرنسـا بجبنهم، وسلح وليم كليتـو بن روبرت دوق نورمـانـدي نفسـه هنـاك حتى يتمكـن من تحرير والـده مـن سجنه الطويـل، ولكي يسترد ميراث آبائه، وكـان ماثيو كـونت أوف بومونت Beaumont ، وغي أوف كليرمـونت، وأوتموند أوف تشـومـونت، ووليم أوف غارلاندي Garlande قـائد الجيش الفـرنسي، وبطرس أوف مـولي، وفيليـب دي مـونتبراي Montbray ، وبوشـــارد أوف مـونتمـورنسي Montmorency ، كـانوا هناك جـاهزين للقـــراع، وبالإضـافـة إلى هؤلاء كـان بودري أوف بري Baudry of Bray ، ووليم كـريسبن Crispin مع عـدد آخـر من النورمان قـد التحقـوا بالنورمان، فلقـد احتشد هؤلاء جميعاً متفاخـرين في بريميول Bremule واستعدوا للقتال بشجاعة ضد النورمان.

ومن المؤكد أن الفرنسيين قاموا بالحملة الشديدة الأولى، لكنهم حملوا

في فوضى، لذلك صدوا، وتعبوا، واندراوا على أعقابهم، وكان رتشارد ابن الملك ومائة من الفرسان جالسين على ظهور خيولهم جاهزين للقتال، وقاتلوا البقية على أقدامهم في الميدان مع الملك، وكان في الطليعة وليم أوف كريسبن ومائة فارس، وقد حملوا على النورمان، لكن خيولهم قتلت بسرعة، واستسلموا جميعاً وانفصلوا عن الجيش، ثم قاتل غودفري أوف سيران Serrans مع الفرسان الآخرين من فكسين Vexin مجدداً بشجاعة، وجعلوا الصف كله يتراجع بعض الشيء، لكن المقاتلين الموسميين استردوا شجاعتهم وقوتهم وأسروا بوتشارد، وأوتموند otmund ، وأوبري أوف مارييل Aubrey of mareil مع كثيرين آخرين من الفرسان الفرنسيين الذين كانوا مترجلين، وعندما رأى الفرنسيون هذا، قالوا للملك:«إن ثمانين من فرساننا الذين كانوا في الحملة الأولى قد ضاعوا، والعدو متفوق علينا بالعدد وبالقوة، والآن بوتشارد وأوتموند مع أبطال نبلاء آخرين قد وقعوا في الأسر، صفوفنا قد تكسرت، ونقصت كثيراً، وبناء عليه، انسحب يا مولانا، نحن نرجوك أن تفعل هذا لتتجنب خسارة لا يمكن جبرها»، ووافق لويس على هذا الاقتراح، وعدا منهزماً مع بودري أوف بويس Baudry of bois ، وأسر المنتصرون مائة وأربعين فارساً، وطاردوا البقية حتى أبواب انديلي Andely ، والرجال الذين أقلعوا متفاخرين على طريق واحد، هربوا الآن في فوضى على طول طرق متنوعة، وشاهد وليم كريسبن- على كل حال- الذي كان محاطاً برجاله-كما وصفت من قبل- الملك، فمرق خلال الصفوف نحو الرجل الذي أبغضه فوق الآخرين، ووجه ضربة قاسية نحو رأسه بسيفه، لكن واقية درع الأمير النبيل حمت رأسه من الإصابة، وصرع روجر بن رتشارد على الفور المهاجم المندفع وألقاه أرضاً، وأخذه أسيراً عندما كان متمدداً على الأرض ،وطرح نفسه فوق جسده، فمنع الأصدقاء الذين كانوا واقفين هناك من قتله في مكانه انتقاماً للملك، وكثيرون- في الحقيقة- استهدفوا

حياته، ووجد روجر صعوبة كبيرة في إنقاذه، ولقد كانت جريمة عظمى هي التي حاولها، عندما كان شاهراً سيفه بيمينه، ورفعه فوق الرأس الذي مسح بزيت الميرون المقدس بأيدي الأساقفة، وتوج بالتاج الملكي، أثناء اغتباط الناس، وغنائهم التراتيل شكراً للرب.

ولقد أخبرت أنه في معركة الملكين تلك، التي اشتبك فيها حوالي التسعمائة فارس، قتل ثلاثة فقط، فلقد كانوا جميعاً لابسين للدروع، ووفروا بعضهم بعضاً من على الجانبين، صدوراً عن الخوف من الرب واحتراماً لرفقة السلاح، وكانوا مهتمين أكثر بأسر الفارين، منهم بقتلهم، وكمسيحيين لم يكونوا متعطشين لدماء إخوانهم، بل اغتبطوا بالنصر العادل الذي أعطي من قبل الرب، لصالح الكنيسة المقدسة، وسلام المؤمنين، وهناك وقع بالأسر- كما حكيت من قبل- الشجعان: غي، وأوتموند، وبوتشارد، ووليم كريسبن، وحملوا لدى العودة إلى نويون، من قبل الجيش العائد إلى هناك في ذلك اليوم، وكانت نويون على مسافة ثلاثة فراسخ فقط عن أندلي، وفي تلك الأيام أخليت المنطقة كلها من السكان بوساطة الحروب المستعرة، ففي منتصف الطريق بين المكانين وقعت تلك المعركة بين الأميرين من دون إنذار، وارتفعت صرخات الحرب عالياً، وعلا صخب القتال وقرع السلاح، وسبب سقوط البارونات النبلاء الرعب والخوف.

وأضل ملك فرنسا طريقه في الغابة أثناء فراره وحيداً، لكن صدفة، التقاه فلاح لم يعرفه، وسأل الملك الرجل بإلحاح، واعداً إياه ومقسماً له، بمنحه جوائز كبيرة، إذا- إما- ما بين له الطريق الأكثر مواءمة إلى أندلي أو إذا رافقه إلى هناك مقابل تعويض مالي كبير، ووافق وثوقاً منه بالدفع المجزي، ورافق الأمير المرتجف إلى أندلي، وفي تلك الأثناء كان لويس خائفاً كثيراً من أن يقوم الرجل الذي سار أمامه، بخيانته، وأن يؤسر من قبل الأعداء الذين كانوا يطاردونه، وعندما شاهد الفلاح أعوان

الملك يخرجون مسرعين من أندلي للقيام بخدمة الملك، شعر بأن الجائزة التي تسلمها، مهما كانت كبيرة، كانت بالحقيقة ذات قيمة صغيرة، ويحزن لام حماقته، مدركاً الخسارة الكبيرة التي عانى منها بإخفاقه بالتعرف إلى الرجل.

واشترى الملك هنري راية الملك لويس بعشرين مارك من الفضة من الفارس الذي استولى عليها، واحتفظ بها كذكرى للنصر الذي أعطاه الرب إياه، وأرسل إلى الملك حصانه في اليوم التالي مع السرج واللجام مع جميع التجهيزات الصالحة لملك، وأعاد الأمير وليم أيضاً إلى ابن عمه وليم كليتو الجواد الذي كان قد فقده في المعركة في اليوم الماضي، وأرسل له هدايا مؤلفة من أشياء أخرى ضرورية إلى المنفي، بناء على اقتراح والده الحكيم، وعندئذ وزع الملك الأسرى بين مختلف القلاع، وبكرم عفا عن بوتشارد وهيرفي أوف غيسور، وعن بعض من الآخرين لأنهم كانوا من أتباع الملكين، وأطلق سراحهم من السجن، وسمح لهم بالمغادرة، ووقع غي أوف كليرمونت الواسع الشهرة، مريضاً في روان، ولأسف الملك الذي كان يحتفظ بهذا المقاتل الشهير بأمان في السجن مات، وأرسل أوتموند الرجل العجوز الشرير إلى أرقوي، وأبقي هناك كما استحق مربوطاً بأغلال حديدية إلى أن أقيم السلام بين الملكين، وكانت الحكايات قد انتشرت حول شروره بعيداً حتى وصلت إلى إيليريا Illyria ، بسبب أنه اعتاد أن يقدم الحماية إلى اللصوص وقطاع الطرق، وأن يكدس الشر فوق الشر، واعتاد أن ينهب الحجاج والناس الفقراء، والأرامل والرهبان الضعفاء والكهنة، الذين عذبهم بطرق متنوعة من دون خشية.

وألقى بطرس أوف مولي وبعض الفارين الآخرين الشارات والزينة لتجنب التعرف إليهم، وبدهاء اختلطوا بالمطاردين، رافعين أصواتهم بصرخات حرب المنتصرين، معلنين عظمة الملك هنري ورجاله مع تظاهر بالمديح.

وطارد روبرت أوف كورسي الأصغر الفرنسيين حتى البلدة، حيث أسر من قبل الرجال الذين كانوا راكبين معه، والذين ظنهم أنهم من أتباعه الجنود، وكان هو وحده من النورمان الذي وقع بالأسر، وألقي به بالزنزانة، ليس بسبب أنه أظهر جبناً، بل بسبب أنه كان وحيداً في بلدة معادية، محاطاً بكثيرين من الأعداء.

وانتشرت أخبار المأساة التي عانى منها الفرنسيون في نورماندي بالطول والعرض، وحكيت في جميع بلدان شمالي الألب مع الآهات أو الابتسامات، واكتسى المتكبرون بالخجل، وفكر المحاربون الذين قاتلوا بالمعركة بجميع أنواع الأعذار للإجابة على متهميهم، وروى مختلف الناس كذباً متنوعاً لإبعاد المهانة والعار عن أنفسهم.

## —١٩—

وقام الملك لويس الذي كان حزيناً بسبب المائة والأربعين الذين قادهم إلى نيون بمعنويات عالية، ووقعوا بالأسر، بالانسحاب إلى باريس، وأما عموري الذي لم يشارك بالمعركة فقد زاره هناك ليشاطره أساه، وعندما كان الملك يندب أسر رجاله وفرارهم، ويبحث مختلف القضايا، قال له عموري:« مولاي ينبغي أن لا تشعر بعدم الشجاعة بسبب الهزيمة، لأن مثل هذه الأشياء هي من حظ الحرب، وغالباً ما تقع إلى أعظم الأباطرة وأكثرهم شهرة، الحظ هو مثل دولاب متحرك، في ساعة يرفع رجلاً إلى الأعلى، وفي ساعة أخرى يرميه إلى الأسفل، وبشكل مقلوب يرفع الإنسان الذي تمدد على الأرض، وديس في الرغام، بكرم أعظم مما كان يأمل، والآن، بناء عليه عندما تمعن التفكير حول الثروة العظيمة لغاليا، وتجمع مواردها الهائلة من جميع الجهات، انهض عالياً لترميم الضرر الذي لحق بكرامتنا وبقوتنا، وسر على الطريق الحكيم الذي أنا أوصيك به الآن، دع الأساقفة والكونتات والأعيان الآخرين لمملكتك يأتون إليك، واجعل الكهنة مع جميع رجال أبرشياتهم

يذهبـون معك إلى حيثما تأمـر، وبـذلك إن جيشـاً يضم الجماعـة كلهـا، يمكنه أن ينزل عقوبة جماعية على الأعداء المعلنين، وأنا شخصياً الذي لم أشارك في الحملة الحاليـة، سوف أكون هناك مع رجـالي وسوف أعطيك المشورة والمساعدة وكذلك المرافقة الآمنة.

لقـــد حصنـت ديراً في سينتراي Cintrai ، حيث والشلين أوف تاني Walchelin of tannei ومـرافقين آخـرين مخلصين ينتظرونني، وهـم يتـولون حفظ جميع المنطقة هناك ضـد حـامية بريتـويل، ولسوف نحتشـد هناك بأمـــان، ومن هناك ســـوف نهاجم بريتـــويل، التي هـي في قلب نورمـاندي، وإذا ما نجحنا في الاستيـلاء عليها، سوف نسترد يـوستاس- الذي حـرم من ميراثـه- إلى جـانب قضيتنا، وكـذلك ســوف ينضم إلينا ويلتحق بنا حفيـدي رالف أوف كـونشي مع جميع أتبـاعـه وقلاعـه، فهـو يمتلك قلاعاً حصينة هي: كونشي، وتوسني Tosny ، وبورتي Bortes ، وأكـويني Acquigny ، والبـــارونات المخلصين يقبلون سيـــادته، وهم سوف يزيدون عـددنا زيادة كبيرة إذا ما جـاء هو وحده وانضم إلينا، وهو الآن مهدد كثيراً من بريتـويل، وفي الوقت الحالي لايقدم لنا التـأييد لأنه لا يتجرأ، لخوفه من أن جميع بلاده سـوف تتعرض للنهب على الفور»، وفرح الملك كثيراً وتشجع بهذه الكلمات، وأمـر بعمل كل شيء اقترحـه الكونت عموري، وبعـث برسل مستعجلين لإيصال مـرسومـه إلى الأساقفـة، وقد أطاعوه على الفـور، وأعلنوا الحرمان الكنسي ضد الكهنة وأبرشيـاتهم ما لم يسرعـوا للمشـــاركـة في حملـة الملك في الوقت المحــدد، حتى يتم سحق العصاة النورمان مع جميع قواهم.

وهكذا انطلـق رجـــال بيرغندي، وبيري Berry وأوفــــــــرين، والسين، وباريس، وأورلين، وفيرمـــاندوي Vermandois ، وبوفـــاي Beauvais ، ولاون Laon ، وإيتـــــامبـي Etampes ، مع آخـرين كثـر، انطلقوا خـارجين مثل ذئـاب متشـوقة إلى فـرائسهـا، وفي

الساعة التي خرجوا فيها من بيوتهم، بدأوا بالاستيلاء على كل شيء تمكنوا منه، حتى في مناطقهم، فقد كانوا جنساً متمرداً، غير مستقر، جشع للنهب، وبإثم نهب أفراده الكنائس على طول الطريق، وأساءوا معاملة الرهبان والكهنة في المناطق القريبة منهم، وكأنهم كانوا أعداءهم، ولم تمارس أية عدالة ملكية بين هؤلاء المجرمين، وكانت السلطات الأسقفية معطلة كلياً، وكل إنسان فعل كل ما حدث ورغب بفعله بجور، وكان أسقفاً نيون، ولاون وعدد كبير آخر مع الجيش، وبسبب كراهيتهم للنورمان قد أطلقوا العنان لجرائم رجالهم، وسمحوا حتى للأماكن المقدسة بأن تدنس تحت حجة السلطة الكنسية، وقد اعتقدوا أنهم بعملهم قوادين لعساكرهم بمختلف الطرق يمكنهم أن يزيدوا أعدادهم، وبإفساحهم الطريق إليهم، دونما تقدير لخطأ أو صواب، يمكنهم أن يرفعوا من درجة انفعالاتهم وثائرتهم ضد أعدائهم.

وهكذا اقترب الملك لويس من بريتويل مع أفواج كثيرة جداً من: بيروني Peronne ، ونسلي Nesle ، ونيـــــون، وليلي Lille ، وتورناي، وأرّاس، وغورناي، وكليرمونت، ومن جميع مقاطعات غاليا، وفلاندرز، مع هدف استرداد أملاك يوستاس، وإعادة آخرين كانوا بالمنفى بسبب الإخلاص إلى وليم المنفي، إعادتهم إلى مراتبهم السالفة، وخرج رالف البريتاني بجرأة للتصدي لهم مع أفواجه، واعتقل طليعتهم بوساطة القتال بشجاعة، وأنزل بهم خسائر كبيرة بضربات رهيبة من الرمح والسيف، وأمر بفتح جميع أبواب الحصن، لكن مع أن الأبواب وقفت مفتوحة باتساع، ما من واحد من الأعداء غامر بالدخول، لأن قوة المقاومة المدهشة صدتهم ورمتهم بعيداً، وكان القتال حاداً جداً حول ثلاثة أبواب، وكثير من الأبطال المحاربين من الجانبين صرعوا.

وعندما علم ملك انكلترا بأن الفرنسيين عادوا ثانية إلى نورماندي، بعث بمائتي فارس مع ابنه رتشارد لمساعدة رالف أوف غايل، وعين

رالف الأحمر ورولان أوف أفـرانشي، اللذان كـانا شجـاعين ورجلين نشيطين، قـائـدين لهم، وهكذا وصلت قـوات بطانة الملك عندمـا كـان القتـال في ذروته، ولدى مشـاهدتهم مـن قبل القـوات الفـرنسيـة، التي كـانت قـد لحقهـا التعب، بـدأت هذه القـوات تضطرب، وكـان رالف المشهور يتنقل مسرعاً من باب إلى بـاب، مغيراً بشكل متواصل شعاراته وأسلحتـه حتى يتجنـب الملاحظة وقـد صرع في ذلك اليـوم عـدداً من الأبطال المتميزين، وعندما جرى تـرجيل الفرسان، أعطى بكرم خيولهم إلى المحتاجين من الرفاق، وبذلك كسـب ثناء عالياً ودائماً لما اتسم به من فروسية، مما جعله متميزاً بين أعظم المقاتلين وأشهرهم.

وقـام فلمنكي وسيم وشجـاع بصرع رالف الأحمر، ولوقـا لى-باري Barre مع فرسان آخرين شجعان وتظاهر بالفخار وهو يقود خيولهم، دون أن يمتلك الذكاء حتى يتجنب المصير المحـزن الذي كان ينتظره، فقد حمل على البريتـاني الذي لايهزم بطريقتـه المعتـادة، ظاناً إياه جندياً عـادياً، لكنه أصيب من قبله بجـراحـة مميتـة، وسقط على الفـور، وأخـذ أسيراً، ومات بشكل معلن بعد مضي خمسة عشر يوماً في زنزانة بريتويل.

وسار ملك انكلترا على إثر ابنه رتشارد وبقية عساكر طلائعه مع قوة كبيرة، ليقـاتل مـرة ثانيـة ضـد آلاف الفـرنسيين، إذا مـا وجـدوهم في أراضيه، لكنهم وهم الذين جاءوا ليحصلوا على القلعـة بوساطة حصار طويل، رأوا أن هذه الآمال العـريضة التي جاءوا من أجلها قـد تبخرت في ذلك اليـوم نفسـه، وأرغمـوا على الانسحـاب إلى فـرنسـا مع العـار والخسـارة، وهكذا قـاد الرب بحكمـه العـادل الكهنة عـائـدين مجللين بالعار، وقد استـولى عليهم الرعب، والخسارة، والأسف، والاضطراب، لأنهم وهم الذين توجب عليهم استخدام القيود الكنسية لحماية الأماكن المقدسـة، قامـوا آثمين بالتخلي عنهم حتى يتدنسـوا ويتلوثوا، ويقعوا في أيدي الوحوش.

ثم إن وليم أوف تشومونت الذي كان ختن الملك ومعه حوالي المائتين من الفرسان الشباب المتكبرين، اعتراهم الغضب بسبب إخفاقهم في بريتويل، فانحرفوا جانباً نحو قلعة تيليري Tillieres على أمل نيل بعض المكاسب أو المجد لأنفسهم، لكن غيلبرت قسطلان تيليري كان متخفياً في كمين لهم مع أتباعه، وأبقى الممرات محروسة ليمنع الغزاة من العيث فساداً في إقطاعيته وأراضيه، وفي أثناء سير الفرنسيين انقض عليهم من دون سابق إنذار، وأسر وليم ختن الملك، وقد تسلم فيما بعد فديته مبلغ مائتي مارك فضي، وأخذ أيضاً أسرى عدداً من رفاقه، وطارد البقية وهم مجللين بالعار.

وهكذا فإن فرنسا، عندما شاهدت تبدد فخار أبنائها بكت بحزن، وهي تفكر ملياً بالانتكاسات التي عانت منها مؤخراً في نورماندي، التي تبرهن أنها مؤذية ومحزنة بالنسبة للأجيال المقبلة، هذا واغتبط الملك هنري المحب للسلام بحظه السعيد، فلصالحه سمع الرب برحمة صلوات الكنيسة، وكأب لطيف منحه عدداً من الانتصارات على أعدائه، وعاد الازدهار فابتسم له، وعمل هزة وحشية رسمية مع خوف، وأرغم أعداء الدولة على ندم مرير من أجل أعمالهم غير الناجحة.

—٢٠—

في السابع عشر من أيلول أسر رتشارد أوف ليغلي Laigle أودو، واستولى على كميات كبيرة من المنهوبات من سيساي Cisai ، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي وصل فيه الملك لويس إلى بريتويل مع آلاف كثيرة، وأخفق في تحقيق أي شيء غير العار والخسارة، وفي تلك الحملة عمل الشاب ريشير Richer شيئاً يستحق التذكر إلى الأبد، عندما كان سكان الريف من غاسي Gace والقرى المجاورة يسيرون خلف المغيرين، وكانوا يخططون لإعادة شراء حاجياتهم أو استردادها بطريقة ما، استدار الفرسان المتحمسون وحملوا عليهم، وعندما استدار

هؤلاء على أعقابهم فـارين تابعـوا مطاردتهم، ولم يمتلك الفـلاحـون وسائل للدفاع عن أنفسهم ضد الفوج المدرع، ولم يكونوا على مقربة من أية قلعة حيث يمكنهم الفرار إليها والالتجاء فيها، لكنهم وجدوا تمثال المصلوب على طرف الطريق، فألقـوا جميعاً بأنفسهم على الأرض أمـامه، ولدى مشـاهدة ريشير لهذا انفعل وخـاف من الرب، وللمحبـة الحلوة لمخلصـه، احترم- كما توجب عليـه- صليبـه، وأمـر رجـاله بترك جميع الفلاحين المرعوبين، وأن ينصرفوا لإكمال رحلتهم التي انقطعت، خشية منه أن يعاق بطريقـة ما، وهكذا قام هـذا الرجل الشريف في خوف منه من خالقه، بعدم التعرض لحوالي مائة قروي، منهم كان يمكنه استخراج سعـر كبير، لو أراد من دون احترام، أن يأسرهم، وتصالح في الأسبـوع نفسـه مع الملك بوساطـة خاله(عمـه) روترو Rotrou ، واسترد جميع أراضي أبيه في انكلترا وفي نورماندي.

ثم دخل الملك منطقة أوشي Ouche مع جيشه، ونزل على أعدائه الذين كـانوا مستحـوذين على غلوس Glos ، ولاير Lire ، وفي ذلك الوقت كان روجـر بن وليم بن بارنون Barnon مستحوذاً على قلعة غلوس Glos ، وكان أرنولد أوف بيوس-أرنود Bios-arnaud القسطلان في قلعة لاير، وعندمـا شاهد أن القوة الملكية قـد نزلت كلها أمامهـا، وأنه ليس هناك من أمل بوصول أية مسـاعدة على الإطلاق من عند يوستـاس وعمـوري، تشـاوروا مع رالف، الذي كـان واحـداً من جيرانهما، ومن خلال وساطته تمّ عقد سلام مقبول لنفسيهما، مع الملك، وسلماه القلعتين اللتـان دافعـا عنهما بإخـلاص لمدة طويلة، وأعـاد الملك هاتين القلعتين إلى رالف أوف غايل Gael ، وبعدما أعاد السلام إلى منطقة أوشي عاد إلى روان، حيث قدم الشكر إلى الرب.

وقام في الوقت نفسه رالف أوف غـايل، بسبب أنه كان لايثق برالف أوف كونشي Conches ، ولم يكن باستطاعتـه زيارة إقطاعـاته عبر

نهر السين، إلا بالعبور خلال أراضي الآخرين، قام بأخذ نصيحة الملك وأعطاه بونت-سينت-بير، وجميع وادي بيتري Pitres ، حتى يؤمن إخلاصه لنفسه وليضمن أنه سوف يدافع عن الدولة ضد الأعداء المعلنين بجميع قواه، كما عهد بإيجار قلعة غلوس إلى رالف الأحمر، الذي وجده رجلاً لا يستغنى عنه بكثير من السبل، ومن المتوقع الاعتماد عليه في المستقبل.

—٢١—

وصل في منتصف تشرين الأول البابا كاليكستوس إلى الرايمز مع جميع مجلس الكرادلة الروماني، ومكث هناك لمدة أربعة عشر يوماً، وعقد مجمعاً، بحث فيه بإخلاص حول إجراءات من أجل مصلحة الكنيسة مع رعاة قطعان الرب، وكان بين الحضور خمسة عشر رئيس أساقفة ومائتي أسقف مع كثير من رعاة الديرة ومن أعيان الكنيسة الآخرين، حيث أنهم جميعاً تمت دعوتهم بناء على الأوامر البابوية من: إيطاليا، وألمانيا، وغاليا، واسبانيا، وبريتاني، وانكلترا، ومن جزر المحيط، وجميع مقاطعات الغرب، وقد اجتمعوا مع بعضهم في سبيل محبة المخلص، متشوقين لإطاعة أوامره، وبادر رئيس أساقفة مينز مسرعاً إلى المجمع الكنسي في الرايمز مع سبعة من الأساقفة، تحت حماية وحدة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس، وارتفعت معنويات البابا لدى سماعه أخبار قدومهم، فبعث هيوج كونت أوف تروي Troyes مع قوة من الجنود لاستقبالهم والترحيب بهم.

وبعد لأي وافق ملك انكلترا وسمح لأساقفة مملكته بالذهاب إلى المجمع، لكنه منعهم بدقة من إحضار أية دعاوى ضد بعضهم بعضاً، وقال:« إنني سأقيم عدالة كاملة إلى أي واحد يرفع شكوى في بلادي، وأنا أدفع في كل عام إلى الكنيسة الرومانية المبلغ المفروض من قبل أسلافي، ونظير ذلك أنا متمسك بالامتيازات الممنوحة إليّ بالطريقة

نفسها من الأزمان القديمة، اذهبوا وقدموا التحية إلى البابا باسمي، وأصغوا فقط إلى الوصايا البابوية، لكن لاتسمحوا بإدخال بدع جديدة إلى مملكتي»، وعقد المجمع في الكنيسة الكاتدرائية، وهناك أنشد البابا قداساً في يوم الأحد التاسع عشر من تشرين الأول، ورسم ثورستان أوف بايو Thurstan of bayeux رئيساً لأساقفة يورك مخولاً إياه بموجب مرسوم أنه لا ينبغي أن يكون خاضعاً لمطران كانتربري خضوعه كسيد له، بل فقط كأسقف رفيق، وفي يوم الأحد التالي بارك فريدريك، أخي هيرمان كونت أوف نامور Namur ، كأسقف لمدينة لييج، وفي أقل من ثلاثة أعوام هو مات مسموماً من قبل منافسيه، وتم الإعلان الآن عن قداسته بوساطة معجزات جرت عند ضريحه.

وجرى إجلاس أساقفة شير Chairs أمام المصلوب في كنيسة العذراء مريم المباركة في الحادي والعشرين من تشرين الأول، وجلس المطارنة الأفراد وفقاً للسابقة المؤسسة منذ العصور القديمة، بموجب مرسوم بابوي، ومثّل رالف لى فيرت Ralph le levert رئيس أساقفة الرايمز، وليغر أوف بورجي Leger of bourges وهمبرت أوف ليون، وغيوفري أوف روان، وثورستان أوف يورك، وديمبرت أوف سين Sens ، وغيلبرت أوف تور، وهيلدبيرت أوف لامانس الذي كان سيخلفه، وبودري أوف دول Baudry of dol ، وثمانية رؤساء أساقفة آخرين مع نوابهم، ورسل الذين كانوا غياباً، وكذلك كثيراً من رؤساء الديرة، وحشد من الرهبان والكهنة، مثلوا توقع القضاء المستقبلي، الذي رآه أشعيا في الروح، وأشار إليه بالرمز بإصبعه عندما صرخ مع شعور بالويل، وبديهة حادة قائلاً:« الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم» [أشعيا: ٣ / ١٤].

وكان مكان جلوس البلاط البابوي العالي أمام أبواب الكنيسة، وبعد اكتمال إقامة القداس، أخذ البابا كاليكستوس مقعده، وجلس في الصف

الأول أمامه أعضاء الإدارة البابوية وهم: كونو Cuno أسقف باليسترينا Palestrina ، وبوسو أوف بورتو Boso of proto ، ولامبيرت أوف أوستيا Ostia ، وجون أوف كريما Crema ، وأوتو أوف فيفيري Viviers ، وتناقش هؤلاء الرجال الفائقي المعرفة حول نقاط القانون بذكاء أعظم من جميع الآخرين، وقدموا إجابات كاملة، وكان الشماس كريسوغونوس Chrisogonus مرتدياً ثوباً كهنوتياً، واقفاً إلى جانب البابا ممسكاً بيده مجموعة من القوانين، ومستعداً لتلاوة الأحكام الأصيلة للآباء حسبما اقتضاه العمل، ووقف ستة من الأعوان الآخرين من حوله مرتدين المآذر أو الثياب كهنوتيه، وكانوا يفرضون الصمت في كثير من المناسبات، عندما ترتفع ضجة عدم الموافقة.

وأولاً وقبل كل شيء، بدأ البابا بعد الابتهالات والصلوات المكتوبة، يشرح ببساطة وتقوى باللاتينية أنه عندما جاء المساء، هبت ريح مضادة، وسفينة الكنيسة المقدسة كانت في خطر بين أمواج هذا العالم، تتأرجح إلى هنا وهناك بوساطة العواصف من كل نوع من أنواع المحن والبلايا، غير أن الرياح الثائرة لغير الربانيين توقفت فجأة عند قدوم المخلص، وعاد الهدوء المتشوق إليه إلى أبناء السلام، وما أن أنهى البابا كلامه حتى نهض الكاردينال الأسقف كونو، وببلاغة عظيمة خاطب الأساقفة المقدسين حول معالجة النفوس، واقتبس من الذاكرة كلمات يعقوب من سفر التكوين، وأكد على أنه ينبغي على أساقفة الكنيسة أن يكرسوا العناية الروحية نفسها لرعاية القطيع، مثلما أظهر يعقوب نحو أغنام خاله لابان.

وجاء الملك لويس مع الأمراء الفرنسيين، وصعد إلى البلاط البابوي حيث كان البابا جالساً فوق الجميع، وتقدم بشكوى بشكل صحيح، فقد كان فصيحاً في الكلام، طويلاً في البنية، شاحباً وبديناً، وقال:« أنا قدمت إلى هذا المجمع المقدس مع باروناتي، طالباً الإرشاد، أرجوكم يا

مـولاي البـابا ويا قـادة الكنيسـة، أن تصغـوا إلي، اقترف ملك انكلترا، الذي كـان حليفـاً لي لوقت طويل، بحقي كثيراً مـن الأخطاء، وسبب اضطراباً عظيماً لي ولرعيتي، فقـد غزا بعنـف نورماندي، التي هي جـزء من مملكتي، وعـامل روبرت دوق نورمـاندي بوحشيـة من دون إقـامـة تقـدير للعدل والحق، وآذى واحـداً من أتباعـه وأتباعي الذي هو أخـاه ومولاه، بكثير من الطرق، وأخيراً بعدما اعتقله، احتفظ به لسنين طوال في السجن، حتى هذا اليوم، انظروا، ها هو هنا وليم، ابن الدوق، الذي رافقني إلى حضرتكم، والذي جرد تماماً من ميراثه ودفع إلى المنفى، وقد بعثت أسـاقفة، وإيرلات وأشخـاصاً آخـرين إليه حتى يعيـد إليّ الدوق الأسير، ولم أنجح أبداً في الحصول على أية ترضية منه بشأن هذه المسألة، وقـد اعتقل روبرت أوف بيليم الذي كـان رسولي، ومن خـلاله جعلتـه يبلغ رغباتي إلى الملك وإلى بلاطه، فألقـاه بالأغلال، واحتفظ به مسجوناً ومضيقـاً عليـه في زنزانة كئيبـة، وثـار الكونت ثيـوبولـد الذي هو من أتباعي بشكل ظالم ضدي بناء على إثارة خاله(عمه) له، فلقد تجاوز حده من خلال ثروته وقـوته، فثار ضدي، وخرق ولائي، وشن حـرباً مريرة ضـدي، فسبب هيـاجـاً كبيراً وكثيراً من الآلام في مملكتي، وقـد اعتقل وليم كونت أوف نيفري، الذي هو رجل مخلص وصـالح، أنتم تعرفونه جيداً، اعتقله عنـدما كان عـائداً من حصـار قلعة واحـد من اللصوص كـان محرومـاً كنسيـاً، والتي كـانت بـالفعل وكـراً لقطاع الطرق، وبؤرة للشيطان، واحتفـظ به سجيناً حتى هـذا الوقت، ووقف الأسـاقفـة المقدسـون بحق ضد تومـاس أوف مارلي Marle ، الذي كان رئيس عصابة متمـرد، أرعب المنطقة كلها، وقد سألوني أن أحـاصر هذا العدو العـام للحجـاج وللرعـايا البسطاء، وهـم أنفسهم التحقـوا بي ومع البارونـات الفرنسيين المخلصين لسحق الخارجين على القانـون، وللقتال في سبيل قضية الرب العادلة مع الجمـع العام للجيش المسيحي، وعندما كـان الكونت الذي أنا أتحدث عنه، عائـداً بسلام من ذلك الحصـار بناء

على إذني له، اعتقل، ومـازال موجوداً في سجن ثيـوبولد حتى الآن، مع كثير من النبـلاء عملوا وكـالة عني وبتكليف مني طلبـوا منه مـرارا وتكراراً وبتـواضع أن يطلق سراح الكونت، وجميع أراضيه قـد وضعت تحت الحرمان الكنسي من قبل الأساقفة».

وعندمـا قـال الملك هذا وزيادة للهـدف نفسـه، وقـام الفـرنسيـون المجتمعـون بالشهادة على صـدق خطابه، وقف غيوفـري رئيس أساقفـة روان مع أسـاقفتـه المسـاعـدين ورعـاة الديـرة، وبدأ يرد لصـالح ملك انكلترا بطريقة صحيحـة، غير أنه توقف عن الكلام عندما غـرق صوته بين أصـوات عدم الموافقـة التي تفجـرت، بسبب أن الدفـاع عن الأمير المنتصر لم يكن مقبـولاً من قبل كثير من أعـدائه الذين كـانوا حـاضرين هناك، وفي الوقت نفسـه وصلت هيلديغـريد Hildegrade كـونتسـة بواتو مع حـاشيتها وتقدمت وقـدمت شكواها بصوت مـرتفع وواضح وببـلاغـة، وهي الشكوى التي استمع المجمع كله إليهـا بعناية، وقـالت بأنها هجـرت من قبل زوجها، وأن مـالبيرغ Malberge زوجة فيـزكـونت تشـاتلرولت Chatellerault قد حلت محلها في فراشه، وعندمـا سأل البـابا عما إذا كـان كـونت بواتو قـد وصل إلى المجمع استجـابة لاستـدعـائه، نهض وليم الأسقف الشـاب الفصيح لسينت Saintes ومعه عدة أساقفة آخرين ورعاة ديرة من أكوتين، وشرعوا في تقـديم الأعـذار عن دوق أكـوتين، وادعـوا بأنـه انطلق للقـدوم إلى المجمع، لكنه تأخر بسبب المرض، وحبس وهو على الطريق، وفي النهاية قبل البـابا عذر المرض، وأجل القضيـة، وعين موعداً محدداً توجـب فيه على الكونت القـدوم والإجابة في البـلاط البابوي، وأن عليـه إما إعـادة زوجتـه الشرعيـة، أو الوقـوع تحت قـرار الحرمـان الكنسي لطلاقـه لها بصورة غير شرعية.

وبعـد هذا رفع أودين الملتحي أسقف إيفـري دعـوى ضد عمـوري،

فقــد اشتكى بأنه طرده بشكل تآمــري واقترف الإثم بإحــراقـه المقــر الأسقفي، وتولى واحـد من شمامســة عمـوري الرد عليـه فـوراً بشكل معلن، وبجـرأة رفض التهمة، وادعى بوضـوح بأن الأسقف كان كـذا، وذلك على مسمع من جميع رجال المجمع، وقال:« إنه ليس عموري، بل شروركِ هي التي أخـرجتك وطـردتك، وبشكل محق أيضـاً، وأحـرقت مقرك الأسقفي، والحقيقـة أنه هو الذي جرد من أمـلاكه من قبل الملك بسبب كـذبك التآمـري، وقـد استرد مرتبتـه الشرعيـة كفارس شجـاع، يستحق المباركة بالسلاح ومن الأصـدقاء، وعلاوة على ذلك ألقى الملك الحصار على البلدة مع كثير من جنوده، وألقى النار فيهـا بناء على أمرك، وأحـرق جميع الكنائس والبيـوت معـاً، وبعـد إكماله لعمل التـدمير هذا انسحب، ولم يستطع بعــد الاستيـلاء على قلعـة أو مــدينة، وليقم هذا المجمع المقـدس بالتقدير والحكم على من يستحق الإدانة أكثـر من أجل إحـراق الكنائس: أوديـن، أم عمـوري»؟ وبما أن الفـرنسيين وقفـوا إلى جانب عموري ضد النورمان، ارتفعت ضجة كبيرة، مع كل واحد وهو يتكلم في الوقت نفسه، وأخيراً بعـدما تمت استعـادة الصمت تكلم البابا كما يلي:« أحبائي الأعزاء، أرجـوكم لا تضيعوا أصواتكم في هذا الجدال الفارغ، بل استخدموا جهـودكم لإيجاد سلام، بمثابة أنكم أبناء حقيقين للرب، إنه كان من أجل السلام أن ابن الرب نزل من السماء، وبموجب رحمته ارتدى جسداً إنسانياً، حيث ولد من عذراء نقية هي مريم، وذلك حتى يتمكن بآلامه أن يضع نهاية للحـرب القاتلة التي تأصلت في ذنب الإنسـان الأول، وأنه بعمله كوسيـط، يمكنه أن يعيد السـلام بين الرب والإنسان، ويصالح طبيعـة الناس مع الملائكة، ونحن الذين جديرين أن نكون نوابه بين شعبـه علينا أن نتبعـه في جميـع مـا نفعله، دعـونا نكافح لتأمين السـلام والخلاص لرجـاله بكـل سبيل، لأننا نحن القســاوسـة وخدم قساوسة الرب، وأنا أعني برجال المسيح الشعب المسيحي، الذين فــداهم بثمـن دمــه، والذي يمكنه أن يقـف وسط هيجـان الحرب في

اضطرابات العالم، ربما يمكنه أن يصرف تفكيره نحو الأشياء الروحية، أو ينصرف- كما ينبغي أن يفعل- للتأمل حول كلمة الرب، ويثير العصاة المسلحون الناس العاديين ويدمرون ولاءاتهم، مسببين ضياعهم حتى موتهم على طول المسالك المنزلقة للشرور والآثام المميتة، وزيادة الجرائم اللا ربانية الكثيرة، وهذا يزعج رجال اللاهوت كثيراً، وفي كثير من الطرق يصرفهم عن أداء واجباتهم الدينية، ويرعبهم أثناء تلاوتهم للقداسات، ويعذبهم بصورة وحشية، وذلك بفقدانهم لمداركهم، وهم أيضاً يتلبسهم الخوف فلا يعودوا يعرفون ماذا يفعلون، وهذا يزعج كثيراً ويلغم النظم الرهبانية، ويغرق الناس بعدم الارتباط بالمبادىء والنظم، بل بالانغماس بجميع أنواع الشرور، وهكذا ضعفت السلطة الكنسية، وانتشر الإهمال المدان في كل مكان، وشرف الإحسان معرض للخطر بشكل محزن، وتشامخ جنون الشر بالخارج بشكل غير اعتيادي، وفي كل يوم يجري التقاط جيش من المذنبين للإلقاء في تعاسة الجحيم، وبناء عليه إن السلام، الذي نحن نعترف به بأنه الحاضن للأشياء الجيدة، هو الشيء الذي ينبغي أن نرعاه من دون تهاون في كل مكان وبكل وسيلة، وأن نحافظ عليه دونما نقصان، وأن نفرضه على جميع الناس، وأن نبشر به بالكلمة والمثل، فالمسيح نفسه، عندما اقترب ميعاد آلامه، أوصى بهذا إلى حوارييه قائلاً:« سلام أنا أترك معكم، وسلامي أنا أعطيه لكم»، وهذا هو الشيء نفسه قد ردده عندما قام من الموت قائلاً:« سلام معكم»، والاستقرار العظيم والأمن والهدوء يكونان موجودين حيث يحكم السلام، والحزن، والبلاء المخيف، والرعب كل هؤلاء يجري التهامهم بالغضب، وينشطون بوساطة الخلاف.

السلام هو صفاء ورباط مبارك يربط الناس الأحياء مع بعضهم، والخير العام لجميع المخلوقات العاقلة، التي قامت الأرواح المباركة بربطها بشكل سرمدي، تتمتع مع بعضها، وتحتاج الكائنات البشرية

حاجة ماسة لأن تتحد بأربطة مماثلة، من دونها نجد المتمردين هم أنفسهم يخافون، والناس منهم يخافون، وبالتالي لا يتمتعون مطلقاً بالأمن، بل هم غير سعداء ويعانون من الاضطراب، وهذه الفضيلة التي أنا أرغب بها، والتي بموجب سلطة الكتابات المقدسة، والاستحسان العام، وفي سبيل الخير العام، أطريها أنا شخصياً فوق كل شيء، ولسوف أسعى بنشاط في سبيل طلبها بكل ما أوتيت من قوة، ونشرها في الخارج خلال كنيسة الرب كلها بمساعدته، وأنا آمر بمراعاة هدنة الرب حسبما أقامها البابا أوربان صاحب الذكرى المباركة في مجمع كليرمونت والتقيد بها، وأما بالنسبة لبقية القوانين التي جرى التصديق عليها من قبل الآباء المقدسين، فأنا أثبتها بوساطة سلطة الرب، والقديس بطرس الرسول، وجميع قديسي الرب، ولقد دعاني امبراطور الألمان للذهاب إلى القلعة في موزون Mouzon ، وهناك سوف أقيم سلماً معه لصاح الكنيسة أمنا المقدسة، وأنا سوف أذهب الآن من دون تقاعس، ولسوف آخذ معي تابعي أسقفي الرايمز وروان، وبعض الآخرين من بين إخواننا والذين هم جميعاً إخواننا وأتباعنا الأساقفة، الذين أنا أعدهم أنهم ضروريين جداً في هذه القضية، وأنا آمر جميع الأساقفة الآخرين ورعادة الديرة الانتظار هنا حتى عودتنا، التي سوف تكون بعون خالقنا، سريعة بقدر ما هو ممكن، وأطلب منكم جميعاً البقاء هنا، وأن لاتسمحوا حتى لغيوفري راعي دير القديس ثيري، بالمغادرة، مع أن ديره قريب جداً صلوا لصالحنا، في أن يمنحنا الرب مولانا رحلة ناجحة، وبرعاية أن يوجه جميع جهودنا نحو السلام، ونحو فائدة الكنيسة كلها، وعندما أعود سوف أقوم بعون الرب، بالبحث بعناية ودقة في جميع شكاويكم والتماساتكم، بقدر ما أستطيع من عدالة، حتى يعود هذا المجمع المقدس إلى الوطن بسلام وغبطة، ثم إنني سوف أذهب لزيارة ملك انكلترا، الذي هو ابني الروحي وقريبي القريب، وبصلواتي وتشجيعي سوف أحثه هو وابن أخته الكونت ثيوبولد، والمختلفين الآخرين، على عمل

العـدالة وتقديمهـا إلى الجميع، ومثل ذلك تسلمها من أجل محبـة الرب، وعندمـا يكونـوا قـد تصـالحوا وفقـاً لشريعـة الرب بـالابتعـاد عن جميع الصراعات الحربيـة، يمكنهم أن يتمتعوا بالسـلام والهدوء مع الناس من رعاياهم، وأمـا بالنسبة لأولئك الذين يرفضون إطاعة وصـايانا، وبتمرد يصرون على معـارضتهم العنيدة للعـدالة والسلام العـام، سوف أفـرض عليهم قراراً مرعباً بالحرمان الكنسي، ما لم يقوموا بالتخلي عن شرورهم، وبالتكفير تمام التكفير عن جرائمهم وفقاً لقانون الشريعة»، وعندما أنهى خطابه ارفض اجتماع المؤمنين.

وفي اليوم التالي، الذي كان يوم أربعاء انطلـق نحو موذون مع حاشية متميـزة، وعـاد يوم الأحد التـالي إلى الرايمـز وهو مـرهق ومـريض من المتـاعب والخطر، وفي تلك الأثنـاء انتظر حشـد كبير من الأعيـان بصبر وتشـوق عودة البـابا، وكان الذين جـاءوا من مناطق نائية بناء على أمـر البـابا، كـانوا يستعملون مـواردهم من دون غـايةَ طَالما جلسـوا كسـالى هناك، وأسفـوا لانقطـاعهم عن إدارة كنائسهـم وديرتهم، وبعـد لأي، عندمـا عـاد البابـا، عقد جلسـات المجمع لمدة أربعـة أيام، وتعـامل مع مختلف قطع الأعمال من كنائس مختلفة.

وفي يوم الاثنين، بعـدما أخـذ البـابا مقعـده، نهض جون أوف كـريما الذي كان كاهناً متعلماً وفصيحاً، وشرع يقدم رواية كاملة حول حوادث الرحلة الحاليـة، حيث قـال:« ليعلم هذا المجمع المقـدس أننا وصلنا إلى مـوذون، لكن واجهنا هناك مصـاعـب منعتنا من إنجـاز أي شيء نافع، فلقـد ذهبنا إلى هناك مسرعين، لكن عدنا بسرعـة أكبر، لأن الامبراطور جـاء إلى المكان مع جيش ضخم، فقـد جلب معه حـوالي الثـلاثين ألف جندي، وكأنه يريد الدخول في معركـة، وعندما علمنا بهذا نحن حجزنا البابا في قلعة موذون التي هي واقعة داخل أملاك رئيس أساقفة الرايمز، وانطلقنا نحن أنفسنا للتحضير إلى مـؤتمر، مـانعين إياه من المغـادرة لأي

سبب من الأسباب مهما كان، وعملنا محاولات كثيرة لعمل المزيد من المقابلات مع الامبراطور، لكن في الساعة التي ابتعدنا فيها عن الحشد إلى مكان منعزل معه، أحاط بنا عدد لا يحصى من رجال الحاشية الذين عرفوا عقله، وخططه السوداء، وأرعبونا، وشهروا رماحهم وسيوفهم، فنحن لم نذهب مستعدين للحرب، بل ذهبنا غير مسلحين، لضمان السلام للكنيسة العالمية، وقدم الامبراطور الزائف اعتراضات شيطانية، وتكلم بشكل مخادع معنا، وكان هدفه الرئيسي انتظار حضور البابا، من أجل اعتقاله وسجنه، وهكذا أمضينا النهار من دون هدف، لكن أبقينا أبا آباء الكنيسة مخفياً بعناية بعيداً عن عينيه، متذكرين كيف دخل هذا بالخداع إلى روما، واعتقل البابا باسكال من أمام مذبح كنيسة القديس بطرس الرسول، وأخيراً فصل ظلام الليل بيننا، وعادت كل فئة إلى مقراتها، وخوفاً من وقوع ما هو أسوأ من أحداث ركبنا الطريق عائدين بسرعة كبيرة بدت وكأنها هروب تقريباً، لأن إمكانية أن يقوم الطاغية المرعب بمطاردتنا مع عساكره الكثيرة ملأتنا بالرعب، لكن يكفي هذا حول هذه المسائل».

وأرسل رئيس أساقفة كولون رسلاً مع رسائل إلى المولى البابا، متعهداً بالسلام والصداقة معه، عارضاً عليه الطاعة، ولكي يظهر كرمه المسيحي، سلم عن طواعية ابن بطرس ليونيز Leonis ، الذي احتفظ به كرهينة، وأعلن عن هذا وكأنه كان نصراً عظيماً، وسروراً غير اعتيادي، وأشار الرسول بإصبعه إلى شاب قاتم الشعر، شاحباً، هو أشبه باليهود أو المسلمين منه بالمسيحيين، وكان مرتدياً ثياباً فخمة، لكنه كان مشوه جسدياً، ولدى رؤيته وقد جلس إلى جانب البابا، ضحك الفرنسيون وآخرون كثر بازدراء، ودعوا أن ينزل العار والدمار السريع على رأسه، صدوراً عن الكراهية لأبيه الذي عرفوه مرابياً سيء السمعة.

ثم نهض رئيس أساقفة ليون مع الأساقفة المساعدين له وبدأ يتكلم

كما يلي:« اتهم أسقف ماكـون بونتيوس راعي دير كلوني، في هذا المجمع المقـدس بإنزال الكثير من الأخطاء والأضرار عليـه وعلى كنيسته، وقـد سحب منه بعنف كنائس وعشور، والطاعـة المتوجبة له، وأنكر عليـه ما يستحقـه من تكريم، ولم يجعل كهنته يكرسـون من قبله»، وبعـدما قـدم رئيس أسـاقفة ليـون هذا الاتهام، تبعـه مقلداً عـدداً كبيراً من الأساقفـة والرجـال مع رجـال لاهوت آخـرين، وصرخـوا بأصـوات مـرتفعـة، وتقدموا باتهامـات حول استحواذ عنيف على ممتلكاتهم، وتجاوزات غير عادلة كان الكلونيين فيها مدانين، وخلق عدد منهم صخباً شديداً، ولمدة طويلة أعطت الضجة صوتاً إلى اعتقادات مريرة كانت في عقولهم.

وأخيراً عندما استعيد الصمت نهض راعي دير كلوني مع جماعة كبيرة من الـرهبـــان، وتحدث بهدوء ورزانة، وقــــدم رداً مختصراً، ورفض الاتهامـات الشــاذة، وكـان رجـلاً صـاحب روح نبيلـة، وكـان راهب فالـومبروسا Vallombrosa ، ابنا لكونت ميلغويـــل، وابنا بالمعمودية للبابا باسكـال، حيث بناء على أمره تربى ونشأ بين رهبـان كلوني، وكان شاباً، متوسط الارتفاع، غيوراً منذ طفـولته في متابعة التعليم، مثابراً على الفضائل أنيساً وبشـوشاً نحو أتباعه، ووسيماً، وأشقـر في ملامحه، متميزاً بسلوكـه، وبأصله النبيل كما قلت، شـديد القـرابة من الملوك والأباطرة، متحلياً بـالتقوى والعلم، ولذلك وقف بثبـات وشجاعـة ضد خصـومه الحسودين، وكـان محبياً بنعمة سمة امتلاكه لكثير من الهبـات الروحية، وقـد هوجم كما وصفت بكثير مـن التهم في المجمع، وقـد أجـاب:« إن كنيسـة كلوني خاضعـة للكرسي الروماني وحـده، وهي خـاصة بالبـابا، وامتلكت منذ تأسيسهـا امتيازات منحت لها من قبل الأحبـار الرومان، وهي الامتيـازات التي يحاول هؤلاء الأساقفـة تدميرها ونسفهـا بعنف، ليكن معلومـاً لديكم جميعـاً أيها الآباء المقدسـون الموجـودون هنا، أنني شخصياً وإخـواني سـوف نسعى للحفـاظ على الممتلكات الديرية، التي

أعطيت إلينا، حتى نحفظها حسبما تتطلب العدالة، كما احتفظ بهم تماماً من قبل هيوج المبجل وأسلافنا الآخرين المقدسين، ونحن لم نتسبب بضرر أو أذى إلى أي واحد، ونحن لم نغتصب ممتلكات الآخرين، ونحن ليست لدينا رغبة بأن ننتزع ملكية أي إنسان، وفي الحقيقة أننا دعينا مغتصبين، وعانينا كثيراً من المضايقات غير المنصفة، بسبب أننا حمينا بإصرار المنح التي أعطيت إلينا من قبل المؤمنين من أجل محبة الرب، حميناها من النهابين، ولست أنا الذي ينبغي أن يكون كبير القلق حول هذه المسائل، بل لندع المولى البابا يتولى الدفاع عن كنيسته إذا ما أراد، دعوه يدافع ويحرس عشور الكنائس، والممتلكات الأخرى التي هو شخصياً عهد بها إليّ».

وبناء عليه أمر البابا أنه في يوم الغد، سوف تصدر الأحكام حول جميع هذه القضايا التي سمعها من الجانبين، وفي اليوم التالي نهض جون أوف كريما Crema ، وافتتح الحديث بالملاحظات التالية:« كما أنه من العدل أن يقوم السيد البابا بالإصغاء بعناية إلى شكاويكم، وهو كأب لأولاده، يعطيكم مساعدة غير زائفة في كل يوم، وأن يمنحكم هذه المساعدة ليس لمجرد مرة واحدة، بل يومياً، لذلك إنه من الإنصاف تماماً ومن اللائق أنه هو نفسه ينبغي أن يمتلك شيئاً ما خاصاً به في أسقفياتكم، وأن يكون لديه بعض الكنائس المعفية أو الأديرة أو ممتلكات أخرى، إما أن يختارها هو شخصياً، أو أن تمنح له من قبل المؤمنين»، وبعدما تمت الموافقة على هذا بالإجماع، مضى جون قائلاً:« إنه قد مضى مائتا عام وأكثر منذ أن تأسست كنيسة كلوني، وفي وقت تأسيسها الأساسي منحت إلى البابا الروماني، وبوساطته حظيت بامتيازات ثمينة بشكل معلن في مجمع روماني أمام كثير من الشهود من مختلف المراتب، وهي مؤكدة وقد كتبت بصكوك، من الممكن قراءتها بوضوح، بأن جيرالد أوف أكوتين قد شيد دير كلوني في أراضيه الخاصة،

وسافر إلى روما، وبتقوى منحه إلى الحبر الروماني، وهو لم يرغب أن تكون هذه مجرد مبادرة فارغة، لأنه أعطى إلى البابا اثنتي عشرة قطعة نقدية ذهبية في تلك المناسبة، وأمر بإعطاء المبلغ نفسه منذ ذلك الحين فصاعداً، ولذلك فإن هذه الكنيسة لم تكن خاضعة لا إلى أمير ولا أسقف، بل إلى البابا وحده، حتى اليوم الحالي، وبالمساعدة الكريمة للرب، ازداد عدد ممتلكاتها ورهبانها، بشكل عظيم السعادة، ولذلك فإن الرائحة الطيبة لاسمها الصالح قد نشر الأريج بالطول وبالعرض في جميع أرجاء الدنيا، ومن أجل خلاصنا ضربت مثلاً بتدفق قداستها إلى جميع الذي ينشدون أداء واجبات النظام الديري، ويختار دير الرهبان راعياً له وفقاً لأحكام أبينا المقدس بندكت، ويرسل المنتخب إلى البابا مع رسالة توصية، ويقوم بتكريسه ومباركته تماشياً مع التقاليد الكنسية.

وتعتقد الكتلة المؤمنة كلها وتؤكد أنه بأمر من الرب يمتلك الذي يترأس على الكرسي الرسولي سلطة الربط والحل، لأنه هو نائب بطرس، رئيس الرسل، الذي إليه قال المسيح:« وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات»[ متى: ١٦/ ١٨—١٩]، وهكذا تأسس الكرسي الرسولي من قبل الرب، وما من أحد سواه هو المفصل والرأس لجميع الكنائس، فهو معين من قبل الرب، وبموجب هذا التعيين يحكم بسلطة الكرسي الرسولي، قدروا هذا، إنه قد منح إلى بطرس من قبل ابن الرب، وتقرر وجوب أن يكون رئيساً للرسل، ولذلك دعي كيفاس Cephas لأنه هو الرأس والأول بين جميع الرسل، ومن الموائم أن تقوم الأعضاء باتباع الرأس إلى حيثما قاد، فمن الذي يستطيع أن يقاوم واحداً إليه منحت مثل هذه السلطة من قبل الرب؟ من الذي يتجرأ على أن يحل واحداً

ربطه بطرس، أو أن يربط واحـداً هو تولى حله؟ وبناء عليـه، بما أن دير كلوني خاضع للبابا وحـده، وبما أنه هو بوساطة الربط الرباني فوق جميع الناس على الأرض، وهو الذي يحميـه، تثبـت سلطة رومـا الامتيـازات الكلونيـة، وباسم الرب تأمـر جميع أبناء الكنيسـة أن لا يقدم أي واحـد على محاولة تجريد الكلونيين من إعفـاءاتهم القـديمـة ولا أن ينتـزع منهم ممتلكاتهم التي هي بين أيديهم منـذ زمن طويل، ولا أن يظلمهم بفـرض مكوس واستخـراجات غير معتـادة، دعوهم يستحـوذون على كل شيء بسلام، حتى يتمكنوا دائماً من خدمة الرب بهدوء وسكينة».

وعندمـا كان جون يقـول هذا بدأ عدد مـن الأساقفة ومن الآخـرين الذين كانوا جيراناً لكلوني يظهرون عـدم رضاهم بصوت مرتفع، وأنهم سـوف لن يتنازلوا عن التأكيد بثبـات بما عـرضوه وتقـدموا به بوسـاطة الكاردينال، مع أنهم لم يتجرأوا على المغامرة بمعارضة أوامر البابا بشكل معلن، وفي أثناء المنـاقشـات طرحـت آراء عـديـدة وجـرى التفــوه بها وتدفقت بوفـرة من الينابيع العميقـة للعلوم الأصيلة، لكنني لا أستطيع أن أحكي بالتفصيل كـل شيء قـد حـدث في ذلك المجمع، فقــد ناقش علماء ذوي ذكاء عظيم متميـز القضايا المعقدة للكنيسة، وبعبقـرية قرأوا كثيراً من الوثائق إلى مستمعيهم التواقين، وقـاد المناقشات بشكل خاص الأساقفـة: جيرارد أوف أنغوليم، وأوتـو أوف فيفري، وغيـوفري أوف تشارترز، ووليم أوف تشـالون، ببلاغة مدوية، وحسـدت عبقريتهم من قبل المعلمين المثقفين، والمتحمسين المكرسين للحكمــة، وأعلن رســول عن وفـاة الكاردينال الأسقف لتــوسكولم، ذلك أنه مـات مـؤخـراً على الطريق، وجرت قراءة رسـالة من كليمينتيا Clementia أخت البابا، لصـالح ابنها بلدوين كـونت أوف فـلاندرز، لأنه من أجل هؤلاء ومن أجل الأب المقـدس المغـادر والذي كـان كله إيمان، قـدم المجمع الجليل البكاء والصلوات إلى الرب.

وفي اليوم الأخير للمجمع عمل أسقف برشلونة، الذي كان رجلاً- وإن كان صغير الحجم ونحيلاً- متميزاً بثقافته وفصاحته وتقواه، عمل خطبة ذكية وعميقة جداً حول الوظائف الملكية والمقدسة، ولها كان الجميع قادراً على فهمها، وقد أصغوا إليها بتشوق عظيم، ثم أقدم البابا وهو مكره على حرمان شارل هنري كنسياً، وهو الامبراطور وعدو الرب، ومعه بوردين البابا المضاد، ومؤيديهما، وشمل بالحرمان آخرين من مقترفي الشرور، الذين بقيوا فاسدين لا يمكن إصلاحهم، بعد تذكيرهم مراراً عدة بقرار التكفير نفسه، وقضى قرار الحرمان أن يبقى قائماً حتى يتوبوا، وأمر في آخر الأمر بإذاعة قوانين مجمع الرايمز، وتولى جون أوف كريما جمع مسوداتهم، مع نصيحة المجلس الإداري للبابوية، وتولى جون أوف روان الذي كان كاهن سينت أوين تدوينهم، وقام كريسوغونوس الكاردينال الشماس للكنيسة الرومانية المقدسة بقراءتهم بوضوح وبصورة معلنة، وكان سجل المجمع هو كما يلي:

١- نحن نؤكد بموجب حكم الروح القدس، وسلطة الكرسي الرسولي، التي تكرست بمصادقة الآباء المقدسين ما صدر حول السمعانية[السيمونية = بيع المناصب الدينية]، ولذلك إذا ما قام أي واحد ببيع أو شراء، إما شخصياً، أو من أي شخص كان عاملاً لصالحه، أية أسقفية، أو رئاسة دير، أو عمادة، أو رئاسة شمامسة، أو رعاية أبرشية، أو رئاسة كنيسة، أو وقف كنسي، أو منافع كنسية من أي نوع، أو ترفيع، أو رسم، أو تكريس لكنائس، أو حلق رؤوس كهنة، أو مكاناً في سدة الإنشاد، أو أي مرتبة كنسية أخرى، سوف يكون كل من البائع والمشتري عرضه لفقدان مرتبته ووظيفته ومورده، وما لم يتب، سوف يضرب بسيف التكفير، ولسوف يفصل كلياً عن كنيسة الرب التي آذاها.

٢- نحن نمنع منعاً باتاً أن يتم رسم الأساقفة ورعاة الديرة بأيد علمانية، ولذلك إن أي رجل علماني سوف يقدم من الآن فصاعداً على

منح التكريس، سوف يعاقب بالحرمان الكنسي، وعلاوة على ذلك إن الذي سوف يقبل التكريس، سوف يفصل تماماً من دون أي أمل باسترداد المرتبة التي كرس فيها.

٣— نحن نرسم بأن أي ممتلكات منحت إلى جميع الكنائس بكرم من الملوك، أو بعطاء من الأعيان، أو بمنحة من قبل أي من المؤمنين، سوف تبقى دوماً آمنة ومن دون خرق أو اعتداء، وإذا ما استولى أي واحد على أي شيء من هذه الأشياء، أو اغتصبهم، أو أخذهم بطغيان، فليعاقب بالتكفير الدائم، وفقاً لمرسوم القديس سيماخوس Symmachus.

٤— ما من أسقف، ولا كاهن، أو عضواً من أعضاء رجال اللاهوت مهما كان، يحق له أن يمنح وظائف كنسية أو منافع إلى أي واحد، وكأن ذلك بموجب حق التوريث، ونحن علاوة على ذلك نرسم أنه لايجوز أخذ رسم مهما كان نوعه أو المطالبة به من أجل التعميد، أو الميرون، أو الزيت المقدس، أو الدفن، أو زيارة مريض، أو التكريس الأقصى بالمسح بالزيت.

٥— نحن نحرم تحريماً تاماً على الكهنة، وعلى الشمامسة، وما دون الشمامسة التعايش مع خليلات أو زوجات، وإذا ما جرى اكتشاف أي آثمين، ينبغي تجريدهم من وظائفهم الكنسية ومنافعهم، وإذا لم يتخلوا عن علاقاتهم، ينبغي طردهم من الجماعة المسيحية.

—٢٢—

وفي الوقت نفسه كان الملك هنري يحاصر إيفري بجيش قوي، وكان ابن أخته ثيوبولد الكونت الملكي يسعى جاهداً لتهدئة الثوار، موجهاً كل براعته بالنصيحة وإيمانه الجيد لتحقيق هذه الغاية، فقد أحضر عموري إلى عند الملك، وبسرعة أصبح عموري متصالحاً، وعن طواعية سلم القلعة إلى الملك، وكترضية عظمى له تسلم جميع كونتية

خاله(عمه)، ثم تشاور يوستاس وزوجته جوليانا مع بعض الأصدقاء، حيث قاما بناء على نصيحتهم بالمبادرة مسرعين إلى الحصار، ودخلا خيمة الملك حفاة، وسقطا عند قدميه، فقال الملك لهما وهو مندهش:« كيف تجرأتما على الوصول إلي من دون أماني، بعدما أثرتماني بآثام كثيرة جداً؟» وأجابه يوستاس على ذلك قائلاً:« إنك أنت مولاي الطبيعي لذلك جئت إليك من دون خوف بحكم أنك مولاي، لأعرض خدماتي عليك بإخلاص، ولأقوم بتكفير كامل عن أخطائي، بما أنك قاضي عادل ورحيم»، وكان هناك أصدقاء للتوسط من أجل ختن الملك، وترافع رتشارد ابن الملك أيضاً من أجل قضية أخته، وألانت الرحمة بالحقيقة قلب الملك نحو ابنته وختنه، وأصبح ميالاً أكثر إلى الخير، ولذلك هدأ، وقال لختنه:« يمكن لجوليانا أن تعود إلى باسي، وأنت سوف تأتي معي إلى روان، وهناك سوف تسمع ما يرضيني»، وتمت إطاعة أمر الملك من دون تأخير، وخاطب الملك يوستاس بهذه الطريقة:« عوضاً عن مرتبة بريتويل، التي أنا أعطيتها إلى قريبك رالف البريتاني، الذي أنا وجدته الأكثر إخلاصاً وصدقاً ضد أعدائي في أوقات الحاجة الكبرى، أنا سوف أعطيك إيجاراً سنوياً مقداره ثلاثمائة مارك فضي في انكلترا»، وبعد هذا حصن رالف باسي بأسوار وبأبراج حراسة، وعاش لأكثر من عشرين عاماً، يتمتع بثروة كبيرة، وقامت جوليانا بعد عدة سنوات بالتخلي عن الانغماس الذاتي بالحياة، بالانخراط بالحياة الدينية فأصبحت راهبة، وخدمت المولى الرب في الدير الجديد في فونتفرولت Fontevrault.

ورأى هيوج أوف غورني، وروبرت أوف نيوبورغ والثوار الآخرون، بأن الرجال الأقوى قد تخلوا عنهم، وأن الملك كان متفوقاً في القوة وفي السلطان، وعندما علموا بتخلي حلفائهم عنهم، ندموا على أعمالهم الماضية، وطلبوا عفو الملك شخصياً ومن خلال أصدقاء، ولأنه كان رجلاً يخاف

الرب، ومحباً للسلام والعدل، عفا عن البارونات الذين طلبوا العفو عن أخطائهم، وغفر لهم ذنوبهم، ورحب فوراً بعودتهم إلى حظوته.

وحشد الملك جيشاً ضد ستيفن أوف أوميل، الذي استمر بالمقاومة لوحده، وبدأ ببناء قلعة في مكان عرف باسم روان القديمة، مسمياً إياه (ميت- بوتين Mate-putain أو: وور- هملر Whore-humler) صدوراً عن الغضب للكونتسة هوايس Hawise ، فبناء على تحريضها قام الكونت ستيفن بالثورة ضد الملك مولاه وقريبه، ثم استقبل وليم كليتو، وبلدوين أوف فلاندرز وقبلهما في قلاعه، وأعطاهما مساعدة لمدة طويلة، وعندما سمع بأن الملك كان قادماً مع جيشه لمحاربته، أخذ نصيحة أصدقاء عقلاء، وخضع بتواضع إلى الملك، الذي سامحه بكل شيء، وعاد منتصراً وبسلام.

## —٢٣—

لقد أتيت على ذكر روان القديمة، ولسوف أشير باختصار إلى الذي جرت روايته عنها من قبل المؤرخين القدماء للرومان، فلقد قام غايوس يوليوس قيصر بإلقاء الحصار على كيلتوم Caletume التي منه أخذت باغوس أوف كوكس Pagus of caux الاسم الذي ما تزال محتفظة به، ولمدة طويلة ألقى بجميع قواته في القتال، بسبب الأعداء الثابتين الذين تجمعوا هناك من كل جزء من بلاد غاليا، مسببين كثيراً من الدمار، والقتل، والنار، وذلك بسبب الحملات المتوالية، مما أثار غضب قيصر فوق حدود الاحتمال، فقام بمهاجمة المدينة بإصرار وعنف، فاستولى عليها وعلى جميع سكانها، وسواها بالأرض، لكن حتى لا تترك المنطقة من دون حماية، بنى قلعة أطلق عليها جوليا- بونا Julia- bona ، على اسم اخته جوليا، علماً بأن اللهجة العامية صحفت الاسم وجعلته ليليبوني Lillebonne ، ومن هناك عبر تسعة أنهر هي: الدوردان Durdan ، والتيل Tale ، الذي يدعى الآن الدون، والساوني Saone ، والفيين Vienne ،

والسي Scie ، والفـارين Varenne ، والديبي Dieppe ، وإيولني Eaulne ، ثم تبع شاطىء البحـر، وسـار حتى نهر أوكـوس Aucus ، الذي يدعى إيو بالعـامية، وأخيراً بعـدمـا فكر القائـد رجل الدولة بعمق حـول مصلحة هذه المنطقـة، وبعـدما تشـاور مع رجـاله، قرر بناء مـدينة لتقوية الرومـان، وهي صارت مقر سكنى للرومـان، وعرفت باسم روان، وجـرى جلب الحرفيين إلى مـوقع وقـامـوا بقيـاسـه، كما أوكل إلى قطاعي الحجـارة وإلى البنائين مهامهم، ثم إنه انطلق ثانيـة، وفي الوقت نفسه كـان روتوبس Rutubus الذي كان طاغيـة مولعاً بـالقتال وقوياً، كـان يتولى الدفـاع عن قلعـة ظن أنها لا تـرام، كـانت قـائمـة على هضبـة قـرب نهر السـين، ومنهـا كـان يغير على المنطقـة كلهـا من حـوله وعلى السفن التي تجري على مقربة منه في النهر، ولـدى سماع قيصر به بادر مسرعاً نحوه إلى هناك مع جيشـــه، واقتحم القلعـــة التي عـــرفت باسم مينـاء روتوبس، ويمـكن الآن للمـراقبين من السكان المحليين أن يشاهدوا بـوضوح الميناء وخـــرائب القلعـة، وأعــاد قيصر- على كل حـــال- البنائين مع الحرفيين الآخـرين، مـن الموقع الذي ذكـر من قبل، وبنى مدينة روان الفخمـة على السين، تاركـاً لمكان الاســـتقرار الأبكر على الأيو، لا شيء سـوى الاسم القائم حتى اليوم التالي.

أنا أضفت هذه الـرواية عن روان من مــدونات الكتّــاب المبكرين، بسبب أنني ذكـرت لفـائـدة القـراء المستقبليين، كيف شرع الملك هنري ببناء قلعـة هناك لمحاربة أعـدائـه، لكنه ترك العمل دون أن ينهيه حـالما تصـالح معهم، وسـوف أتابع الآن السير مع الأحـداث الحاليـة، حسبما بدأت، وأن أحـذو -بقدر مـا أستطيع- حـذو الكتاب القـدماء، لأقـدم عملي إلى الأجيال المقبلة.

—٢٤—

وجد جميع النورمان الذين ثاروا ضد الملك- حسبما رويت- أن قوته

قد ازدادت في كل جانب، وبما أنهم نصحوا خيراً من ذي قبل، سعوا في سبيل العفو والغفـران شخصياً ومن خلال الأصدقـاء، وعفا الملك عن ذنوبهم وتلقى التائبين وأعادهم إلى حظوته، وقاموا فقط، وهم مكرهين، بالتخلي عن وليم كليتو ووصيـه هيلياس في المنفى، لكنهم لم يمتلكوا أية وسيلة أخرى يمكنهم بها تأمين المصالحة مع الأمير القدير.

وفي تشرين الثاني، وصل البابا كاليكستوس إلى نورماندي، وبحث في غيسور مع الملك مسألة إعادة السلام، واستقبله الملك العظيم بتشريف، وخر سـاجداً عند قدميـه، وأبدى نحوه الاحترام والتبجيل، واعترف به أنه هو راعي الكنيسة كلهـا، وأنه قريبه القريب، وعندمـا تواضع بنفسه أنهضه البـابا بلطف، وباركه باسـم الرب، وأعطاه قبلة السلام، وتعـانقا بعد ذلك بغبطة، وبعد هذا التقيا للبحث في الوقت الموائم، وتكلـم البابا إلى الملك حسب هذه الطريقة:

«لقـد بحثت في مجمع الرايمـز حسن أوضـاع المؤمنين مع الأسـاقفـة المقدسين والأعيـان الآخرين، وأبناء كنيسة الـرب، الذين اجتمعوا هناك بكرم بناء على دعوتنا، ووعـدنا بأن اهتمامنا الخاص سوف يكون السعي لإعادة السلام العـام، ولهذا يا بني النبيل، قدمت مسرعاً إلى هذا المكان، وأنا أصلي إلى الرب القدير في رحمتـه، أن ينظر برأفة نحـو جهودنا، وأن يوجههـا بشكل نافع لمصلحـة كنيستـه كلهـا، وأول كل شيء أنا أرجـو جلالتكم أن تتماشى بشكل موائم مع خططنا، وكوريث لسليمان، ومحب للسلام، استعـد لعمل سلام مع أعدائـك، الذين يسعون وراء ذلك من خــلال وسـاطتنا»، وبما أن الملـك وعـد في أن يطيع أوامــر البــابا عن طواعية، قدم البابا ملاحظاته كما يلي« اهتمت شريعة الرب بحكمة بخير جميع الناس، وأمرت بأن يمتلك كل إنسان ما هو قانونياً ملكه، لكنه لن يشتهي أملاك الآخرين، وأن لا يفعل للآخرين ما لايرغب بأن يعمل له شخصياً، ولذلك قـرر مجمع المؤمنين بشكل عام، ويا أيها الملك العظيـم،

نرجو جلالتك بتواضع، أن تقوم بإطلاق سراح أخيك روبرت، الذي احتفظت به بالأغلال لسنين طويلة، وأن تعيد إليه وإلى ابنه دوقية نورماندي، التي أخذتها منهما»، وبعدما سمع الملك هذا أجاب:« إنني سوف أطيع وصاياك أيها الأب المبجل، وفقاً للحق، حسبما وعدت في البداية، لكن الآن أنا أسألك أن تصغي بعناية إلى الذي أنا عملته، والطرائق التي استخدمتها، أنا لم أنتزع دوقية نورماندي من أخي، بل قدمت ادعاء قانونياً بحقي بها بالقتال من أجل وراثة عادلة لأبينا، وهو ما لم يمتلكه أخي ولا ابن أخي بالفعل، شخصياً، بسبب أن العصابات الشريرة، والمتآمرين الكفار دمروا المقاطعة تماماً، وما من احترام أبدي نحو الكهنة والعبيد الآخرين للرب، لكن ما يقارب الكفر هاج في جميع أرجاء نورماندي، فديرة كان أجدادنا قد أسسوها لصالح أرواحهم جرى تدميرها، والرهبان الديريين قد تفرقوا لقلة الطعام، وكنائس أيضاً نهبت، وكثير منها أحرق، والفارون الذين كانوا ينشدون الملجأ والحماية في الكنائس سحبوا منهن، وذبح أهل الأبرشيات بوحشية بعضهم بعضاً والناجون الذين لم يجدوا حماية، ندبوا مصيرهم وسط الدمار الهائل، هذا هو البلاء الذي نزل بنورماندي لمدة سبعة أعوام تقريباً، ولذلك لم يعد أحد من الناس يتمتع بالأمن لا في الوطن ولا في الخارج، وأنا انزعجت بالالتماسات الملحة لرجال الكنائس، الذين التمسوا مني بصلوات مستمرة حتى لا أدع اللصوص الأشرار، الاستمرار بافتراس الأبرياء أية مدة أطول، ولذلك أرغمت على العبور إلى نورماندي، حيث استقبلت من قبل كونتات متميزين من أمثال: وليم أوف إيفري، وروبرت أوف ميولان، مع أعيان مخلصين آخرين، وشاهدت بحزن ما نزل بميراث آبائي، ووجدت أنني لا أستطيع تقديم العون إلى المحتاجين، إلا بقوة السلاح، لأن أخي حمى مثيري جميع هذه الشرور، واعتمد اعتماداً كلياً على مشورتهم، ولذلك صار عرضة للازدراء والاستخفاف، لأن غونتر أوف أوني، وروجر أوف لاسي، وروبرت أوف بيليم مع آخرين من

الحرس السود، كانوا السادة الحقيقيين للنورمان، وتحت الظل المموه للسلطة الدوقية حكموا على الأساقفة، وعلى جميع رجال الدين، وكذلك على الجماهير التي لاحول لها ولاطول، واختار روبرت أقرب المستشارين إليه الرجال الذين أنا طردتهم من أراضي إلى ما وراء البحر، بسبب مؤامراتهم الإجرامية، ووضعهم موضع السلطة فوق سكان الأرياف المساكين، وقد نشروا النار والقتل في كل مكان، واقترفوا بصورة مرعبة، جرائم مذهلة إلى حد يصعب تصديقها من الذين لم يجربوها أو يعانوا منها، وقد بعثت مراراً وتكراراً إلى أخي حاثاً إياه لأن يعتمد على مشورتي، وعرضت عليه أن أساعده بكل قواي، لكنه رفض بازدراء الإصغاء، واستخدم رجالاً قاموا بالتآمر ضدي لمقاومتي، وعندما رأيت شرورهم المرعبة هي المنتصرة، لم أرغب برفض تأدية خدمتي إلى الكنيسة، الأم المقدسة، لكنني بذلت غاية جهدي لاستخدام المهمة التي ألقيت على عاتقي من قبل السماء، في سبيل الصالح العام، وهكذا تمكنت بحملي للسلاح من القتال ونشر النار، فاستوليت على بايو وانتزعتها من غونتر، وعلى كاين التي انتزعتها من انغورراند بن إيلبرت، وبسحقي للطغاة في المعركة، استوليت على بقية المدن المحصنة، التي كانت في حوزة أبي، لكن أخي سلمهن إلى الفساق الحانثين بالأيمان، في حين أبقى نفسه مدقعاً إلى حد أنه كان غير قادر على الدفع إلى خدمه، وأخيراً أنا ألقيت الحصار على تنشيبري، التي كانت وكراً للشياطين، والتي إليها كان الكونت وليم أوف مورتين قد جلب أخي ليقاتل ضدي مع جيش كبير، وقد قاتلت ضدهم معركة في« ميدان الجوع» باسم الرب، ومن أجل حماية أرضي وبلادي، وهناك، كنت بمعونة الرب، الذي عرف النية الصالحة لجهودي، المنتصر على خصومي، وأسرت الكونتين وأخي، وابن خالي(عمي) مع عدد كبير آخر ممن خانوني، ولقد أبقيتهم حتى الآن تحت حراسة مشددة لأمنعهم من التسبب بإلحاق أي أذى بي وبمملكتي، وبهذه الطريقة استرددت

ميراث أبي وجميع أملاكه، وناضلت في سبيل تنفيذ قوانين أبي، وفقاً لإرادة الرب من أجل سلام شعبه، وأنا لم أحتفظ بأخي مغلولاً بالقيود كأسير من الأعداء، بل وضعته بمثابة حاج نبيل، قد عراه الإنهاك بسبب الكثير من المصاعب، في قلعة ملكية، واحتفظت به مزوداً بشكل جيد بكميات وافرة من الأطعمة والأشياء الأخرى المريحة، وجهزته بجميع الأنواع، وعهدت بابنه الذي كان في الخامسة من عمره ووضعته تحت وصاية هيلياس، ختن الدوق، آملاً أنه بتطور قدرته في الحكم على الأشياء مع صفاته الأخلاقية ومواهبه، قد أستطيع أن أجعله مساوياً في كل شيء لابني، وقام هيلياس على كل حال، بناء على إثارة حلفائه له، بأخذ ابن أخي مني، وتخلى تماماً عن إقطاعية قلعة سينت —سانس Saens التي امتلكها وهرب إلى بلاد أجنبية، وورطني- بقدر ما استطاع- بحملات متوالية، لكنه لم ينتصر حتى الآن، لأن الرب لايريد هذا، وقد أثار الفرنسيين والبيرغنديين مع شعوب أخرى ضدي، لكن إنني إن لم أكن مخطئاً، لقد ألحق بنفسه ضرراً أكثر مما ألحقه بي، وفي كثير من المناسبات بعثت إلى ابن أخي ودعوته بلطف من خلال رسول بعد رسول للقدوم إلى بلاطي مع الأمان، وأن يصبح شريكاً مع ابني في ثروات مملكتي، حتى أنني عرضت عليه منحه ثلاث كونتيات في انكلترا، حتى يتمكن من حكمهم، ولكي يرتقي مع صغار رجال بلاطي، ومن أجل أن يتعلم كيف يمكنه أن يقدر في المستقبل الحكم الصحيح والعدل نحو الغني والفقير، وكيف يمكن أن يحافظ بثبات على العدالة الملكية، وعلى مبادىء ونظم الفروسية، وهو- على كل حال- رفض عروضي، واختار- بالحري- أن يعيش كمتسول في المنفى بين المتشردين الأجانب، وآثر ذلك على التمتع بالراحة معي، والبراهين على جميع الشرور التي وصفت هي الحقول غير المزروعة، والبيوت المحترقة، والقرى المنهوبة، والكنائس المهدمة، والناس الذين يندبون ويبكون قتل أصدقائهم، والاستيلاء على سلعهم، وبضائعهم، ويمكن لقداستك، يا

مولاي البـابا، أن تبحث بحكمة وتتقصى حول هذه الأمـور، وأن تقدم مشورة مقدرة من أجل منفعة الحكام والمحكومين».

ولدى إصغاء البابا بعناية إلى بيانات الملك، أصيب بالدهشة، وأوصى بأن تكون أعماله في ضـوء روايتـه، وقال:« لقـد سمعنا الآن كل مـا هو ضروري حـول الدوق وابنه، دعونـا لا نقول أي شيء زيادة حـولهما في الوقت الحالي، بل علينا أن نولي اهتماماتنا إلى أشياء أخرى، اشتكى ملك فرنسـا أن المعاهدة بينك وبينه قـد خرقت بشكلٍ خـاطىء، وأن أتباعك وحـاشيتك، اقترفـوا- بشكل غير عـادل- كثيراً من أعمال العنف ضـده وضد مملكتـه»، وعلى هذا رد الملك قائـلاً:« لقد كـان هو أول من خرق معاهدة الصـداقة فيما بيننا، لأنه ساعد أعـدائي ضدي بكثير من الطرق، وبوسائـط الوعود والإقناع حـرك أتباعي من أجل الإقـدام على الثورة، غير أنه إذا كان على استعـداد للتكفير عن الأفاعيل الماضيـة، وأن يحافظ على معـاهدة الصـــداقـة من دون خــرق منذ الآن، أنا جـاهز لـلأخـذ بوصاياك بجميع التفاصيل».

وتشجع البـابـا الآن كثيراً، فتـابع يقـول:« واشتكى الملـك أيضـاً من الأذى الذي ألحقـه به ثيـوبولد ابن أختك، بأخـذه أسيراً كـونت نيفـار، عندمـا كان عـائـداً من حصار كـان يقـوم به الملك شخصياً بمساعـدة أسـاقفة فـرنسـا، وهو الحصار الذي جـرى توجيهـه ضد تومـاس أوف مــارلي، من أجل إرغـامــه على التخلي عن اضطهــاد النـاس الأبرياء والتنكيل بهم»، وقال الملك:« إنني لن أطلب تأجيلاً قبل إطاعة وصاياك السرمــديـة من استرداد الســلام والنظـام، ولســوف أضع ابـن أختي ثيوبولد- الذي هو محب حقيقي للعدالة- تحت إرشادكم للصالح العام، أمـا بالنسبة لابن أخي وليم، أنا أحثـه لعملٍ سـلام، وأعرض عليـه من خلال قداستك العـروض نفسها، التي غالباً ما قدمتهـا خلال الآخرين، لأنني أنا راغب في أن أقـدم لكم رضـا كـامـلاً وراغب في زيادة الهدوء العام للناس، وتقدم ابن أخي، وكأنه ابني».

بعـد هذا أرسل البـابا رسله إلى ملك فـرنسـا وإلى أعيـانه، وأعلمهم بأجوبة ملك انكلترا، التي كانت بنّـاءة من أجل السلام، وتسببت برضا عـام، وسـوف يكون شططاً مني أن أروي حكـاية طويلة بالتركيـز على الثـرثرة حـول سرور الشعب الذي مزقتـه الحرب، وعندمـا هدأت حمى الحرب، والهدوء للمخلص، المتشـوق إليه طويلاً، للسـلام قد عـاد، ولما جـرى التصـديق على المعـاهدة بين الأميريـن، أعيـدت القـلاع التي تم الاستيـلاء عليها بالقـوة أو بالخديعة، إلى أصحـابها، وأطلق سراح جميع الفرسـان الذين وقعوا بالأسر من على الجانبين أثناء الحرب، وسمح لهم بترك السجن، للعودة ثانية بسرور إلى أوطانهم.

## —٢٥—

حــزن الشيطان، الذي خـدع الإنســان الأول، من خــلال الأفعى، والذي هو دوماً حسود ولا يعرف الاستقرار، وشعر بالأسى لدى رؤيته الملكين والأبطال المولعين بالقتـال يلقون بأسلحتهم بفضل نعمـة الرب، فبـذر بيقيـة الخلاف المميت بين كهنة معبـد الرب، فبعـدمـا عـاد رئيس الأساقفـة غيوفري إلى روان من مجمـع الرايمز، عقد مجمعـاً في الأسبوع الثالث من شهر تشرين الثاني، وحيث أنه كان معتنقاً متحمساً للمراسيم البـابوية، التهب حماسـة وتشـوق إلى إصلاح الكهنة في أسقفيتـه، وكـان أحـد قـوانين المجمع التي أعلنهـا هو حـرمـان أي تعـايش مع النسـاء، وقذف بالتهـديد بالحرمان الكنسي ضـد الآثمين، وبما أن الكهنة تعاملوا مع مثل هذا الحمل الثقيل بمقت، غمغموا بين أنفسهم حيث تشكوا من الصراع بين الجسـد والروح، وأمـر رئيس الأسـاقفـة بواحـد من الكهنة الفصحـاء، واسمه أبيرت، والذي كـان قـد شرع يقول شيئاً مـا- أنا لا أعرفـه بالتأكيد- بأن يعتقل، وأن يلقى به على الفـور في زنزانة السجن، وكان رئيس الأساقفة غيوفري من بريتاني، وكان لا يعرف الاستقرار في كثير من الجوانب، ومتشبثـاً، وسريـع الغضب، وصــارمــاً بالوجهــة

وبالحركة، وحاداً في انتقاداته، كما كان عدوانياً، ومهذاراً، وفي تلك الأثناء كان رجال الدين الآخرون صماً بكماً بسبب المشهد غير الاعتيادي، الذي كانوا شهوداً عليه، ذلك أنهم رأوا كاهناً يسحب من الكنيسة إلى السجن مثل لص، دون أن يتهم باقتراف أية جريمة، ودون أن يحاكم قانونياً، وكان الكهنة في وضعهم المرعب لايعرفون ماذا يفعلون، وترددوا فيما إذا كان عليهم الدفاع عن أنفسهم، أو أن يهربوا، ونهض الأسقف الغاضب من على كرسيه، وترك جلسة المجمع تسير، وحشد أتباعه، الذين أمرهم بالوقوف مستنفرين، وقد اندفعوا مباشرة إلى داخل الكنيسة مع العصي والأسلحة، وشرعوا بالضرب وصرع الكهنة من دون إقامة احترام، وفعلوا ذلك وسط حشد رجال اللاهوت الذين كانوا يتحادثون مع بعضهم بعضاً، وقام بعض الكهنة، وهم ما يزالون يرتدون ثيابهم الكهنوتية، بالركض خلال الأزقة الموحلة للمدينة بغية الوصول إلى مساكنهم، والتقط -على كل حال- آخرون بعض العصي أو الحجارة، مما صدف ووجدوه هناك، وحاولوا القتال مدافعين، وتمكنوا من صد الحرس المرتعشين، وإرجاعهم فوراً إلى مقر سكنى رئيس الأساقفة الخاص، وطاردوهم بعنف، وشعر رجال الحاشية بالخجل، لأنهم انهزموا وفروا أمام عصبة من رجال الدين غير المسلحين، وباتوا يشعرون بالغضب، وقاموا على الفور بالاستعانة بالطباخين والفرانين والخدم الذين توفروا هناك، وانتقموا آثمين بتجديد القتال في المعبد المقدس، فضربوا، أو ألقوا، أو جرحوا بطرق أخرى الجميع، ما بين بريء أو مدان، وذلك من بين من وجدوه في الكنيسة أو في المقبرة، وكان في ذلك الوقت هيوج أوف لونغوفيل Longueville وأنسقويتيل أوف كروبس Ansquetil of cropus وبعض الكهنة الشيوخ الناضجين والأتقياء، جالسين في البناء المكرس، إما يبحثون في الاعترافات وبعض المواضيع المفيدة الأخرى بين بعضهم بعضاً، أو يتلون صلواتهم الساعية لتمجيد الرب حسبما توجب عليهم أن يفعلوا،

واندفع الخدم المجانين نحوهم وهم عميان، وكوموا الإهانات عليهم،ومنعوا أخيراً أنفسهم وأوقفوا أيديهم عن ذبحهم، لأن الكهنة جثوا على ركبهم وهم يبكون ويرجون الرحمة، وفي اللحظة التي أطلق سراحهم فيها هربوا بأقصى سرعة ممكنة من المدينة مع أصحابهم الذين كانوا قد غادروا الكنيسة، من دون انتظار لنيل أذن رئيس الأساقفة أو مباركته، بل حملوا معهم وهم عائدين تقارير مرعبة إلى رجال أبرشياتهم وخليلاتهم، وأروهم الجراحات والكدمات الموجودة على أجسادهم كبرهان على كلامهم، وانزعج رؤساء الشمامسة والقساوسة، والمواطنون المخلصون بسبب الهجوم المرعب، وتعاطفوا مع عبيد الرب الذين عانوا من إذلال كبير لا سابقة له، وبهذه الطريقة سفكت دماء الكهنة على صدر الكنيسة الأم المقدسة، وتحول المجمع المقدس إلى مجزرة، وموضوعاً للسخرية، وانزعج رئيس الأساقفة كثيراً، فالتجأ إلى مقر إقامته الخاص، وبقي متخفياً، لكن بعد وقت قصير، بعدما جرى طرد رجال الدين، كما حكيت، ومات الهيجان، وتحول الحال إلى الهدوء، خرج وهو يرتدي البطرشيل، ومعه الميرون، وقام مع القساوسة التعساء بإعادة تكريس الكنيسة التي كان قد دنسها، ووصلت شكوى حول الاضطراب المهين إلى أذني الأمير، لكن بما أنه كان مشغولاً بأعمال أخرى، أجّل تحقيق العدالة إلى الفرقاء المتضررين.

## —٢٦—

وقرر الملك هنري، الذي نجح بعد تعب شديد، في تسوية الأمور بشكل نال الإعجاب، في نورماندي، أن يعبر القنال، ليدفع أعطيات كريمة إلى الأبطال الشبان، والفرسان المتميزين، الذين قاتلوا بشدة وإخلاص، وتولى ترقية عدد من الفرسان من جميع المراتب بمرافقته، وفي الوقت نفسه، كان رالف أوف غايل يشعر بالخوف من خيانة النورمان، الذين امتلك السيطرة عليهم- ضد إرادتهم، لأنهم آثروا

يوستاس سيدهم السالف الذكر- ولدى تقديره أنه يمتلك غايل ومونتفورت-لي- كين مع حصون أخرى وممتلكات واسعة ورثها من أبويه في بريطانيا، أقدم بناء على نصيحة الملك وموافقته بتخطيب ابنته إلى رتشارد ابن الملك، وإعطاء بريتويل، وغلوس، ولاير، وجميع الإقطاعيات المعينة له في نورماندي مع يدها، وكانت هذه الخطة -على كل حال- سيئة التقدير، ومن دون تأثير، لأن الرب الذي يحكم جميع الأشياء، قضى أمراً آخر، فقد تزوجت التي ورد ذكرها مؤخراً من روبرت إيرل ليستر، وعاشت لسنوات طوال معه.

وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني، عندما بات الأسطول جاهزاً في ميناء بارفليور Barfleur وجماعة من الفرسان النبلاء قد احتشدت، وعندما هبت الريح الجنوبية، أقلع الملك والإيرلات في الساعة الأولى من المساء، وحركوا أشرعتهم، حتى تمسك الريح، وتصير في البحر، وفي الصباح رسا الذين سمح الرب لهم، في انكلترا.

ووقعت مأساة مرعبة أثناء تلك الرحلة، سببت حزناً عميقاً ودموعاً لاحصر لها، فقد ذهب توماس بن ستيفن إلى الملك، وقدم إليه ماركاً ذهبياً، قائلاً: كان ستيفن بن إيرارد أبي، وقد خدم والدك في البحر خلال أيام حياته، لأنه حمله بسفينته إلى انكلترا، وذلك عندما انطلق إلى انكلترا للقتال ضد هارولد، وقد حصل على حظوة أبيك لتقديمه هذه الخدمة إليه، حتى نهاية حياته، وتلقى كثيراً من الأعطيات منه، رفعته إلى مكانة عالية بين أصحابه، وأنا أسألك يا مولاي الملك، أن تمنحني هذا الإقطاع، فأنا أمتلك سفينة، هي عن جدارة تدعى« السفينة البيضاء»، وهي مجهزة بشكل ممتاز، وجاهزه للخدمة الملكية»، وعلى هذا أجابه الملك:« إن طلبك لاقى القبول لدي، وأنا بالحقيقة قد اخترت سفينة جيدة لنفسي، ولن أغيرها، غير أنني أعهد إليك بابني: وليم، ورتشارد اللذان أحبهما كما أحب حياتي، وكثيراً من نبلاء مملكتي»، ولدى سماع

البحار بهذا فرح فرحاً عظيماً، وتزلف إلى ابن الملك، طالباً منه خمرة حتى يشربها، فأمر له بثلاثة براميل من الخمرة حتى تعطى له، ولدى تسلمه لهم، شرب وأعطى إلى أصحابه فشربوا حتى الثمالة، ولكثرة ما شربوا باتوا مخمورين يترنحون، وبناء على أمر الملك أقلع عدد كبير من البارونات في السفينة مع ابنيه، وأعتقد أنه كان هناك حوالي الثلاثمائة في السفينة السيئة المصير، وعلى كل حال رفض اثنان من كهنة تيرون مع الكونت ستيفن وفارسين، وكذلك وليم أوف رومير Roumare ، والحاجب رابل Rabel ، وادوار أوف سالسبري، وعدد آخر، رفضوا الصعود إلى السفينة، بسبب أنهم لاحظوا وجود حشد كبير من الشبان الجامحين والعنيدين على ظهرها، وكان هناك خمسين مجذفاً من ذوي الخبرة، وحرس بحري من المتحمسين الذين وجدوا مقاعد في السفينة، وكانوا متفاخرين ومخمورين إلى حد أنهم لم يعرفوا الذي كانوا يعملونه، وكانوا لا يقدمون الاحترام إلى أي واحد تقريباً، ويا للأسف، كيف أن عدداً كبيراً منهم لم تكن في قلوبهم مشاعر احترام أبوية نحو الرب، الذي يسكن غضب هياج البحر والريح، ولذلك عندما جاء الرهبان إلى هناك، ومعهم قساوسة آخرين إلى السفينة، وهم يحملون الماء المقدس لمباركتهم، ضحكوا، وطردوهم مع الإهانات والشتائم، وكلهم عوقبوا على الفور من أجل وقاحتهم، وحملت سفينة توماس عدا عن خزانة الملك وبراميل الخمرة، مسافرين فقط، وقد أمروه بمحاولة اللحاق بأسطول الملك، الذي كان مبحراً في البحر المفتوح، وبما أن تقديراته كانت معطلة بالسكر، ولاعتماده على براعته وعلى براعة ملاحيه، ولأنه أراد من دون حذر أن يسبق جميع الذين انطلقوا أولاً، أعطى أخيراً شارة الإقلاع والنزول إلى البحر، ثم بادر المجذفون بسرعة للإمساك بمجاذيفهم، ولأنهم كانوا متحمسين كثيراً ولايعرفون شيئاً عما كان ينتظرهم، جهزوا جميع المعدات الأخرى، وجعلوا السفينة تقفز نحو الأمام، ونزلت في عملية سباق خلال البحر، وبينما كان المجذفون

المخمورون يجذفون بكل ما أوتيوا من قـوة، وقدم مدير الدفة النادر من الانتباه لتوجيه السفينة خلال البحر، ارتطم طرف السفينة البيضاء بعنف بصخرة كبيرة كانت هناك، التي كـانت تنكشف في كل يوم عندما يكون التيـار جـزراً، وتتغطى ثانيـة عند ارتفاع التيـار، وانشطر منهـا لوحـان، ورهيب أن نحكي انقلبـت السفينة من دون ســابـق إنذار، وصرخ كل إنســان في وقت واحد لإصـابتهم برعب كبير، غير أن الماء الذي انصب في السفينة أغـرق على الفـور أصــواتهم، وجميعهم هلكوا سـواء، وفقط أمسك رجلان بسارية قد تعلق بها شراع، وبقيا ممسكين بها خلال الجزء الأكبر من الليل، ينتظران العـون أن يـأتيهما من أية جهـة من الجهـات، وكان الأول بينهما جزار من روان اسمـه بيرولد، وكان اسم الثاني الذي كان نبيلاً هوغيوفري بن غيلبرت أوف ليغلي.

وفي ذلك الحين كــان القمـر في يومــه التـاسع عشر في بـرج الثـور، وأنارت أشعتـه الدنيا لحوالي التسع سـاعات، مظهراً كـل شيء في البحر إلى الملاحين، وبعـدما بقي تـوماس الربان غـارقـاً للوهلة الأولى، استرد قواه، وفي تذكـره لواجبه رفع رأسه لدى وصوله إلى وجـه الماء، ورؤيته للرجلين المتعلقين بطريقة مـا بالسارية فتساءل:« ابن الملك، مـاذا حدث له؟» وعندما أجاب رجال حطام السفينة بأنه قد هلك مع جميع أصحابه قـال:« من العبث بالنسبـة لي البقـاء على قيد الحيـاة»، ومع تفـوهه بهذه الكلمات بيأس وقنوط، اختـار أن يغـرق في الماء نفســه، على أن يمـوت تحت عقوبة الملك الغاضب لفقدانه ولديه، أو أن يعاني لسنين طوال من العقوبة وهو بالأغلال، ودعا الرجلان اللذان كانا يتمسكان بالسارية إلى الرب وهما في الميـاه، وحـاولا إبقـاء أحـدهما الآخـر بالتشجيع، وانتظرا وهما يرتجفان من المصير الذي اختزنه الرب لهما.

وكان الليل بارداً إلى درجة الصقيع، وعليـه بعدما تحمل الشاب البرد الحاد لمدة طويلة، فقـد أخيراً قـدرتـه على الإمسـاك، وعهـد برفيقـه إلى

الرب، وسقط ثانية، وهلك بالبحر ولم يشاهد مرة ثانية، لكن بيرولد، الذي كان أفقرهم جميعاً، وكان مرتدياً لمعطف مصنوعاً من جلود الكباش، كان هو الوحيد بين الجمع الكبير الذي رأى النهار، وأخذ في الصباح وحمل إلى ظهر مركب خفيف من قبل ثلاثة من صيادي الأسماك، ووصل إلى اليابسة لوحده، وفيما بعد، عندما انتعش روى القصة الحزينة كلها إلى الذين رغبوا في المعرفة، وعاش بعد ذلك لحوالي العشرين عاماً بصحة جيدة.

وكان روجر أسقف أوف كوتانس Coutances قد رافق ابنه وليم (الذي كان الملك قد جعله واحداً من حجابه الأربعة الكبار) وأخيه وثلاثة من أحفاده المتميزين إلى السفينة المحكوم عليها من قبل الرب بالدمار، وأعطاهم وأعطى أتباعهم مباركة أسقفية، مع أنهم استخفوا بها، وسمع هو مع كثيرين آخرين كانوا ما يزالون واقفين مع بعضهم على الشاطىء، وكذلك الملك ورفاقه الذين كانوا بعيدين في البحر، سمعوا الصرخات المرعبة للرجال الذين قضي عليهم، لكنهم لم يعرفوا السبب حتى اليوم التالي، وعجبوا مما سمعوه، وسأل أحدهم الآخر عما عنته.

وانتشرت الأخبار الحزينة بسرعة من فم إلى فم خلال الحشود على طول ساحل البحر، ووصلت إلى مسامع ثيوبولد مع نبلاء البلاط الآخرين، لكن في ذلك اليوم ما من واحد تجرأ على إعلان الخبر إلى الملك القلق، الذي سأل بإلحاح عن الأخبار، وبكى الأعيان سراً بمرارة وندبوا بتفجع أقربائهم المحبوبين وأصدقائهم، ولكن في حضرة الملك ناضلوا في سبيل إيقاف دموعهم لتجنب الكشف عن سبب حزنهم الشديد، وعلى كل حال، علم الملك في اليوم التالي، من خلال خطة حكيمة لطفل للكونت ثيوبولد، الذي رمى بنفسه، وهو يبكي، عند قدمي الملك، وعرف الملك منه سبب حزنه وأنه غرق في السفينة البيضاء، فسقط هنري

فوراً على الأرض، وهو حزين يتألم، وبعدما جرت مساعدته للوقوف على قدمية، اقتيد إلى غـرفته الخاصة، وأطلق العنان لبكاء وأنين حاد، ولم يكن يعقوب قد أصيب بالحزن أكثر منه عند فقدانه ابنه يوسف، كما أن داود لم يتفـوه ببكاء أكثـر مـرارة عند ذبح أمنون أو أبشـالوم، وبحكم أن الحاكم الكبير بكى وانتحـب، مثله فعل شعـب المملكة، حيث أطلقـــوا العنان لدموعهم، واستمر هذا البكاء والحزن لعدة أيام، وبقي الجميع بشكل عام يبكون من أجل الخسـارة المفـاجئـة للأمير وليم، الذي عـدوه ولي العهـد الشرعي للملكة الانكليزية، مع زهرة النبـالة العالية، وكان مـا يزال شاباً قد وصل إلى السـابعة عشرة من عمـره، وكان قد تزوج مـن ماتيلدا التي كانت فتـاة من أصل رفيع لها حوالي السن نفسه، وكـان قد نال- بناء على أمر أبيـه- متعة تلقي ولاء أعيان المملكة كلهـا، مع حب كل من أبيه، مع أمل الناس الذي تمركز حولـه، لكن في الحقيقة لايمكن للمذنبين أن يروا وهم مصـابون بعمى آثامهم، أو أن يفهموا الأشيـاء الذي قضى بها ملك السماء بشكل صحيـح لمخلوقـــاته، وإلى أن يمسـك الرجل المذنـب مثل سمكة في الشص أو الطير في الشبكة، ويتـورط في المعـاناة من دون أمل بالنجاة، وفي الحقيقـة عندما يأمل بحيـاة طويلة، وسعادة، وكـرامة، فجأة يعاني من الموت، والتعـاسة، والدمار، وحـول هذا يمكننا أن نشاهد أمثلة واضحة، في الحوادث اليـومية من بداية الدنيـا إلى اليوم الحالي، في كل من المدونات الحديثة والقديمة.

وبكـى الملك الحزيـن على ولديـه، وعلى الفـــرســـــان المحظيين، والبارونات الكبـار، وفوق الجميع هو بكى على رالف الأحمر، وغيلبرت أوف أكسمي، ووصف مـراراً أعمالهم الشجـاعـة، وبكـاهم وهو يذكـر ذلك ويحكيـه، وبكى سـادة كبـار، وعـامـة متـواضعـون على سـادتهم، وأولادهـم وأقـربائهم، ومعـارفهم، وأصـدقـائهم، وبكت الفتيـات على المخطوبات إليهم، وبكت الـزوجـات المحبـات على أزواجهن الأعـزاء،

وأنا لاأريد هنا تكديس الألحان الحزينة، بل سأكتفي بأن أدون هنا أغنية قصيرة نظمت من قبل ناظم متميز:

وصلت الساعة المميتة، سفينة توماس ذات القدر المشؤوم

بسوء وجهت، صدمت صخرة، وتمزقت إلى قطع.

فاجعة مأساوية، لأن جميع أولئك النبلاء الشباب

غرقوا في البحر، وتشاركوا في سوء الحظ نفسه.

أولاد الملوك وذريتهم قذفوا في البحر المحيط،

والذين يبكيهم الدوقات التهموا من قبل تنينات البحر.

أيها الحزن الذي لا نظير له، لا الثروة ولا النسب

يعيد إلى الحياة الذين ابتلعتهم أمواج البحر

الأثواب الأرجوانية والمنسوجة في البيت اهترأت كلها في الأعماق

والذي أنجبه الملك أصبح طعاماً للأسماك.

وهكذا خان السعد الذين وضعوا ثقتهم في قوتهم

الآن يعطي، والآن ينتزع، والآن يرفع، والآن يسحق

ماذا يمكن للحاشية الجيدة، أو الثروة، أو المجد الأرضي

أو جمالك، يا وليم، أن يفعلوا هناك لمساعدتك

الأبهة الملكية انحدرت، والمحيط أزال،

تماماً ما كنت، والذي كنت صائراً لتكونه.

تهدد سوء المصير جميع الذين ضاعوا في المياه العميقة

ما لم تكن رحمة من السماء راغبة في إبقائهم

إذا كانت أجسادهم هكذا غرقت، فإن أرواحهم بسرور تسلمت

أعطية الخلاص، الحزن سوف يكون بعيداً عنا.

من المؤكد أن خلاص الروح ستكون سبباً لسرور حقيقي،

إلى الذين يرعون ذكرى الأعزاء عليهم

لكن العقول البشرية لا يمكنها أن تعرف، بسبب حزنها العميق

فيما إذا كانت الراحة السرمدية قد وصلت إلى الذين غطتهم أمواج البحر.

كيف يمكن لإنسان فان أن يصف كيف بكى كثير من الناس من هذه المأساة المريعة، أو كيف أن كثيراً من الأراضي قد انتزعت من ورثتها الشرعيين، ولذلك تبع ذلك كثيراً من الآلام؟ فلقد هلك وليم ورتشارد ولدا الملك، كما رويت، واختهما ماتيلدا، زوجة روترو كونت أوف مورتاني، وكذلك رتشارد إيرل أوف شيستر، الذي كان شاباً، صاحب شجاعة كبيرة، ولطف متميز، مع زوجته ماتيلدا، التي كانت أخت ثيوبولد، ولقد قيل بأن أوثيور Othuer ، أخو رتشارد، وابن هيوج إيرل تشيستر، والمعلم والوصي على ابن الملك، عندما انقلبت السفينة فجأة، وكان اللوردات النبلاء يغرقون من دون أمل، لف ذراعيه فجأة حول الشاب، وسقط معه في البحر إلى منيته، وابتلع وغرق في الأمواج الشاب ثيري Thierry قريب هنري امبراطور الألمان، مع ولدين وسيمين لإيفو Ivo أوف غراند ميسنيل، ووليم أوف رودلان Rhuddlan الذي كان ابن عمهم(خالهم) وكان يعبر البحر بناء على أمر الملك ليتسلم إقطاعيات أبيه في انكلترا، وكذلك وليم بيغود مع وليم أوف بيرو Pirou الذي كان قهرمان الملك، وغيوفري رايدل Ridel ، وهيوج أوف مولين Moulins ، وروبرت موديت Mauduit ، وواحد اسمه غيسولف Gisulf كان كاتباً للملك، وعدد كبير آخر من ذوي الأنساب الرفيعة، هؤلاء جميعاً غرقوا

وابتلعتهم المياه، وقام أقرباؤهم والمتعايشين معهم عن قرب وأصدقاؤهم، الذين عانوا من الكارثة والخسارة في مقطعات متنوعة بسبب موتهم، بندب هؤلاء ومصيرهم المفجع، ولقد قيل بأن ثمان عشرة امرأة هلكت هناك، وقد كن جميعاً بنات أو أخوات، أو حفيدات، أو زوجات ملوك وكونتات، والرحمة وحدها والعاطفة هي التي أثارتني لرواية هذه الحكاية، والاجتهاد هو الذي أرغمني على كتابة رواية صحيحة حول هذه الحوادث من أجل العصور المقبلة، لأن الأعماق السوداء لم تبتلع أحداً من أقربائي، وما من واحد دفعني على البكاء بسبب قرابة الدم، بل فعلت ذلك فقط صدوراً عن الشفقة.

وعندما سمع سكان الساحل الخبر الصادق حول الكارثة سحبوا السفينة المنشطرة مع خزانة الملك كلها إلى الساحل، ووجدوا كل شيء كان سالماً باستثناء الناس، ثم في الخامس والعشرين من تشرين الثاني، عندما كان المسيحيون يحتفلون بعيد القديسة كاترين، العذراء والشهيدة، ركض الناس ذهاباً وإياباً على طول الشواطىء، ينتظرون بتشوق ظهور أجساد الموتى، غير أنهم أخفقوا في العثور على أي منهم، فشعروا بخيبة الأمل تجاه المكافآت التي أملوا باستلامها، وبحث الأعيان الأثرياء بمواظبة عن سباحين مجربين وعن غطاسين مشهورين، ووعدوهم بمبالغ عالية إذا اكتشفوا أجساد الموتى الأعزاء عليهم، حتى يتمكنوا من دفنهم بشكل لائق.

وكان قسطلان مورتين مواظباً بشكل خاص في البحث عن أقربائه، لأن جميع بارونات وكبار نبلاء تلك الكونتية قد هلكوا تقريباً، وفقط- كما قلت- الكونت، بسبب أنه كان يعاني من إسهال شديد، مع فارسين هما روبرت أوف سوقويفيل Sauqueville ووولتر كانوا قد تركوا السفينة، ثم بقضاء الرب عبروا سالمين في سفن الملك، بينما الذين بقيوا هلكوا، وجرى العثور على جسد الإيرل رتشارد وعدد قليل آخر بعد

مضي عـدة أيام، في مكان بعيـد عن موقع الغـرق، وقـد حملوا إلى هناك بوساطة التيارات اليومية للبحر المائج، وتم التعرف إليهم من قبل الذين عرفوهم من خلال ألبسة متميزة كانوا مرتدين لها.

—٢٧—

في العام ١١٢٠ لتجسيـد ربنا، وفي العـلامة الثالثـة عشرة، قام البـابا كاليكستوس بعدما عمل تسوية مرضية كثيراً لشؤون الكنيسة في فرنسا، وبعـدما أنجـز هذا عاد إلى إيطاليـا آخذاً معـه حاشيـة كبيرة من كل من الكنسيين والنبلاء المدنيين، وجـرى الترحيب به من قبل الرومان وحكم الكرسي الرسولي لمدة خمسة أعـوام، وكان رجلاً عمل أعمالاً كثيرة جيدة مع معـونة الرب، وكان مشهـوراً ومرئيـاً في أيامنا بمثابة نور للكنيسـة، ونموذجـاً للفضائل، وفي سـوتري Sutri وضع بوردين في السجن، وهو البابا المضاد الذي كان ظالماً للكنيسة، وحبسه في دير كافا Cava ، لمنعـه من إحداث اضطراب وإزعـاج للكاثوليك بوسـائل تآمره، وكـان هذا الدير دير رهبـان مقـدسين، تمتعـوا بوفـرة كبيرة من الأطعمـة ومن الأشيـاء الأخـرى الضرورية للحيـاة الإنسـانيـة، وذلك بما يتـوافق مع مراعاة النظام، وكان مكاناً لايمكن الوصول إليه تقريباً من الخارج، لأنه ما من أحـد يمكنه الدخول إليـه باستثناء بأن يصل وحيداً ومـن مدخل واحـــــد، ولهذا أطلـق على هـذا الديـر اسـم«كهف» مثلما يطلـق على الحيوانات المفترسـة اسم أسماء أسود أو دببة، ويحبسـون في وكر، لمنعهم من مهـاجمة الناس بشكل وحشي أو مهـاجمة قطعان الحيـوانات، إذا مـا ركضت في الخارج بحـرية وحسب رغبتها، وهكـذا فإن الرجال القسـاة وغير المنضبطين الذين يتجولون بصـورة واسعة مثل الحمـر الوحشية في الصحراء، ويصيبون الآخرين بالجراحة، تم بتوبتهم الشخصية، إرغامهم على العيش وفقاً للقانون في كهف النظام هذا، تحت نير الرب.

**—٢٨—**

عزم الملك هنري، الذي فقد زوجتـه وولده، على اتخاذ زوجة أخرى، وذلك بناء على نصيحة مستشاريه الحكماء، وقد تزوج من فتاة جميلة هي أديلـــزا Adeliza ابنة غودفري دوق لوفيان Louvian ، وقد تزينت بشكل مهيب بـالعـلامـة الملكيـة، وقـد تزوجهـا تبعـاً لطقـوس الكنيسة، وقـد ازدهرت في المملكة لمدة خمسة عشر عـاماً كملكة، وذلك بعدما جرى تكريسها على أيدي الكهنة، ومع أنها كانت غنية في الأشياء الأخـــرى، هي لم تنجب حتى الآن الـولد المرغـــوب بـه، ووزع الملك الحكيم بعقلانية مراتب إقطاعيـات الذين ماتوا بين الأحياء، وقد أعطى زوجاتهم، وبناتهم، وحفيداتهم مع مـواريثهم بالزواج إلى فرسانه، وبهذه الطريقة رقّى وكافأ كثيرين، لم يكونوا ينتظرون الترقية.

وتسلم رالـف أوف بايـو إيرليـــــه تشيستر مع جميـع ميراث الإيرل رتشارد لأنه كان ابن خاله مـن خلال ماتيلدا أخت الإيرل هيوج، ولهذا كان الوريث الأقـرب، وقد تزوج من لوسي Lucy أرملة روجر فتز جيرولد، وأنجب منهـا ولداً، هو وليـم رانولف Ranulf ، الذي بعد موته آلت إليه كونتية تشيستر وجميع ميراثه على طرفي القنال.

**—٢٩—**

بعدمـا عقد فولك كـونت أوف آنجو معـاهدة سلام مع ملك انكلترا، وثبت التحـالف وأكده بزواج أولادهما كما وصفت، أصبح عظيم الرغبـة في طلب المصـالحة مع الرب، وأن يحصل على خــلاصـه، فكرس نفســه للتكفير عن الجرائم التي اقترفهـا، فترك أراضيـــه تحت رعـاية زوجتــه، وولديه الشـابين: غيوفـري، وهيليـاس، وانطلق نحو القـدس، حيث بقي لبعض الوقت، مـرتبطاً بفرسـان الداوية، وعندما عـاد إلى الوطن بناء على مـوافقتهم، أصبح عن طواعيـة تابعـاً لهم، ويـدفع إليهم الجزية، حيث أنه

دفع إليهم ثلاثين قطعة كل عام من نقود أنجو، وهكذا بوساطة إلهام رباني، دفع اللورد النبيل مبلغاً سنوياً إلى الفرسان موضع الإعجاب، الذين كرسوا حياتهم إلى الخدمة الجسدية والروحية للرب، وقد رفضوا كل شيء في هذه الدنيا، وواجهوا الشهادة، وبمثله الذي كان موضع تقدير، حرض كثيراً من النبلاء الفرنسيين الآخرين للقيام بواجبات مماثلة.

—٣٠—

بعد مجمع الرايمز الذي كتبنا رواية كاملة عنه، صار رؤساء الديرة في ليون وأسقف ماكون مع أساقفة كثيرين آخرين، معادين كثيراً للكلونيين، فقد أخذوا منهم كثيراً من الممتكلات التي أعطيت إليهم من قبل الآخرين، وزودوا بالأطعمة الثوار من الكهنة العلمانيين الذين حسدوا دوماً الرهبان، وقد أخضعوهم للإهانات خلال أبرشياتهم، وظلموهم بقسوة بشكل مباشر، أو من خلال موظفين من المراتب الدنيا، ولذلك كان الرهبان غير قادرين على تحمل الأذى والإهانات، وقد تضرروا كثيراً، ولذلك هربوا إلى الحظيرة الديرية، مثل شياه فارة من أنياب الذئاب، وعلاوة على ذلك تفجر خلاف كبير فيما بينهم في قلب الدير بالذات، فقد نشط بعض الرهبان بغيرة ضد راعي الدير بونتيوس Pontius ، وتقدموا باتهامات ضده أمام البابا كاليكستوس في روما، حيث ادعوا أن كان عنيفاً وكثير الإسراف، ويبدد الموارد الديرية في أعمال عبثية، وعندما سمع بهذا بات شديد الغضب، وبحماقة استقال من منصب راعي الدير بحضرة البابا، وانطلق ليقوم بالحج، وقد أمضى بعض الوقت في القدس وجبل الطور، وفي الأماكن المقدسة الأخرى في فلسطين، حيث عاش مولانا يسوع فيما مضى بالجسد بين الناصريين الفقراء.

وانزعج البابا كثيراً لأن بونتيوس قد غادر مغاضباً من دون الحصول على اذنه أو مباركته، وأمر رهبان كلوني بأن ينتخبوا راعي دير منوائم

لأنفسهم، وقـد اختاروا لأنفسهم الـراعي هيوج، وكـان رجـلاً متقدمـاً بالسن صاحب حياة مثالية، وقـد توفي بعد مضي ثلاثة أشهر، وقد دفنوه في الجزء الشمالي من الممشى المسقـوف، وكتبـوا هذه الأبيـات على قنطرة حجرية رفعت فوق ضريحه:

هنا يرقد هيوج الثاني راعي دير كلوني

كان أبوه من بيسانكون وأمه من ليون

مبجل مع السن، مقدس، دائماً مغتبطاً

في محبة وخدمه نبوية، إرتبط بقوة بك أيها الخالق القدير.

عله يعيش الآن إلى الأبد بمباركة وسلام معك.

ثم انتخب رهبان كلوني راعياً لهم بطرس(١)، وكـان تقياً، وصاحب أصل رفيع، هم يعيشون الآن تحت حكمه منذ وقت طويل.

وفي الوقـت نفســه حظـي راعي الديـر بونتيــوس باحترام كبير في اليهـودية، وانتشرت سمعته وقـداسته وعظمتـه في الخارج ووصلت إلى الأراضي الأجنبية أيضاً، ثم كما تفعل الطبيعـة البشرية بالتقلب قرر ترك أمـاكن الأنبيـاء والرسل والعودة إلى غـاليـا، حيث تسبب سبب عـودته كثيراً من الإرباك، فبعـدمـا عـاد مـن المناطق الشرقيـة، وصل إلى كلوني لرؤية الرهبان من أصدقائه وإخوانه، ثم إن الشيطان أثار خلافات دنيئة تفجرت بين الرهبان، ففي ذلك الوقت كان برنارد غروسوس Grossus رئيس الرهبان، وقد قيل بأنه كان هو الذي أثار المؤامرة الأولى وعملها، وقد قرر بعض الرهبـان استقبال بونتيوس بتشريف وكأنه راعي ديرهم، ولم يوافق آخــرون وقـاومـوا هذا بعناد، لكن- على كل حـال- كـان

---

١- هو بطرس المبجل الذي كـرس في ٢٢-آب ١١٢٢م، وقد عـاش حتى عام ١١٥٦، وقـد سافر أثناء الإعداد للحملة الثانية إلى طليطلة في الأندلس لتحصيل المعرفة عن الإسلام.

الفرسان وشعب المنطقة من كل من الفلاحين وسكان المدينة، مسرورين كثيراً ومبتهجين بعودته، لأنهم أحبوه كثيراً بسبب دماثته وكرمه، وعندما علموا خبر الانشقاق بين الرهبان، اندفعوا إلى داخل الدير وحملوا بونتيوس وأتباعه بالقوة، وضد إرادتهم إلى أبعد الحدود، ومحزن أن نروي، أن الناس الغاضبين العدوانيين شقوا طريقهم بالقوة إلى داخل الدير، وكأنهم عدو مسلح قد استولى على مدينة، واندفعوا للنهب، ومن دون حق استولوا على أثاث وملابس عبيد الرب وفتحت أبواب مهاجع النوم والمصحات والأبنية الديرية الأخرى العائدة للرهبان، والتي كانت حتى الآن مغلقة بوجه العلمانيين، فتحت على مصراعيها ليس أمام الرجال العقلاء والنساء فقط، بل أمام الأوغاد والبغايا، ووقعت في ذلك اليوم بالذات معجزة مرعبة هناك، فصحن دير الكنيسة الكبير الذي بني حديثاً، وقع ولحقه الدمار كلياً، ولكن حمداً لحماية الرب ما من أحد أصيب بأذى، وهكذا أخاف ربنا الرب بالدمار غير المتوقع كل واحد، بسبب القتال المباشر، ولكن مع هذا حفظهم برحمته التي لا حدود لها وأبقاهم سالمين، وكان الرعاع المتفرقين قد اندفعوا إلى هناك من كل جانب، ومن دون حياء لم يقيموا وزناً لأي شريعة، لكن شكراً لليد الربانية نجوا من دون التعرض للأذى بالسحق بوساطة الانهيار الكبير، وحفظوا بشكل إعجازي ليمتلكوا الوقت من أجل الاستغفار والتوبة، وكان راعي الدير بطرس غائباً في ذلك الوقت، حيث كان قد ذهب برحلة إلى أماكن بعيدة، لصالح أعداد لاتحصى من الرهبان، الذين كان هو مسؤولاً عن سعادتهم الروحية، وبادر الرهبان الذين وقفوا إلى جانبه مسرعين للبحث عنه، وقدموا له رواية مفصلة عن الإهانات والأضرار التي أنزلت من دون حياء على عبيد الرب، فانطلق على الفور- ليس على كل حال- إلى كلوني، بل إلى روما- وأخبر البابا بالذي حدث، مؤيداً بشهادة الرهبان الذين شهدوا الوقائع، وانزعج البابا بعمق للذي سمعه، بسبب كل من الإذلال الذي لحق بالرهبان،

وبسبب جريمة الناس الذين خرقوا شريعة الرب، واستدعى بونتيوس على الفور، وأمره بأن يقدم نفسه للمحاكمة أمام الكرسي المقدس، وللإجابة على التهم التي رفعت ضده، ومع أن بونتيوس قدم إلى روما رفض خدمة البابا، وعندما دعي من أجل المحاكمة رفض الظهور في اليوم المحدد.

ولذلك أرسل الحبر الروماني بطرس إلى كلوني مع رسائل بابوية، ورموز الوظيفة، وأمر الرهبان بطاعته بدقة وفقاً لقانون الأب المقدس بندكت، واستجابوا لهذه الأوامر، واستقبلوا راعي الدير، الذي فرح كثيراً بنصره، وخدموا في ظل نير حكومته مع احترام مشكور للشريعة الربانية حتى الوقت الحالي، وبعد مضي عدة أيام بعث البابا أعوانه لاعتقال بونتيوس المتمرد، ورماه في السجن، ثم بعد مضي وقت قصير، استولى حزن عظيم على بونتيوس، فوقع مريضاً، وأنهى أيامه هناك، وقد بكاه كثيرون، وهكذا قد قيل:

غالباً ما تخفق النهاية أن تكون مساوية للبداية

على كل واحد أن ينصرف بكليته بالصلاة والنذر للرب، الذي هو الصلاح الأعظم، حتى- وهو الذي غرس الصلاح في أنفسنا- يحقق ذلك، ويقويه ويحفظه أثناء الإحباط والازدهار من أجل أن ينال الأبطال المؤمنين مع السرور مكافأة الميراث السماوي.

—٣١—

في يوم الأحد، الثامن والعشرين من أيلول [١١١٩] في العلامة الثالثة عشرة، أثناء إنشاد القداسات في حوالي الساعة الثالثة، كانت هناك هزة أرضية كبيرة في انكلترا تسببت بظهور تصدعات في جميع جدران وأبنية الكنائس في أربع كونتيات، فقد وقع هذا وشعر الناس به ورأوه في تشاير Cheshire ، وشروبشاير Shropshire ، وهيرفورد شاير

Herford shire ، وغلوستر شـــاير Gloucestershire والمناطق المجاورة، وترك الناس شـاحبين يرتجفون، وبعد وقت قصير مـات عدد من أعيـان الكنيسـة في انكلترا ونورمـانـدي، تاركين إلى آخـرين- وفقـاً لقضاء الرب وحكمته- حمل أعباء العمل الكنسي، الذي حملوه بسرور.

وفي الخامس من حـزيران مـات غيـوفـري أوف أورلين، راعي دير كـراولاند Crowland الذي كـان أباً لكثير البشر، محبـاً للواجب، بالنسبة لرهبـانه، وقد خلفـه وولثيوف Waltheof أخو غـوسباتريك Gospatric ، الذي كان انكليزياً من أصل نبيل، وكذلك مات فجأة ألبـولد Alebold المقـدسي، الذي كـان راهب بيـسـك، وراعي دير القديس إدموند- الملك الشهيـد، وحدث موته في بري Bury ، ومن بعـده حكم أنسلم حفيـد رئيس الأسـاقفـة أنسلم، الدير لمدة طويلة من الزمن، وبعـد مـوت روبرت أوف لايمسي Limesey أسقف أوف ميركيـان Mercians ، خلفـه روبرت بيشي Piche ، وعندمـا مـات، جـرى وضع روجـر حفيـد غيـوفـري أوف كليتـون Clinton مسـؤولاً عن الكرسي الأسقفي، وبعـد وفـاة توررولد Turold راعي دير بيتر بورغ Peter borough ، أصبح متـى أوف مـونـت -سينت- مـايكل، الواسع الشهـرة ، راعياً للدير، وقـد خلفـه جون، راهب سيـز Seez ، الذي كـان حسن الثقافة في الفنـون العقلية، وعندمـا مات، عهد الملك بدير بيتر بورغ إلى قريبه هنري، الذي كان راعي دير القديس يوحنا المعمـدان في أنغلي Angely ، غير أنه طرد من قبـل الرهبـان ومن قبل وليم دوق أوف بواتو.

وبعـدما قـاد فـولتشرد Fulcherd ، الذي كـان أول راعي لدير شروبري Shrewsbury ، الدير في عبـادة الرب، حمل غودفـري، راهب سيـز مسـؤوليـة العـلاج الأسقفي هناك، وعندمـا حمل بعيـداً، بعـد وقت قصير، بوفاة مفـاجئة، أمسك هيربرت بمقود توجيـه الدير الناهض، وبعد

وفـاة غـونتر الحاكـم القـدير والنشيط لـدير ثورني Thorney ، اختير روبرت أوف برونلاي Prunelai ليحل محله، وقـد أخـذ مـن دير القديس إيفرول ليحكم الكنيسة، لأن كان متعلماً كثيراً، وفصيحاً، وأميناً.

وفي أيام البـابا باسكال، جـاء رالف، رئيس أساقفـة كـانتربري لرؤية الملك في نورماندي، ومن هناك قصد رومـا، مع أنه كان آنذاك يعاني من ورم خبيث في قـدميه، غير أنه سمع وهـو على الطريق خبر وفاة البـابا، فبعث رسـلاً إلى رومـا، في حين عـاد هـو نفسـه إلى روان، وبقي في نورمـاندي لمدة ثلاثة أعـوام تقـريبـاً، وخلال إقـامتـه هناك، وفي العيـد السنوي لانتقال القـديس بيندكت، الذي يحتفل به بمثـابة عيد كبير، من قبل الرهبان، وأثناء خلعه لملابسه بعد تـلاوته قداساً، وقع فجأة مريضاً، وفقد قـدرته على الكلام، وبعد مضي عـدة أيام، وبفضل مهـارة الأطباء الذين اهتمـوا به، بدأ يتكلـم، لكنه لم يسترد أبداً القـدرة التـامـة على استخدام لسانه، وبعد عامين من ذلك أصيب بالشلل، وبعدما أعدت له عربة خاصة، حمل عائداً إلى كرسيه، وتمدد مريضاً تحت عناية بطانته.

أخيراً في العـام ١١٢٣ لتجسيـد ربنا، في العلامـة الأولى، مـات رئيس الأسـاقفة رالف في كـانتربري، في العشرين من تشرين الأول، وبعد عـدة سنوات خلفـه وليم أوف كـوربيل Corbeil ، وكـان كـاهناً نظاميـاً، وهكذا لم يكن هناك التزام بالعـادة القديمة، بسبب أن الكهنة كـانوا دوماً متلبسين بالحسـد بالنسبـة للرهبـان، فقـد حكم الراهب أوغسطين، الذي كـان أول من بشر بإنجيل المسيـح في انكلترا، وحـول إلى المسيحيـة الملك إيثيلبيرت Ethelbert وحفيده سـابيرت Saberht مع سكان كنت ولندن، حكم بمثـابة رئيس رهبان ومطـران لجميع بريطانيا بناء على أمـر من البابا غريغوري، ومنذ ذلك الحين كـان جميع رؤسـاء أساقفة كانتربري حتى رالف من الرهبان باستثناء ويغهيرد Wigheard ، وأودا Oda ، وستيغاند Stigand ، وفي الحقيقة كـان ويغهيرد _شماس الملك هلوثير

Hlothere_ قد جرى انتخابه لرئاسة الأساقفة، وأرسل إلى روما ليتسلم التكريس من يدي البابا أغاثو Agatho ، وأخر البابا الاحتفال لمدة عشرة أيام، وفي تلك الأثناء عندما كان ويغهيرد ينتظر المباركة، حمل إلى فراشه، ولفظ روحه من دون مسحه أسقفاً، وجرى اختيار أودا من بين رجال الدين بسبب نبالته ودماثة خلقه، وتمت مباركته كرئيس أساقفة، ولكن، عندما علم فيما بعد بأن أسلافه كانوا رهباناً، أقدم عن طواعية وبتقوى بأخذ العهود الدينية وخدم الرب بمثابة راهب ورئيس أساقفة حتى موته، وكان ستيغاند Stigand —على كل حال— شماس الملكة إما Emma ، رجلاً دنيوياً كثيراً، ورجلاً طموحاً، وقد أقحم نفسه في كرسي لندن أولاً، ثم في كرسي كانتربري، وهو في الحقيقة لم يتسلم قط طيلساناً من البابا في روما، بل كان قد حرم كنسياً من قبل البابا الاسكندر، ودنس هارولد عندما توجب أن يباركه كملك، وعلى هذا فإنه كما رقى نفسه ازداد تجبراً، قد تسبب في أن يبكي عندما أذل إثر ذلك وحبس من قبل الرب، فعندما ثبت وليم الأول في المملكة، جرى خلعه بموجب قرار صدر عن مجمع ديني بسبب جرائم آثمة، ولذلك هو لم يحسب في قائمة الأساقفة.

وشرف الانكليز الرهبان دوماً، لأنهم تحولوا إلى المسيحية بوساطتهم، لا بل حتى أن رجال الدين قاموا وهم يشعرون بالتبجيل والأدب والسرور بالتنازل عن أماكنهم إلى الرهبان، والآن على كل حال تغيرت العادات والشرائع، ودفع الكهنة الكهنة العلمانيين في سبيل إذلال الرهبان وسحقهم.

## —٣٢—

وفي هذه الآونة بات روجر، راعي دير القديس إيفرول، الذي أنهك بالسن وسوء الصحة، فاقداً لقواه المبكرة، وأخذ يتطلع فوق كل شيء لأن يتحرر من واجباته الأسقفية، ولذلك بعث باثنين من رهبانه

النبلاء، وهما أرنولـد أوف تيليول Tilleul وغيلبرت أوف لي إيسارت Les Essarts إلى انكلترا، وبعث بهذه الأحرف، التي أمر رالف لورانس بنظمها وصياغتها إلى الملك، على أيديهما:

«إلى صاحب السيادة العظيمة، هنري ملك الانكليز. رُوجر راعي دير سينت إيفرول المتواضع وغير الجدير، خلاص من خلاله يحفظ الملوك، بما أنه كما قال الرسول:« لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله»[ رومية :١٦/ ١]، إن حاجات بيت الرب ينبغي تجهيزها حقاً من قبل كل سلطة، ولذلك، إنني يا مولاي، الذي حتى الآن— مع أنني غير جدير— قمت بإذن من الرب، وتحت توجيهكم السامي قد توليت إدارة رهبان دير القديس إيفرول، من خلال منصب راعي الدير، الذي هو بالنسبة لي هو عبء أكثر منه تشريف، ولقد شغلت هذا المنصب لسنوات عديدة من خلال الازدهار وعدم الازدهار، متمتناً بمساعدتكم، وإنني الآن قد أنهكت بسبب التقدم بالعمر، وبت ضعيفاً بالجسد، وأخشى أن أعيق الكنيسة بدلاً من أن أفيدها، لأن طبائع البشر تتغير مع تغير الأعمار، وبناء على نصيحة من آبائي الروحيين: رئيس أساقفة روان، وأسقف ليزوي، بالإضافة إلى عدد من رعاة الديرة، ومختلف الشخصيات الكنسية، وكمتضرع ألتمس رحمتك بأن تشفق علي، أنا الذي خبرت حتى الآن محبتي نحوك شخصياً، حتى في أدنى الدرجات، أن تحررني من هذا الحمل الثقيل، الذي أنا بدون فائدة بالنسبة له، وتماماً غير قادر، وأن تؤمن راعياً جديراً وموائماً لبيت الرب، وفقاً للحكمة التي منحك الرب إياها، وأن أقول الصدق، إنه خشية أن يظن أنني هارب من أناس غير منضبطين وغير مطيعين، وأريد إراحة نفسي بموجب مثل هذه الحجج، إنني أشهد أمام الرب لصالح محبة وطاعة وبساطة هؤلاء الناس، الذين تعلموا أن يتناولوا كل من الحليب والطعام القاسي من وفرة الكنيسة

الأم، ووجدتهم مطيعين لجميع أوامر الرب، وأبيهم الروحي، ومسالمين في طاعتهم، وإنني أحتج فقط بكل بساطة بعدم الكفاية وعدم المقدرة في ضعفي وتقدم سني، وإنني أرجوك يا أكثر الملوك فخامة، أن لاتتأخر في اتخاذ إجراء، وبإخلاص إني أصلي إلى ملك الملوك، وذلك كمذنب، بأن يتلطف ويتنازل بإعطائك العون في هذا، وداعاً».

وتعاطف الملك الشفوق مع الرجل العجوز، البسيط والتقي، عندما علم بعجزه، وبعث برسائل أمر فيها جماعة الرهبان بأن ينتخبوا راعياً جيداً ومساوياً، ليتولى حكمهم، ولذلك عندما رجع الرسل، اجتمع ستة وستون راهباً باسم الرب، وأصغوا بعناية إلى الفصل من قانون القديس بندكت، حول تعيين راعي دير، ثم بحث روجر الراعي المبجل مع أبنائه الروحيين حول الأفضل من أجل إنقاذ الأرواح، وباسم الرب اختاروا واحداً من أفرادهم ليشغل مكان راعي الدير، فقد اختاروا وارين أوف لى اسارت Essarts المدعو الصغير، حتى يتولى إدارتهم كراعي للدير، وبفعلهم ذلك، قلدوا الرسل الذين اختاروا بالقرعة متياس Matthias ، رجل الرب الصغير، حتى يجعلوا عددهم اثني عشر، الذين تقدسوا بإرادة الرب، وقام الراهبان الكبيران المسميان أعلاه بناء على أمر الدير، فأخذوا راهبهم المختار إلى جون أسقف ليزوي، وبترخيص منه عبروا القنال أثناء الشتاء العاصف والبرد الحاد، ومضوا يبحثون عن الملك، الذي كان آنذاك مسافراً في نورثأمبريا Northumbria ، وسافروا عبر الطرق الموحلة الطويلة، وقد وجدوه في يورك، أثناء عيد القديس نيقولا، أسقف ميرا Myra ، ووافق الملك العظيم على الانتخاب، بعدما سمع خبر الذي قرره الرهبان، وأعطى الرعاية إلى الراعي المنتخب بناء على نصيحة ثورستان رئيس أساقفة يورك، مع ستيفن راعي دير تشارترز، والذي صار فيها بعد بطريركاً، كشاهد، وبعد هذا منحه الملك جميع الممتلكات الديرية والمراتب والامتيازات التي كانت بأيدي أسلافه حتى

ذلك الحين، وأصدر صكاً مختوماً بالختم الملكي، كضمانة ضد المنازعين، هذا نصه:

« من هنري ملك الانكليز، إلى جون أسقف ليزوي، وستيفن كونت مورتين، وروبرت أوف لى هاي La-haye ، وإلى أتباعه والموالين له من أهل نورماندي، تحيه، اعلموا بأنني أعطيت ومنحت دير القديس إيفرول، إلى وارين الراعي، وأنا أرغب، وبثبات آمر بأنه ينبغي أن يستحوذ على الدير بشكل جيد وبسلام، وبأمن وتشريف، مع الكنائس والعشور والأراضي والغابات والأراضي المفتوحة، وجميع ممتلكاته، وأن يكون بشكل جيد، وأمين ومشرف مثلما فعل أي واحد من أسلافه شهد: ثورستان، رئيس أساقفة يورك، ووليم أوف تانكرفيل Tancarville ، ووليم أوف أوبني Aubigny ، في يورك».

وبعدما جرى تثبيت وارين بالسلطة العليا للملك القدير، عاد إلى نورماندي، وأمضى موسم الصوم الكبير مع إخوانه الرهبان، وتمت مباركته من قبل جون أسقف ليزوي، في يوم صعود الرب( ٢٤ —أيار ١١٢٣)، ومنذ ذلك اليوم تعلم أن يتحمل متاعب وأسف العناية الرعوية، وبشكل حتى يجري الثناء عليه بعاطفة بنوية للطف إدارته بالنسبة لروجر العجوز المبجل، وللأعوام الثلاثة التي بقيت من حياته كان يطيعه في كل سبيل من السبل، مثلما يطيع الابن أبيه أو الطالب معلمه، وأمضى الرجل العجوز اللطيف أيامه في قاعته، حسبما جرت عادته، صارفاً وقته إلى المزامير والصلوات، والمحادثات التقوية، وكان معه كاهناً جيد التأهيل ليكون شماسه ورفيقه، منه كان يسمع القداس، والصلوات، الساعية في بيعة القديس مارتن، ومعه كان يتحادث ويسأل ويجيب على أسئلة حول الرموز الغامضة في الكتابات المقدسة، ونصوص من الرسائل، وبما أنه شعر دوماً بثقل العناية الخارجية وأنها مؤذية وغير مؤيدة، قدم الآن في حريته الشكر للرب بإخلاص ومن

دون ذنب، وبقدر ما ازدادت حريته انتظر بثقة أكبر مع الغبطة الأيام المتبقية من حياته.

وأخيراً أصبح هذا الرجل العجوز المبجل في عام ١١٢٦ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الرابعة، شديد المرض أكثر مما هو معتاد، وبعدما تلقى قربان المسيح الأقصى، وأكمل جميع وظائفه كما ينبغي كعبد للرب، مات في الثالث عشر من كانون الثاني، وعهد تلميذه وخليفته، يساعده أتباعه الرهبان بروح معلمه إلى الرب، واحتفل بشكل مهيب بطقوس دفنه، ففي اليوم التالي حمل جسده إلى بيت صلاة الرهبان، ودفن هناك باحترام إلى جانب الراعي أوسبيرن Osbern ، وقد نظمت قطعة صغيرة ذات تفاعيل سداسية حتى تكتب على قبره، واهتممت بذكر الحقيقة، والصدق، بدلاً من العبارات الرنانة، وصليت من أجله إلى المخلص الرحيم، متذكراً السمات الجيدة التي زرعت فيه ربانياً، وقد كتبت هكذا:

أيها المسيح يا ملكنا احفظ هذا الأب اللطيف والأمين

روجر، الذي من أجلك تحمل الكثير بصبر

جرد نفسه من الأراضي والبيوت، لا بل حتى من إرادته الذاتية،

لقد ناضل حتى يتبعك في طريق الاستقامة

كان اسم أبيه غيرفاس واسم أما إمّا

فيه أشع نور الفضيلة، وكثير من الاحتشام

وككاهن حسن التأسيس في الدراسة، اختار روجر عن طواعية

وسرور حمل نير الأب المبارك بندكت

ولمدة طويلة كان مستقيماً، ولجدارته

جرى اختياره من قبل أتباعه راعياً

- ١٨٦٢٨ -

وهكذا عندما دعي سيرلو إلى سيز ليكون أسقفاً

أخذ دير القديس إيفرول روجر ليكون حاكمه

لمدة خمسة وخمسين عاماً خدم الرب كراهب هناك

ولمدة ثلاثة وثلاثين عاماً عرفه القطيع راعياً له

قبل تسعين راهباً هناك للاختبار

وعلمهم قبول الطاعة الديرية

وكان رجلاً لطيفاً وبسيطاً أشع بأعمال الصلاح

وجه الرجال بشكل جيد، وكان هو المثل الأفضل بين الجميع

وأخيراً، أنهك وتقدم بالسن، سلم جسده

للأرض، عند حلول الظلام في الثاني عشر من كانون الثاني

أيها الملك المبارك، دع النور يفرحه عندما يجري غفران ذنوبه

عله وهو الذي أحب السلام هنا يتمتع بالسلام السرمدي.

آمين.

—٣٣—

في العام ١١٢٢ لتجسيد ربنا، وفي العلامة العاشرة، أثيرت عاصفة جديدة للحرب من قبل الروح الشيطانية، ووقعت مذابح غير ملجومة ووحشية، وسفح الدم البشري بشكل مأساوي، ووجد أسوأ الغضب مكاناً لنفسه في قلوب الأشرار، وقد ترك حراً مرة أخرى مستشرياً ومثيراً الناس لدمار أنفسهم وأتباعهم بوساطة الثورات، وأثير البلاء بسبب السلم والهدوء العام، وعندما حاول أتباعه تدمير كرامة الآخرين، تعرضوا هم أنفسهم في كثير من الأحيان، بحكم الرب

العادل، إلى القتل بأسلحتهم، فكم هم حمقى وعميان الناس الذين يرغبون بالحرب في أيام السلام، الذين عندما يكونوا سعداء يبحثون عن التعاسة مثلما يبحث العطشان عن الماء، ولا يعرفون كم هو ثمين الحظ الجيد عندما يكونوا ممتلكين له، وما أن يفقدوه حتى يسعون لاسترداده، يسعون عبثاً لاسترداده وهم يتعذبون بوساطة البلاء، ولذلك يصلون إلى حالة ندب وبكاء خسارتهم التي لايمكن تعويضها، ولسوف يستمرون بالبكاء من دون مواساة.

وهكذا فإن كثيراً من الناس، وقد رأوا فقدان الملك هنري لولي عهده الشرعي بعد هلاكه، وأن الملك أخذ يتقدم بالسن من دون أولاد شرعيين، لذلك شرعوا بعاطفة قوية بتبني قضية ابن أخيه وليم، فكرسوا جميع نشاطاتهم لرفعه إلى السلطة، وكان الملك نفسه قد ارتبط عن قرب بروبرت كونت ميولان، الذي كان مؤيده الخاص ومستشاره في بداية حكمه، وقد تولى تربية ولدي الكونت بعد وفاة أبيهما، بعاطفة وعناية وكأنهما ولديه، وعندما وصل الولدان التوأمان إلى سن البلوغ، منطقهما بحزام الفروسية وسلاحهما، وورث من الاثنين واليران جميع ممتلكات أبيه على الجانب النورماندي من القنال، أي كونتية ميولان في فرنسا وبيمونت وممتلكات أبيه المتعلقة بها في نورماندي، وتسلم أخوه روبرت كونتية ليستر في انكلترا، وأعطاه الملك زوجة له أمايس Amice ابنة رالف أوف غايل، التي كانت مخطوبة إلى ابنه رتشارد، ومعها بريتويل والأراضي المتعلقة بها.

واهتم الملك أيضاً برعاية كنته ماتيلدا، ومنحها عاطفة كبيرة، واحتفظ بها مكرمة في انكلترا، طوال ما رغبت بالبقاء، وقد رغبت بعد مضي عدة سنوات برؤية آلها مجدداً، فعادت إلى آنجو، حيث بقيت لمدة قصيرة، وهي مرتبطة بمحبة موطنها الأصلي، وأخيراً بعد مضي عشرة أعوام على زواجها، قامت بناء على نصيحة غيوفري أسقف تشارترز،

بالتخلي عن الدنيا، وصارت راهبة في دير فونتفرولت Fontevrault ، وعن طواعية هجرت الحياة الماضية حتى تتعبد العريس السماوي، وكما قلت من قبل، أعتقد أنها كانت في الثانية عشرة من عمرها في الصيف الذي تزوجت فيه من الغلام المراهق، وبعد مضي أقل من ستة أشهر هلك زوجها الذي لم تكن لحيته قد نمت بعد في السفينة الغارقة، وقام الملك اللطيف القلب بتربيتها وكأنها ابنته، وحافظ عليها وأبقاها في بلاطه لمدة طويلة، آملاً بأن يزوجها من زوج عظيم من أعلى المراتب، غير أنها اختارت نصيحة أفضل عندما اقترنت بالعريس السماوي، أي بابن الرب والعذراء، وقد كانت عاقلة وجميلة، وفصيحة وجيدة التكوين تتحلى بكثير من السمات الحسنة، ويمكنها أن تنمو بصلاح وأن تصبح محترمة في نظر الناس، ومرضية للرب.

—٣٤—

وفي تلك الأثناء رعى عموري كونت إيفري مشاعر مرة للإثم، لأنه توجب عليه أن يراقب النواب والعمداء وهم يتصرفون بوحشية ومن دون انضباط في مقاطعته، فقد فرضوا ضرائب غير معتادة، وأساءوا استخدام العدالة كما راق لهم، واقترفوا كثيراً من الأخطاء بحق كل من العالي والمنخفض، وفعلوا هذا كله ليس بموجب سلطتهم، بل بالتوسل بسلطة الملك والخوف منه، وقد بقي هو نفسه في انكلترا جاهلاً بجميع هذه الأشياء، ومع ذلك كبح الناس ميولهم الحربية خوفاً منه، مهما كانت مشاعر أسفهم تجاه عصابة من الموظفين الصغار الذين تولوا قهر الناس، ذلك أن الموظفين غير المنضبطين أسوأ من رجال العصابات، لأن سكان الأرياف يمكنهم النجاة من رجال العصابات بالفرار بعيداً، أو باتخاذ طريق مختلف، لكن لم تتوفر لديهم أية وسيلة لتضليل الوكلاء الدهاة من دون خسارة من نوع ما.

ولذلك سعى عموري النشيط نحو فولك، كونت أوف آنجو، الذي

كـان خاله، وحثـه حتى يقنعـه لكي يرتب زواجـاً بين وليم بن روبرت وابنته سيبل، التي أهّلهـا تماسكها وجمالها وسلوكهـا لحمل التاج، ووافق على الفور على خطط خـاله، وأرسل وراء الشاب مع مدربيه وحـاشيته، وخطب ابنته إليـه، ومنحها مقـابل زواجها قسماً من كـونتية ميين إلى أن يتمكن من استرداد ميراثه الشرعي، وبناء عليـه ربح عموري إلى جـانبه كل من استطاع أن يؤثر عليه للانضمام إلى حزبه، وبما أن النورمان كانوا متقلبين، فقـد وجـد بينهم الكثيرين الذين كـانوا مستعـدين ومتشـوقين للانضمام إليه.

وتشـاور واليران كونت ميـولان، ووليم أوف رومير Roumare ، وهيـوج أوف مونتفـورت، وهيـوج أوف تشاتو—إن—ثيمـرياس Cha-teauneuf-en-Thimerais ، ووليم لـوفل Lovel ، وبودري أوف بري Baudry of bray ، وبين أوف غيسـور Pain of gisors مع كثيرين آخرين، تشاوروا أولاً مع بعضهم بشكل سري، بالتفكير بالخيانة، وبعـد وقت قصير جلبـوا سـوء الحظ لأنفسهم بالخروج في ثورة معلنة، وكان الكـونت واليران متحرقـاً حتى يقدم مثـلاً عن قواه في الفـروسية، ولكن لاشك أنه عمل بداية حمقـاء بالثورة ضد مـولاه، وأبيه الذي رباه، ولكونه كـان الأول في تشكيل جيش ويتـوجيـه ضربة حـادة ضـده بالتحـالف مع أعدائـه، ولكي يعـد لزواج شرعي لأخواته الثـلاث، وفي الوقت نفسه حتى يمتن نفسه ضد جميع جيرانه، أعطى السيدات بالزواج إلى ثلاثة من قادة القـلاع الكبار، الذين كان لديهم أتبـاع وقلاع وثروات كبيرة، فقد تزوجت الأولى من هيوج أوف مـونتفورت، وتزوجت الثانية من هيـوج أوف تشاتو—إن ثيمـرياس ابن غيرفـاس Gervase ، أما الثالثة فتزوجت من وليم لوفل ابن آسلين Ascelin ، الذي حصل على قلعة آيفري مع جميع ميراثه بعد وفاة أخيه غويل Goel.

وطـالـب وليـم أوف رومير Roumare باسترداد أرض أمه، التي

كان رالف أوف بايـو زوج أمه قد أعطاها إلى الملك عـوضاً عن كـونتية شيستر، وطالب بملكيـة أخـرى في انكلترا اسمهـا كـوربي Corby ، لكن الملك الذي كـان نائيـاً عن التنازل أمام الالتماسـات، أعطاه جـواباً عنيفـاً، ولذلك عبر الشـاب على الفـور إلى نورمـاندي وهو مغضب، واستولى على فرصته السانحة، حيث انسحب من ولائه إلى الملك، وشن حـرباً مريرة ضـد النورمـان، معتمداً على مسـاعـدة كثير من الناس من نـــــــوفمارشي Neufmarche ، ولمدة عامين أطفأ غضبه بالنهب والإحـراق وبأخـذ الناس أسرى، ولم يتخـل عن النهب والعيث فسـاداً بهذه الطريقة، حتى منحه الملك ما يكفي من المنح، وأعاد إليه قسماً كبيراً من الميراث الذي طالب به.

والتقى في أيلول: عمـوري، ووواليران مع الآخـرين الذيـن ذكـرتهم أعلاه، في لى كـروي—سينت—ليـوفروي Le croix-saint-leufroi ، وهناك توحدوا في مؤامرة عامة.

ولم يكن الملك غائباً عن معرفة المؤامرات السرية، وتبعاً لذلك قام في تشرين الأول بحشد جيش كبير في روان، وانطلق من المدينة يوم الأحد بعـد تناوله للطعـام، وعندمـا مـا من أحـد كـان يعـرف إلى أين يرغب بالذهاب، أو الذي كان في ذهنـه، استدعى هيوج أوف مـونتفورت إلى حضرته، ومـا أن مثل أمـامـه حتـى أمـره بتسليم إمـرته على قلعتـه مونتفورت—سور— رايسل Montfort-sur-risle ، وبحكم أنه كان مدركاً لجريمته، أصبح فجأة خائفاً من أن المؤامرة قد اكتشفت، وبما أنه لم يكن قادراً على التفكير بأي شيء يمكنه أن يفعله في مثل ذلك الوقت القصير، ولذلك استسلم أخيراً، واستجـاب إلى الأوامـر الملكية، وكـان خائفاً من أنه إذا رفض سـوف يلقى به بالأغلال في المكان عينه، وبعث الملك بأصـدقـاء مخلصين للذهـاب سلفـاً معـه حتى يتسلمـوا مفـاتيح الحصـون، وحالما ابتعـد عن الملك حيث لم يعد يراه، ولدى دخـوله إلى

حرش، نخس حصانه السريع الذي كان ممتطياً له، وخلف رفاقه خلفه، ومن هناك ابتعد عنهم كثيراً بوساطة طريق قصير كان معروفاً لديه، ومن دون أن يترجل أمر أخاه وزوجته وأتباعه الآخرين بحراسة القلعة بشكل جيد، وقال:« إن الملك هو على طريقه إلى هنا مع قواته، تمسكوا بالقلعة بإصرار ضده»، ومن هناك مضى مسرعاً إلى بريوني Brionne ، فأوضح الذي حدث، وأنذر الكونت واليران حتى يسلح نفسه للدخول في معركة مكشوفة، وعندما عاد أصدقاء هنري، وهم يندبون بأنهم خدعوا من قبل هيوج، دعا بغضب فرسانه إلى حمل السلاح، لمهاجمة القلعة، مادامت غير مستعدة، وفي اليومين الأوليين أحرقت البلدة كلها، وتم الاستيلاء على جميع التحصينات باستثناء القلعة، وجلب روبرت ابن الملك وينغل Nigel أوف أوبني Aubigny قوة كبيرة من كوتنتين Cotentin ومن مقاطعات أخرى، وتمت محاصرة رالف أوف غاند Gand مع الآخرين في الداخل، وقد اضطربوا بسبب حملاتهم المتوالية، وأخيراً عندما وجدوا أنهم لم يحصلوا على مساعدة من المتآمرين طوال شهر الحصار، اختاروا الدور الحكيم وعملوا سلاماً، فقد عادوا إلى حظوة الملك، وسلموا الحصن إليه، ومن هناك ذهب الملك إلى بونت-أودمير Pont-Audemer ، وحاصر القلعة بإصرار لمدة ستة أسابيع.

ولأن أديلينا Adelina [ زوجة هيوج أوف مونتفورت] كانت ابنة روبرت كونت أوف ميولان، عرض الملك عليها وعلى ابنها واليران أراضي الإقطاعية المكشوفة، على شرط وجوب عودة هيوج بسلام إلى طاعته، وأن يتصرف في المستقبل كتابع مخلص وصديق وفي، ورفض هيوج بعنف هذه العروض عندما سمع بهم، وآثر أن يكون محروماً ومفصولاً عن قومه على أن يتصالح وأن يعيش بوفاق مع الملك الذي رباه، وارتقى به إلى السلطة.

## —٣٥—

في الشهر نفسه، قام سيرلو Serlo المبجل الذي حكم كرسي سيز لمدة اثنين وثلاثين عاماً، بإنشاد قداس في ٢٦ تشرين أول، في كنيسة القديس غيرفاس الشهيد، وبعدما أنهى القداس دعا إليه رجال الدين والكهنة التابعين للكنيسة وقال:« لقد أنهكت بتقدم السن والضعف، وأعرف أن نهايتي قد باتت الآن قريبة، وأنا أعهد بكم إلى المولى الرب، الذي جعلني نائبه عليكم، وأرجوكم أن تصلوا إليه بصورة مواظبة حتى يظهر الرحمة نحوي، أعدوا مكان دفني الآن، لأن نهاية وقت وجودي بينكم باتت قريبة»، ثم ذهب مع رجال الدين إلى مذبح مريم، الأم المقدسة للرب، وأخذ عصاة الأسقفية، وأشار إلى مكان دفنه أمام المذبح، حيث عندما تقدم الصلوات إلى الرب يرشون الماء المقدس والمباركات على القبر، وحفر العمال بسرعة حفرة بالمعاول وأخرجوا التراب بالمجارف، وقطع الحجارون الحجارة، وجوفوا الضريح بالمطارق، وجعلوا كل شيء جاهزاً للأسقف، وكأنه راقد ميت على محفته، وذلك أثناء مشيه هناك وحديثه.

وفي اليوم التالي، دخل إلى الكنيسة، واستعد لإقامة القداس وفقاً لعادته، وكان بالحري يتحرك بقوة الإرادة أكثر منه بقوة الجسد، ووضع ثوبه الكهنوتي على رأسه، لكن أطرافه ارتجفت كثيراً حتى أنه كان خائفاً من أن يبدأ بالقداس المهيب، ولذلك أمر شماسه وليم بأن يقوم به، وبعدما اكتمل أداء القداس، دعا جميع الكهنة وقال لهم:« تعالوا إليّ بعد تناول الطعام لأنني أرغب في أن أوزع لصالح الكنيسة، وبشكل قانوني المال الذي جمعته من موارد الكنيسة لمقاصد إنسانية، وإنني أرغب فوق كل شيء-بعون نعمة الرب- بأن أتجنب إعطاء الأفراد الأشرار أية حجة لاتهامي في نظر الرب، لأنني كما قدمت عارياً إلى الدنيا، مثل ذلك سوف أغادر وأنا عاري، وذلك إذا ما كنت جديراً في أن أتبع بحرية

خطوات الحمـل، الذي في سبيل محبتـــه تركـت وأنا مسرور الأشيـــاء الدنيوية منذ وقت طويل».

وفي السـاعة التـاسعة أخـذ الأسقف مقعده وراء المائـدة، لكن بما أنه كان متشوقـاً إلى الأشياء اللاهوتية، لم يأكل شيئاً مما كان أمامـه، وعوضاً عن ذلك أمـــر الآخـرين، الذين امتـلأوا بـالحزن، ولم يكن بإمكانهم أن يأكلوا شيئاً، ووجههم بأن أطعمهم بكرم وفير بالعقيدة الدينية، فقد كان واعظاً متدفقاً بكلامه، ووزع بذور كلمات الرب ونشرها، وأنا على قناعة بأن نورماندي لم تنجب ابناً أكثر فصـاحة وأعظم بلاغة من سيرلو، فقد كان معتدل الارتفاع، ووسيماً في كل جـانب من جوانب الطبيعة البشرية يكون مـرغوباً، أو لائقـاً بأي فـان في وادي الويلات هذا، وعندما كـان طفـلاً، كـــان صـاحب شعـر أحمر، لكنه تحول إلى اللون الـرمـادي أثناء شبابه، ثم صـار صاحب شعـر فضي لمدة خمسين عاماً قبل وفـاته، وكان قارئاً جيـداً لكل من المعارف الدينية والدنيوية، وكـان باستطاعته إعطاء جواب مباشر لكل مشكلـة تعرض عليه، وكان حاداً نحـو المثابرين على فعل الشر، لكن رحيماً جـداً لكل واحد يعترف بذنبـه بالدموع، ولطيفـاً مثل أب شفـــوق نحـــو ابنـه المريض، ويمكنني أن أتحدث بالمزيـد من الأشيـاء الجيدة حـوله، لكن كلماتي ليست لديها القـدرة على إعـادته من الموت، وبما أنني أشعر بالإنهاك أريد التحول نحو الأشياء الأخرى، فأنا متشوق إلى إيصال رواية كتابي هذا التي توليت حكايتها إلى نهايتها.

وعندمـا كانوا جـاهزين للقيـام من وراء المائدة، بعـد انتهاء الطعـام، وصلت أخبار بـأن اثنين من الكرادلة الرومان هما: بطرس وغـريغوري، قـد وصـلا، وكـانوا آنذاك يحتفلون بقـداس عيـد الرسـولين: سمعـان، ويهوذا، وقـال الأسقف على الفـور لكهنته وحجـابه:« اذهبـوا بسرعـة، واخدموا بلطف الرومانيين، وقدمـوا بكرم وجهزاهما بجميع ما يحتاجان إليه، لأنهما قادمين بمثابة نائبين للمولى البابا، الذي هو الأب العالمي بعد

الرب، وليس مهما من هما، إنهما سادتنا»، وأرسل الرجل العجوز المقدر أعوانه لاستقبالهما، وهو نفسه بقي وحيداً، جالساً في كرسيه المعتاد، من دون ألم أو أي مرض ظاهر، وذهب الآخرون جميعاً لاستقبال الكاردينالين كما أمروا، ورحبوا بهما باحتفاء في بيت الضيوف، وقدموا لهما الاحترام اللائق بهما، حسب أوامر الأسقف.

وفي الوقت نفسه، عندما كانوا يخدمونهما بتشريف، مات الأسقف، وكأنه وقع نائماً وهو جالس على كرسيه، وعاد رجال الحاشية إلى رئيسهم بعدما أكملوا واجباتهم، غير أنه كان ميتاً على كرسيه، فبكوه بدموع، وجرى في اليوم التالي دفن جسده في القبر الذي جرى إعداده قبل يومين مضياً كما وصفت، وتولى دفنه جون أسقف ليزوي، الذي أرسل من قبل الملك من حصار بونت أوديمير لأداء هذه المهمة.

وبعد وفاة سيرلو، أصبح جون الشاب ابن هاردوين Harduin وحفيد جون أسقف ليزوي، أسقفاً، وهو سوف يعد أدنى بكثير من سلفه بالمعرفة لأنه كان صغير السن، وتمت مباركته بعد عيد الفصح، في عام ١١٢٤ لتجسيد ربنا، وبناء على أوامر خاله بدأ بممارسة أعماله الأسقفية في أبرشية ليزوي، وجرى تكريسه لكنيسة سينت أوبين Aubin في سيساي Cisai في الرابع من أيار، وذهب من هناك في اليوم نفسه إلى سينت إيفرول، ثم بارك في يوم الاثنين الخامس من أيار تمثال المصلوب الجديد، وكرسه لكنيسة القديسة مريم المجدلية، التي بناها أرنولد الذي كان عجوزاً وراهباً من أصل نبيل، بناها من الأموال التي جمعها ومن أعطيات المؤمنين.

—٣٦—

وعندما سمع رجال حاشية الملك بوفاة سيرلو المفاجئة، كما وصفتها، قدموا مسرعين إلى المكان قادمين من القلعة التي كانوا محتلين لها، مثل

طيران الجوارح نحو جثة ميت، وقد صادروا الأموال وكل شيء وجدوه في قصر الأسقف لصالح محاسب الملك، دون إعطاء أي شيء للكنائس أو للفقراء، وكان الملك شخصياً آنذاك يحاصر قلعة معادية، ومحتفظاً بعدد من الرجال المشكوك بهم، الذين تزلفوا إليه كأنهم أتباع مخلصين، لأنه عرف مؤامراتهم السرية، وحكم عليهم أنهم خونة في الحقيقة والواقع، وكان في داخل القلعة لويس أوف سينلي Senlis ، وهارشار Harcher ، طباخ ملك فرنسا، الذي كان فارساً مشهوراً، مع سيمون تيرنيل Ternel أوف بوسي، ولوقا أوف لي-باري Barre ، وأبطال محاربين آخرين، وكانوا يستخدمون جميع الوسائل المبدعة لمقاومة المحاصرين، وعلى كل حال، أحرق الملك المدينة كلها، التي كانت واسعة جداً وغنية، وقاتل القلعة بإصرار وشدة، وتولى هو شخصياً توجيه جميع العمليات ببراعة، وكان يركض إلى هنا وهناك مثل فارس شاب، وبتقديم المساعدة إلى كل من احتاجها، بعث الشجاعة في قلب كل واحد، وأمر النجارين ببناء برج حصار، وكان يبتسم، ويمزح، وينتقد الذين تكاسلوا بالعمل، ويشجع الذين بذلوا جهوداً كبيرة بكلمات الثناء، وأخيراً بنى آلات الحصار، فأنهك رجال حامية القلعة بالهجمات المتوالية، وأرغمهم على الاستسلام، وعلى كل حال عقد لويس، ورالف بن دوراند Durand وأتباعهما سلاماً مع المنتصر، وبعدما سلموا القلعة، سمح لهم جميعاً بالمغادرة سالمين مع أمتعتهم، وذهب بعضهم إلى بيمونت حيث وجدوا الكونت واليران مع الفرنسيين.

وفي بيمونت التحق سيمون أوف بيروني Peronne ، وسيمون أوف نوفلي Neaufle ، وغي موفوزين Mauvoisin وحفيده بطرس أوف مولي Maule ، وكذلك وليم أيغولون Aiguillon مع حوالي المائتين من الأبطال الآخرين من فرنسا، التحقوا بالكونت، وتحت قيادته اجتاحوا المنطقة كلها مسببين خسائر كبيرة إلى مؤيدي الملك بالنهب والإحراق.

—٣٧—

وفي اليوم الذي استسلمت فيـه القلعة تلقى الملك أخباراً عن خـديعة غير شريفـة اقترفت في مكان آخـر، عنـدمـا كـان مشغـولاً - كما قلت- بعمليات عسكرية على نهر الرايسلي Risle فقد عملت خطة من قبل الخونة قرب الابتى Epte ، وفق الطريقـة التاليـة: لقد جـرى تثبيت يوم من أجل دعـوى قضـائية هو يوم الاثنين، أثنـاء عقد السـوق، وأن تجري المحاكمة في بيت بين أوف غيسور Pain of gisor ، الذي إليه دعي روبرت أوف كـاندوس Candos قسطلان حصن الملك، وكـانت النيـة، أنه لكونه غير مسلح، ينبغـي قتله فجأة من قبل مغتـالين مسلحين وضعـوا بشكل خيـاني هنـاك، وأن تجري مهـاجمة المدينة كلهـا فجأة ومن جميع الجوانب بوساطة قوات كـانت متخفية هناك، وفي اليوم المحـدد اختلط الجنود مـع حشـود الفـلاحين والنســاء الـذين بادروا مسرعين نحـو السوق، مـن القرى المجـاورة، وقـد دخلوا إلى المدينة من دون معيق، وقد استقبلـوا ببراءة بمثابة ضيوف في بيـوت سكان المدينة، الذين عرفوا كثيراً منهم في الماضي، وقـد وصلوا بأعداد كبيرة جداً حتى أنهم مـلأوا جـزءاً كبيراً من المدينة، ومع اقتراب حلول مـوعد السـاعـة المحددة للخيانة، أرسلت رسائل متوالية تحث روبرت على الإسراع، غير أن زوجته إيزابيل التقية أخرته لوقت طويل لبحث مسائل خاصة، ومن المؤكد أن هذا قـد وقع بإرادة الرب، ولأن روبرت تأخـر بهذه الطريقة، وصل بودري الأخير بين جماعتـه إلى البـلاط، وبينما كـان الآخـرون مـا زالوا واقفين هناك صامتين وهم مسلحين جاهزين، كان هو أول من هز قبعتـه، وكشف عن درعـه، وصرخ بصـوت عظيم الارتفـاع:« الآن أيها الجنود، انطلقوا نحو تأدية عملكم، ونفذوه بإقدام، وعندما باتت الخيانة ظاهرة بالنسبـة للحاميـة، وأثناء ارتفاع الضجيج، جـرى إغلاق البـاب الأقـرب إلى الحاميـة بعنف من قبل رجـال بين Pain ، ووقتها كـــان

روبرت ممتطياً على حصانه دون أن يعرف شيئاً عن الخيانة، ووصل إلى مكان السوق، وعندها شاهد العصابات المسلحة تنهب البلدة، وسمع ضجيج المعركة المخيف من جميع الجهات، ارتعب، فهرب عائداً بأقصى سرعة ممكنة إلى أقرب ملجأ، ولم يكن ذلك بعيداً، وقام الكونت عموري مع أقربائه، ووليم كريسبن Crispin مع قواتها بتسليح أنفسهما آنذاك، وتسلق الجميع رابية مواجهة للقلعة، وحاولوا إخافة الحامية بالتهديد أكثر منه بالأفعال، وتمت إدانة جميع الذين عرفوا بشكل أكيد بمشاركتهم بهذه الجريمة، وتم الإعلان عنهم كأعداء للناس، ومجرمين باقتراف الخيانة ضد الملك، وبما أن روبرت اعتقد أنه من غير الممكن طردهم من البلدة- التي كانت قوية التحصين- بوساطة قواته، ألقى النار في البيوت الأقرب، واستعرت النيران الجائعة بوساطة الريح، وارتفع زئيرها خلال البلدة كلها، وبهذه الواسطة أرغم أعداءه على الخروج إلى ما وراء أسوار المدينة، وأجبرهم على التخلي عن مهاجمة القلعة، وفي هذا الصخب المرعب فقد برجاسية غيسور العقلاء والأمناء الكثير، فقد دمرت بيوتهم وممتلكاتهم، وتحملوا فقراً عظيماً، واحترقت أيضاً كنيسة القديس غيرفاس التي كان رئيس الأساقفة غيوفري قد كرسها قبل عدة سنوات مضت.

وعلى كل حال عندما سمع الملك بهذه الأخبار بادر بالقدوم مسرعاً من بونت أودمير إلى غيسور مع جيشه، آملاً بالاشتباك بالقتال، وانشاب معركة جريئة ضد الخونة هناك إذا ما استطاع العثور عليهم، لكن عندما سمعوا بأن الملك المنتصر- الذي اعتقدوا أنه كان مشغولاً بالحصار- قد اقترب مسرعاً، لجأوا إلى الفرار برعب، ومع صعوبة وعار كبير، ولذلك تولت عدالة الملك احتلال كونتية إيفري، وجميع أراضي الخونة، وضمها إلى ممتلكات الملك.

وكان هيوج بن بين في ذلك الوقت مع ستيفن كونت أوف مورتين،

وحيث أنه لم يمتلك معلومات عن جرائم أبيه، كان في خدمة الملك، ولذلك منحه الملك ميراث أبويه، وحرم حرماناً كاملاً العجوز الحانث بيمينه ومعه ابنه هيرفي، وكانت نتيجة هذا أن المعاهدة التي عقدها البابا بين الملكين قبل ثلاثة أعوام مضت قد خرقت، ومرة أخرى استعرت نيران الحرب بشكل حاد على الطرفين.

—٣٨—

وكان شتاء هذا العام كثير البلل، وعمل الملك بحكمته تقديراً لمتاعب الناس وللعناية بالمتواضعين منهم، فوفرهم، خشية منه أنهم قد يلحقهم الإنهاك وينهارون، مثل خيول التحميل المنهكة، تحت أثقال لا يمكن تحملها، ولذلك إنه ما أن تملك القلعتين الحصينتين في نونت- أودمير، ومونتفورت، مع الأراضي المتعلقة بهما، حتى أمر الناس بأن يرتاحوا بسلام خلال أعياد الميلاد، ووضع قوات بطانته تحت قيادة قادة مختارين في القلاع، وكلفهم بحماية شعب البلاد ضد الغزاة، ووضع رالف أوف بايو في قلعة إيفري، وهنري بن جوسلين أوف لى بوميري Ponnmeraye في بونت -أوتو Pont-autou ، وجعل أودو بورلنغ Odo borleng مسؤولاً عن قلعة بيرني Bernay ، وفرساناً شجعاناً آخرين في أماكن أخرى لحماية المنطقة ضد غارات الأعداء، وبقي وليم بن روبرت هيركورت Harcourt أيضاً مخلصاً، وخدم الملك.

—٣٩—

في أثناء الصوم الكبير التالي، استدعى كونت واليران المتحالفين معه في ليلة البشارة(ليلة ٢٥—آذار ١١٢٤) وانطلق لتجهيز قلعة فاتيفيل Vatteville ، وكان معه ثلاثة من أبناء حموه هم:

هيوج أوف شاتيونوف-إن-ثيميرايس، ابن غيرفاس، وهيوج أوف مونتفورت، ووليم لوفل بن آسلين غويل، وكان الكونت عموري قائداً

للجميع، وذهب الفوج المسلح الذي اقتاده هؤلاء الرجال لمرافقة المؤن إلى المحاصرين، واقتحم في الصباح، وبشكل غير متوقع قلعة الحصار الملكية، التي كـانـت محاصرة للقلعـة، وأسر المهـاجمون وولتر بن وليم أوف فاليقـويرفيل Valiquerville الذي كـان الملك قد عهـد إليه بالمسـؤولية عن الحامية، وأسروه عندمـا كان واقفاً على الشرفـات وهو لابس لدرعه، يقـوم عند الأسيجة بالدفـاع بشدة عن القلعـة، وجاء أسره بوسـاطة أداة خـادعة، باستخـدام الكلابات، وجره وهو معطل، وأخـذه أسيراً، وسلم الكونت واليران القلعة إلى الأخوين اللذين وثق بهما تماماً، وهما: هيربرت أوف ليـزوي، وروجر مـع ثمانية من الأتبـاع، ثم نهب المنطقـة في المحيط كله، واستـولى على كل مـا يمكن استخـدامـه مثل الأطعمـة من البيـوت والكنائس، وحمل الجميع إلى القلعـة كمـؤن للحـراس، وفي اليـوم نفسـه أيضاً، دخل الكونت وكأنه خنزير مجنون، إلى غابة بروتوني Brotonne ، وأسر عـدداً كبيراً من الفـلاحين الذين وجـدهم يقطعـون الأخشـاب في داخل الغـابة الكثيفـة، وقد عطلهم بقطع أقـدامهم، وهكذا لطخ بحماقـة الاحتفال بالعيد المقدس، لكن ليس من دون عقوبة.

وفي الوقت نفسه، عنـدما علم رالف أوف بايو، قسطلان قلعـة إيفري من الكشافة، أن قوة كبيرة من الأعداء، قد ذهبت أثناء الليل إلى فيتيفيل، ذهب على الفـور بجـرأة إلى رفـاقـه: هنري، وأودو، ووليم، وأخبرهم بتحـركـات العـدو، وضغط عليهم بإلحاح للـدفـاع عن الطريق السلطاني للملك بالسلاح، أثناء عـودة الأعداء وقائـدهم، وتجاوبوا هم ووحداتهم من الجند مع الأوامر على الفور، ووقفوا مسلحين مع ثلاثمائة فارس، وفي السادس والعشرين من آذار، انتظروا في مكـان مكشوف خروج العسـاكر من غابة بروتوني، وعودتهم إلى بيمـونت، وعندما شاهد الفرسـان عساكر العـدو، وقدروا أنهم أكثـر عدداً وأكثـر قـوة منهم أنفسهم، بدأوا يجبنون أمـام رجـال بمثل تلك الشجـاعـة، ومـع ذلك حـاول قلة تشجيع ذوي

القلوب الضعيفة، وفي الحقيقة قال أودو بورلنغ Borleng: « انظروا ها هم أعداء الملك يركضون بشراسة فوق أراضيه مع الوقاحة، وقد حملوا معهم أسيراً واحداً من النبلاء الذين عهد الملك إليهم بالدفاع عن مملكته، ماذا علينا أن نفعل؟ هل سنسمح لهم بالعيث فساداً في المقاطعة كلها من دون تحدي؟ وأفضل خطة نتبعها هي أن تقوم فئة من رجالنا بالترجل للقتال على الأقدام، بينما تبقى البقية على ظهور خيولها جاهزة للنزال، ودعونا أيضاً نضع صفاً من الرماة، في الخط الأول، وأن نرغم القوات المعادية على التباطؤ بعقر خيولها، ففي هذا اليوم، وعلى ميدان القتال هذا سوف تظهر شجاعة وإصرار كل بطل إلى الجميع، وإذا وقفنا ونحن نرتجف، وسمحنا بأخذ بارون الملك مقيداً بالأغلال من دون توجيه ضربة، كيف يمكننا قط أن نتجرأ على الدخول إلى حضرة الملك؟ فلسوف نستحق بأن نحرم من كل من أعطياتنا ومن مراتبنا، وبرأيي سوف لن نكون ثانية مؤهلين لأن نأكل من خبز الملك».

وتحمس الآخرون جميعاً بهذا التشجيع الذي صدر عن هذا البطل الكبير، ووافق أتباعه من الفرسان على أنه ينبغي أن يترجل هو والذين كانوا مخلصين له، وانتظر متشوقاً إلى النزال، وهو مسلح على القدمين، وقام الشاب واليران الذي كان متشوقاً للبرهنة على فروسيته، لدى رؤيته لأعدائه، بالصراخ مثل الأطفال، وكأنه قد هزمهم، لكن عموري الذي كان أسن منه وأعقل حثه مع الآخرين الذين كانت تعوزهم البصيرة، على عدم الدخول بمثل هذه المعركة، وقال:«بحق جميع الناس-لأن هذه كانت صيغة يمين عموري- أنا أنصحكم بتجنب هذا الصراع، إذا قمنا نحن الأقلية بمباشرة القتال مع الأكثرية سوف -كما أخاف- نعاني من العار والخسارة، انظروا ها هو أودو ورجاله قد ترجلوا، ويمكنكم أن تكونوا متأكدين أنه عازم على القتال بإصرار حتى يربح اليوم، فالعسكري الخيّال الذي ترجل مع رجاله سوف لن يهرب

من الميدان، هو إما سينتصر أو يموت»، غير أن الآخرين قالوا له:« ألم نتشوق منذ وقت طويل لأن نقابل القوات الانكليزية في ميدان مفتوح؟ وها هم الآن هنا، دعونا ندخل المعركة، وذلك خوفاً من أن نجلب العار على أنفسنا وعلى ورثتنا بقتال غير مشرف، انظر، إن زهرة فرسان فرنسا ونورماندي هنا، من الذي سوف يقف أمامنا؟ لتمنع السماء أن نخاف من أهل بلاد القرع والمرتزقة، حتى نغير طريقنا، أو أن نتقاعس خوفاً عن قتالهم»، وبالمحصلة عبأوا قواتهم وصفوفهم للقتال، وبدأ الكونت واليران، الذي كان بالصف الأول، بالحملة عليهم، مع أربعين فارساً، لكن فرسه جرح من قبل الرماة، وسقط تحته، لأن أربعين من الرماة وقفوا بالصف الأول، ورموا الخيول، ووقع الرجال قبل أن يتمكنوا من تسديد ضربة واحدة، وبهذه الطريقة صعقت قوات الكونت بسرعة، وأرغمت على الفرار، وترك رجالها كل شيء حملوه، واستهدف كل رجل السلامة بالفرار، والنجاة بأفضل وسيلة تمكن منها، ووقع بالأسر هناك الكونت واليران والهيوجين الأخوين من أبناء حموه، مع حوالي الثمانين فارساً، وحبسوا وضيق عليهم في زنزانات الملك، وبأسى سددوا عقوبة حماقاتهم لوقت طويل.

وشارك في القتال وليم أوف غراند كورت Grandcourt ابن وليم كونت أوف إيو في القتال، وكان فارساً شجاعاً من قوات حاشية الملك، وقد أسر عموري وهو يحاول النجاة، لكن صدوراً عن الرحمة الإنسانية، أشفق على ذلك الرجل صاحب الشجاعة الكبيرة، ولأنه عرف بشكل مؤكد أنه لو أسر، هو لن يتخلص مطلقاً من قيود الملك مرة ثانية، أو بصعوبة كبيرة، ولذلك اختار أن يهجر الملك وأن يتخلى عن أراضيه، وأن يذهب إلى المنفى، وآثر ذلك على الحكم على الكونت النبيل بسجن أبدي، ولذلك رافقه إلى بيمونت، وبقي في المنفى معه في فرنسا، حيث عومل بتشريف على أساس أنه الذي حافظ على عموري.

وبالنسبة لوليم لوفل، فقد وقع بأسر واحد من رجال الريف، غير أنه أعطاه سلاحه كفدية، وقص شعره من قبله حتى ظهر وكأنه تابع، وحمل عصا بيده، وهرب إلى السين ونجا هناك من قبل أن يتم التعرف إليه، وأعطى نعليه إلى صاحب قارب بَمثابة إيجار لجوازه النهر، ووصل إلى بيته حافياً، شاكراً فقط أنه نجا من أيدي الأعداء بأي ثمن من الأثمان.

وبعد عيد الفصح جلس الملك في روان للحكم على الثوار الذين وقعوا بالأسر، وهناك أمر بسمل أعين غيوفري أوف تورفيل وأودارد أوف لى-بين بسبب جريمة الخيانة، وأمر أيضاً بقلع عيني لوقا أوف لى باري كعقوبة على أغانيه البذيئة وأعماله الطائشة، وكان شارل مركيز فلاندرز، الذي خلف الشاب بلدوين في الدوقية، حاضراً آنذاك في محكمة بلاط الملك مع كثير من الأعيان، وقد تحركت عاطفته تجاه أحكام الإدانة التي صدرت على التعساء الأشقياء، وكان أجرأ من الآخرين، فقال:«مولاي الملك إنك تفعل شيئاً مضاداً لعاداتنا بالمعاقبة بتشويه الفرسان الذين وقعوا بالأسر أثناء الحرب في خدمة مولاهم»، وعليه رد الملك قائلاً:«مولاي الكونت، إن ما أفعله هو عدل، كما سوف أبرهن بشكل حصري، فلقد قام غيوفري مع أودارد، بناء على موافقة سادتهما بأن أصبحا تابعين لي، فلقد نكثا عهدهما، عندما اقترفا الخيانة عن سابق إصرار، لذلك هما يستحقان المعاقبة إما بالإعدام أو بالتشويه، وكان عليهما بالحري بالتضحية بكل ما امتلكا للحفاظ على الولاء الذي أقسما على منحي إياه، لا أن يقدما مساندتهما بأية طريقة من الطرق إلى أي إنسان يقف ضد القانون، ولا أن يحنثا بالميثاق مع مولاهما بوساطة الخيانة القذرة، والتخلي عن الثقة، ومن جانب آخر، لم يقدم لوقا قط الولاء لي، بل قاتل مؤخراً ضدي في قلعة بونت-أودمير، وفي النهاية عندما عقد السلام، أنا عفوت عن جريمته، وسمحت له بالذهاب حراً مع خيوله، وأمتعته، غير أنه قدم على الفور تأييده إلى أعدائي، واتحد معهم لإثارة

اضطراب جديد ضدي، وانتقـل من السيء إلى الأسوأ، وعلاوة على ذلك نظم هذا المغني المضحك أغـاني مقـذعـة حـولي، وأهانني بغنائهم بشكل معلن، وغـالباً مـا أثار الضحك السـاخر منـي وضدي من قبل الأعـداء الذين استهـدفوا الإضرار بي، والآن لذلك سلمـه الرب إليّ، ووضعه بين يدي من أجل المعاقبـة، وذلك من أجل أن يرغم على التخلي عن ممارساته الشريرة، وبذلك فإن الرجـال الآخـرين الذين سـوف يعلمـون كيف أن حماقته قد بترت، يمكنهم إصلاح طرقهم قبل فوات الوقت.

وعندما سمع كونت فلاندرز هذا لم يعط جواباً، لأنه لم يمتلك حجة مقنعة لدفعها ضد ما سمعـه، وبناء عليه نفذ الجلادون الأوامر الصادرة إليهم، لكن عندمـا عـرف لوقاً بأنه قـد حكم عليـه بأن يعيش في ظلام أبدي طوال حياته، اختار وآثر أن يموت بتعاسة على أن يعيش من دون نور، وناضل بشكل يـائس حتى يجرح نفسـه عندمـا حـاول الموظفـون تكبيله، وأخيراً ضرب رأســه مثل مجنـون على الجدران والحجـارة أثناء إمساكهم له، فهلك بشكل تعيس، وقـد بكي بكثرة من قبل جميع الذين عرفوا شجاعته وروحه المرحة المضحكة.

وقـام في الوقت نفسه مـورين أوف لى بين، قهرمـان الكونت بتحصين قـلاعه، وكـان هو نفسه مليئاً بالشجـاعة، وبإصرار واستمـرار، أثار جميع الذين يمكنهم مقاومة الملـك، لكن الملك القوي، جمع جيشاً كبيراً، وألقى الحصار على بوني في نيسان، ونصب على الفور قلعتي حصار هناك، وبهذه الواسطة أرغم على الفــور على الاستســلام، ولم يقبل الرجــال الحمقى بالوصول إلى تحقيق السـلام، من دون الإضرار كثيراً بالأبرياء، لأن البلدة أحرقت كلهـا أولاً مع كنائسها، ثم إن الرجال الذين كـانت قلعة فيتيفيل في أيديهم سلموا القلعة وتصالحوا مع الملك، وبعد ذلك بوقت قصير أمر الملك بصرامة ملكية بهدم القلعة وتسويتها مع الأرض.

وبعـدمـا قهـر الملك جميع قـلاع الكونت، باستثنـاء بيمـونت، أعلم

الكونت الذي كان أسيراً لديه، بمحصلة عملياته، وأمره من خلال الرسل بأن يصدر أمراً باستسلام بيمونت سلمياً، وعند ذلك أدرك الكونت أنه قد ضلل بآمال زائفة نشأت عن حماقة الشباب، وأنه استحق الإطاحة به من ذروة قوته الماضية بسبب آثامه، وخشية منه أن يتأذى الحاكم صاحب الروح العالية بوساطة أي استمرار بالمعاندة، وخوفاً أن دماراً أعظم سوف يتهدده، بعث رسلاً موثوقاً بهم لأمر مورين، القهرمان على جميع ممتلكاته، بأن يسلم قلعة بيمونت من دون أدنى تأخير إلى الملك المنتصر للشعب الانكليزي، وعند ذلك أطاع مورين الأمر، لكن ذلك جاء ببطء، لكنه لم يستطع بعد ذلك أن يسترد حظوة الملك، وكان هذا بسبب أنه كان قد جرى تعيينه مدرباً للشاب من قبل الملك، وعن عمد حثه من خلال نصائح شريرة على الثورة، وقد فقد ممتلكاته التي تفاخر بها في نورماندي، وهي التي سببته لأن يتصرف برعونة فوق نفسه وأن يقدم على إثارة الثورة، التي حكم عليها بأن تدمر كثيراً من الناس الأبرياء، ولذلك طرد من بلاده بموجب حكم الملك، وعاش في المنفى في مناطق أجنبية إلى أن مات.

وهكذا استولى الملك على جميع أراضي ذلك الكونت الغني، التي كانت بين يديه في نورماندي، واحتفظ بالكونت نفسه مع الأخوين من أبناء حموه في سجن محكم، وبعد مضي بعض الوقت أرسل الثلاثة إلى انكلترا، وبقي الكونت وهيوج بن غيرفاس مسجونين في زنزانة لمدة خمسة أعوام، لكن هيوج أوف مونتفورت هو الآن يئن في أغلاله لمدة ثلاثة عشر عاماً، لأنه كان مجرماً باقتراف أكثر الجرائم خطورة، من دون أي تسويغ، ومن دون أن يغامر أي واحد من أصدقائه على التوسط لدى الملك لصالحه.

—٤٠—

تبارك الرب، الذي يحكم جميع الأشياء بشكل جيد، ويوجه جميع طرقات الفانين بحكمة أعظم مما يختارونه شخصياً، ومما هم قادرين على

أن يفعلوا، وقـد أعطى برهاناً جـديداً على عـدله في ميدان البشـارة، إلى الذين يدرسونها بشكل صحيح، لأنه أعطى في عام ١١٢٤ لتجسيد ربنا نصراً إلى محبي السـلام، فأطاح بمثيري الاضطراب الطائشين في جميع المقاطعـة، ووضع نهاية سريعة إلى جميع المؤامـرات الشريرة للمتحالفين، ففي ذلك الأسبـوع بالذات كـان شحن سبع قـلاع قائمـة في مقـاطعتي ليزوي وأوشي Ouche على حدود الثـوار، قد عزمـوا على الالتحاق بقـواتهم بهم والاتحاد معهم، وكـانوا بذلك سيلحقـون الأذى بكثير من الناس، وكان هيوج أوف لى بليسيس Plessis قد استولى خدعة على قلعـة بونت Echanfray ، وكـان ينتظر بثقـة واطمئنان العـون من حلفائه الثوار، وبالطريقة نفسهـا توصل قادة قلاع لى ساب Le sap ، وبينفييت Bienfaite ، وأوربك Orbec مع عـدد من الآخـرين، الذين توصلوا إلى اتفـاقـات معهم صـدوراً عن الخوف، بسبب أنهم لم يمتلكوا لا القوة ولا الشجاعة للدفـاع عن أنفسهم ضد مثل تلك القوة الكبيرة، ولكن عندمـا جـرى إسقاط متـآمـري الشر وفق الطريقـة التي وصفتهـا، انحدر تحالفهم نحـو الحضيض، خـوفاً منهم بأن يدانوا أمـام العـدالة ورجـال القانون بـأنهم كانوا شركـاء في الخيـانة، وكـانت السنة آنذاك سنـة كبيسـة، ومثلما ذهب القـول الرائج- كما سمعنـا- أنه في الحقيقة تنزل السنة الكبيسة ثقيلة على الخونة.

وبما أن قواهـم أنهكت إلى أبعد الحدود، سعى عموري، ولوفل مع بقية الأعداء نحـو الوصول إلى شروط سلام مـع الملك، وتخلوا وهم مرغمين عن وليم المنفي، الذين أخفقوا في مساعدته بأي وجه من الوجوه، وأخيراً تواضعـوا بأنفسهـم، واسترضوا الملك، وعـادوا إلى حظوته مع العفـو عن الجرائم الماضية واستردوا إقطاعياتهم ومراتبهم السالفة.

—٤١—

وعندمـا جرت تسـوية الأمـور على هذا الشكل، تحطم التحـالف

بين وليم والأنجيفيين، ومع هيلياس مربيه، ومع تيريل أوف مينيري Tirel of mainieres ، وأخذ يتنقل من بيت إلى بيت في الأراضي الأجنبية، عـائشاً في خوف كبير وفقـر، فقد كـانت ذراع عمه طويلة وقوية ومـرعبة بالنسبة لـه، لأن قدرة هنري وسمعته بالثـراء والقوة كانت معـروفة بالطول والعرض من الغـرب إلى الشرق، وكان وليم ولداً قد ولد للمعـاناة، ولم يتحرر من المعاناة قط طوال حيـاته، وقد كان شجاعـاً وأبياً، ووسيماً، مكرساً لمغامرات الفـروسية، عهدت به آماله الضائعة إلى الناس أكثر مما امتلكته فضائله، ففي بيوت الرهبان والكهنة حيث غـالبـاً مـا تمت ضيـافتـه، سبب إسرافـه عبئاً وليس تشريفـاً، وجلب إلى مـؤيديه الكثيرين آلامـاً وليس عـونـاً، وأخطأ الكثيرون في آرائهم حـوله، حسبما ظهـر مؤخـراً بوضـوح بوسـاطة السماء، وذلك حسبما سأروي بصدق في نهاية هذا الكتاب.

—٤٢—

وقعت في هذه الأيـام تغييرات في القـادة، وحل رجـال جـدد محل القـدماء، فقـد مات رالف لى فيرت، رئيس أسـاقفـة الرايمز، الذي كـان بارزاً بين الآباء بسبب علمه وفصاحته وكان في أيامنا مكرساً لأداء أعمال جديرة، وكان أبا روحياً، مرقيـا للرهبان والكهنة، وكان ولي نعمة للفقراء وحامياً للذين كانوا تحته، وقد مـات في عمر متقدم، بعدما أنجز كثيراً من الأعمال الجديرة بالثناء، وأعطي الكرسي من بعـده إلى رينالد أسقف أنغير Angers ، مع أنه جـاء في كثير من الجوانـب أدنى من سلفـه، وبدوره خلفـه أولغـر Ulger لحكم كنيسـة أنغير، وقـد كـان مشهـوراً لتقـواه ولعلمه، وقد جلب نور الصدق إلى الناس بمسلكه في الحياة.

وفي عـام ١١٢٥ لتجسيـد ربنا، وفي العـلامـة الثـالثـة، مـات البـابا كـاليكستـوس، وأصبـح لامبيرت أسقف أوف أوستيـا هو البـابا هونوريوس، وقـد كان رجـلاً متقدمـاً بالسن وواسع المعرفـة، ومراعيـاً

دقيقاً للشريعة اللاهوتية، وقد أدار الكنيسة الرومانية لمدة ستة أعوام، وفي الأسبوع الذي أسلم فيه البابا كاليكستوس الروح، مات غيلبرت رئيس أساقفة تور، الذي كان قد ذهب إلى روما لقضاء بعض الأعمال الكنسية، وحدث موته هناك، وعندما سمع شعب تور بوفاته وجهوا الدعوة إلى هيلدبيرت Hildebert أوف لامنس الذي برهن عن صلاحه كأسقف، ليقدم إليهم إلى الكنيسة المطرانية في تور، وعاش هناك بشكل متميز لقرابة السبعة أعوام، وعمل في سبيل رفاه رعيته، أما بالنسبة إلى لامانس، فإن غي البريتاني قد جرت مباركته أسقفاً.

—٤٣—

ومات في العام نفسه الامبراطور شارل هنري الخامس في أسبوع عيد العنصرة، وقد دفن في سبير Speyer مطرانية ألمانيا، وعندما كان الامبراطور على فراش موته ترك شارات الامبراطورية إلى الامبراطورة ماتيلدا، وبعد ذلك، ولأنها لم تمتلك ولداً حياً، جرى تتويج لوثير دوق السكسون، وجاء ذلك وفق قرار عام للشعب، وتولى حمل الشارات الامبراطورية، لأن رئيس أساقفة مينز الذي كان متميزاً بشكل خاص بسلطته ونشاطه، تولى بحكمته إبعاد أي خطر بالانقسام، أو حدوث استيلاء غير شرعي على الامبراطورية، فدعا الأساقفة وأعيان المملكة كلها مع جيوشهم، وعندما اجتمعوا تباحث معهم حول انتخاب امبراطور، وكان قد حصل على الشارة الرئيسية للامبراطورية من الامبراطورة، وذلك قبل أن يغامر بالحديث حول مثل هذه القضية المهمة، حيث قال: « أيها السادة الأكارم المجتمعون في هذا الميدان، أصغوا بعناية إليّ، إنني أطلب منكم أن تأخذوا بنصيحتي، بعدما تفهمون الذي أنا عازم على قوله، إنني عامل في سبيل مصلحتكم جميعاً، ومصلحة كثيرين هم ليسوا هنا، وإلى هذا أعطيت تفكيراً قلقاً في النهار وفي الليل، وليس هناك من حاجة إلى خطابات كثيرة في هذه المناسبة،

إنكم تعـرفون معـرفـة جيدة بأن امبراطورنـا قد مـات من دون وريث، وعلينا أن نقـوم ببحث حكيم عن خليفـة يكون مـؤمناً ومخلصـاً للرب، ويسعى في سبيل منفعة أبناء الكنيسة، ولذلك ليتم اختيـار أربعين فارساً عاقلاً ومخلصاً من بين صفـوفكم، وأن يجتمعوا على حده، حتى يتمكنوا وفقاً لشرفهم وضميرهـم من انتخـاب الامبراطور الأكثر مـواءمة، الذي يرفع إلى عـرش الامبراطـورية بفضل فضـائله، ويمكـن أن يبرهن أنه الحامي الأكثـر مقـدرة للناس من رعـاياه»، وتمت الموافقـة على هذا بالإجماع، ومن المؤكـد أنه كان حـاضراً هناك أكثـر من ستين ألف رجل محارب، وقد انتظروا محصلة الأحداث بأهداف مختلفة في العقول.

وأخيراً، وبعد مناقشات طويلة، عـاد الرجال الأعيان والحكماء الذين اجتمعـوا منعـزلين عن الآلاف الكثيرة، وقـالوا:« نحن أعطينا مـوافقتنا على فردريك دوق سوابيا، وعلى هنري دوق لوثرنجيا، وعلى لوثير دوق السكسـون، ونعلنهم رجـالاً يستحقـون التقـدير وجـديـرين بحكم الامبراطورية، وكـونوا متأكديـن أننا نقول هذا ليس بسبب أي ارتبـاط، أو مصلحة خاصـة، بل بسبب أننا قدرنا المنفعة العـامة، ونحن نتحدث كما نعتقد أنه مناسب، اختـاروا أي واحد من هؤلاء الثـلاثة ترغبون به، باسم الرب، لأنهم جميعاً قـد أظهروا محاسنهم، ونحن نقـدر أنهم الأكثر تميزاً من أي واحد آخر على وجه الأرض.

ولدى سماع رئيس الأسـاقفـة لهذا قال:« أيها الأمـراء الأعظم نبـالة، الذين ذكرت أسماؤهم، اذهبوا على الفـور واختاروا واحداً من ثلاثتكم، وأي واحـد سوف تختـارونه باسم الرب القـدير سوف نطيعـه، لكن إذا أحـدكم لم يوافق على القرار العـام سـوف يقطع رأسه على الفـور، حتى لايفسـد الاجتماع المقـدس للمسيحيين بإعـاقـة رجل واحـد»، وأخـاف التحـريم القـاسي الذي جـرى اقتراحـه مـن قبل الأسقف الشجـاع كل واحد، وما من واحد من ذلك الحشد الكبير تجرأ على الغمغمة ضده.

وهكذا انسحب الدوقــات الثـلاثة التـي تمت تسميتهم للاجتماع مع بعضهم، مطوقين بالجيـوش من حولهم، ووقفـوا مع بعضهم في الوسط لبعض الوقت، ونظر كل واحـد منهم نحـو الآخـر دون التفوه بكلمـة، وكـان هنـري أول من خــرق الصمت، في حين بقـي الاثنان من دون كلام:« ما الذي نعمله نحن القـادة؟ هل أرسلنا إلى هنا لنقف صامتين؟ لقد عهد إلينا بمهمة مهيبة، نحن اجتمعنا لا لنكون صامتين، بل لنتكلم حول الخير الأعظم الممكن، ولقد انتظرت طـويلاً وبما فيه الكفاية لسماع كلام منكما، هل سنمضي اليـوم كله صامتين؟ فكروا بالعمـل الذي عهد به إلينا، واذكـروا ما هي إرادتكم»، وقد أصر رفيقـاه، على أنه بحكم أنه الرئيس بينهم ينبغي أن يذكر اقتراحاته، فقال:« علينا الآن أن ننشد أعلى الآراء، لأنه في هذه اللحظـة جميع العــالم اللاتيني معلـق على قــراركم، ولذلـك دعـــونـا نصلي إلى المولى الرب، الـذي عين مــوسى ليحكم العبرانيين، وأظهر لـه يشوع ليكون خليفته المنتصر، أنـه برحمته يساعـدنا الآن بحضـوره، مثلما كان مع صمـوئيل لمسح داود ملكاً»، وما أن فـرغ من قـوله هذا حتى اختــار صهـره لوثير، ولم يتجـرأ الدوق الثـالث على معـارضـة هذا، لأنه خـاف من الحكم الذي أصـدره رئيس الأسـاقفـة، ولذلك عادوا إلى الاجتماع ثم أعلن هنري والجميع يصغون إليه بعناية:« نحن انتخبنا لوثير دوق السكسـون، المتميــز بكثير من الفضـائل، الذي أظهر نفسـه جديراً بأعلى المناصب بفـروسيته وعـدالته كملك لسـوابيا، ولوثرنجيـا، وألمانيــا، وبافـاريا، ولومبـارديا، وجميـع شعـوب إيطاليـا، وكإمبراطور للرومـان»، وقد سمع كل واحـد كلماته، وصادق الأكثـرية عليها بسرور.

وكـان الرئيس الذي أعـد هذا الاجتماع، كما قلت هو رئيس أسـاقفـة مينز، وقد أمر على الفور جميع المقـدمين والأعيان، أن يقوموا على الفور، قبل مغادرتهم بتقديم الولاء إلى لـوثير على مرأى من الجميع، وكان أول

من فعل ذلك هنري راغباً، ثم فريدريك كارهاً، وبعدهما جثا جميع المقدمين الآخرين والأعيان على ركبهم أمام لوثير، وقدموا الولاء له، واعترفوا به ملكاً لهم وامبراطوراً.

وعندما ارفض الاجتماع، هاجم جيش فريدريك لوثير، وجرحه مع عدد كبير من مؤيديه، وأرغمهم على إدارة ظهورهم والفرار، وكان فريدريك قد جلب معه حوالي الثلاثين ألف رجل مسلح، لأنه كان عازماً على أن يصبح ملكاً إما بالخوف أو بالنفوذ، ولكنه لأنه أحبط سلفاً بدهاء الأسقف الجيد، حسبما وصفت، لذلك لم يكن بإمكانه أن يفرض إرادته، وشن بعد هذا الحرب على مستوى كبير من خلال أخيه كونراد، وعلى كل حال انتصر لوثير بعون الرب، وهو الآن يحكم بنشاط هو موضع الإعجاب وبتقوى وذلك منذ ما يزيد على العشرة أعوام.

—٤٤—

في العام ١١٢٦ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الرابعة، جرى تكريس الكنيسة الكاتدرائية في سيز على اسم الشهيد القديس غيرفاس أوف ميولان، وقام بالتكريس غيوفري السيد رئيس أساقفة روان، ومعه خمسة أساقفة آخرين، وكان ذلك في يوم الحادي والعشرين من آذار، وفي تلك المناسبة، كان هنري ملك الانكليز حاضراً مع نبلائه، وأعطى الكنيسة كوقف إيجار سنوي مقداره عشرة باوندات، وكان أيضاً بين الحضور: جيرارد أسقف أنغوليم، والنائب البابوي للكنيسة الرومانية، وجون أسقف ليزوي، وجون أسقف سيز، وغيوفري أسقف تشارترز، وأولغير أسقف أنغري.

وفي تشرين الأول جرى تكريس كنيسة القديس بطرس الرسول في ضاحية روان، وجرى بتشريف دفن القديس أون Ouen ، رئيس الأساقفة المعترف.

ومات في العام نفسه وليم أوف بويتو Poitou ، ووليم دوق أبوليا، ابن روجر أوف بورسا Borsa ، فهو قد مات من دون أولاد، وحاول البابا هونوريوس أن يأخذ دوقيته ليضمها إلى ممتلكات الكنيسة الرومانية، ووقف روجر الشاب، كونت صقلية معارضاً له، وقاتل معارك كثيرة ضد جيش البابا، وحصل على إمارة قريبه بقوة السلاح، وبعدما قدم الولاء إلى البابا، استمر مستولياً عليها حتى اليوم الحالي، وقد كان هو ابن روجر الشيخ، وكان تانكرد أوف هوتفيل هو ابنه، وكانت أمه أديلاسيا Adelasia البارعة، ابنة بونيفيس، مركيز إيطاليا القوي، والتي بعد وفاة زوجها الأول، أخو غويسكارد، تزوجت من بلدوين الأول، ملك القدس.

—٤٥—

في العام ١١٢٧ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الخامسة، خاطب لويس ملك فرنسا نبلاء المملكة في بلاطه لعيد الميلاد، وسألهم بإلحاح بتقديم التعاطف والمساعدة إلى وليم النورماني، فقد كان شاباً متميزاً، ووسيماً وشجاعاً، وأميناً، لكنه كان مطارداً بسوء الحظ منذ سنواته المبكرة، فعندما كان طفلاً على ذراعي أمه سيبل أوف أبوليا تسمم، وقد وقع والده روبرت، دوق نورماندي بالأسر في معركة تنشيبري Tinchebray ، واستولى أخوه هنري، ملك انكلترا على دوقية نورماندي، وقد كان طفلاً صغيراً، عندما عهد به- بناء على أمر الملك- إلى وصاية هيلياس أوف سينت— سين، ابن حموه، الذي حمله إلى فرنسا بسبب الخوف من الملك هنري ومؤيديه، وهناك تربى ونشأ بين الأجانب في فقر شديد، وخوف مستمر، وجرت مطاردته بإصرار من قبل كثير من الأعداء، الذين استخدموا جميع وسائل الدهاء للتسبب بموته، وفي الوقت نفسه سعى إليه الكثيرون الذين رغبوا في إعادته إلى ميراث أبويه، لكن الغايات الإنسانية، تناضل عبثاً عندما تود الوصول إلى شيء، عندما تكون إرادة

الرب قـد قضت بعكس ذلك، وناضل الملك لويس، رئيس أعيـان مملكة فـرنسـا، والكونت بلدويـن الشـاب الأعظم حماسـاً، وشـارل مع أعيـان فـلاندرز، وعمـوري أوف مـونتفورت، كـونت إيفـري، وستيفن كـونت أوميل، وهنري كونت ايو، ووالبران كونت ميـولان، وهيوج أوف غورني ووليم أوف رومير، وبودري أوف بري، وريشير أوف ليغلي، ويـوستـاس أوف بريتويل، مع آخـرين كثيرين نورمان وبريتـانيين، وإلى جانب هؤلاء روبرت أوف بيليم مع قوات الأنجيفيين والمانسـويين، كل هؤلاء ناضلوا لمسـاعـدة وليم المنفي، ولكن لأن الـرب كـان ضـدهم، ولأنه زود الملك هنري بحكمة عميقة، وقوة عسكرية وثروات وافـرة وأصدقاء كانوا أكثر تفـوقـاً من الآخـرين جميعـاً، لم ينجـزوا شيئاً، فكثير منهم سجنوا بسبب أعمالهم غير القانونيـة، أو حرموا من ممتلكاتهم، أو قتلوا، وتفجـرت أيضاً كثيراً من الثورات ضـد الملك هنري لصالـح قضية وليم، وأحرقـت مدن حصينة وقرى، فقـد أهلكت النيران والتهمت: مدينة إيفـري مع الكنيسة الكاتدرائيـة للقديسـة مـريم، ودير الراهبـات، وبريوني، ومونت فـورت، وليغلي، وبونت-أودمير، وأمـاكن أخرى كثيرة، وهذه كلها برهـان ساطع على صدق هذا.

وأخيراً عندما بلغ وليم المنفي السادسة والعشرين من عمره، وما من أحد استطاع أن ينجح في استرداد ميراثه الأبوي من عمـه، أعطته الملكة أديلا Adela كـزوجة أختهـا من أمهـا، ابنه رينير Rainer المركز [كـونت مونتفـرات]، وعـلاوة على ذلك أعطاه الملك لويس بونتـويس Pontoise ، وشـومـونت، ومـانتـي، وجميع فكسين، وعمل هذا في كـانون الثـاني، وبعـد ذلك بـوقت قصير، وقبل بداية الصـوم الكبير [١٦—شباط ١١٢٧] وصل إلى غيسـور مع قوة من الفرسـان للمطالبة بنورماندي، وقد احترمه النورمان بمثابة سيدهـم الطبيعي.

وفي الأول من آذار ذهب شـارل دوق فـلاندرز، وابن كنوت Cnut

ملك الدانمارك مع ثيمارد Themard قسطلان قلعة بوربورغ Bour-bourg وعشرين فارساً إلى كنيسة بروغي Bruges لسماع القداس، وعندما كان جاثياً على الأرض هناك، يصلي للرب، جرى قتله من قبل بوتشارد أوف ليلي واثنين وثلاثين فارساً آخرين، وتم ذبح جميع الذين كانوا معه أيضاً، وما أن سمع وليم أوف يبري Ypres بهذه الجريمة المروعة حتى تولى حصار قلعة بروغي، وحبس القتلة المتوحشين وأحاط بهم من كل جانب، حتى وصل إلى لويس ملك فرنسا مع وليم النورماندي، وحاصر الجزارين الآثمين لمدة شهر، واعتقلهم وأمر برميهم من أعلى أبراج بروغي، ولذلك أعطى دوقية فلاندرز إلى وليم النورماندي، واستعاد فكسين مع المدن الحصينة التي كان قد أعطاها له، ولكن في الحقيقة بعدما ضمن وليم دوقية فلاندرز بموجب حق وراثي من يد الملك، حكمها بصعوبات كبيرة لمدة ستة عشر شهراً فقط.

وقام أولاً باتخاذ إجراءات ضد الخونة، تجاه أي إنسان بموجب حجة من الحجج، سواء أكان من أصل رفيع، أو صاحب سلطة، أو مكانة، أو كان تائباً، وقد أدان حوالي المائة وأحد عشر رجلاً وعاقبهم إما بالرمي من شاهق أو بشكل آخر من أشكال الموت الوحشي، وبالنتيجة تألم أقرباء المقتولين بعمق وشعروا بالمرارة، فتآمروا على قتله وتدميره، وكان قد أعطى بلدة مونترويل—سور—مير إلى مربيه هيلياس أوف سينت—سين، الذي عانى من التجريد من ميراثه، مع تيريل أوف مينيري Tirel of Mainieres الذي أمضى سنوات طوال في المنفى من أجله، وقاد في آب جيشاً ضد ستيفن كونت بولوني Boulonge ، وفي محاولة منه لإخضاعه بدأ بالعيث فساداً بأراضيه من دون قيود أو ضوابط، بالنار والسيف، ولكن جرى في الوقت المناسب إرسال محاورين موثوقين فكان أن توصل هذان الرجلان إلى التصالح، بسبب أنهما كانا أقرباء، وألقيا أسلحتهما، بعد التوافق على هدنة لمدة ثلاثة أعوام.

وخلال الوقت الذي كان فيه الدوق وليم مشغولاً بهذه الممارسات العسكرية، ينال الحظ السعيد حيناً ويعاني من سوء الحظ حيناً آخر، مرة هكذا ومرة هكذا، تآمر بدهاء إيفان أوف غنت، ودانيال أوف ديندير موندي Dendermonde قريب بلدوين أوف غنت، للانتقام لأصدقائهما، وفي محاولة منهما لتنفيذ الجريمة التي خططا لها، جلبا التعاسة إلى كثير من الناس، وقد اتصلا بثيري كونت أوف ألساسي Al-sace ، ووجها اللوم له بالسماح لحقوقه الوراثية بالضياع بالإهمال من دون رفع شكوى قضائية، ووعداه أنه إذا ما أقدم على المطالبة بحقه فإنهما مع كثيرين آخرين سوف يساندونه، وبناء عليه ذهب ثيري أوف ألساسي، ولامبيرت كونت كليرمونت إلى فلاندرز، واستولى على مدينة ليلي Lille المشهورة مع فيرني Furnes وغنت وعدد من المواقع الأخرى، مع موافقة من الفلمنغيين، وعندما سمع وليم بهذه الأحداث، أبرم هدنة مع ستيفن أوف بولون، وقاتل حتى موته ضد الأعداء الأهلين، فلقد كانوا أقوياء ومن أصل نبيل، ومشهورين بجرأتهم وبشجاعتهم الكبيرة، وأعداء مرعبين بسبب ثروتهم وأصدقائهم، وقلاع وعواطف أبناء مواطنهم.

وفي تموز حشد الدوق جيشاً وألقى الحصار على بلدة آلست Aalst ، وقد حاصرها لعدة أيام مع مساعدة غودفري دوق لوفيان Louvian ، وتقاطر عليه كثير من الناس من نورماندي، لأن كثيرين قد أحبوه حباً عظيماً، وضللوا بآمال زائفة، حيث كانوا يثقون به كثيراً، ويعولون عليه، إلى حد رغبتهم بترك أراضيهم الأصلية وسادتهم وأقربائهم، وأصدقائهم، مع أنه كان بين مؤيديه بعض المنفيين بسبب الخيانة والقتل.

وكان وليم أوف يبري Ypres ابن روبرت مركيز فلاندرز أول من قام بمعارضته، لكن الحظ تخلى عنه، ووقع بين يديه عند تراي Trie التي كانت قلعة فكسين، وجرى إرساله على الفور ليودع في سجن

عموري أوف مونتفـورت، وقام الدوق بعد ذلك بوقت قصير، بإطلاق سراحه، بناء على وسـاطة بعض الأصدقاء، وأعـاده إلى حظوته، وحرره من قيوده.

وكـانت هناك ثلاث قلاع في يبري، الأولى منهـن كانت بيـد الدوق، وبيـد وليم الثانيـة، وكانت الثـالثـة بأيدي دانيال وإيفـان، وتآمر أعـداء الدوق للتسبب بمـوته هناك، وعــزمـوا على مهـاجمة قلعتـه أثناء الليل، ومركزوا أربعة أفواج خـارجها حتى لايمتلك الدوق أية وسائل للنجاة من موته، لكن الدوق، الذي لم يعرف شيئاً عن الفخ الوحشي الذي أعد له، ذهب إلى زيارة فتـاة كان يحبها، وكـانت تغسل شعره، حسبما كـانت عـادتها، ونظراً لمعرفتهـا بالمؤامـرة العدوانيـة، بكت وهي تغسل، وسأل الشـاب خليلتـه عن سبب دمـوعهـا، وضغط بأسئلتـه بإصرار ورجـاء وتهديد حتى ضعفت، وأباحـت بتفـاصيل كل شيء جمعتـه من أعـدائـه حول المؤامـرة على حياته، فانبعـث واقفاً مع حارسـه الشخصي، وشعره مازال من دون تمشيط وتناول سـلاحه، وحملها معه وأخذهـا خوفاً على حيـاتها لأنها ستكون في خطر، وبعث بها تحت رعـاية واحـد من رعـاة الديرة إلى وليم دوق بويتـو، الذي كـان فـارسـاً من أتبـاعـه ومن السن نفسـه، وطلب منه أن يعـامل التي حافظت عليـه كأخت، وأن يمنحهـا زواجاً مشرفاً، وكان هذا ما حدث.

ثم عبر وليم سـالماً من خلال جميع الكمائن، وبغضب أعلن عن إدانتـه للأعـداء المعلنين، وبعد هذا قـام الشاب الشجـاع بحشد قـواته من جميع الجهـات، وحـاصر مدينة آلست، وهاجمهـا بإصرار، وبذل غـاية جهـوده لإرغام الحامية على الاستسلام، وغالباً ما مارس واجبات القائد والفارس الأمر الذي عرضه للنقد المتواصل من قبـل حراسه اللطفاء، الذين خافوا عليـه، وغالبـاً ما دعـا الوحدات العسكرية، وكقـائد بارع، أصـدر إليهم الأوامر، ولكن أكثر من ذلك غالباً ما قاتل بمثابة فارس شاب مندفع.

وفي أحد الأيام وصل رتل معادي إلى موضع عبور واحد من مجاري المياه، وكان هذا الرتل عازماً على التفريج عن المحاصرين، وبسرعة أرسل الدوق ثلاثمائة فارس ضد رجال هذا الرتل، ولكن لأن الصراع استمر وقتاً طويلاً، وازدادت قوة العدو زيادة كبيرة، بدأ فرسان الكونت بالتراجع، وتقلقلوا إلى حد كبير، وعندما شاهد الدوق هذا صرخ بصوت مرتفع، وخف مندفعاً إلى مساعدتهم، ودخل المعركة بجرأة، وبذلك شجع رجاله ومتنهم وأرغم الأعداء على الفرار، وفي أثناء عودته هاجم فجأة أبواب البلدة، ولدى اقترابه تفرق الجنود الذين كانوا يحافظون على المكان وهربوا، وقفز عدد منهم إلى فوق الشرفات، وعندما شاهدهم الدوق هناك، أمسك رمح واحد من الجنود الرجالة المواجهين له، لكن بالصدفة، خرق السنان الذي حاول أن يمسكه بيده اليمنى فجأة في الجزء اللحمي من اليد بين الإبهام والكف، وخرق بشكل خطير إلى أن وصل إلى عروق ذراعه، ولذلك تراجع وهو مصاب بجرح بليغ، وعرض جرحه على أصدقائه، وبدأ يشكو من الألم الذي أخذ يصل حتى قلبه، وحمل بعد وقت قصير إلى فراشه، واستولت نار القديس أنثوني- كما يدعونها- على الجرح، وتورم الذراع كله حتى المرفق وتحول إلى السواد مثل لون الفحم، وتمدد مريضاً لمدة خمسة أيام، وتاب من ذنوبه، وطلب بأن يصير راهباً، لكن بعدما جرى تمتينه باستلام جسد الرب، وبعدما عمل الاعتراف، مات.

وقام هيلياس وتيريل، وأعضاء بطانة الدوق الآخرين الذين لم يتراخوا قط في إخلاصهم إليه، بإخفاء خبر إصابة اللورد الشاب بجرح مميت، عن الفلمنغيين وعن جميع الأجانب، وبقيامهم بالهجوم أرغموا الحامية على الاستسلام، وطالب إيفان صاحب البلدة بالتفاوض من أجل السلام، وبعد إعطاء الرهائن وتثبيت الهدنة صار صديقاً قريباً، ثم قاده النورمان إلى خيمة الدوق، وبحزن أروه مولاهم ميتاً على محفته،

وقالوا:« انظر، وتمعن، أنت قتلت مولاك، وبذلك أغرقت عدداً لا يحصى من الفرسان بالبكاء والنحيب»، وأصيب بالرعب لدى رؤيته لذلك، وانفجر يبكي بحزن مؤلم، وعندها قال له هيلياس:« أرجوك توقف عن البكاء الآن، لأن دموعك ليست لها فائدة الآن، ولا يمكن أن تقدم شيئاً للدوق، اذهب واحمل سلاحك معك، وسلح رجالك ورافق جسد الدوق الميت بتشريف إلى سينت-بيرتين Bertin »، وجرى تنفيذ هذا على الفور، وخرجت جماعة الرهبان لاستقباله، وتسلمت الجسد وحملته إلى الكنيسة، وهناك جرى دفنه إلى جانب الدوق روبرت(١)، ونقشت هذه الأبيات على الحجر الذي وضع فوق القبر:

وليم، فارس شريف، صاحب أصل رفيع

مركيز فلاندرز، راهب القديس بيرتين

يرقد هنا، والده روبرت، وأمه

سيبل، حكم مرة الشعب النورماني

في فجر اليوم الخامس قبل شهر آب

مات عندما جرح أثناء قتاله عند آلست.

وكان جون بن أودو، أسقف بايو أول من ذهب إلى عند الملك هنري، وأخبره بوفاة ابن أخيه، وبتواضع سلمه رسالة مختومة من الكونت وليم، فيها سأل الشاب- وهو على فراش الموت- عمه أن يسامحه على جميع ذنوبه التي اقترفها، ورجاه أن يعيد إلى حظوته جميع الذين تقاطروا وقدموا إلى تأييده، إذا ما رجعوا إلى إخلاصهم، ووافق الملك على هذه الاقتراحات واستقبل كثيرين ممن عادوا إليه، وقام

---

١- دفن وليم في سينت أومر في دير سينت بيرتين، لكن روبرت الفريزي دفن في كاسل Cassel في كنيسة القديس بطرس التي كان قد أسسها ولم يدفن في سينت بيرتين.

آخرون كثر- على كل حال- وقد حزنوا كثيراً لوفاة سيدهم، فحملوا صليب الرب، وأصبحوا منفيين في سبيل المسيح، وانطلقوا نحو ضريحه في القدس، وأصبح ثيري أوف ألساسي دوقاً لفلاندرز، وأقام حلفاً متيناً مع لويس ملك فرنسا، ومع هنري ملك انكلترا، ومارس الملك هنري سلطاته الملكية ليجلب ستيفن كونت بولون تحت سلطانه الملكي مع النورمان الآخرين الذين كانت لديهم أراضي في فلاندرز، وبعد مضي عدة سنوات، توفيت الزوجة الجميلة التي كان ثيري متزوجاً منها، وبناء على نصيحة ملك انكلترا أخذ زوجة لنفسه سيبل أوف آنجو، التي كانت مخطوبة إلى سلفه وليم.

—٤٦—

معتمداً على مساعدة الحاكم الأعظم، بقي الملك هنري ثابتاً في مقعد السلطة خلال كثير من المصاعب والأعمال المضادة التي تلقاها من الثوار الذين تخلوا عن أعمال طيشهم وبتواضع طلبوا رحمته، وقد وافق بكرم عبقري على التصالح معهم، وقبل كل شيء- كما قيل أعلاه- كان وليم أوف رومير قد تصالح بشرف مع الملك، ومن ذلك الوقت أصبح رفيقه القريب وصديقه، وأعطاه الملك يد ماتيلدا النبيلة المولد، ابنة رتشارد أوف ريفري، وقد ولدت له ولداً وسيماً اسمه وليم إلياس، وكان وليم في شبابه فاسقاً، ومنصرفاً بشطط إلى الشبق، لكنه ضرب بالعصا اللاهوتية، ووقع مريضاً مرضاً كبيراً، وبعدما تشاور مع رئيس الأساقفة غيوفري عاهد الرب بأن يصلح حياته، وقد عاد إلى نوفومارشي بعد شفائه، فأقام سبعة رهبان في كنيسة بطرس الرسول في محل أربعة من الكهنة العلمانيين الذين خدموا هناك، وأضاف عدداً من المقتنيات إلى أوقافهم، وبالإضافة إلى ما كان هيوج أوف غراندميسنيل قد أعطاه إلى رهبان سينت-إيفرول هناك، كتب صك تثبيت للممتلكات التي كان قد أعطاها، وأعاد مذبح الكنيسة وكذلك الأبنية الديرية.

وهكذا حدث في العام الثامن والعشرين لحكم الملك هنري، مات وليم الشاب، كونت فلاندرز، ومعه انهارت وتبددت جميع قوى وجرأة الذين ساندوه ضد عمه، فلم يعد لديهم واحد يقودهم في تجبرهم الطائش، بعدما فقدوا القائد الشاب، الذي من أجله عاثوا فساداً في حقول نورماندي بالنار والسيف، وفي ذلك الوقت رأى الدوق روبرت الذي كان موضوعاً في السجن في ديفزي Devites ، في المنام بأنه أصيب برمح بذراعه الأيمن وفقده على الفور، وعندما استيقظ في الصباح قال للذين كانوا من حوله: « وا أسفاه لقد مات ولدي»، ولم يكن قد قدم بعد رسل لحمل الأخبار بكلام الفم، عندما علم أبوه ذلك وعرفه في منامه، وأخبر به أصحابه، ومات روبرت نفسه في كاردف Cardiff بعد مضي ستة أعوام، وحمل من سجنه ودفن في غلوستر.

—٤٧—

أنا سوف أعرض الآن كيف أن نبوءة أمبروسيوس ميرلين Ambrosius Merlin التي جرى التفوه بها في أيام فورتيغيرن Vortigern ملك بريطانيا، قد تحققت في كثير من الجوانب خلال مسار ستمائة عام، وأنا مسرور لذكر بعض أجزاء منها، التي يبدو أنها تنطبق على أيامنا، وأن أدخلها في عملي المتواضع، فلقد كان معاصراً لجرمانوس المبارك أسقف أوكسري Auxerre الذي عبر مرتين إلى بريطانيا في أيام الامبراطور فالنشيان Valentinion واختلف مع بيلاغيوس Pilagius وأتباعه، الذي تكلم بوحشية ضد نعمة الرب، وبعدما عمل عدداً من المعجزات باسم الرب، أخزى بها الهراطقة ودحضهم، واحتفل بعد ذلك بعيد الفصح بتقوى، وقاتل ضد الأنكلو—سكسون، الذين كانوا آنذاك وثنيين، يحاربون بريطانيا المسيحية، وهزم حشد الكفار بالصلاة، وليس بالسلاح، وبالصراخ بعبارة«هلالوليا» مع جيش من الكهنة الجدد، وإذا ما أراد أي واحد أن يعرف المزيد من التفاصيل حول هذا،

وحول حوادث أخرى تتعلق بالبريطانيين يمكنه أن يقرأ كتابي المؤرخين: غيلـــداس Gildas البريطاني وبيد الانكليزي، حيث سيجد القارىء فيهما رواية رائعـــة حـــول فـــورتيمير Vortimer وإخوته، وحول آرثر الشجاع والمعارك الاثنتي عشرة ضد الانكليز.

ولقد قيل بأن ميرلين قد أرى فورتيجيرن Vortigen بركة في وسط أرضيــة، وفي البركـــة مـــركبين، وفي المركبين خيمـــة مطـــوية، وفي الخيمـــة دودتان، الأولى منهما كانت بيضـــاء والثانية حمراء، وقـــد كبرتا على الفور ووصلتا إلى حجم كبير، وأصبحتا تنيان، وقاتلتا إحداهما الأخرى بعنف شـــديد، وفي النهاية انتصر التنين الأحمر، وطـــرد التنين الأبيض إلى حافـــة البركـــة، وبينما كـــان الملك يـــراقب مع البريطانيين، بكى ميرلين أسفـــاً، وعندمـــا سئل من قبل المشـــاهدين المندهشين تقـــديم شرح، قـــال الكاهن بروح نبوءة بأن البركة التي وسط الأرضية تمثل العالم، والمركبان يمثلان جزر المحيط، والخيمة هي مدن وقـــرى بريطانيا التي يسكن فيها الناس، وقصـــد بالتنين شعبـــي بريطانيـــا: البريطانيين والانكليـــز، اللذان ســـوف يؤذيان بعضهما بعضـــاً حتى يتلطخ السكسون بالدم، وهو مـــا مثله التنين الأحمر، وهم ســـــوف يطردون البريطانيين إلى كـــــــورنوول Cornwall وإلى ما وراء شـــواطىء المحيط، ويمثل التنين الأبيض البريطانيين بسبب أنهم غسلوا فـــابيضوا بالعماد منذ أيام الملك لوسيـــوس Lucius والبابا إليوثيريوس Eleutherius.

وتوقع المتنبىء ميرلين وقوع مجرى الأمور في الجزر الشمالية، واحتفظ بها كتـــابـــة، بلغـــة مجازية وبعـــدمـــا تحدث عن التنين الألماني، وتعشير نورمـــاندي الذي حـــدث في شخصيـــات ألفـــرد Alfred أخو ادوار ابن الملـــك إيثلـــرد Ethelred وأصحابه غيلدفورد Guildford ، وكانت النبوءة التالية حول اضطرابات هذا العصر الحالي، والتغييرات المرعبة:

« ســـوف يأتي قـــوم في خشب، مـــرتديـــن لقمصـــان من حـــديد، وهم

سـوف ينتقمون من شروره [التنين الألماني] وسـوف يعيـد هؤلاء الناس إلى السكان القـدمـاء أماكن سكناهـم، وتدمير الأجانب سـوف يشـاهد بكل وضوح، ولسوف تقتلع بذورهم من أراضي حدائقنا، وبقية ذريتهم سوف تعشر، ولسوف تحمل نير العبودية الدائم، وسوف يجرحون أمهم بالمعـاول وبالمشـاركة بالمحـراث، وسـوف يأتي عقب ذلك تنينان زيادة، أولهما سوف يقتل بسهم الحسـد، لكن الآخر سـوف يعود في ظل لقب، ثم سوف يأتي أسـد العدالة، الذي سوف ترتجف قلاع غـاليا لدى سماع زئيره، وسـوف يرتعد تنينـا الجزيرة، وفي أيامه سـوف يستخـرج الذهب من الزنبق ومـن نبـات القـراص، وسـوف ينبع من أظـلاف القطعـان السـارحة، ولسـوف يرتدي الرجـال ذوي الشعر الجعـد ألبسـة صوفيـة متعـددة الألوان، ولسـوف يدلل الرداء الخارجي على داخليـة الإنسـان، وسوف تصبح أقدام الكلاب متعددة متنوعة.

وسـوف تمتلك الحيوانات المفترسـة السلام، بينها ستعـاني من ويلات عقـوباتها، وسـوف ينشطر عطاء التجـارة، وسيكون النصف دائـرياً، وسـوف يتوقف جشع الطيـور الجوارح، وستكون أنياب الذئـاب كليلة غير حـادة، وسـوف تتحـول أشبال الأسـد إلى أسماك البحـر، وسـوف يعشعش نسره على جبـال آرافيـا Aravia ، وسوف يكون فينيدوتيا Venedotia أحمر بدم أم، وسوف يذبح بيت كورينيوس Corinues ستة إخوة، وسوف تغرق الجزيرة في دموع الليل، ولذلك سوف يغضب الناس لكل شيء، وفيما بعد سوف يناضل الناس للتحليق فوق الأعالي، ولكن الحظوة التي سـوف يتم إظهارها نحو النـاس الجدد سوف تكون أعلى من الجميع، وسوف تؤذي الواجبـات البنوية للإنسان الذي حصل على مقتنيـاته من غير الحلال حتى يسير على طرقـات أبيه، ولهذا سـوف يتسلق وهو متمنطق بأسنان الخنـزير فـوق قمم الجبـال وبعيـداً عن ظل المقاتل الـلابس للخوذة، وسوف تصبـح ألباني Albany غاضبة،

وستستدعي جيرانها، وسوف تكرس نفسها على سفك الدماء، وحديدة اللجام التي ستصنع في ميناء أرموريكا Armorica سوف توضع بين أسنانها، وسوف يذهبها نسر الميثاق المخروق، وسوف يغتبط في عشها الثالث، وسوف تستيقظ أشبال الأسد الحاكم، وسوف تظهر من الغابات، وتصل لتصطاد داخل أسوار المدن، وسوف يحدثون مذبحة كبيرة بين الذين سوف يتصدون لهم، وسوف يقطعون ألسنة الثيران، وسوف يكدسون السلاسل على رقاب الذين يزأرون، ويجددون الأيام القديمة، ومنذ ذلك الحين سوف تبلل الإبهام بالزيت من الأولى إلى الرابعة، ومن الرابعة إلى الثالثة، ومن الثالثة إلى الثانية، وسوف يدمر السادس أسوار إيرلاندا، ويغير غاباتها إلى أراضي مكشوفة، وسوف يوحد الأجزاء المقسمة في جزء واحد، وسوف يتوج برأس أسد، وسوف تكون بدايته عرضة لتغييرات متنوعة، لكن نهايته سوف تحلق إلى السموات، لأنه سوف يعيد مساكن القديسين خلال البلاد، ويقيم رعاة في أماكن توائمهم، وسوف يلبس مدينتين بغطائين، ويعطي أعطيات طاهرة إلى العذراوات، وبذلك سوف ينال حظوة المرعد، وسوف يتوج مع المباركين من قبله، ومنه سوف يصدر وباء سوف يخرق جميع الأشياء، ويهدد بتدمير شعبه، لأن من خلاله سوف تفقد نورماندي الجزيرتين، وسوف تحرم من مكانتها وكرامتها الماضية، ثم سيعود سكان الجزيرة إليها».

لقد أخذت هذا النص الصغير واستخرجته من كتاب ميرلين، وقدمت نموذجاً صغيراً منه من أجل الباحثين الذين إليهم لم يكشف، فبعض منه- كما أعلم- قد تحقق في ماضي الأحداث، وما لم أكن مخطئاً الكثير سوف تتبرهن صحته مع الأسف أو السرور من قبل الأجيال المقبلة، ويمكن للناس القارئين قراءة جيدة للتاريخ أن يطبقوا توقعاته إذا ما عرفوا حياة هنجست Hengist وكاتيغيرن Katigern ، وباسنت

Pascent ، وآرثر، وإيثلربيرت Aethelbert ، وايدوين Edwin ، وأوسوولد Oswald ، وأوسي Oswy ، وكادوالا Caedwalla ، وألفرد Alfred ، وحكاماً آخرين للانجليز والبريطانيين حتى أيام هنري وغروفيد Gruffydd ، الذين ما زالوا غير متأكدين من نصيبهم، وينتظرون الحوادث المستقبلية التي قضيت لهم من قبل إرادة الرب التي لاتعرف التغيير، لأنه أوضح من ضوء النهار للإنسان المفكر الكلمات حول ابني وليم التي مضت إلى القول:« سوف يأتي عقب ذلك تنينان- أي السيدان: الفاسق، والمقاتل- أولهما سوف يقتل بسهم الحسد»، يعني وليم روفوس الذي قتل بسهم أثناء الصيد، والثاني هو الدوق روبرت، الذي سوف يموت تحت ظل السجن، حاملاً المرتبة الفارغة للقبه السالف، أي لقب دوق،« ثم سوف يأتي أسد العدالة» الأمر الذي ينطبق على هنري، «الذي سوف ترتجف قلاع غاليا لدى سماع زئيره، وسوف يرتعد تنينا الجزيرة»، وذلك بسبب ثروته وقوته، فهو بذلك قد تفوق على جميع الذين حكموا قبله في انكلترا، وبعد هذا ووفق هذه الطريقة يمكن للناس العقلاء أن يفسروا المتبقي، وأنا يمكنني أن أقول أكثر من هذا عن طريق الشرح، فأنا إذا أردت أن أكتب شروحاً وتعليقات على ميرلين، يمكنني فعل ذلك، لكن بالتخلي عن هذا، سوف أعود إلى سياق روايتي، وسوف أقدم الرواية الصحيحة حول حظوظ شعبنا.

—٤٨—

في عام ١١٢٨ لتجسيد ربنا، وفي العلامة السادسة، مات غورموند بطريرك القدس، وحكم ستيفن أوف تشارترز مدينة صهيون المقدسة، لمدة عامين من بعده، وخلفه وليم أوف فلاندرز بعد وفاته، وفي العلامة السابعة وقع غيوفري أسقف روان مريضاً، وبعد مرض طويل تخلى عن الروح في ٢٦ تشرين ثاني، وفي أثناء تمدده مريضاً، وصدوراً عن الاهتمام بخلاص روحه، قام بتسليم كل ما كان لديه، وجاء متى أسقف ألبانو،

الذي كان راهباً من كلوني ونائبـاً للكرسي الرسولي المقدس، إلى عند الملك هنري في روان، وقـام معـه باتخاذ إجـراءات من أجل مصلحـة الكنيسـة، وبناء عليـه، تمت دعـوة أسـاقفـة ورعـاة ديرة نورمـاندي، وذلك بناء على أوامر الملك، وفي بيت الرهبان في روان، وبحضور الملك تم سماع القوانين التي أعلنت بالكلمات التالية التي أذاعها نائب البابا هونوريوس:

لايجوز لأي كـاهن أن يخدم في كنيستين، كما لايجوز لأي كـاهن الاستحـواذ على الأوقـاف في كنيستين، بل سـوف يخدم الـرب ويقـدم الصلوات يومياً إلى ولي نعمته في الكنيسة التي يتسلم مواردها.

لا يجوز للرهبـان ورعـاة الديرة تسلم كنائس أو عشـور مبـاشرة من علماني، بل يتوجب على العلمانيين إعـادة المغتصبات لديهم إلى الأسقف، ويمكن للراهب أن يتسلم من الأسقف الذي أعطي تبعاً لرغبة الملاك.

ويمكنهم بمـوجب غفران بابوي التمتع من دون إزعـاج بالممتلكات التي حصلوا عليهـا من قبل كيفما كان وبأية طريقـة من الطرق، لكن في المستقبل لايجوز لهم الإقـدام على اغتصـاب، أي شيء من هذا النوع من دون إجازة من الأسقف الذي توجد الممتلكات في أسقفيته.

ثم حلل النائب البـابـوي كل واحـد اقترف هذا الذنب، وفي الشهـر التـالي -كما ذكرت من قبل- غـادر رئيس الأسـاقفـة هذه الحياة، وكـان الذين وجــدوا مع النائب البـابـوي هم: غيـوفـري أسقـف تشـارترز، وجوسلين الأحمر أسقف سـواسون، وجميع أسـاقفة نورمـاندي: رتشارد أوف بايو، وأودين أوف إيفري، وتورغيس أوف أفرانشي، وجون أوف ليزوي، ورتشـارد أوف كاوتانس، وجـون أوف سيز، وكان أيضـاً عدد كبير من رعـاة الديرة مـوجـودين: روجـر أوف فيكامب، ووليم أوف جــومي Jumieges ، ورينفرد Rainfrid أوف سينت أون، ووارين أوف سينت إيفـرول، وفيليب أوف سينت-تورين، وآلان راعـي الدير

المنتخب أوف سينت-واندرلي Wandrille ، مع عدد من الآخرين، وكان الملك هنري حاضراً بمثابة الحامي لهم، ولم يسمح بفرض أية أثقال عليهم من قبل الأساقفة.

وفي عام ١١٢٩ لتجسيد ربنا، وفي العلامة السابعة، جرى اختيار الطفل فيليب من قبل أبيه لويس، وجرى تتويجه ملكاً في أحد الفصح في الرايمز من قبل رينالد الثاني، رئيس أساقفة الرايمز، لكن بعد عامين مضيا، وبعدما سقط عن ظهر حصانه، ولأنه سحق بقسوة مات في باريس.

وفي العام نفسه أعطى الملك هنري ابنته ماتيلدا بالزواج إلى غيوفري كونت أوف آنجو، وتولى تورغيس الأسقف العجوز لأفرانشي إقامة رسوم احتفالات الزواج، وعندما اكتملت احتفالات الزواج كما ينبغي، انطلق الكونت فولك عائداً ثانية إلى القدس، واتخذ لنفسه زوجة ابنة الملك بلدوين الثاني، وحصل من دون تعب على مملكة القدس وعلى إمارة أنطاكية، التي كان محاربون مشهورون قد استولوا عليها بصعوبات كبيرة، وقد منحه ختنه المسن التاج، لكن الرجل الأصغر سناً رفض أن يرتديه أثناء حياته، مع أنه مارس السلطة دونما إزعاج أو إعاقة بمثابة صهر ووريث لجميع أرجاء المملكة خلال السنوات التي بقيت من حياة الملك العجوز، ومنذ البداية عمل من دون بعد نظر وبلا ذكاء حسبما توجب عليه أن يظهر، وغير الحكام والأعيان الآخرين بسرعة كبيرة، ومن دون تفكير، وكحاكم جديد أبعد عن مجلسه الاستشاري الأعيان القياديين، الذين قاتلوا منذ البداية بإصرار ضد الأتراك، وساعدوا غودفري والبلدوينيين للاستيلاء على المدن والقلاع ووضعها تحت حكمهم، وأحل محلهم أنجيفيين غرباء، وآخرين فجين من القادمين الجدد، فإليهم أصغى، وبعزله المدافعين المحنكين أعطى الأماكن الرئيسية في مجالس المملكة وقيادة حاميات القلاع إلى متملقين جدد، ونتيجة لذلك انتشر عدم رضى كبير، وثار العنيدون من الأعيان بشكل

خطير ضد الرجل الذي غير المسؤولين هكذا بحماقة، وقاموا لمدة طويلة، وهم تحت تأثير نفوذ الشيطان بتحويل براعاتهم الحربية- التي كان عليهم ممارستها ضد الكفار- إلى تمزيق أنفسهم، لا بل إنهم تحالفوا من على الجانبين مع الكفار ضد بعضهم بعضاً، مع نتيجة أنهم فقدوا آلافاً كثيرة من الناس وعدداً من القلاع.

وفي عام ١١٣٠ لتجسيد ربنا، مات بلدوين الثاني ملك القدس في الخامس عشر من آب(١)، وأصبح فولك أوف آنجو ملكاً، حيث حكم لستة أعوام، وصار في العام نفسه هيوج أوف أميين Amiens ، راهب كلوني، وراعي دير ريدنغ Reading ، رئيساً لأساقفة روان.

وفي عام ١١٣١ لتجسيد ربنا مات البابا هونوريوس في روما، وبدأ على الفور انشقاق يستحق الشجب في كنيسة الرب، لأن الشماس غريغوري انتخب بابا من قبل بعضهم وأطلق عليه انوسنت الثاني، في حين جرى انتخاب بطرس من قبل آخرين، وتمت مباركته تحت اسم آناكليتوس Anacletus.

## هنا انتهى الكتاب الثاني عشر من التاريخ الكنسي

١- مات بلدوين الثاني في ٢١-آب عام ١١٣١ .

# الكتاب الثالث عشر

## هنا بداية الكتاب الثالث عشر

—١—

عندما كان الحجاج الغـربيون يقاتلون معركة بعد معـركة ضد الكفار في فلسطين، ومن خلال العديد مـن الصراعات وأعمال الحصار الطويلة نالوا القـدس مع مدن أخـرى للمسيح، وفي تلك الأثناء وقع غودفـري كونت مورتاني Mortagne ابن الكونت روترو Rotrou ، وكان رجـلاً ملحـوظاً لكثير من سماته النبيلة، وقع مـريضـاً بشكل مميت(١)، فـاستـدعى أعيـان بيرشي Perche مع الكوربونيين Corbonnais ، الذين كانوا خاضعين لحكمه ككونت، وتولى تنظيم شؤونه بعناية كبيرة، وأعطى تعليمات حكيمة إلى زوجته بيترايس Beatrice التي كانت ابنة كونت أوف روشيفورت Rochefort (٢)، وإلى نبلائه، وأخبرهم بأن يحافظوا على السـلام، وأن يتمسكوا بالنظام بشرف، وأن يحموا أراضيـه وقـلاعه لابنه الوحيـد روترو، الذي ذهب إلى الحج إلى القـدس، ثم إنه بعد قضـاء جميع أعماله بطريقة صحيحـة، صار اللورد الشجـاع راهباً في دير كلوني، وقد مات ودفن في حصنه نوغنت -لى- روترو Nogent-le-rotrou في منتصف تشرين أول، وهناك كـان والده قـد بدأ بتأسيس صـومعة على شرف القـديس دينس الإيريوباغتي Areopagite ، وقام هو نفسه بإغنائهـا كثيراً بالأراضي والثروة، وفي الشهر نفسـه مات وليم أوف مـولين-لى-مـارشي Moulins-la-Marche، الذي كـان سيـداً تخومياً جريئاً، ودفن في بيت الرهبان في سينت—إيفرول.

وفي العام ١١٠٠، بعـدما حقق النبـلاء جميع أهدافهم في الذهاب إلى

---

١— يشير أوردريك هنا إلى العام ١١٠٠، ففي تشرين أول منه مات غودفري.

٢— كانت بيترايس ابنة هيلدوين Hilduin كونت مونتديدير Montdidier وروسي Roucy.

القدس، عادوا، واستردوا أراضيهم وحقوقهم، وعاد سالماً في ذلك الوقت روبرت دوق نورماندي، وروبرت أوف فلاندرز، وروترو أوف مورتاني مع آخرين كثر، وكلهم أعادوا تمليك أنفسهم لأراضيهم وسط ثناء كبير استحقوه من قبل أصدقائهم المقربين وآلهم.

—٢—

وليس بعد وقت طويل تعرض ألفونسو [الأول ١١٠٤—١١٣٤] ملك أراغون إلى تهديد خطير من قبل الكفار، وكان دوماً متأذياً بالحملات التي عانى فيها من خسائر حادة، ولذلك أرسل رسلاً إلى قريبه روترو[ ابن خالته] ورجاه أن يقدم إلى مساعدته في الصراع ضد الكفار، وأن يجلب قوات تفريج من الفرنجة، لأن هؤلاء الناس قد برهنوا على عظمتهم في كثير من الأماكن الصعبة، ووعد بالإضافة إلى ذلك بدفع رواتب كريمة إلى القوات الفرنسية الرديفة، وأراضي غنية إلى أي واحد يقرر البقاء معه، وحشد الكونت الشجاع على الفور أتباعه من الفرسان، ووصل لإنقاذ قريبه الملك وساعده من دون تقتير أو خداع، لكنه لم يجد تكريماً حقيقياً بين الإسبان، لأنه بعدما قام هو وأصحابه وأبناء بلاده بإنجاز الكثير من الأفاعيل الشجاعة، وبعدما هزت مساعدتهم أركان المسلمين بشدة، تآمر الإسبان لخيانتهم وخططوا للتسبب بموت حلفائهم بموافقة الملك، كما هو معتقد، وعندما جرى كشف هذه الجريمة إلى الفرنسيين من قبل المشاركين بها، ترك روترو وأصحابه الملك وخونته الإسبان وعادوا إلى فرنسا من دون استلام أية مكافأة كافية مقابل جهودهم السخية.

—٣—

وتفجر في تلك الأثناء خلاف جاد بين روترو وروبرت بيليم بسبب بعض الادعاءات التي ادعاها كل من السيدين الحدوديين حول تخوم

ممتلكاتها، ونتيجة لذلك حارب أحدهما الآخر بقسوة متناهية، ونهبا وأحرقا، وكل واحد منهما فعل ذلك في أراضي الآخر مضيفاً جريمة إلى جريمة، وقد نهبا الناس الفقراء والضعفاء، وجعلاهم يعانون بشكل متواصل من الخسائر، أو أن يعيشوا في خوف من الخسائر، وسببا اليأس والكآبة إلى المعتمدين عليهم، وإلى الفرسان والفلاحين سواء، الذين تحملوا كثيراً من المآسي، ومع ذلك برز روترو على أنه الأقوى، حيث هزم روبرت في القتال، وطرده من الميدان، وأسر كثيراً من رجاله، وسجنهم في زنزانته، وكان الرجلان قريبين، ولهذا السبب تخاصما حول ممتلكات أسلافهما، وكان وارين أوف دومفورت، الذي خنق من قبل الشياطين، جد روترو، وكان روبرت أوف بيليم الذي ذبح من قبل أبناء وولتر سور مثل خنزير في الزنزانة بالون، وكان عم مابل Mabel أم روبرت، ولذلك امتلك روبرت لوحده دومفورت وبيليم وجميع أملاك أسلافه، ورفض السماح إلى أي واحد بالمشاركة في ثروته أو المشاركة في سلطته، وكان يستهدف من دون استقرار أن يكدس المزيد بعد، بالقوة أو بالخداع.

وهكذا قام كل من الكونتين غيوفري وروترو، اللذان كانت أراضيهما متجاورة، بالتقدم بمطالبات مصرة للمشاركة في ميراثه، لكنهما كانا غير قادرين على استرداد حقهما بالقوة من الطاغية روبرت، الذي استحوذ على أربع وثلاثين قلعة، مع أنهما ألحقا به خسائر لا تحصى، وكان هنري ملك انكلترا قد سمع عن شجاعة روترو، فأعطاه ابنته [الطبيعية] ماتيلدا بالزواج، وشيد له قوته ورفعها بزيادة ممتلكاته زيادة كبيرة وكذلك ثروته في انكلترا.

— ٤ —

وعندما سمع المسلمون بأن الفرنسيين قد انسحبوا، تشجعوا، وهاجموا المقاطعات المسيحية مرة ثانية، وعرضوا قوتهم وأظهروها بمذابح وحشية، فيها هلك الكثيرون، وشعر الأرغونيون بالخجل لأنهم

قهروا من قبل القوات العدوة، فبعثوا مرة ثانية إلى الفرنسيين، وكفروا عن الأخطاء التي اقترفوها بحقهم، وحددوا بموجب أيمان أدوها الأراضي والمراتب التي ستعطى لهم، وهكذا سامح الكونت وعفا عن الاعتداءات والمظالم الماضية، واستقبل سفارة أصدقائه وأقربائه، وقاد جيشاً كبيراً جرى جمعه من جميع الأطراف ودخل بجرأة إلى أراضي المسلمين وشن الحرب عليهم، وفرح الإسبانيون بسبب هذه المساعدة الفعالة، ورحبوا بسرور بالفرنسيين، وكانوا راغبين في إصلاح الأخطاء الماضية، فأسكنوهم في مدنهم: طليطلة، وتودله، وبامبلونا وفي قلاعهم، وسلموهم مراتب مهمة وممتلكات، فلقد كانوا رجالاً لم يعرفوا الكسل، وقد احتشدوا في بداية الصيف، وطردوا المسلمين من أراضيهم بضربات دموية، ولكي يقلبوا التيار ضدهم، زحفوا عبر حدودهم، وبعون الرب أنزلوا الانتقام بهم بطرق متنوعة، وانتقموا للجراحات الماضية والإهانات، وقد وجدوا كميات وافرة من المؤن، مع جميع أنواع الأشياء في مقاطعاتهم، كانوا قد خزنوها من أجل الشتاء.

في ذلك الحين[ ١١٢٤م] قام روترو كونت مورتاني مع الفرنجة، وأسقف سرقسطة مع فرسان سعف النخلة Palm ، وغاستون أوف بيرن مع الغسكونيين، بتحصين بينكادل Benicadell حيث كان هناك برجان منيعان لا يراما، وثبت لمدة ستة أسابيع وأخيراً قاتل ضد[ بدر بن ورقاء] المرابطي ملك بلنسية، ثم احتشدوا قرب مدينة Xativa ، لكن قبل أن يضربوا ضربة واحدة هرب المسلمون، تاركين ستين من الأعوان في قلعة بينكادل، لكن المرابطون والأندلسيون أرسلوا من أفريقيا من قبل الملك علي بن يوسف، فالتقوا بهم على الطريق وحاصروهم لمدة ثلاثة أيام في قلعة seralisi ، وخلال هذه الأيام الثلاثة تاب المسيحيون من ذنوبهم، وفي الرابع عشر من آب، اشتبكوا بالقتال، وقد دعوا اسم الرب، وبمساعدة قوة من السماء قاتلوا طوال اليوم، وانتصروا عند غياب

الشمس، غير أنهم لم يتجرأوا على مطاردة المسلمين الفارين لمسافة طويلة، لأنهم لم يعرفوا الطرقات وخافوا من المخاطر أثناء الليل.

وفي اليوم الذي تقدم على يوم المعركة الرئيسية، تسلق غالندوسانشيز Galinolo sanchez ، وهو رجل استحق كل ثناء، تسلق مع فرسان سعف النخلة إلى الجبال، وعندما اشتبك المسيحيون بالقتال هناك، مدعومين بقوة الرب، هرب ملك المرابطين مع مائة وأربعة وخمسين من الجنود الرجالة بعدما هزموا، مع أعداد لاتحصى من حشد المسلمين هذا وقد أهلكوا إما على أيدي مطارديهم، أو بالسقوط من الشعاب الجبلية، أو من خلال الإنهاك من التعب والعطش، أو بطرق أخرى، وهكذا هلك الأفارقة الذين قدموا لنجدة المسلمين في أسبانيا(١)، وقد أرسلوا إلى مناطق الجحيم بوساطة أسلحة المسيحيين، وهم الآن يتعذبون في نيران جهنم مع ملوكهم، وبعد ذلك سعى بعض النورمان والفرنسيين للحصول على أماكن قريبة منهم، وقرروا الاستقرار هناك، وسافر سلفستر أوف سينت—كالي Calais ورينالد أوف بيليول Bailleul مع عدد كبير آخر، عائدين إلى بلادهم، لأنهم كانوا يفضلون أراضي آبائهم على امتلاك أراضي أجنبية.

—٥—

وفي هذه الآونة قرر فارس نورماندي اسمه روبرت بوردت كولي Cullei أن يبقى في أسبانيا وأخذ طريقه إلى بلدة اسمها طركونة، حسبما جاء في الكتب القديمة، وكانت هذه —كما قرأنا— المكان الذي تألم فيه في أيام الامبراطور غالينوس Gallienus ، الشهيد المقدس في المسيح، أسقف فروكتوسوس Fructuosus ، والشماس أوغوريوس

١— تصحفت الأسماء عند مؤرخنا بشكل تعذر ضبطه، وتحدث عن هذه الوقائع صاحب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية-تحقيقي، ط.الدار البيضاء ١٩٧٩—ص ٩١—٩٧، وأنها بدأت في سنة ٥١٩ هـ واستمرت سنة كاملة وثلاثة أشهر.

Augurius ويولوغيوس Eulogius ، فقد ألقيـوا أولاً بالسجن، ثم علقـوا بين النيران، وعندما احترقت قيـودهم مـدوا أذرعتهم على شكل صليب، وصلوا مـن أجل الموت في النيران، وقـد استجيـب لهم، ونظم أورليوس كليمن بـرودنتوس Aurelius clemens prudentius أغنية مـوزونة حولهم في كتـاب الشهـداء، ووصف صراعهم في شعر متميز، وكـان في طركـونة كـرسي مطرانيـة، وهناك ازدهـر أولدغـار Oldegar الذي كان رئيس أسـاقفة عجوز صاحب معـارف كبيرة، وأدى واجباته المفـروضة عليـه في قرى ومـدن أبرشيته، لكن أشجـار السنديان والزان وأشجـار طويلة أخـرى كانت قـد نمت في الكنيسـة الكاتدرائيـة، ولمدة طويلة غطت الأرض داخل أســوار المدينة، لأن السكان الماضين الذين عاشـوا هناك قد قتلوا أو طردوا بوساطة وحشيـة المسلمين، وأخيراً قام روبرت، وقـد أثير مـن قبل الأسقف، بالذهاب إلى البـابـا هونوريوس، وكشف له عن رغبـاته، وقـد جـرى منحـه كـونتيـة طركـونة محررة من الضرائب والمكوس المدنيـة كهبة من البـابا، وقد عـاد، وتمكن بمساعـدة رفاق شجعان، كان قـد جمعهم من حوله من حراسة المدينة حتى الوقت الحالي، حيث قـاتل المسلمين وأبعدهم، وفي أثناء سفـره في روما، ومـرة أخرى عندما عاد إلى نورمـاندي لتجييش رفاق مسلحين، قامت زوجته سيبل ابنة وليم لى شيفري Chevre بتـولي المسؤوليـة عن طركـونة، وكانت شجاعة مثلما كـانت جميلة، وفي أثناء غياب زوجها حافظت على حـراسـة يقظة من دون نـوم، ففي كل ليلة لبست درعـاً مثل جندي، وحملت عصا في يدها، وصعدت إلى الشرافـات، وقامت بأعمال الدورية على استدارة الأسـوار، وأبقت الحراس مستنفرين، وشجعت كـل واحد بنصيحـة جيدة حتى يكون مستنفـراً للتصدي لخدع العـدو، كم تستحق الكونتسة الشـابة من مدح عظيم لخدمتها زوجهـا بمثل هذا الإخلاص، والحب الذي لايعرف الفتـور، وأشرفت بشكل موائم على شعبـه ورعته واعتنت به من دون كلل.

—٦—

في عام ١١٢٥ لتجسيد ربنا، بعدما عاد روترو إلى فرنسا مع أعوانه وحلفائه، قام ملك أرغون الذي كان حاسداً للأفاعيل الجريئة التي رأى الفرنسيين ينجزونها ضد المسلمين في إسبانيا من دون مساعدة، وكان متشوقاً إلى الشهرة، قام بعنجهية بحشد جيش كبير من شعبه، وزحف إلى مقاطعات نائية، حيث وصل إلى قرطبة، واستقر في هذه المقاطعات مع قواته لمدة ستة أسابيع، مسبباً الرعب وناشره بين السكان، الذين كانوا قد أخرجوا قطعانهم من مختلف أنواع الحيوانات، وبعثوها إلى الحقول في كل اتجاه، لكن الجيش المسيحي نهب من دون إعاقة خارج الأسوار، وأفسد المقاطعات إفساداً تاماً، في سبيل إزعاج الناس وإرعابهم.

ثم قام حوالي العشرة آلاف من المستعربين بالاتصال بالملك ألفونسو بتواضع قائلين:« قمنا نحن وآباؤنا من قبلنا بالعيش حتى الآن بين المسلمين، وقد عمدنا، ونحن مسرورين في ممارسة الديانة المسيحية، لكننا لم نكن قط قادرين على تعلم العقائد الصحيحة للإيمان المقدس، وذلك بسبب خضوعنا للمسلمين الذين قد ظلمنا من قبلهم لمدة طويلة، ونحن لم نتجرأ أبداً على طلب أساتذة من روما أو من غاليا، وهم لم يقدموا إلينا مطلقاً بسبب بربرية المسلمين، الذين كنا خاضعين لهم من قبل، ولذلك نحن على درجة عالية من الغبطة لقدومكم، وبنيتنا مغادرة أراضينا والمهاجرة معكم، آخذين زوجاتنا وكل مقتنياتنا»، ووافق الملك على جميع الذي طلبه المستعربون، فقام عدد كبير منهم بمغادرة مقاطعتهم، وفي سبيل محبة الإيمان المسيحي ذهبوا إلى المنفى، متحملين فقراً شديداً ومصاعب جمة.

ولدى انسحاب الأرغونيين، وجدوا المنطقة كلها مجردة عارية، وقد عانوا بشكل مخيف من العوز الشديد والجوع قبل أن يصلوا إلى أوطانهم، وكان القرطبيون مع المسلمين الآخرين غاضبين كثيراً، عندما

رأوا كثيراً من المستعربين قد هاجروا مع أهالي بيوتهم ومقتنياتهم، ونتيجة لذلك التفتوا نحو الذين بقيوا، فقاموا بوساطة مرسوم عام بتجريدهم من جميع مقتنياتهم، وعاملوهم معاملة سيئة وبوحشية بالجلد، والأغلال وبالطرق الأخرى، وقتلوا كثيراً منهم بوساطة أعمال تعذيب لايمكن وصفها، وأرسلوا الذين بقيوا عبر مضائق الأطلسي إلى أفريقيا، حاكمين عليهم بالنفي القاسي، صدوراً عن الكراهية الشديدة للمسيحيين، الذين شاركهم جزء كبير من المستعربين في حظوظهم.

—٧—

اضطربت أوضاع الملك ألفونسو بعدما عاد إلى مملكته بكثير من الثورات، العامة والخاصة، فقد قامت زوجته أوراكا Urraca ، التي كانت ابنة ألفونسو الشيخ ملك غاليشيا بالثورة ضد زوجتها، بناء على تحريض الغاليشيين ومشورتهم، وبمحاولتها تسميمه والقيام بعصيان ضده، جلبت الدمار الكامل لكثير من الناس، وبعد لأي أدرك الغاليشيون جدية الخلاف بين الزوج والزوجة، ووجدوا أنه من غير الممكن إقناعهما بعقد سلام مناسب فيما بينهما، لذلك نصبوا ملكاً خاصاً بهم هو بطرس ألفونسو ابن الكونت الفرنسي ريموند من خلال ابنة ألفونسو الكبير، وإلى هذا اليوم هم يدعونه« الملك الصغير» ودافعوا بشجاعة عن حرية بلادهم تحت حكمه.

واستعرت حرب مريرة وطويلة بين هؤلاء الملوك، مما سبب خضوعهم إلى كثير من المصاعب، وضايقت الملكة أوراكا زوجها بكل وسيلة ممكنة، وقدمت دعمها إلى الحفيد الذي كان يحكم ميراثه الأبوي، وأخيراً، وبإرادة من الرب، ماتت أثناء ولادة صعبة مثل إيغلا(١) زوجة

١— هي ميكال بنت شاول في سفر صموئيل ٢/ ٦/ ٢٣، ومن غير المعقول أن تكون أوراكا قد ماتت أثناء الولادة، بعد انفصالها عن زوجها لعدة سنوات، اللهم إلا إذا كان ذلك قد أشيع ضدها، بأنها كانت لها علاقات غير شرعية، وحدثت وفاتها في ٨/ ٣/ ١١٢٦ .

داود، وبعد وفاتها اتحد الملكان المتصارعان في سلام هادىء، وتوحدا مع بعضهما لتحويل غيرتهما إلى الحرب ضد المسلمين.

—٨—

في عام ١١٣٣ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الحادية عشرة، حشد ألفونسو ملك أراغون جيشاً لمحاربة المسلمين، وألقى الحصار على قلعة جيدة التحصين اسمها أرنيسول Mequinenza ، وقد أمر الحامية المتعجرفة التي تفاخر أفرادها بثرواتهم وبمخزوناتهم الكبيرة، وبحصانة قلعتهم ومنعتها -كما اعتقدوا- أمر أفرادها بالاستسلام، بمنحهم الأمان، بأن يخرجوا سالمين، آخذين مقتنياتهم معهم، لكنهم أبدوا مقاومة عنيدة، ورفضوا كل من التهديدات والوعود، وشدد الملك الشجاع الحصار لمدة ثلاثة أسابيع، واستولى على الأبنية الخارجية للقلعة بالقوة، وهنا شعر رجال القلعة بالخطر، وعرضوا الاستسلام، والتخلي عن الدفاعات الداخلية للملك، وطلبوا منه أن يسمح لقادة القلعة مع رجالهم بالخروج من دون إعاقة، وإليهم أجاب الملك بغضب قائلاً:«الذي تطلبونه الآن منحتكم إياه حراً في المقام الأول، لكنكم رفضتموه، وازدريتم قوة المسيح، وإيمان وشجاعة المسيحيين، والآن- بناء عليه- بحق رأسي، إنني أخبركم أنكم سوف تغادرون هذا المكان خوفاً عن حياتكم»، ولذلك أمر رجاله، بنصب آلات الحصار التي أعدوها، وأن يحاولوا اقتحام القلعة، ونفذ هذا، وتمّ الاستيلاء على القلعة، ومن ثم قطع رؤوس جميع المسلمين، وبذلك قذف الرعب في قلوب جميع المنطقة من حولها.

ومن هناك قاد الملك المنتصر جيشه ضد مدينة أفراغة، وحاصرها لمدة سنة كاملة، وأرسل سكان المدينة على الفور رسلاً إلى أفريقيا، يلتمسون المساعدة من الملك علي ملك أفريقيا، ويطلبون منه القدوم لمساعدتهم وإنقاذهم، وعندما وصل هؤلاء الرجال إلى أسبانيا أرسلوا أربعة نبلاء لإنذار الملك حتى يرفع الحصار عن المدينة من دون تأخير، وعلى الفور

أمر الملك بجلب الآثار المقدسة إليه من بيعته، وعندما جلبوها أقسم أمام الجميع أنه لن يتخلى عن الحصار ما لم تستسلم المدينة إليه، أو هو نفسه يقتل، أو يهزم في القتال، وقد أمر عشرين من أعيانه بتأدية القسم نفسه.

وأعلم الرسل المرابطين بهذا عندما عادوا، فجمعوا على الفور جميع أصحابهم، وزحفوا نحو القتال، والتقى رتل المسلمين بجيش الملك بنظام قتالي جيد، وبدأ المسلمون يقاتلون بحدة، وعندما شاهد الملك أن المعركة الكبيرة باتت وشيكة، أرسل رسله بسرعة يطلب من جميع أصدقائه وحلفائه، وجيرانه القدوم لمساعدته، وببراعة انسحب هو مع أفواجه إلى هضبة كانت قريبة، ومن هناك صد هجمات المرابطين لمدة ثلاثة أيام وليالي من دون راحة، وفي الوقت نفسه بسرعة قام روبرت بودرت كونت طركونة مع الإقطاعيين الآخرين بتسليح أنفسهم، وحثوا خيولهم وقدموا مسرعين كلياً، وهم يصرخون بصيحات الحرب باسم يسوع، وحملوا على المسلمين المنهكين بهجوم مفاجىء، فمزقوا صفوفهم، ودفعوهم إلى الخلف، وهزموهم من ميدان المعركة، وحصلوا على أسلاب ثمينة بتجريد أعدائهم، وقدموا شكراً إلى الرب المنتصر.

ولكن في الحقيقة، في هذا العالم المتغير، ما من قوة تدوم طويلاً، وتأتي الانتكاسة مسرعة في أعقاب النجاح، وفقاً لتوجيه الرب، الذي يحكم بعدل، وخاف سكان مدينة أفراغة، التي كان الملك محاصراً لها، والتي كانت ملجئاً لأسوأ المسلمين والهراطقة، من كل من غضب الملك العظيم الذي لايقهر لإصراره، ومن جيوش المسيحيين، الذين لبسوا صليب المسيح، وتمتنوا بشجاعة لاتقهر، ولذلك سألوه المصالحة، وعرضوا عليه الخضوع له وفقاً لشروط يتفق عليها، غير أنه رفض بروح من العناد أن يعقد الصلح معهم، ورفض عرضهم بأن يدفعوا جزية له سنوية، وأكد تهديداته بالاستيلاء على المدينة عنوة، ولدى سماع المسلمين بهذا، أصبحوا وهم في حالة من اليأس العميق أكثر إصراراً، فأرسلوا من جديد رسلاً

إلى علي ملك أفريقيا، وبإلحاح شديد طلبوا المساعدة من الملوك الآخرين، ومن حكام الناس، وهم في حالة من الحاجة الملحة.

—٩—

في عام ١١٣٤ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثانية عشرة، مات روبرت الثاني دوق نورماندي، وجاء ذلك في العام الثامن والعشرين من بعد أسره في تينشبري، مات وهو محبوس في سجن أخيه في كاردف في ويلز في شباط، ومدد ليستريح في دير القديس بطرس الرسول في غلوستر.

—١٠—

حشد في ذلك الوقت بوكار Buchar بن علي(١) ملك المغرب قوة كبيرة من المحاربين من جميع الجهات وجاء إلى أسبانيا ليقاتل ضد النصارى، والتحق به Alamimun صاحب قرطبة(٢)، Alcharias أوف Dalmaria ، ونبلاء آخرين من ليبيا وأسبانيا، واتحدوا معه مع آلاف كثيرة من الأتباع، وعبأوا ببراعة قواتهم، واستعدوا للقتال، وزحف هؤلاء المتحدون للتفريج عن إفراغة، وعندما وصلوا إلى هناك انقسموا إلى خمسة أرتال منفصلة، وحرس الرتل الأول ورافق مائتي جمل، كانوا محملين بالمؤن والضروريات من كل نوع، حيث عزموا بهم على إنجاد المحصورين ومساعدتهم، ولإغراء النصارى الذين كانوا متشوقين للأسلاب واستدراجهم للقتال مع الرتل الأول، ونصبت الأرتال الأخرى كمائن منفصلة على بعض المسافة، وانتظروا جاهزين لتمزيق الذين سيطاردون المهزومين(٣).

---

١— كذا، ويرجح حسب رواية ابن الأثير في الكامل- ط.القاهرة، مطبعة الاستقامة-ج٨ص ٣٥١، أنه تاشفين بن علي بن يوسف والي الأندلس آنذاك، لكنه في الروض المعطار للحميري-مادة إفراغة- هو يحيى بن علي، والواقعة كانت سنة ٥٢٥ هـ عند الحميري، وعند ابن الأثير في سنة ٥٢٩ هـ.

٢— كان تاشفين بن علي هو الحاكم في قرطبة.

٣— ذكر ابن الأثير أسماء كبار قادة المسلمين.

ويلتقي عند إفراغة نهران هما: نهر شقر من لاردة، ونهر الزيتون من سرقسطة، وجرت المعركة في (١٧) تموز في ميدان الحِداد بين هذين النهرين، وكانت هناك دماء كثيرة قد سفكت، وعندما سمع ألفونسو أن حشداً كبيراً من المسلمين كان يزحف ضده، دعا إليه قادة الجيش النصراني، وبنبل شجعهم للقتال، وقاتل في ميدان الحداد: بيرتراند أوف لاون Laon ، وكونت كاريون Carrion ، ورودريك أوف أوستورياس Roderick of asturias ، وأيمير Aymer أوف نربونة، وشنتول Centule ابن غاستون أوف بيرن Bearn ، وغارسيا راميريز Garcia ramirez ، وأعيان محاربين آخرين.

وعندما شاهد الملك ألفونسو الرتل الأول، الذي كان يرافق الجمال المحملة بالمؤن، أمر الكونت بيرتراند بأن يهاجمهم أولاً، وقال بيرتراند له:«مولاي الملك، دعنا نسمح للأولين بالعبور، وبذلك نمتلك استعدادات أفضل، لدى اقترابهم من المدينة، لنهاجمهم أولاً إذا ما عادوا محملين بالغنائم، ولنحمي أنفسنا ضد أية خطط خداع من الأعداء، وفي الوقت نفسه دعنا ننتظر وصول حلفائهم الذين يسيرون خلفهم، ونكون جاهزين للاشتباك معهم في القتال»، وعند هذا صرخ الملك غاضباً:« أين هو شعورك بالشرف أيها الكونت الشجاع؟ حتى الآن أنا لم أجد أي خوف فيك»، ولدى سماع الكونت الشجاع لهذه الكلمات شعر بالإرباك والخجل، فحمل على المسلمين بشدة على رأس عساكره، فقاموا على الفور بالاستدارة على أعقابهم، وانسحبوا نحو الحشود التي لاتحصى التي كانت قادمة خلفهم، ثم انقضت أفواج لاتحصى على النصارى، وقتلوا بيرتراند، وأيمير، ورودريك، وشنتول، وآلافاً كثيرين آخرين، وحافظ الملك مع الذين بقيوا أحياء على القتال لمدة طويلة وذلك بالانسحاب إلى إحدى الهضاب، وعندما بات محاصراً بحشد كبير من الأعداء، وفقد جميع رجاله تقريباً، قرر أن يقاتل هناك إلى أن يموت

في سبيل المسيح، وأمـر أسقف أورغيل Urgel الملك بالانسحـاب، لكنه وقـد أصيـب حتى القلب بسبب دمـار جيشـه، لم يكـن راغبـاً بأن يفعل ذلك، فقـال الأسقف له:«بحق سلطة الـرب القـدير، أنا آمـرك بالانسحـاب على الفور من هذا الميـدان، بسبب الخوف أنك إذا سقطت سـوف يتم قهر الإقليم المسيحي كله من قبل المسلمين، ولسـوف يجري قتل جميع السكان المسيحيين بشكل مكشـوف، ورضخ بالأخير إلى أمـر الأسقف، ووافق على الطاعـة، ومع أنـه نظر من حـوله إلى الآلاف التي لاتعد من المسلمين، رأى أن النجاة سـوف تكون أمراً صعباً، ومع ذلك ضرب بشـدة بسيفه مـؤيداً بستين فـارساً كـانوا مـا يزالون أحياء، وقـد قاتلوا معـه، وشقوا طريقاً خلال الصف الأضعف من صفـوف العدو، وقد نجـا هو وعشرة من أتباعه الفـرسان، بصعـوبة كبيرة، تاركاً أسقف أورغـويل وخمسين بطلاً مـوتـى على أرض الميـدان، وتشجع المسلمـون كثيراً بوسـاطة هذه المحصلة،أما النصـارى فسحقوا تمامـاً، وعندما كـان الملك عائداً وهو حـزين جداً مع رفاقه، قـابل أهل سرقسطة، والفرنجة والأتباع الآخرين الذين كانوا يسيرون بسرعة للمشاركة في القتال، لكن عندما سمعـوا بالمأساة المرعبـة، قهرهم الحزن، ولدى تعـرفهم إلى الملك حاولوا مـواساته، وعن طواعيـة قدموا أنفسهم لخدمتـه، وكان هو-على كل حـال- يرتجف غضبـاً، وشـاحبـاً وحـزيناً، فصلى بشكـل يائس للحصول على فـرصة واحدة فقط للانتقـام من المسلمين، أن تعطى إليه من الرب قبل أن يمـوت، وبناء عليـه قاد أفـواجـاً من المسيحيين الذين قابلهم خلال ممرات غير مطروقة إلى سـاحل البحر، وهناك وجد حشداً من المسلمين مثقلين بـالأسرى وأسـلاب المسيحيين التي أخـذت في المعـركة، وكـانوا آنذاك يحملون سفنهم، فحمل عليهـم بصورة مفـاجئة حيث لم يكونوا مستعـدين تمامـاً، فقتـل عـدداً كبيراً منهم، وبذلك أطفأ غضبـه الشـديد إلى بعض الحدود، وكـانت هناك سفينـة واحـدة محملة برؤوس النصـارى، الذيـن كـان الملك Buchar ، المحب

للمجد العـابث، مرسلاً إياهم إلى والده ملك أفـريقيا برهاناً على نصره، مع حوالي السبعمائة أسير، وأسلاب متميزة.

وعندمـا وصل ألفـونسـو فجأة، بـإرادة من الرب، كما رويت، وقتل الأعداء، استرد رؤوس رفاقـه القتلى، وجلبهـم ليدفنوا بشكل مشرف في كنيسـة الرب، وعندمـا سمع الأسرى الذيـن كـانوا مقيـدين في السفن، الصراخ والضجيج، رفعوا أعينهم، فاغتبطوا كثيراً بأن رأوا مالم يتجرأوا بالأمل به، فـاستردوا قوتهم بسرعة، وتشجعـوا، وعندما كـان النصارى يقاتلون المسلمين على الشـاطىء، فكوا قيود بعضهـم بعضـاً، وقفزوا من السفن لمساعدة رجالهم، فتناولوا أسلحة الذين سقطوا، وانطلقوا يقتلون المسلمين الذين كـانوا مـايزالون أحيـاء، وهكذا تحول نصر المسلمين إلى حداد، وبارك الجيش النصراني الرب في كلماته كلها.

وإثر هذا مبـاشرة وقع الملك ألفـونسـو الشجاع مـريضـاً، لأنه أنهك بالمتاعب والأسى، فحمل إلى فـراشه، وقـد فارق الحياة بعـد مضي ثمانية أيام[ ٧—أيلـول ١١٣٤]، وبعــد مـــوته، ولأنه لم يخلف ولـــداً، نشب خـلاف من أجل خلافتـه ترك رعيته المولعـة بالقتال في هيجـان لبعض الوقت، وأخيراً انتخب الأرغـونيون راميرو Ramiro ، الذي كان كاهناً وراهبـاً، انتخبوه لأنه كان أخـو الملك، وجعلوه ملكهم، وعلى كل حال اختار شعب نافار الكونت غارسيا ملكاً عليهم.

—١١—

منذ وفـاة البابا هونوريوس والكنيسـة الرومانيـة منقسمة على نفسهـا تحت حكم قـائـدين متصـارعين من أجل البـابويـة، مع نتيجـة هي أن اضطرابات كثيرة وخـلافـات تفجرت خـلال العـالم كله، ففي كثير من الأديرة ظهـر راعيـان، وفي الأسقفيـات أسقفـان يتصـارعـان من أجل المنصب، واحد منهما يؤيد بطرس آنـا كليتوس، ويؤثر الآخر غـريغوري

أنوسنت، وفي انشقاق من هذا النوع، كان هناك خطر التكفير، وبالفعل كان من المستحيل تقريباً بالنسبة لبعضهم النجاة من ذلك، بما أن كل خصم قاتل الآخر بعدوانية وقسوة، رامياً خصمه بالكفر هو والذين يؤيدونه، وهكذا سعى كل واحد-على الأقل بلعناته- أن يضع الرب ضد خصمه وهو يكافح للوصول إلى أهدافه، لكنه كان ضعيفاً حتى يحقق ذلك، وأمن بطرس بفضل قوة إخوته وأقربائه روما وحصل عليها، وبعدما مسح روجر، دوق أبوليا، ملكاً على صقلية، استخدم مساعدته حتى ينال إيطاليا كلها تقريباً إلى جانبه، وقام غريغوري-على كل حال- وبرفقته رجال الدين الرومان بالذهاب إلى فرنسا، وقد استقبل أولاً من قبل آرل Arles ، وأرسل من هناك نائباً بابوياً إلى الفرنسيين، وعندما سمع رهبان كلوني بوصوله، أرسلوا ستين فرساً وبغلاً مع كل الأثاث اللائق بالبابا والكرادلة، ورافقوهم بالهتافات إلى كنيستهم، وقد ضيفوا البابا وأتباعه هناك لمدة أحد عشر يوماً، وأعدوا كنيسة جديدة تولى تكريسها على اسم القديس بطرس رئيس الرسل، وفعلوا ذلك مع احتفال فخم أمام حشد كبير من الناس، وازدادت سلطته بعد ذلك زيادة كبيرة في الغرب، لأنه كان مفضلاً على بطرس من قبل الكلونيين، وذلك على الرغم من أن بطرس كان قد تربى من قبلهم منذ أن كان صبياً، واحترف الرهبانية وارتدى ثيابها كراهب من رهبان كلوني، وهكذا فإنه عندما جرى الإعلان بحرارة عن غريغوري حبراً أعظم من قبل الكلونيين، الذين كانوا محترمين بشكل خاص، ومطاعين بين رهبان بلادنا، ظهر بوضوح على أنه البابا الشرعي بالنسبة للفرنسيين، وقبل من تلك الساعة من قبل أمراء وأساقفة الغرب، وحصل في وقت قصير على سلطة كبيرة، فركع هنري ملك انكلترا بتواضع عند قدميه في ١٣—كانون الثاني في تشارترز، وقدم له عن طواعية التبجيل المستحق للبابا، وبكرمه الملكي أفاض كثيراً من الأعطيات على رجال الدين الرومان، واستضيف هنري في تشارترز في

بيت السيـدة هيليسندي Helisende ، وبقي هناك لمدة ثلاثة أيام، مما بعث الغبطة في نفوس الفرنسيين والرومان.

وسـافر البـابا بعد ذلك خـلال فـرنسا لمدة العـام كله، وأثقل بشكل جـدي كنائس غـاليـا، حيث كـان معـه الموظفين الرومـان مع كثير من الأعـوان يسيرون في ركـابه، ولم يكن قـادراً على سحب أي شيء من موارد الكرسي المقـدس في إيطاليا، واجتمع بالامبراطور لـوثير وتباحث معـه، وعومل من قبله ومن قبل أتبـاعه كسيـد يستحق الاحترام، وثبت مـوعد عقـد مجمع كنسي في ريمس في تشرين أول، واستدعى إليـه جميع أساقفة ورعاة الديرة من كل جزء من الغرب، للمشاركة به.

—١٢—

وسقط في الوقت نفسه فيليب، الطفل الذي مسحه الملك لويس ملكاً قبل عامين مضيا، والـذي أحبه جميع من عرفه لحلاوته وبسـاطة أخلاقه، سقط من على ظهـر حصـانه وهـو يطارد أحـد الأتبـاع، أو أثناء ألعـاب خلال شـوارع باريس، وتكسرت أطرافه بشكل رهيب، ومـات في اليوم التالي، وهكذا مات من دون اعتراف أو قـربان موت في الثالث عشر من تشرين أول بحضور أبيه وأمه، ودفن وسط بكاء كبير، بين ملوك فرنسا.

وكـرس البـابا في الأحـد التـالي كنيسـة القـديس ميـدارد Medard الأسقف في سـواسـون وبـادر مسرعـاً من هنـاك إلى ريمس من أجل المجمع، حيث بقي لقـرابة خمسـة عشر يومـاً يبحث القضـايا الكثيرة العـائـدة لأشخـاص مهمين، وحضر المجمع وشـارك فيـه ثلاثة عشر رئيس أسـاقفـة، ومائتين وثلاثـة وستين أسقفاً، وحشـد كبير من رعـاة الديرة والرهبان والكهنة العلمانيين مع الملك والملكة وجميع نبلاء فرنسا، فهؤلاء جميعـاً تقاطروا على المدينة، وتقدمـوا بالتماساتهم إلى المجمع كله على لسـان رينـالد، رئيس أسـاقفـة ريمس، بأنه ينبغـي تكريس الطفل

لويس ملكاً في مكان أخيه فيليب، وبناء عليه كرس البابا إنوسنت ابن الملك كملك في الخامس والعشرين من تشرين أول، ولكن لم يكن بعض الفرنسيين من كل من اللاهوتيين والعلمانيين راضين بهذا العمل، لأن بعض العلمانيين أملوا بزيادة مراتبهم بعد وفاة الملك، واشتهى بعض رجال الدين نيل حق الانتخاب، وإقامة رأس المملكة، ولهذا السبب تذمر بعض هؤلاء ضد تكريس الطفل، وودوا أن يفعلوا كل شيء استطاعوه لمنع ذلك لو أنهم تمكنوا.

وعلى كل حال، عندما علم الملك لويس بأن الاحتفال الأخير أثار شكاوى غير اعتيادية في جميع أرجاء مملكته، غضب ضد الذين حاولوا حجب صولجان الملك عن ابنه، وخطط للقيام بانتقامات مميتة، ونتيجة لذلك كان بعض الأشخاص الجريئين والحاقدين قادرين على اقتراف جرائم بوقاحة كبرى، ومحزن أن تحكي، أنها تسببت بمأساة مرعبة لبعضهم، وبحزن عميق إلى آخرين مفعمين بالحب للرب ولجيرانهم، وبعدما استقال جون أسقف أورلين من أسقفيته، جرى قتل هيوج العميد، الذي كان عائداً من بلاط الملك، بعدما جرى انتخابه أسقفاً، وتم قتله على الطريق من قبل رجال لايعرفون الرحمة، ولمدة طويلة لم تمتلك الأسقفية أسقفاً، وباتت تتأرجح مثل سفينة في البحر من دون ربان، ثم أيضاً جرى قتل توماس كاهن القديس توماس، والذي كان رجلاً صاحب نفوذ كبير بحضرة ستيفن، أسقف باريس، الذي شهد الجريمة بحزن عظيم، لأن القتلة الحمقى كانوا أقوياء كثيراً لايمكن تحديهم، وهم لم يبجلوا خالق جميع الأشياء، ولم يحترموا من أجله الأسقف الذي كان عبده المخلص.

—١٣—

في عام ١١٣٢ لتجسيد ربنا، وفي العلامة العاشرة، غادر البابا أنوسنت فرنسا وودعها، وقد أظهرت له الطاعة، والود الصحيح،

وذهب إلى إيطاليا، لكن لأنه رفض من قبل الرومان، انسحب إلى مدينة بيزا، المطرانية الثرية، ومارس هناك لعدد من الأعوام سلطته الرسولية، وأرسل من هناك فتاوى بابوية إلى جميع أنحاء الدنيا، وكان في ذلك الوقت زيادة كبرى بالتقيد بالحياة الدينية بين رجال اللاهوت، والمنظمات الكهنوتية، التي كانت لها مكانة كبيرة في فرنسا، وانكلترا، وقد زادت من قوتها في كثير من الطرق المختلفة، وغامر رعاة الديرة بحماسهم وغيرتهم، فتجاوزوا الحدود التي رسمت من قبل أسلافهم، وأضافوا أحكاماً أكثر شدة إلى الأعراف القديمة، ففرضوا بذلك أعباء ثقيلة جداً على عواتق الذين كانوا ضعفاء.

وفي تلك الأثناء، بعث بطرس راعي دير كلوني رسلاً مع رسائل إلى جميع الديرة الفرعية التابعة له، ودعا جميع رؤساء الرهبان في فروع كلوني من انكلترا، وإيطاليا، والممالك الأخرى، يأمرهم بالقدوم إلى كلوني في الثالث من الصيام الكبير، لسماع أحكام من أجل مراعاة أدق للحياة الديرية، مما كانوا قد أظهروه حتى الآن، وقد أطاعوا أوامر راعيهم كما ينبغي، واجتمع في الموعد المقرر مائتي رئيس رهبان في كلوني، وكان هناك في ذلك اليوم ألف ومائتين واثني عشر راهباً، عملوا مسيرة غنوا بها الأغاني الكنسية، وهم رافعين أعينهم نحو الرب مع سرور في القلب وحمد له بتقوى، وأنا أستطيع أن أصف هذا وثائقياً، لأنني أنا نفسي امتلكت بهجة وجودي آنذاك، وقد شاهدت تلك الجماعة الرائعة، وهي تجتمع باسم يسوع المسيح، وسرت في يوم الأحد معها في مسيرة من كنيسة القديس بطرس، رئيس الرسل، وبعد المرور من خلال الدير إلى بيعة العذراء الأم، صليت معها.

وفي تلك المناسبة زاد رالف أسقف أوكسري، مع راعي الدير: ألبيرك أوف فيزلي، وأديلارد أوف ميلون اللذان كانا راهبين من ذلك الدير، زادوا الحشد، وقووا أهداف راعي الدير بطرس بوجودهم وتشجيعهم،

وهكذا فرض صوماً جديداً على الرهبان من رعيته، وانتزع منهم أوقات المحادثات، ومختلف أعمال دعم الضعف الجسدي، التي كان الآباء المبجلين والمعتدلين الرحماء قد سمحوا بها من قبل، واعتاد الرهبان على إطاعة سيدهم دوماً، ولم يرغبوا في معاندته في رفض الأعراف الديرية، وكانوا مزعنين للأوامر القاسية، لكنهم أوضحوا له بمنطق بأن هيوج المبجل وسلفيه: مايولوس Maiolus وأوديلو Odilo قد التزموا بالطريق الدقيق للحياة، وحاولوا أن يقودوا تلاميذهم الكلونيين إلى المسيح بالطريق نفسه، واقترحوا بالوقت نفسه بتبجيل وتواضع، أنه من المؤكد سوف يكون كافياً السير حسب أوامر الرب، بقلوب تتدفق، واتباع خطوات الذين ظهرت قداستهم ووضحت ببرهان واضح من المعجزات، ونسي- على كل حال- الراعي المتشدد توصية سليمان:«لاتنقل التخم القديم الذي وضعه آباؤك»[ الأمثال: ٢٢ / ٢٨].

ولتنافسه مع الرهبان السسترشيان والآخرين الساعين وراء التجديد، أصر على اقتراحاته القاسية، وكان يخجل من الانسحاب الفوري مما تولى القيام به، وقام فيما بعد- على كل حال- بالاستلانة، وتماشى مع رغبات الخاضعين له، وقدر الاعتدال كثيراً، الذي هو أصل الفضائل، وعطف على الضعفاء، وقدم لمساعدتهم، وسحب كثيراً من القرارات الشديدة التي كان قد اقترحها.

—١٤—

في العام ١١٣٣ لتجسيد ربنا، قام الامبراطور لوثير الذي حرض من قبل الأساقفة والمسيحيين الآخرين أن يعمل في سبيل حب الرب، بحصار روما، وحاول أن يهدىء شعب الرب الذي كان يتذبذب في الانشقاق بين غريغوري وبطرس، وأمر بطرس إما أن يتنازل إلى الآخر، أو أن يخضع إلى القضاء حول قضية تكريسه كبابا، وبسرور قبل بطرس الاقتراح، ووافق على المثول أمام الامبراطور نفسه من أجل المحاكمة من

قبل رجــال عــادلين، وعند ذلك أرسل الامبراطـور تعليمات مماثلة إلى أنوسنت، لكنه رفض حضور المحـاكمة، ما لم تتم إعـادة جميع امتيازات البابوية إليه عن طواعية، وعندما سمع الامبراطور هذا غضب كثيراً من غـريغـوري، وسلم كل شيء كـان بين يـديه إلى بطرس، وانسحب بعـد سبعة أسابيع، تاركاً القضية معلقة وغير منتهية.

ومـات في العام نفسـه رتشارد أسقـف بايو في أسبوع الفصح، وبعـد مضي عـامين خلفـه رتشـارد بن روبرت ابن الملك، إيرل غلوستر، وقـد باركه هيـوج رئيس أساقفة روان بناء على أمـر البابا إنوسنت، وفي ذلك الوقت أيضـاً تسلم رتشارد أوف بيـوفور Beaufour ، الذي كان واحـداً من شهامســة الملك، وصـاحب أخـلاق جيــدة، تسلم أسقفيـة أفارانشي، وجرى تكريسه من قبل رئيس الأساقفة هيوج.

—١٥—

وحـوالي هذا الوقت تفجـر خـلاف جـاد في أبوليـا، ولكي أتمكن من شرح أصــوله عليّ أن أقــدم ملخصــاً عن أصل ومصير الرجــال ذوي العـلاقة: بعـدما مـات روجـر الكونت العجوز لصقليـة، والذي هو ابن تانكرد أوف هوتفيل، أدركت زوجته آديلاسيا Adelasia أنها لايمكنها أن تحكم مثل تلـك الممتلكات الواسعــة مع ابنهـــا الصغير، وفي حــالة ارتباكها أعطت كثيراً من التفكير للذي ينبغي عليها عمله، وعقدت كثيراً من المشـاورات مع مستشاريها المقـربين، كـان الكونت روجر مع إخـوته الأحـد عشر قد استـولوا على كثير من المقاطعـات بشجاعتهم في القتـال، وبشجـاعـة جلبـوا البرابرة إلى أبوليـا وصقليـة، تحت اليـد القـوية للرب القـدير، وأخيراً عقدت أديـلاسيا تحالف صـداقـة مع روبرت بن روبرت دوق بيرغندي، وأعطتـه ابنتهـــا بالزواج مع جميع إمـارة صقليـــة، وكـان روبرت والـد هذا الرجـل ابن الملك روبـرت ملك فـــرنســـــا، والملكة كونستانس، التي ورثت مرتبتها العالية من دماء الملوك والأباطرة، ونالت

شهرة واسعة في كثير من المناطق بأعمالها المتميزة وسماتها المدهشة، وكانت هي الأم الرئيسة التي رغبت بعد وفاة أبيه أن تضعه على عرش فرنسا كلها، وبذلت الجهد بكل وسيلة من الوسائل، أن تضعه- كما شرحت باختصار من قبل في فصول متقدمة- فوق هنري ولدها المولود أولاً، وأخيراً عندما انتصرت العدالة، وبحق رفعت هنري إلى عرش المملكة، استحوذ روبرت على دوقية بيرغندي لمدة طويلة، وامتلك ثلاثة أولاد: هنري، وروبرت، وسيمون، وتزوج ابنه هنري الذي كان الابن الأسن، من زوجته بناء على أوامره، وقد أنجب منها ثلاثة أولاد: هيوج، وأودو، وروبرت أسقف لانغري، ومات هنري أثناء حياة أبيه، الذي عاش مدة طويلة بعد وفاته، وعندما كان في سن متقدمة كثيراً آثر أولاده على أحفاده، وتنازل عن الدوقية لهم، وأمر جميع أعيانه أن يكونوا مطيعين ومخلصين لأولاده، وعندما سمع الطفل هيوج هذا حافظ على الصمت، وبصبر انتظر حتى صار الوقت موائماً، وقد احتفظ بأمل ثابت في الرب، وقال-على كل حال- للذين كانوا من حوله:

«إن الرب العادل الذي أخذ أبي من هذا العالم، لن يحرم ابنه من ميراثه الشرعي»، ثم إنه عندما مات الدوق بعث إلى جميع موظفيه وإقطاعييه، وبهيبة أمر الخدم والعاملين في البيت الرئيسي بأن يفرشوا القصر له شخصياً ولأعيانه، ولقد اعترتهم الدهشة لجرأة هذا الشاب الطموح في إصداره لمثل هذا الأمر، غير أنهم أطاعوا على الفور، وهم في حالة خوف عظيم، وبخضوع أعدوا أثاثاً عظمياً في ديجون Dijon للدوق الجديد، وبهذه الطريقة الشجاعة استولى على مرتبة أجداده من دون حرب أو سفك للدماء، واحتفظ بميراثه الأبوي لمدة ثلاثة أعوام مع التميز، في حين عاش عماه: روبرت وسيمون في المنفى، وأرضت عدالته المشهورة الرجال الحليمين والأمينين، لكنها أصابت الذين كانوا لاربانيين وغير قانونيين، أصابتهم بقوة الصاعقة، وبعد ثلاثة أعوام تنازل عن الدوقية إلى أخيه

أودو، وقام هو لحبه للسماء، بالتخلي عن الدنيا، وأصبح راهباً في كلوني، وعبد الرب بمجد لمدة خمسة عشر عاماً، واحتفظ أخوه أودو بدوقية بيرغندي لمدة طويلة، وولد له من ابنة وليم تيتي — هاردي Tite-Hardie ولداً هو هيوج الذي أصبح هو الدوق، وابنة هي إيلاّ Ella ، التي ولدت أولاً بونز، كونت طرابلس، ولدته لبيرتراند كونت طولوز، وولدت بعد ذلك غي كونت بونثيو Ponthieu ، وأولاداً آخرين كثر وبناتاً إلى وليم تالفاس Talvas.

وأخذ روبرت البيرغندي-كما ذكرت- ابنة روجر النورماني زوجة له، ولمدة عشرة أعوام دافع بنشاط عن الإمارة ضد جميع الهجمات، وفي الوقت نفسه تولت أم زوجته تربية الصبي روجر، وعندما رأت بأن الشاب الطموح بات جاهزاً لحمل السلاح، ولحكم ميراث أبيه- رهيب أن نحكي- أقدمت على قتل الفارس الفرنسي الشجاع والمتميز، الذي كان زوج ابنتها، بدس السم له، وبعدما مات المركيز النبيل بهذه الطريقة من خلال خيانة امرأة، وصل روجر إلى حكم بلاده، وقد ازدهر لعدد كبير من الأعوام، وعاش برفاه، مع أنه ملطخ بعدد كبير جداً من الجرائم، ينبغي بموجب الحق- كما أرى- أن يكفر عنها بكثير من الآلام.

وكانت أمه، وهي امرأة داهية، ابنة بونيفيس أوف ليغوريا، قد جمعت المال من جميع المصادر، بعد وفاة زوجها، وقد صار لديها مبلغاً كبيراً جداً، وسمع بهذا بلدوين الأول، ملك القدس، فتاقت نفسه إلى الثروة، فأرسل مفوضين كباراً لطلب يدها للزواج منه، ولأنها كانت غير مستقرة جشعة للأبهة والتشريف، أعطت موافقتها للمندوبين النبلاء، وبادرت مسرعة إلى القدس، وبرفقتها عدد من الأعوان والخدم، وحملت معها مبلغاً كبيراً من المال، وتقبل الملك بلدوين الثروة الكبيرة مسروراً، ووزعها على الجنود المأجورين، الذين كانوا يقاتلون ويعانون ضد المسلمين من أجل المسيح، لكنه طلق المرأة التي تجعدت بتقدم السن،

وكانت ملطخـة بوضوح بكثير من الجرائم، لذلك عـادت المرأة العجوز إلى الصلقيين مع العار بقـدر ما تستحقه ذنوبها، وتقـدمت بالسن بينهم، وصارت هدفاً للازدراء العام.

وجد روجر أمير صقلية، مصادر كبيرة للقوة، وجمع المزيد من الثروات والتشريفـات أكثـر مما جمعه جميـع أسلافـه من أسرته، فبعـد وفـاة الدوق وليم- كما وصفت من قبـل- استـولى على دوقيـة أبوليـا، ضـد رغبـات سكانها، وقـاتل فيها بعـد ضـد جميع الذين حـاولوا مقـاومته، وقمعهم بوحشيـة بوسـاطة قـوات كبيرة، وهـو لم يوفـر إنسـاناً، بل صرع وحطم القريب والغريب سواء، وجردهم من ثرواتهم، وسحقهم وأذلهم.

وحوصر تانكرد أوف كوفيرسانو Conversano حصاراً شديداً في ماتيرا Matera من قبل روجـر صـاحب صقليـة، وبعـدما نجـا إلى حصن مـونت سكاغليوسـو Monte staglioso ، وهناك أخذ أسيراً من قبل مضطهـده القاسي غيـوفـري أوف أندريا Andria ، وأسرت زوجته أيضـاً معه، وسجنـا في القلعة القائمـة على الجروف قرب مـدينة بوتنزا Potenza ، واقتحم روجـر المدينة نفسها، فحصل على خـزانة مال تحتوي على ما يكفي مـن ذهب وفضة لملء خمسة عشر وعاء، وأسر أيضـاً غـريمـولد أوف باري Grimold of bari ، الذي كـان نبيـلاً لومبـاردياً ورجلاً شجـاعـاً، فجرده من أمـلاكـه وقلاعـه، وأذله إذلالاً كامـلاً، وقد حرم عمه رتشـارد أمير كابوا Capua ، وطرده بقوة غير عـادلة إلى المنفى، وهكذا تمكن بعنف مـرير من تدمير أناس في القـريب والبعيد، وتسبب- بوحشيـة- من سفك كثير من الدماء والنحيب، لكنه تطور نحـو العظمـة، فلقـد كـان أول ذرية تانكرد، الذي اعتلى العـرش الملكي، وحصل على الصولجان والتاج، وبقية شارات الملك، وقد تزوج من ابنة بطرس ليـونيز، أخت البابـا أناكليتوس Anacletus ، وحيث أنه توج من قبله، هو يتمتع الآن بالمكانة الملكية.

**—١٦—**

في العام ١١٣٤ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثانية عشر، وقعت كوارث كثيرة على الأرض، وعوقب بعض الناس بهم، لأن ذنوبهم تستحق، في حين صار الذين نظروا نحو الحوادث الغريبة والمرعبة شاحبين يرتجفون خوفاً، وفي يوم عيد الأبرياء( ٢٨—كانون أول ١١٣٣) سقط ثلج ثقيل غطى وجه الأرض كلها، وسد أبواب البيوت بركامه، لذلك نادراً ما غادر الناس والدواب في اليوم التالي مآويهم، أو وجدوا وسائل لتوفير حاجياتهم، ولم يدخل كثير من المؤمنين الكنيسة في يوم العيد ذاك، والكهنة أنفسهم كانوا أيضاً في كثير من الأماكن غير قادرين على عبور عتبات الكنائس، لأن طريقهم كان مسدوداً بركام الثلوج، وبعد ستة أيام انحرفت الريح نحو الغرب، فذاب الثلج فجأة، متسبباً بفيضانات كبيرة، وتضاعفت مياه الأنهار بشكل كبير جداً بمياه الثلوج، وتدفقت على ضفافها، مسببة خسائر كبيرة جداً لبعض الناس، ومرابح لآخرين، ففي القرى والمدن القريبة من الأنهار، وصلت مياه الطوفان إلى الأسقف وأخرجت الناس وطردتهم من بيوتهم، وجرفت أكواماً كبيرة من القش من الحقول، وكذلك براميل مليئة بالخمرة وحاويات وأوعية أخرى حملتها مياه الفيضانات مع جميع المقتنيات الثمينة، وكنتيجة لذلك فإن بعض الناس الذين شكوا من ويلات خسائرهم كان آخرون قد فرحوا بسبب المكافآت غير المتوقعة.

وفي حزيران أحرقت حرارة شديدة وجه الأرض لمدة خمسة عشر يوماً، ودفعت الناس إلى الصوم والصلاة، والدعاء بتذلل إلى الرحمة من الرب القدير، خشية من الدمار مثل بنتابولس Pentapolis التي هلكت بالنيران، وكانت الشمس الحادة آنذاك تمر خلال برج التوأم[قبل ١٧ حزيران] فجففت الجداول والبرك، وعانت الأسراب والقطعان من العطش بشكل رهيب، ثم إنه في واحد من أيام السبت قام عدد كبير من

الناس بالغطس في المياه لتبريد أنفسهم، فغرق كثير منهم في أماكن متعددة في ظرف ساعة واحدة، ففي المنطقة التي من حولنا- التي نمتلك عنها معلومات جيدة- غرق سبعة وثلاثون رجلاً في مياه البرك والأنهار، وأنا لاأستطيع أن أفسر الخطة الربانية، التي بوساطتها عملت كل الأشياء، ولا يمكنني أن أوضح الأسباب الخفية للأشياء، وإنني فقط مشغول بكتابة الحوليات التاريخية، بناء على طلب من رفاقي الرهبان، فمن الذي يمكنه أن يخرق المحكم؟ وإنني أعمل سجلاً حول الأحداث التي رأيتها أو سمعت عنها من أجل منفعة الأجيال المقبلة، ولأمجد الرب العظيم في جميع أعماله، التي هي عادلة حقاً، وليقم كل واحد بالتفسير حسب الإلهامات التي يتلقاها من السماء، وإذا ما وجد أي شيء نافع له، عليه استخراج قضية خلاصه منها حسب أفضل ما يقضي.

وفي آب، بعد الظهر في مساء عيد القديس لورانس الشهيد(٩—آب) هبت زوبعة عنيفة، تبعها عند المساء رعد مرعب، وأمطار غزيرة، ووقعت عند ذلك الصواعق مرافقة بأصوات عالية، فقتلت عدداً من النساء في أماكن مختلفة، وقد سمعت أنه ما من ذكر قد هلك في هذه النوازل، بل الذي هلك كان فقط من عنصر الإناث من بين البشر والحيوانات، فهؤلاء لوحدهم حملوا عبء أسواط العذاب.

ففي قرية بلانشي Planches على حدود أسقفيتي ليزوي وسيز، كان رجل اسمه وليم بلانشرد Blanchard يقود عربة نحو البيت من الحقل المجاور، مع أخته التي كانت جالسة بين حزم القمح، وبسبب أن الشاب خاف من المطر الغزير، كان يسير بأقصى سرعة ممكنة نحو بيت أمه الذي كان قريباً جداً، وفجأة سقطت صاعقة على ظهر الفرس التي كانت تجر العربة، وبضربة واحدة قتلت الفرس نفسها مع مهرة صغيرة كانت تركض في الخلف وكذلك الفتاة التي كانت في العربة، وبالنسبة للشاب الذي كان- على كل حال- جالساً على السرج،

وكـان يقود الدابة بالمقـود، فقـد نجا دون أن يصـاب بأذى بفضل رحمة الرب، مع أنه ألقي على الأرض في رعب كامل، وكـان المطر ينهمر مثل الطوفان، ومع ذلك التهمت النيران العربيـه والحزم، وقد رأيت رمادهم في اليـوم التالي، وجثـة الفتاة الميتـة على محفـة، لأنني كنت في تلك الأيام مقيماً في لى ميرليرولـــت Le merlerault ، وقد بادرت مسرعاً إلى المكان من أجل أن أكــون متأكـداً من الحقـائق قبـل أن أدونها لصـالح الأجيال المقبلة، وقبل أن أكتب كيف أن الضربة وقعت من السماء.

وكـان حصادون في قـرية غـوبري Gueprei ، قد شاهدوا الغيوم السـوداء وهي تتجمـع فقـالوا لفتـاة صغيرة، حـدث أنها كـانت تلتقط فضلات الحصاد في الحقل:« اركضي بسرعـة يا بنية، واجلبي لنا معاطفنا وقمصـــاننا حتى نحفظهم مـن المطر»، وبحماس أطاعت، وعلى الفـــور انطلقت تركض، لكن مع خطوتها الأولى -كما أعتقـد- جعلتها صـاعقة تتمدد ميتـة في مكانها، الأمر الذي علمته فيما بعـد من مصادر مـوثوقة، لكن لايمكنني أن أذكرهم جميعاً كل على انفراد.

وفي الأسبوع الأول من أيلول عـاقب مولانا الرب كثيراً من الذنوب بالنار، فقد احترقت بيـوت المذنبين مع الأموال التي كـدسوها ظلماً عبر السنين، واحترقت مدينتـا لامانس، وتشارترز القديمتـان والغنيتان حتى الأرض أيضاً، وهلكت نوغنت في بيرشي وفيرنويل، ومدن أخرى كثيرة وقـرى، عندمـا ركضت النيران فـوق وجـه الأرض، واحترقت في تلك الأثناء الكنيسة الكـاتدرائية الفائقـة الجمال في لامانس، وبصعـوبة أمكن فقط نقل حاوية الآثار المقدسة، وفيها جسد الأسقف المقدس، والمعترف جوليان إلى دير الشهيـد المقدس فينسنت Vincent ، واحترقت عظام القــديسـة العــذراء سكولاستيكا Scholastica وآثار أخرى كثيرة، وبعـد الحريق تمّ العثـور على رمـادهـم في أمـاكنهم الصحيحـة من قبل بعض البــاحثين الأتقيــاء، وفي تشـــارترز احترق دير القـــديس بطرس

الرسول وتفرقت جماعة الرهبان المبجلة بعد دمار الدير الداخلي وبقية الأبنية الديرية، وعانى السكان في تلك الأيام في مناطق مختلفة من أنواع متعددة من الظواهر، وبحزن وكآبة اكتشفوا أسباباً متنوعة للحرائق، وكانوا قادرين على رواية قصص طويلة حول الموضوع التي أثار دهشة وتعاطفاً لدى سكان مناطقهم، وأنا شخصياً على كل حال لم أكن موجوداً، ولا أرغب بإطالة الكتاب برواية حكايات مشكوك فيها.

ونفذ في الشهر نفسه القاضي العادل أحكاماً مرعبة في منطقة أخرى من خلال عنصر مختلف ومضاد، ودمر القراصنة الأشرار من أجل الجرائم التي تلوثت بها الأرض في أيام نوح، ففي فلاندرز تدفق البحر في إحدى الليالي على الأرض، وانتشر بسرعة لمسافة سبعة أميال، وغمر الكنائس والقلاع والبيوت سواء، وشمل في مأساة عامة آلافاً لا تحصى من الرجال والنساء من كل فئة ومرتبة، وكان واضحاً هناك أن ترى أن السرعة غير مفيدة للمسرع، كما أن القوة لم تنقذ المحارب، ولا كثرة الثروات الثري، بل جرف الفيضان الجميع: الجميل، والقبيح، والرجال، والنساء سواء، حيث خنقهم بالماء، وبسرعة جرهم إلى الأسفل إلى الموت، وبهذه الطريقة نفذ البحر معاقبة البائسين في لحظة واحدة، ثم بسرعة عاد إلى مكانه بناء على أمر الرب، فإحدى النساء الفقيرات التي كانت قد ولدت طفلاً منذ وقت قصير سمعت زئير المياه الهادرة، فقفزت من فراشها مرعوبة، لكنها أبقت رأسها ملتقطاً الطفل ودجاجة مع فراخها، وتسلقت بسرعة إلى قمة رزمة من القش كانت خارج بيتها، وحملت قوة المياه المندفعة، التي نزلت تحت كل شيء، القش، ونقلت الرزمة إلى مكان بعيد، وكانت المياه تتقاذفها نحو الأمام ونحو الخلف، وهكذا بشفقة رحمة الرب أنقذت المرأة من موت محقق، وانتشلت من قبل السماء نحو الحفظ، مع المقتنيات القليلة الفقيرة التي كانت معها.

وأخبرني صبي كان في الثانية عشرة من عمره، أنه تسلق في تلك

المناسبة بسرعة على جملون السقف، وهناك نجا من الموت، أما بالنسبة لأبيه وأمه اللذان كانا في الأسفل فقد هلكا.

ومات أمراء مشاهير في ذلك العام- كما قلت أعلاه- فقد غادر روبرت الثاني دوق نورماندي هذه الحياة في شباط في كاردف، وألفونسو ملك أرغون، فهذا مات أيضاً في بداية الخريف بعد معركة إفراغه، التي فقد فيها السيدان النبيلان: بيرتراند ورودريك حياتهما مع أعيان آخرين.

ثم عانى البريتانيون في ويلز بشدة على أيدي جميع الناس الذين عاشوا تحت حكم الملك هنري، وأعطيت عدة من مناطقهم إلى الفلمنغيين، وحيثما كان الويلزيون في الغابات متخفين في مخابىء، جرى ذبحهم من دون رحمة مثل الكلاب، من قبل الفلمنغيين، وأغضب مشهد هذه الواقعة الشجعان بينهم، فاستردوا شجاعتهم، وحملوا السلاح، وثاروا بعنف ضد الملك هنري واقترفوا كثيراً من المذابح الوحشية للانتقام لأنفسهم، وقد أحرقوا قلعة بين فتز جون Pain fitz jhon التي تدعى كوز Cause ، وذبحوا من دون رحمة جميع الأشخاص الذين وجدوهم في داخلها من كلا الجنسين، وبعدما جرى اقتراف هذه المذابح، لجأ كل من المحليين والأجانب إلى الغابات الكثيفة مثل الذئاب، وعاشوا بمثابة أعداء عامين يذبحون، وينهبون. ويحرقون.

— ١٧ —

في العام ١١٣٥ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثالثة عشرة، عقد البابا انوسنت مجمعاً كبيراً في بيزا، وناقش فيه كثيراً من القضايا الكنسية المهمة، لكن عدة حوادث منعته من إكمال كل شيء حسب رضاه، وقدم له هيوج رئيس أساقفة روان مساعدة كبيرة، وشرف من قبله بمنحه الأولوية على كثير من الأساقفة، وهكذا انشغل بواجبات الخدمات البابوية، وأهمل لبعض الوقت واجبات كرسيه، وبقي لوقت طويل في مناطق إيطاليا،

يدير بذكاء شؤون الآخرين مما أزعج الملك كثيراً، وخاصة عندما، بعد وفاة رتشارد أسقف بايو، حيث أعطى الملك أسقفية بايو إلى حفيده رتشارد، وقتها كان رئيس الأساقفة غير راض تماماً بمباركته، لأنه كان نغلاً، وأجل طويلاً فعل ذلك، حتى نال اذناً من البابا صدوراً عن الخوف من الملك، وأخيراً عندما عاد الرسل مع الرسائل البابوية الآمرة، أعطيت كنيسة بايو إلى رتشارد بن روبرت إيرل غلوستر، وفي اليوم نفسه عهد بأسقفية أفرانشي إلى رتشارد إيرل أوف بيوفورت.

—١٨—

وفي العام نفسه، عندما سمع الملك هنري بالأخبار المزعجة عن الثورات الويلزية، صار غاضباً كثيراً، وبعدما قام بتسوية مشاكل نورماندي بحكمة، حاول ثلاث مرات أن يعبر القنال مع قوة كبيرة، تتضمن نخبة من الرماة، لكن هذه الرحلة تأجلت بسبب مختلف المعيقات التي ثارت، والرب الذي يوجه جميع الأشياء بصورة خفية، لم يسمح له برؤية انكلترا مرة أخرى خلال أيام حياته، وتطلع صهره غيوفري أوف آنجو، وطمح بنيل الثروات الضخمة لختنه، وطالب بقلاع في نورماندي، مؤكداً أن الملك قد تعاهد معه أن يسلمه إياهم عندما تزوج من ابنته، ولم يكن الملك صاحب الروح المتجبرة - على كل حال- غير مستعد بأن يضع أي واحد فوقه شخصياً، مادام حياً، لأنه لم ينس قط الحكمة السماوية المقررة أنه ما من إنسان يمكنه أن يخدم رئيسين، ولذلك صار الشاب المتجبر موضع ريبة، وحصل على استياء الملك بتهديداته، وبسلوكه المتجبر، وأقدم على الاستخفاف بأوامره وآرائه مما أثار غضبه إلى حد أنه أراد أن ينتزع منه ابنته، وأن يصطحبها معه إلى انكلترا، لو أن الرب أمر بذلك، لأن الملك صعب عليه كثيراً إقدام غيوفري على حصار صهره(الملك) روسلين Rocelin الفيزكونت وإحراقه إحراقاً تاماً بيومونت، وعدم توفيره روسلين

صدوراً عن الاحترام لختنه الملكي، ولذلك بدأت بذور الخلاف الكبير بين الأعيان النورمان تتبرعم، لأن بعضهم حبذ الأنجيفيين لكن لم يتجرأوا على الثورة بشكل مكشوف، لأنهم خافوا من خبرة الملك الكبيرة التجارب، فلقد خافوا حقاً من حمله السلاح ضدهم، لأنهم عرفوا جيداً أنه عاقب أناساً مذنبين بالسجن مدى الحياة.

وكان وليم تالفاس Talvas ، وروجر توسني Tosny موضع ريبة بشكل خاص، ولذلك لم يتجرأ على القدوم إلى بلاط الملك، ولهذا السبب أجل الإبحار إلى انكلترا، وأرسل فرسانه لشحن قلعة كونشي Conches ، وعندما تمركزوا هناك استخدمهم لحراسة البلدة، التي كانت محمية بأسوار قوية، ولمنع روجر الشاب من الثورة، ومراراً دعا تالفاس للمثول بحضرته، وانتظر لوقت طويل، لكن تالفاس الذي لم يكن مرتاحاً في داخليته، لم يتجرأ على المثول، وبعد لأي، وبعد استدعاءات كثيرة، جرده الملك من ممتلكاته، وفي أيلول، بعدما حرمه الملك من مراتبه، ذهب تالفاس للانضمام إلى كونت آنجو، الذي رحب به، وعاش في قلعتي بيري Peray ، ومامري Mamers ، اللتان استحوذ عليهما من غيوفري بالأجرة، وقام الملك بالطواف خلسة حول سونوي Sonnois من بداية آب حتى عيد جميع القديسين، واستولى على ألنكون Alencon وألمنشي Almeneches مع قلاع أخرى كانت بيد تالفاس، وجمع عدداً كبيراً من العمال، ووسع خنادق أرغنتان Argentan ، وقام -وهو غير قادر على رؤية المستقبل- بتقوية دفاعات تلك القلعة كثيراً، التي أصبحت فيما بعد تشكل تهديداً مرعباً إلى جميع الذين عاشوا في جوارها.

وفي الثامن والعشرين من تشرين أول أثناء الاحتفال بعيد الرسولين: سمعان ويهوذا، وعندما كان الناس ساهرين يغنون الأناشيد الليليه لتمجيد الرب، هبت ريح عنيفة، انبعثت في حوالي الساعة الرابعة من

الليل، وقد استمرت طوال النهار حتى الساعة التاسعة، وكان زئيرها مرعباً أن تسمعه وسط أصوات التحطيم، لأنها قلعت السقوف من على عدد لايحصى من البيوت، والكنائس والأبراج العالية، وأزالت الأحراش بتدمير أعداد كبيرة من الأشجار، وارتعبت قلوب الناس الفانين أمام تلك المشاهد، وقدمت تفسيرات مختلفة لذلك، وشرح بعض الفلاسفة البارعين المعاني الخفية للأشياء، واستخلصوا بحذر من الحوادث الماضية، وحزروا الذي سوف يأتي، فأعلنوا بأن غضب الرب يهدد العالم كعقوبة على الذنوب، وسوف يقوم سريعاً بخفض أمراء الدنيا، والناس من رعاياهم مثل أشجار الأحراش.

وفي ذلك الحين، كان لويس ملك فرنسا- الذي كان آنذاك في العام الثامن والعشرين لحكمه- متمدداً مريضاً، مصاباً بإسهال كبير، وخوفاً منه من الموت تولى تنظيم بيته وجميع ممتلكاته، واستدعى ثيبولد أوف بليوس ورالف أوف بيروني Peronne ، اللذان كانا من كبار أعيان فرنسا، وبما أنهما كانا قد تخاصما عقد صلحاً فيما بينهما، وعهد بمملكة فرنسا إلى ابنه لويس فلوروس، الذي كان قد أعلنه قبل ثلاثة أعوام في الريمس ملكاً، وتوجه من قبل البابا أنوسنت أمام جميع المشاركين في المجمع الذي ضم ثلاثة عشر رئيس أساقفة، ومائتين وثلاثة وستين أسقفاً، وذلك في ٢٣ تشرين أول، مع هتاف جميع الذين كانوا حضوراً، ومع أن الأطباء فقدوا كل أمل، لكن الرب القدير، الذي أعطى الملك حزقيال زيادة خمس عشرة سنة في الحياة، أطال حياة لويس المريض لبعض الوقت، ومنحه بشكل غير متوقع صحة أفضل، ووقتاً لإصلاح حياته.

—١٩—

وصل في الوقت نفسه هنري ملك انكلترا إلى قلعة ليون—لى—فوريت Lyons-la-foret في ٢٥ تشرين ثاني، ووضع صيادين جاهزين للذهاب والصيد معه في الغابة في اليوم التالي، ولكنه

وقع خلال الليل فجأة مريضاً، ومن الثلاثاء حتى الأحد تمدد في حالة احتضار، وخلال ذلك الوقت اعترف أولاً بذنوبه إلى قسسيه، ثم إنه استدعى هيوج، رئيس أساقفة روان، وطلب مشورته الروحية، وبناء على نصيحة هيوج ألغى جميع قرارات المصادرة التي أصدرها ضد الرجال المذنبين وسمح للمنفيين بالعودة، وللمجردين من أملاكهم باسترداد مواريثهم عن أسلافهم، وأمر ابنه روبرت الذي كان مسؤولاً عن الخزانة في فالاييس، أن يأخذ ستين ألف باوند، وأن يدفع الأجور والعطاءات إلى أعضاء حاشيته، وإلى الجنود المأجورين، وأعطى تعليمات بحمل جسده إلى ردنغ، حيث كان قد أسس ديراً يتسع لمائتي راهب، على شرف الثالوث المقدس غير القابل للانقسام، وأخيراً ناشد الملك المسيحي الجميع بأن يكرسوا أنفسهم من أجل الحفاظ على السلام، وعلى حماية الفقراء، وبعدما قام بالاعتراف تلقى الغفران والتحليل من الكهنة، حيث جرى مسحه بالزيت المقدس، وتمتن بالقربان المقدس، وعهد بنفسه للرب، وهكذا في يوم الأحد الأول من كانون الأول، عند حلول المساء، غادر هذه الحياة، وكان موجوداً خمسة كونتات هم: روبرت أوف غلوستر، ووليم أوف وارني، وروترو أوف مورتاني، ووالبران أوف ميولان، وروبرت أوف ليستر، وكذلك أعيان آخرين، وضباط وقادة قلاع نبلاء، كلهم جعلهم رئيس الأساقفة هيوج، وأودوين أسقف أوف إيفري يقسمون لبعضهم بعضاً أنهم لن يتركوا جسد مولاهم إلا باتفاق عام، بل سيرافقونه جميعاً مع بعضهم إلى ساحل البحر مع حرس شرف.

وبناء عليه قاموا في يوم الاثنين بحمل جسد الملك من قلعة ليون-لى-فوريت، وقد رافقه عشرون ألف رجل، وذلك حتى لا ينقص جنازته التشريف، وجرى استقبال الجسد باحتفال عظيم في الكنيسة الكاتدرائية لمريم الأم المقدسة للرب، وكثير من الدموع سفحت من

أجله من قبل الرجال والنساء من كل مرتبة ووضع، وفي أثناء الليل وفي قاعة رئيس الأساقفة، فتح الجسد الميت من قبل محنط بارع وملىء بالبلسم المعطر، وأخذت أحشاءه إلى إيميندريفيل Emendreville في جرة ودفنت في كنيسة نوتردام دو بري، التي بدأت أمه بعمارتها وأكملت من قبله، ثم إنه بناء على نصيحة مستشارين عقلاء وضعت روان ومنطقة كاوكس Caux تحت عهدة وليم أوف وارني، الذي حماهما بفعالية لبعض الوقت، وجرى إرسال وليم أوف رومير Rou-mare ، وهيوج أوف غورني وآخرين من لوردات التخوم، لحماية تخوم الدوقية، وقام روبرت دي سيغيلو Sigillo مع عدد من الكتاب، وروبرت دي فيري vere ، وجون ألغاسون Algason مع فرسان آخرين من انكلترا وأعوان وموظفين تابعين للملك، قاموا بالتجمع مع بعضهم ورافقوا محفة الملك خلال بونت-أوديمير Pont-audemer ، وبونيفيل إلى كاين، حيث توجب عليهم الانتظار طويلاً، لمدة حوالي أربعة أسابيع، لهبوب ريح مناسبة، تمكنهم من النزول إلى البحر، وفي تلك الأثناء جرت حراسة جثمان الملك في سدة المرتلين في كنيسة القديس ستيفن، الشهيد الأول، وذلك حتى ما بعد عيد الميلاد، حيث وضع في سفينة مع مرافقة من رهبان القديس ستيفن، وحمل عبر القنال، ودفن بتشريف في الكنيسة في ردنغ من قبل خليفته في المملكة وأساقفة البلاد وأعيانها.

والآن كانت تلك هي الوضعية التي مات فيها الأب الرائع لبلاده، وقد رويت بشكل صادق، وسوف أصور باختصار في شعر منظوم الحزن الذي أصاب نورماندي، فقد عانت المنطقة الأم غير السعيدة من الشقاء على يد أبناءها الأفاعي، لأنه في اليوم نفسه بالذات الذي سمع فيه النورمان بأن حاكمهم القوي قد مات، وفي الأسبوع الأول للميلاد، اندفعوا جائعين مثل ذئاب مفترسة للسلب والنهب من دون رحمة:

الملك الذي لايقهر، الدوق الحكيم، اللورد المتميز
الذي تحت حكمه ازدهر شعبي
يا للأسف، قد مات، ومن هذا نبع حزن عام
ولاحت حرب أهلية للنورمان وللانكليز
أظهرت عظمته نفسها في كل مكان
بالثروة، والعدل، والحكمة، والتماسك
ما من أمير أفضل منه حكم على هذه الأرض
في أيام هاج الشر فيها خلال العالم
لقد كان، أستطيع أن أؤكد، الأفضل بين الرجال
حسبما تعلن جميع أعماله النبيلة بوضوح
محباً للسلام، وحارساً للكنيسة، عله ينال
حياة سرمدية مع المسيح ملك السماء
آمين
في اليوم الأول من كانون الأول مات الملك هنري
حزن ثقيل ضغط على كل جزء من بلاده
كل إنسان يسعى الآن لينهب سلع الآخرين
وخلى نفسه إلى الفوضى غير الملجومة
انظر كيف اندفع الغضب الجحيمي على الفانين
لقد حملوا السلاح، استثيروا للحرب، وزعوا الخناجر

خلى النورمان أنفسهم للسلب والنهب

لقد قتلوا وأسروا، وقيدوا بالأغلال بعضهم بعضاً،

لقد أحرقوا الأبنية وكل شيء كان في داخلها

ولم يوفروا راهباً ولم يظهروا احتراماً لمرأة

السيدة النبيلة تبكي لأنها نهبت من قبل لصوص رعاع

لم يقدم لها القانون الروماني العام حماية وتغطية

الشباب من دون لحى ذبحوا، ولم يوفر اللص الأطفال

الجيش الروماني، مع أنه وثني تمنع عن مثل هذه الأعمال

إنه واضح أكثر من وضوح ضوء النهار أنهم وجدوا السلام شيئاً مقيتاً

ففي اللحظة التي نزل القضاء فيها بالملك رفضوا السلام

اغتبط اللصوص بوفاة الحامي

اندفعت العصابات الجشعة، مستعدة للشر

إنهم يتصورون الآن أن ما من قانون سوف يضبطهم

أنا أقول العكس، في هذه الأيام إنهم مخطئون

القانون السرمدي للرب القدير سوف يبقى خلال جميع العصور

وهو سوف يعطي في الوقت المحدد حامياً جيداً للكنيسة

وقد حرمت من أميرها، تلتمس الرهبانيات من

الحكمة اللاهوتية، مع الدموع، منحه غفران ذنوبه

الرب القدير يمنع عبيد الشيطان هؤلاء الحمقى

من اقتراف الأعمال الوحشية التي يسعون لعملها

انظر أيها الغضب المسعور، ادع جميع الناس، وجرهم إلى الشر

امنعهم من اقتراف الأعمال التي تآمروا على فعلها

أيها المسيح، أعطنا قائداً سوف يحب السلام والعدل

واحفظهما، وأعد شعبك إليك

اضرب ظهور المتمردين بعصا العدل

حتى يتمكن شعبك من خدمتك بأمان

آمين إلى الأبد

— ٢٠ —

ما أن سمع ستيفن كونت بولون، بوفاة خاله، حتى عبر على الفور إلى انكلترا، وبعدما تم قبوله من قبل وليم رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة الآخرين والأعيان، اعتلى العرش الملكي، وبعدما جرى تتويجه ملكاً في الخامس عشر من كانون الأول، حكم بمثابة الملك الرابع من الأصل النورماني، أما بالنسبة للنورمان الذين اجتمعوا- على كل حال- في نيوبورغ، فقد رغبوا بأن يكون أخاه ثيوبولد حاكمهم، لكن أثناء ذلك الاجتماع سمعوا من واحد من الرهبان، كان رسول ستيفن، بأن جميع الانكليز قد رضوا بستيفن، ورغبوا بطاعته وجعله ملكهم، وعلى الفور، قرر جميع البارونات - مع موافقة ثيوبولد- أن يخدموا سيداً واحداً، على أساس المراتب التي بين أيديهم في كل من المقاطعتين، ولهذا غضب ثيوبولد لعدم حصوله على المملكة، مع أنه كان هو الأكبر، وبادر مسرعاً للذهاب بعيداً، ليتفرغ لأعمال مهمة تحتاج رعايته في فرنسا، وبعناد ترك نورماندي تعاني من الاضطراب لوقت طويل، ولأن الملك كان مشغولاً في انكلترا فقد تركت نورماندي من دون من يحميها.

## —٢١—

في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول، عندما سمع غيوفري صاحب أنجو بوفاة الملك هنري، بعث على الفور بزوجته ماتيلدا إلى نورماندي، وقد استقبلها غويغان ألغاسون Guigan algason الذي كان من أصل وضيع، لكن صاحب قوة كبيرة، استقبلها بمثابة مولاته الإقطاعية، ووضع تحت حكمها أرغنتان، واكسمي، ودومفرونت مع مدن حصينة أخرى، كان يحكمها كفيزكونت بموجب أمر الملك، ثم جاء بعدها ولحق بها الكونت نفسه مع وليم تالفاس، وكونت بونثيو Ponthieu والقوات العسكرية للأنجيفيين والمانسويين، واستقبل من قبل رجال سيز مع قادة القلاع الأخرى الذين كانت إقطاعية تالفاس بأيديهم، وعلى كل حال، اقترف جيشه الذي انتشر خلال أرجاء المقاطعة أعمالاً عدوانية، وخرق حرمة الكنائس والمقابر، وظلم الفلاحين، وسدد إلى الذين استقبلوا أفراده بلطف كثيراً من الأذى والآثام، وبعدما أدرك النورمان الذين كانوا محاربين بالفطرة وجريئين، أن ضيوفهم يثيرون الاضطراب، لجأوا هم أيضاً إلى حمل السلاح، وأخذوا وهم غاضبين يطاردونهم خلال القرى والأحراش، ولقد ادعي بشكل عام أنهم تسببوا بقتل أكثر من سبعمائة بالنار والسيف، فما كان من البقية- الذين ارتعبوا من حملات النورمان الدموية- إلا أن ولوا ظهورهم، وهربوا- وهم مجللين بالعار- عائدين إلى بلادهم، وبعدما عوقبوا بحدة بسيوف النورمان الحادة، لم يحاولوا ثانياً إعادة التجربة لبعض الوقت، وفي الحقيقة ثار روبرت أوف سيبل Sable مع نبلاء آخرين ضد الكونت غيوفري، وشغلوه بالحروب الأهلية، مما منعه من العودة إلى نورماندي.

ومع أن نورماندي لم تهاجم من الخارج، كانت بعيدة جداً عن التمتع بالسلام والأمان، لأنها اضطربت بخبث شديد من قبل أبنائها، وعانت من آلام مستمرة وحادة مثل امرأة في آلام الوضع، ولو أن الشعب

النورماني تمكن من العيش وفقاً لشريعة الرب، وتوحد تحت حكم أمير جيد لصار شعباً لايقهر مثل الكلدانيين تحت حكم نبوخذنصر، والفرس والميديين تحت حكم قورش وداريوس، والمقدونيين تحت حكم الاسكندر، وذلك كما تشهد انتصاراتهم في انكلترا، وأبوليا، وسورية، ولكن لأن الصراع قسم أفراده بين أنفسهم، حملوا السلاح ليفتكوا ببعضهم بعضاً، ومع أنهم قهروا شعوباً أخرى، فقد هزموا أنفسهم، ومع نظر جيرانهم إليهم بازدراء، هم تألموا، ومن دون رحمة ذبحوا بعضهم بعضاً، ولذلك فإن أمهم نورماندي هي دوماً غارقة بالدموع.

—٢٢—

في عام ١١٣٦ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الرابعة عشرة، عندما كان ستيفن ملك انكلترا يؤجل عبوره إلى نورماندي، ولما كانت المقاطعة من دون حامي لها وأمير، انبعث الصراع بين الأعيان الأشرار لنورماندي، وكانت أفاعيل الشر لأبناء الجور تتضاعف يومياً، وفي بداية الصوم الكبير مات يوستاس أوف بريتويل في باسي، وبعد عيد الفصح ادعى ابنه وليم حكم بريتويل بالنار والسيف.

وفي ذلك الوقت أعلن الملك ستيفن عن خطبة ابنته اليتيمة التي كانت في الثانية من عمرها إلى واليران كونت ميولان، وعاد الكونت إلى نورماندي، على الفور بعد عيد الفصح، وكانت آنذاك هناك حرباً كبيرة تزداد اشتعالاً بين روجر أوف توسني، وروبرت إيرل أوف ليستر، وكانت قد سببت كثيراً من الدمار في جميع أرجاء المقاطعة.

وفيما بين أيام الابتهال( قبل عيد الصعود بثلاثة أيام) وعيد العنصرة، دخل روجر بوساطة الخدعة إلى قلعة الملك في فودرويل Vaudreuil ، لكن بعد ثلاثة أيام اقتحمها الكونت واليران مع قوة محلية من أهل روان، وأعاد القلعة إلى إمرة الملك، ثم هاجم أكويني Acquigny في

يوم اثنين الشعانين مع قوة كبيرة، وأحـرق القلعة حتى سواها بالأرض، وقـام في اليوم التـالي - على كل حال- روجـر بهجوم معـاكس، وفجأة أحرق ثلاثاً من قراه، وتولى تنفيذ هذه الأعمال وأفاعيل أخرى شبيهة لها النورمـان، حيث أنهم التهمـوا بأنيـابهم بعضهم بعضـاً، كما نقـرأ بشكل رمزي عن الوحوش في سفر الرؤيا(١٧ / ٣٦).

وبما أن الملك كان مشغولاً عبر القنال بكثير من قضايا المملكة، وافق الكونت ثيـوبولد على عقد هدنـة مع كونت أوف آنجـو من عيد الميـلاد حتى ثمانية عيد العنصرة، وخـلال ذلك الوقت انتظر الجيش النورماندي بتشـوق قـدوم الملك، لكن عندمـا انتهت الهدنة احتـار الناس وتشتت أفكارهـم، ولأنهم لم يكن لـديهم قـائـد، لم يعـرفـوا مـاذا يفعلون، لأن العصـابات الخارجة على القـانون، كانـت متشوقـة إلى فجر اليـوم الذي يمكنهم فيـه السلب والنهب والاستيـلاء على سلع الآخـرين من دون رادع، وقـد ارتعب الناس غير المسلحين، والذين كـانت أحـوالهم طيبـة والفقراء سواء مما أمل به أبناء الشيطان الجشعين والذين كانوا بلارب.

**—٢٣—**

قـــــام روبـرت بويـت Bouet ، الذي كان رامياً مشهوراً، ومن المشـــــايعين لريشر أوف ليغلي Richer of laigle ، بجمع حشد من الأوغـاد حول نفسـه مع أتبـاع خارجين على القـانون، من أجل حملات يومية للنهب والقتل، وكان مكروهاً لأفاعيله الشريرة بقدر ما كان بارعاً في الرماية، وباقترافـه لجرائمه الفظيعة أفسد أسبـوع عيد العنصرة، الذي مجده الروح القـدس بمنحـه نعمـة مضـاعفـة سبع مـرات إلى حـواريي المسيح، ولتجـاهله المستقبل خطط حتى لما هو أسـوأ، ومثلما أثار الروح القـدس وألهب مشاعـر الناس الصـالحين، الذين ثاروا لحبهم للرب وفي سبيل إنقـاذ جيرانهم وخـلاصهم، مثل هذا ولغ الناس الأشرار في روح الشر، وبادروا إلى اقتراف كل جـريمـة، وبالمحصلة اندفـع النهـابون في

الثـامن عشر من أيار مثل ذئـاب وراء فـرائسهم، وعوضـاً عن اجتيـاح أراضي الفـرسـان المحـاربين، حـاولوا الاستيـلاء -من دون إنذار- على القطعان التي كانت ترعى بأمن وسلام في الحقول العائدة للرهبان، لكن وهم مسرعين لسفك الدماء، وجدوا فجـأة، بحكم الرب العادل، دماراً وتعـاسة وشقـاء على دروبهم، وبينما كان ثـلاثون من رجال العصـابات ينهبـون سلع الرعـاة الفقراء في منطقـة سينت-إيفـرول-، سمع صراخ الرعيان أهل المدينة، فاندفعوا نحو موقع الأحداث، واعتقلوا اثني عشر من اللصـوص، ثم شنقـوا سبعـة منهم على شجـرة سنديـان واحـدة، وأصيب روبرت بويت هنـاك مع ستـة من المتعـاونين معـه، من خـلال ردات الفعل الغاضبـة للرعيان، وبسرعة قطف هذا الجزء على جـرائمه، وبهذه الطريقـة نجـد أن الناس الذين لم يترددوا في خـرق حـرمـة الأيام السبعة المقدسة لعيد العنصرة، وأقدموا بوحشية على نهب وقتل جيرانهم الضعفاء والذين كانوا بلا حول ولاطـول، قد هلكوا، عندما جرى شنق سبعة منهـم في وقت واحد في اثنين الشعانين، وسمـع رجال ليغلي بهذا في اليـوم نفسـه، فـاجتمعـوا غـاضبين مع بعضهم، يطلبـون الانتقـام لرفاقهم، فـانقضوا فجأة على منطقة أوشي Ouche ، وألقوا النار من دون سـابق إنذار في بلدة سينت إيفـرول، حيث جـرى تحويل أربعـة وثمانين بيتاً إلى رمـاد في وقت واحد، وقرع الرهبان البـاكون نواقيسهم، وأنشدوا المزامير والأغاني الدينيـة في الكنيسة، لأنهم ارتعبوا وشعروا أن الدير يمكن أن يتعـرض للدمـار في أي لحظة، وذهب رهبـان آخـرون وخـرجـوا لمقـابلة الفـرسـان والتـوسط لديهم، وسألوهـم بدمـوع أن لايشملوهم في معاقبـة المعتدين، وتوسلوا بلغـة تذلل، وعرضـوا تقديم ترضية قانونية عن الاعتداء، لكن المهاجمين هاجموا- على كل حال- مثل أناس مجانين، قد أعماهم الغضب، فقـاموا بتهديد الرهبـان، ولم يستمعوا إلى أية كلمـة فيهـا منطق، وفي الحقيقـة رغب بعضهم برمي عبيـد الرب الأتقيـاء من على خيولهم، ومعـاملتهم معاملة سيئة، وفي النهـاية هاجموا

القرية من دون احترام للرب، ودخلوا بعنف ونهبوا، وأحرقوا -كما قلت بيوتاً داخل الأبواب، وحولوها إلى رماد، وجلبت أعمال حرب من هذا النوع، حيث حمل رجال السلاح ضد الرهبان الضعفاء والمستأجرين لديهم، وحاولوا الانتقام من الظالمين الأشرار، باقتراف كل نوع من الجرائم، جلبت بحق سوء سمعه للذين سيكونون منتقمين، وكان هذا نوع الخدمة التي حاول ريشير- ابن الرهبان بالمعمودية- أن يعطيها لعرابيه، وبهذه الطريقة صلى من أجل أرواح بويت- اللص المشهور والقاتل- وأرواح الدجاجلة الآخرين، وكان هذا نوع التقدمة التي تقدم بها إلى الكنيسة التي فيها جرى تعميده، وقاد بودري أيضاً، الذي كان كاهن ليغلي، رجال أبرشيته إلى اقتراف جرائم بغيضة، لأنه كان أول من ألقى النار في بيت كاهن آخر، وهكذا قاد بالمثل الذي ضربه الآخرين معه إلى الهاوية، وانتشرت النيران المستعرة حتى وصلت إلى الكنيسة، لكن برحمة الرب، غيرت الرياح اتجاهها، وساقت كتل النيران باتجاه آخر، مما فرج عن كثير من الناس كانوا يراقبون، وهكذا تم حفظ وإنقاذ الكنيسة والأبنية الديرية مع كتب الكنيسة وآنيتها، وقام الجيران الذين فقدوا كل شيء بالالتجاء هناك مع أسرهم المتواضعة، وانتظروا إلى قدوم وقت أفضل، وفقاً لحكمة الرب، وازداد شعب ليغلي ثراء وعنجهية بوساطة منهوبات سينت-إيفرول، لكنهم لم يغتبطوا لمدة طويلة، لأنهم قاموا في الشهر نفسه بحملة ضد سيز، وغيس Gase ، وقاتلوا في عدة اشتباكات ضد روجر أوف توسني، ولكن بعد نهب بلدة سينت-إيفرول، لم يحصلوا على أي نجاح، وعوضاً عن ذلك، عانوا- بحكم من الرب- من انتكاسات من مختلف الأنواع من خلال الخسارة أو أسر رجالهم، وباستحقاق وجد الرجال الذين قاتلوا ضد رعاة بسطاء وغير مسلحين، ولم يوفروهم صدوراً عن الخوف من الرب، وجد هؤلاء فيما بعد أبطالاً شجعاناً ومحبين للقتال، عندما لم يطلبوهم، وغالباً ما سمعوا من الفرسان الذين وافقوهم كلمات سخرية

واستهزاء مثل هـذه الكلمات:«أقبلوا أيها الفـرسـان، نحن لسنـا رهبـاناً مقلنسين أو حليقي منتصف الرأس، بـل فـرسـاناً في الـدروع نتحـداكم ونطلبكم للقتال، فنحن إخـوانكم بالسلاح، ولسـوف ترون ماذا يمكننا أن نفعل»، وغالباً ما خجلوا بأعمال السخرية من هذا النوع، وتلقى كثير منهم ضربات قاسية وماتوا، وهكذا فـإن بعضهم عاد إلى التوبة بوساطة سقوط آخرين.

—٢٤—

بعـد عيـد العنصرة جعل الملك ستيفن أسطوله جـاهزاً للعبـور إلى نورماندي، وعندمـا كان واقفـاً ينتظر قرب الميناء لرياح مـوائمة، وصل رسول، تولى إخبـاره بوفاة روجر أسقف سـالسبري، الذي إليه أسندت حكومـة جميع المملكة الانكليزية في بعض الوقت الماضي من قبل خـاله، وبعد ذلك مـن قبله، ولذلك أجل الإبحار، وعـاد إلى سالسبري، ولكن لأنه وجـد الأسقف حياً وبحـالة جيدة، تأخـرت رحلته من دون غـاية حتى الصوم الكبير المقبل، وفي الوقت نفسه قاد غيلبرت أوف كلير حملة ضـــد إكسمـي Exmes ، وأحرق البلدة الجديدة، التي كان الملك هنري قـد وسعها مـؤخراً مع كنيسـة أم الرب المقـدسة، وهاجم بشـدة البلدة القـديمـة مـع نيـة إحـراقهـا، ولكن عندمـــا وصل الكونت وليم تالافـاس فجأة مع نجـدات، انهزم، وبصعـوبة تمكن من النجـاة، وأسر هنري أوف فيريري هنـاك، وقتل عـــدد كبير من الرجـــال الـذين أيدوا الملك أو وقعوا بالأسر.

وطلب في تلك الأثناء الكونت واليران والإيرل روبرت من الكونت ثيوبولد العون، وبإعطائه مائة مارك من الفضة أقنعاه بالانضمام إليهما في الهجوم على روجـر أوف توسني، وقد غـزوا أراضيه في أيام عيـد ميلاد القـديس برنابا الرسول مـع قوة كبيرة، وأحـرقوا منازل كثير من فقـراء الناس في ثلاث قـرى صغيرة، ونـزلوا أخيراً على قـرية كبيرة اسمهـا

بوغي-ســـور-ريسل Bougy-sur-risl وبناء على اقتراح إيرل ليستر ألقوا النار في البيوت القريبة، فأحرقوا الكنيسة الجميلة المكرسة على اسم مـريم المجدليـة مع الرجال والنسـاء فيهـا، وفي اليوم نفسـه عندما كـان ريشير أوف ليغلي وأوبـري أوف فيرنيـل يعبران بلـدة لي-فيريـري مـع رجالهما، تمت مهاجمتهما بجـرأة وإلحاق الهزيمة بهما من قبل روبرت أوف بيليم، ووقع كثير من مرافقي رجال موفوزين Mauvoisin مع فرسان فرنسيين آخـرين كانوا يساعـدون روجر، بالأسر أو قتلوا، وهما نفسيهما نجيا أحياء بصعوبة بالغة.

وفي الأسبـــوع الثـالـث من حــزيـران حـاصر الكـونت ثيـوبـولد بونت-سينت-بيير، ولمدة شهر كـامل بذل جهوداً كبيرة لاقتحـامها، لكن وليم دي-فونتيني Fontaines مع فرسان آخرين شجعان وأعوان كانوا من حزب روجر، أبدوا مقاومة حادة، وحافظوا على امتلاك الحصن.

وفي هذه الأثناء مات المحترم بوسو Boso ، راعي دير بيك، الذي حكم الدير بشكـل ناجح لحوالي العشرة أعـوام، في أيام عيــد القـديس يوحنا المعمـدان، وذلك بعد مـرض طويل، تحمله الرجل المتعلم بصبر، وجرى انتخـاب ثيوبولد رئيـس الرهبان بصورة قـانونية من قبـل جماعة رهبان الدير ليخلفه، وفي اليوم الذي أعقب عيـد القديس يوحنا، عندما كان رالف رئيس شمامسة إيفري عـائداً من باسي، تعرض إلى هجوم من قبل أبناء سيمـون هـارنك، ونجـا بصعـوبة، وقـد نجــا هو شخصيـاً، باللجوء إلى كنيسة، لكن تابعه الذي كـان يرافقه في رحلته، والذي قاتل دفاعاً ليحمي سيده، قتل.

—٢٥—

وكانت هذه السنة المضطربة سنة كبيسة، وفي تلك الأثناء كانت السنة الكبيســة تأتي أخيراً في التـزامـن، وكما ذهب القـول الـرائج«حظ السنة الكبيسة» يقع على الملك وعلى شعبه في نورماندي وانكلترا.

وفي الأسبوع الثالث من أيلول اشتعلت فجأة نار في روان، ولحقت أضراراً بالغة بالمؤمنين بموجب حكم الرب، ويا للأسف تلف دير القديس أوين Ouen الفخم الذي اكتمل حديثاً بعد جهود كثير من الناس خلال ثمانين عاماً، تلف بعدما التهمته النيران، وعانى الدير النسائي للقديس أماند-الأسقف المعترف- من المصير نفسه.

—٢٦—

وفي يوم الأحد الذي يليه، في الحادي والعشرين من إيلول، عبر غيوفري كونت أوف آنجو نهر سارثي Sarthe ، ودخل إلى نورماندي مع قوة كبيرة من الرجال المسلحين، وكان معه وليم دوق بواتو، وغيوفري أوف فاندوم، ووليم الشاب ابن وليم كونت نافار، ووليم تالفاس كونت بونثيو، فقد كان هؤلاء مع كثير من القادة العسكريين مع قواتهم، متحالفين مع الأنجوفيين، ونزلوا على النورمان، واقترفوا كل نوع من أنواع الفظاعات إما صدوراً عن إخلاصهم لأميرهم، أو صدوراً عن الجشع للنهب، وكنتيجة دعاهم الناس الذين نكلوا بهم من دون حياء، ازدراء لهم باسم (Hilibecci) ، وجاء ذلك نتيجة للبغضاء والسخرية.

وحاصر الكونت أولاً قلعة كاروجي Carrouges ، واستولى خلال ثلاثة أيام على القلعة، التي كانت بيد قسطلان اسمه ولتر، لكن بعد وقت قصير استردها ولتر، عندما انسحب الأعداء، وأحرقت إكوشي Ecouche من قبل السكان الذين هجروها وفروا، تاركين فقط الدخان والرماد، للذين طاردوهم عن قرب، وعقد قائد حامية أسنيبيك Asnebec معاهدة لمدة عام، وكان روبرت أوف نيوبورغ، صاحب القلعة، معروفاً من قبل الكونت غيوفري،وكان منذ وقت طويل على وفاق وصداقة معه من خلال الكونت عموري.

ووصل الأنجيفيون إلى قلعة مونتريويل، وهاجموها مرتين، ولكن لأن الحامية في الداخل قـاومتهم بشجاعـة لم يربحوا شيئاً سـوى الجراحات، وانسحبوا بعـد مقتل عدد من رجالهم، وقـام رتشارد باسيت، الذي تمتع بسلطة كبيرة في انكلترا كـرئيس للقضاء خـلال أيام حيـاة الملك هنري، وامتـلأ بثـروة انكلترا وأتخم بها، فعمل عـرضـاً أظهر فيـه تفـوقـه على نظرائه، وأبناء موطنه، بفخامة بنائه في إقطاعيته الصغيرة التي ورثها عن آبائـه في نورمـاندي، ولـذلك شيـد قلعـة جيـدة التحصين من الحجـارة المربعة في مونتريويل، ولكن بعد وفاة الملك أقدم وليم أوف مونتبينكون Montpincon على الفور على تأسيس نفسه هناك، حيث سلحها وشحنها، وبشجاعة صد الـ (Guiribecci) كما وصفت.

وزحفـوا من هناك إلى قلعـة لى مـاوتير- هيـوبرت Les moutiers-hubert ، وبعد هزيمة القسطلان بينيل Painel ، الذي كان مجرماً مـداناً بكثير من الأفاعيل الشريرة، اقترفهـا في ذلك العام، استـولوا على القلعة، واستخرجوا فدية ثقيلة من بينيل نفسه، ومن ثلاثين فارساً.

وفيما بعـد، وأثناء الاحتفـال بعيـد القـديس ميكائيل رئيس الملائكة، حاول الجيش الغازي إلقاء الحصار على ليزوي، ولكن عندما كان رجال هذا الجيش يسرعـون نحـوها، قـام واليران كـونت ميـولان مع أعيـان نورمانـديين آخرين، كانـوا هناك مع قوة كبيرة من الفـرسان، بترك ألان أوف دينـان Dinan ، مع عصبة من المدافعين الشجعان لحماية المدينة، في حين هـم أنفسهـم ركبـوا خارجين لتقـديم مسـاعدة أكثـر فعاليـة، إلى المدافعين، من الخارج، وانتظروا النتيجـة بخوف على مسـافـة من هناك، وخاف البريتـانيون -على كل حال- مع الآخـرين الذين توجب عليهم الدفـاع عن القلعـة، عند رؤية حشـد الأعـداء الكبير قبل وصـوله، ولم يتجرأوا على الخروج للتصدي له، أو القتال عن قرب، لذلك ألقوا النار في المدينة التي عهـد بها إليهم وأحـرقـوهـا حتى الأرض، وفعلوا ذلك

سلفاً قبل العدو، بمثابة تدمير للنفس، بسبب الخوف، أو حتى بسبب أشياء أسوأ، وعندما اقترب رجال الأعداء وشاهدوا البلدة مع كل ثرواتها طعمة للنيران غضبوا كثيراً، ولحقهم الإحباط، لأنهم خدعوا بشأن النهب الذي عليه اعتمدوا، وندبوا خسارة الأسلاب الثمينة التي التهمتها النيران، وبهذه الطريقة تعلموا على حسابهم وعرفوا مدى شجاعة النورمان في قلوبهم، واندهشوا تجاه الإصرار الذي أظهروه في كراهيتهم الحقودة، لأنه كان واضحاً تمام الوضوح أنهم كانوا يفضلون إحراق ثرواتهم على إنقاذها بإحناء رقابهم لنير التحكم الأجنبي، وبسبب عنف النيران لم يكن بإمكانهم الاقتراب من القلعة، أو محاولة اقتحامها بأي طريقة من الطرق، لذلك لووا أعنة خيولهم وعادوا على الفور إلى لى ساب، وأوقفوا جميع جهودهم على الاستيلاء على القلعة.

وكان من المعتاد وجود شجرة طويلة اسمها شجرة التنوب الفضية، واقفة قرب كنيسة القديس بطرس الرسول، وبسببها بات من المعتاد أن صادرت القرية اسمها لى ساب بالدارجة، وانقض الأنجيفيون على المكان من دون سابق إنذار، وذلك أثناء انسحابهم من ليزوي، وقد وجدوا السكان مصطفين في الخارج لمحاربتهم مع تهديد غاضب، وفي أثناء القتال اشتعلت نيران حادة في الأبنية ألقيت من قبل الطرفين: الأجانب، والسكان المحليين، مع نتيجة أن سكان المدينة ضعفت قلوبهم، واحترقت كنيسة القديس بطرس الرسول في ذلك الوقت مع القرية كلها، وعندما أصيب بالجراحة كثيرون ممن كانوا يناضلون للمقاومة، جرى اقتحام القلعة والاستيلاء عليها، وكان وولتر أوف كلير مع صهره رالف دي كولدون De coldun مستوليان عليها، وقد قاتلا ضد أعدائهما مع ثلاثين رجلاً مسلحاً لوقت قصير، لكنهم غلبوا بالقوة العظيمة للقوات المعادية، وقد أسروا في المدينة عندما كانوا مرهقين، فقد هاجمهم حوالي الثلاثة آلاف من الرماة بنشابهم، ووجهت

مقاليع كثيرة زخات حجارتها ضد الحامية، ولذلك سحقوهم في الهجوم العنيف والعاصف.

وبقي الأنجيفيون في نورماندي لمدة ثلاثة عشر يوماً، وجعلوا أنفسهم مكروهين إلى الأبد، بسبب وحشيتهم، هذا وقد أخفقوا في إخضاع النورمان، وهم لم يواجهوا مقاومة موحدة لأن النورمان كانوا في ذلك الوقت من دون فائدة، لكن أثناء قيامهم بالنهب والإحراق عشوائياً جرت مناوشتهم من قبل سكان البلاد، وقد تناقصت أعدادهم لدى تعرضهم لضربات متنوعة من سوء الحظ في أماكن مختلفة، وفي النهاية هربوا، ولقد اقترفوا كثيراً من الجرائم التي لايمكن وصفها وبذلك استحقوا أن يعانوا بدورهم من الطغيان نفسه، ولم يظهروا احتراماً إلى الأشياء المقدسة، وعوضاً عن ذلك دمروا بظلم وطغيان معبد الرب، وقاتلوا الكهنة ورجال لاهوت الآخرين مثلما يفعل الكفار، فلقد هاجموا بعضهم حتى أثناء وقوفهم أمام المذابح، وقتلوا آخرين وهم يقرعون النواقيس ويدعون باسم الرب، ووصل مسرعاً إلى الكونت تسعة من رجال الدين مع بعضهم، وتقدموا وهم يبكون بشكوى حول خرق حرمة كنائسهم، وحول نهب الأشياء المقدسة، وأثارت مثل هذه الأخبار تعاطفاً كبيراً بين الناس العقلاء الذين يخشون الرب، ولذلك أرسل القادة منادياً إلى لى ساب يأمر الجيش كله بعدم انتهاك حرمة الأشياء المقدسة، لكن كان هناك نهابين طائشين في ذلك الحشد الكبير من الرعاع، ممن لم يقدموا أدنى اهتمام إلى أوامر الأعيان، لأن المرتزقة العامين ورجال العصابات الخارجين على القانون تدفقوا مثل ذئاب لافتراس الناس الذين كانوا يفترسون آخرين، فقد اندفعوا من دون ارتباط أو نظام مثل الطيور الجارحة، وجاءوا من مناطق نائية، وليس في أذهانهم سوى شيء واحد هو النهب، والقتل، أو أسر أي واحد صدف وقابلوه، وكان الأعيان، الذين توجب عليهم قيادة أفواج منفصلة وفق نظام موضوع للجيش،

كـانوا- إن لم أكـن مخطئاً- جـاهلين بممارسـة تطبيق الأنظمــة العسكرية المأخـوذ بها من قبل الرومان في المسـائل العسكرية، ولم يقـوموا بمعـالجة خصـومـات فرسـانهم بدقـة وإحكام كما يتـوجـب على القـادة أن يفعلوا، وبالمحصلة لطخوا جميعاً سمعتهم بجـرائم بشعة، حيث لم يظهروا احتراماً للمبـادىء، وباقترافهم لكل نوع من الشرور، عـرضوا للمخـاطر الجسـد والروح، ولذلك ظهروا منبوذين عند الرب والإنسان سواء.

ولقـد ذبحـوا كثيراً من الأسراب والقطعـان، وأكلوا اللحـوم نيئة، أو شبـه مطبوخـة من دون ملح أو خبز، وحـاولوا حمل الجلود إلى مناطقهم على كثير من العربات، ومع أن فصل الخريف ضمن وجود إمدادات من المؤن الكبيرة، وقدم خصب المنطقـة، بعد مدة طـويلة من السلام في ظل حاكم جيد، كميـات كبيرة من الحبوب والحيوانات، مع ذلك كله لم يكن هناك ما يكفي من الطباخين والخبازين لتلبية حاجات مثل تلك الحشود، وفي أثناء هيجان الحرب، انعدم توفر عـدد من الأشياء الأساسية للحياة، وهكذا تعرض الـ (Guiribecci) للإسهال الشديد، نتيجة للإهمال في أكل الأطعمة غير المطبوخـة، وبعد خرق حرمات الأبنيـة المكرسة، عانوا جميعـاً تقـريباً بمـوجب حكم عـادل من الرب من هذا المرض وأصيبـوا بوبائه، وقد خلفوا وراءهم ذيلاً من القاذروات، وكثير منهم كانوا بالكاد قادرين على جر أنفسهم وهم عائدين إلى الوطن، وأخيراً، وفي الأول من شهـر تشرين أول، وفي أثناء اقتحام قلعـة لى ساب، وقيـام الحامية ببـذل مقاومة عنيدة، في هذه الأثناء، أصيب الكونت غيوفري بضربة كبيرة من نشـابة في قـدمه اليمنى، وقـد تعلم قليـلاً من جـراحة القـدم الشـديدة، وكذلك بالنسبة لرجاله لم يدركوا مدى مأساة معاداة النورمان، والتحقت به زوجته في حوالي مساء ذلك اليوم، جـالبة معها آلافاً كثيرة من الجنود، لكن ذلك كله عبثـاً كان، لأنه مع صبـاح اليوم التالي، وبينما كـان سكان المنطقة يرتجفون رعباً، انسحب الأنجيفيون فجأة، وهم مصابون بالرعب

من الذين وقفوا أمامهم وهم في حالة خوف كبير، ولقد هربوا وهم ينهبون المنطقة كلها، دونما اكتراث فيما إذا كان المتعرض للنهب صديقاً أم عدواً، وعلم النورمان في وقت متأخر كثيراً بفرارهم، وأسفوا كثيراً لأنهم لم يطاردوهم، ولم يتعقبوهم حتى تخوم مقاطعتهم، وفقط قام انغيلرام أوف كورتومير Engelram of courtomer مع روبرت أوف ميدافي Medavy وعدد قليل من الفرسان الآخرين بإغلاق الطريق عند معبر الدون، وأسروا هناك عدداً كبيراً من الرجال والخيول والعربات المحملة بالخبز والخمرة، وجميع أنواع المون، كما أنهم طردوا حتى الموت وصدوا كثيراً من الأنجيفيين، الذين كانوا يحاولون النجاة من الموت، ويحاولون عبور النهر، حيث لم تكن هناك مخاضة، ولذلك غرقوا في أعماق الدون، أما بالنسبة للكونت الذي دخل إلى نورماندي على مهر مطهم، وهو يعطي مظاهر التهديد، فقد حمل إلى الوطن شاحباً وهو يئن، متمدداً على محفة، لكنه عانى أثناء التراجع من الأذى من رجاله ما هو أسوأ مما عاناه من الأعداء، لأنه في أحراش ميلفري Maleffre جرى قتل حاجب الكونت، وتم نهب أمتعته وثيابه الرسمية وكؤوس ثمينة.

—٢٧—

وفي الوقت الذي كان الأنجيفيون ينهبون فيه مقاطعة ليزوي- كما حكيت- وكانوا بوحشية يركضون مثل الكفار، ويقترفون جرائم بشعة من دون خوف من الرب، في تلك الأثناء كان روجر أوف كونشي ينهب ويدمر المنطقة من حوله في أسقفية إيفري، وكان يحرق ويقتل في كل مكان، وكان يساعده وليم أوف باسي ابن يوستاس، وروجر لى بيغوي Begue ، وكونت فردريك [بن بين أوف إيتامب]، وبذلك أبقوا الكونت واليران وجميع فرسان أوشي Ouche مشغولين، لايستطيعون الذهاب لتقديم مقاومة مسلحة للأنجيفيين، وقام روجر

بهجـــوم حـــاد على القلعـــة التي بناهـا كـــونت أوف ميـــولان في لى-كـروي-سينت-ليـوفـروي La croix-saint-leufroi للدفاع عن أراضيـه، لكنه أخفق في الاستيلاء عليهـا، ثم إنه قـام مع أتباعـه الجنود بخرق حـرمة الدير الذي كان رئيس الأسـاقفة أوين Ouen ، قد بناه منذ وقت طويـل، وكـرسـه على شرف الصليب المقـدس الذي رآه في السماء، ووضعه تحت أحكام نظام القديس ليوفروي، لكنه لم ينج طويلاً من العقـاب، فقـد أحـرق مسـاكن الرهبـان، وهاجم الكنيسـة، وحمل اللاجئين الذين كـانوا متخفين في داخـل الأبنيـة الديرية، واستـولى على أموال كل من الرهبان واللاجئين، لكن بعقـوبة من قضاء الرب العادل، فقد كل شيء بعد ذلك فـوراً، ففي الثالث من تشرين أول، الذي أعقب فـرار الأنجيفيين، لجأ روجـر بشكل غير متـوقع إلى الإفـراط والشطط، حيث عاث فساداً بمقاطعة فودرويل Vaudreuil ، التي كانت مقاطعة غنيـة، وبعـربدة وحشيـة ذبح، وأحـرق دون احترام أي شخص، وترك كثيراً من الناس مجرديـن، بعـدمـا استـولى هو والمتحـالفين معــه على ممتلكاتهم، وقد أحـرق كنيسة القديس ستيفن، وهي جريمـة عوقب من أجلهـا في ذلك اليـوم نفسه، فلدى عـودتهم في مسـاء يوم السبت، وهم برعـــونة يحملون أثقـالاً من المنهـــوبات مع كثير من الأسرى، خـــرج الكـونت واليران، وهنـري أوف لى بـوميري Pommeraye من غابة قـريبة مع خمسمائـة فـارس، وانتظر المعركـة، ومـواجهة الرتل المعـادي، وأبدى روجر الـذي كان شجاعـاً، وجريئاً جـداً، مقاومة بـاسلة، لكنها كانت مخفقـة، مع أنه كان معه عـدداً قليلاً من الفرسـان، لأنه كان بعث وليم أوف باسي، وروجر لى بيغوي أمـامه إلى أكويني Acquigny مع قواته والأسلاب والأسرى، وقد قهر بتفـوق العدد، ففقد اليوم، وأرغم بصحبـــة الكونت فـــردريك وروبرت بوارد Poard أوف بيليم على تحمل قسوة الأسر، وجلب سقـوطه غبطة إلى أعدائـه، وأماناً إلى شعب المنطقة هناك.

وخلال الوقت الذي كـان فيه فردريك أوف إيتامب مـرمياً في سجن زوجتـه، التي بحققهـا حمل لقب كـونت، ذهبـت إلى الملك لويس، وهي على طريق عودتها، ولكـونها كانت حامـلاً عانت من جـرح من ركوب الخيل، وماتت بعد ذلك بوقت قصير أثناء آلام الوضع.

كم هي متغيرة حظوظ هذه الحيـاة، تزول المسـارات الأرضيـة وتعبر بسرعــة وتختفي في لحظة من أمــام الذين تعقبــوها بشــوق، والمراتب الدنيوية، مثلها مثل الفقاعـات، تنفجر فجأة وتزول، مذلة ومحبطة الذين رغبوا في إمســاكها لأنفسهم، ووفق هذه الطريقة يسعى محبـو هذه الدنيا وراء أشيـاء فاسـدة، قـد فسدت أثنـاء محاولتهم الصعود إلى المرتفعـات المنزلقـــة للشرور، ويسقطون فجأة ليعــــودوا إلى التلطخ في الأعماق، وعندمـا مـع المصـاعب والمتـاعب يصلون إلى أعلى المراتـب ويتفـوهون بكلمات العنجهيـة الفــارغـة، يسقطون نحــو الأسفل في لحظة، تاركين للذين ما يزالون أحيـاء ويتنفسون، لا شيء سـوى الحكايات التحذيرية، التي يحكيهـا عنهـم القصـاص الفصحـاء في كثير من الأمــاكن، ويعلم الخالق القدير الفـانين، وهـم يساقـون نحو الوطن، الدرس بطرق كثيرة، من أجل صـالحهم، حتى لا يقـومـوا بإرسـاء آمالهم في بحـر هذا العـالم التـافه، أو أن يركـزوا قلوبهم على بهجته الزائلة، وعلى الجوائـز من أجل تدميرهم، وهنا كما قـال الرسـول:«لأن ليس لنـا هنا مـدينة باقيـة لكننا نطلب الواحدة المقبلة»[رسالة العبرانيين: ١٣/ ١٤].

—٢٨—

والآن سـوف أظهر، كيف أنه في السنة الكبيسـة، حـدث- بعد وفـاة الملـك هنـري- كثير مـن التغييرات على الأرض، وكيـف أن كثيراً مـن الأعيان من كل من رجال الدين، والأحوال المدنية، ومن الناس الوسط والوضيعين قد هلكوا.

فقد مات في تلك الآونة جيرارد، أسقف أوف أنغوليم، الذي كان رجلاً عالي التعليم، وصاحب سمعة عالية، ونفوذ كبير في مجلس الكرادلة في أيام البابوات: باسكال، وغيلاسيوس، وكاليستوس وهونوريوس، ومات أيضاً غي أوف إيتامب، أسقف لى مانس، فبعدما أسلم الروح خلفه بين Pain أوف سينت كاليس، ثم غيلبرت العالمي، أسقف لندن الذي مات في الآونة الأخيرة، وحل محله أنسلم، حفيد رئيس الأساقفة أنسلم، وراعي دير القديس إدموند الملك، ومات وليم رئيس أساقفة كانتربري، وانتخب هنري أخو الملك ستيفن مطراناً، لكن بما أنه بموجب القانون الشرعي يمكن للأسقف أن ينتقل من كرسيه إلى كنيسة أخرى بموجب سلطة البابا، عبر هنري أسقف وينكستر القنال أيام عيد الميلاد، وبعث أمامه رسلاً إلى البابا إنوسنت في بيزا، وأمضى هو نفسه الشتاء في نورماندي، وسمع من المدعين الباكين روايات تفجع القلب حول الجرائم الخبيثة التي اقترفت من قبل الخونة في السنة الكبيسة تلك، وأصغى إلى الشكاوى المرعبة حول الاضطراب في نورماندي، وكان قادراً على أن يرى بعينيه براهين واضحة حول هذه الأشياء: إحراق أبنية، بيوت بلاسقوف، وكنائس منتهكة الحرمة، وقرى مدمرة، فارغة من سكانها، والسكان وقد جردوا تماماً في قلب بلادهم، بما أنهم جردوا بكل قسوة من كل شيء امتلكوه، ونهبوا بوقاحة من قبل حكامهم، وكذلك من قبل الأجانب، ومازالوا يناضلون من دون حضور أو حماية حاكمهم القانوني حتى يشد من عزائمهم.

وهكذا فإن نورماندي كانت مهددة بويلات كانت حتى أسوأ من مختلف الأنواع، وفي أسقفية سيز كان التكفير الصادر عن الأسقف قد فرض على جميع بلاد وليم تالفاس، والترانيم الحلوة للطقوس المقدسة، التي تبعث الهدوء وتفرح قلوب المؤمنين، كانت صامتة، وجرى منع الرجال العلمانيين من دخول الكنائس لعبادة الرب، وأغلقت الأبواب،

وكانت الأجراس النحاسية صامتة، واهترأت أجساد الموتى من دون دفن، مما أخاف وأرعب جميع الذين رأوهم، ومنعت أفراح الزواج عن الذين رغبوا بالزواج، وزالت الفخامات كلها من احتفالات الكنيسة، وفي أسقفية إيفري أيضاً وخلال جميع أراضي روجر أوف توسني عمت محظورات مماثلة، وذلك في محاولة لإخافة السكان العصاة وإرغامهم على الخضوع، وتمدد روجر نفسه مثقلاً بالأغلال في السجن وهو يبكي ويندب عنته، فهو قد لعن من قبل الكنيسة لأعماله الآثمة، وأفاعيل العنف التي اقترفها برعونته عندما كان حراً، وكانت أرضه كلها واقعة تحت حرمان كنسي رهيب، وهكذا فإن الذين كانوا متمردين وثواراً ضد الإرادة اللاهوتية سوف يعانون من عقوبة مضاعفة، لكن يا للأسف لم تلن القلوب الحجرية للآخرين، وهم ينظرون إلى هذه الأشياء، ولم يقتنعوا في تقويم مقاصدهم الشريرة وإصلاحها.

—٢٩—

في عام ١١٣٧ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الخامسة عشرة، عانى العالم كله من جفاف عام، حيث كان هو الأسوأ في الذاكرة الحية، وجفت في كثير من الأماكن الجداول، وكذلك البرك، وخزانات المياه، وتوقفت حتى بعض الأنهار عن الجريان، وعانى الناس والحيوانات بشكل مخيف من العطش، وفي بعض الأماكن سافروا مسافة سبعة فراسخ بحثاً عن الماء، ومات بعضهم من الحرارة الشديدة أثناء حملهم الماء على ظهورهم عائدين لأنفسهم ولأسرهم.

—٣٠—

قدم الملك ستيفن إلى نورماندي في الأسبوع الثالث من آذار، ونزل في لى هوغي Hougue مع حاشية كبيرة، وفرح الشعب التعيس، بعدما عانى لعام كامل من التنكيل والإهمال، فرحاً عظيماً بأخبار وصوله.

وفي الوقت نفسه شعر وليم دوق بواتو بالندم بسبب المضار التي اقترفها مؤخراً في نورماندي، وهناك في الجمعة الحزينة، في التاسع من نيسان، تلقى القربان المقدس، ومات بتقوى أمام مذبح الرسول المبارك، وترك تعليمات، بأن تتزوج ابنته من لويس الشاب ملك فرنسا وجعل الملك نفسه الوريث لجميع أراضيه، وجرى فيها بعد تنفيذ رغباته.

وأثار بعض الأعيان النورمانديين الاضطراب للملك ستيفن، ولذلك دعا إليه فرنسيين وفلمنغيين ضدهم، وفي أيار كان هناك لقاء للملك ستيفن مع الملك لويس، حيث تسلم منه دوقية نورماندي كحق له، وأقسم على الصداقة معه، مثلما فعل أسلافه، وقد عاد في وضع أكثر قوة، فأقلع بحملة ضد العصاة المتمردين، وقام هو نفسه مع حلفائه وعساكر أسرته بحصار القلاع العائدة لرابل Rabel ، وهي: لبليبوني Lillebonne ، وفيلبر تشامبيلان Villers chambellan ، وميسيدون Mesidon ، واقتحمهم بالنار والسيف.

وغزا في ذلك الوقت غيوفري أوف آنجو نورماندي مع أربعمائة فارس، وسبب دماراً واسعاً، وقد عمل وكأنه القائد المأجور لدى زوجته، وشن من بداية أيار حرباً وحشية، وأوقف نفسه على تدمير هيمـــــوي Hiemois بالنار، ونهب وقتل، وقد أحرق بازوشي- أو- هـــولمي Bazoches-au-houlme ، التي كانت إحدى حصون روجر أوف مـــاوبري Mawbray وأحرق الكنائس وكل شيء، ومات بالنار ستة عشر إنساناً هناك، ووافق رهبان دايف Dives على أن يدفعوا مائة وعشرة ماركات فضية إلى كونت أوف آنجو من أجل حمايته، ولحفظ موطنهم من الدمار الكلي، وبالطريقة نفسها دفع رهبان فيكامب مائة مارك من أجل أرغينسي، وكانت في ذلك الوقت هناك شكوك بأن روبرت إيرل أوف غلوستر، وبعض الآخرين قد التحقوا بالعدو، لكن حامية كاين بقيت مخلصة بإصرار إلى الملك، وبما أنهم استمروا بالتمسك

بالقلعة، انسحب غيوفري ورجاله من غوي-بيرانغير Gue-beranger من دون إنجاز أي شيء، وكان وليم يبري متشوقاً ليشتبك برجاله مع الأنجيفيين في القتال، ولكن بما أن النورمان كانوا غير راغبين -صدوراً عن الحسد- بمنحهم دعماً مخلصاً، انسحب مع قواته، وأدار ظهره لحلفائه غير المخلصين، والتحق بالملك عبر السين.

والملك نفسه بعدما عقد صلحاً مع رابل ذهب إلى كونتية إيفري، وأطلق سراح روجر أوف كونشي، وأخرجه من السجن بعد مضي ستة أشهر على أسره، وفرض عليه شروطاً قاسية لمعاقبته على طيشه في خرق عهوده، وقد ربح إلى جانبه روترو كونت أوف مورتاني، وريشير أوف ليغلي، حفيده، بإعطائها كل شيء- بشرههما- طلباه بتشوق، وأعطى حصن مولين إلى الكونت، وبونمولين Bonmoulins إلى ريشير، وبعدما ضمن تأييدهما بهذه الطريقة، استخدمهما ضد أعدائه على حدود نورماندي، مقدراً بحكمة أنه بعمله تنازلات صغيرة للحفاظ على ما هو مهم كان أفضل من إمساك كل شيء، ومن ثم استحقاق حرمان التأييد من الأصدقاء، وقدر وليم أوف يبري تقديراً كبيراً مع الفلمنغيين الآخرين، واعتمد عليهم اعتماداً إستثنائياً، ولهذا السبب غضب أعيان نورماندي كثيراً، وبدهاء سحبوا تأييدهم للملك، وصدوراً عن الحسد للفلمنغيين حبكوا كل نوع من أنواع المؤامرات ضدهم، وكنتيجة لذلك عانت الكتلة العظمى من شعب البلاد من انفجار العنف في كل مكان، وسقط كثيرون تحت ضربات سيوف الأعداء، وإلى جانب هذا واجه آخرون الموت بطرق غير متوقعة.

ووصل في حزيران الملك ستيفن إلى ليزوي، وحشد جيشاً كبيراً مع العزم على حصار أرنغتان أو بعض القلاع الأخرى، حيث يمكنه أن يجد غيوفري أوف آنجو، الذي أمل أن يشتبك معه في قتال قريب، وكان أعيانه- على كل حال- معارضين لمعركة من هذا النوع، وبإصرار ثنوا

الملك عن القتال، وفي أثناء تلك الحملة تفجر خلاف شديد بين النورمان والفلمنغيين، فقتل رجال بعنف من على الجانبين، ونتيجة لهذا كان الجيش كله في حالة هياج، وغادر معظم القادة من دون أخذ إذن من الملك، ولحق بكل واحد منهم جنوده المتعلقين به، وعندما رأى الملك جيشه يتلاشى من دون قتال، غضب غضباً شديداً، وقام بمطاردة حامية للذين تخلوا عنه حتى بونت أودمير، وهناك أرغم هيوج أوف كورني، ووليم الشاب أوف وارني مع آخرين من الشباب المتكبرين على التوقف، وهدأهم بقدر ما استطاع بالتضرع إلى خوفهم وآمالهم، ولكن كان فوق طاقته إزالة الحسد من قلوب هؤلاء الرجال الدهاة، وبما أنه لأسباب كثيرة، حكم أنه لايمكنه الاعتماد عليهم، لم يغامر في قيادتهم عائداً إلى القتال، بل عمل وفق رأي أفضل كما اعتقد بعضهم، حيث وافق على هدنة عامين مع الأعداء، وعلى هذا، عاد في تموز- بنعمة من الرب- السلام إلى نورماندي، وعاد أفراد الشعب الذين كانوا بلادفاع، وكانوا متفرقين إلى بيوتهم، ومع أنها كانت مجردة تقريباً، تمتعوا لبعض الوقت بمعايير أكبر من الاطمئنان، بعد الفوضى المخيفة للاضطرابات.

## —٣١—

وفي الوقت نفسه، بعدما خدم وارين راعي دير سينت إيفرول الرب كراهب لمدة ثلاثة وأربعين عاماً، وبعدما وصل إلى الثالثة والستين من عمره، عمل نهاية سعيدة، ففي الخامس عشر من حزيران بعدما غنى باحترام القداس الصباحي، ودفن فارساً كان قد مات، حمل في اليوم نفسه إلى فراشه، فتمدد مريضاً بشكل جدي لمدة خمسة أيام، وسمع يومياً خلال مرضه القداس، ذلك هو نفسه كان قد أقامه بانتظام وهو كاهن لمدة ثلاثين عاماً، ولاحظ الآن أنه على وشك مغادرة الجسد، فرغب بتقوى بقربان الموت لمثل تلك الرحلة، وجعل نفسه جاهزاً للذهاب إلى بلاط ملك الحشود الأعلى، بوساطة اعتراف مع الدموع،

وصلاة مستمرة وتقية، ومسح أقصى بالزيت المقدس، وتسلم أيضاً جسد الرب الذي يعطي الخلاص، وأخيراً بعدما تمتن كثيراً بهذه القوى المعينة، غادر هذه الحياة في الحادي والعشرين من حزيران، وكان ذلك بعدما اكتمل فيه- كما يقال- كل ما جعله بطلاً مؤمناً بالمسيح، وإثر هذا قام بالوداع، وجاء هذا في العام الخامس عشر لحكمه، وعهد بنفسه وبأبنائه الروحيين إلى المولى الرب، ثم سقط نائماً.

وكان غيلبرت راعي دير سيز موجوداً في ذلك الحين، وأقام الطقس الأخير مع رهبان سينت إيفرول، الذين بكوا بانفعال من أجل أبيهم، وكذلك عندما عانت المقاطعة من عواصف البلاء، انتزع راعي الدير وارين بن روبرت وغيسلا Gisla من بيننا، ودفن في بيت الرهبان إلى جانب قبر الراعي أوسبيرن Osbern، وبعد موته اجتمع رهبان سينت إيفرول مع بعضهم وتباحثوا مع بعضهم بعضاً حول كيف يمكنهم منع أي إنقاص لحقوق وامتيازات ديرهم، ثم قاموا في اليوم الذي كانوا يحتفلون فيه بعيد القديس يوحنا المعمدان[ ٢٤ —حزيران ١١٣٧]، وعندما كانوا جالسين مع بعضهم في بيت الرهبان، وبعدما استعرضوا الأنظمة التي وضعها الأب المقدس بيندكت، وكذلك ما جاء في صكهم، الذي ثبته الدوق وليم- الملك فيما بعد- وبصحبته أساقفة وأعيان نورماندي، والامتيازات والأعراف القديمة للكنيسة، بعدما فعلوا هذا كله، انتخبوا بالإجماع رتشارد أوف ليستر، وكان راهباً حسن الثقافة، وتقياً، وبليغاً، ومتحلياً بكثير من الصفات الروحية الجيدة واللامعة، وكان هو نفسه غائباً في ذلك الحين، وما من واحد من أقربائه كان حاضراً بين الرهبان، وفي الحقيقة هو لم يكن لديه أدنى فكرة عن الحادثة، لأنه كان مشغولاً جداً بشؤون ريفية في انكلترا في خدمة الرهبان، وكان قد بعث إلى هناك من قبل الراعي منذ بعض الوقت، ولمدة ستة عشر شهراً مضت كان يرعى بيقظة أعمال الدير هناك، وقد

عرف الشعب الانكليزي وعرف لغته بشكل جيد، بسبب أنه كان كاهناً نظامياً لبلدة ليستر لحوالي ستة عشر عاماً، قبل أن يصبح راهباً محترفاً، وقد أمضى وقتاً طويلاً في بلاط روبرت كونت ميولان، حيث جرى قبوله ومشاركته في معظم مجالسه الاستشارية القريبة، وشارك بدور قيادي في الحكم على بعض القضايا، وفي تنفيذ بعض الأعمال بمثابة مستشاره القريب، ولدى تقدير الرهبان لهذه الأمور كلها، ولبراهين أخرى حول مقدرته وأنه كان مناسباً للإدارة، انتخبوه لإدارة كنيستهم كراعي دير، ووافق الملك ستيفن مع أعيانه على هذا الاختيار.

وبحكم أن رهبان القديس إيفرول كانوا مخلصين لأساتذتهم وحكامهم، وضعوا حجراً أبيض فوق ضريح وارين راعي الدير المبجل، وقمت أنا صدوراً عن الحب لمن كان رفيقي لبعض الوقت، وأبي فيما بعد بنظم هذه الأبيات حتى تحفر على هذه الحجرة:

عظام ورماد وارين راهب سينت إيفرول

تغطت لمدة أربعة وأربعين عاماً بهذه الحجرة

كمقاتل شجاع ضد المغريات الدنيوية

أشع بفضل نعمة الرب بأكثر الفضائل قيمة

جرى اختياره من القطيع من قبل إخوانه لفضائله

ليحكم وليعطي مساعدة خاصة لأتباعه

لمدة أربعة عشر عاماً تمجد كراعي مبجل

متعطشاً لأشياء أبدية وسط دمار اليوم الحالي

عندما عبر عشرون يوماً من حزيران، أبونا المحترم

غادر هذه الحياة بينما وقف خدمه يبكون

عل الرب الرحيم يمنحه نوراً في السماء العالية.

—٣٢—

في تموز وآب أحرق حرّ الصيف الناس الفانين، وقد استمر ذلك حتى الثالث عشر من إيلول وقامت أوبئة كثيرة بصرع الناس، وفي ذلك الوقت بعث الملك لويس خلف ابنه لويس فلوروس، وعهد به إلى ثيوبولد الكونت الملكي، وإلى قريبه رالف بيروني Peronne ، وأرسله إلى أكوتين مع جيش فرنسا ليتزوج من ابنة دوق أوف بواتو، وليضع الدوقية كلها تحت سيطرته كما رسم بذلك الدوق وليم.

ووقع في الوقت نفسه الملك لويس مريضاً في غابة إيفيلين Iveline بسبب حرّ الصيف الشديد، وازداد مرضه سوءاً، فلفظ أنفاسه في الرابع من آب، ومنح مدفناً ملكياً بين الملوك في كنيسة القديس دينس الـ Areopagite ، وفي يوم الأحد التالي جرى تتويج الطفل لويس في بواتو، وهكذا حصل على ملكية مملكة فرنسا ودوقية أكوتين، حيث ما من واحد من آبائه قد استحوذ عليهما قبله.

وفي نورماندي أفسد روجر لى بيغوي Begue غير المنضبط، السلام، فقاد الملك ستيفن جيشاً ضده، واستولى على قلعته غروسوفري Grossoeuvre في الافرسين Evrecin ، ونتيجة لذلك أرغمت العصابات المتمردة على عقد سلام مع الملك، وتمتعت المنطقة بالسلام لبعض الوقت بعد ظلم عظيم.

وبعد هذا دمر الملك قلعة غويتري Guitry في فكسين Vexin ، حيث كان هناك وكراً للصوص، مع نتيجة أن وليم أوف تشومونت Chaumont وابنه أوتموند Otmund ثارا ضد الملك، وعزما على شن حرب للانتقام لتدمير بيتيهما.

وفي الأفرانشين Avranchin حصن رتشارد سيلفانوس Silvanus وهي قلعة شديدة المناعة في سينت بويس، وذلك بعد وفاة الملك هنري، وجمع عصابات من جميع الجهات، وبعنف ذبح شعب الرب، وبعدما

أرخى العنان لوحشيته لمدة طويلة، تلقى فجأة ضربة صرعته من اليد المنتقمة والعادلة للرب، فقد حدث في أحد الأيام، عندما كان رجل العصابات سيلفانوس يطارد غنيمة، ألقت مجموعة من الجنود الفرسان من الحصون المجاورة النار في قرية سينت بويس، وعندما شاهد سيلفانوس الدخان صاعداً من قريته أدار عنان فرسه وركض عائداً مع رجاله، وكان راكباً أمام أصحابه، ولذلك كان أول من هاجم الأعداء، وأصيب في أثناء الاشتباك بسنان رمح واحد من الفرسان فهلك، وعند ذلك ركب فرسان الملك إلى القلعة ووجهوا الدعوة للحامية لتسليم القلعة إلى الملك، وعندما ترددوا بإطاعة الملك، علقوا جثة قائدهم الميت من دون دفن أمام الباب، حتى يراها الجميع، ولدى مشاهدة الحراس لمصيره المرعب، ارتعبوا وبكوا بالسر، وسلموا أنفسهم والقلعة إلى فرسان الملك، وقد دفنوا جسد الرجل الذي واجه موتاً عنيفاً، على الطريق خارج المقبرة.

وفي تلك الآونة تمرد البريتانيون تحت قيادة غيلدوين أوف دول Gil-duin of Dol الذي كان جاهزاً لكل تمرد، واجتاح مع رجاله ممتلكات دير القديس ميكائيل في خطر البحر، وكذلك على الأراضي المتاخمة لهم، واستولوا على أسلاب كثيرة، وألحقوا كثيراً من الآلام وأنزلوها بالناس الأبرياء، لكن بعدما لايحصى من الجرائم التي اقترفت ضد الفلاحين، ضرب القائد الشرير بانتقام رباني، وقد تفرقوا، ففي أحد الأيام عندما قاد غيلدوين المرعب مائة وأربعين فارساً وكتلة كبيرة من الجنود الرجالة للقيام بغارة، وبعدما استولى على كثير الأسلاب وأسر كثيراً من الناس، وانطلق عائداً منتصراً نحو موطنه، حبسوا جميعاً عند شاطىء البحر بوساطة تيار المد الصاعد، وفي الوقت نفسه، قام عشرون فارساً نورماندياً كانوا قد سمعوا صراخ الفلاحين البؤساء، بمطاردة رجال العصابات، وسمع غيلدوين بالصيحات من خلفه،

فاستـدار مع عشرة فرسان محميين فقـط بترستهم، للتصدي للمطاردين، غير أن النورمـان حملوا عليهم بتصميم، وأرغموهم على الاستـدارة على أعقـابهم، فطاردوهـم، وقتلوا غيلدوين قبل أن يمتلك الوقت للالتحـاق بأتباعـه الفرسان، ووقع رجـال العصابات باضطراب كبير، فتخلوا عن أسلابهم وهربوا لإعطاء الأخبار المرعبة إلى رجالهم.

وهكذا اضطربـت نورمـاندي غير السعيـدة بعـواصف من مختلف الأنواع، وجـرحت بسيـوف أبنائهـا أثناء قتلهم لبعضهم بعضـاً، وكـانت ممتلئة في كل مكان بأصـوات البكاء والنحيب من أجل الذين ذبحـوا من دون عـدد، وقد عـانت بصـورة مستمرة مـن مآسي مخيفـة، وظلت تخاف يومياً من الأسوأ، لأنها شـاهدت وهي تشعر بالحزن أن مرد ذلك إلى أنها كانت من دون حاكـم مؤثر، وفي وسط هذه الحوادث، سمع الملك ستيفن أخبـاراً عن قيـام ثورات بين الانكليـز، الأمـر الذي أرغمـه على العـودة سريعاً إلى انكلترا في أيام عيد الميلاد، آخذاً معه الكونت واليران، والإيرل روبرت، وتقريبـاً جميع الأعيان الآخـرين، وقبل أن يغادر عين وليم أوف رومير، وروجـر الفيـزكونـت مع آخرين كـرجـال عدالة في نورمـاندي، ووجههم بأن يحققوا ما أخفق هو نفسـه في تحقيقه، أي إيصال العدالة إلى السـاخطين، وضمان السـلام للسكان الضعفـاء، ولدى عـودته إلى انكلترا وجد المملكة في حـالة هياج، وقـد اكتشف بؤرة التآمـر الوحشي والخيانة الدمـويـة، فقـد قـام بعض صـانعي الاضطراب، بالتـآمـر مع بعضهم، وشجعـوا بعضهم بعضاً في شرورهم، حيث تآمـروا سراً، بأن يقتلوا جميع النورمـان في يوم محدد، وأن يسلمـوا حكـومـة المملكة إلى السكوتلنديين، وأفشي سر المؤامـــرة أولاً إلى نيغل Nigel أسقف إيلاي مـــن قبل المتآمـرين، وكشفها هو إلى أسـاقفة آخريـن وإلى بعض نبلاء المملكة، وإلى موظفي الرجال المعتمدين لدى الملك، ونتيجة لذلك تمّ الكشف عن كثير من المتآمرين، وعندما جرت البرهنة على إجرامهم، دفعوا عقوبة مثل هذه

الشرور وماتوا الموت الـذي استحقوه على المشانق، أو وفـق طرق أخرى، وهرب بعض الذين كانوا مـدركين لجريمتهم قبل الاتهام، وقد أدينوا من قبل ضمائرهم، فتخلوا عن جميع ثرواتهم ومراتبهم وذهبوا إلى المنفى، لكن الأكثر قـوة بين جميع المتمردين سلحوا أنفسهم وشحـذوا سيوفهم بطيش للمقـاومـة، ودخلوا في تحالف مع السكـوتلنديين والويلزيين، ومتمـردين آخرين وخونة، جالبين الدمار إلى الشعب.

—٣٣—

في ذلك الوقت وصل الحجـاج من المناطق الشرقية، ونشروا الأخبـار المرعبـة في الغـرب، مسببين حـزناً كبيراً للمــؤمنين الذين ألهمـوا بحب الرب وحب جيرانهم، فقـد حكوا أن بونز، كـونت طرابلس قد حـارب ضد المسلمين في ذلك العام، وأنه هو نفسه مع آخرين كثر قد سقطوا في القتـال مع المسلمين[ ٢٥—آذار ١١٣٧]، وتشجع بهذا الأمير زنكي— سلطان حلب— فحشـد قواته وقام في الخريف بغـزو مناطق الصليبيين مع جيش كبير من الأتراك، ولأنه كان مستعداً للقتال، تحدى الصليبيين، وبناء على هذه الأخبـار، أرسل فـولـك ملك القـدس رسـلاً إلى جميع مناطق مملكته يستدعي إلى القتـال جميع القادرين على حمل السلاح، وقاد حـوالي الستة آلاف رجل معـه إلى المعـركة، وتـرك النساء فقط ورجـال الدين الضعفاء للدفاع عن المدن، وأمـر جميع البقية بإلغاء جميع الأعذار، والذهاب إلى المعركة.

وفي الوقت المقــرر التقى الجيشـان والتحما، وقـاتـل كل منهما بحـدة، وسقطت آلاف لاتحصى من المسلمين، لكن بـإرادة الرب، الذي أحكامـه عـادلة وصحيحة، تبـددت وهلكت جميع قـوة الصليبيين، باستثناء ثلاثين فارساً لم يقتلوا، والملك وحده فقط قد نجـا مع عشرة من فرسان حاشيته وثمانيـة عشر فـارساً من الـداوية، وهربوا إلى قلعـة بنيت من قبل بلدوين الأول قـرب دمشق اسمهـا بارين[ رفنيـة = Mont-ferrand] حيث

قاوموا بإصرار، مع أنهم حوصروا لبعض الوقت، وسقط المتبقون جميعاً بالإيمان بالمسيح، وباستثناء القلة الذين ذكروا هنا، وتمكنوا من النجاة مع الملك، نجد أن زنكي، مع أنه خسر آلافاً من رجاله بسيوف الصليبيين، قد تشجع بنيله النصر الذي أمل به، لذلك طارد الفارين عن قرب، وحاصر القلعة، وضغط بشدة على البقية التي نجت من المعركة للالتجاء هناك، وقد استخدم مختلف الأساليب في الهجوم، وعانى المحاصرون من كثير من الشدائد، وضعفوا بشكل خاص بتهديد المجاعة، فبسبب انعدام الخبز أرغموا على أكل لحوم الخيول، وأطعمة أخرى غير نظيفة وغير معتاد عليها، وكان عددهم قليلاً جداً إلى حد أن الملك نفسه عمل بمثابة قهرمان، ووزع قطعاً من لحوم الكلاب والحمير بينهم.

وفي الوقت نفسه، حزن رالف أسقف القدس حزناً عميقاً بسبب أخبار المأساة، فصرف كثيراً من تفكيره لكيفية إمكانه تقديم المساعدة إلى الشهداء المحاصرين، فذهب أولاً إلى زيارة جميع النساك الأتقياء الذين أمضوا وقتهم بالتأمل، في داخل مدينة القدس، ورجاهم أن يصلوا بإلحاح مع سكان القدس الآخرين إلى الرب، الحافظ لجميع الأشياء، من أجل خلاص جميع الناس، وبعد ذلك أمر رجال الدين والعلمانيين بفعل الشيء نفسه، وقضى بعد ذلك بصيام ثلاثة أيام من قبل كل واحد، وفرض إنكار الذات ليس فقط على النساء، بل حتى على الأطفال والحيوانات، مثلما فعل أهل نينوى[ يونان: ٣/ ٧]، وبعدما جرى تنفيذ الصيام عن طواعية وبتقوى، انطلق البطريرك نحو ميناء البحر، ووجد هناك بإرادة الرب الشيء الذي رغب به كثيراً.

فقد شاهد عن بعد أربعة سفن مليئة بالرجال تقترب من الشاطىء، وأدرك من علامة صليب الخلاص التي شاهدها على ملابس الرجال، بأنهم كانوا صليبيين، وبغبطة انتظر رسوهم في الميناء، حيث حياهم باحترام عندما نزلوا من السفن، وبعدما رافقهم إلى مكان مفتوح، شرع

يتحـدث إليهم كما يلي:«مـؤكد أنكم مبـاركين ومحبـوبين من قبل الرب، وقد ظهـر هذا من قبله سلفاً بسرور بلاطه السماوي، وانتبهـوا واعلموا أنه إذا كـان الإيمان الخالص يتحــرق فيكم، كـونوا متأكــدين بأن هناك قضيـة تدعوكـم الآن إلى الاستشهاد، مثل الشهـادة تمامـاً التي ناضل في سبيلهـا وقاتل ضـد الشيطان وأتباعـه أبطال المسيح المقدسين: جـورج، وثيودور، وديمتريوس، وسيبـاستيان، فنالوا نصراً مجيـداً في صراع مرير، وتلقوا كمنتصرين التـاج الأبدي من ملك الحشود، وأنا أصلي أن يكون الحظ الجيــد نفســـه من نصيبكم، وأن تعطـى إليكم مكافأة ممـاثلة من الرب، أصغوا إليّ غزا زنكي العنيف مع جيش إسلامي أراضينا، وبعدما قتلوا جيش المسيح، هم يحاصرون الآن بشدة ملك القدس مع حفنة من الرجـال في إحـدى القـلاع، ويحاولون بكل وسيلة من الوسـائل إرغـام المحـاصريـن على الاستسـلام، ورجــالنا يقـومــون وهم واثقين بالرب بالنضال بشجـاعة للمقـاومة، ويدعون الأعمال الرائعـة للرب، ويأملون بأن التفريج سوف يصل حـالاً وسريعاً، وقد اختاروا بالحري أن يسيروا على طريق أصحـــابهم نحـو الموت باسم الـرب وآثروا ذلك على العيش والخضـوع بشكل مهين إلى الكفار، والآن إنكـم تعلمون الذي حـدث، وبما أنكم حكماء ورجالاً عقلاء، سوف تعلمون الذي أرغب به، والذي ينبغي فعله في مثل هذه الأوضاع.

وبعـد سماعهـم لهذه الكلمات عـرض جميع الرجــال بسرور أنفسهم للقتـال ضـد المسلمين، وكانـوا متشوقين للذهـاب ولمساعـدة إخـوانهم المحاصرين بجميـع قواهم، وقال البطريرك وهـو مسرور في قلبه:« نحن نعطي الشكـر للرب، إلى أدوناي القــــديـر، الذي هو سريـع في إعطاء المواسـاة لأتباعـه، ولذلك أحثكم الآن، أنتم الذين في سبيل حب الرب تركتم مـواطنكم، وتخليتم عن زوجاتكم المحبـوبات وعن ثرواتكم التي نلتمـوها بصعوبة، وسـافرتم إلى هنا خـلال كثير من المخاوف في البحـر

والبر، لتتبعوا مثل القديسين ولتحذوا حذوهم، ارفعوا أمامكم ترس الإيمان، وحافظوا بإصرار على معبد الرب، الذي جئتم من أجل زيارته من مسافة نائية، فالرب الذي جلب مساعدة سريعة إلى الناس الذين كانوا محاصرين في بيت أوليا من خلال امرأة، هو معكم، فبيد الأرملة يودث قطع رأس هيلوفيرنس المتجبر وسبب الفوضى بين الآشوريين، وكأب أغاث الشعب العطشان، وأعطاهم كل من النصر والأسلاب الثمينة، ومجدهم فوق الأمم من حولهم، ووعد على فم النبي أشعيا الحفظ للملك حزقيا، عندما وقع تحت الحصار في القدس، حيث أرسل في الليلة التالية ملاكاً ليحرق مائة وخمسة وثمانين ألفاً من الآشوريين، وجعل الملك سنحريب يفر فراراً مهيناً، وهو الملك الذي تفوه بالتجديف وأطلق تهديدات حادة.

فكروا في هذه الأشياء، وأشياء كثيرة مثلهم بين أعمال الرب، واذهبوا إلى القتال واثقين بقوة الرب»، وبمثل هذه التشجيعات النافعة عبأ البطريرك القوات الصليبية، وقاد رجالها بالسلاح لمواجهة عساكر الأتراك، ورأى بعض كشافة المسلمين الجيش الكبير وهو يزحف من البحر، فبادروا مسرعين لإخبار قائدهم، فأرسل على الفور رسلاً ذوي ألسنة مهذبة لمقابلتهم، ومن خلال أسئلتهم والتقصي عرف إلى أين كانوا ذاهبين، فله أجابوا:«نحن صليبيون، إن رغبتنا العظمى هي أن نستخدم أولاً كل قوانا لمساعدة إخواننا الذين سمعنا أنهم محاصرين من قبل المسلمين، وبالإضافة إلى ذلك أن ننتقم إلى الذين سقطوا في المعركة»، وعلى هذا كان الجواب الذي عمل هو أن يبقوا الآن هادئين، وأن يكونوا مستعدين للقتال في اليوم الثالث.

وفي الوقت نفسه دعا زنكي الداهية الملك فولك إلى التفاوض، وبين العروض الخادعة قال له:« إنني متعاطف كثيراً مع سموك، ولأنك ملك أنا راغب في الحفاظ عليك إذا اخترت ذلك، وإنني أعرف تماماً كيف

هو وضعك، وكم ضعيفة هي قواتك، فأنت وجميع المحاصرين معك على حافة المجاعة، وليس لديكم أمل بالتفريج من أية جهة من الجهات، ولذلك اعقد صلحاً معي، سلم القلعة لي وجميع الرجال الذين في داخلها، وأنا سوف أسمح لك بالمغادرة حراً»، فأجابه فولك:«بعيداً عني أن أخون إخواني، وأنا مقرر أن لا أفعل هذا مهما كانت الظروف، وأنا سوف أتحمل معهم حتى الموت، وبصبر سوف أنتظر نهاية المعاناة»، فقال له زنكي:« تشاور مع رجالك واتفقوا على السبيل المفيد لكم جميعاً، إنني سوف أحافظ عليك لأنك ملك، وتستحق أن تشرف، سلم القلعة، وجميع رجالنا الذين هم في حوذتك أسرى لديك، ولسوف تتسلم جميع رجالك الذين بأسرنا، ثم أقسم على هدنة، واذهب حراً مع جميع رجالك»، وبعدما أصغى فولك له، عاد إلى رجاله، وأعاد عليهم كل شيء قاله الطاغية، وسأل ما الذي ينبغي عمله في وضعهم المخيف، وقاموا وهم غير مدركين بوجود نجدة لهم قريبة منهم، بتقديم رأيهم بسرعة، فحثوه على وجوب تسليم الأتراك في عملية مبادلة مع الصليبيين، وأن قلعة بارين ينبغي أن تفتح أبوابها لجيش دمشق، لإنقاذ المحاصرين من خطر الموت، ومدينة القدس المقدسة التي تركت من دون دفاع خشية تعرضها لغزو المسلمين، وبعدما فكر الملك فولك، قبل رأي رجاله، وتعهد مقسماً على التصالح مع المسلمين حسبما طلبوا، وبعد تأدية الأيمان تسلم زنكي القلعة، وحفيده الذي أخذ أسيراً، ومن جانبه وفى بوعده، وسلم أسراه إلى الصليبيين، ثم قال الطاغية متفاخراً وساخراً لفولك:«أيها الملك لقد خدعت»، ثم أراه معسكر الصليبيين الذين جاءوا للتفريج عنه، لكن مع أن المؤمنين أسفوا لهذه الخدعة، لم يكن بالإمكان نقض الاتفاق، وبعدما جرى إعطاء أمان، التقى الملك والبطريرك مع المؤمنين من كل جهة واجتمعوا مع بعضهم، وطلبوا من الطاغية السماح لهم بدفن أجساد إخوانهم الذين سقطوا في القتال، فأعطى موافقته على الذي طلبوه، فبحثوا عن أجساد الذين قتلوا،

وبعناية دفنوا الذين وجدوهم مع التشريف، لكنهم لم يتمكنوا من سحب الخواتم الذهبية من أصابعهم عندما حاولوا أن يفعلوا ذلك، وعلى هذا حمد الأحياء بتقوى الرب الرحيم، وباحترام دفنوا شهداء المسيح، وهم ما يزالون يرتدون خواتمهم.

—٣٤—

بينما كان سكان القدس يعانون على أيدي المسلمين- كما وصفت- وريموند أمير أنطاكية مع فرسان شجعان آخرين- كانوا قد سمعوا بمحنة إخوانهم- كانوا يسيرون مسرعين لعونهم، كان جون امبراطور القسطنطينية قد حشد جيشاً كبيراً من جميع مناطق ممالكه الواسعة، وألقى الحصار على أنطاكية، عاصمة سورية، التي ادعى أنها جزء من امبراطوريته، وكان ريموند الذي حكم الإمارة آنذاك، هو ابن وليم دوق بواتو، وقد ذهب إلى الشرق بعد وفاة الملك هنري، وتزوج من ابنة بوهيموند الشاب، التي أعطيت له بالزواج من قبل قريبها فولك، وقد ادعى لنفسه جميع مساحة الإمارة في سورية كمنحة من الرب، وعندما كان يسير مسرعاً لمساعدة ملك القدس ضد المسلمين- كما رويت- وصلت إليه الأخبار، وهو على الطريق، بأن الامبراطور قد وصل لمحاصرة المدينة، فانزعج كثيراً واضطرب بسبب هذا التهديد المرعب، فعاد مع قواته الحليفة، بقدر ما أمكنه من سرعة، فلقد بادر مسرعاً للتفريج عن شعبه، ووصل إلى المدينة، واضطرب خائفاً أنه لن يكون قادراً على شق طريق لنفسه خلال الجيش المحاصر، لذلك بدأ مع رجاله يبحثون عن السبيل الذي عليهم الأخذ به، وقال له واحد من أتباعه- الذي كما أعتقد- أظهر فعلاً روحاً عالياً: «إنك على دراية تامة بأن الإغريق محترسين تماماً ويتفوقون على الشعوب الأخرى بفصاحتهم، لكن في المخاطرات الصعبة، تعوزهم الجرأة والشجاعة، وبناء عليه أيها الرفاق الفرسان الشجعان، والأبطال المجربين، إذا تنازلتم للأخذ

بنصيحتي، سلحوا أنفسكم بجرأة، وتسللوا بصمت وأنتم في السلاح- وكأنكم من القوات الامبراطورية- إلى أن تصلوا إلى خيمة الامبراطور، ارفعوا أصواتكم بشكل مخيف، وبجرأة أعلنوا عن أنفسكم»، ولدى سماعهم هذا تشجع كل واحد للقيام بالمغامرة الصعبة، ونفذوا اقتراحات الفارس النبيل والشجاع بكل التفاصيل تحت غطاء الظلام، ووصل الفرنجة إلى الخيمة الامبراطورية، وصرخوا بصوت مرتفع، وبدأوا يقاتلون الذين هاجموهم، وأصيب الجيش الامبراطوري بالدهشة حول أمنه، عندما سمع الصرخات العالية، ونداءات حرب الفرنجة من دون سابق إنذار، فارتعب تماماً، واضطرب، ولأنه كان من دون توجيه، هرب من الموقع، وتخلى الجنود عن كل شيء وهربوا لمسافة ثلاثة أميال، وكأن كل واحد منهم شاهد سيفاً يهدد رقبته، وبقي الدوق ريموند في مكانه عندما هرب الإغريق مع امبراطورهم، ولم يرغب بمطاردة مثل ذلك العدد الكبير مسافة أبعد، مع رجاله القلائل، بل استقر مكتفياً بنصره، ودخل إلى مدينته أنطاكية، جالباً معه سروراً عظيماً إلى السكان من خلال عطاء الرب، وعندما أشرقت الشمس خرج السكان من المدينة فوجدوا الأسلاب الثمينة في خيام الإغريق، التي استولوا عليها بحماس، وحملوها وأدخلوها إلى المدينة وسط مظاهر فرح كبيرة، وعندما توقف الامبراطور، الذي كان هارباً مع رجاله، توقف من الإنهاك، وهو مصاب بدوار وغضب، فسأل من الذي ألحق به الهزيمة، فشعر بالخجل عندما عرف وقاحة الأكوتينيين وبنجاح محاولتهم، قام مرة أخرى بحشد جيشه، ودعا الأمير ريموند إلى التفاوض، وقام اللورد الشجاع والنبيل، الذي كان قد أشار عليه من قبل بالقتال، قام بإقناع الدوق بعدم رفض مؤتمر التصالح، وقال إنه سوف يكون مشرفاً ونافعاً البحث في السلام الآن، فوافق وخرج إلى الاجتماع، حيث قال له الامبراطور:«إن مدينة أنطاكية جزء من امبراطورية القسطنطينية، وفي الحقيقة قدم الأمير بوهيموند الولاء إلى أبي وأقسم على ذلك، مثلما فعل القادة الغربيون

الآخـرون، بأنه سـوف يعيـد إلى الامبراطورية المقـدسـة، كل شيء قـام الأتراك بضمـه إليهم، وكـانوا قادرين على الاستيـلاء عليـه، ولذلك أنا أطلب الوعـد نفسه منـك أنت الذي تحكم الامبراطورية الآن، وأطالب بعـــودة هذه المدينة إلى امبراطـوريتنا، التي تحكمهـــا أنت مغتصبـــاً»، فأجـاب:«أنا لاأريد أن أتجادل معك حـول حقوق مـوروثة، أنا تسلمت هذه المدينة من ملك القـدس مع يد ابنة أميرها وأقسمت له قسم الولاء كسيد لي، ولذلك سـوف أضع حججكم أمامـه، وسوف أقبل من دون تحفظ أي شيء سـوف يقترحه، وأنا سـوف لن أدخل في أية مشـاورات حول هذا الموضوع من دون مصادقته».

وبعدما تكلم بهذه الطريقـة إلى الامبراطور، الذي اعتقد أنه من الحق احترام إخلاصـه إلى سيده، منحـه هدنة، بينما أرسل هو إلى الملك يسأله مـا هو الوجه القـانوني الذي عليـه عمله، وعندما وصل الرسـول الذي كلف بهذه المهمـة إلى الملك، الذي كـان مـريضـاً في ذلك الوقت، بحث القضيـة مع أقـرب الأصـدقاء إليـه وأجـاب:«نحن على دراية تامـة، كما علمنا في الماضي مـن شيـوخنـا، بأن أنطاكيـــة جـــزء من امبراطـورية القسطنطينية، وأنه جرى الاستيلاء عليهـا وانتزاعها من الامبراطور، من قبل الأتراك، وقـــد حكمت من قبلهم لمدة أربعـــة عشر عـامـاً، وجميع ادعاءات الأباطـرة حول معاهدات أسـلافنا صحيحة أيضـاً، فهل علينا نحن أن ننكر الحقيقـــة، ونعـــارض مـــا هو حـق؟ وأنا الآن لا أستطيع بطريقـة من الطرق مساعـدة قـريبي، خاصـة أنني الآن مصاب بمـرض خطير، وذلك نتيجـة للحـر، وللقلق، والمتاعب التـي تحملتها، والطعـام الفاسـد الذي اضطررت إلى أكله مؤخـراً، عندما من خـلال سوء الحظ حـوصرت في بارين، فأصبت بمرض قـاتل مثل بقية أصحـابي، ولذلك حيل بيني وبين مسـاعدة قـريبي في القتـال، والآن وقـد عرفت عـذرنا، اذهب وأخبر مـولاك عني، بأن عليـه عقـد صلح مع الامبراطور، وبناء على أوامـري أن يتسلم المدينة منه، وهو الذي هي عـائـدة إليـه بصـورة

شرعية، وبذلك يستحوذ عليها بحق، لأن الامبراطور هو مسيحي لديه قدرات كبيرة، فإذا ما احترم من قبل الفرنجة، يمكنه- إذا ما رغب بذلك- أن يساعدهم مساعدة كبيرة»، وعاد الرسل، وأوصلوا الرسالة بطريقة موائمة، وبناء عليه صادق الأميران على معاهدة للسلام، نافعة للحجاج وإلى جميع المؤمنين بالمسيح، ويعيشون في بلاد الإغريق وسورية، وهكذا صار ريموند من أتباع الامبراطور الإقطاعيين، وتسلم أنطاكية منه، ووعده الامبراطور أن يكون صديقه، وأن يزوده بالمساعدة ضد دمشق وضد جميع المسلمين، وبهذه الطريقة فإن الحرب التي تورطت فيها الإمارة لحوالي الأربعين عاماً، وكانت قد بدأت ونفذت واستمرت ضد ألكسيوس من قبل بوهيموند وخلفائه، مسببة وقوع أسرى، وقتلى، وكثيراً من الآلام لآلاف لاتعد ولاتحصى، جلبت الآن- بإرادة الرب- إلى نهاية تحت حكم الامبراطور جون، والأمير ريموند البواتي، مما منح البهجة لكثير من الناس من على الجانبين.

—٣٥—

في عام ١١٣٨ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الأولى، جرى تتويج لويس الشاب، ملك فرنسا، في بورجي Bourges ، في يوم عيد الميلاد، وعقد بلاطاً عظيماً، حضره نبلاء وأناس متوسطون من جميع أرجاء فرنسا، وأكوتين، ومناطق أخرى بجوارهم، وهناك اجتمع المطارنة الأساقفة، ومعاونوهم، والكونتات، مع رجال آخرين ذوي مراتب، اجتمعوا مع بعضهم، وقدموا خدماتهم للملك الجديد.

ومات بطرس آناليتوس، الذي اغتصب العرش البابوي لحوالي السبعة أعوام، فجأة، عندما كان جالساً على كرسيه الأسقفي في ٢٥ كانون الثاني، وقد قيل بأن جسده قد أخفي من قبل إخوانه، أبناء بطرس ليونيز، الذي امتلك سلطة كبيرة في مدينة روما، بطريقة ما من أحد يعرف أين دفن.

وكانت في الشهر التـالي هناك إشاعة كبيرة واسعة الانتشـار حول وفاة روجـر، دوق أوف أبوليـا، الذي رسمـه البـابا المنشق ملكاً على صقليـة، وبعدما أعطاه اختـه بالزواج، عمله أداة في تدمير شرائع الكنيسة، وعندما سمع الامبراطور لوثير أخبار وفاة روجـر بادر مسرعاً إلى أبوليا، وحاول أن يضعها تحت حكمه تماشياً مع العادة القديمة، وكرامة الرومان.

—٣٦—

عندما وصل الملك ستيفن إلى انكلترا، وعلم بمؤامرات بعض الناس ضـد الصـالح العـام للمملكة، قـام غـاضباً- لكـن ليس في الوقت المناسب- بحمل السـلاح ضد العصاة، وحـاصر بدفورد، ضـد نصيحة أخيه هنري أسقف وينكستر، وبعد صراع كبير، أنجز لاشيء، لأن أولاد روبرت أوف بوتشامب دافعـوا عن القلعة بشجاعة، ورفضـوا الخضوع للملك وفق أي شرط مـن الشروط، إلى أن وصل أخـوه الأسقف، ولم يكن بنيتهم الامتناع عن تقـديـم الطاعـة والخدمـة المستحقـة لسيـدهم، لكنهم وقد سمعـوا بأن الملك قد أعطى ابنة سيمـون بوتشامب بالزواج إلى هيوج لى بوير Poer ، مع مرتبة أبيها، خافوا أن يفقدوا ميراثهم كله، وأخذوا بنصيحـة الأصدقـاء بإظهار معـارضة شديـدة، وعلى كل حال، عندمـا وصل الأسقف بعـد مضي خمسة أسـابيع خضعـوا له، وبناء على نصيحته، التي حكموا بأنها لصالح منافعهم، وبمسـاعدته عقدوا صلحاً مع الملك، وسلموا القلعة.

وفي نورمـاندي أثار رينـالد أوف دنستـانفيل Dunstanville ، وهو ولد(غير شرعي) للملك هنـري، الاضطراب في كـوتنتين Cotentin ، وأيد الأنجيفيين، لأنه آثر قضيـة أختـه، وكـان إلى جـانبـه بلدوين أوف ردفيرRedvers ، وستيفن أوف مـانديفيل مع آخرين من أعـداء الملك ستيفن، غير أن روجر الفيزكونت وقف ضدهم بتصميم، وحمى المنطقة، وقاوم الحمـلات السيئة الإرشاد لأعدائـه بتميز، وظهر في البـداية كقوة

مرعبة لأعدائه، ولكن في مـدّ وجزر هذا العالم، ما من قوة تدوم طويلاً، فقد كـان منافسوه غيورين جـداً من نجاحه، فأعـدوا كميناً له، وتآمروا لتـدميره، فقـد بعثـوا مغيرين للاستيـلاء على بعض الأسـلاب في أحـد الأيام، في حين تخبأ بعض الفـرسان في كمين ينتظرون بتوتـر سفك دمه، وعندمـا ارتفـع الصراخ نهض روجـر ورجـاله، وتنـاولوا أسلحتهم، وانطلقـوا لمطاردة رجال العصـابات الآخـذين للأسـلاب، فقط ليقع في أيدي الرجال الذين جلسوا متخفين، وقفز هؤلاء من الكمين مثل أسود جـائعة، وقـاتلوهم من دون توقع وقطعـوا عنق روجـر، مظهرين عـدم الرحمة، مع أنه تضرع إليهم مـن أجل حيـاته، وعمل لهم وعـوداً كبيرة، وتركت المنطقة كلها مجردة بعد مقتل حاميها، وتركت عصابات النهابين سائبة لتفترس من دون رحمة شعب البلاد.

وفي كانون الثـاني احتل سيمون الأحمر ابن بلدوين حصن إيشـاتوفور Echauffour بإذن روبرت بن غيروي Giroie ، وبعدما جمع حوله عساكـر من الأعوان، بدأ بنهب أرض روبرت إيرل ليسيستر Leicester في أسقفية إيفـري، فقد كـان فارسـاً عظيم النشاط والفعـالية، وجـريئاً، وبارعاً، وكـريماً نحو أصحابه، مصمماً في الأماكن الصعبـة، ولذلك كان جـريئاً في المغامـرات الكأداء والصعبـة، وبعـدما شرع في نهب المنطقـة، انضم إليه أخـوه ريبولد Ribold في عمله الشرير، واستقبله في قلعته بونت-إيشـانفـري Pont-echanfray ، وثار وليم فـــريسنيل Fresnel وإخـوته الستـة، وألان أوف تاني Tannee ، وأرنولد قهـــرمــــــان إيرل[ليسيستر] وحامية قلعة غلوس-لى-أرغيلي والقرى هناك، واستولى مثل هذا الغضب المميت على الطـرفين، ودفع كل واحـد إلى درجـة من الفجـور، حتى أنهم لم يظهروا رحمة نحـو الأماكن المقـدسة، ولم يوفـروا رجل دين، أو فــلاح مسكين، أو أرملة، ولم يكبحـــوا أيديهم عن صنع الشرور، أو عقولهم عن التخطيط في الموسم المقدس للصيام الكبير.

وخـرقت هدنة العـامين التي كـان قـد تم الاتفـاق عليهـا بين الملك وغيـوفـري أوف آنجـو، في كثير من السبـل، واعتقل أعـوان الكونتسـة رالفـ أوف إيسون Esson ، الذي كان سيداً قوياً، اعتقلوه في الصوم الكبير، وسلموه إلى سيدتهم حتى يحفظ في القيود، وقد احتفظت به لمدة طويلة، ولم تطلق سراحه حتى سلمها قـلاعه، وعلى الجانب الآخر طارد انغلرام أوف ساي Engelram of sai مع آخرين من أتباع الملك من دون استرخـاء رينالد وبلدوين، خـارج قلعـة آيل-مـاري Isle-marie ، حيث اشتبكوا في قتال قريب معهما، وقد أسروا بلدوين مع آخرين كثر، وعندما كانت المعركة في ذروتها، ومازالت النتيجة معلقة، ومشكوك بها، قـام بعض من أقـرباء روجـر الفيزكـونت، بالتقـدير أن المكان والزمـان مناسبان للانتقـام، فاستلوا سيوفهم ضد رجالهم وقتلـوا عدداً من قتلته، وبهذه الطريقة كانوا مسؤولين عن النصر المجيد للفئة المضادة، تماماً مثلما قـــال الـرب:«كل الذيـن يأخـــذون السيـف بالسيف يهلكـون» (متى :٢٦/ ٥٢)، وهكذا فإن المتـآمرين الخونة الـذين ذبحوا روجـر بن نيغيل قبل وقت قصير، صرعـوا فقتلوا دون أن يتـوقعـوا من قبل أصدقـائـه، وسقطوا في وسط رجالهم.

وفي حـوالي ذلك الوقت نفسـه، أعطى ثيري، كـونت أوف فـلاندرز ابنته بالزواج إلى ابن الملك ستيفن، وترك دوقية فلاندرز كلها في يده، ثم حمل الصليب وذهب إلى القـدس، ثم إنه لدى عـودته[.....](١) الطفل الذي إليه زوج ابنته.

—٣٧—

عبر في أيار الكـونت واليران ووليـم أوف يبري إلى نورمـــــاندي، وحاولا أن يجلبا الفرج إلى المقـاطعة المضطربة كثيراً، وحملا أولاً السلاح

١— فراغ بالأصل تركـه المؤلف لعدم تأكده من المعلومات التي وردت إليـه، لأن يوستاس ابن الملك ستيفن خطب كونستانس أخت ملك فرنسا في عام ١١٤٠ .

ضد روجر أوف كونشي، لكن الزمان كـان قد تغير حيث وجداه فارساً محارباً، جـاهزاً لمقـاومتهما، ولذلك حولا غضبهما على شعـب المقاطعـة، ولجأ كلاهما إلى النهب، وعـاثا فساداً بالمنطقة حارقين وسـالبين، وحولا الناس الضعفـاء إلى العـوز بنهبهم كل ضروريات الحيـاة، وفي حـزيران دخل غيـوفـري أوف آنجـو إلى نـورمـاندي مع جيش قـوي، وجلب روبرت إيرل غلوستر إلى جانبـه بالالتماسات والوعـود، ومن خلاله نال الاستيلاء على بايو، وكاين مع عدد كبير جداً من حصون النورمان.

وفي انكلترا عندمـا علم عـدد كبير من الأسـاقفة وقـادة القـلاع، بأن الإيرل الذي كان قوياً جداً في المملكتين قد انضم إلى الأنجيفيين، كشفوا عن النوايا الشريرة التي رعوها بالسر وثاروا ضد الملك، وفي تموز أسف الكونت واليران ووليم أوف يبري لأن العـدو قد نال التقـدم من خلال الخيانة من الداخل، فسددوا ضربات كثيرة قـاسية نحو النورمان-الناس الذين كانوا من قبـل قد قهروا أعـداءهم الخارجين في البلدان الأجنبية- ودعـوا إلى مسـاعـدتهما رالف أوف بيروني مع مـائتي فـارس، وحشـدا حلفـائهما الآخـرين من جميـع الجهـات، وعـزمـوا على الزحف ضـد الأنجيفيين، لكن روبرت أوف كـورسي أرسل على الفـور رسـولاً إلى الكونت غيـوفـري، حيث كشف له خطة جماعتـه، ونصحـه بأن يغـادر نورماندي بأكبر سرعة ممكنة، وأن ينتظر إلى فرصة موائمة أكثر، وعندما تسلم الكونت هذه الأخبـار تراجع على الفور مع رجـاله وهو مستنفر، وبناء عليه شعرت القوة المحتشدة لأعـدائه بخيبة أمل شديدة بانسحاب الجيش المعادي، وعلى كل حال، حتى لايكونوا قـد حشدوا ألف فارس من دون غـاية، ولأنهم أرغمـوا على العـودة إلى الوطن دون أي عـرض للشجـاعة، زحفـوا إلى كاين، وعـاثوا فسـاداً في المنطقة هناك، وحـاولوا إغـراء الحامية واستـدراجها للخـروج من القلعـة، لكن الإيرل روبرت خاف من الحزبين من على الجانبين، فمكث بدهاء متخفياً مع مائة فارس

في داخل القلعـة، وفقط ركب أربعـون فـارسـاً وخـرجـوا من القلعـة، واشتبك هـؤلاء مع الأعـــداء في ممر ضيـق فـــوق الأورني Orne ، وحـارب الطرفـان بشدة متنـاهية، وفقـد اثنان من الفـرسـان الوسيمين حيـاتهما هنـاك، وهما: روبرت بيرتراند، وجــون أوف جـور Jors ، وجرح كثيرون من على الجانبين، وعلى هذا امتلـك كثير من الناس سبباً للبكاء لمصيرهما.

وتمتع روبرت إيرل غلـوستر، الذي كـان سبـب الاضطراب العظيم، بسلطة هائلة في انكلترا، مـن خـلال منح والده والملك هنري، وكـانت تحت إمـرته قـلاعـاً غنيـة وأتبـاعـاً محاربين، وكـان مسـؤولاً عن قلعـة غلوستر، وعن كـانتربري، وكان بين يديه ومتملكاً لحصـون: بريستول، وليد، ودودر القوية، وبالمحصلة ثار كثير من أتباعه ضد الملك، وتحركوا يدفعهم الغضب فخلقوا الفوضى في المناطق من حولهم، ودمروا المنطقة دماراً كاملاً.

واستـولى أولاً غيوفـري تالبـوت على بلدة هيرفـورد، وبعـدما حشـد حلفاءه غير الانضبـاطيين، ثار ضد الملك، واستحـوذ والشيلين مامينوت Walchelin maminot على دوفـر، وروبرت بن ألفـرد أوف لنكولن على قلعة ويرهام Wareham ، ومورغان الويلزي على أوسك Usk ، ووليم أوف موهون على دنستر Dunster ، ووليم بيفيريل الشاب على أربع قلاع هي: بورني Bourne ، وايليسمير Ellesmer ، وأوفرتون Overton ، ووتنغتون Whittington ، وقـام وهو متفاخـر بممتلكاته فـانضم إلى عصابة الثـوار، وكان رالف لوفل متملكاً أيضـاً لقلعة كـاري Cary ، وحصّن وليم فتزجون هاربترى Harptra ، وانضم بقواته إلى الثوار الآخرين، وأوقف نفسه على تدمير السلام في أراضيه، وعلاوة على ذلك، قـــدم ديفـــد ملك سكوتلنـدا إلى الأشرار مثيري الاضطراب في المملكة مـؤيداً الأنجيفيين، إما استجـابة لدعوة منحطة من الثـوار الذين

أثاروه ليعيث فساداً في بلادهم، أو بسبب اليمين الذي كان قد أداه- بناء على طلب الملك هنري- إلى ابنة أخته، وقد استولى على كارآيل Carlisl ، التي كانت بلدة حصينة جداً، والتي يقال بأن يوليوس قيصر قد أسسها، وحشد عصابة عنيفة من السكوتلنديين هناك، وقد غزا هؤلاء الناس انكلترا بوحشية متناهية، وشنوا الحرب ضد شعب الحدود، وأرخوا العنان لوحشيتهم تماماً، ومزقوهم بعنف ووحشية، ولم يوفروا أحداً، وقتلوا الشاب والشيخ سواء، لا بل حتى أنهم ذبحوا النساء الحوامل بوحشية وأفرغوا أحشاءهن بسيوفهم.

ومع هذا وجه الملك ستيفن سيفه الحاد ضد جميع هؤلاء المتمردين، وأرغم أعداءه على الخضوع، إما بوساطة الأعطيات والوعود، أو بقوة أذرعة جنوده، وعمل روبرت أوف تيربري Turbury ، الذي كان فارساً شجاعاً ومخلصاً إيرلاً لديربي، ورفع غيلبرت أوف كلير لأن يكون إيرلاً لأوف بيمبروك Pembroke ، وعمل من خلالهما على مصالحة والشلين مامينوت، ولوفل مع آخرين كانوا أصدقاء لهم أو جيراناً، لكن الملك المتجبر كان ممتلئاً بالغضب ضد كثيرين من الثوار، كما قلت، وحاول الاستيلاء على قلاع أعدائه بإرسال ثلاث وحدات مقاتلة، وقام بنفسه قبل الجميع بمحاصرة هيرفورد، التي هي بلدة قائمة على نهر واي Wye الذي يفصل الويلزيين عن الانكليز، وبما أنه استقبل من قبل سكان المدينة وشعب المقاطعة بمثابة سيدهم الشرعي، فقد استولى على القلعة، وبعدما طرد غيوفري تالبوت، وفرّ برحمة الآخرين الذين كانوا في الداخل، وثانياً حاصرت الملكة دوفر مع قوة كبيرة من جهة البر، وبعثت رسالة إلى أصدقائها وأقربائها والمتعلقين بها في بولون Boulogne لمحاصرة العدو من جهة البحر، وبرهن أفراد شعب بولون على طاعتهم، فنفذوا أوامر سيدتهم، فأغلقوا الممر الضيق لمنع الحامية من تسلم المؤن، وفي الوقت نفسه أقنع روبرت أوف فيرير

Ferrers ، الذي جعله الملك إيرل ديربي- كما قلت- صهره والشلين لعقد سلام مع الملك، وأن يسلم قلعة دوفر له، وثالثا، حاصر غيلبرت أوف كليرليد، وأرغم الحامية على الاستسلام.

وقام وليم فتز ألان قسطلان شروبري وشريفها، والذي كان متزوجاً من ابنة أخت روبرت، إيرل غلوستر، فمال إلى حزبه، ومن ثم ثار ضد الملك، واحتفظ ببلدة شروبري ضده لحوالي الشهر، وأخيراً انهزم في آب أمام القوات الملكية وهرب، فاستولى الملك على القلعة في هجوم حاسم، ورفض آرنولف أوف هيسدين Hesdin ، الذي كان عم (خال) وليم الشاب، والذي كان فارساً جريئاً وعنيداً، رفض بعنجهية عروضاً متكررة للسلام تقدم بها الملك، وبالإضافة إلى هذا أقدم على التحدث عن الملك بازدراء، وبعناد أرغم آخرين رغبوا بالاستسلام، على الإصرار على الثورة، وعندما أخيراً تم الاستيلاء على القلعة، وقع هو بالأسر مع كثيرين آخرين، وجرى تسليمه إلى الملك الذي أهانه، وأقدم الملك، بسبب أن الناس المتمردين نظروا إلى لطفه باستخفاف، ولأن كثيراً من اللوردات تمنعوا عن القدوم إلى بلاطه عندما دعاهم، أقدم على أمر وهو غاضب بوجوب شنق آرنولف وحوالي الثلاثة وتسعين رجلاً آخر تحدوه، أو بإعدامهم بأية طريقة أخرى من دون تأخير، وقام أرنولف الذي تاب متأخراً كثيراً، وقام معه آخرون، فتوسلوا إلى الملك أن يوفر لهم حياتهم، ووعدوا بدفع مبالغ كبيرة من المال من أجل خلاصهم، لكن الملك آثر الانتقام للجرائم التي اقترفوها وفضلها على أي وزن من الذهب، وجرى إعدامهم على الفور، وعندما سمع الطائشون المتورطون بقسوة الملك، ارتعبوا تماماً، وخلال ثلاثة أيام وصلوا إلى عند الملك وهم يرتجفون، وتقدموا بمختلف الأعذار على تجاوزاتهم، وجلب بعضهم مفاتيح قلاعهم، ورجوا الملك أن يقبل ولاءهم، وبعدما جرى إخضاع التمردات الخيانية إلى حد ما، تشجع محبوا السلام كثيراً.

وفي الأسبوع نفسه ابتسم الحظ الحسن أيضاً للملك ستيفن في جزء آخر من المملكة، فقد قاتل إيرل أوف أوميل وروجر أوف موبري ضد ملك اسكوتلندا، وطردوه من الميدان، قاتلين عدداً كبيراً من السكوتلنديين، وبذلك انتقموا للمذبحة الوحشية التي لحقت بالانكليز، دونما تقدير للإيمان المسيحي الذي أجرموا بحقه، وفي الحقيقة هرب السكوتلنديون من السيوف المهددة نحو المياه، واندفعوا إلى نهر التويد Tweed الواسع، حيث لم تكن هناك مخاضة، وعلى هذا مضى كثير منهم فوراً نحو موتهم بالغرق، وهم يحاولون النجاة من الموت.

وبعدما استمرت الحرب بين الملكين لمدة طويلة، وأوجدت فوضى مرعبة، وأحدثت مآسي كبيرة، أرسلت بعثة سلام بإرادة الرب، وشرعت تسافر ذهاباً وإياباً بين الملكين، اللذان كانا منهكين بسبب المذابح، والدمار، والقلق المتواصل، والمصاعب والشدائد، نجح الرسل في إعادة الوئام بينهما.

وآثر داود ابن ملك اسكوتلندا الاتفاق، لأنه أحب آديلينا Adelina ابنة وليم إيرل أوف سري Surrey ، وطلب يدها بالزواج، ولأنه ارتبط بمثل هذا الرباط الوشيج، كان بعواطفه كلها مؤثراً للتحالف مع النورمان والانكليز، لأنه رأى قوة حجج مستشاريه، بأن التحالف سوف يكون مصدر قوة لنفسه ولشعبه.

—٣٨—

في الوقت نفسه كان النورمان يمزقون بعضهم بعضاً إلى مزق في بلادهم، وجرى اقتراف الكثير من الأفاعيل الشريرة في كل مكان، ففي السابع من إيلول حشد روجر أوف توسني قوة كبيرة من الفرسان، وانطلق حتى ينتقم للأذى الذي أنزل عليه في الماضي أثناء اقتحام بريتويل، وكان معه كونت أوف هينولت بصحبة ثمانين فارساً، وبطرس أوف مولي مع أربعين، وسيمون الأحمر مع عشرين، مع وحدة قوية

جنّدها من أراضيه التابعـة له، ثم إن روجر وكان متشوقـاً للمشاجرة بما أنه كان معه قوة كبيرة، هاجم الحصن من دون سابق إنذار، وألقى النار في المكان، فألحق بالحاميـة أضراراً كبيرة جـداً، لأنها هوجمت وهي غير مستعدة، وكان الدارسون في ذلك الوقـت يدرسون الحصاد في الطرقات الواسعـة، وكـانت أكـوام كبيرة مـن القش والتبن ملقـاة مـوزعـة أمـام البيـوت، كما يحدث في الخريف، وجهـز هؤلاء طعـامـاً لطيفـاً وجـافـاً للنيران، وهكذا تحولت هذه المدينة الغنيـة جـداً إلى رمـاد بدقـائق، ويا للأسف حتى كنيسـة سولبـايس Sulpice الأسقف والمعترف قد أحرقت، مع حـزم ثمينة عائدة إلى البرجاسيـة، مع كثير من الناس كانوا في الداخل، وعندمـا شاهد فـرسان الحاميـة بأن العدو قد زحـف خلسة عليهم، وهربوا نحـو القلعة مع كثيرين آخـرين، لكنهم مـزقوا بسيـوف أعـدائهم، وفي العـام نفسـه عقـد صلح بين روجـر، والأخـوين الإيرلين:[روبرت أوف ليستر ووالبران أوف ميـولان]، وقـد رافقـاه إلى الملك ستيفن في انكلترا، الذي تصالح معه بناء على شروط مشرفة.

وفي الأول من تشرين الأول بـدأ غيـوفـري أوف آنجـو بحصـار فاليبس، وبعـدما دام الحصار ثمانية عشر يومـاً، بصراع من دون ثمرات، انسحب في اليـوم التـاسع عشر من دون أن يـربح شيئاً، ودافع رتشـارد أوف لوسي قـائـد الفرسـان من الداخل، عن القلعـة برجـولة مع عـون الحاميـة، ففي كل يوم كان يفتح الأبواب على مصراعيهـا، مظهراً جـرأة المحـاصرين حتى يسخر من المحـاصرين ويهزأ بهم، فبما أن الذين كـانوا بالداخل كانت لديهم كميـات وافرة من الأطعمة والسـلاح، فقد تحدى الأعـداء بسخرية للقتـال، وهم على كل حال نهبـوا المنطقة كلهـا هناك، واقتحمـوا الكنائـس وانتهكوا حـرمـاتها، ولـوثوا الأمـاكن المقـدسـة، واستولوا على الكؤوس المقـدسة والألبسة المكرسـة، من دون خوف من الرب، ولم يوفـروا أحـداً، ونهبـوا مقتنيـات الفقـراء، وكل شيء كـان

بإمكانهم إلقاء أيديهم عليه، وأخيراً نشر الرب الرعب بينهم، وهربوا أثناء الليل، وتركوا أثناء فرارهم الخيام مليئة بالأقمشة والأسلحة، والعربات محملة بالخبز والخمرة والمؤن الأخرى، مما شكل ربحاً كبيراً سبب سروراً عظيماً لسكان البلدة.

لكن بالحقيقة عاد كونت أوف آنجو بعد عشرة أيام بشكل غير متوقع، وعاث فساداً في المنطقة حول فاليس مع كثير من الفرسان، واسترد الأسلاب من الناس الذين كانوا على طريقهم إلى موطنهم أو الذين كانوا ساكنين في أمان متصور، وقد أحدث كثيراً من الدمار في نورماندي بالذبح والنهب، وحافظ على أفاعيله الوحشية من دون تراخي لمدة ثلاثة أسابيع، ووصل في بداية تشرين الثاني إلى توقوي Touques فوجد مدينة مزدهرة هناك، وكان هدفه مهاجمة القلعة المجاورة لبلدة بونيفيل في اليوم التالي، ثم وجد العدو بيوتاً واسعة كانت فارغة في بلدة توقوي، فاحتلها رجاله بانتصار طائش، وأعدوا ولائم فخمة لأنفسهم.

وفي الوقت نفسه، وفي بهيم الليل، عندما كان الأعداء مرتاحين آمنين في البيوت المحتلة، قام وليم تروسبات Trussebut قسطلان بونيفيل بعمل ماكر سريع حتى يمنع العدو من تنفيذ خططه الطائشة، فدعا إليه أهل المدينة، وحثهم بعاطفة للإقدام على أعمال جريئة كبيرة، وأرسل أطفالاً فقراء ونساء عاميات إلى توقوي، مع تعليمات دقيقة، رسمت بدقة متناهية، حول الذي عليهم فعله، فقد انتشروا بصورة سرية خلال البلدة، حسبما جرى توجيههم، وبجرأة أشعلوا النيران في [ستة وأربعين] مكاناً، في الجهات الأربع من البلدة، وهكذا فإن الأنجيفيين، الذين كانوا قد احتلوا البلدة، وجعلوا من سكانها سجناء في بيوتهم، إنهم عندما كانوا جالسين في كراسيهم، فجأة أوقظوا بالزئير المرتفع للنيران وبصراخ الحراس، فاستولى عليهم الرعب فهربوا، متخلين عن

أسلحتهم وخيولهم، وعن سلع أخرى كثيرة، ووصل وليم تروسبات نفسه لمواجهة العدو، وهو شاكي السلاح مع رجاله، لكن كثافة الدخان منعت كل واحد منهم من رؤية أو معرفة بعضهم بعضاً، وأخيراً توقف الكونت وهو مشوش، في مقبرة، حيث جمع رجاله من حوله، وانتظر وهو مرتبك مرتعد ظهور الصباح، وعندما انقشع ضوء الفجر، هرب بأقصى سرعة أمكنته، فقد تعلم شيئاً حول جرأة النورمان، ووصل إلى أرجنتان، لكن من دون إهانة كبيرة، وارتجف أفراد شعب نورماندي الضعفاء، وبكوا، ولأنهم لم يكن لديهم من يحميهم، توجهوا بالدعاء يطلبون العون من القدير، فقد بدد قادتهم أوقاتهم في اقتراف أفاعيل الخيانة، والخصومات التي لاتعرف الهدوء، وبخداع وغش دعم كثيرون قضية العدو، وعوضاً على أن يدافعوا عن رعاياهم، سلبوهم، وعاملوهم بسوء وظلموهم بشكل بغيض.

وفي ذلك الوقت، جرى اختيار ثيوبولد، راعي دير بيك ليحكم الكنيسة المطرانية لكانتربري في انكلترا، وحل ليتارد Letard ، الذي كان راهباً جيداً، محله ليكون راعياً لدير بيك.

—٣٩—

في عام ١١٣٩ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثانية، عقد البابا أنوسنت الثاني مجمعاً كبيراً في روما في منتصف الصيام الكبير، وقد أمر حشداً كبيراً من الأساقفة بالالتزام بقوانين الآباء المقدسين من دون انتهاك، وقد جاء إلى المجمع المقدس، وقد احتشدوا من مناطق كثيرة، وقاموا بالرحلة المتعبة لهذه الغاية في موسم الشتاء، وفقط بعدما تحملوا نفقات ثقيلة شاهدوا أسوار روما، وشرح لهم البابا كثيراً من النصوص استخرجها من كتب مبكرة، وصنفها مع بعضها في سلسلة من المراسيم، لكن الشيطان الذي يسود بحرية فوق العالم كله صلّب قلوب الناس ضد قوانين الكنيسة، وهكذا كما هو واضح تماماً، هم لم يفعلوا شيئاً

لمساعدة المظلومين والضعفاء، لأنه تم تجاهلهم من قبل كل من الأمراء والأعيان، وكذلك من قبل رعاياهم من الناس.

وانطلق أودين، أسقف إيفري عائداً نحو انكلترا في أسبوع الفصح، ومات هناك في اليوم الثاني من تموز، وقد دفن في دير رهبان ميرتون Merton ، وكان قد ولد في بيسين Bessin ، وتابع دراسة الآداب، وحصل على براعة كبيرة في العلوم العقلية، وصنف بين أكثر الناس ثقافة في أيامه، وقد دخل في خدمة الملك هنري، ونال الحظوة على أنه واحد من كتابه الرئيسيين، وبعد هذا جرت ترقيته من بيعة الملك فتولى حكومة أسقفية إيفري لمدة أربعة وعشرين عاماً، يعلم رجال الدين، وأهل الأسقفية إطاعة شريعة الرب، وتعب في سبيل تقدم الكنيسة طقوسياً، وهو أيضاً أعاد كاملاً بناء كنيسة مريم المباركة، أم الرب التي أحرقت في أيامه، وجرى تعيين روترو بن هنري إيرل ووروريك Warwick ، رئيس شمامسة روان، لأسقفية إيفري، وتمت مباركته من قبل رئيس الأساقفة هيوج.

وفي العام نفسه مات- كما أعتقد- ثورستان، أخو أودين رئيس أساقفة يورك.

— ٤٠ —

في الوقت نفسه، كانت هناك سلسلة من الاضطرابات في انكلترا، تعرض فيها روجر أسقف سالسبري، الذي كان رجلاً صاحب ثروة كبيرة، وكان لديه أصدقاء أقوياء، وقلاعاً حصينة، حسبما كان يليق بواحد تمتع بالسلطة على جميع انكلترا طوال حياة الملك هنري، تعرض لكثير من عدم الثقة بين جميع أعيان المملكة، لأنه إرتيب به بخيانة ملكه ومولاه ستيفن، وبإعطاء التأييد لحزب الأنجيفيين، وكان مدعوماً بأقربائه والمتعاونين معه، خاصة ابنه، الذي كان مستشار الملك، وبحفيده

القوي- أسقف لنكولن وإيلاي، وتشجع هؤلاء الرجال العظام بعملية تكديس ثروة عظيمة من جميع الأنواع، فبدأ بطيش بظلم الأعيان من حولهم بمختلف الطرق، ولذلك قام عدد من الناس- وقد نخسوا بمثيرات وحشية- فشكلوا حلفاً ضدهم، وأمسكوا بفرصتهم المناسبة، فثاروا دفعة واحدة، وحاولوا أن يسددوا لهم بالعملة نفسها، من أجل الأضرار التي أنزلت، وهكذا أثار الأخوان: الكونت واليران، والإيرل روبرت مع آلان دينان، وعدد من الآخرين، خصاماً مع بطانة أسقف أكسفورد، وبعدما قتل عدد من الرجال من على الطرفين، أخذوا روجر والاسكندر أسرى، وقام أسقف إيلاي- على كل حال- الذي لم يكن قد وصل بعد إلى بلاط الملك، بل كان مقيماً في قرية خارج البلدة مع أعوانه، قام وقد سمع التقارير المزعجة، ومدركاً لجريمته، فذهب مسرعاً مباشرة ليستولي على قلعة ديفيزي Devizes ، التي كانت حصينة جداً، وقد احتل القلعة، بعدما دمر جميع المنطقة هناك بالنار، وقرر أن يقف ضد الملك مع جميع القوات التي يمكنه حشدها، وعندما سمع الملك بهذا، أرسل- وهو مغضب- الجيش أمامه ضد المكان، ووضع وليم أوف يابي في القيادة، وتعهد بكثير من التهديدات، بأن لايسمح للأسقف روجر بالطعام حتى يجري تسليم القلعة المعادية له، واعتقل أيضاً روجر لى بوير Poer ، ابن الأسقف وأمر به إلى المشنقة خارج الباب، على مشهد كامل من المتمردين، وحدث أن أمه، التي كانت خليلة الأسقف، كانت هي المتولية الدفاع عن القلعة الرئيسية، وأخيراً تحدث أسقف سالسبري،- بإذن من الملك- إلى حفيده، وكدس الملامات عليه، بسبب أنه عندما شاهد تفجر الاضطراب، لم يعد إلى أسقفيته، بل ذهب وهو غاضب إلى مكان عائد للآخرين، ثم بإحراقه الأرض من دون تقدير، حكم على آلاف كثيرة بالمجاعة، وفي أثناء تمسك الحفيد المتعجرف وأتباعه بعصيانهم بعناد، أمر الملك الغاضب بوجوب تعليق روجر لى بوير على المشنقة على الفور، وعلمت الأم

اليائسة بمحنة ابنها البائس، فقفزت تصرخ وهي مشغولة من أجله:« أنا التي ولدته، ولن يكون صحيحاً بالنسبة لي على الإطلاق أن أتسبب بدماره، وعوضاً عن ذلك أنا عليّ أن أبادل حياتي بحياته إذا كان ذلك ضرورياً»، ولذلك أرسلت على الفور رسولاً إلى الملك، وسلمته القلعة الحصينة التي بين يديها كفدية لأعدائه(★)، وبهذه الطريقة صار أسقف إيلاي ضعيفاً، فطلب هو والذين بقيوا معه نادمين الاستسلام، وأخيراً عندما تصالح الجميع، جرى استسلام القلعة إلى الملك، وعاد الأسقفان بسلام إلى أسقفيتهما، وليس بعد مدة طويلة مات الأسقف روجر، وأعلن عن أسقف إيلاي عدواً عاماً للبلاد كلها.

— ٤١ —

في الخريف، عبرت ماتيلدا كونتسة أوف آنجو إلى انكلترا مع أخيها روبرت أوف كاين، إيرل أوف غلوستر، وغي أوف سابل Sable ، وآخرين كثر، وبعدما استقبلت في أروندل Arondel ، سافرت بسلام- مع إذن الملك- إلى الحصون التي أيدت حزبها، وبحصولها على هذه الإجازة أظهر الملك نفسه إما ساذجاً كثيراً، أو أحمقاً كثيراً، ولابد للناس العقلاء من أن يأسفوا لعدم تقديره لكل من سلامته الشخصية، وأمن المملكة، فلقد كان بإمكانه بكل سهولة أن يخمد نيران الشر المخيف التي اشتعلت، لو أنه عمل بصفات رجل حكيم صاحب بصيرة، لو أنه قام على الفور بطرد الذئب ومنعه من الدخول إلى حظيرة الأغنام، ولو أنه بعد إنقاذ الأغنام، قطع صانعي الشر الأشرار، وهم مازالوا براعم، ولو أنه ضرب بسيف العدل، وفق طريقة أسلافه، واجتث القدرة الوبائية للذين رغبوا في الاغتصاب، والقتل، وتدمير بلادهم، وبذلك جلبوا الدمار وأنزلوه على رؤوسهم.

وفي تشرين الثاني، نزل روترو، كونت أوف مورتاني في ميناء الملك،

---

★ —كذا والقراءة الأفضل «أصدقائها».

وزحف ضد بونت-إيشانفري، لكن ما أن استسلم الفرسان الثمانية المأجورين، والذين كانوا يموتون جوعاً داخل القلعة، حتى احتل القلعة، وسمح للحامية البائسة بالمغادرة بسلام، وعهد بها إلى روجر الكونت الملكي، ثم بعد هذا جرى بسرعة طرد ريبولد، وسيمون الأحمر وأقرباء رالف الأحمر الآخرين، ففقدوا بضربة واحدة سيادة القلعة، التي ظلت بأيديهم حتى ذلك الوقت.

ورحب روبرت أوف كاين بأخته ماتيلدا في انكلترا، واحتفى بها تحت سقفه، وبعدما دعا الويلزيين إلى عونه، انتشر الاضطراب بالطول والعرض، فأكثر من عشرة آلاف رجل هائج(كما كانت تسميتهم) انفلتوا يسرحون ويمرحون عبر انكلترا كلها، وهم لم يوفروا لا أماكن مقدسة ولا رجال دين، بل كرسوا أنفسهم للسلب، والحرق، والقتل، وأنا لا يمكنني أن أروي بالتفصيل آلام كنيسة الرب، التي عانتها من أجل أبنائها الذين ذبحوا يومياً مثل الأغنام بسيوف الويلزيين.

—٤٢—

في عام ١١٤٠ لتجسيد ربنا، وفي العلامة الثالثة، دعا الملك ستيفن إلى اجتماع استشاري، وأعطى تقديراً جاداً لأوضاع المملكة، حيث بحث ذلك مع نبلائه، وعند ذلك تفجر خلاف بين الأعيان حول تعيين أسقف سالسبري، فقد رغب هنري أسقف وينكستر بتعيين حفيده هنري أوف سلي Sully ، وبما أن المعارضة كانت قوية ضده حتى يحصل على ما أراده، انسحب وهو حانق من بلاط الملك، واختار واليران كونت أوف ميولان فيليب أوف هاركورت Harcoort ، رئيس شمامسة إيفري، ولأسباب كثيرة كان الملك على استعداد للقبول بمرشحه، وقد أعطى- على كل حال- إلى هنري أوف سلي رعاية دير فيكامب، الذي كانت الحياة الرهبانية مزدهرة فيه تحت الرعاة الأربعة الماضين.

وعـاد في العـام نفسـه رتشـارد راعي دير سينت إيفـرول من المجمع الرومـاني، وأرغم بعـدد من المشـاكل الملحـة والمتنوعـة على العبـور إلى انكلترا بعـد وقت قصير من عيـد الميـلاد، وبسبب أنـه أنهك بالتعب والسفـر، وقع مـريضـاً بالحمـى في الصـوم الكبير، وبعـد أيام كثيرة من الآلام الكبيرة، أعدّ نفسـه تماماً بالاعتراف والصلاة، وبعـد عيد الفصح أعطى جرعة من قبل الأطباء، لكن الجرعـة تبرهن أنها قوية جداً، فغرق في حالة من غياب الوعي في السابع من أيار، وقد مات في الخامس عشر من أيار في العـام الثـالـث من حكمـه، وجـرى حمل جسـده إلى ثورني، ودفن من قبل دوم روبرت، راعي دير ثورني، أمـام المصلوب في كنيسـة القديس مـريم، وعندما تلقى رهبـان سينت-إيفرول الأخبـار، اجتمعوا مع بعضهم، وانتخبوا راعياً لهم رالف رئيس رهبان نيون، الذي كان قد مارس حياة جيدة كـراهب منذ مدة أربعين عاماً، وعبر الراهب المنتخب إلى انكلترا، وهو يحمل رسـائل مـن هيـوج رئيس أسـاقفـة روان، ومن جـون أسقف ليزوي تؤكـد انتخابـه بالإجماع من قبل الرهبان، وعندمـا رأى الملك ستيفن رسـائل الأسقفين منحـه رعـاية الديـر، وأكـد تملكه للسلطات الزمنيـة، ولدى عـودة راعي الدير من انكلترا، أخـذ رسـائل الملك إلى الأسقف جـون، وبعـدمـا رُحب بـه من قبل الأسقف المبجل، بورك من قبله في السادس من تشرين ثاني.

—٤٣—

في العام ١١٤١ لتجسيد ربنا، وفي العلامـة الرابعة، بدأت ثورة جدية في مملكة انكلترا، وجلبـت فجأة تغييراً بـالحظ وكـــوارث إلى كثير من الناس، فقـد ثار رانولف إيرل أوف تشيستر، ووليم أوف رومير، أخـوه لأمه، ضد الملك ستيفن، واستولى خدعة على القلعة التي كانت بين يديه في لنكولن من أجل حمايـة المدينة، ووجـد بدهاء الوقت عندمـا كـانت قوات بطانة الحامية موزعة كثيراً، ثم إنه أرسل زوجاتهما أمامه إلى القلعة

بحجة زيارة صداقة، وعندما كانت الكونتستان تمضيان الوقت هناك، تضحكان وتتحدثان مع زوجة الفارس المفترض أنه كان يدافع عن القلعة، وصل إيرل تشيستر، وهو غير مسلح، ومن دون ردائه، وكأنه قدم لمرافقة زوجته إلى البيت، وتبعه ثلاثة فرسان، من دون أن يثيروا أية شكوك، وما أن أصبحوا داخل القلعة حتى التقطوا فجأة العتلات والأسلحة التي كانت ملقاة، وبعنف طردوا حراس الملك، ثم اندفع وليم مع قوة من فرسان مسلحين، تبعاً لخطة معدة من قبل، وبهذه الطريقة استولى الأخوان على القلعة وعلى المدينة كلها، وبناء عليه أرسل الأسقف الاسكندر مع سكان المدينة رسالة إلى الملك، الذي كان غاضباً غضباً شديداً لدى تلقيه لهذه الأخبار، واندهش من أصدقائه المقربين، الذين كدس عليهم الأراضي والمراتب، وعجب كيف أنهم اقترفوا مثل هذه الجريمة، وحشد بعد عيد الميلاد جيشاً وزحف مسرعاً إلى لنكولن، وأسر في إحدى الليالي من دون سابق إنذار وبالتعاون مع سكان المدينة حوالي السبعة عشر فارساً، كانوا متمركزين في البلدة، وكان الإيرلان في القلعة مع زوجتيهما وأصدقائهما المقربين، وارتعبا وباتا غير متأكدين من السبيل الذي عليهما سلوكه، عندما وجدا نفسيهما محاصرين فجأة.

وقام رانولف- علي كل حال- الذي كان الأصغر بين الاثنين، وكذلك الأعظم موارداً، وجرأة بالتسلل إلى خارج القلعة أثناء الليل مع عدد قليل من الرجال، وأخذ طريقه نحو تشيستر مع أتباعه الخاصين، وبعد هذا عرض قضيته أمام روبرت إيرل غلوستر مع أصدقاء آخرين وأقرباء، وأثار الولشيين وحرضهم مع الناس المحرومين من مواريثهم وآخرين كثر، للثورة ضد الملك، وجمع جنوداً من كل جانب للتفريج عن القوة المحاصرة، وكان أول من تقدم إليه بطلب المساعدة ماتيلدا كونتسة آنجو، وبإلحاح طلب منها المساعدة، ووعدها بتقديم الولاء لها، وقد نال حظوتها حسبما رغب.

وبعدما حشد قوة مسلحة كبيرة من الرجال المسلحين، وفق هذه الطريقة، زحف الإيرلان إلى الحصار، واستعدا للاشتباك بالقتال مع أي واحد يقاومهما، ومع ذلك كان الملك يتجاهل يومياً الأخبار التي كان يسمعها عن تقدم الأعداء، ولم يصدق أنهم كانوا قادرين على المخاطرة بمثل تلك المغامرة الكبيرة، بل أنشأ آلات حصار، واستعد للهجوم على القلعة، في حين أن الذين كانوا في داخلها كانوا يلتمسون الرحمة، وأخيراً في أحد الستين(الأحد الثاني قبل الصوم الكبير) وأثناء الاحتفال بعيد الطهارة المقدس، رأى الملك أفواج الأعداء فوقه تقريباً، وقتها دعا نبلاءه، وسألهم تقديم نصيحتهم حول ما ينبغي عمله، وبناء عليه نصحه بعضهم أن يضع قوة كبيرة من عساكر بطانته مع سكان المدينة المخلصين للدفاع عن المدينة، في حين ينسحب هو نفسه بشكل مشرف ليحشد جيشاً كبيراً من جميع أجزاء انكلترا، ومن ثم ليعود ثانية في ساعة موائمة، إذا ما تأخر الأعداء هناك حتى ينزل بهم هزيمة بتصميم ملكي، وأشار آخرون أنه ينبغي مراعاة العيد المقدس لطهارة مريم المباركة، أم الرب بالتبجيل، وأنه ينبغي تأجيل المعركة لبعض الوقت، وفي أثناء ذلك يتردد الرسل ذهاباً وإياباً لاقتراح عقد هدنة، وبذلك إنه بالحصول على التأخير لا يجري سفك دم إنساني ليتسبب بالبكاء العام، وعلى كل حال أدار الأمير الماكر أذناً صماء لنصيحة الرجال العقلاء، وحكم أنه أمر غير مشرف تأجيل المعركة لأي سبب من الأسباب، وعوضاً عن ذلك أمر رجاله بتسليح أنفسهم على الفور من أجل القتال، وهكذا التقت صفوف الرجال المسلحين قرب البلدة، وبعدما تمت تعبئة الأفواج من الجهتين وصفها اشتبكت بالقتال.

وقسم الملك جيشه إلى ثلاث وحدات، وفعل خصومة الشيء نفسه، حيث كان البريتانيون والفلمنغيين تحت إمرة وليم أوف يبري وألان أوف دينان، وكانا بالصف الأول من الجيش الملكي يقابلهما حشد

الـويلزيين الشرسين تحت قيـــــادة الأخـــــويـن ميردود Meredudd وكـــالـدوولدر Cadwaladr، وترجـل الملك نفســه مع عـــــدد من الآخـــرين، وقـاتل بتصميـم وهو واقف على قـدميـه من أجل حيــاته والحفاظ على مملكته، وفي مقـابله كان جيش الإيرل رانولف، وقد ترجل هو نفسه مع جنوده، وتلقى مساندة وحـدة عسكرية شجاعة من الجنود الرجـالـة من تشيستر للمشـاركـة في القتـال، وقــاد روبرت أيرل أوف غلوستر، الـذي كـــان هو الأعظم في الجيش[رجـــال بيسين Bessin] والناس الآخـريـن المحـرومين من أمـلاكهـم، ووجـه الضربة الأولى في المعركة حتى يسترد مواريث الأملاك التي يطالب بها.

وفي البـداية قـاتل الطرفـان بحـــدة مع كثير من الدمـاء المسفـوكـة، وتألف صف الملك بشكل أساسي من الفرسـان، غير أن الأعداء كانوا أكثر قوة، بسبب كثرة قـوات الرجالة لديهم مع الويلزيين، وفي الحقيقة كـــان وليـم أوف يبري مع الفلمنغيين، وألان مـع البريتـــانيين، أول المستديرين للفـرار، مما شجع الأعداء وترك حلفائهم في حـالة الوقوف على حافة الرعب.

وفي تلك المعـركة نشطت الخيـانة من دون حدود، فقـد التحق بعض الأعيان بالملك مع حفنة فقط من رجـالهم، وأرسلوا الكتلة الرئيسية من رجـالهم لضمان النصر لخصومهـم، وخانوا بهذه الطريقـة ميثـاق ولائهم ويمكن بحق إدانتهم كحانثين بالوعد وخونة، وقام الكونت واليران مع أخيــه ووليـم أوف وارني، وغيلبيرت أوف كلير، ونورمـــان آخـــرون محرومين من أمـــلاكهم، وفـرســان انكليـز، بالسماح للـرعب بالسيطرة عليهم، وذلك عندما شـاهدوا الفوج الأول في حالة الفرار، فقـاموا هم أنفسهم بـإدارة ظهـــورهم ولاذوا بالفـــرار، لكن بلـدوين أوف كلير، ورتشــارد فتـــز أورس Urse، وانغلرام أوف ســـــاي، وإيلبيرت أوف لاسي، وقفوا مخلصين إلى جانب الملك في المعركـة، وقاتلوا بشجاعة معه

حتى النهاية، وقاتل الملك ستيفن نفسه، وهو يتذكر الأعمال الشجاعة لآبائه المتقدمين، بشجاعة، واستمر يقاتل إلى أن بقي واقفاً إلى جانبه ثلاثة محاربين، وكان يقاتل بسيفه وبلطة هولندية أعطاه إياها رجل شاب، وأخيراً أصيب بالإنهاك، وتخلى الجميع عنه، فاستسلم إلى الإيرل روبرت قريبه، وأخذ أسيراً، وسلمه الإيرل بدوره إلى الكونتسة ماتيلدا، وذلك بعد وقت قصير، وهكذا بدوران دولاب الحظ المتقلب، أطيح بالملك من على العرش الملكي وسجن، سجن ويا للأسف تعيساً منهكاً في قلعة بريستول الجبارة، ووقع بالأسر أيضاً بلدوين أوف كلير والفرسان الآخرين المتميزين، الذين تحدثت عنهم بأنهم ترجلوا، وقاتلوا بصورة رائعة مع الملك.

وفي الليلة المتقدمة، عندما كان الشعب المسيحي ساهراً تشريفاً للعذراء الأم، وكانوا ينتظرون الاحتفال المسائي العام، الكنائسي، ثارت عاصفة مرعبة من البرد والمطر، وعمت جميع المناطق الغربية، يعني: غاليا وبريطانيا، وسمعت أصوات تصفيق الرعود، وهي مصحوبة ببرق شديد الإشعاع.

وفي اليوم نفسه، عندما كان الملك يستمع إلى القداس، وذلك قبل أن يذهب إلى القتال، وكان -كما أعتقد- مشغولاً بالخطط وأعمال العناية، في تلك الأثناء انكسرت شمعة التكريس بيده وسقطت ثلاث مرات، كما شهد ذلك كثير من الناس، وقد فسر هذا من قبل بعض الناس المتعلمين، على أنها شارة واضحة على سوء الحظ، وقد تحقق هذا في ذلك اليوم نفسه بهزيمة الملك، وجلب مصير الملك الأسف إلى رجال الدين والرهبان، والناس البسطاء، لأنه كان هو نفسه رجلاً متواضعاً ولطيفاً، وكان جيداً، وحليماً، ولو أن الأعيان الخونة تخلوا عن مؤامراتهم الشريرة، وتركوه بسلام، لكان كريماً وحامياً مفيداً لبلاده.

وعندما شاهد سكان لنكولن، الذين قدموا دوماً تأييداً كاملاً لمولاهم

الملك، كما هو صحيح، عندما شاهدوا أن النصر جاء من نصيب أعدائه، تخلوا عن زوجاتهم وعن جميع ممتلكاتهم وهم في حالة قنوط، وهربوا نحو النهر القريب، آملين بأن يجدوا الحفظ في المنفى، وعندما تقاطروا بأعداد كبيرة جداً على المراكب، وغصت المراكب بحمولتها الزائدة وبأعدادهم الكبيرة، حيث أنهم فقدوا قدرتهم على التماسك خوفاً من الموت، وكان الذين احتشدوا في آخر المراكب قد تراكموا فوق الذين كانوا في الواجهات، فانقلبت المراكب فجأة، وكل الذين كانوا فيهم تقريباً- وكانوا حسب التقديرات حوالي الخمسمائة من أعيان أهل المدينة- هلكوا، وكان هذا العدد أكبر من عدد جميع الذين سقطوا في المعركة، وقد قتل وليم، الذي كان القائد المشهور لجيش الملك، وهو الذي كان حفيداً لغيوفري رئيس أساقفة روان، ومن الآخرين- وفقاً لتقديرات الذين كانوا حاضرين- لم يفقد أكثر من مائة حياتهم.

ثم دخل الإيرل رانولف مع المنتصرين الآخرين إلى المدينة، ونهبوها مثل البرابرة، وذبحوا مثل ذبح الأغنام جميع بقية سكان المدينة ممن استطاعوا أن يجدوه أو يأسروه، فقد قتلوهم بطرق متنوعة من دون رحمة أو إنسانية، وبعدما انتهت المعركة، ووقع الملك بالأسر، كان هناك انقساماً كبيراً في مملكة انكلترا، لأن هنري أسقف وينكستر التحق على الفور بجانب الأنجيفيين، وبعدما رحب بالكونتسة في المدينة الملكية، تخلى تماماً عن أخيه الملك وعن جميع مؤيديه، لكن كونت واليران، ووليم أوف وارني، وسيمون[ أوف سينلي Senlis ، إيرل نورثهامبتون] وعدد كبير آخر، بقيوا مخلصين للملكة، وتعهدوا بأن يقاتلوا برجولة من أجل الملك وورثته، وهكذا انتشر الاضطراب في كل مكان، بالطول وبالعرض، وامتلأت انكلترا بالنهب، والحرق، والذبح، فالبلاد التي كانت من قبل غنية، ومليئة بأسباب الرفاه، باتت الآن تعيسة ومنعزلة مجردة.

—٤٤—

وعندما سمع غيوفري كونت أوف آنجو، بأن زوجته قد انتصرت في ذلك اليوم، جاء على الفور إلى نورماندي، وبعث رسلاً إلى الأعيان، وأمرهم- بموجب الحق- أن يسلموه قلاعهم، وأن يحافظوا على السلام، وبعد ذلك وعلى الفور في الصوم الكبير التالي، عمل روترو كونت أوف مورتاني سلاماً معه، وبذلك خرق الميثاق الذي كان قد تعهد به للملك، وقدم تأييده للأنجيفيين، وكان في الآونة الأخيرة قد حدث ما تسبب بغضبه من الملك، ذلك أنه كان قد طلب مساعدته في تحرير حفيده ريشير، لكنه لم يحصل على ما يرضيه من خلاله، فقد كان قد حدث في يوم أحد من إيلول، أثناء الاحتفال بعيد ميلاد مريم المباركة، انطلق ريشير أوف ليغلي بسلام نحو انكلترا، مع خمسين فارساً، وعندما وصل إلى بلدة لير Lire ، وكان راكباً غير مستعد للحرب، اعتقل فجأة من قبل روبرت أوف بيليم الذي كان متخفياً في كمين على طريقه، والذي معه كما كان من المعتقد كان يمتلك هدنة ثابتة، وأقام بعد ذلك في السجن في بريتويل لمدة ستة أشهر، وقام قاطع الطريق روبرت بتدمير أراضيه بكل طغيان، ونهب وأحرق من دون إثارة، وانزعج الكونت روترو عمه(خاله) كثيراً لهذا الفساد الكبير، فركز تفكيره على إنقاذ حفيده من السجن، وأراضيه من أعدائه، فواظب على الخروج مع رجال مسلحين للتجسس حول تحركات روبرت، وتمكن أخيراً في نهاية تشرين أول، بإرادة الرب، تمكن هو وقوة شديدة من إلحاق الهزيمة بالعصابات، فأسر روبرت مع أخيه موريس وكثيرين آخرين، وبقسوة سجنهم في زنزانة، كما استحقوا، وبذلك نال أمناً عظيماً للضعفاء من شعب البلاد.

وفي منتصف الصوم الكبير اجتمع نبلاء المنطقة في مورتاني، وتباحثوا مع بعضهم حول أحوال البلاد، وعندما كانوا مجتمعين هناك قام رئيس الأساقفة هيوج والنورمان بالاتصال بالكونت ثيوبولد، وعرضوا عليه

مملكة انكلترا ودوقية نورمانـدي، وبحكم أنه كان رجـلاً عـاقلاً وتقيـاً رفض القبـول بحمل مسؤوليـة مثل هذا الحمل الثقيل، وتخلى عن حقـه بالمملكة لصـالح غيوفـري صهـر الملك هنري، مشترطاً بعض الشروط، وكـانت هذه الشروط، وجـوب أن يسلمـه غيـوفـري مـدينة تور، التي كـانت إقطاعه، وأن يطلق سراح أخيـه الملك ستيفن ويحرره من قيـوده، وأن يعيد إليـه كاملاً دونما نقصـان ولورثته المرتبة الإقطاعيـة التي كانت بيده أيام حياة الملك هنري.

ثم عقد روبرت إيرل أوف ليستر معاهدة مع روترو، وبناء على طلب الكونتات الذين كانوا حاضرين أطلق سراح ريشير أوف ليغلي، وحصل أيضاً على هدنة مع الأنجيفيين، لنفسه ولأخيه واليران وذلك إلى أن يعود الأخير من انكلترا، وبالإضافـة إلى هذا قام أفراد حـامية فيرنويل والبلدة التي فيها حـوالي ثلاثة عشر ألف إنسان، كـانوا قد قاتلـوا بحدة من قبل من أجل الملك، وأطلقوا تهديدات رهيبـة، قاموا بالتفكير وتقـدير حقيقة أن الكثيرين الذين كانوا من قبل قد قاوموا الأنجيفيين، فشرعوا بالتنازل والقبول بهم، وبتلطيف عنادهم الماضي، وبعـدما سلمـوا قلعتهم اعترفوا بسيـادة الكونت غيـوفـري ومـاتيلدا، وقبل مضي وقت طويل قـام قـادة حامية قلعة نونانكورت Nonocourt بتقليدهم وعملوا مثلهم.

وقام الآن أيضاً جون، أسقف أوف ليـزوي، الذي كان قد وصل إلى سن متقـدم كثيراً، والذي امتلك تجارب كثيرة، ولأنه لم يعـد قـادراً على تحمل استمـرار الحرب ضد الأنجيفيين من دون أمل بالحصـول على أية مساعـدة، وخاصة عندما رأى أنهم قـد مددوا سلطانهم ووطدوه في كل مكان حتى نهر السين، وأنهم أخضعـوا كثيراً من المدن المجـاورة سلمياً تحت سلطانهم، أخـذ بنصيحة أصدقـائه، وعقـد سلامـاً مع الكونت في الأسبـوع الأخير من الصوم الكبير، وذلك قبل عيـد العنصرة، وفي أثناء عودته من كـاين إلى ليزوي وقع مريضاً مع الإنهاك والحر الشـديد جداً، وبعدمـا تمدد مريضـاً لمدة أسبوع مـات في الحادي والعشرين من أيار في

العام الثـاني والثلاثين لأسقفيته، ثـم اجتمع روترو أسقف أوف إيفري، ورالف راعي دير القديس إيفرول مع رعـاة الديرة الآخرين، لأسقفيته، اجتمعـــوا مـع بعضهم، ودفنوا جثمانه في بـازيليكا القـــديـس بطرس الرسول، أمام مذبح القديس ميكائيل في الجانب الشمالي من الكنيسة.

وفي ذلك الوقت، قـام لويس الشـاب، ملك فـرنســا بتكوين جيش قـوي، وانطلق في أيام عيـد القـديس يوحنا المعمـدان ليحـاصر طولوز، حيث كان متشوقاً لشن الحرب ضد الكونت ألفونسو بن ريموند.

—٤٥—

والآن وأنا بالحقيقـة قـد أنهكت بتقـــدم السن والضعف، أنا متشـوق لأصل بهذا الكتاب إلى النهاية، ومن الواضح أن هناك أسباباً جيدة كثيرة تحثني على أن أفعل ذلك، لأنني أنا الآن في السـابعـة والستين من حيـاتي وخـدمتي لمولاي يسوع المسيح، وفي الوقت الذي أشـاهد فيه أمـراء هذا العالم يقهرون بسوء الحظ وبكوارث الانتكاسات، أنا نفسي المتمتن بنعمة الرب، أتمتع بأمن الطاعة والفقـر، ففي هذه الساعة ستيفن ملك انكلترا، واهن بتعـاسة في الزنزانة، ولويس ملك فـرنسا يقـود حملة ضد القـوط، والغـاسكون، وهو مسكون بهمـوم لاتنقطع، والآن أيضـاً، إنه منذ وفـاة أسقف ليزوي، مـا يزال كرسيـه شاغراً، وأنـا لا أستطيع القول متى، أو بأي نوع من الأسـاقفـة ســوف يشغل، ومـاذا يمكنني أن أقـول أكثـر، ووسط مثل هذه الوقائع، أيها الرب القدير، إنني أتضرع إليك، وأرجوك بتــذلـل أن تشفق علي برحمتك، وإنـني أتقـــدم بالشكـر إليك أيها الملك العظيم، الذي بحـــريتك خلقتني، ورسمـت حيــاتي، ووفقـــاً لإرادتك الكريمة، لأنك أنت ملكي وربي، وأنا عبدك، وابن أمتك، وأنا واحد قد خـدمتك منذ بداية حيـاتي بقدر مـا استطعت، فقـد جرى تعميـدي يوم السبت المقـدس في أتشام Atcham ، وهي قريـــة في انكلترا واقعة على نهر سيفيرن Severn الكبير، فهناك جعلتني ألد ثانيـــة بالماء وبالروح القـدس على يـدي الكاهن أوردريك، وأنت منحتني اســم ذلك الكاهن

الذي كـان أبي بالعماد، وبعـد ذلك عندمـا كنت في الخامسـة من عمـري وضعت في المدرسة في شروبـري، وأنجزت أول واجباتي الكهنوتيـة لك في كنيسـة القـديسين بطرس وبولص الرسـولين، وهناك علمني سيـوارد Siward ، الذي كان كـاهناً لامعاً، الآداب لمدة خمسـة أعوام، ودربني ووجهني في المزامير، والتراتيل، والمعارف الأخـرى الضرورية، وبالوقت نفسـه أنت شرفت هذه الكنيسة على نهر مـولي Meole ، العائـــدة إلى أبي، وبنيت هناك ديراً مقـدساً من خـلال تقـوى الإيرل روجر، وكـانت إرادتك أن لا أخـدم أية مـدة أطول في ذلك المكان، وذلك خشيـة أن لا أضل بين أقـربائي، الذين غالبـاً ما كـانوا حملاً ثقيلاً ومعيقـاً لعبيدك، أو يمكن بطريقـة ما أن ينحـرفوا عن إطاعـة شريعتك من خلال التعـاطف الإنساني نحو أسرتي، وهكذا أيها الرب المجيد الذي أمر إبراهيم بمغادرة بلاده والابتعاد عن أقـربائه وعن بيت أبيـه، أنت ألهمت أبي أوديليريوس Odelerius بالتخلي عني تماماً، وأن يخضعني في كل شيء إلى حكمك، وهكذا أعطاني وهو يبكي، وأودعني وأنـا طفل أبكي تحت عناية رهبـان رينالد، وأرسلنـي بعيـداً إلى المنفى من أجل حبـك، ولم يرني ثانيـة، ولم أحاول - وأنا طفـل- أن أعارض رغبات والدي، بل أطعـت رغباته في كل شيء، لأنه وعـدني باسمك أنني إذا مـا أصبحت راهبـاً، فلسـوف أتذوق متعة غبطة الجنة مع الأبرياء بعد موتي، وهكذا بوساطة هذا العهد الذي صـار معقـوداً عن طواعيـة بيني وبينك، وبسبب مـا تكلم به أبي، هجـرت بلادي ،وذوي ،وأصدقـائي، وجميع الذين كـانوا معارفي، وقـد تمنوا لي الخير، وبدمـوع عهـدوا بي، بصلواتهم اللطيفـة، إليك، أيها الرب القدير، يا أدوناي، أنا أرجوك، تقبل صلوات هؤلاء الناس، أيها الرحيم، يارب السبت، امنحهم برحمة الذي سألوه من أجلي.

وهكذا، عبرت، وأنا طفل في العـاشرة القنال الانكليـزي، ووصلت إلى نورمانـدي كمنفي، غير معروف من الجميع، ولا أعـرف أحداً، مثل يوسف في مصر، وقـد سمعت لغة أنا لم أفهمهـا، لكن أنت جعلتني من خـلال نعمتك، أن لاأجد شيئاً سـوى اللطف، والصـداقة بين الغـرباء،

وقد استقبلت بمثابة راهب منذور في دير سينت إيفرول من قبل الراعي المبجل مينير Mainer وأنا في الحادية عشرة من عمري، وجرى حلق شعر رأسي ككاهن في يوم الأحد الحادي والعشرين من أيلول، وعوضاً عن اسمي الانكليزي، الذي بدا قاسياً بالنسبة للنورمان، منحت اسم فيتالي، صدوراً عن اسم واحد من رفاق القديس موريس الشهيد، الذي كان يحتفل بعيده في ذلك الوقت[٢٢—إيلول]، ولقد عشت كراهب في ذلك الدير بفضل حظوتك لمدة ستة وخمسين عاماً، وقد أحببت وشرفت من قبل جميع زملائي الرهبان وأصحابي أكثر مما استحققته، ولقد شرفت بين عبيدك في كرم نبيذك المختار، أتحمل الحر والبرد للأيام، وانتظرت عارفاً بأنني سوف أتسلم بنسك الذي وعدت به(١)، لأنك تحافظ على وعدك، وقد احترمت ستة رعاة كآبائي وسادتي، لأنهم كانوا نوابك، وهم: مينير، وسيرلو، وروجر، ووارين، ورتشارد ورالف، ولقد جرى تعيين هؤلاء الرجال جميعاً بشكل قانوني ليتولوا حكم دير القديس إيفرول، ولقد قادوا بعناية ويقظة الشؤون الداخلية والخارجية للدير، عارفين أن عليهم تقديم تقرير لي وإلى الآخرين، وبمساعدتك وتوجيهك جهزونا بكل حاجياتنا، وفي الخامس عشر من آذار، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وبناء على أمر سيرلو، الراعي المنتخب، وغيلبرت أسقف أوف ليزوي، رسمت نائب شماس، ثم بعد مضي عامين، في السادس والعشرين من آذار، وضع سيرلو أسقف سيز مقعد الشماسة على كتفي، وبسرور خدمتك كشماس لمدة خمسة عشر عاماً، وأخيراً عندما صرت في الثالثة والثلاثين، وضع وليم رئيس أساقفة روان حمل الكهانة على عاتقي في الحادي والعشرين من إيلول، وفي اليوم نفسه تولى مباركة مائتين وأربعة وأربعين شماساً، ومائة وعشرين كاهناً، معهم اقتربت باحترام من المذبح المقدس، وأنا ممتلىء بالروح القدس، وأنا الآن أمارس بإخلاص هذه الوظيفة المقدسة من أجلك بقلب مسرور، وذلك منذ أربعة وثلاثين عاماً.

---

١— انظر إنجيل متى ٢٠/١—١٦.

وهكذا يا مــولاي الرب، يا خـالقي، ويا معطيني الحيـاة، أنت بكرم وحـرية أضفيت عليّ أعطيـاتك مـن خـلال مختلف التنظيمات الرهبـانيـة، وبحكمك العادل قـد عينت أيامي كلها لخدمتك، في جميع الأمـاكن التي اقتدني إليهـا، فمنذ أيامي المبكرة تسببت في جعلي محبوباً مـن قبل عبيدك، ليس من خــلال فضـــائلي، بل من خــلال عطائك الكـريم، أيها الرب اللطيف، أنا أقــدم الشكر من أجـل جميع مــراحمك، وإنني أحمدك وأثني عليـك بقلبـي كلـه، وإنـي أتضرع وأنا أبكـي إلى رحمتـك بشـأن ذنـوبي الكثيرة، احفظني يا مولاي، ولا تتركني عرضة للدمار، انظر برحمة، وفقاً لجودك الذي لا ينفـد نحـو أعمال يدي، وسـامحني واغسل ذنوبي كلهـا، امنحني الإرادة حتى أتابع خدمتك، ولا تتخل عن تقويتي لأواجه شرور الشيطان المخـــــادع، وذلـك إلى أن أتسلم أعطيتـك في ميراث الخلاص السرمـدي، وهذه الأعطيات نفسهـا، أنا أسألها، أيها الرب الرحيم لنفسي الآن وفيها بعـد، وبتصميم أنا أرغب بذلك وأتمناه لأصـدقـائي وللنافعين لي، وأسعى للحصـول عليه من أجل جميع شعبك المؤمن وفقـاً لحكمتك، وبما أننا غير قـادرين- بفضائلنا الـذاتية- على الحصـول على غبطة أبدية، التي عليهـا تتركز رغبـات الكاملين، امنح أيها المولى الرب، ويا أيها الأب الرحيم، ويا خــالق الملائكة وحـاكمهم، أمـلاً حقيقيـاً بـالغبطة الدائمـة للمستقيم، وأن نتسلم العـون بحضرتك من خـلال وساطة الأم العـذراء المباركة مـريم، وجميع القديسين، وبنعمة مولانا يسـوع المسيح، أنقذ جميع الناس، الذين يعيشــون، ويحكمـون معك، بالاتحاد مـع الروح القـدس، وامنحهم يا رب عالماً من دون نهاية.

**آمــين**

**هنا نهاية حياة فيتالي، الذي كتب هذا الكتاب**

# محتوى التاريخ الكنسي